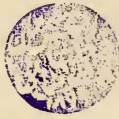






مُقَدِّمَةٌ



العلامة ابن خلدون

كتاب قد حوى دَرر المعاني وجر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لها تيك المباني فان البحر كل الدر فيه

طُبعت برخصة مجلس معارف ولاية سوريا الجليلة

بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٧٩

وطُبعت ثانية سنة ١٨٨٦

ثم طُبعت الثالثة بالشكل الكامل سنة ١٩٠٠

الجزء الاول

من

كتاب العبوديون المبتدا والخبر

في

ايام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن ابن خلدون

المغربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْغَنِيِّ بِطُفْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ خَلْدُونَ
الْحَضَرِيِّ وَفَقَّهُ اللَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ * وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ * وَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى وَالنُّعُوتُ * أَلْعَالِمُ فَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ * أَلْقَادِرُ
فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ * أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسَمًا * وَاسْتَعْمَرَنَا
فِيهَا أَجْبَالًا * وَأَمَمَّا وَبَسَّرْنَا مِنْهَا أَرْزَاقًا * وَوَسَمَّا * تَكْدِفُنَا الْأَرْحَامُ وَالْبَيُوتُ * وَيَكْفُلُنَا
أَلْزَقُ وَالْقُوتُ * وَوَبَلِّغْنَا الْأَيَّامَ وَالْوُقُوتُ * وَتَعَوَّرْنَا الْأَجَالَ الَّذِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْفُوتُ
وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثَّبُوتُ * وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ * وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ * الَّذِي تَخَصَّصَ لِفَصَالِهِ
الْكُتُوبُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْأَحَادُ وَالسُّبُوتُ * وَيَتَبَايَنَ زُحُلُ وَالْيَهُودُ ^(١) * وَعَلَى الْإِلَهِ وَالْوَاحِدِ
الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ الْأَثَرُ الْبَعِيدُ وَالصِّتُ * وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مَظَاهِرَتِهِ وَلِعَدْوِهِ
الْشَّمْلُ الشَّيْءُ * صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا أَتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمَنْجُوتُ * وَأَنْتَقَطَعَ
بِالْكُفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ * وَسَلَّمْ كَثِيرًا

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَرْقَ التَّارِيخِ مِنَ الْفُزُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُ الْأُمَمُ وَالْأَجْبَالُ وَتُنْشَدُ إِلَيْهِ
الرَّكَائِبُ وَالرَّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّرُوقُ وَالْأَعْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ
وَالْأَقْيَالُ * وَتَنْسَاوِي فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِ

(١) قوله اليهود هر النون اي المحوت الذي على ظهره الارض السابعة ويسمى ايضا لوتيا كما في
الزهر وروح البيان في اللغة ومعلم ان يسه وبن زحل الذي هر في الفلك السابع بونا بعيدا وقال الشهاب
المفاتيح في حاشيته على البيضاوي اه في اول سورة نون اليهود بفتح المنة النحية وسكون الماء وما اشهر
من انه بالبلاء المرحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان فله نصر الهود بني اقره
المصحح الثاني

عَنِ الْأَيَّامِ وَالْدُّلُولِ * وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولِ * تَنُمُو فِيهَا الْأَقْوَالُ * وَتُضْرَبُ فِيهَا
 الْأَمْثَالُ * وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَضَبَهَا الْإِحْتِفَالُ * وَتُودِّي لَنَا شَأْنَ الْخَلْقَةِ كَيْفَ
 تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ * وَاتَّسَعَ لِلدُّلُولِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالْفَجَالُ * وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى
 بِهِمُ الْأَرْتَحَالُ * وَحَانَ مِنْهُمْ الزُّوَالُ * وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقُ * وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ
 وَمُبَارَكٌ بِهَا دَقِيقُ * وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوُقَائِعِ * وَأَسْبَابِهَا عَمِيقُ * فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ
 عَرِيقُ * وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدِّي عُلُوبَهَا وَخَلِيقُ * وَإِنْ فَحُولُ الْمَوَازِينِ فِي الْأَيْسَلَامِ قَدْ
 اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا * وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الدِّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا * وَخَلَطُوهَا
 الْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَابْتَدَعُوهَا * وَزَخَّافَ مِنَ الرَّوَايَاتِ الْمُضَعَّفَةِ
 لَفْظُوهَا وَوَضَعُوهَا * وَاقْتَفَى نِلَاكَ الْأَثَارِ الْمَكْشُورِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوهَا * وَأَدْوَهَا إِلَيْنَا كَمَا
 سَمِعُوهَا * وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوُقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يَرَاعُوهَا * وَلَا رَفَضُوا تَرْكَاتِ
 الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلُ * وَطَرَفُ الْإِنْفِصَاحِ فِي الْغَالِبِ كَبِيلُ * وَالْغُلَاطُ وَالْوَهْمُ
 نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلُ * وَالْقَلِيدُ عَرِيقُ فِي الْأَدَمِيِّينَ وَسَائِلُ * وَالطُّفُلُ عَلَى الْفَنَنِ
 عَرِضٌ طَوِيلُ * وَمَرَعَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَنَحِيمٌ وَبِيلُ * وَالْحَقُّ لَا يَقَاوِمُ سُلْطَانَهُ * وَالْبَاطِلُ
 يُقْذَفُ بِشِمَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ * وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يَدْلِي وَيَنْقُلُ * وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ
 إِذَا تَمَقَّلَ * وَالْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَصْفُلُ

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَاسْتَرْوُوا * وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالْدُّلُولِ فِي
 الْعَالَمِ وَسَطَّرُوا * وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالْإِمَامَةِ الْمُعْتَبَرَةِ * وَاسْتَفْرَعُوا دَوَاوِينَ
 مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ الْمُتَأَخَّرَةِ * هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ * وَلَا
 حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ * مِثْلُ أَيْنَ إِنِشْقَاقِ الطَّيْرِ وَأَيْنَ الْمَكَايِي رَحْمَدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ
 وَسَيْفِ بْنِ عَمْرِو الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ * الَّتِي تُمَيِّزُ عَنْ الْجَاهِلِينَ * وَإِنْ كَانَ
 فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ مِنَ الدَّعَاوِي وَالْمَعْمُورِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثْبَاتِ *
 وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَنَظَلَةِ الثَّقَاتِ * إِلَّا أَنَّ الْمَكَايِفَ اخْتَصَرْتُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ * وَاقْتِفَاءِ
 سُلُوكِهِمْ فِي التَّصَنُّيفِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ * وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَسْطُاسُ نَفْسِهِ فِي تَرْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ
 أَوْ اعْتَبَرَهُمْ * فَلَا مَعْمُورَانَ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تُرْجِعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ * وَتَحْمِلُ عَلَيْهَا الرِّوَايَاتُ

وَأَلَا تَأْرُ * ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لَهُوَ لَاءَ عَامَّةُ الْمَنَاجِيحِ وَالْمَسَالِكِ * لِعُمُومِ الدَّوَلَتَيْنِ
 صَدْرَ الْأَسْلَامِ فِي الْأَفَاقِ وَالْمَمَالِكِ * وَتَنَاوُلَهَا الْبَعِيدِ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَاخِذِ وَالْمَتَارِكِ
 وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ * وَالْأَمْرِ الْعَمَمِ * كَالْمَسْعُودِي
 وَمَنْ نَحَا مَتَحَاهُ وَجَاءَ مِنْ نَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَفَتْ فِي الْعُمُومِ
 وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأَوِ الْبَعِيدِ * فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِه * وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ وَفُطْرِهِ *
 وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ * كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانٍ مُوَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالِدَوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
 بِهَا وَابْنُ الرَّفِيقِ مُوَرِّخُ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالِدَوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا مَقْلَدٌ * وَزَيْدُ الطَّنَجِ * وَالْعَمَلِيُّ أَوْ مُتَبَلِّدٌ * يَنْسَجُ عَلَى ذَلِكَ الْمَنُوَالِ * وَيَخْتَدِي
 مِنْهُ بِالْمِثَالِ * وَيَذْهَبُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ * وَاسْتَبَدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ
 وَالْأَجْيَالِ * فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ * وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأَوَّلِ * صَوْرًا
 قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا * وَصِنَاحًا أَنْتَضَيْتَ مِنْ أَعْمَادِهَا * وَمَعَارِفَ تُسَنِّكُ لِلْجَهْلِ
 بِطَارِفِهَا وَزَلَدِهَا * إِنَّمَا هِيَ حَرَائِثُ لَمْ تَعْلَمْ أَصُولُهَا * وَأَنْوَاعَ لَمْ تَعْتَبِرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ
 فُصُولُهَا * يُكْرَرُونَ فِي مَوَاضِعِهَا الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا * أَنْبَاءَ لِمَنْ عَنِ مِنْ
 الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا * وَيُغْنِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا * بِمَا أُعْزِزَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 تَرْجُمَانِهَا * فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا * ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوَلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا *
 مُحَاظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صَدَقًا * لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا * وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي
 رَفَعَ مِنْ رَأْيَتِهَا * وَأَوَّظَّهَا مِنْ أَيْتِهَا * وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا * فَيَبْقَى النَّاسُ مُتَطَلِّعًا بَعْدَ
 إِلَى ائْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِي الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا * مُعْتَشًا عَنْ أَسْبَابِ تَرَاخُفِهَا أَوْ تَعَاقُفِهَا *
 بَاحِثًا عَنِ الْمُتَغَيَّرِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُلِهَا * حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ
 ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْأَخْصَارِ * وَذَهَبُوا إِلَى الْأَكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْإِفْتِصَارِ *
 مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ * مَوْضِعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِعُرُوفِ الْعُبَارِ * كَمَا فَعَلَهُ
 ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ * وَمَنْ أَقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ مِنَ الْهَمَلِ * وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لَهُوَ لَاءَ
 مَقَالٌ * وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ائْتِقَالٌ * لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ * وَأَخْلَوْا بِالْمَتَاهِبِ
 الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ

وَلَمَّا طَالَتْ كُتُبُ الْقَوْمِ * وَسَبَرَتْ غُزُرُ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ * نَبَهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ

سَنَةِ الْغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ * وَسَمِيتُ التَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا الْمُفْلِسُ أَحْسَنُ السُّوْمِ * فَأَنْشَأْتُ
فِي التَّارِيخِ كِتَابًا * رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا * وَفَضَّلْتُ فِي
الْأَخْبَارِ وَالْأَعْيَانِ بَابًا بِأَبَا * وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَّةِ الدُّوَلِ وَالْعُمَرَاءِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا * وَبَنَيْتُهُ
عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَّرُوا الدَّغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ * وَمَلَأُوا أَكْنَافَ الضَّوَاهِي
مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ * وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الدُّلُوكِ
وَالْأَنْصَارِ * وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ * إِذْ هُمَا الْجِلْدَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْدَّغْرِبِ مَا وَاهُمَا
وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَخْقَابِ مَثْوَاهُمَا * حَتَّى لَا يَنْكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا * وَلَا يَعْرِفُ
أَهْلُهُ مِنَ أَجْيَالِ الْأَدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا * فَهَدَيْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْدِيَةً * وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ
وَالْخَاصَّةِ نَقْرِبًا * وَسَأَمَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيهِهِ مَسَلَكًا غَرِيبًا * وَأَخْتَرَعْتُ مِنْ بَيْتِ
الْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيبًا * وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأَسْلُوبًا * وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ وَالْمُعَدَّنِ
وَمَا يَعْزُضُ فِي الْأَجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِي مِنَ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَةِ مَا يَمْتَعِكُ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ
وَأَسْبَابِهَا * وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا * حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ *
وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَبَّتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ
الْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلْمَاعِ بِمَعَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ
الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْعُمَرَاءِ وَذِكْرُ مَا يَعْزُضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَةِ مِنَ
الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لَدَاكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ
الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَأِ خَلْقِهِ إِلَى هَذَا
الْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ الْإِلْمَاعِ بَعْضُ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ مِثْلُ النَّبِطِ
وَالسَّرِيَانِيِّينَ وَالْفُرسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقُبُطِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالْأَرْكَ وَالْأَفْرِجَةَ
الْكِتَابُ الثَّلَاثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَانَةٍ وَذِكْرُ أَوْلِيَّتِهِمْ وَأَحْيَالِهِمْ
وَمَا كَانَ بِدِيَارِ الدَّغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلُوكِ وَالْدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتْ الرِّحْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ
لِاجْتِمَاعِ أَنْوَارِهِ * وَفَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسَّنَةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ * وَالتَّوَفُّوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَائِبِهِ
وَأَسْمَافِهِ * فَزِدْتُ مَا تَقَصَّ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِلَالِكَ الدِّيَارِ * وَدَوْلِ التُّرْكِ فِيمَا
مَلَكَوهُ مِنَ الْأَقْفَارِ * وَاتَّبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ * وَادَّرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ
الدُّعَاصِرِينَ لِتِلْكَ الْأَجْيَالِ مِنْ أُمَّةِ النَّوَاحِي * وَمُلُوكِ الْأَمْصَارِ وَالضَّوَاهِي * سَالِكًا سَبِيلَ

الْإِخْتِصَارِ وَاللِّخْصِ * مُفْتَدِيًا بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَوِصِ * دَاخِلًا مِنْ بَابِ الْأَسْبَابِ
عَلَى الْعُمُومِ إِلَى الْإِخْبَارِ عَلَى الْخُصُوصِ فَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ الْخَلِيقَةِ اسْتِيعَابًا * وَذَلِكَ مِنْ
الْحِكْمِ النَّافِرَةِ صِعَابًا * وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوَلِ عَلَاءً وَأَسْبَابًا * فَأَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صَوَانًا *
وَلِلنَّارِ بَحْرًا

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبِ * مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ وَالْوَبْرِ * وَالْأَلَمَاعِ
بَيْنَ عَاصِرُهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبَرِ * وَأَفْصَحَ بِاللِّدِّ كَرَى وَالْعَبْرِ * فِي مُبْتَدَأِ الْأَحْوَالِ وَمَا
بَعْدَهَا مِنَ الْخَبْرِ * سَمِيَهُ كِتَابَ الْعَبْرِ * وَدِيَّوَانَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبْرِ * فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
وَالْبَرْبِ * وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ * وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا فِي أَوَّلِيَةِ الْأَجْيَالِ
وَالدُّوَلِ * وَتَعَاصُرِ الْأُمَمِ الْأَوَّلِ * وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحَوْلِ * فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْمِلَالِ *
وَمَا يَعْزِضُ فِي الْعُمَرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَةٍ * وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ * وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ * وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ * وَعِلْمٍ
وَصِنَاعَةٍ * وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ * وَأَحْوَالٍ مُتَقَلِّبَةٍ مُشَاعَةٍ * وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ * وَوَاقِعٍ وَمُنَظَرٍ *
إِلَّا * وَاسْتَوْعَبْتُ جَمْلَةً * وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعِلَلَهُ * فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ فَذَا بِمَا ضَمَّنْتُهُ مِنْ
الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ * وَالْحِكْمِ الْحُجُوبَةِ الْقَرِيبَةِ * وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ * بَيْنَ أَهْلِ
الْعُصُورِ * مُعْتَرِفٌ بِالْعِجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ * فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ * رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ الْيَسَاءِ *
وَالْمَعَارِفِ الْمُنْتَسِعَةِ الْقَضَاءِ * فِي النَّظَرِ بِعَيْنِ الْإِنْتِقَادِ لَا بِعَيْنِ الْإِرْتِضَاءِ * وَالتَّعَمُّدِ لِمَا
يَعْتَرُونَ عَلَيْهِ بِالْإِضْلَاحِ وَالْإِغْشَاءِ * فَالْبَضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ * وَالْإِعْتِرَافُ
مِنْ اللُّومِ مُنْجَاةٌ * وَالْحَسَنِيُّ مِنَ الْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ * وَاللَّهُ اسْأَلْ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً
لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَهُوَ حَسَنِي وَنِعَمَ الْوَكِيلِ

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ * وَأَنْزَلْتُ مُشْكَاةَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ وَأَذْكَيْتُ سِرَاجَهُ *
وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْجَاةَهُ * وَأَوْسَعْتُ فِي فِضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدْرْتُ
سِيَاجَهُ * أَخْتَصْتُ بِهِذِهِ النُّسخَةَ مِنْهُ ^(١) خِزَانَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ الْبَاقِي

(١) قوله تخفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله تخفت
وبعد قوله وأدريت سياجه ونصها النسخة له الكف الذي يلج بعين الاستبصار فنونه . ويلفظ بداركو
الشريفة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رقبة في المعارف عما دونه . فسرحت فكري في فضا الوجود . واجلت
نظري ليل النام واليهود . بين التهام والعبود . في العلماء الركع والعبود . والخلفاء اهل الكرم والمجود .
حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الامال . وظفرت ابدي المساعي والاعتفال .

المَاهِدِ * الْمُتَحَلِّي مِنْدُ خَلْعِ التَّمَائِمِ * وَلَوْثِ الْعَمَائِمِ * بِحَلْيِ الْقَانِتِ الزَّاهِدِ * الْمُتَوَشِّحِ
 بِزَكَاةِ الْمَنَاقِبِ وَالنَّحَامِدِ * وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ * بِأَجْمَلِ مِنَ الْقَلَائِدِ * فِي نُحُورِ
 أَوْلَادِهِ * الْمُتَنَاقُلِ بِالْعَزَمِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ * وَالْجِدِّ الْمُوَاتِي الْمُسَاعِدِ * وَالنَّجْدِ الطَّارِفِ
 وَالتَّالِدِ * ذَوَائِبِ مُلْكِهِمُ الرِّاسِي الْقَوَاعِدِ * الْكَرِيمِ الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ * جَامِعِ
 أَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ * وَنَاطِلِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ وَالشَّوَارِدِ * وَمُطْهِرِ الْأَبَاتِ الرَّبَّانِيَةِ *
 فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْأَنْسَانِيَةِ * بِفِكْرِهِ الْفَائِدِ النَّافِدِ * وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاذِ * النَّبِيرِ
 الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ * نُورِ اللَّهِ الْوَاضِحِ الْمَرَّاشِدِ * وَنِعْمَتِهِ الْعَذْبَةِ الْمَوَارِدِ * وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ
 بِالْمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ * وَرَحْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ * الَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ *
 وَاسْتَقَامَةَ الْمَائِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ * وَذَهَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَابِدِ * وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ
 رَوْنَقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ * وَنَجَّتْهُ الَّتِي لَا يَبْطُلُهَا إِنْكَارُ الْجَاهِدِ وَلَا شَبَهَاتُ الْمَعَادِ * (أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ) أَبِي فَارِسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَعْظَمَ الشَّهِيرَ الشَّهِيدَ أَبِي سَالِمٍ
 إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمُقَدَّسَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ * أَبِي الْحُسَيْنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ
 مِنْ مُلُوكِ بَنِي مُرَيْنَ * الَّذِينَ جَدَدُوا الدِّينَ * وَهَجَّجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ * وَمَحَّوْا آثَارَ الْبَغَاةِ
 الْمُفْسِدِينَ * أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالَهُ * وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ أَمَالَهُ * وَبَعَثَهُ
 إِلَى خِزَانَتِهِمُ الْمُؤَقَّةِ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقُرَوَيْنِ مِنْ مَدِينَةِ فَارَسَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ
 وَكَرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ * حَيْثُ مَقَرُّ الْهَدْيِ * وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خُضَّةُ النَّدَى * وَفَضَاءُ الْأَسْرَارِ

بمبدي المعارف مشرفة فيه غرر الجبال . وحقائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فانحلت
 مطي الافكار في عرصاتها . وجلوت محاسن الانظار دلى مناصمها . وانحلت بدوئنها . فصر ابوانها . واطلعت
 كوكبا وقادا في انقي خزائنها وصوامها . ليكون آية للعقلاء بهتدون بهماره . و يعرفون فضل المدارك
 الانسانية في اناره . وهي خزانه مولانا السلطان الامام الجامع . الفتح المائد . الى اخر النعوت المذكورة هنا
 ثم قال الخليفة امير المؤمنين المتوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الظاهر المقدس
 ابي عبدالله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المؤمنين . ابي يحيى ابى بكر ابن الخلفاء الراشدين . من
 ائمة الموحدين الذين جددوا الدين . وهججوا السبل للمهتدين . ومحوا اثر البغاه المفسدين من الخمسة
 والمعتمدين . سلاة ابي النخض والفاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور
 المتلالي من تلك الاشعة والبروق . فاوردته من مودعها الى الدلي بحيث مقر الهدى . ورياض المعارف
 خضلة الندي . الى اخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية . لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه
 النسخة المنقولة من خزانه الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

الرَّبَانِيَّةَ فَمَسِيحُ الْمَدَى * وَالْأَمَامَةُ الْفَارَسِيَّةُ الْكَرِيمَةُ ^(١) الْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِنَظَرِهَا
 الشَّرِيفِ * وَفَضْلِهَا الْغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ * تَبَسَّطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مَهَادًا * وَتَنْسَجُ لَهُ فِي جَانِبِ
 الْقَبُولِ آمَادًا * فَتُوضَحُ بِهَا أَدِلَّةٌ عَلَى رُسُوحِهِ وَأَشْهَادًا * فِي سُوقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ الْكِتَابِ
 وَعَلَى حَضَرَتِهَا تُعْكَفُ رُكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ تَنَاجُ
 الْقَرَائِحُ وَالْأَلْبَابُ * وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوفِّرُ لَنَا حُظُوظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا
 وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا * وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا الْخَالِحِينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفِي
 عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا * وَمَا أَوْيَ مِنَ الْأَسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَلَتِهَا * لِبُوسِ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا *
 وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهِتِهَا * بَرِيَّةً مِنْ شَوَائِبِ الْغَفْلَةِ
 وَشَهْرَتِهَا * وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين

من المغالط وذكري من اسبابها.

اعْلَمْ أَنَّ فَنَّ التَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ جَمُّ الْفَوَائِدِ شَرِيفُ الْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِنُنَا
 عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأَمْرِ فِي أَخْلَاقِهِمْ . وَالْأَنْبِيَاءِ فِي سِيرِهِمْ . وَالْمُلُوكِ فِي دَوْلِهِمْ
 وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى نَتِمَّ فَائِدَةُ الْإِفْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا فَهُوَ
 مُحْتَاجٌ إِلَى مَا خِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنَ نَظَرٍ وَثَبَّتَ بُفْضِيَانِ بِصَاحِبَيْهَا إِلَى
 الْحَقِّ وَيُبْكَيَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلَّاتِ وَالْمَغَالِطِ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا اعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ
 النُّقْلِ وَلَمْ تُحْكَمْ أَصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمُرَانِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْأَجْتِمَاعِ
 الْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ الْغَائِبِ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرِ بِالذَّاهِبِ قَرُبَمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ
 الْعُتُورِ وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَةِ الصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ
 وَأَيِّمَةَ النُّقْلِ مِنَ الْمَغَالِطِ فِي الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النُّقْلِ غَدًّا
 أَوْ سَمِينًا وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أَصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْحِكْمَةِ
 وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ

(١) قوله الفارسية اي المنسوبة الى ابي فارس المتقدم ذكره اه

وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الْوَحْشِ وَالْفَلْطِ وَلَا سِيَّما فِي إِحْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا
عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظَنَّةُ الْكَيْدِ وَمَطْيَةُ الْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى
الْأَصُولِ وَغَرَضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ وَهَذَا كَمَا نَقَلَ الْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي
جِيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي التَّيِّهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مِنْ يُطْبِقُ
حِمْلِ السِّلَاحِ خَاصَّةً مِنْ ابْنِ عَشْرِينَ فَمَا قَوْفَهَا فَكَانُوا سِتِّمِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ
فِي ذَلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مَضَرِّ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِهِمَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجِيُوشِ لِكُلِّ
مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةً مِنَ الْحَاكِمَةِ تَنْسَعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوُظَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا قَوْفَهَا
تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَالُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجِيُوشِ الْبَالِغَةِ
إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحَفٌ أَوْ قِتَالٌ لِضِيقِ سَاحَةِ الْأَرْضِ عَنْهَا وَبُعْدِهَا
إِذَا اصْطَفَتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزِيدَ فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ
أَوْ تَكُونُ غَلَبَةٌ أَحَدِ الصَّفَيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ وَالْحَاضِرُ
يَشْهَدُ لِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ وَلَقَدْ كَانَ مَلِكُ الْفَرَسِ وَدَوْلَتُهُمْ
أَعْظَمُ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكْثِيرُ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بَخْتَنْصَرٍ لَهُمْ وَالنَّبِيَامِ
بِلَادَهُمْ وَاسْتِدْلَائِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَغَرُّبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَاعِدَةً مَلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ
مِنْ بَعْضِ عُمَلِ مَمْلَكَةِ فَارَسٍ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ تَخُومِهَا وَكَانَتْ
مَمَالِكُهُمْ بِالْعَرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
يَكْثِيرُ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جِيُوشُ الْفَرَسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا
كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعَشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مُتَبَوِّعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ صَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا
فِي أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ فَإِنْ جُمِعَ رُسُومُ الَّذِينَ زَحَفَتْ
بِهِمْ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مُتَبَوِّعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ
فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاكِمَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثَرَتِهَا حَسْبَمَا نَبَّيْنَا فِي فَصْلِ
الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْقَوْمُ لَمْ تَنْسَعِ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأَرْدَنِ وَفِلَسْطِينَ
مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرَبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَيْضًا فَالَّذِي بَيْنَ مُوسَى
وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ أَبَاءَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهَرُ

بَن قَاهَتَ بَفْتَحَ أَلْهَاءَ وَكَسَرَهَا أَبْن لَأَوِي بِكْسَرِ أَلَوِا وَفَتَحَهَا أَبْن يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ
 اللَّهُ هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْمَدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ دَخَلَ إِسْرَائِيلُ
 مِصْرَ مَعَ وَلَدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْسًا وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ
 إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَدَاوَلَهُمْ مُلُوكُ
 الْقِبْطِ مِنَ الْفَرَاعَةِ وَيَعْدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ وَإِنْ
 زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْأَجْيَاسِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ بَعْدِهِ فَبَعِيدٌ أَيْضًا إِذْ لَيْسَ
 بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَرَ أَبًا فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّاءَ بْنِ عَوْفِدَ
 وَيُقَالُ أَبْنِ عَوْفِدَ أَبْنِ بَاعَزَ وَيُقَالُ بُوعَزُ بْنُ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ بْنِ عَمِّيئُودَ وَيُقَالُ
 حَمِينَاذَابُ بْنُ رَمَّ بْنِ حَصْرُونَ وَيُقَالُ حَصْرُونَ بْنُ بَارَسَ وَيُقَالُ بَارَسُ بْنُ يَهُوذَا بْنِ
 يَعْقُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ فِي أَحَدٍ عَشَرَ مِنَ الْأُولَادِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ لِلَّهِمَّ
 إِلَى الْمِئَتَيْنِ وَأَلْفَافٍ قَرُبَمَا يَكُونُ وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ
 فَبَعِيدٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ تَجِدُ زَعْمَهُمْ بَاطِلًا وَنَقْلَهُمْ
 كَاذِبًا وَالَّذِي ثَبَتَ فِي الْأَسْرِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا خَاصَّةً
 وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِهِ كَانَتْ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةٌ عَلَى أَبْوَابِهِ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ
 أَخْبَارِهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى خَرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) وَمُلْكِهِ
 كَانَ عَنُقُودَانُ دَوَلَّتِهِمْ وَأَتَسَاعُ مَلِكُهُمْ هَذَا وَقَدْ تَجِدُ السَّكَاةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا
 أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَتَفَاوَضُوا فِي الْأَخْبَارِ
 عَنْ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِي إِحْصَاءِ أَمْوَالِ الْجَبَايَا وَخَرَاجِ
 السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتَرَفِينَ وَبَضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُوسِرِينَ تَوَلَّوْا فِي الْعَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ
 الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْأَغْرَابَ فَإِذَا اسْتَبْكَشَفَ أَصْحَابُ الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ
 وَاسْتَنْبَطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بَضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ وَاسْتَجْلَيْتْ عَوَائِدُ الْمُتَرَفِينَ فِي
 نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَبْدُونُهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْلُوعِ النَّفْسِ بِالْقَرَائِبِ وَسَهْوَةِ التَّجَاوُزِ
 عَلَى اللِّسَانِ وَالْفَتْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُنْتَقِدِ حَتَّى لَا يَحْكَسِبُ نَفْسُهُ عَلَى خَطَأٍ وَلَا عَمْدٍ وَلَا
 يَطَالِبُهَا فِي الْخَبَرِ بِتَوْسِطٍ وَلَا عَدَالَةٍ وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيْشٍ فَيُرْسِلُ عَنَانَهُ وَبِسْمِ
 فِي مَرَاتِعِ الْكَذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هِزًا وَيَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيَضِلَّ عَنْ

سَبِيلَ اللَّهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفَقَةٌ خَالِصَةٌ وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَقُولُونَهُ كَافَّةً
فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهِمُ بِالْيَمَنِ
إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقَشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ
مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ يَقْلِيلُ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَتَخَنَ فِي
الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُ بِهَذَا الْأَسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ فَأَخَذَ
هَذَا الْأَسْمَ عَنْهُ وَدَعَا بِهِ مِنْ حَيْثُ وَانَّهُ أَمَّا أَنْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حِجْرَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ
مِنْ حَمِيرٍ فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ وَكِتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّابِرِيُّ
وَالْجُرْجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَأَبْنُ الْكَكْبِيِّ وَالْبَيْهَقِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حَمِيرٍ
وَتَابَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا الْأَذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ
قَبْلَ أَفْرِيقَشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سَالِمَانَ (عليه السلام) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ
ذَكَرَ مِثْلُهُ عَنْ يَاسِرِ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِيَ الرَّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ
فِيهِ مَسَاكًا لِكثَرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبٍ
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ إِسْتِاسَتٍ مِنْ مُلُوكِ الْفُرسِ الْكَلْبِيَّةِ أَنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وَأَذْرَبِجَانَ
وَلَقِيَ التُّركَ فَهَزَمَهُمْ وَأَتَخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَانِيَةً
مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصَّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمَمِ التُّركِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ
فَمَلَكَ الْأَوَّلُ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِيَّ الَّذِي
غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَخَذَ فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعًا بِالْغَنَائِمِ وَتَرَكُوا بِلَادَ
الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ فَهَمُّ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ
بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنْ الصَّحِيحَةِ عَرَبِيَّةٌ فِي التَّوَهُمِ وَالْغَلَطِ
وَأَشْبَهَ بِأَحَادِيثِ الْقَضَائِصِ الْمَوْضُوعَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ التَّبَاعَةِ إِنَّمَا كَانَ يَجْزِيهِ الْعَرَبُ
وَقَرَارُهُمْ وَكَرْسِيَهُمْ بِصَنْعَاءِ الْيَمَنِ. وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ
الْأَنْدَلُوسِ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَاطِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ
الْهَاطِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مِصُورِ الْجُغُرْفِيَا
فَلَا يَجِدُ إِلَّا الْكُونِ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالْمَسْلَكِ هُنَاكَ مَا
بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدَرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسْلَكِ

مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذِهِ مُنْتَمِعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ
كَانَ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةُ وَكَنْعَانُ بِالشَّامِ وَالْقَبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَأَ الْعَمَالِقَةُ مِصْرَ
وَمَلَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا
مَلَكَوْا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَيْضًا فَالْشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْغَرْبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزُودَةُ
وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ أَحْتَجُّوا إِلَى أَنْتِهَابِ الزَّرْعِ
وَالنَّعْمِ وَأَنْتِهَابِ الْبِلَادِ فَيَا يَعْمُرُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ
نَقَلُوا كِفَاتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَقِي لَيْلُهُمُ الرُّوْحُحِلَ يَنْقَلِبُ فَلَا بَدَّ وَأَنْ يَدْرُوا فِي
طَرِيقِهِمْ كَلْبًا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخُهَا لِيَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ
الْعَسَاكِرَ تَمْشِي هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهَيِّجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَيْلُهُمُ الْمِيرَةُ بِالسَّلَامَةِ فَذَلِكَ
أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعًا فَدَلَّ عَلَيَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِ الَّذِي يُجْزِي السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْغَرْبِ دَلَى كَثَرَةِ
سَالِكِهِ وَمَنْ يَقْصُ طَرِيقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْفُرْقَى فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ دَلَى مَا
ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَفْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَارْضَ التُّرْكِ
وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ الشُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأَمَّ فَارِسَ وَالرُّومَ
مُعْتَرِضِينَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ مَلَكَوْا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ
وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحَبِيرَةِ
وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْأَذْعَارِ
مِنْهُمْ وَكَيْكَاوُسَ مِنْ مُلُوكِ الْكَيْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَبَعِ الْأَصْغَرِ أَبِي كَرْبٍ وَيَسْتَأْسِفُ مِنْهُمْ
أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكَيْمَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ
بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ وَهُوَ مُنْتَمِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ
وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ فَلَاخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ
وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَنَقَلَ لِمَكَانِ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ
وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَتْرِبَ وَالْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ أَنَّ تَبَعًا آخَرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ
مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَمَا بِلَادَ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهِ
لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تُثَقَّنَ بِمَا يُقَالُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَائِدِ

الصَّحِيحَةَ يَقَعُ لَكَ تَخْيِصُهَا بِاحْسَنِ وَجْهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرِقُ فِي التَّوَعُّمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَقْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصَنَتِ
بِأَنْهَازَاتِ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينٍ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدُ
وَشَدَادُ مَلَكًا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَاكَ شَدِيدُ فَقُصَّ الْمَلِكُ لَشَدَادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ
وَصَنَتِ الْجَنَّةُ فَقَالَ لَابْنَيْنِ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةٍ ثَلَاثِينَ سَنَةً
وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعِينَ سَنَةً وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُرُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزَّبْرَجَدِ
وَالْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارُ الْمَطْرُودَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ
مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَبِثَ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً مِنَ السَّمَاءِ
فَقِيلَ كُوا كُلُّهُمْ ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَالنَّعَائِيُّ وَالزَّخْمَشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ
وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَلَابَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ
مِنْهَا مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبَرُهُ مُعَاوِيَةَ فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ
عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَهْرَ أَشَقَرُ قَصِيرُ
عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يُخْرِجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ التَفَتَ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ فَقَالَ
هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ
وَصَحَارَى عَدَنَ الَّتِي رَزَمُوا أَنَّهَا بَنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمُرُهُ مُتَعَابًا
وَالْأَدْلَاءُ تَقْصُ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ
مِنَ الْأَخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأُمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرُسَتْ فِيمَا دُرُسَ مِنَ الْآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا
أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بَنَاءٍ عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا
وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَذْيَانِ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْتَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحْرِ مَزَاعِمُ
كُلِّهَا أَشْبَهُ بِالْخَرِافَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الْإِعْرَابِ فِي
لَفْظَةِ ذَاتِ الْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمَ وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ يَكُونُ بِنَاءً وَرَتَّبَ
لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةً ابْنِ الزُّبَيْرِ عَادُ إِرَمَ عَلَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَبْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ
الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْإِفَاصِيصِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذْبِ الْمُنْقُولَةِ

فِي عِدَادِ الْمَضْحَكَاتِ وَإِلَّا فَالْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ الْأَخْبِيَةِ بَلِ الْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا
 الْأَسَاطِينُ فَلَا يَدْعُ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اسْتَشْهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ
 لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ اضْيِفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الرَّبْرِ فَعَلَى
 إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا نَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَالْيَاسُ مُضَرَ وَرَبِيعَةُ نِزَارُ وَآيُ
 ضَرُورَةُ إِلَى هَذَا الْحَمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُحْمَلُ لَتَوْجِيهِهِ لِأَمثالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِمَةِ
 الَّتِي يُزَيِّدُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصِّحَّةِ وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ
 مَا يَقُولُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ
 يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا أَلْخَمَرُ أَذِنَ لَهُمَا فِي
 عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوعِ حَرْصًا عَلَى أَجْمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّكَتْ عَلَيْهِ فِي
 النَّاسِ الْخُلُوعُ بِهِ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَا (زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ) فَحَمَلَتْ وَوُثِّي
 بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَعْصَبَ وَهَيَّيَاتِ ذَلِكَ مِنْ مَنَصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبْوَنِهَا وَجَلَالِهَا
 وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعَظَمَاءُ
 الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمُهَدِّيِّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ
 السَّجَّادِ ابْنِ عَلِيٍّ أَبِي الْخُلَفَاءِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجَمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ (صَلَمَ)
 ابْنَةُ خَلِيفَةٍ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مَخْهُوفَةٍ بِالْمَلِكِ الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةُ النَّبَوِيَّةُ وَنُجْبَةُ الرَّسُولِ وَعُمُومَتُهُ
 وَإِقَامَةُ الْمِلَّةِ وَنُورُ الْوَحْيِ وَمَهْبِطُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبَدَاوَةِ الْعَرُوبِيَّةِ
 وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَمَرَاجِعِ الْفَوَاحِشِ فَأَيُّ يَطْلُبُ الصُّورَ وَالْعَفَافُ
 إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوُجِدُ الطَّهَارَةُ وَالذِّكَاةُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تَلْعَمُ لَسَانُهَا
 بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَسُّ شَرْفُهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي النُّجْمِ بِمِلْكَةِ جَدِّهِ مِنَ الْفُرسِ
 أَوْ بَوْلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتَهُمْ بَضْعَهُ
 وَضَبَعَ أَيْبَهُ وَاسْتَخَاصَتْهُمْ وَرَفَقَتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوعُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنَّ
 يَصْهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بَعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ الْمُتأملُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ
 الْمُنْصِفِ وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عَظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَاسْتَنَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ
 مَوْلَى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قُوَّتِهَا وَاسْتَنْكَرَهُ وَجَّحَ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيُّنَ قَدَّرَ الْعَبَّاسَةَ
 وَالرَّشِيدَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّمَا نَكَبُ الْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنْ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَابِهِمْ

أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَعَلَبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ
 وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مَلِكِهِ فَعُظِّمَتْ أَثَارُهُمْ وَبَعْدَ
 صِيَتِهِمْ وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا بِالرُّؤْسَاءِ مِنْ وَلَدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَأَحْتَازُواهَا عَمَّنْ
 سِوَاهُمْ مِنْ وَزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ . يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَدَارُ الرَّشِيدِ مِنْ
 وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَئِيسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَاخِمُوا فِيهَا
 أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَازِكِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالرَّاحِ لِمَكَانٍ أَيْبَهُمْ يَحْيَى مِنْ كِفَالَةِ هَارُونَ وَلِيَّ
 عَهْدٍ وَخَلِيفَةٍ حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ وَدَرَجَ مِنْ عَشِيهِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ
 فَتَوَجَّهَ إِلَى بَنَاتٍ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعُظِّمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَأَنْبَسَطَ الْجَاهُ عَنْهُمْ وَأَنْصَرَفَتْ
 نَحْوُهُمُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ وَقَصُرَتْ عَلَيْهِمُ الْأُمُورُ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْصَى
 الْأَنْحُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَتَحَفُّ الْأُمَرَاءُ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّلَزُّفِ وَالِاسْتِمَالَةِ
 أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعُظَمَاءِ الْقِرَابَةِ الْإِعْطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ الْمَنِينَ وَكَسَبُوا
 مِنْ يَبُونَاتِ الْأَشْرَافِ الْمَعْدَمَ وَفَكَوُا الْعَانِي وَمَدَحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسْنَوْا
 لِعِفَائِهِمْ الْجَوَائِزَ وَالصَّلَاتَ وَاسْتَوَلَوْا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاكِي وَالْأَمْصَارِ فِي
 سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسْنَوْا الْبَطَانَةَ وَأَحْفَدُوا الْخَلَاصَةَ وَأَغْصَا أَهْلَ الْوِلَايَةِ فَكُشِفَتْ
 لَهُمْ وَجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مَهَادِرِهِمُ الْوُثَيْرُ مِنَ الدَّوْلَةِ عَقَارِبُ السَّعَايَةِ حَتَّى
 لَقَدْ كَانَ بَنُو قُحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَعْظُمِ لَهُمْ لِمَا وَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ
 مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ وَلَا وَزَعَتُهُمْ أَوَاصِرُ الْقِرَابَةِ وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مُخْدَوِمِهِمْ نَوَاشِي
 الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنَفَةِ وَكَانَ الْحَقُودُ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ
 وَانْتَهَى بِهَا إِلَى ضَرَارٍ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْخُلَافَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمَلَقَّبِ بِالنُّنْسِ الزَّكِيَّةِ
 أَخَارَجَ عَلَى الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ
 عَلَى أَمَانٍ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ
 الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ أَعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ حَبْسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى
 تَحْلِيلَةِ سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِحِلِّ عَقَالِهِ حَرَمًا لِدِمَائِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةٌ عَلَى السُّلْطَانِ
 فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَظَنَ وَقَالَ أَطْلَقْتُهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَهُ

الاستِخْصَانِ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ فَأَوَجَدَ السَّبِيلَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى ثَلَّ عَرْشَهُمْ
وَأَلْقَيْتَ عَلَيْهِمْ سِوَاهُمْ وَخَسَفَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ وَبَدَارَهُمْ وَذَهَبَتْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ يَا مَعْ
وَمَنْ تَأَمَّلْ أَخْبَارَهُمْ وَأَسْتَقْصَى سِيرَ الدَّوْلَةِ وَسِيرَهُمْ وَجَدَ ذَلِكَ مُحَقَّقًا لِأَثَرِ مَمْلُوكِ الْأَسْبَابِ
وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مُفَاوِضَةِ الرَّشِيدِ عَمَّ جَدُّهُ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ فِي شَأْنِ نَكْبَتِهِمْ
وَمَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ الشُّعْرَاءِ فِي كِتَابِ الْعَقْدِ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَعْمَعِيِّ لِلرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ
يَحْيَى فِي سَمَرِهِمْ نَتَمُّهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلْتَهُمُ الْغَيْرَةَ وَالْمَنَافَسَةَ فِي الْأَسْتِدْبَارِ مِنَ الْخُلَيفَةِ فَمَنْ
دُونَهُ وَكَذَلِكَ مَا تَحِيلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمُ مِنَ الْبَطَانَةِ فِيمَا دَسَّوهُ لِلْمُغْنَيْنِ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَحْيَا عَلَى
إِسْمَاعِيلِ الْخُلَيفَةِ وَتَحَرَّكَ حَفَائِظُهُ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ

لَيْتَ هِنْدًا أَهْجَرْنَا مَا تَعَدُّ وَشَقَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَحْجِدُ
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ

وَإِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ إِي وَاللَّهِ إِنِّي عَاجِزٌ حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هَذِهِ كُلِّهَا غَيْرَتِهِ
وَسَلَطُوا عَلَيْهِمْ بِأَسْ أَنْتَقِمَهُ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَلَبَةِ الرِّجَالِ وَسُوءِ الْحَالِ وَأَمَّا مَا تُمَوِّهُ
بِهِ الْحِكَايَةَ مِنْ مُعَاوَرَةِ الرَّشِيدِ الْخُمْرَ وَأَقْرَانِ سَكْرِهِ بِسُكْرِ التَّدْمَانِ فَخَاشَا اللَّهُ مَا
عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ لِمَنْ صَبَّ الْخِلَافَةُ مِنَ
الدِّينِ وَالْعَدَالَةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَمُحَاوَرَاتِهِ لِلْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ
وَأَبْنِ السِّمَّكِ وَالْعُمَرِيِّ وَمُكَاتَبَتِهِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ
بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْحَفَاطَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ
الصُّبْحِ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا حَكَى الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ
نَافِلَةٍ وَكَانَ يَغْزُو عَامًا وَيَحْجُ عَامًا وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمٍ مُضْحِكُهُ فِي سَمَرِهِ حِينَ تَعَرَّضَ
لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَقَالَ وَاللَّهِ مَا
أَدْرِي لِمَ فَمَا تَمَّاكَ الرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغَضَّبًا وَقَالَ يَا ابْنَ أَبِي مَرْيَمٍ فِي
الصَّلَاةِ أَيْضًا إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالِدِينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنَ
الْعِلْمِ وَالسَّادَةِ بِمَكَانٍ اقْرُبَ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ الْمُسْتَخْلِينَ لِدَلَالِكَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدُ زَمَنٍ إِنَّمَا خَلَفَهُ غُلَامًا وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالِدِينَ
قَبْلَ الْخِلَافَةِ وَبَعْدَهَا وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيْفِ الْمُوطَّأِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ

إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمَ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ فَضَعْتُكَ لِلنَّاسِ
 كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَحَنَّنْ فِيهِ رُحْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَّادَ ابْنِ عُمَرَ وَوُطَيْئَةَ النَّاسِ تَوَاطُئَهُ
 قَالَ مَالِكُ قَوْلَ اللَّهِ لَقَدْ عَلَّمْتَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمُهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ
 هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسُوفِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِحُجْلِسِهِ
 بِأَشْرِ الْحَيَّاطِينَ فِي إِزْفَاعِ الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَاسْتَنْكَفَ الْمُهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ
 وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُسُوفُ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامِنًا هَذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ
 يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَخَّ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَلِيْقُ بِالرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ
 الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخُلِيفَةِ وَأَبُوئِهِ وَمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالتَّخَلُّقِ
 بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخُمُرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
 اجْتِنَابِ الْخُمُرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنِ الْكُرْمُ شَجَرَتُهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ
 مِنْهُمْ وَالرَّشِيدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَبِيعٍ مِنْ اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّخَلُّقِ
 بِالْحَمَادِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ وَتَرْعَاتِ الْعَرَبِ وَأَنْظَرُ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ
 فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ بَحْتِشُوعَ الطَّيِّبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ
 أَمَرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطَنَ الرَّشِيدُ وَأَرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى
 عَابَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَادَ ابْنُ بَحْتِشُوعَ لِلْإِعْتِزَالِ ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ
 إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْبُورَادِ وَالْحُلُوى وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً مُلْحَمًا
 وَعَلَى الثَّلَاثَةِ خُمُرًا صَرَفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ السَّمَكُ
 بغيرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلُطْهُ وَقَالَ فِي الثَّلَاثِ هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَحْتِشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ
 حَتَّى إِذَا أَتَتْهُ الرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِخِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ الْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخُمُرِ
 قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَتَتَّ وَوَجَدَ الْآخَرِينَ قَدْ فَسَدَ وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ
 مَعْدَرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ الْخُمُرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ
 وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بَحْتِشُوعَ أَبِي نُوَّاسٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ أَهْلِيهِ فِي الدَّعَاوَةِ
 حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَاوِهِمْ
 فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا الْخُمُرُ الصَّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا
 فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يُبْحِثُ يَوَاقِعَ مَخْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَحَاةٍ مِنْ أَرْتِكَابِ السَّرَفِ وَالزَّفَرِ فِي مَلَابِئِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ
 مُتَنَاولَاتِهِمْ إِمَّا كَانُوا عَلَيْهِمْ مِنْ خُشُونَةِ الدَّادَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يَأْرِفُوهَا بَعْدَ فَمَا
 ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنْ الْأَبَاحَةِ إِلَى الْحَظَرِ وَعَنِ الْحِلَّةِ إِلَى الْحُرْمَةِ وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ
 الطَّبَرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَافَ مِنْ خُلَئَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ
 إِنْ كَانُوا يَرَكُبُونَ بِالْحَيَاةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفَضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللُّجَمِ وَالسَّرُوجِ
 وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ الرُّكُوبَ بِحَلِيَّةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعَازُ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ
 بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِئِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ
 بِاتِّمَامِ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي
 مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ . وَيُنَاسِبُ هَذَا
 أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَقُولُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ
 يُعَاقِرُ الْأَحْمَرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ فَدُفِنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ
 يَا سَيِّدِي وَآمِرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي
 إِنِّي غَنَلْتُ عَنْ السَّاقِي فَصَبَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِمَ الْعَقْلُ وَاللِّدِينُ
 وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمٍ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابِهِمْ إِنَّمَا كَانَ التَّبِيدُ
 وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عَنْهُمْ وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ
 خَلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَنُقِلَ فِي فَضَائِلِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ
 عَشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانٌ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَأْتِمِسُّ الْأِنَاءَ خَافَةَ أَنْ يُوقِظَ يَحْيَى
 بْنُ أَكْثَمٍ وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَالِيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْمَعَافَرَةِ وَأَيْضًا فَإِنْ
 يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
 وَاسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَمْعَ وَذَكَرَ الْمُزْنِيُّ الْحَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ
 رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَمْعِ فَالْقَدْخُ فِيهِ قَدْخٌ فِي جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبِزُهُ النُّجَّانُ بِالْمَبْلِ
 إِلَى الْعِلْمَانِ هُمَانًا عَلَى اللَّهِ وَفَرِيَّةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ
 الْأَوَامِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ أَفَرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مُحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخَلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَتْ
 مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَاللِّدِينِ مُنْزَهًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ
 النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَتَى

عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ
بِمَكْذِبٍ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ
بِمَا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعُلَمَاءِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سِرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخُوفِ
مِنَ اللَّهِ لِكُنْهٍ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرَمِي بِمَا رُمِيَ بِهِ ابْنُ حَبَّانٍ فِي النِّقَاتِ
وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَمُ عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ
مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعَقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْلِ فِي سَبَبِ إِصْهَارِ الْمَأْمُونِ إِلَى
الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَيْتِهِ بَوْرَانٍ وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي
زُبَيْلٍ مُدَلَّى مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقٍ وَجَدَلَ مُعَارَةَ الْقَتْلِ مِنَ الْحَرِيرِ فَأَعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ
الْمَعَالِقَ فَأَهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا إِلَى مَجْلِسٍ سَأَنَهُ كَذَا وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَضَيَّدَ
ابْنَيْهِ وَجَمَالَ رُؤْيَاهُ مَا يَسْتَوْفِقُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ وَأَنَّ أَمْرًا بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَالِ
السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَاقَّةَ الْجَمَالِ فَتَانَةُ الْحَمَّاسِينَ فَحَيْثُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ فَلَمْ
يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْخُمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ أَنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ
حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الْإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَبْنِ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ
وَعِلْمِهِ وَأَقْتِفَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخِيهِ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَوْ كَانَ
الْمِلَّةَ وَمَنَاطِرَتِهِ الْعُلَمَاءَ وَحِظِهِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صُلُوحِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِحُّ
عَنْهُ أَحْوَالُ الْفَسَاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ^(١) فِي الطَّوُافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَغَشْيَانِ السَّمَرِ
سَبِيلَ عَشَاقِ الْأَعْرَابِ وَأَيْنِ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ
بِدَارِ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَنَافِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ
مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَلِحَدِيثِهَا الْإِنْمَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْمَحْرَمَةِ وَهَتَكَ فِتَاحِ
الْمُخَدَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَائِعَةٍ لِدَائِمَتِهِمْ فَلِذَاكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا
يَلْحَجُّونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَقْرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَحُّفِهِمْ لِأَوْرَاقِ الدُّوَابِّ وَلَوْ أَنْتَسَوْا بِهِمْ
فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصَنَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَدَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأُمَرَاءِ مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ
الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيقُ بِعَنْصِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا

(١) المستهتر: لشيء بالغ الملاح به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت باطله اه قاموس

تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّي كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَرَئِيسَ الدُّعَاةِ فِي زَمَانِهِ
فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَا تَأْسَيْتَ بِأَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ
عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا
يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ
وَالْقَاهِرَةِ مِنْ تَقِيهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنَ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ
الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثٍ لُفَّتْ لِلْمُسْتَضْعِنِينَ مِنْ
خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَزَلُّفًا لِيَهُنَّ بِالْقَدْحِ فِيمَنْ نَاصَهُمْ وَتَفَنَّنًا فِي الشَّمَاتِ بَعْدَهُمْ حَسَبًا
نَدَّ كُرَّ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَغْفُلُونَ عَنِ التَّنَطُّنِ لِشَوَاهِدِ الْوَأَقِعَاتِ وَأَدَلَّةِ
الْأَحْوَالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ
فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُحْسِنَ لَمَّا دُعِيَ بِكِتَامَةِ الرَّزِيِّ
مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ وَعُلِمَ تَحْوِيئُهُ عَلَى عِبِيدِ اللَّهِ الْمُهَدِّي وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
خَشِيَ عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ وَاجْتَازَا بِمِصْرَ وَأَنْهَمَا خَرَجَا مِنْ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زِيَّ الشَّجَارِ وَنَبِيَّ خَبَرَهُمَا إِلَى عَيْسَى النُّوْشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ
وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا الْخِلَافَةَ حَتَّى إِذَا أَدْرَكََا خَفِيَ حَالَهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا
لَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْأَشَارَةِ وَالزِّيِّ فَافْتَلَوْا إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّ الْمَعْتَصِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ أُمَرَاءَ
أَفْرِيقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِدْرَارٍ أُمَرَاءَ سِجْلَمَاسَةَ بِأَخْذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْ كَاءَ الْعِيُونِ
فِي طَلَبِهِمَا فَعَثَرَ الْيَشْعُ صَاحِبُ سِجْلَمَاسَةَ مِنْ آلِ مِدْرَارٍ عَلَى خَفِيِّ مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاعْتَقَلَهُمَا
مَرْضَاةَ الْخِلَافَةِ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْعَةُ عَلَى الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا
كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ
وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقَ الْأُبُلَةِ وَكَادُوا لِيُجُونَ
عَلَيْهِمْ مَوَاطِنُهُمْ وَيُزِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتُهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرُ
الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي الدُّبَلَاءِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُعَاضَصَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
أُمَرَاءِ الْعُجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغْصُونَ بِمَكَانِهِمْ
وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاءَ الْبَحْرِ يَبَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ
لِدَعْيٍ فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي اتِّعَالِ الْأَمْرِ وَاعْتَبَرِ حَالَ الْقَرَمْطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي

أَنْتَسِبَهِ كَيْفَ تَلَّاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَنَزَّهَتْ أَنْبَاءُهُ وَظَاهَرَ سِرِّيَا دَلَى خُبْنِهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَأَتْ
 عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعَبِيدِ بِكَذَاكَ لَعَرَفُوا وَلَوْ بَعْدَ مَهْلَةٍ
 وَبِهِمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالُوا لَنُحْنَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
 فَقَدْ أَتَّصَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَكَانُوا بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَمُصْلَاهُ وَمَوْطِنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفِنِهِ وَمَوْفِيقِ الْجَنَّةِ وَهَبَطَ الْمَلَائِكَةُ
 ثُمَّ أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أُمَّةٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ
 فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ يَلْسَبُ الْأَدَامُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مَرَارًا بَعْدَ
 ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بِدْعَتِهِمْ هَانِئِينَ بِأَسْمَاءِ صِنْيَانٍ مِنْ أَعْقَابِهِمْ
 يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَفَرٍ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَيْمَةِ
 وَلَوْ أَزْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَّا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْأَنْصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا
 يَلْسَبُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبَّهُ فِي بِدْعَتِهِ وَلَا يُكْذَبُ نَفْسُهُ فِيمَا يَتَحَلَّهُ وَانْعَجِبْ مِنَ الْقَاضِي
 أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِي شَيْخِ النُّظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ بَجَحَاحٍ إِلَى هَذِهِ الْقَوْلَةِ الدَّرَجُوحَةِ
 وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْهَادِ فِي الدِّينِ وَالْعَمَقِ
 فِي الرِّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ نَسَبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي
 عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ
 مِنْ أَهْلِكَ أَنَّهُ حَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِفَاطِمَةَ يَعْظُمَا يَا فَاطِمَةُ أَعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَمَتَى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوْ
 اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدَعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا
 فِي مَجَالٍ لِيُظَنُّوا الدُّوَلِ بِهِمْ وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنَ الطُّغَاةِ لِتَوْفُرِ شِيعَتِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ
 بِدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالُهُمْ بِالْإِخْنَةِ وَلَمْ يَكَادُوا
 يُعْرِفُونَ كَمَا قِيلَ

فَلَوْ تَسَّأَلَ الْأَيَّامُ مَا أَسْنَى مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا
 حَتَّى لَقَدْ سَمِعِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْأَمَامِ جَدَّ عِبِيدِ اللَّهِ الْهَدْيِيِّ بِالْمَكْنُومِ سَمَّاهُ بِذَلِكَ
 شِيعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْنَانِهِ حَدَرًا مِنَ الدُّغَائِلِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ شَيْعَةُ بْنُ
 الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطُّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ وَأَزْدَلُّوا بِهِذَا الرَّأْيَ الْقَائِلَ لِلْمُسْتَغْنِينَ

مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأَمْرَاءُ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلُّونَ حُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ
 بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةً أَلْجَزَ عَنْ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ عَلَيْهِمْ عَلَى الشَّامِ
 وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرْبَرِ الْكَتَمِينَ شِيعَةَ الْعَبِيدِيِّينَ وَأَهْلَ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ اسْتَجَلَ
 الْقَضَاءُ بِبَغْدَادَ بَيْنَهُمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
 الشَّرِيفُ الرِّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْأَبْطَحَاوِيِّ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ
 وَالْقُدُورِيُّ وَالصِّمَرِيُّ وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبْيُورْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْعَمَّانِ فَبَيَّنَ
 الشَّيْعَةَ وَغَيَّرَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لَمَّا اسْتَشْهَرُ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ
 بِبَغْدَادَ وَعَالِبَهَا شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَنَقَلَهُ الْأَخْبَارُ يَوْمَ كَمَا سَمِعُوهُ
 وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوَّهُ وَأَلْحَقُوا مِنْ وَرَائِهِ وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عَبِيدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ
 الْأَعْلَبِ بِالْقَبْرِ وَأَبْنِ مِذْرَارٍ بِسَجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ
 فَأَلْمَعْتُضِدُ أَقْعَدُ نَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ سَوْقٌ لِلْعَالَمِ تَجْلِبُ إِلَيْهِ
 بِضَائِعِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَتَلْتَمِسُ فِيهِ ضَوَالُ الْحُكْمِ وَتُخْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرِّوَايَاتِ
 وَالْأَخْبَارِ وَمَا نَفَقَ فِيهَا نَفَقٌ عِنْدَ الْكَفَاةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتْ الدَّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمِيلِ وَالْأَفْنِ
 وَالسُّفْسَفَةِ وَسَلَكَتْ أَلْتَّهَجَ الْأَمَمَ وَلَمْ تَجْزِ (١) عَنْ قَصْدِ السَّيْلِ نَفَقَ فِي سَوْفَهَا الْأَبْرِيزُ
 الْخَالِصُ وَاللُّجَيْنُ الْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَغْرَاضِ وَالْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَامِرَةِ الْعَرَبِ
 الْبَغْيُ وَالْبَاطِلُ نَفَقَ الْبَرْجُ وَالزَّانِفُ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ نَظَرُهُ فُسْطَاسٌ بَحْثُهُ وَمِيزَانٌ وَمُلْتَمَسُهُ
 وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَجَّى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) الْأَلِيَّامِ
 بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَيَعْرِضُونَ تَعْرِيزُ الْحَدِّ بِالتَّلْظُنِّ فِي الْحِمْلِ الْخُلْفِ عَنْ
 أَدْرِيسَ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ فَجَبَّهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ مَا أَجْهَلُهُمْ أَمَّا يَعْلَمُونَ أَنَّ
 أَدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ وَإِنْ حَالَ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ
 يَتَأَنَّى فِيهَا الرِّيبُ وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ يَبْرَأَى مِنْ جَارَاتِهِمْ وَمُسْمَعٍ مِنْ جِبَارَتِهِمْ
 لِمَتَلَأَصَقِ الْجُدْرَانُ وَتَطَامُنِ الْبُنْيَانُ وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى

خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيائِهِمْ وَشِيَعَتِهِمْ وَمُرَاقَبَةٍ مِنْ كَافَّةِهِمْ
 وَقَدْ اتَّفَقَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى عَامَةً عَلَى بَيْعَةِ أَدْرِيسَ الْأَصْغَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ وَآتَوْهُ
 طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضَى وَإِصْنَاقٍ وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَخْمَرِ وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارِ الْمَنَابِي فِي
 حُرُوبِهِ وَغَزَوَاتِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنَّهُمْ يَدْخُلُ هَذِهِ الرِّيَّةَ أَوْ قُرْعَتِ أَسْمَاعِيهِمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ
 كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ
 الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْبَالِهِمْ وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَوَلَاتِهِمْ
 وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ أَدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلْخِ أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى الْأَغْلَبِيَّةِ
 أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَمَّ
 أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوْلَاهُمْ وَعَمَلِهِمْ
 عَلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ مِنْ دَسِيصَةِ الشَّيْخِ الْعُلَوِيَّةِ وَإِدْهَانِهِ فِي نَجَاةِ أَدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ
 فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ أَدْرِيسَ فَأَظْهَرَ الْحَقَّ بِهِ
 وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيهِ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ أَدْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاقَلَهُ الشَّمَاخَ فِي
 بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سَمَا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ وَوَقَعَ خَبَرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ
 لِمَا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَاقْتِلَاعِ جُرُثُمَتِهَا وَلَمَّا تَأَدَّى
 إِلَيْهِمْ خَبَرُ الْحَمْلِ الْمُخَلَّفِ لِأَدْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا إِذَا بِالْدَّعْوَةِ قَدْ
 عَادَتْ وَالشَّيْعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ وَدَوَّلَتْهُمْ بِأَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ
 ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ وَكَانَ الْفَسْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ تَزَلَّ بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ
 أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاضِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى أَدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ
 قَاضِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاسْتَمَالَ الْبَرَبَرُ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلَ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَرَّغُوا
 إِلَى أَوْلِيائِهِمْ مِنَ الْأَغْلَبِيَّةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ فِي سِدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاجِيَتِهِمْ وَحَسَمِ الدَّاءِ
 الْمُتَوَقَّعِ بِالْدَوْلَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ وَاقْتِلَاعِ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ مِنْهُمْ يُخَاطَبُهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْأَغْلَبِيُّ عَنْ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى أَعْجَزَ
 وَلَمْثَلِيهَا مِنَ الزُّبُونِ عَلَى مَلُوكِهِمْ أَحْوَجَ لِمَا طَرَقَ اخْتِلَافُهُ مِنْ أَنْتَرَاءِ مَمْلَكِ الْعَجَمِ عَلَى
 سُدَّتِهَا وَامْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَتَضَرُّفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَوَعَ أَعْرَاضِهِمْ فِي رِجَالِهَا
 وَجَبَائِثِهَا وَأَهْلَ خَطَطِهَا وَسَائِرِ نَقْصِهَا وَإِبْرَامِهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ

خَلِيفَةٌ فِي قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبَعَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا نَقُولُ الْبَيْعَا

نَحْشِي هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءَ الْأَغَالِيَةَ بَوَادِرِ السَّعَايَاتِ وَتَلَوْنَا بِالْمَعَاذِيرِ قَطُورًا بِأَحْقَارِ الْمَغْرِبِ
وَأَهْلِهِ وَطُورًا بِالْأَرْهَابِ بِشَانِ أَدْرِيسَ أَخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ عَقَابِهِ يُخَاطِبُونَهُمْ
بِتَجَاوُزِهِ حُدُودِ النُّحُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيَنْفِدُونَ سَكَنَتَهُ فِي تَحْفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمَرْتَفَعِ جَبَابَتِهِمْ
تَعْرِضًا بِاسْتِفْحَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيمًا لِمَا دَفَعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ
وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أَجِئُوا إِلَيْهِ وَطُورًا يَطْعُنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ
الطَّعْنِ الْكَارِبِ تَخْفِيفًا لَشَانِهِ لَا يَبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَأَفْنِ عَقُولِ
مَنْ خَافَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِمَّا لَكَيْمِهِمْ الْعَجْمُ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَالسَّمْعُ لِكُلِّ
نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَأْبَهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِيَةِ فَفَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءَ
أَسْمَاعَ الْغَوَاكِ وَصَرَ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أَذْنَهُ وَأَعْتَدَهَا ذَرِيعَةً إِلَى التَّلِيلِ مِنْ خَلْفِهِمْ
عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ وَمَا لَهُمْ فَبَجْهَهُمُ اللَّهُ وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ
الْمَقْطُوعِ وَالْمَطْنُونِ وَأَدْرِيسُ وَلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنْ تَنْزِيهِ أَهْلِ
الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرِّجْسَ
وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا فَيَفِرَاشُ أَدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الدَّنَسِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ الرِّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ
وَمَنْ أَعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا
الرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ الرَّيْبِ وَدَفَعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ لِمَا سَمِعْتَهُ أَذُنَايَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي
عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفَرِيتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ بِمَنْ
أَنَحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَأَرْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلْفِهِمْ وَإِلَّا فَالْحَمْلُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ
مَعْصُومٌ مِنْهُ وَتَقْبِي الْعَيْبِ حَيْثُ يُسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبُ الْكُفْرِ جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا
هُمْ الْحُسَدَةُ لِأَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَمِ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنْ أَدْعَاةَ
هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِضَةٌ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْأَفَاقِ
فَتَعْرِضُ الشُّهْمَةَ فِيهِ وَلَكِنْ كَانَ نَسَبُ بَنِي أَدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارَسٍ وَسَائِرِ
دِيَارِ الْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي

دَرَكُهُ إِذْ هُوَ تَقُلُ الْأُمَّةَ وَالْجَلِيلَ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْجَلِيلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيْتُ جَدِّهِمْ
 أَدْرِيسَ مُحْتَطِرَ فَأَسَ وَمُؤَسَّسِيهَا مِنْ يَوْمِهِمْ وَمَسْجِدُهُ لَصِقُ مُحْتَطِرِهِمْ وَدَرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ
 مُنْتَضَى بِرَأْسِ الْمَأْدَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا
 حُدُودَ التَّوَارِثِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعَيَانِ فَإِذَا نَظَرْتَ غَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى
 مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَصَدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ
 بِالْمَغْرِبِ وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بَعَزَلٌ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ
 أَمْرِ الْمُتَشَبِّهِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَخْضُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنَّ يُسَلِّمَ
 لَهُمْ حَالَهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أُنْسَابِهِمْ وَبَيِّنُ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالْتِسْلِيمِ
 فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَضَّ بِرَبْقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ
 سَوْفَةً وَوَضَعَاءً ^(١) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ وَارْتِكَابِ اللَّجَاجِ
 وَالْبُهْتِ يُمَثِّلُ هَذَا الطَّنَّ الْفَائِلَ وَالْقَوْلَ الْمَكْدُوبَ تَعَلُّلاً بِالْمُسَاوَاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَابَهَةِ
 فِي تَطَرُّقِ الْأَحْتِمَالِ وَهَيْئَاتِ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ
 الْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صِرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مِبَالِغَ أَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ آلِ
 الْحَسَنِ وَكِبَرِ أَوْثَمٍ لِهَذَا الْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى الْحَوَاطِي بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى
 الْعَوَّامِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ وَهُمْ نَقَبَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ وَالسَّائِكُونَ بَيْتِ
 جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ وَلَهُمْ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَقَهٍّ حَسْبَمَا فَذَكْرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ
 الْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَيَلْحَقُ بِهِذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَائِلَةِ مَا
 يَتَنَاوَلُهُ ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدَحِ فِي الْأَمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ
 الْمُوَحِّدِينَ وَنَسَبَتِهِ إِلَى الشَّعْوَذَةِ وَالتَّبْلِيسِ فِيمَا أَنَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ وَالْبَغْيِ
 عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ مُدَّعِيَاتِهِ فِي ذَلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ الْمُوَحِّدُونَ
 اتِّبَاعَهُ مِنْ اتِّسَابِهِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَمَلَ الْفُقَهَاءُ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كُنَّ فِي نُفُوسِهِمْ
 مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَنَافَصَتَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْفَتْيَا وَفِي الدِّينِ
 بِرَعْمِهِمْ ثُمَّ أَمْتَارَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَتَّبِعُ الرَّأْيِ مَسْمُوعُ الْقَوْلِ مَوْطُو الْعَقَبِ نَفَسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ
 وَغَضُّوا مِنْهُ بِالْقَدَحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُدَّعِيَاتِهِ وَأَيْضًا فَكَانُوا يُؤَسُّونَ مِنْ

(١) قوله ووضعا بضم الواو جمع وضعاء

مُلُوكِ الْمُتُونَةِ أَعْدَائِهِ تَجَلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّدَاجَةِ
 وَاتِّخَالِ الدِّيَانَةِ فَكَانَ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ الْوَجَاهَةِ وَالْإِتِّصَابِ لِلشُّوَرَى
 كُلِّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدَرِهِ فِي قَوْمِهِ فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ شِيعَةً لَهُمْ وَحَرَبًا لِعَدُوِّهِمْ وَتَقَمُّوا عَلَى
 الْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ وَالتَّزْيِيبِ عَلَيْهِمْ وَالْمُنَاصِبَةِ لَهُمْ تَشِيْعًا لِلْمُتُونَةِ وَتَعْصِيًا
 لِلدَّوْلَتِمْ وَكَانَ الرُّجُلُ غَيْرُ مَكَانِهِمْ وَحَالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ
 عَلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَخَالَفَ اجْتِهَادَهُ فُقَهَاؤُهُمْ فَنَادَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى
 جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَأَقْتَلَعَ الدَّوْلَةَ مِنْ أُصُولِهَا وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلِيهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ
 شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَارًا وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نَفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا
 قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِاتِّتِلَافٍ
 مُهْجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عُلَتْ عَلَى الْكَلِمِ وَدَالَتْ
 بِالْعَدُوَّتَيْنِ مِنَ الدَّوْلِ وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْحَصْرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَسْكَرَةِ وَالتَّقَلُّ مِنَ
 الدُّنْيَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحُظِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى أَوْلَدَ الَّذِي
 رُبَّمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتَخَادَعَ عَنْ تَمَنِّيهِ فَلَبَّتْ شِعْرِي مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ
 يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حُظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ
 صَالِحٍ لِمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْتَفَسَتْ دَعْوَتُهُ سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ
 نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَعْزُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبِتَ أَنَّهُ ادَّعَاهُ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا
 دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى بُطْلَانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا
 تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ
 مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ الْمَصَامِدَةِ وَدَانُوا بِأَتْيَاكِهِ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَيْهِ وَإِلَى
 عَصَابَتِهِ مِنْ هَزَعَةٍ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ
 الْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا أَتَّبَعَهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ أَتْبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصَبِيَّةٍ أَلْهَرِغِيَّةٍ
 وَالْمَصْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا وَرُسُوخِ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيَّ خَفِيًّا قَدْ
 دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ
 أَسْلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ جِلْدَةٌ هُوَ لَا وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَبْصُرُهُ إِلَّا النَّسَبُ الْأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ
 مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِصَابَةِ وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ كَثِيرًا إِذَا كَانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَانْظُرْ

قِصَّةَ عَرْجَةِ وَجَرِيٍّ فِي رِئَاسَةِ بَحِيلَةٍ وَكَيْفَ كَانَ عَرْجَةُ مِنَ الْأَزْدِ وَلَبَسَ جِلْدَهُ بِحِيلَةٍ
 حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ تَفَهَّمُ مِنْهُ
 وَجْهَ الْحَقِّ وَأَنَّ الْهَادِي لِلْصَّوَابِ وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ
 فِي هَذِهِ الْمَعَاطِلِ فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْخَطَّاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ
 الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ وَعَلَقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَتَقَلَّبَتْ عَنْهُمْ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ
 عَنِ الْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَانْدَرَجَتْ فِي مَحْضُورَاتِهِمْ
 حَتَّى صَارَ فِي النَّارِخِ وَاهِبًا مُخْطِطًا وَنَظَرُهُ مُرْتَبِكًا وَعَدَّ مِنْ مَنَاحِي الْعُلَمَاءِ فَإِذَا يَحْتَاجُ
 صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ الْأُمَمِ
 وَالْبِقَاعِ وَالْأَعْمَارِ فِي السَّيْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ
 وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُقَابِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا
 مِنَ الْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ الْمُتَمَتِّقِ مِنْهَا وَالْمُخْتَلَفِ وَالْقِيَامِ عَلَى أَصُولِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ وَمَبَادِي
 ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ
 مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينِيذٍ يَعْزُضُ خَبَرَ الْمُتَقَوِّلِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ
 وَالْأَصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مَقْصَدِهَا كَانَ صَحِيحًا وَالْإِزْفَهُ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَا
 اسْتَكْبَرَ الْقَدَمَةَ عِلْمُ النَّارِخِ إِلَّا لِئَلَّا حَتَّى اتَّخَذَهُ الطَّبْرِيُّ وَالتَّبَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ
 مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَلَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السَّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ
 اتِّخَاذُهُ مَجْهُولًا وَاسْتَنْتِ الْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتُهُ وَحَمَلُهُ وَأَخْلُوصَ
 فِيهِ وَالتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ وَاللُّبَابُ بِالْقُسْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَذِبِ وَإِلَى
 اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ الْغَلَطُ الْخَطِيئَةُ فِي النَّارِخِ الدُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ فِي الْأُمَمِ
 وَالْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الْأَعْمَارِ وَمُرُورِ الْأَيَّامِ وَهُوَ دَاءٌ دَوَى شَدِيدُ الْخَفَاءِ إِذَا لَا يَقَعُ إِلَّا
 بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَتَفَقَّنُ لَهُ إِلَّا الْأَحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ
 أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَحْلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جَرِيٌّ مُسْتَقِرٌّ
 إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ
 فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَفْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَدُولِ
 سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرِيَانِيُّونَ

وَالنَّبَطُ وَالتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبْطُ وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُولِهِمْ
وَعَمَّا لِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَأَصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرُ شَأْنِهِمْ كَثِيرٌ مَعَ آبْنَاءِ
جَنَسِهِمْ وَأَحْوَالُ أَعْيَانِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفُرسُ الثَّانِيَّةُ
وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ فَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالَ وَأَنْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُخَالِفُهَا أَوْ يُشَابِهَا
وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُصَرَّةٍ فَأَنْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ
أَنْتِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارِفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخُلْفُ عَنْ السَّلَفِ
ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَبَدُوا عِزَّهُمْ وَمَهْدُوا
مُلْكُهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلَ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ
بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرَنْجِ بِالشِّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَلِكَ أُمَمٌ وَأَنْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ نَسَبِي شَأْنِهَا
وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا وَالسَّبَبُ السَّائِعُ فِي تَبْدِيلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ
لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ الْمَلِكِ
وَالسُّلْطَانُ إِذَا اسْتَوَلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْرَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ
وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ
بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ
عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَتْ أَيْضًا بَعْضُ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأَوَّلَى أَشَدَّ خِلَافَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ
التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ
تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَالْقِيَاسُ
وَالْحُكَاكَةُ لِلِإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنْ الْغَلْطِ غَيْرُ مَا مُونَةٌ تُخْرَجُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ
عَنْ قَصْدِهِ وَتَوَجُّهُ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا
يَتَفَقَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَأَنْقِلَابِهَا فَيُخْرِجُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَبَقِيَئِهَا
بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاتٍ مِنَ الْغَلْطِ فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا
يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْعَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الدُّعَلَمِيِّينَ مَعَ أَنَّ الدُّعَلِيمَ لِهَذَا
الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ السَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ اعْتِرَازِ أَهْلِ الْعَمَلِيَّةِ وَالِدُّعَلِيمُ مُسْتَضْعَفٌ
مِسْكِينٌ مُنْقَطِعُ الْجِذْمِ ^(١) فَيَتَشَوَّى الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلُ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ

الْعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ الرَّتَبِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعُدُّونَهَا مِنَ الْمُمَكِّنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ
 بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ أَهْلِكَ
 وَالتَّكَلَّفِ وَلَا يَعْلَمُونَ اسْتِحْثَالَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَتَتْهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعُ لِلْعَاشِ وَأَنَّ الْعَلِيمَ
 صَدَرَ الْإِسْلَامِ وَالِدَوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ
 نَقْلًا لِمَا سَمِعَ مَعَ الشَّارِعِ وَتَعَلِيمًا لِمَا جُرِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جَبَةِ الْبَلَاغِ فَيَكُنْ أَهْلُ
 الْأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمْ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبْرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ
 الْمَنْزُولُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هِدَايَتُهُمْ وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ فَاتَلَوْا عَلَيْهِ وَقَتَلُوا وَاخْتَصَمُوا
 بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأَمَمِ وَشَرَفُوا فَيَجْرِصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلْأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لَائِمَةُ
 الْكِبَرِ وَلَا يَزِعُهُمْ عَاذِلُ الْأَلْفَةِ وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارَ
 أَصْحَابِهِ مَعَ وَفُودِ الْعَرَبِ يَعْلَمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ
 بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ قَبْلَ بَعْدِهِمْ فَمَا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ وَوَسَّجَتْ عُرُوقُ
 الْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا الْأُمَمُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا
 وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لَتَعَدُّ الْوَقَائِعِ وَتَلَاخُفُهَا فَاحْتَاجَ
 ذَلِكَ لِقَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَا وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى التَّعَلُّمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ
 الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِالْقِيَامِ
 بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعَ عِلْمَ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْعَاشِ وَشَحِنَتْ
 أَنْفُ الْمُتَرَفِّينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّيِّ لِلتَّعْلِيمِ وَاخْتَصَصَ اتِّخَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ
 وَصَارَ مُتَحَلِّةً مُخَفَّرًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُلْكِ وَالنَّجَاحِ بَنُ يَوْسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ
 ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَكَانَهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةً قُرَيْشٍ فِي الشَّرَفِ مَا عَلِمَتْ وَلَمْ
 يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْعَاشِ وَإِنَّمَا
 كَانَ عَلَى مَا وَصَّيْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَهِيَ هَذَا الْبَابُ أَيْضًا مَا يَتَوَهَّمُهُ
 الْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّئَاسَةِ فِي
 الْحُرُوبِ وَقُودِ الْعَسَاكِرِ فَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ الْعِمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرَّتَبِ يَحْسِبُونَ أَنَّ
 الشَّانَ خِطَّةَ الْقَضَاةِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِأَبْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ

هَشَامُ الْمُسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَابْنُ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِإِشْنِيلِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ أَبَاءَهُمْ
كَانُوا قَضَاءَهُمْ أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَتَفَتَّحُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ
مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَمَا بَيَّنَّهُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ
كَانَا مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلُ عَصَبِيَّتِهَا وَكَانَ مَكَانُهُمْ
فِيهَا مَعْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنَ الرَّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ
بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأَمْرِ الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ
الْوَزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ وَانْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِ فِي الطَّوَائِفِ وَتَقْلِيدَهُمْ عِظَائِمَ
الْأُمُورِ الَّتِي لَا تُقْلَدُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ الْغِنَى فِيهَا بِالْعَصَبِيَّةِ فَيَغْلُظُ السَّامِعُ فِي ذَلِكَ وَيَحْمِلُ
الْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْغَلَطِ ضَعْفُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ
لِهَذَا الْعَهْدِ لِفَقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مِنْذُ أَعْصَارٍ بَعِيدَةٍ بَيْنَاءِ الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا
وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَمْلَكَةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ ^(١) مِنَ الْبَزِيرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مُحْفُوظَةً
وَالذَّرِيعَةُ إِلَى الْعَرَبِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالْتِمَاضُ مَفْقُودَةٌ بَلْ صَارُوا مِنْ جُمَلَةِ الرَّاغِبِينَ الْمُتَخَذِلِينَ
الَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ الْقَهْرُ وَرَبَّمُوا لِلْمَدْلَةِ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَفَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ الَّتِي يَكُونُ
لَهُمْ بِهَا الْغَلْبُ وَالْحُكْمُ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّقِينَ لِذَلِكَ سَاعِينَ
فِي تَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَدَوَّلَهُمْ بِالْعُدَّةِ الْغَرِيبَةِ وَكَيْفَ يَكُونُ
الْتِمَالُ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلُظُونَ فِي ذَلِكَ وَيَخْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ . وَمِنْ هَذَا
الْبَابِ أَيْضًا مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ وَتَسْقِي مُلُوكَهَا فَيَذْكُرُونَ اسْمَهُ
وَتَسْبِيَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ كُلُّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ
لِمُؤَرِّخِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفَتُّنٍ لِمَقَاصِدِهِمُ وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ

(١) العصبية بفتح العين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشهر عن انا المجد في
نصره منسوبة الى العصبه محرکه وهم اقارب الرجل من قبل ابيه لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم
وهي بهذا المعنى مدحوخة واما العصبية المذمومة في الحديث المجاع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس
منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغیر ديانة كما كان يقع من قيام
سعد على حرام نسبة الى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين ينصبون له ولو من غير اقاربه ظالما كان او
مظلوما وفي الفتاوي الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني
فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم في الحديث ليس منا من دعي الى عصبية
وهو موجب للفسق ولا شهاده لمركبه . قاله الاستاذ ابو الوفاء اه

تَوَارِيخُهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاؤُهَا مُتَشَوِّفُونَ إِلَى سِيرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا
 آثَارَهُمْ وَيَنْسَجُوا عَلَى مَنَاحِلِهِمْ حَتَّى فِي أَصْطِنَاعِ الزَّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوَائِبِهِمْ وَتَقْلِيدِ
 الْخَطِّطِ وَالْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَالْقُضَاةِ أَيْضًا كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ
 وَفِي عِدَادِ أُلُوزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ
 الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصْرِ وَوَقَّتِ الْعَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبِ
 الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَعِلْبَتِهَا وَمَنْ كَانَ يَنَاضِجُهَا مِنَ الْأَمْرِ أَوْ يَقْصِرُ عَنْهَا فَمَا
 الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَقِشِ أَخَاتِمِ وَالْقَلْبِ وَالْقَاضِي
 وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أَصْلَهُمْ وَلَا أَسْمَاءَهُمْ وَلَا مَقَامَهُمْ
 إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدُ وَالْعَقْلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَقْدَمِينَ وَالذُّهُولُ عَنْ تَحَرِّيِ
 الْأَعْرَاضِ مِنَ التَّارِيخِ اللَّهُمَّ إِلَّا ذَكَرَ أُلُوزَرَاءَ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَتْ عَنِ الْمُلُوكِ
 أَخْبَارُهُمْ كَالْحِجَاجِ وَبَنِي الْمُهَلَّبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوَيْحٍ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ
 وَأَبْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَلِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرِ الْأَلْمَاعِ بِأَبَائِهِمْ وَالْإِشَارَةُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِانْتِظَامِهِمْ
 فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ . وَلَنْذَكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَحْنُ كَلَامَنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا وَتَحْيِ أَنْ التَّارِيخِ
 إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرِ أَوْ جِيلٍ فَاثِمًا ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ لِلْأَفَاقِ
 وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ أَسْهُلُ الْمُؤَرِّخِ تَنَبُّيٌ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَبَيَّنَ بِهِ أَخْبَارُهُ
 وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّالِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مَرْوَجِ الذَّهَبِ شَرَحَ
 فِيهِ أَحْوَالِ الْأَمْرِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الثَّلَاثِينَ وَالْثَلَاثِينَ غَرْبًا وَشَرْقًا وَذَكَرَ
 نَحْلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالْدُّوَلِ وَفَرَّقَ شُعُوبَ
 الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يُعَوَّلُونَ فِي تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ
 مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ الْبُكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ
 خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا كَثِيرٌ انْتِقَالَ
 وَلَا عَظِيمٌ تَغْيِيرٌ وَأَمَّا هَذَا الْعَهْدُ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَقَدْ انْقَلَبَتْ أَحْوَالُ الْمَغْرِبِ
 الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ وَأَعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ الْبُرْزِ أَهْلُهُ عَلَى الْقَدَمِ بِمَا
 طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَعَلَبُّهُمْ وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ
 عَامَّةَ الْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ لِمَلِكِهِمْ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمَرَانِ

شَرْقًا وَغَرْبًا فِي مُتَنَصِّفِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الطَّاعُونِ الْجَارِفِ الَّذِي تَحَيَّفَتِ الْأُمَمُ
وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ مُحَاسِنِ الْعُمَرَانِ وَمَحَاسِنِهَا وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ
هَرَمٍهَا وَبُلُوغِ الْعِلَاقَةِ مِنْ مَدَاهَا فَقَلَصَ مِنْ ظِلَالِهَا وَقَلَ مِنْ حَدِّهَا وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا
وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاقِ وَالْإِضْمَحْلَالِ أَمْوَالُهَا وَانْتَقَضَ عُمَرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ
فَحَرَبَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ وَدُرُسَتِ السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ وَضَعُفَتِ
الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ وَكَانِيَ بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ
لَكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمِقْدَارِ عُمَرَانِهِ وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فِي الْعَالَمِ بِالْخُمُولِ
وَالْإِنْقِبَاضِ فَبَادَرَ بِالْإِجَابَةِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ
جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ وَكَأَنَّهُ خَلَقَ جَدِيدًا وَنَشَأَ
مُسْتَأْنَفَةً وَعَالَمٌ مُخَدَّثٌ فَاحْتَاجَ لِهَذَا الْعَبْدِ مَنْ يَدُونُ أَحْوَالِ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا
وَالْعَوَائِدِ وَالْحُلُكِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ لِأَهْلِهَا وَيَقْفُو مَسْلَكَ الْمَسْعُودِي لِعَصْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَقْتَدِي
بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَا ذَا كَرٍّ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمْكَنِي مِنْهُ فِي هَذَا
الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ إِمَّا صَرِيحًا أَوْ مُنْذِرًا فِي أَخْبَارِهِ وَتَلَوِيحًا لِإِخْتِصَاصِ قَصْدِي فِي
التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأُمَمِهِ وَذَكَرَ مَمَالِكِهِ وَدَوْلِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنْ
الْأَفْطَارِ لِعَدَمِ أَطْلَاعِي عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمِهِ وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَفِّلَةَ لَا تَقِي كُنْهَ
مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ وَالْمَسْعُودِي إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبَعْدِ رِحْلَتِهِ وَتَقْلِبِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ
فِي كِتَابِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عَلَيْهِمْ وَمَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ وَالْبَشَرِ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالْإِعْتِرَافُ مُتَعَيْنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ
اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تيسَّرَتْ عَلَيْهِ الْمَدَاهِبُ وَانْجَحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ وَنَحْنُ آخِذُونَ
بِعَوْنِ اللَّهِ فِيمَا رُمِّنَا مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ
وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ
إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا هَذَا

إِعْلَمُ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدُ هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ
مِنَ الْخَبِيرَةِ تَعْرِضُ مِنْ نَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرَعِ اللَّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَنَكِ وَالْحَنَاقِ
وَالْأَضْرَاسِ أَوْ بِقَرَعِ الشَّقَتَيْنِ أَيْضًا فَنَتَغَايِرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ بِتَغَايِرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ

وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مُتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الْخَبَرِ
وَلَيْسَتْ الْأُمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ فَقَدْ يَكُونُ لَأَمَّةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا
لَيْسَ لِأَمَّةٍ أُخْرَى وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ فِي ثَمَانِيَةِ وَعِشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفَتْ
وَنَجِدُ الْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذَلِكَ
الْإِنْدِيَّةُ وَالْأَرَبُ وَالْبَرْبَرُ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ
أَصْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمُ الْمُسَمَّوَةِ بِأَوْضَاعِ حُرُوفٍ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَايِزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا
كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَرَاءٍ وَطَاءٍ إِلَى آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ
الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ مُهْمَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلًا عَنِ الْيَمَانِ
وَرُبَّمَا يَرْتَمُهُ بَعْضُ الْكِتَابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَفِيهِ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ
وَلَيْسَ يَكْفِي فِي الدَّلَالَةِ بَلْ هُوَ تَغْيِيرُ الْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ وَلَكَمَا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمَلًا عَلَى
أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ وَكَانَتْ تَعْرُضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ
لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا أَصْطِلَاحٍ أَوْضَاعِنَا أَضْطَرُّنَا إِلَى يَمَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرَسْمِ
الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا لَهُ لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ فَاصْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا
عَلَى أَنْ أَضَعَّ ذَلِكَ الْحَرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ الَّذِينَ يَكْتَفِيَانِهِ لِيَتَوَسَّطَ
الْقَارِءُ بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ تَخَرُّجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ فَتَحْصُلَ تَأْدِيَتُهُ وَإِنَّمَا اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ
رَسْمِ أَهْلِ الْمُصَنَّفِ حُرُوفِ الْأَشْجَامِ كَالصِّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ فَإِنَّ النُّطْقَ بِصَادِهِ
فِيهَا مُعْجَمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّايِ فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ
وَدَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ
حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرْبَرِ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا
وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ مِثْلَ اسْمٍ بَلْ كَيْنَ فَأَضَعَهَا كَافًا وَاقْطَعْتُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْئَلِ
أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكَافِ
وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرْبَرِ وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى
هَذَا الْقِيَاسِ أَضَعُّ الْحَرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعًا لِيَعْلَمَ الْقَارِءُ
أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ فَتَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ رَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ
عَنْ جَانِبِهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ تَخَرُّجِهِ إِلَى تَخَرُّجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا وَغَيْرِنَا

لُغَةِ الْقَوْمِ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْقِفُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليفة وما يعرض فيها من البدو والحضر والغلب والكسب
والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من الملل والاسباب

اعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّأْرِخِ أَنَّهُ خَبَرَ عَنِ الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ
عُمُرَانُ الْعَالَمِ وَمَا يَعْزُضُ لِطَبِيعَةِ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ مِنَ الْأَحْوَالِ مِثْلَ التَّوَحُّشِ وَالنَّاسِ
وَالْعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافِ التَّغْلِبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُلْكِ
وَالدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ الْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالْعُلُومِ
وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ
مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ مُقْتَضِيَةٌ . فَمِنْهَا التَّشَبُّعَاتُ لِلْأَرْءَاءِ وَالْمَذَاهِبِ فَإِنَّ
النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْأَعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّحْقِيقِ وَالنَّظَرِ
حَتَّى تَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَبُّعٌ لِأَيِّ أَوْ فِخْلَةٍ قِيلَتْ مَا يُؤَافِقُهَا مِنْ
الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشَبُّعُ غَطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الْإِتْقَادِ
وَالْتَّمَحِصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكَذِبِ وَثِقَلِهِ . وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي الْأَخْبَارِ
أَيْضًا الثَّقَفُ بِالْأَنْقَالِينَ وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالْتَّجَرُّبِ . وَمِنْهَا الدُّهُولُ عَنْ
الْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ الْأَنْقَالِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي
ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي الْكَذِبِ . وَمِنْهَا تَوَهُمُ الصَّدَقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيئُ فِي الْأَكْثَرِ
مِنْ جِهَةِ الثَّقَفِ بِالْأَنْقَالِينَ وَمِنْهَا الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى أَوْقَاعٍ لِأَجْلِ مَا يَدْخُلُهَا مِنْ
الْتِّبَاسِ وَالتَّصْنَعِ فَيَنْقُلُهَا الْخَبِيرُ كَمَا رَأَاهَا وَهِيَ بِالتَّصْنَعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ . وَمِنْهَا
تَقَرُّبُ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالْإِثْنَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ
وِإِشَاءَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَيَسْتَفِيزُ الْأَخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَالْأَنْفُسُ مُوَلَّعَةٌ بِمُحِبِّ
الْتِّبَاءِ وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاوِ أَوْ ثَرَوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَاضِينَ
فِي الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى
جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ فِي الْعُمُرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ

دَاتَا كَانَ أَوْ فِعْلًا لَا بَدْلَ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيَا يَعْزُضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا
 كَانَ السَّامِعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ فِي الوجودِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا أَغَانَهُ ذَلِكَ فِي
 تَمْحِصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الْكُذِبِ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّخْصِصِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 يَعْزُضُ وَكَثِيرًا مَا يَعْزُضُ لِلْسَّامِعِينَ قَبُولُ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقُلُونَهَا وَتَوَثَّرَ عَنْهُمْ كَمَا
 نَقَلَهُ الْمُسْعُودِيُّ عَنْ الْأَسْكَنْدَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَيْفَ
 اتَّخَذَ صُنْدُوقَ الزُّجَاجِ وَعَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي
 رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَائِلَهَا مِنْ أَجْسَادٍ مَعْدِنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبَنِيَانِ فَفَرَّتْ تِلْكَ الدَّوَابُّ حِينَ
 خَرَجَتْ وَعَابَتْهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قَبْلِ
 اتَّخَاذِهِ النَّابُوتِ الزُّجَاجِيِّ وَمُضَادَّةِ الْبَحْرِ وَأَمَّا وَجْهُ بَحْرِهِ وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ الْمَلُوكَ لَا تَحْمِلُ
 أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرُورِ وَمَنْ اعْتَمَدَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلِهَاجَةِ وَانْتِقَاضِ
 الْعُقْدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ إِنْتِلَافُهُ وَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ
 ذَلِكَ طَرَفَةٌ عَيْنٍ وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ الْجَنَّ لَا يَعْرِفُ لَهَا صُورًا وَلَا تَمَائِيلَ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ
 قَادِرَةٌ عَلَى الشَّكْلِ وَمَا يُدْكَرُ مِنْ كَثَرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ
 وَالتَّهْوِيلُ لِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَالْقَادِحُ الْحَمِيلُ لَهَا مِنْ
 طَرِيقِ الوجودِ أَبْيَنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ وَهُوَ أَنَّ الْمُنْعَمَسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ
 يَضِيقُ عَلَيْهِ أَهْوَاءُ النَّفْسِ الطَّبِيعِيِّ وَتَسْخُنُ رُوحُهُ بِسُرْعَةٍ لِقَلَّتِهِ فَيَقْدُ صَاحِبُهُ أَهْوَاءَ
 الْبَارِدِ الْمَعْدِلِ لِمَزَاجِ الرِّثَّةِ وَالرُّوحِ الْقَلْبِيِّ وَبِهَازِكِ مَكَانَهُ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَلَاقِ
 أَهْلِ الْحَمَامَاتِ إِذَا أُطِيقَتْ عَلَيْهِمْ عَنْ أَهْوَاءِ الْبَارِدِ وَالْمُتَدَلِّينَ فِي الْآبَارِ وَالْمَطَامِيرِ
 الْعَمِيقَةِ الْمَهْوَى إِذَا سَخَنَ هَوَاؤُهَا بِالْعَفْوَةِ وَلَمْ تَدْخُلْهَا الرِّيحُ فَتُخْلِجُهَا فَإِنَّ الْمَتَدَلِّ
 فِيهَا يَهْلِكُ لِحِمْنِهِ وَبِهَذَا السَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ الْحَوْتِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ فَإِنَّ أَهْوَاءَ لَا يَكْفِيهِ
 فِي تَعْدِيلِ رِثَّتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِافْرَاطٍ وَالْمَاءُ الَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ وَأَهْوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ
 حَارٌّ فَيَسْتَوِلِي الْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ الْحَيَوَانِيِّ وَبِهَازِكِ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلَاقُ الْمَصْعُوفِينَ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمُسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي تَمَثُّلِ الزَّرْزُورِ الَّذِي بِرُومَةٍ
 تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ
 وَانْظُرْ مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ فِي اتَّخَاذِ الزَّيْتِ . وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبُكْرِيُّ

فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمَسْمُومَةِ ذَاتِ الْأَبْوَابِ مُحِيطٌ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّحَلَةً وَتَشْتَمِلُ عَلَى
 عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ وَالْمُدُنُ إِنَّمَا اتَّخَذَتْ لِلتَّحَصُّنِ وَالْإِعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي وَهَذِهِ خَرَجَتْ
 عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حُصْنٌ وَلَا مُعْتَصِمٌ وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي حَدِيثٍ
 مَدِينَةُ النُّحَاسِ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بِنَائِهَا نُحَاسٌ بِصَفَرَاءِ سِجْلَمَاسَةَ ظَفَرَ بِهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ
 فِي غَزْوَتِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّهَا مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ أَسْوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ
 عَلَى الْحَائِطِ صَفَقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ الدَّهْرِ فِي حَدِيثٍ مُسْتَحِيلٍ عَادَةً مِنْ
 خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَصَفَرَاءِ سِجْلَمَاسَةَ قَدْ تَقَضَّهَا الرُّكَّابُ وَالْأَدْلَاءُ وَلَمْ يَقِفُوا إِلَيْهِ الْمَدِينَةَ
 عَلَى خَبَرٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلَّهَا مُسْتَحِيلٌ عَادَةً مُنَافٍ لِلْأُمُورِ
 الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمُدُنِ وَاخْتِطَاطِهَا وَأَنَّ الْمَعَادِنَ غَايَةُ الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي
 الْأَنِيَّةِ وَالْحُرْتِي (١) وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ وَالْبُعْدِ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَحْفِصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طِبَائِعِ الْعُمَرَانِ وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ وَأَوْفَقُهَا
 فِي تَحْفِصِ الْأَخْبَارِ وَتَمْيِيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا وَهُوَ سَابِقٌ عَلَى التَّحْفِصِ بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ
 وَلَا يَرْجِعُ إِلَى تَعْدِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنِعٌ وَأَمَّا
 إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا فَلَا فَائِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجَرُّعِ وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ
 الْمَطَاعِنِ فِي الْخَبَرِ اسْتِحَالَةَ مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَإِنَّمَا
 كَانَ التَّعْدِيلُ وَالتَّجَرُّعُ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا تَكَالِيفُ
 إِنْسَانِيَّةٌ أَوْجَبَ الشَّارِعُ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ الظَّنُّ بِصِدْقِهَا وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثَّقَّةُ
 بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنْ الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ
 اعْتِبَارِ الْمُطَابَقَةِ فَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي إِمْكَانِ وَقُوعِهِ وَصَارَ فِيهَا ذَلِكَ أَهَمُّ مِنَ
 التَّعْدِيلِ وَمُقَدِّمًا عَلَيْهِ إِذْ فَائِدَةُ الْإِنْشَاءِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطْ وَفَائِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ
 بِالْمُطَابَقَةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِأَلَّا مَكَانَ
 وَالْإِسْتِحَالَةِ أَنْ نَنْظُرَ فِي الْأَجْمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ الْعُمَرَانُ وَتَمْيِيزَ مَا يَلْتَقِيهِ مِنَ
 الْأَحْوَالَ لِذَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى طَبْعِهِ وَمَا يَكُونُ عَارِضًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْرِضَ
 لَهُ وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ وَالصِّدْقِ

مِنَ الْكَذِبِ بِوَجْهِ بُرْهَانِي لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ
 الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمُرَانِ عَلِمْنَا مَا تَحْكُمُ بِقَوْلِهِ مَا تَحْكُمُ بِتَرْكِيفِهِ وَكَانَ ذَلِكَ
 لَنَا مَعْيَارًا صَحِيحًا يَجْرِي بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصِّدْقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهَذَا هُوَ
 غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنَ تَأْلِيفِنَا وَكَانَ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضِعٍ
 وَهُوَ الْعُمُرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالْاجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ وَذَوِ مَسَائِلَ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَحْقُقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ
 وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضِعًا كَانَ أَوْ
 عَقْلًا. وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعَةِ غَرِيبُ الزَّعَةِ عَزِيزُ الْفَائِدَةِ
 اعْتَرَّ عَلَيْهِ الْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ الْغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخِطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُقْنَعَةُ
 النَّافِعَةُ فِي أَسْئَلَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِّهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ
 الْمَدِينَةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدِينِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ الْمَنْزِلِ أَوِ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى الْأَخْلَاقِ
 وَالْحِكْمَةِ لِتَحْمِلِ الْجُمْهُورَ عَلَى مَنَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ التَّوَعُّلِ وَبَقَاؤُهُ فَقَدْ خَالَفَ
 مَوْضِعُهُ مَوْضِعَ هَذَيْنِ الْفَنَيْنِ الَّذِينَ رُبَّمَا يُشَبَّهَانِ وَكَانَهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطُ النِّشَاءَةِ وَالْعَمَرِي
 لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنَاجٍ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ مَا أَدْرِي أَلْغَفَلْتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ
 الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ
 وَالْحِكْمَاءُ فِي أَمْرِ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرُ
 بِمَا وَصَلَ فَأَبْنُ عُلُومِ الْفُرْسِ الَّتِي أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَوْصِهَا عِنْدَ الْفَتْحِ وَأَبْنُ عُلُومِ
 الْكِلْدَانِيِّينَ وَالسَّرِيانِيِّينَ وَأَهْلُ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَثَارِهَا وَتَنَاجُجِهَا وَأَبْنُ عُلُومِ
 الْقُبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ خَاصَّةً لِكُلِّ الْمَأْمُونِ
 بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَأَقْدَادِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ وَبَدَلَ الْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ
 نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَعَلِّقَةً طَبِيعِيَّةً يَصْلُحُ أَنْ يُبْحَثَ
 عَمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِأَعْيُنِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ
 مِنَ الْعُلُومِ يُخَصُّهُ لَكِنَّ الْحِكْمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالثَّمَرَاتِ وَهَذَا
 إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا
 شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَصْحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَمَا أُوْنِيئُمْ
 مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. وَهَذَا الْفَنُ الَّذِي لَاحَظْنَا النَّظْرَ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِالْعَرَضِ

لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما
يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم
فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات
اللغات أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبين
العبارة أخذ ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد
في أن الزنا مخلط للأسباب مفسد للنوع وأن القتل أيضاً مفسد للنوع وأن الظلم
مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية
في الأحكام فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض
له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلثة وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل
من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام
المؤيد بن بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي. أيها الملك إن
الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا
قوام للشرعية إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال
ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان
المنصوب بين الخليفة نصه الرب وجعل له قيمياً وهو الملك. ومن كلام أنوشروان
في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة
والعمارة بالعدل والعدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء
ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها
ولا تملكه. وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتقدم بين الناس جزء
صالح منه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار
في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن المؤيد بن بهرام وأنوشروان وجعلها
في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله. العالم بستان سياحه الدولة الدولة
سلطان تخيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند
الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكفهم العدل
العدل مأوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع إلى أول الكلام. فهذه ثمان

كَلِمَاتٍ حَكَمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَأَزْدَتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا وَاتَّصَلَتْ
فِي دَائِرَةٍ لَا تَبْعِي طَرَفًا نَحْرَ بَعْثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَمَ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ
كَلَامَنَا فِي فَصْلِ الدُّوَلِ وَالْمَلِكِ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّنْقِيحِ وَالتَّفْهِيمِ عَثَرْتَ فِي أَثْنَائِهِ
عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى يَتَبَيَّنُ بِأَوْعْيِ بَيَانٍ وَأَوْفَحِ دَلِيلٍ
وَبُرْهَانٍ أَطْلَعَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ أَرَسَطُو وَلَا إِفَادَةٍ مُؤَبَّدَانِ وَكَذَلِكَ تَجِدُ فِي
كَلَامِ آبْنِ الْمُقَفَّعِ وَمَا يَسْتَطَرِدُّ فِي رِسَالَتِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِ
كِتَابِنَا هَذَا غَيْرَ مُبَرِّهَةٍ كَمَا بَرَّهْنَاهُ إِنَّمَا يُجْلِيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنَحَى الْخُطَابَةِ فِي أُسْلُوبِ
الترُّسْلِ وَبِلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ حَوَّمُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الطَّرُوشِي فِي كِتَابِ
سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا وَمَسَائِلُهُ لَكِنَّهُ لَمْ
يُصَادَفْ فِيهِ الرِّمِيَّةُ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةَ وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا
يُؤَوِّبُ أَلْبَابَ الْمَسْئَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْتَرِزُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً
لِحُكَمَاءِ الْفَرَسِ مِثْلَ بَزْرَجْمَهَرٍ وَالْمُؤَبَّدَانِ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُورِ عَنْ دَانِيَالٍ
وَهَرْمِسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَارِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ فَنَاءً وَلَا يَرْفَعُ بِالْبُرْهَانِ
الطَّبِيعِيِّ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيْبٌ شَبِيهُ بِالْمَوَاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوَّمٌ عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ
يُصَادَفْهُ وَلَا تَحَقَّقْ قُصْدُهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلُهُ وَنَحْنُ أَلْهَمْنَا اللَّهَ إِلَى ذَلِكَ الْهَامَا وَأَعَزَّنَا
عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا بَيْنَ نُسْكَرَةٍ وَجَبِيْنَةٍ خَبْرَهُ فَإِنْ كُنْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَمَيَّزْتُ عَنْ
سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْجَاهُ فَنُتَوَقِّقُ مِنَ اللَّهِ وَهِدَايَهُ وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ
وَأَشْتَبَهَتْ بِغَيْرِهِ فَلِلنَّازِلِ التَّحْقِيقِ إِصْلَاحُهُ وَلِي الْفَضْلُ لِأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ
لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ الْآنَ نُبَيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَعْزُضُ
لِلبَشَرِ فِي أَجْمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ فِي الْمُلْكَ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ يُوجُوهُ
بُرْهَانِيَّةٍ يَتَضَحُّ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتَرْفَعُ
الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ اخْتَصَّ بِهَا
فَمِنْهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشَرَفَ بِوَضْنِهِ عَلَى
الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ
دُونَ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّحْلِ وَالْجُرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا

مِثْلُ ذَلِكَ فَبَطَّرَ بَقِيَّةَ إلهَامِي لَا يَفْكَرُ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا السَّعْيُ فِي الْمَعَاشِ وَالْإِعْمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وَجْهِهِ وَأَكْتَسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْإِثْقَارِ إِلَى الْغِنَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا الْعُمُرَانُ وَهُوَ التَّسَاكُنُ وَالْتِمَازُ فِي مَضَرٍّ أَوْ حَلَةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ وَاقْتِضَاءُ الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طَبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نَبَّيْنَهُ وَمِنْ هَذَا الْعُمُرَانُ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي الضَّوَاهِي وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْحُلَلِ الْمُنْتَجِمَةِ فِي الْقَفَارِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَالْمَدَنِ وَالْمَدَرِّ لِلْإِعْتِصَامِ بِهَا وَالتَّحْصُنِ بِجُدُرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَعَرَّضُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعُ عَرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ أَنْ حَصَرَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأَوَّلُ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُمُرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذَكَرَ الْقَبَائِلَ وَالْأُمَمَ الْوَحْشِيَّةَ . وَالثَّالِثُ فِي الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالرَّابِعُ فِي الْعُمُرَانِ الْحَضَرِيِّ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسُ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوُجْهِهِ . وَالسَّادِسُ فِي الْعُلُومِ وَكُتَسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدِّمْتُ الْعُمُرَانِ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدَ وَكَذَا نَقْدِمْ الْمُلْكَ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَأَمَّا نَقْدِمْ الْمَعَاشِ فَإِلَّا الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كَمَا لِي أَوْ حَاجِيٌّ وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكَمَا لِي وَجَعَلْتُ الصَّنَائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهُمَا مِنْهُ بَعْضُ الْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ الْعُمُرَانُ كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدَ وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ

*

الفصل الاول

من الكتاب الاول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الاولى في أَنَّ الْاجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعْبَرُ بِالْحُكْمَاءِ عَنْ هَذَا يَقُولُهُمُ الْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ أَيْ لَا يَدُلُّهُ مِنَ الْاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي أَصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى الْعُمُرَانِ وَبَيَّانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصْحُ

حَيَاتُهَا وَبَقَاؤُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى الْغِنَاءِ بِفَطْرَتِهِ وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى
تَحْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ
غَيْرَ مُؤَفِّيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَفَلًا مَا يُمَكِّنُ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوتُ يَوْمٍ مِنْ
الْخِطَّةِ مَثَلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّعْنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبْخِ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَحْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينٍ وَالْآتِ لَا نَتِمُّ إِلَّا بِصَنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ
حَدَادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاحُورِيٍّ وَهَبَّ أَنَّهُ يَا كُلُّهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَرُبُّوْا أَيْضًا يَحْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ
أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرُ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزَّرْعَةِ وَالْحِصَادِ وَالْدَّرَاسِ الَّذِي
يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّنْبُلِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآتِ مُتَعَدِّدَةً وَصَنَائِعَ
كَثِيرَةً أَكْثَرُ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَعِجِلُ أَنْ تَفِي بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ
وَلَا بُدَّ مِنْ أَجْتِمَاعِ الْقُدْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِيَحْصُلَ الْقُوْتُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ
بِالتَّعَاوُنِ قُدْرٌ الْكَافِيَةُ مِنَ الْحَاجَةِ لَا كَثَرُ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْأَسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ
الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدْرَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُطُوطَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ
مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مَثَلًا أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ
الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا
كَانَ الْعُدُونُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عُضْوًا يَخْصُصُ بِمُدَافَعَتِهِ مَا
يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةٍ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مَهِيئَةٌ
لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تَحْصُلُ لَهُ الْآلَاتُ الَّتِي تَنْوُبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ
الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تَنْوُبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِلَةِ وَالسُّيُوفِ
النَّائِبَةِ عَنِ الْخُيَالِ الْجَارِحَةِ وَالتَّرَاسِ النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
وغيرِهِ بِمَا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا يَقَاوِمُ
قُدْرَتَهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ سِيمَا الْمَفْتَرَسَةِ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحَدَهُ
بِالْجَمَلَةِ وَلَا تَفِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ
التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوْتُ وَلَا غِذَاءٌ وَلَا
تَمَّ حَيَاتُهُ لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا

دَفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِقُدَانِ السَّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيْسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ وَيُعَاجِلُهُ اَلْهَلَاكُ عَنْ مَدَى
 حَيَاتِهِ وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغِذَاءِ وَالسَّلَاحِ لِلْمُدَافَعَةِ
 وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ فَإِذَا هَذَا الْأَجْتِمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ
 وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ وُجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اعْتِمَادِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ وَهَذَا
 هُوَ مَعْنَى الْعُمُرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعًا لِهَذَا الْعِلْمِ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ اثْبَاتٍ
 لِلْمَوْضُوعِ فِي فَنِّهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لِمَا
 تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ اثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ
 فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ اثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ وَاللَّهُ الْمُؤْتَقُ بِفَضْلِهِ
 ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْأَجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمُرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ
 وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طِبَاعِهِمِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتْ
 السَّلَاحُ الَّتِي جُعِلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ
 عَنْهُمْ لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لْجَمِيعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلَا
 يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ
 وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى
 غَيْرِهِ بَعْدُوَانٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا أَنَّ الْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً
 وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوْجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِي
 الْفَحْلِ وَالْجُرَادِ لِمَا اسْتَفْرَى فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِنْقِيَادِ وَالْإِتْبَاعِ لِرَبِّسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا
 مُتَمَيِّزٍ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجُثْأَنِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمَقْتَضَى الْفِطْرَةِ
 وَالْهُدَايَةِ لَا بِمَقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَتَرَى الْفَلَاسِفَةَ
 عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يُحَاوِلُونَ اثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ
 لِلْإِنْسَانِ فَيَقَرُّوْنَ هَذَا الْبُرْهَانِ إِلَى غَايَةٍ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ الْوَازِعِ
 ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ
 مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصٍ هِدَايَةٍ
 لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ انْكَارٍ وَلَا تَرْيِيفٍ
 وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرِ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذَا الْوُجُودَ وَحَيَاةَ الْبَشَرِ قَدْ تَمَّ مِنْ

دُونَ ذَلِكَ بِمَا بَعَرَضَهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجُحُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَثَارُ فَضْلاً عَنْ الْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِمِ الْمُنْحَرَفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوَضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ الْبَتَّةَ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُهُمْ فِي وَجُوبِ النُّبُوءَاتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِي وَإِنَّمَا مُدْرِكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِي التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه

من الاشجار والانهار والاقاليم

إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مُحْفُوفَةٌ بِعُنُصُرِ الْمَاءِ كَانَهَا عِنَبَةً طَافِيَةً عَلَيْهِ فَأَتَحَسَّرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمُرَانِهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَقَّعُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا أَلْتَحَتِ الطَّبِيعَةُ قَلْبَ الْأَرْضِ وَوَسَطَ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي أُنْحَسَرَّ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ احاطَ الْعُنْصُرُ الْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بِجَرٍّ يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا بِلَبَايَةِ بَتْفِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أَوْقِيَانُوسَ اسْمَاءً عَجْمِيَّةً وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشَفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرَانِ فِيهِ الْفَقَارُ وَالْخِلَافَةُ أَكْثَرُ مِنْ عُمُرَانِهِ وَالْخِلَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كُرْوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيٍّ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعُنْصُرِيِّ الَّذِي

بَيْنَهُمَا سِدٌّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَتَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضًا بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ
 الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقَلُّ وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ
 الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَخَطُّ الْأَسْتَوَاءِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى
 الْمَشْرِقِ وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ وَأكْبَرُ خَطٍّ فِي كُرَّتِهَا كَمَا أَنَّ مَنْطِقَةَ فَلَكَ الْبُرُوجِ
 وَدَائِرَةَ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍّ فِي الْفَلَكَ وَمَنْطِقَةُ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثَةِ وَسْتَيْنِ
 دَرَجَةٍ وَالْدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخًا وَالْفَرْسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ
 ذِرَاعٍ وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعًا وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتٍ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٍ مُلْصِقَةٍ
 بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهَرًا لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتُسَمَّى
 خَطُّ الْأَسْتَوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ
 الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا
 عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالتَّجْمُودِ كَمَا كَانَتْ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا
 بَيَّنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ الْخُبْرَيْنِ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا
 فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمَدُنِ وَالْجِبَالِ وَالنَّجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْفَقَارِ وَالرِّمَالِ مِثْلَ بَطْلَيْمُوسَ فِي
 كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ زَخَارٍ مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ
 يَسْمُونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهَمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ
 مُخْتَلِفَةٍ فِي الطُّولِ فَأَلَا فِلِمْ الْأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ
 السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ انْخِسَارِ الْمَاءِ عَنْ كُرَّةِ الْأَرْضِ
 وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعِشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 عَلَى التَّوَالِي وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخُبْرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمَرَانِهِ . وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ
 الْمُحِيطَ يُخْرِجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْأَفْلَهِمِ الرَّابِعِ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ الْمَعْرُوفُ بِبَدَا
 فِي خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا أَوْ تَحْوَاهَا مَا بَيْنَ طَبْجَةِ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى
 الزُّفَاقُ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشْرِقًا وَيَنْفَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَنَهَائَتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ
 الرَّابِعِ مِنَ الْأَفْلَهِمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِائَةٍ وَسِتِّينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَأِهِ وَعَلَيْهِ هُنَاكَ
 سَوَاحِلُ الشَّامِ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ أُولَئِكَ طَبْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ ثُمَّ

اَفْرِيقِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةُ إِلَى الْأَسْكَدَرِيَّةِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّامِ سَوَاحِلُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عِنْدَ الْخَلِيجِ
 ثُمَّ الْبَنَادِقَةِ ثُمَّ رُومَةُ ثُمَّ الْأَفْرِجِيَّةُ ثُمَّ الْأَنْدَلُسُ إِلَى طَرِيفٍ عِنْدَ الزُّفَاقِ فَبَالَةَ طَنْجَةَ وَيُسَمَّى
 هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالشَّامِيُّ وَفِيهِ جُزُرٌ كَثِيرَةٌ عَامِرَةٌ كَبَارُ مِثْلِ أَفْرِيطِسَ وَقَبْرُصَ
 وَصَقْلِيَّةَ وَمَيُورَقَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْهُ فِي جِهَةِ الشَّامِ بَحْرَانِ آخَرَانِ مِنْ
 خَلِيجَيْنِ أَحَدُهُمَا مَسَامَتْ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بَدَأَ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُضَافًا فِي عَرْضِ رَمِيَّةِ
 السَّهْمِ وَيَمُرُّ ثَلَاثَةَ بَحَارٍ فَيَتَّصِلُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ثُمَّ يَنْسَحُ فِي عَرْضِ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ
 وَيَمُرُّ فِي جَزْبِهِ سِتِينَ مِيَالًا وَيُسَمَّى خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ عَرْضُهَا سِتَّةُ
 أَمْيَالٍ فَيَمْدُ بَحْرَ نِيطُسَ وَهُوَ بَحْرٌ يَخْرُفُ مِنْ هُنَاكَ فِي مَدْيِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ
 بِأَرْضِ هِرْقَلَةَ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الْخَزَرِيَّةِ عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ مِيلٍ مِنْ فُوهَتِهِ وَعَلَيْهِ مِنَ
 الْجَانِبَيْنِ أُمَمٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّرْكِ وَبَرْجَانِ وَالرُّوسِ وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنَ خَلِيجِي هَذَا الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ وَهُوَ بَحْرُ الْبَنَادِقَةِ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ عَلَى سَمْتِ الشَّامِ فَإِذَا أَنْتَهَى إِلَى
 سَمْتِ الْجَبَلِ انْخَرَفَ فِي سَمْتِ الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ إِنْكَلَايَةَ
 عَلَى أَلْفٍ وَمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَأِهِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِنَ الْبَنَادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَمٌ وَيُسَمَّى
 خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ قَالُوا وَيَنْسَحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْخَمِيطُ أَيْضًا مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ
 دَرَجَةً فِي الشَّامِ مِنْ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ بَحْرٌ عَظِيمٌ مَتَسِعٌ يَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ قَلِيلًا حَتَّى يَنْتَهِيَ
 إِلَى الْأَفْلَحِمِ الْأَوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغْرِبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ
 الْحَبَشَةِ وَالزُّنُجِ وَإِلَى بِلَادِ بَابِ الْمَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَلْفٍ فَرَسَخٍ مِنْ مَبْدَأِهِ
 وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الصِّيْنِيُّ وَالْهِنْدِيُّ وَالْحَبَشِيُّ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلَادُ الزُّنُجِ وَبِلَادُ
 مَوْبَرَ أَلِي ذَكَرَهَا أَمْرُؤُ الْقَيْسِ فِي شَعْرِهِ وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ
 ثُمَّ بَلَدٌ مَقْدَسُهُمْ بَلَدٌ سَفَالَةٌ وَأَرْضُ الْوُفُوقِ وَأُمَمٌ آخَرٌ لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْفَقَارُ وَالْخِلَافَةُ
 وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السِّنْدُ ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ
 الْأَحْقَافِ وَزَيْدٌ وَغَيْرُهُمْ بِلَادُ الزُّنُجِ عِنْدَ نَهَائِهِ وَبَعْدَهُ الْحَبَشَةُ قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ
 هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيُّ بِحَرَائِنِ آخَرَانِ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نَهَائِهِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ فَيَبْدَأُ
 مُضَافًا ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبَحِرًا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ وَمَغْرِبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْقَلْزَمِ فِي
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْأَفْلَحِمِ الثَّانِي عَلَى أَلْفٍ وَارْبَعِينَ مِيلًا مِنْ مَبْدَأِهِ وَيُسَمَّى بَحْرُ

الْقَلْزُومَ وَبَحْرَ السُّوَيْسِ وَبَيْنَ فُسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَاكَ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ وَعَلَيْهِ مِنْ
 جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجَدَّةٌ ثُمَّ مَدِينُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نَهَائِهِ وَمِنْ
 جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الصَّعِيدِ وَعَيْدَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلُ ثُمَّ بِلَادُ الْحَبْشَةِ عِنْدَ مَبْدَإِهِ
 وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقَلْزُومِ يُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ وَبَيْنَهُمَا تَحْوُسُ مَرَاحِلُ وَمَا
 زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْأَسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ
 هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى الْخَلِيجُ الْأَخْضَرُ يُخْرِجُ مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَحْقَافِ مِنَ
 الْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَيْلَةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ
 فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَرْبَعِمِائَةٍ فَرَسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدَإِهِ
 وَيُسَمَّى بَحْرُ فَارَسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانُ وَكُرْمَانُ وَفَارَسُ
 وَالْأَيْلَةُ وَعِنْدَ نَهَائِهِ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانُ وَالشَّحْرُ وَالْأَحْقَافُ
 عِنْدَ مَبْدَإِهِ وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارَسَ وَالْقَلْزُومِ وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ كَانَتْ دَاخِلَةً مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ
 يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقَلْزُومِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارَسَ مِنَ الشَّرْقِ
 وَتَقْضِي إِلَى الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَاكَ الْكُوفَةُ
 وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِسْرَى وَالْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمُّ الْأَعْلَمِ مِنَ التُّرْكِ
 وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ
 وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانُ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى
 الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٍ آخَرَ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبَحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ
 بَارِضُ الدِّلِيمِ يُسَمَّى بَحْرُ جُرْجَانٍ وَطَبَرِسْتَانُ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ
 فِي غَرْبِهِ أَذَرْبَيْجَانُ وَالدِّلِيمُ وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمُ وَفِي جَنُوبِيهِ طَبَرِسْتَانُ
 وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَاللَّانُ . هَذِهِ جُمْلَةُ الْبَحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ
 الْجُغَرَفِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ النَّيْلُ
 وَالْفُرَاتُ وَدَجَلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جِيحُونَ . فَأَمَّا النَّيْلُ فَبَدَأَ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ حَظِ
 الْأَسْتَوَاءِ بِسَبْعَةِ عَشَرَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ
 الْقَهْمَرِ وَلَا يُعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ مِنْهُ عَيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي
 بَحِيرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بَحِيرَةٍ

وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ الْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ نَهْرَانِ
يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِلَادِ النُّونَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا
جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَائِجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ عِنْدَ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيهِ وَالْوَالِحَاتُ
مِنْ غَرْبِيهِ وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي
الْبَحْرِ الْمَحْيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمَمَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفْتَيْهِ . وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ
بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ
وَمَطْلِيَّةٍ إِلَى مَنَبْجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصَفَيْنِ ثُمَّ بِالرَّقَّةِ ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ
الَّتِي بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَاسِطٍ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَتَجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ
أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دَجَلَةٍ . وَأَمَّا دَجَلَةُ فَمَبْدَأُهَا عَيْنٌ
بِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَآذَرَ بِيحَانَ وَبَغْدَادَ
إِلَى وَاسِطٍ فَتَنْفَرِّقُ إِلَى خُلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ
فِي الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ وَيَجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيهَا
بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدَجَلَةٍ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ عُدُوتِي الْفُرَاتِ وَقِبَالَ
آذَرَ بِيحَانَ مِنْ عُدُوتِ دَجَلَةٍ . وَأَمَّا نَهْرُ جَيْخُونٍ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بَلَحٍ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عِيُونِ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ وَتَجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عَظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ الْجَنُوبِ
إِلَى الشَّامِ فَيَمُرُّ بِلَادِ خُرَّاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خَوَارِزْمَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي
مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرَعَانَةَ وَالشَّاشُ الْآتِي مِنَ بِلَادِ التُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِي نَهْرِ جَيْخُونٍ
بِلَادُ خُرَّاسَانَ وَخَوَارِزْمَ وَعَلَى شَرْقِيهِ بِلَادُ بَخَارَى وَتُرْمُذُ وَسَمَرْقَنْدُ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا
وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرَعَانَةَ وَالْحَزَلْجِيَّةَ وَأَمَمُ الْأَعْلَامِ وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِطَلِيمُوسُ
فِي كِتَابِهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زَخَارٍ وَصَوَّرُوا فِي الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ
الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلِأَنَّ عَيْنَانَا فِي
الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ الْبَرَبِ وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ
الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّتُ

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبي

وذكر السبب في ذلك

وَمَعْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ
الْمَعْمُورَةِ أَقْلُ عُمُرَانَا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمُرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخِلَاءُ وَالْفَقَارُ وَالرَّ مَالٌ
وَالْبُحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأَمُّ هَذَيْنِ الْأَقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُهُمَا لَيْسَتْ لَهُمْ
الْكثَرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ
فَالْفَقَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرَّ مَالٌ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأُمَمُهَا وَأَنَاسِيُهَا تَجُوزُ أَحَدَ مِنَ الْكثَرَةِ
وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تَجَاوِزُ أَحَدَ عَدَدًا وَالْعُمُرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ
وَالْجُنُوبُ خَالِيَةٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ
مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلْنُوضِّحْ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَبَيِّنْ مِنْهُ سَبَبَ كَثَرَةِ
الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ . فنَقُولُ إِنَّ
قُطْبِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ فَهَذَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ
بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَكَارَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ
النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى
الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يَحْرُكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاقِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مُحَسَّوَسَةٌ
وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ
إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي الشَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَتَكْرَرَاتِ
هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا تَوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُ
بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكَ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةً بِأَثْنِي عَشَرَ بُرْجًا وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ
مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ
الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ
وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ
الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خُطٌّ وَاحِدٌ يُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 وَيُسَمَّى خُطُّ الْأَسْتَوَاءِ وَوَقَعَ هَذَا الْخُطُّ بِالرَّصَدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ
 مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَالْعُمُرَانُ كُلُّهُ فِي أَلْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هَذَا الْعُمُورِ
 بِالْتَدْرِجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهَذَا يَنْقُطِعُ الْعُمُرَانُ
 وَهُوَ آخِرُ الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى الْآفَاقِ سَعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ
 وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى الْآفَاقِ وَبَقِيَ سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْآفَاقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ
 تَحْتَ الْآفَاقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسَّتِّينَ إِلَى السَّعِينَ مُنْتَفَعَةٌ لِأَنَّ
 الْحَرَّ وَالْبَرْدَ جَمِيعًا لَا يَحْصُلَانِ مُتَزَجِينَ لِبَعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْصُلُ التَّكُونُ فَإِذَا
 الشَّمْسُ تَسَامَتْ الرُّؤُوسَ عَلَى خُطِّ الْأَسْتَوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ثُمَّ تَقِيلُ عَنِ
 الْمُسَامَةِ إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَرَأْسِ الْجَدْيِ وَيَكُونُ نِهَايَةُ مِيلِهَا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ
 النَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْآفَاقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ
 النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمَقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمَقْدَارِ
 مُتَسَاوٍ فِي الثَّلَاثَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِفِ عَرْضَ الْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ
 مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي مَقْدَارِ عُلُوِّهَا
 إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْآفَاقِ كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجَدْيِ
 لَانْخِرَافِهَا إِلَى الْجَانِبَيْنِ فِي أَفْقِ الْأَسْتَوَاءِ كَمَا قُلْنَا فَلَا يَزَالُ الْآفَاقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى
 يَصِيرَ أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ السَّرْطَانِ فِي سَمْتِ الرُّؤُوسِ وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ
 الْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي الْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهَذَا هُوَ الْمِيلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرْطَانِ
 عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الْأَسْتَوَاءِ ارْتَفَعَ بِارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامَةً
 فَإِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ وَلَا تَزَالُ
 فِي انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ
 الْمُسَامَةِ كَذَلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْآفَاقِ مِثْلَهَا فَيَنْقُطِعُ التَّكُونُ لِإِفْرَاطِ
 الْبَرْدِ وَالْجَمْدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرِ مُتَزَجٍ بِالْحَرِّ ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا
 يَقَارِبُهَا تَبَعَتْ الْأَشْعَةَ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ الْمُسَامَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَةٍ وَإِذَا كَانَتْ
 زَوَايَا الْأَشْعَةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوْءُ وَانْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرِجَةِ وَالْحَادَةِ فَلِهَذَا يَكُونُ

الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ لِأَنَّ الصَّوْفَ سَبَبُ الْحَرِّ وَالْتَسَخِينِ
 ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَةَ فِي خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ نَقْطَتِي الْحَمَلِ
 وَالْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مِيلَيْهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرَطَانِ
 وَالْجُذْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَةِ فَبَقِيَ الْأَشْعَةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايَا تُلْحَقُ عَلَى ذَلِكَ
 الْأَفْقِ وَيَطُولُ مُكْثَرًا أَوْ يَدُومُ فَيَسْتَعِلُّ الْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيَفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا
 دَامَتْ الشَّمْسُ تَسَامَتْ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّ
 الْأَشْعَةَ مُلْحَقَةً عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنَ الْحَاحِيَا فِي خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ وَإِفْرَاطُ الْحَرِّ
 يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيَسَا مَبْعُ مِنَ التَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَنَّتِ الْمَيَاهُ
 وَالرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانِ وَالنبَاتِ إِذَا التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ
 إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ
 فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتْ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْإِعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مِيلًا
 قَلِيلًا فَيَكُونُ التَّكْوِينُ وَيَتَزَايِدُ عَلَى التَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَفْرِطَ الْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقَلَّةِ
 الصَّوْفِ وَكَوْنِ الْأَشْعَةِ مَذْفَرَةً الزَّوَايَا فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ يَدَّ أَنْ فَسَادَ التَّكْوِينِ
 مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي التَّجْفِيفِ
 مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمْرَانُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ قَلِيلًا وَفِي
 الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِإِعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنُقْصَانِ الصَّوْفِ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ
 كَثِيرًا لِنُقْصَانِ الْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لَا تَوَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا
 يَفْعَلُ الْحَرُّ إِذَا لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْضُ لَهَا حَيْثُ يُدْ مِنَ الْبَيْسِ كَمَا بَعْدَ
 السَّابِعِ فَلِذَا كَانَ الْعُمْرَانُ فِي الرَّبْعِ السَّمَائِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ
 الْحُكَمَاءُ خِلَاءَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالشَّاهِدِ
 وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرِيدُوا امْتِنَاعَ
 الْعُمْرَانِ فِيهِ بِالْكَلِمَةِ إِنَّمَا أَدَّاهُمُ الْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ
 الْحَرِّ وَالْعُمْرَانِ فِيهِ إِمَّا مُنْتَبِعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقُولِي . وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ الْأَسْتَوَاءِ وَالَّذِي
 وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا . وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ
 الْأَسْتَوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ بِمِثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذي قاله غير ممنوع من جهة فساد الكونين وإنما امتنع فيما وراء
 خط الاستواء في الجنوب من جهة أن الغنصر المائي عمر وجه الأرض هناك إلى
 الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للكونين ولما امتنع المعتدل لغيبة
 الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج وياخذ في التدرج من جهة الوجود لا من
 جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيردّه النقل المتواتر والله
 أعلم. وانزسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم
 ناخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من
 الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على
 هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها أخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول
 منها ما من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحدّه من جهة الجنوب وليس
 وراءه هناك إلا القفار والرّمال وبعض عمارة إن صحّت فهي كالأعمدة ويكبه من
 جهة شمالية الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع
 وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السّابع إلا الخلاء والقفار إلى أن
 ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن
 الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمّة
 الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار
 وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول
 الليل والنهار في آخر الأقاليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدلي لليل
 وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر
 الإقليم الثاني بما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان
 وهو منقلبها الصفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها
 الشتوي برأس الجدلي ويبقى للأفصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف
 من جملة أربع وعشرين الساعة الزمانية لجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِمَّا بَلَى الشَّمَالُ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي
 آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ سَاعَةٍ وَفِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ
 سَاعَةً وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ وَإِلَى آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ
 عَشْرَةَ سَاعَةً وَهَذَا بِنَقْطِ الْعُمُرَانِ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِيهَا
 وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ يَزِيدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي
 نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُوزَعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا الْبُعْدِ وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ وَهُوَ
 عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ الْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ خَطِ
 الْأَسْتِوَاءِ وَيَمِثِلُهُ سِوَاهُ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ الْقُطْبُ
 الشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضُ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ .
 وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغْرَافِيَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ السَّبْعَةِ فِي طَوْلِهِ
 مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذْكُرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ
 جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَتَحْنُ
 الْآنَ نُوجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا
 وَنَحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِّ الَّذِي أَلْفَهُ الْعُلُوِيُّ الْأَدْرِيسِيُّ الْحَمُودِيُّ
 إِمْلِكُ صِقْلِيَّةٍ مِنَ الْأَيْفَرَنْجِ وَهُوَ زَخَارُ بْنُ زَخَارٍ عِنْدَ مَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلِيَّةٍ بَعْدَ
 خُرُوجِ صِقْلِيَّةٍ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةٍ وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ
 وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً لِلْمَسْعُودِيِّ وَأَبْنِ خَرْدَاذِيهِ وَالْحَوْفَلِيِّ وَالْقَدْرِيِّ وَأَبْنِ إِسْحَاقَ
 الْمَنْجَمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرَهُمْ وَبَدَأَ مِنْهَا بِالْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى يَعِصِمُنَا بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الْأَقْلِيمُ الْأَوَّلُ * وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِهِ الْجَزَائِرُ الْخَالِدَاتُ الَّتِي مِنْهَا بَدَأَ بَطْلِيمُوسُ
 بِأَخْذِ أَطْوَالِ الْبِلَادِ وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْأَقْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جُزُرٌ
 مُتَكَثِرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهُرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ
 الْأَيْفَرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوَاسِطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَنَقِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَّوْا وَبَاعُوا بَعْضَ
 أَسْرَاهُمْ بِسُوَاكِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللِّسَانَ
 الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَمْنِهِمْ يَحْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرْعَةِ بِالْقُرُونِ وَأَنَّ

الْحَدِيدَ مَقُودٌ بِأَرْزِهِمْ وَعَيْسُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَا شَيْبَتَهُمُ الْمَعَزُ وَقَتْلَهُمُ بِالْجِجَارَةِ بِرْمُومِهَا
إِلَى خَلْفٍ وَعِبَادَتُهُمُ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ
وَلَا يُؤَفِّتُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرُ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَفَرَ السُّنَنِ فِي الْبَحْرِ
إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَّاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَايِهَا وَإِلَى أَيْنٍ يُوصَلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ مِنَ
الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَرِّ ذَلِكَ الْمَهَبِّ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُّ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصَلُ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ
حُوزِي بِهِ الْقُلُوعُ تَحَاذَاهُ يَحْمِلُ السَّفِينَةُ بِهَا عَلَى قَوَائِنٍ فِي ذَلِكَ تَحْصَلُهُ عِنْدَ النَّوَائِيَةِ
وَالْمَلَا حِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ السُّنَنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيَّ
وَفِي عُدُوتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا
فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَهَبَابِ الرِّيَّاحِ وَمَرَاتِبِهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي نَاكِ
الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكِتَابَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَقُودٌ فِي الْبَحْرِ
الْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ السُّنُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ
إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوْهِ هَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْجَرَةِ الْمُمَانَةِ
لِلْسُّنَنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الدَّنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ
فَتَحْلَلِيهَا فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعِبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ
هَذَا الْأَقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ النَّيْلِ الْآتِي مِنْ مَبْدَأِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى
نَيْلَ السُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولُنْكَ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ
مَدِينَةُ سَلَا وَتَكَرُّورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكٍ مَالِي مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ وَإِلَى
بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تِجَارَةُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِهَا بِلَادٌ لِمَتُونَةٍ وَسَائِرُ
طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ وَمَفَاوِزُ يَحُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنْبَيْ هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ
الْمَلَمُّ وَهُمْ كُنَّازٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وَجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالْتِكَرُّورِ يُغِيرُونَ
عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونُهُمْ وَيَبْعُونُهُمْ لِلتَّجَارِ فَيَحْبِسُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ
وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانُ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنْاسِيٌّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ النُّعْمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ
الْفَيَافِي وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَالْحَبُوبَ غَيْرَ مَهْيَاةٍ وَرَبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهُ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلُ
تَوَاتٍ وَتَكَدَّرَارِينَ وَوُزْكَالَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعُلَوِيِّينَ

يَعْرِفُونَ بَنِي صَالِحٍ وَقَالَ صَالِحٌ كِتَابُ زَخَّارٍ إِنَّهُ صَالِحٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
الْحَسَنِ وَلَا يَعْرِفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا
الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةً لِسُلْطَانِ مَالِي وَفِي شَرْقِي هَذَا الْبَلَدِ فِي الْخُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْأَقْلِيمِ بَلَدٌ
كُوْكُو عَلَى نَهْرٍ يَنْسُجُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَاكَ وَيَمُرُّ مَغْرَبًا فَيَعُوضُ فِي رِمَالِ الْخُزْءِ الثَّانِي
وَكَانَ مَالِكُ كُوْكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ
وَحَرَبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذَرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِي فِي مُحَاكِمَاتِهَا
مِنْ تَارِيخِ الْبَزْرِ وَفِي جَنُوبِي بَلَدِ كُوْكُو بِلَادُ كَاتَمٍ مِنَ أَمْرِ السُّودَانِ وَبَعْدَهُمْ وَنَعَارَةُ
عَلَى ضِفَةِ النَّيْلِ مِنَ شَمَالِهِ وَفِي شَرْقِي بِلَادِ وَنَعَارَةُ وَكَاتَمُ بِلَادُ زَغَاوَةٍ وَتَاجِرَةِ الْمُتَصِلَةِ
بِأَرْضِ النَّوْبَةِ فِي الْخُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ وَفِيهِ يَمُرُّ نَيْلٌ مُصَرٌّ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدَأِهِ
عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ هَذَا النَّيْلُ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ
الَّذِي فَوْقَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَاسْتَقْبَلُوا فِي ضَبْطِ هَذِهِ الْكَلْفَةِ فَضَبَطَهَا
بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْكَافِ وَالْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْؤِهِ وَفِي
كِتَابِ الْمُشْتَرَكِ لِيَاقُوتٍ بِضَمِّ الْكَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ
وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عِيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بَحِيرَةٍ
وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا
فِي بَطِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَصْفَافِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَسْقُ الْبَحِيرَةَ مِنَ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا
بِقِسْمَيْنِ فَيَمُرُّ الْعَرَبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُغْرَبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيَخْرُجُ
الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْخُبَشَةِ وَالنُّوْبَةِ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى
أَرْضِ مُصَرٍّ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةٌ مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدِ
وَدَمِيَاطٍ وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بَحِيرَةٍ مُلْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ فِي وَسْطِ هَذَا الْأَقْلِيمِ
الْأَوَّلِ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النَّوْبَةِ وَالْخُبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَاخَاتِ إِلَى أُسْوَانَ وَحَاضِرَةِ
بِلَادِ النَّوْبَةِ مَدِينَتُهُ دَقْلَةٌ وَفِي فِي غَرْبِي هَذَا النَّيْلِ وَبَعْدَهَا عُلُوَّةٌ وَبِلَاقُ وَبَعْدَهُمَا جَبَلٌ
الْجَنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاكِحٍ مِنْ بِلَاقٍ فِي الشَّمَالِ وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مُصَرٍّ وَمُنْخَفِضٌ
مِنْ جِهَةِ النَّوْبَةِ فَيَنْفُذُ فِيهِ النَّيْلُ وَيَصُبُّ فِي مَهْوَى بَعِيدٍ صَبًّا هَائِلًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ
تَسْلُكَهُ الْمَرَاكِبُ بَلْ يَحُولُ الْوَسْقُ مِنْ مَرَاكِبِ السُّودَانِ فَيَحْمَلُ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى بَلَدِ

اسْوَانُ قَاعِدَةِ الصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأَسْوَانِ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرَحَلَةً
 وَالْوَأَحَاتُ فِي غَرْبِهَا عَدْوَةُ النَّيْلِ وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسْطِ
 هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبْشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ حُطِّ الْإِسْتَوَاءِ
 ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ النَّوْبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ
 النَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ وَبَطْلِيْمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ
 إِنْسٌ مِنْ هَذَا النَّيْلِ . وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي
 يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ الصِّينِ وَيَعْمُرُ عَامَّةً هَذَا الْإِقْلِيمِ . إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ
 عُمُرَانُ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يَقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ
 أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرْفٌ مِنْ
 بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيمَا
 بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْهَابِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُزْمٍ وَبَحْرُ
 فَارَسٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الشَّعْرِ فِي شَرْقِهَا
 عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهَا كَمَا نَذَرَهُ فِي
 الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِهِ فَبَلَدُ زَالَعٍ مِنْ
 أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبْشَةِ وَبَجَالَاتُ الْبَحَّةِ ^(١) فِي شِمَالِ الْحَبْشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَّاقِي فِي أَعَالِي
 الصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ الْقُزْمِ الْهَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالَعٍ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ
 فِي هَذَا الْجُزْءِ خَلِيجٌ بَابُ الْمَنْدَبِ يَصْبِقُ الْبَحْرُ الْهَابِطُ هُنَاكَ بِمُزَاحِمَةِ جَبَلِ الْمَنْدَبِ
 الْمَائِلِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مُتَمِّدًا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي
 طُولِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَيَصِيقُ الْبَحْرُ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ
 أَوْ تَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابُ الْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمْرُ مَرَاكِبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوَيْسِ قَرِيبًا
 مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ الْمَنْدَبِ جَزِيرَةٌ سَوَاقِنٌ وَدَهْلُكٌ وَقُبَالَتِهِ مِنْ غَرْبِهِ بَجَالَاتُ الْبَحَّةِ
 مِنْ أَمْرِ السُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ تِهَائِمُ الْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ
 بَلَدُ عَلِيٍّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالَعٍ وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِهِ قُرَى
 بَرَبَرٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيَّةٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَكِلِيهَا هُنَاكَ مِنْ

(١) ويقال أيضا انجاء واما زالع فهي زبلع اء

جَهَةِ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الزُّنَجِ ثُمَّ بِلَادُ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادُ الْوُفُوقِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى
 آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْحَمِيْطِ . وَأَمَّا
 جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَعْظَمِهَا جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبَ مَدَوَّرَةٌ الشَّكْلِ . وَهِيَ
 الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَهْرِ وَهِيَ
 جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى
 أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ وَيَحْتَفُّ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِهَا جَزَائِرُ الْوُفُوقِ
 وَمِنْ شَرْقِيَّهَا جَزَائِرُ السِّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرِ آخَرٍ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ وَفِيهَا أَنْوَاعُ
 الطَّيِّبِ وَالْأَفَاوِيهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُودِ وَعَامَّةُ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْجَوْسِيَّةِ
 وَفِيهِمْ مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْجَزَائِرُ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ عَجَائِبُ ذِكْرُهَا أَهْلُ الْجُغَرَفِيَا
 وَعَلَى الضَّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْيَمَنِ كُلُّهَا
 فَمِنْ جَهَةِ بَحْرِ الْقَزْمِ بَلَدٌ زَبِيدٌ وَالْمَجْمُوعُ وَهِيَ أَمَامَةُ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بَلَدٌ صَعْدَةُ مَقَرُّ الْإِمَامَةِ
 الزُّبَيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَفِيهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ
 وَفِي شَمَالِهَا صَنْعَاءُ وَبَعْدُهَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَحْقَافِ وَظَفَّارُ وَبَعْدَهَا أَرْضُ
 حَضْرَمُوتِ ثُمَّ بِلَادُ الشَّيْخِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارَسَ . وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ هِيَ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْوُسْطَى وَيَنْكَشِفُ
 بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ الثَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي بِلَادِ الصِّينِ وَمِنْ مَدْنِهِ
 الشَّهِيرَةِ خَانِكُو قِبَالَتِهَا مِنْ جَهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السِّيْلَانِ وَقَدْ نَقَدَمُ ذِكْرُهَا وَهَذَا آخِرُ
 الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِي التَّوْفِيقِ بِمَنْهِ وَفَضْلِهِ

الْإِقْلِيمُ الثَّانِي * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جَهَةِ الشَّمَالِ وَقِبَالَةُ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ
 الْحَمِيْطِ جَزَيْرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْهُ
 فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنْوَرِيَّةٌ وَبَعْدَهَا فِي جَهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ
 زَغَاوَةَ مِنَ السُّودَانِ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَخْرَةٌ نِسْتَرُ مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ
 ذَاتُ مَفَاوِزٍ تَسْلُكُ فِيهَا الشَّجَارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ وَفِيهَا مَجَالَاتُ
 الْمَلْثَمِينَ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ كَرْوَلَةَ وَلِمَثُونَةَ وَمَسْرَاتَةَ وَلِمَطَةَ
 وَوَرِيكََةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فِرَّانَ ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَازَ مِنْ قِبَالِ

الْبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّلَاثِ
 وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضٍ وَذَانِ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضٌ سِنْتَرِيَّةٌ وَتُسَمَّى الْوَاحَاتِ
 أَدَاخِلَةً وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاهَوِيِّينَ ثُمَّ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ هَذَا
 الْجُزْءِ بِلَادُ الصَّعِيدِ حَافَتُ النِّيلِ الدَّاهِبِ مِنْ مَبْدَأِهِ فِي الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَصَبِهِ فِي
 الْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الْحَاجَرَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ وَجَبَلُ
 الْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيَّةٍ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلَاهُ بَلَدٌ أَسْنَا وَأَزْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى
 أَسْوَطِ وَفُوصِ ثُمَّ إِلَى صُولٍ وَيَقْتَرِقُ النِّيلُ هُنَاكَ عَلَى سَبْعِينَ يَتَّبِعِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا
 الْجُزْءِ عِنْدَ الْأَهْوَنِ وَالْأَيْسَرِ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي الشَّرْقِ مِنْ
 جَبَلِ الْمُقَطَّمِ صَخْرَى عِيَذَابٍ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ
 وَهُوَ بَحْرُ الْقَلْزُومِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَفِي عُدُوتِهِ
 الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ النُّجَازِ مِنْ جَبَلٍ يَكْلَمُ إِلَى بِلَادِ يَنْزَبَ فِي وَسْطِ الْحِجَازِ
 مَكَّةَ شَرْفَهَا اللَّهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةٍ تُقَابِلُ بَلَدَ عِيَذَابٍ فِي الْعُدُوتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا
 الْبَحْرِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِيَّةِ بِلَادُ تَجْدٍ أَعْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَتَبَالَةُ وَجُرْشُ إِلَى
 عُكَاظٍ مِنَ الشَّمَالِ وَتَحْتَ تَجْدٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ النُّجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ
 بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَا وَمَارِبَ
 ثُمَّ أَرْضُ الشَّحْرِ وَتَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ
 إِلَى الشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيَّةِ
 وَجَوْفِيَّةِ قِطْعَةً مُثَلَّثَةً عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْبَاتٍ وَهِيَ سَاحِلُ الشَّحْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ
 بِلَادُ عُيْمَانَ ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ وَتَجُورُ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْ
 غَرْبِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الْأُخْرَى فِي السَّادِسِ وَتَعْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ
 الْأَعْلَى كُلُّهُ وَعَلَيْهِ هُنَاكَ بِلَادُ السِّنْدِ إِلَى بِلَادِ مَكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبَرَانَ وَهِيَ مِنْ
 السِّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ السِّنْدُ كُلُّهُ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَحُولُ الْمَقَاوِرُ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الْأَيْمَنُ مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ
 فِي الْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ بَلَهْرَا وَتَحْتَهَا
 فِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ الْخُحِيطِ بِلَادُ الْقَنْوُجِ مَا بَيْنَ

قَشْمِيرَ الدَّخْلَةِ وَقَشْمِيرَ الْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الْإِفْلِيمِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ
الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ الْأَقْصَى وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى
الْعَابِثِ وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا مَدِينَةُ شِيغُونِ ثُمَّ تَتَّصِلُ
بِلَادُ الصِّينِ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلُّهُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِهِ سُبْحَانَهُ
التَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ

الْإِفْلِيمُ الثَّلَاثُ * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ وَعَلَى
نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنٌ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الشَّرْقِ
عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْتَكُنُّ هَذَا الْجَبَلُ مِنَ الْبَرْبَرِ أُمَّمٌ لَا يُخْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسْبَمَا يَأْتِي
ذِكْرُهُ وَفِي الْقِطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِفْلِيمِ الثَّانِي وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ
مَاسَةٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سُوسَ وَنُؤُلَ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرَعَةٍ ثُمَّ بِلَادُ مِجْلَمَاسَةٍ
ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءٍ نَسْتَرِ الْمَقَارَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الْإِفْلِيمِ الثَّانِي وَهَذَا الْجَبَلُ مُطْلٌ
عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ وَهُوَ قَائِلُ الثَّنَائِيَا وَالْمَسَالِكِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ
إِلَى أَنْ يَسَامَتْ وَادِي مَلَوِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَائِيَاهُ وَمَسَالِكُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ
مِنْهُ أُمَّمٌ الْمَصَامِدَةُ ثُمَّ هَنْتَانَةُ ثُمَّ تَيْمَمَلَكُ ثُمَّ كَدَمِيُوهُ ثُمَّ مَشْكُورَةُ وَهُمْ آخِرُ الْمَصَامِدَةِ
فِيهِ ثُمَّ قِبَائِلُ صَنْهَاكَةَ وَهُمْ صَنْهَاجَةُ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قِبَائِلِ زَنَانَةَ وَيَتَّصِلُ
بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيهِ جَبَلُ أُوْرَاسَ وَهُوَ جَبَلٌ كُتَامَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُمَّمٌ أُخْرَى مِنَ الْبَرْبَرَةِ
نَدَّ كُرْهُمْ فِي أَمَاكِيهِمْ ثُمَّ إِنَّ جَبَلٌ دَرَنٌ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ مُطْلٌ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ
الْأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِيهِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَكَشَ وَأَغْمَاتٍ وَتَادَلَا وَعَلَى
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفَى وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي الْجُوفِ عَنْ بِلَادِ مَرَكَشَ بِلَادُ فَاسٍ
وَمِمْكَاسَةُ وَتَاوَا وَقَصْرُ كُتَامَةٍ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عُرْفِ أَهْلِهَا
وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا بِلْدَانُ أَصِيلَا وَالْعَرَايشَ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ
الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَقَاعِدُهَا تَلْمَسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ بِلْدَانُ هَنِينَ وَوَهْرَانُ
وَالْجَزَائِرُ لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرَّوْمِيَّ يُخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خَلِيجٍ طَبْعَةً فِي النَّاحِيَةِ
الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا فَيَنْتَهِيَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ
الْخَلِيجِ الْمُتَضَائِقِ غَيْرَ بَعِيدٍ انْفَسَحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ

فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثُ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلَادِ
 الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِهَا بِإِلَادِ بَجَاةٍ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرِ
 الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَعَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمُزْنَعًا إِلَى جَنُوبِ
 الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بِلَدُ أَشِيرٍ ثُمَّ بِلَدُ الْمَسِيلَةِ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهُ بِسُكْرَةٍ تَحْتَ جَبَلِ أَوْرَاسَ
 الْمُتَّصِلِ بِدَرَنْ كَمَا مَرَّ وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ
 هَذَا الْأَقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ
 مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَعْمُرُ الْبَحْرُ الرُّومِيَّ مَسَافَةً مِنْ شِمَالِهِ فَالْقِطْعَةُ
 الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ غَرْبُهَا كُلُّهُ مُنَاوِرٌ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَدُ عُذَامِسَ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا
 أَرْضُ وَدَّانِ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي الْأَقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ وَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْغَرْبِ مِنْهَا جَبَلُ أَوْرَاسَ وَتَسَّةٌ وَالْأَوْسَطُ وَعَلَى سَاحِلِ
 الْبَحْرِ بِلَدُ بُونَةِ ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ أَفْرِيقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ
 تُونِسَ ثُمَّ السُّوسَةُ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ بِلَادُ الْجَرِيدِ
 تَوَزُّرُ وَقَفْصَةُ وَنَفَرَاوَةُ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ السُّوَاكِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ وَجَبَلُ وَسَلَاتٍ وَسَيْطَلَةُ
 وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا شَرْقًا بِلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَبِأَرْضِهَا فِي الْجَنُوبِ
 جَبَلُ دُرٍّ وَنَقْرَةٌ مِنْ قِبَائِلِ هَوَاةٍ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ وَفِي مُقَابَلَةِ عُذَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا
 فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةٍ عَلَى الْبَحْرِ
 وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَّانِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا
 فِيهِ جَبَلُ دَرَنْ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ
 فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَاكَ طَرْفَ أَوْتَانَ وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِهِ يَعْمُرُ طَائِفَةً
 مِنْهُ إِلَى أَنْ يَضَاقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ
 مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانِ وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زَوِيلَةُ ابْنِ خَطَّابٍ ثُمَّ رِمَالٌ وَقِفَارٌ إِلَى
 آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْغَرْبِ مِنْهُ بِلَدُ سَرْتِ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ
 خَلَاةٌ وَقِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدَابِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلَمَسَةُ عَلَى
 الْبَحْرِ هُنَاكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتُ هَيْبَ وَرُوحَاةٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِهِ صَحَارَى بَرْقِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا

بِلَادُ هَيْبٍ وَرَوَاحَةَ ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ
 حَتَّى يَزَاحِمَ طَرَفَهُ الْأَعْلَى وَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا
 شَرْقًا بِلَادُ الْفَيُومِ وَهِيَ عَلَى مَصَبِّ أَحَدِ الشَّعْبَيْنِ مِنَ النَّيْلِ الَّذِي يَمُرُّ عَلَى الْأَاهُونَ مِنْ
 بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الثَّانِي وَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ فَيُومَ وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا
 أَرْضُ مِصْرَ وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدَلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَيَفْتَرِقُ هَذَا الشَّعْبُ اقْتِرَافَةً ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شِعْبَيْنِ
 آخَرَيْنِ مِنْ شَطْنُوفٍ وَزَفَنِي وَيَقْسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قَرْمُطٍ بِشِعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ
 جَمِيعُهُمَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فَعَلَى مَصَبِّ الْغَرَبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بِلَدُ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَعَلَى
 مَصَبِّ الْوَسْطِيِّ بِلَدُ رَشِيدَ وَعَلَى مَصَبِّ الشَّرْقِيِّ بِلَدُ دِمَاطَ وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ وَبَيْنَ
 هَذِهِ السَّوَاكِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُنْهَا مَحْشُوءَةٌ عُمرَانًا وَقَلْعًا وَفِي الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ وَكَثَرَتْهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَحْرَ الْقَلْزَمِ
 يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي بَمْرِهِ مُبْتَدَى مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ
 إِلَى الشَّامِ يَنْعَطِفُ أَخِذَا إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ فَيَكُونُ قِطْعَةً مِنْ أَنْعَافِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ
 طَوِيلَةً فَيَنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْغَرَبِيِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ
 فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدِينَتِهِ ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ هُنَاكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ
 إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْأَقْلِيمِ الثَّانِي فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي
 النَّاحِيَةِ الشَّامِلَةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرَبِيَّةِ
 عَلَيْهِمَا الْفُرْمَا وَالْعَرِيشُ وَقَارَبَ طَرَفُهَا بِلَدَ الْقَلْزَمِ فَيَضَاقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَاكَ وَيَبْقَى شِبْهُ
 الْبَابِ مُضْطَمًّا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَفِي غَرْبِي هَذَا الْبَابِ فَحْصُ الْبَيْتِ أَرْضُ جَرْدَاءَ لَا تَنْتَبُ
 كَانَتْ تَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ
 سَنَةً كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ
 جَزِيرَةِ فَبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذَرْتُهَا وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ
 الطَّرَفِ الْمُتَضَاقِقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بِلَدُ الْعَرِيشِ وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقَلَانُ
 وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ فِي أَنْعَافِهَا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْأَقْلِيمِ
 الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَاكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَعَلَى هَذِهِ

الْقِطْعَةُ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي شَرْقِهِ غَزَّةٌ ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبَاسْطَرَفُ يَسِيرُ عَنْهَا إِلَى
الشَّامِ بِلَدٍ قِيسَارِيَّةٍ ثُمَّ كَذَلِكَ بِلَدُ عَكَاةٍ ثُمَّ صُورٌ ثُمَّ صَيْدَا ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّامِ
فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ
عَظِيمٌ يُخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنَ بَحْرِ الْقَلْزُومِ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ مُنَحْرِفًا إِلَى الشَّرْقِ
إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلُ اللَّكَّامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ
فِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحِجَاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي
نَاحِيَةِ الشَّامِ مَدَنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ
جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَدَنُ كُورٍ مِنْ شَمَالِ الْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي
شَرْقِهِ هُنَاكَ بِلَدُ الْحَجَرِ وَدِيَارُ نَعُودٍ وَتِمَاءٍ وَدُومَةَ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسْفَلُ الْحِجَازِ وَفَوْقَهَا
جَبَلُ رِضْوَى وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزُومِ
صَحْرَاءُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ ثُمَّ الْأَزْدُنُ ثُمَّ
طَبْرِيَّةٌ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ الْغُورِ إِلَى أَذْرَعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا دُومَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا
الْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ الْحِجَازِ وَعِنْدَ نَعَطِيفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّامِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ
مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةَ صَيْدَا وَبَرُوتٍ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ اللَّكَّامِ يَعْطُرُ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكْ ثُمَّ مَدِينَةُ حَمَصَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ
الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكْ وَحَمَصَ بِلَدُ تَدْمُرَ وَتَجَالَاتُ
الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ تَجَالَاتُ الْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدِ
وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْفُرْجِ وَالصَّمَانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا
هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ التَّجَالَاتِ بِلَدُ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَاضِ الْفُرَاتِ وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا
مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَتَّحِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عُبَادَانَ وَالْأَيْلَةَ مِنْ أَسْفَلِ الْجُزْءِ
مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عُبَادَانَ نَهْرٌ رِجَالَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِمَجْدُولَ كَثِيرَةٍ وَتَخْلُطُ
بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عُبَادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ
الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّسِعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَضَاقِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِهِ وَضِيقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهَا
مُضَاقِقَةٌ لِحَدِّ الشَّامِ مِنْهُ وَعَلَى عُدُومِهَا الْغُرَبِيَّةُ مِنْهُ أَسْفَلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ وَالْإِحْسَاءُ وَفِي
غُرَبِهَا أَخْطَبُ وَالصَّمَانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَعَلَى عُدُومِهَا الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ

أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ امْتَدَّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُشْرِقًا
وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جِبَالُ الْقَنْصِ مِنْ كُرْمَانَ وَتَحْتَ هِرَازٍ بِلَادُ فَارِسَ
مِثْلُ سَابُورَ وَدَارِ أَبْجَرْدَ وَنَسَاوٍ وَصُغْرَ وَالشَّاهِجَانَ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادِ
فَارِسَ إِلَى الشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ الْبَحْرِ بِلَادُ خُودَسْتَانَ وَمِنْهَا الْأَهْوَاُ وَتَسْتُرُ وَصَدَى وَسَابُورُ
وَالسُّوسُ وَرَامَ هِرْمُزُ وَغَيْرُهَا وَأَرْجَانُ وَهِيَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُودَسْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ
مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِينُهُمْ وَبِجَالِئُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتَسَمَّى
الرُّسُومُ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْغَرْبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقَنْصِ وَبِهَا مِنْ
الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كُرْمَانَ وَمَكْرَانَ وَمِنْ مَدِينِهَا الرُّودَنُ وَالشَّيرْجَانُ وَجَبْرِفُ وَيَزْدُ شِيرُ
وَالْبَهْرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كُرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ
أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هَذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ
فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهَسْتَانَ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا وَبِتَوْسِطِ
بَيْنَ كُرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هَذَا الْجُزْءِ الْمَفَاوِزُ الْعَظِيمَةُ
الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكُ لِيَصْعُقَ بَنَاتُهَا وَمِنْ مَدِينِ سِجِسْتَانَ بَسْتُ وَالطَّاقُ وَأَمَّا كُوهَسْتَانَ فَبِهَا مِنْ بِلَادِ
خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَفُوهَسْتَانَ آخِرُ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ
وَجَنُوبِهِ بَجَالَاتُ الْبَلْخِ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابِلِ
الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ هَذِهِ الْبَجَالَاتِ جِبَالُ الْفُورِ وَبِلَادِهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزَنَةُ
فُرْضَةُ الْهِنْدِ وَفِي آخِرِ الْفُورِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَادَ ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ
الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاتِ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ وَبِهَا اسْفَرَايْنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنْجُ وَمَرُؤُ الرُّودِ وَالطَّالِقَانُ
وَالْجُوزْجَانُ وَتَنْتَهِي خُرَاسَانَ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جِيمُونِ وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ
مِنْ غَرْبِهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيهِ مَدِينَةُ تَرْمِذُ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَلِكَةِ التُّرْكِ
وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جِيمُونِ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارِ فِي حُدُودِ بَدَخْشَانَ مِمَّا بَلَى الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ
مِنْ جَنُوبِ هَذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبٍ مُغْرِبًا إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ
وَيَسْمَى هُنَالِكَ نَهْرُ خَرَنْدَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبَ عَلَى سَمْتِهِ
إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بَحِيرَةِ خَوَارِزْمَ فِي الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَكُرُهُ وَيَمِدُّهُ عِنْدَ أَنْعِاقِهِ
فِي وَسَطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخَتَلِ وَالْوَرَنْشِ

مِنْ شَرْقِيَّةٍ وَأَنْهَارُ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مِنْ شَرْقِيَّةٍ أَيْضًا وَجُوفِي الْجَبَلِ حَتَّى يَتَسَعَ
 وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كِنَاءَ لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمَدَّةِ لَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ
 التَّبَتِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ بِمَغْرَبًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّامِ إِلَى
 أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ يَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ
 يَمُرُّ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ مُشْرِقًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّامِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى
 الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبَتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَحُولُ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخُتَلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسْطِ
 الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَعَلَ فِيهِ الْفُضْلُ بْنُ يَحْيَى سِدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدَ بِاجُوجَ وَمَا جُوجَ
 فَإِذَا خَرَجَ نَهْرٌ وَخَشَابٌ مِنْ بِلَادِ التَّبَتِ وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدًى بَعِيدٍ
 إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوُخْشِ وَيَصُبُّ فِي نَهْرِ جَيْمُونٍ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخٍ ثُمَّ يَمُرُّ هَاطِطًا
 إِلَى التُّرْمِذِ فِي الشَّامِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
 نَهْرِ جَيْمُونٍ بِلَادُ النَّاسَانِ مِنْ خُرَّاسَانَ وَفِي الْعُدُوتِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَاكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ الْخُتَلِ
 وَكَثَرَتْهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ الْوُخْشِ وَيُعَدُّهَا مِنْ جِهَةِ الشَّامِ جِبَالُ الْبَتَمِ يَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ
 خُرَّاسَانَ غَرْبِي نَهْرٍ جَيْمُونٍ وَتَذْهَبُ مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي
 خَلَقَهُ بِلَادُ التَّبَتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ كَمَا قُلْنَا هُتَّصِلُ عِنْدَ بَابِ الْفُضْلِ بْنُ يَحْيَى
 وَيَمُرُّ نَهْرٌ جَيْمُونٍ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَأَنْهَارُ أُخْرَى تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوُخْشِ يَصُبُّ
 فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التُّرْمِذِ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ وَنَهْرٌ بَلْخٍ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مَبْدَأُهُ عِنْدَ
 الْجُوزْجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِهِ وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِهِ بِلَادُ أَمِدٍ مِنْ خُرَّاسَانَ وَفِي
 شَرْقِي النَّهْرِ مِنْ هُنَاكَ أَرْضُ الصَّغْدِ وَأَسْرُوشَنَةُ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ
 فَرْغَانَةِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ بِلَادِ التُّرْكِ تَحُوزُهَا جِبَالُ الْبَتَمِ إِلَى شَمَالِهَا وَفِي
 الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّبَتِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْهَنْدِ وَفِي
 شَرْقِهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شَمَالًا عَنْ بِلَادِ التَّبَتِ بِلَادُ
 الْخَزْجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِهَا أَرْضُ
 فَرْغَانَةِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَمِنْ شَرْقِهَا أَرْضُ التَّغْرُغَرِ مِنَ التُّرْكِ إِلَى الْجُزْءِ شَرْقًا
 وَشَمَالًا . وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعًا بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي الشَّامِ بَقِيَّةُ

بِلَادُ التَّغَرُّ ثُمَّ شَرْقًا عَنْهُمْ بِلَادُ خَرْخِيرَ مِنَ التُّرْكِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي
 الشَّامِ مِنَ أَرْضِ خَرْخِيرَ بِلَادُ كُتْمَانَ مِنَ التُّرْكِ وَقِبَالَتَهَا فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ جَزِيرَةٌ
 الْيَاقُوتِ فِي وَسْطِ جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَقْدَمَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسَافَ وَالصُّعُودُ إِلَى أَغْلَاهُ مِنْ
 خَارِجِهِ صَعْبٌ فِي الْغَايَةِ وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَحْتَالُ أَهْلُ
 تِلْكَ النَّاحِيَةِ بِمَا يُلْغَمُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ فِيمَا
 وَرَاءَ خُرَاسَانَ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا تَحَالَاتُ لِلتُّرْكِ أُمٌّ لَا تُحْصَى وَهُمْ ظُلُوعُ رِحَالَةٍ أَهْلُ إِيَلٍ
 وَشَاءَ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلنِّتَاجِ وَالزُّكُوبِ وَالْأَكْلِ وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا
 خَالِقُهُمْ وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمَّا بَلَى بِلَادُ التَّهَرِ نَهْرٌ حَيَّوْنَ وَيَغْرُونَ الْكَثَارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ
 بِالْمُجُوسِيَّةِ فَيَبِيعُونَ رَقَبَتَهُمْ لِمَنْ يَكُونُ وَيَغْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَاهْنَدَ وَالْعِرَاقِ
 الْإِفْلِيمُ الرَّابِعُ * تَبَعِلُ بِالنَّالِثِ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ . وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ فِي غَرْبِهِ
 قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شِمَالًا وَعَلَيْهَا فِي الْجَنُوبِ
 مَدِينَةٌ طَبْجَةٌ وَمِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَبْجَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي خَلِيجِ
 مُتَضَائِقٍ بِمَقْدَارِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا مَا بَيْنَ طَرِيفِ وَالْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ شِمَالًا وَقَصْرِ الْمَجَازِ
 وَسَبْتَةِ جَنُوبًا وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ
 وَيَنْفَسِحُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيحٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ الْأَرْبَعَةَ الْأَجْزَاءَ وَكَثُرَ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا
 الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَبُسمَى هَذَا الْبَحْرُ الشَّامِي أَيْضًا وَفِيهِ
 جَزَائِرٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا فِي جِهَةِ الْغَرْبِ يَابِسَةٌ ثُمَّ مَائِرَةٌ ثُمَّ مَائِرَةٌ ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ثُمَّ صَقْلِيَّةٌ
 وَهِيَ أَكْثَرُهَا ثُمَّ بَلُوسٌ ثُمَّ أَقْرِطِشٌ ثُمَّ قَبْرُصٌ كَمَا نَذْكُرُهَا كُلَّهَا فِي أَجْزَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ
 فِيهَا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ
 الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ
 مِنْ جَوْفِهِ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْخَامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي
 آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَمُرُّ فِي الشَّامِ
 مُتَضَائِقًا فِي عَرْضِ رَمِيَةِ السَّهْمِ إِلَى آخِرِ الْإِفْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِفْلِيمِ
 السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلَى بَحْرِ نِيطِشٍ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ
 السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ فِي أَمَاكِهِ وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ

الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ الْخَمِيطِ فِي خَالِجٍ طَنْجَةٍ وَيَنْسَحُ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْآلِثِ بَقِيَ فِي الْجَنُوبِ
عَنْ الْخَالِجِ قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةٍ عَلَى جَمْعِ الْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا
مَدِينَةُ سَبْتَةٍ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوْنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ
شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّلَاثِ وَكَثُرَ الْعِمَارَةُ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ الْخَالِجِ مِنْهُ
وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْخَمِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ أَوَّلُهَا طَرِيفُ
عِنْدَ جَمْعِ الْبَحْرَيْنِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ثُمَّ
مَالِقَةُ ثُمَّ الْمَنْقَبُ ثُمَّ الْمَرِيَّةُ وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْخَمِيطِ غَرْبًا وَعَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهُ
شَرِيشُ ثُمَّ كَبَلَةُ وَقِبَالَتُهَا فِيهِ جَزِيرَةٌ قَادِسٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ وَلَبْلَةُ إِشْبِيلِيَّةُ ثُمَّ
أَسْتَجَّةُ وَقَرْطُبَةُ وَمَدِيلَةُ ثُمَّ غَرْنَاطَةُ وَجِيَانُ وَابْدَةُ ثُمَّ وَادِيَاشُ وَبَسْطَةُ وَتَحْتَ هَذِهِ
شَنْتَمَرِيَّةُ وَشَابُ عَلَى الْبَحْرِ الْخَمِيطِ غَرْبًا وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا بَطْلَيْسُ وَمَارِدَةُ وَيَابِرَةُ
ثُمَّ غَافِقُ وَبَرْجَالَةُ ثُمَّ قَلْعَةُ رِيَّاحُ وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَةُ عَلَى الْبَحْرِ الْخَمِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ
بَاجَةٍ وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ وَمَوْزِيَّةُ عَلَى النَّهْرِ الْمَذْكُورِ ثُمَّ قَنْطَرَةُ السِّيفِ وَيُسَامِتُ
أَشْبُونَةُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ الْمَغْرِبِ هُنَاكَ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا مَعَ
آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيمَا بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ
طَلْبِيرَةُ فِي الشَّرْقِ مِنْ فُورَنَةِ ثُمَّ طُلَيْطَلَةُ ثُمَّ وَادِي الْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ
هَذَا الْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةَ بَلَدُ قَلَمَرِيَّةٍ وَهَذِهِ غَرْبِي الْأَنْدَلُسِ . وَأَمَّا شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ
فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْهَا بَعْدَ الْمَرِيَّةِ قَرْطَاجَنَةُ ثُمَّ لَفْتَةُ ثُمَّ دَانِيَّةُ ثُمَّ بَلَنْسِيَّةُ إِلَى
طَرْطُوشَةَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَتَحْتَهَا شَمَالًا لِيُورَقَةُ وَشَقُورَةُ ثُنَاحِيَانُ بَسْطَةُ وَقَلْعَةُ رِيَّاحُ
مِنْ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ مَرْسِيَّةُ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَةُ تَحْتَ بَلَنْسِيَّةَ شَمَالًا ثُمَّ شَقَرُ ثُمَّ طَرْطُوشَةُ
ثُمَّ طَرْكُونَةُ آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شَمَالًا أَرْضُ مُنْجَالَةٍ وَرِيدَةُ مُتَاجِمَانِ لِسَقُورَةٍ
وَطُلَيْطَلَةُ مِنَ الْغَرْبِ ثُمَّ أَفْرَاغَةُ شَرْقًا تَحْتَ طَرْطُوشَةَ وَشَمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنْ مَدِينَةِ
سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُوبَ ثُمَّ سِرْقَسْطَةُ ثُمَّ لَارِدَةُ آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا . وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا
الْأَقْلِيمِ غَمَرُ الْمَاءِ جَمِيعُهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيهِ فِي الشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ الْبُرْنَاتِ وَمَعْنَاهُ
جَبَلُ الثَّنَائِيَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقْلِيمِ . الْخَامِسُ يَبْدَأُ مِنَ
الْطَّرَفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْخَمِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ

بِاتِّخَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مُنَحَرِّفًا عَنِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تُقْضَى ثَمَانِيًا إِلَى الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ وَتُسَمَّى أَرْضَ عَشْكُونَةٍ وَفِيهِ مَدِينَةٌ خَرِيدَةٌ وَقَرْقُسُونَةٌ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِينَةٌ بَرْسُلُونَةٌ ثُمَّ أَرْبُونَةٌ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي غَمَرُ الْجُزْءِ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَالْكَثِيرُ مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا فِي غَرْبِهِ جَزِيرَةٌ سِرْدَانِيَّةٌ وَفِي شَرْقِيهِ جَزِيرَةٌ صَقَالِيَّةٌ مُتَّصِلَةٌ بِالْأَقْطَارِ يُقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمِائَةٍ مِيلَ وَبِهَا مَدُنٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا سَرْفُوسَةٌ وَبَلَرْمُ وَطَرِيعَةٌ وَمَازَرُ وَمَسِينِي وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ أَفْرِيْقِيَّةَ وَفِيهَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةٌ أَعْدُوشٌ وَمَالِطَةٌ. وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَعْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ فُلُورِيَّةَ وَالْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَبْكِيدَةَ وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ. وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَعْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي الثَّلَاثِ وَالْمَعْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُونَسَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ وَجَزِيرَةُ أَفْرِيْطَشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ. وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرُ الْبَحْرِ مِنْهُ ثَمَانِيَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ يَنْتَهِي الضَّلْعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ وَيَنْتَهِي الضَّلْعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ وَيَبْقَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ نَحْوَ الثَّلَاثِ يَمُرُّ الشَّمَالِي مِنْهَا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا وَفِي النِّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسْفَلُ الشَّامِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهَا جَبَلُ الْإِكَّامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ ذَاهِبًا إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمَالِيِّ وَيُسَمَّى بَعْدَ انْعِطَافِهِ جَبَلُ السَّيْسِلَةِ وَمِنْ هُنَاكَ يَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُتَّخِرٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ ثَمَانِيًا تُسَمَّى الدُّرُوبُ وَهِيَ الَّتِي تُقْضَى إِلَى بِلَادِ الْأَرَمَنِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ السَّيْسِلَةِ فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسْفَلُ الشَّامِ وَأَنَّ جَبَلُ الْإِكَّامِ مُعَارِضٌ فِيهَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ أَنْطَرُطُوسَ فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ مُتَّخِةٌ

الغزة وطرابلس على ساحله من الأقليم الثالث وفي شمال أنطراطوس جبلة ثم اللاذقية
ثم إسكندرون ثم سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض
بين البحر وآخر الجزء بحافته فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيّه
حصن الحواني وهو للحيشة الأسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالقدانية ويسمى مصيات
وهو قبالة أنطراطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن
حصن وفي الشمال وفي مصيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل
المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر
الشام ويحاذيها من غرب الجبل قيسرين ثم عين زربة وقبالة قيسرين في شرق
الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام . وأما الدروب فعن يمينها ما
بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلاطينها
ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا . وأما بلاد الأرمن التي بين
جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي
ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيّه فيمر بها
جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم يتعطف هابطاً
إلى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر نهر سيحان
موازياً للنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام
ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم يتعطف إلى الشمال مغرباً فيختلط بنهر
جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام
إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والرقّة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين
ثم سميساط وأمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من
شرقيّه ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الأقليم
الخامس ويمران في بلاد الأرمن جنوباً إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات
من غربيّ سميساط وسروج ويعرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقّة ويخرج
إلى الجزء السادس ويمر دجلة في شرق أمد ويتعطف قريباً إلى الشرق فيخرج قريباً
إلى الجزء السادس وفي الجزء السادس من هذا الأقليم من غربيّه بلاد الجزيرة وفي

الشَّرْقِ مِنْهَا بِإِلَادِ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ
 مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَاكَ جَبَلٌ أَصْبَهَانَ هَاطِطًا مِنْ جَنُوبِ الْجُزْءِ مُنْحَرِفًا إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا
 أَتَيْتَ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغْرَبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السَّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ
 بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِهَا تَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِهَا
 تَخْرُجُ دِجْلَةُ مِنْهُ أَمَّا الْفُرَاتُ فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْفِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ
 هُنَاكَ جَدُولٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ
 قَرْفِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقَرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ
 مِنْهُ جَدَاوُلٌ مِنْ هُنَاكَ يَمُرُّ جَنُوبًا وَيَبْقَى صَفَيْنِ فِي غَرْبِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ
 بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعًا فِي
 جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثُ فَيَغُوصُ هُنَاكَ فِي شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ
 الْفُرَاتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشْرِقًا عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَبْنَارِ مِنْ
 جَنُوبِهَا ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةٍ عِنْدَ بَغْدَادَ وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةٍ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 إِلَى هَذَا الْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكْرِيثَ وَيَنْتَهِي
 إِلَى الْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ
 وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ بِالْفُرَاتِ
 ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَرَجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثُ فَتَنْشِيرُ
 هُنَاكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عِبَادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ
 نَهْرِ الدَّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ جَمْعِهِمَا بِبَغْدَادَ هِيَ بِإِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةٍ بَعْدَ
 مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرًا آخَرًا يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّالِبَةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانِ
 قِبَالَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةٍ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثُ وَتَبْقَى
 مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بِلَدُ جُلُوءٍ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بِلَدُ حُلُوَانٍ
 وَصَيْمَرَةَ وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقًا
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرُ زُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 الصُّغْرَى بِلَدُ خَوْنَجَانَ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بِلَدُ الْهَلُوسِ

وَفِي وَسْطِهَا بَلَدٌ مَهَاوَنَدٌ وَفِي شَمَالِهَا بَلَدٌ شَهْرُ زُورٍ غَرْبًا عِنْدَ مَلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ وَالْدَيْنُورُ شَرْقًا
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ قَاعِدَتُهَا الْمَرَاةُ
 وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِينٌ لِلْأَكْرَادِ وَالزَّابِ الْكَبِيرِ
 وَالصُّغِيرِ الَّذِي عَلَى دَجَلَةٍ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلَادٌ أَذْرَبِيحَانُ
 وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالْبِيدْقَانُ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ
 وَهُوَ بَحْرٌ أَخْزَرٌ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ
 وَفِيهَا هَمْدَانُ وَقَزْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْهَانُ وَيُحِيطُ بِهَا مِنْ
 الْجَنُوبِ جَبَلٌ يُخْرِجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ الثَّالثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيهِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيطٌ
 بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ هَذَا الْجَبَلُ الْخَمِيسُ بِأَصْهَانٍ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الثَّالثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا
 وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانَ ثُمَّ قُمْ وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغْرَبًا بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ
 يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُسْتَرْقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
 وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرِّيِّ فِي شَرْقِيهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ
 آخَرُ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَزْوِينُ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ
 وَجَانِبِ جَبَلِ الرِّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادُ طَبْرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ
 وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ
 عِنْدَ جَبَلِ الرِّيِّ وَعِنْدَ انْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ مُشْرِقًا وَبِانْحِرَافٍ
 قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرِّيِّ وَهَذَا
 الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِ هِمَا بِلَادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ
 قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارَسَ وَخُرَّاسَانَ وَهِيَ فِي شَرْقِ قَاشَانَ
 وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدٌ أَسْتَرَابَادُ وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادُ نِسَابُورَ مِنْ خُرَّاسَانَ فِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نِسَابُورَ ثُمَّ مَرُّو الشَّاهِيحَانَ
 آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِي جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ وَخَازِرُونَ وَطُوسُ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا

وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّامِ عَنْهَا بِلَادٌ نَسَا وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَيْنِ الشَّامِ وَالشَّرْقِ
 مَنَاوِزٌ مَعَطْلَةٌ. وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيَّةِ نَهْرٍ جِيحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى
 الشَّامِ فِي عُدُوْتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمَمٌ وَأَمْلٌ مِنْ بِلَادِ خِرَاسَانَ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْجَرْجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ
 خُورَازْمٍ وَيُحِيطُ بِالزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ اسْتَرَابَاذُ الدَّعَرَضِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ
 قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ وَيُحِيطُ بِهَذِهِ الزَّوَايَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةٍ وَأَجُوزَ خَانَ
 حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبَتَمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ وَفِي شَرْقِيَّةِ نَهْرٍ جِيحُونَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ
 مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصَّغْدِ وَقَاعَدَتُهَا سَمَرْقَنْدٌ ثُمَّ سَرْدَارَا وَأَشْنَةُ وَمِنْهَا جَبَدَةُ آخِرُ الْجُزْءِ
 شَرْقًا وَفِي الشَّامِ عَنْ سَمَرْقَنْدٍ وَسَرْدَارَا وَأَشْنَةُ أَرْضٌ إِيْلَاقٌ ^(١) ثُمَّ فِي الشَّامِ عَنْ إِيْلَاقِ أَرْضِ
 الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ
 فَرْعَانَةَ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ
 الثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَّ فِي نَهْرٍ جِيحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الْأَقْلِيمِ
 الْخَامِسِ وَيَتَخَلَّطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيْلَاقِ نَهْرٍ يَأْتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ مَخُومِ
 بِلَادِ التَّبَّتِ وَيَتَخَلَّطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرْعَانَةَ وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ
 جَبَلُ جَبْرَاغُونِ يَبْدَأُ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى
 يَخْرُجُ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ
 بِالشَّاشِ وَفَرْعَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَبَيْنَ نَهْرِ الشَّاشِ وَطَرَفِ
 هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ فَارَابٍ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بُخَارَى وَخُورَازْمٍ مَنَاوِزٌ مَعَطْلَةٌ
 وَفِي زَاوِيَةِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّامِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ جَبَدَةَ وَفِيهَا بِلَادُ اسْتَرَابَاذٍ وَطَرَازُ
 وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي غَرْبِيَّةِ بَعْدَ أَرْضِ فَرْعَانَةَ وَالشَّاشِ أَرْضُ الْخَزْلِيَّةِ
 فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّامِ وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ الْكَيْمِ كَيْفَ وَيَتَّصِلُ
 فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلٍ قَوْيَا آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
 هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَلِهِ الْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ. انْتَهَى
 الْأَقْلِيمُ الْخَامِسُ * الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَعْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ
 وَشَرْقِهِ لِأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ

(١) في المشترك إيلياق متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكر المهنزة وسكون اليا بعد ما

وَالسَّابِعُ عَنِ الدَّائِرَةِ الْحَيْطَةِ بِالْأَقْلَمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشَفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ
مِثْلٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ هُنَاكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَالِيهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَنَهْمَا ضِلْعَانِ
مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمِثْلِ فِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيورٌ عَلَى الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ
مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَامَكَةٌ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا تَمُورَةٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنَكَةٍ
أَيْلَةٌ آخِرُ الْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَسَالِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةٌ شَقُونِيَّةٌ وَفِي شِمَالِهَا أَرْضُ لِيُونِ
وَبَرْغَشَتْ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيقِيَّةٍ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْحَيْطُ
فِي آخِرِ الضِّلْعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَتِيْقَوُ وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةٌ
شَطِيبِيَّةٌ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَسَالِيَّةٍ وَفِي شِمَالِهَا وَشَرْقَهَا وَشَقَّةٌ وَبَنَلُونَةُ
عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشِمَالًا وَفِي غَرْبِ بَنَلُونَةِ قَسَطَالَةُ ثُمَّ نَاجِرَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشَتْ
وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُحَاطُ بِالْبَحْرِ وَالضِّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى
قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبَطْرِفِ الْبَحْرِ عِنْدَ بَنَلُونَةِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ
يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْأَقْلَمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجَرًا عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ
مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَتَنَازِلُهَا أَبْوَابُ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ عَشْكُونِيَّةٍ مِنْ أُمَّمِ الْفَرَنْجِ فَمِنْهَا مِنْ
الْأَقْلَمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَفَرْشُونَةُ وَرَاءَهُمَا
فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْأَقْلَمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَدَالًا عَنْ خَرِيدَةٍ . وَأَمَّا الْمُنْكَشَفُ فِي
هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مِثْلٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ الْحَادَّةُ وَرَاءَ
الْبَرْزَانِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْحَيْطُ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبَرْزَانِ بَلَدٌ
نُبُونَةُ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ بَنْطُو مِنْ
الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ عَشْكُونِيَّةٍ وَفِي
شِمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو وَبَرْغَشَتْ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا فِي شَرْقِ بِلَادِ عَشْكُونِيَّةٍ فِي شِمَالِهَا
قِطْعَةٌ أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالْفَرَسِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا
وَصَارَتْ بِلَادُ عَشْكُونِيَّةٍ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةٌ فِي جُودٍ مِنَ الْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
شِمَالًا بِلَادُ جَنْوَةٍ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلٌ نَيْتِ جُونٍ وَفِي شِمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ
بَرْغُونَةٍ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ
مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِهِ نَيْشُ وَفِي شَرْقِهِ مَدِينَةُ رُومَةٍ

الْعُظْمَى كُرْسِيِّ مَلِكِ الْأَفْرَجَةِ وَمَسْكِنِ الْبَابِ بِطَرِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي
 الصَّخْمَةِ وَالْهَيْكَلِ الْهَائِلَةِ وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفُ الْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا
 النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَفْرُوشُ قَاعُهُ بِبِلَاطِ النُّحَاسِ وَفِيهَا
 كَنِيسَةُ بَطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ
 رُومَةَ بِلَادُ أَفْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَعَلَى هَذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنْبِهِ
 رُومَةُ بِلَادُ نَابِلٍ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ قَلُورِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا
 طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مُغْرَبًا وَمُخَادِيًا لِلشَّمَالِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَانْتَهَى إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا
 الْجُزْءِ مِنْ جَنْبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكَلَابَةٍ فِي الْأَقْلِيمِ
 السَّادِسِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بِلَادُ قَلُورِيَّةٍ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ
 وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِهِ بِصِلٍ مِنْ بَرِّهَا فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 فِي جُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِي بِلَادِ
 قَلُورِيَّةٍ بِلَادُ أَنْكَبَرْدَةٍ فِي جُودٍ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُودِ فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ خَلِيجُ
 الْبِنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْقَرْبِ مُخَادِيًا لِآخِرِ
 الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُؤَارِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ
 إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يَغْرُبُ مَعَهُ فِي الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ قِبَالَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِهِ
 فِي بِلَادِ إِنْكَلَابَةٍ مِنْ أُمَّةِ اللَّمَّانِيِّينَ كَمَا نَذَكُرُ وَعَلَى هَذَا الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا
 الْجَبَلِ مَا ذَاهِبِينَ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبِنَادِقَةِ فَذَا ذَهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ
 حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ الْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ . وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ مُضْرَسَةٌ كُلُّهَا بِقِطْعٍ مِنَ
 الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضَرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجُودِ بَيْنَهُمَا
 وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ
 مِنْ هَذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ
 وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ عَنْ قُرْبٍ مُشْرِقًا إِلَى بَحْرِ نِيطَشٍ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضُ الرَّابِعِ

قَبْلَهُ وَالسَّادِسَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَرُ وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِي هَذَا
 الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ الْقِيَادَةِ
 وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادٌ مَقْدُونِيَّةٌ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ
 وَمِنْهَا أَيْدَاءُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِي هَذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ
 وَأَظْنَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٍ لِلزُّكُمَانِ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بَرَصَةٌ وَكَانَتْ
 مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَعَلَيْهِمْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلزُّكُمَانِ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادٌ عُمُورِيَّةٌ وَفِي شَرْقِي عُمُورِيَّةٍ نَهْرٌ قَبَائِبُ الَّذِي يُمِدُّ الْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَاكَ
 وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يَخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ إِلَى مَرِّهِ فِي الْأَقْلِيمِ
 الرَّابِعِ وَهُنَاكَ فِي غَرْبِهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرُ جِيحَانَ غَرْبِيَّةُ الذَّاهِبِينَ
 عَلَى سَمْتِهِ وَتَدْرِكُهُمَا فِي شَرْقِهِ هُنَاكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دَجَلَةَ الذَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي
 مُؤَاوَزَتِهِ حَتَّى يَخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَفِي الزَّوَايَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دَجَلَةَ بَلَدٌ مِيَّافَرِيْنِ وَنَهْرُ قَبَائِبُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ
 هَذَا الْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَا وَآسَافِلَهَا
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَائِبُ أَرْضُ عُمُورِيَّةٍ كَمَا
 قُلْنَا وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثَّلَاثِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دَجَلَةَ وَالْفُرَاتَ وَفِي
 الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلِقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عُمُورِيَّةٍ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَائِبُ وَهِيَ عَرِيضَةٌ وَفِي
 آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفُرَاتِ بَلَدٌ حَرْشَنَةُ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ
 نِيطِشِ الَّذِي يُمِدُّ خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ
 وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةٍ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطُ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ وَفِيهَا بِلَادَانِ
 أَرْدَنٌ فِي الْجَنُوبِ وَالْقَرْبِ وَفِي شَمَالِهَا تَفْلِسُ وَدَيْلُ وَفِي شَرْقِ أَرْدَنٍ مَدِينَةُ خِلَاطُ ثُمَّ
 بَرْدَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِأَنْحَرِافٍ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةٍ وَمِنْ هُنَاكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ
 إِلَى الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا هُنَاكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِي جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَرْمِي
 وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَيَتَاخَمُ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْأَقْلِيمِ

الرَّابِعَ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَدْرِيْجَانَ وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ اَرْدَايِلَ
عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْرُ
طَبْرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شِمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمْ التُّرْكُمَانُ وَيَبْدَأُ
مِنْ عِنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ
إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةٌ وَمُحِيطَةٌ بِبِلَدِ مِيَاْفَارَقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِفْلِيمِ
الرَّابِعِ عِنْدَ أَمَدٍ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السَّيْلَسَةِ فِي آسَافِلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَاكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ اللَّسْكَامِ
كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَائِيَا كَلَّاوَابُ تُفْصِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ
فِي جَنُوبِيَّهَا بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ
مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ فِي الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيَّهَا بِبِلَدِ أَرْمِينِيَّةِ
وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَدْرِيْجَانَ أَجْنُوبِيَّةِ بِلَادُ الزَّابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ
وَفِي شِمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الزَّوَايَةِ
الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ نِيطِشِ الَّذِي يُمِدُّهُ
خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحْفُظُ هَذِهِ الْقِطْعَةَ مِنْ نِيطِشِ بِلَادِ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا
مِنْهَا بِلَدُ أَطْرَابَزِيدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلٍ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولُ
وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ
غَرْبِيَّةُ كُلِّهِ مَعْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي
ذَكَرْنَا هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبْرِسْتَانَ وَجِبَالِ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ وَفِي غَرْبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ
مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ وَتَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شِمَالِهَا
الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهَا أَيْضًا وَيُنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ
الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ أَثَلٌ فِي هَذَا الْبَحْرِ وَبَقِيَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ
الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي مَجَالَاتِ الْغُرِّ مِنْ أَمْرِ التُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ
الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسْطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى
الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَلَاقِيَ بَحْرَ طَبْرِسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ

ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلُ سِيَاهٍ وَيَذْهَبُ مُغْرِبًا إِلَى الْجُزْءِ
 السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ
 وَهَذَا الطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اعْتَرَضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ
 وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلُ
 سِيَاهٍ كَمَا سَيَأْتِي. وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ كُلُّهُ مَجَالَاتُ الْغُرِّ مِنْ أُمِّ
 التُّرْكِ وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بَحِيرَةٌ خَوَارِزْمُ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ يَجْعَلُ دَوْرَهَا
 ثَلَاثُمِائَةَ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ
 الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بَحِيرَةٌ عَرُوعُونَ دَوْرَهَا أَرْبَعُمِائَةَ مِيلٍ وَمَاوُهَا حُلُوٌّ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَبَلُ مِرْغَارٍ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ التَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ
 وَفِي الْجَنُوبِ عَنْ بَحِيرَةِ عَرُوعُونَ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئًا يُسَمَّى عَرُوعُونَ وَبِهِ
 سُمِّيَتِ الْبَحِيرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْغَارٍ شِمَالِي الْبَحِيرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَخْصُرُ عَدَّتُهَا فَتَصُبُّ
 فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ. وَفِي الْجُزْءِ الثَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَسَ مِنْ أُمِّ التُّرْكِ فِي
 غَرْبِ بِلَادِ الْغُرِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِ وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرُ الْجُزْءِ
 جَبَلٌ قُوفِيًّا أَلْحِيْطُ بِمَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ
 أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِفْلِيمِ
 الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَأَحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالْبَحْرِ أَلْحِيْطُ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ ثُمَّ انْعَطَفَ مُغْرِبًا
 فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ
 الْكِيْمَاكِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مُغْرِبًا إِلَى آخِرِهِ
 وَبَقِيََتْ فِي جَنُوبِيهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِ
 ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الثَّاسِعِ فِي شَرْقِيهِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيبًا إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ
 عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ الثَّاسِعِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَفِيهِ السُّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نَذَرْنَاهُ
 وَبَقِيََتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلٌ قُوفِيًّا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ
 أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ عَمَرَتْ طَرَفًا فِي شَرْقِيهِ مِنْ جَنُوبِهِ
 إِلَى شِمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتِي يَفْصُلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ قُوفِيًّا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا

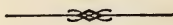
سَوَى ذَلِكَ فَأَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
الْأَقْلِيمِ السَّادِسُ. فَالْجُزءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ الْبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَاسْتَدَارَ شَرْقًا
مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ وَأَنْتَهَى قَرِيبًا مِنَ النَّاحِيَةِ
الْجَنُوبِيَّةِ فَأُنْكَشِفَ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَفِي
الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ كَالْجَوْنِ فِيهِ وَيَنْفَسِحُ طَوِيلًا وَعَرْضًا وَهِيَ
كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَّةٍ وَفِي بَاطِنِهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزءِ بِلَادُ صَاقِسَ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بِنْتُوَالِيٍّ مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقْلِيمِ
الْخَامِسِ. وَالْجُزءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ دَخَلَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَمِنْ غَرْبِهِ
قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِ الشَّمَالِ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَّةٍ فِي الْجُزءِ الْأَوَّلِ
وَأَتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْأُخْرَى فِي الشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَانْفَسَحَتْ فِي النِّصْفِ
الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ وَفِيهِ هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَارًا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ
مُسْتَمْلَةٌ عَلَى مَدُنٍ وَبِهَا مَلِكٌ ضَخْمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
وَحَزْرَتُهَا فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزءِ بِلَادُ أَرْمُنْدِيَّةٍ وَبِلَادُ أَفْلَادَشَ مُتَّصِلَتَانِ بِهَا
ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَّةٍ جَنُوبًا وَغَرْبًا مِنْ هَذَا الْجُزءِ وَبِلَادُ بَرْغُونِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا وَكُلُّهَا لِأَمْرِ
الْأَفْرَنْجِيَّةِ وَبِلَادُ اللَّمَانِيِّينَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزءِ جَنُوبُهُ بِلَادُ أَنْكَالِيَّةٍ ثُمَّ
بِلَادُ بَرْغُونِيَّةٍ شَمَالًا ثُمَّ أَرْضُ لَهْوِيكَةَ وَشَطُونِيَّةٍ وَكُلِّ قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الزَّوَايَةِ
الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أُفْرِيَّةٍ وَكُلُّهَا لِأَمْرِ اللَّمَانِيِّينَ. وَفِي الْجُزءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا
الْأَقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَاتِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ شَطُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ
الشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكُورِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلُوطٌ
دَاخِلًا مِنَ الْجُزءِ الرَّابِعِ وَيَمُرُّ مَعْرَبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ
شَطُونِيَّةٍ آخِرِ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ. وَفِي الْجُزءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضُ جَنْوَلِيَّةٍ وَتَحْتَهَا
فِي الشَّمَالِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَيَقْصُلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلُوطٌ مِنْ أَوَّلِ الْجُزءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ
يَقِفَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَنْوَلِيَّةٍ بِلَادُ جُرْمَانِيَّةٍ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَعِنْدَ
مَدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطِسَ فَيَقَعُ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِسَ فِي أَعَالِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا

الْجُزءُ وَيُمِدُّهَا أَخْلِيَجُ وَيَبْنِيهَا فِي الزَّوَايَةِ بِلَدُ مَسِينَاهُ وَفِي الْجُزءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ
 السَّادِسِ ثُمَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نَيْطِشٍ يَتَّصِلُ مِنَ الْخَلِيَجِ فِي آخِرِ الْجُزءِ
 الرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ بَمْتِهِ مُشْرِقًا فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طُولِ
 أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا مِنْ مَبْدَاهُ فِي عَرْضِ سِتِّمَائَةِ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي
 النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ عَلَى
 سَاحِلِ بَحْرِ نَيْطِشٍ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ أَلْبَلْقَانِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ الْأَلَانِيَّةِ
 وَقَاعِدَتُهَا سَوَنَلِي عَلَى بَحْرِ نَيْطِشٍ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نَيْطِشٍ فِي هَذَا الْجُزءِ غَرْبًا أَرْضُ تَرْخَانَ
 وَشَرْقًا بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ
 مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي الْجُزءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا
 فِي الْجُزءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ . وَفِي الْجُزءِ السَّادِسِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نَيْطِشٍ
 وَيَتَحَرَّفُ قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَاكَ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزءِ شَمَالًا بِلَادُ قَائِيَّةٍ وَفِي
 جَنُوبِهِ مُنْقَسِعًا إِلَى الشَّمَالِ بِمَا أَمْعَرَفَ هُوَ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ الْأَلَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ
 جَنُوبِهِ فِي الْجُزءِ الْخَامِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْخَزَرِ وَفِي
 شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسٍ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَلْغَارَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلْجَرٍ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلٍ سِيَاكُوهُ الْمُعْطَفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ
 فِي الْجُزءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مَغْرِبًا فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى
 الْجُزءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَاكَ
 نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ . وَفِي الْجُزءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَاذَهُ
 جَبَلٌ سِيَاهُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بَحْرَ طَبَرْسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزءِ غَرْبًا
 وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ
 جَبَلِ سِيَاهُ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسٍ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزءِ
 أَرْضُ شَعْرَبَ وَيَخْتَاكَ وَفِي أَمِّ التُّرْكِ . وَفِي الْجُزءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا
 أَرْضُ الْجُورْجِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا وَالْأَرْضُ الْمُنْتَنَةِ وَشَرْقُ الْأَرْضِ الَّتِي
 يُقَالُ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ خَرَبَاها قَبْلَ بِنَاءِ السُّدِّ وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ مَبْدَأُ نَهْرٍ
 الْأَثَلِ مِنَ أَكْثَرِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَنَهْرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُهُ فِي بَحْرِ طَبَرْسْتَانَ فِي الْإِفْلِيمِ

الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْأَنْعَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ
 مِنْ ثَلَاثَةِ بَنَائِعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا
 الْأَقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالًا إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ
 الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَغْرِبًا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ
 يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ
 جَدُولٌ يَذْهَبُ مَغْرِبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ بَيْطُشٍ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ
 وَالشَّرْقِ فِي بِلَادٍ بَلْعَارٍ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً
 إِلَى الْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلٍ سِبَاهٍ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ
 فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ مِنْ
 الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَالْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ
 مِنْهُ بِلَادٌ خَفْشَاخُ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ وَبِلَادُ السَّرْكَسِ مِنْهُمْ أَيْضًا وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ
 بِلَادٌ يَأْجُوجُ يَقْضَلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ فَوْقَهُمَا الْخَيْطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ بَدَأُ مِنَ الْبَحْرِ الْخَيْطِ
 فِي شَرْقِ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْأَقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ وَيَفَارِقُهُ مَغْرِبًا
 وَيَأْتِيهِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى
 سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ
 بِأَنْحَرِافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي وَسْطِهِ هُنَا السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْأَسْكَندَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ
 إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ
 الْخَيْطِ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَاكَ مَغْرِبًا إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْخَيْطِ فِي غَرْبِهِ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ
 النَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْأَسْكَندَرُ كَمَا قُلْنَا وَاصْحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ
 وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَرْدَاذِبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغَرَفِيَا أَنَّ الْوَاتِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ
 كَانَ السُّدَّ أَتَفْتَحَ فَاتَّبَعَهُ فَرَعًا وَبَعَثَ سَلَامًا أَتَرَجُمَانُ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصَّاهُ
 فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 بِلَادٌ مَأْجُوجٌ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخَيْطِ أَحَاطَتْ بِهِ
 مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ

الْإِفْلِيمُ السَّابِعُ * وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلٍ فَوْقَهَا مُحِيطٌ بِبَاجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي
 مَعْمُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا أَنْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَشَرَهَا إِلَهِي مُغَمَّرَهَا فِي الثَّانِي وَفِي الْأَوَّلِ
 مِنْهَا طَرَفٌ أَنْعَطَفَ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٌ عَلَيْهِ
 فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَالْحِجَازُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي
 هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةً اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةٌ
 رَسَلَانِدَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ . وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ مَعْمُورٌ
 أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَاكَ مَتَّصِلُ أَرْضِ
 فَلُونِيَّةٍ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّلَاثِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنْهَا فِي شِمَالِهَا وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ
 الْبَحْرِ الَّتِي تَغْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ
 بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فَلُونِيَّةٍ وَفِي شِمَالِهَا جَزِيرَةٌ بِرَعَاقِبَةٍ (وَفِي نَسْخَةِ بَوَاقِعَةٍ)
 مُسْتَطِيلَةٌ مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ شِمَالُهُ
 كُلُّهُ مَعْمُورٌ بِالْبَحْرِ مُحِيطٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَجَنُوبُهُ مُنْكَشَفٌ وَفِي غَرْبِهِ
 أَرْضُ قِيمَاكَ مِنَ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادٌ طُسْتٌ ثُمَّ أَرْضُ رَسَلَانَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا
 وَهِيَ دَائِمَةٌ التَّلُوجِ وَغَمْرَانِهَا قَلِيلٌ وَتَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي
 الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ
 بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَتَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلٌ
 فَوْقَهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مَتَّصِلُ أَرْضِ الْقِمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى
 قِطْعَةٍ بِحَرٍّ نِيظِشٍ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَتَنْتَهِي إِلَى بُحِيرَةٍ طَرَفِي
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ
 وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكِ (وَفِي نَسْخَةِ التُّرْكِ)
 إِلَى آخِرِهِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَتَّصِلُ بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ وَفِي
 وَسَطِ النَّاحِيَةِ بُحِيرَةٌ غُثُورٌ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي النُّوَاحِي الشَّرْقِيَّةِ
 وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِسِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَفِي شَرْقِ بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ بِلَادُ

الرُّوسِيَّةَ الَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرِ الَّتِي كَانَ
مَبْدَأُهَا فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ
وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرِ مُنْعَطِفُ نَهْرٍ أَثَلِ الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ
كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شِمَالِهِ جَبَلٌ فَوْقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ
وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ يَحْثَاكٍ مِنْ أُمَّهِ التُّرْكِ وَكَانَ
مَبْدَأُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبٍ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُتْنَنَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ
جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ فَوْقِيَا مُحِيطٌ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا
الْإِفْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ الْأَرْضِ الْمُتْنَنَةِ وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمُحْفُورَةُ
وَهِيَ مِنَ الْعُجَابِ خَرَقٌ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى فَيَسِيحُ الْأَفْطَارُ مُمْتَنِعٌ الْوُصُولِ
إِلَى قَعْرِهِ يُسَدُّ عَلَى عُمُرَانِهِ بِالْذُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ تَضِيءُ وَتُخْفَى وَرُبَّمَا
رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يُشَقُّهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْيَلَادُ
الْخَرَابُ الْمُتَاخِذُ لِلسُّدِّ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ فَوْقِيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ
وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ يَلَادُ خَفْشَاخُ وَهُمْ قَفْجِي
يَجُوزُهَا جَبَلٌ فَوْقِيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شِمَالِهِ عِنْدَ النَّجْرِ الْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى
الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ
مُعْتَزًّا فِيهِ وَفِي وَسْطِهِ هُنَاكَ سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجُ وَرَاءَ جَبَلٍ فَوْقِيَا عَلَى النَّجْرِ قَلِيلَةً الْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ
بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشِمَالِهِ . وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرُ النَّجْرِ جَمِيعُهُ . هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغَرَفِيَا
وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتُ لِلْعَالَمِينَ



المقدمة الثالثة

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر

والكثير في احوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشَفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ
الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانِ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ
مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَنْدَرِجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ
مُعْتَدِلًا فَالْأَوَّلُ مِنَ الرَّابِعِ أَعْدَلَ الْعُمُرَانِ وَالَّذِي حَاقَتْهُ مِنَ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى
الْإِعْتِدَالِ وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ
أَبْعَدُ بكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ
وَالْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتِمُّكَوْنُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْإِعْتِدَالِ
وَسُكَّانِهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلَ أَجْسَامًا وَالْوَنَاءَ وَالْخَلَاقًا وَأَدْبَانًا حَتَّى الثُّبُوتُ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ
فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ تَقَفْ عَلَى خَبَرِ بَعْثَةِ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ
الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النُّوعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاهْلُ
هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لُجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ
وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُجَنَّدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْمَقَةِ بِالصَّنَاعَةِ
وَيَتَنَاقُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمْ
الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ
وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامَلَاتِهِمْ بِالْقَدْرَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْخِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ
وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِ وَالْحِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّينِ
وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ
مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلَ
هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِبَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ مِثْلَ الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاؤُهُمْ بِالطِّينِ

وَالْقَصَبَ وَأَفْوَائِهِمْ مِنَ الذَّرَّةِ وَالْعُشْبِ وَمَلَاسِهِمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ
 أَوْ الْجُلُودَ وَكَثُرَتْهُمْ عَرَايَا مِنَ اللَّبَاسِ وَفَوَاكِهِ بِلَادِهِمْ وَأَدَمَهَا غَرِيبَةُ النَّكَّوِينَ مَائِلَةً
 إِلَى الْأَنْحِرَافِ وَمُعَامَلَاتِهِمْ بَغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ
 يَقْدِرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ وَأَخْلَافَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةً مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ حَتَّى لَيُنْقَلَ
 عَنْ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكَهُوفَ وَالْغِيَاضَ
 وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَأَنَّهُمْ مَوْحِشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْأَعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرِهِمْ وَأَخْلَافُهُمْ مِنْ
 عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَيَعْدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي
 الدِّيَانَةِ أَيْضًا فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرَّبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ
 الْأَعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرُ مِثْلُ الْحَبَشَةِ الْجَبَّارِينَ اللَّيْمَنَ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ
 فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكُرُورِ الْجَبَّارِينَ
 لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ
 وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ الصَّقَالِبَةِ وَالْأَفَرِجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ وَمَنْ سَوَى
 هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْعَرِفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عَنْهُمْ وَالْعِلْمُ مُفْقُودٌ
 بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا
 لَا تَعْلَمُونَ وَلَا يُعْتَرِضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بُوْجُرْدُ اللَّيْمَنِ وَحَضْرَمُوتُ وَالْأَحْقَافُ وَبِلَادِ
 الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا بَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ
 الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْبَحَارُ مِنْ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي
 رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنَ اللَّيْسِ وَالْأَنْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ
 الْأَعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ النَّسَّابِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِطَبَائِعِ
 الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامٍ بْنِ نُوحٍ اخْتَصَمُوا بِلُغَةِ السُّودَانِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرِّقِّ فِي عَقِبِهِ وَتَقُولُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةً
 مِنْ خُرَافَاتِ الْقَصَاصِ وَدَعَا نُوْحٌ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ فَقَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ
 السُّودَانِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَمِيدًا وَلَوْلَدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرَ وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ
 السُّودَانِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَآثَرِهِمَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ

مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنُ شَمَلَ أَهْلَ الْأَفْلَهِمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ مَزَاجِ هَوَائِهِمْ
 لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةً
 إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى فَيَطُولُ الْمُسَامَتَةُ عَامَةً الْفُصُولِ فَيَكْثُرُ الضَّوْءُ لِأَجْلِهَا وَيُلْحِقُ
 الْقَيْظُ الشَّدِيدَ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْأَفْلَهِمِينَ مِمَّا يَقَابِلُهُمَا
 مِنَ الشَّمَالِ الْأَفْلَهِمِ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيْضًا الْبَيَاضُ مِنْ مَزَاجِ هَوَائِهِمْ
 لِلْبَرْدِ الْمَفْرُطِ بِالشَّمَالِ إِذْ الشَّمْسُ لَا تَزَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةٍ مَرَّأَى الْعَيْنِ أَوْ مَا قَرُبَ
 مِنْهَا وَلَا تَرْتَبِعُ إِلَى الْمُسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرُبَ مِنْهَا فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فِيهَا وَيَشَدُّ الْبَرْدُ عَامَةً
 الْفُصُولِ فَيَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ وَتَبْعُ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مَزَاجُ الْبَرْدِ
 الْمَفْرُطِ مِنْ زُرْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَصُورَةِ الشُّعُورِ وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ
 الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّلَاثُ فَكَانَ لَهَا فِي الْأَعْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مَزَاجُ الْمُتَوَسِّطِ
 حَظٌّ وَافِرٌ وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْأَعْتِدَالِ غَايَةً لِنَهَائِيَّتِهِ فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَكَانَ لِأَهْلِهِ
 مِنَ الْأَعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَا اقْتَضَاهُ مَزَاجُ أَهْوَائِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ الثَّلَاثُ
 وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ لِمِيلِ هَذَا قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى
 الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى الْأَنْحِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْحَرَفَةً وَأَهْلُهَا
 كَذَلِكَ فِي خَلْقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ فَلِأَوَّلِ وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسَّوَادِ وَالسَّابِعُ لِلْبَرْدِ وَالْبَيَاضِ وَيُسَمَّى
 سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ الْأَفْلَهِمِينَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِأَسْمِ الْجَبَشَةِ وَالزَّنَجِ وَالسُّودَانِ أَسْمَاءً
 مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأَمْرِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسَّوَادِ وَإِنْ كَانَ أَسْمُ الْجَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاهَ
 مَكَّةَ وَالْيَمَنَ وَالزَّنَجِ بِمَنْ تَجَاهَ بَحْرَ الْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ
 إِلَى أَدَمِي أَسْوَدَ لَا حَافٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ
 الرَّبْعَ الْمُعْتَدِلَ أَوِ السَّابِعَ الْمُنْحَرَفَ إِلَى الْبَيَاضِ فَيَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ
 مَعَ الْأَيَّامِ وَبِالْعَكْسِ فَيَمْنُ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوِ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَدُّ
 أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمَزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي
 أَرْجُوزِيَّتِهِ فِي الطَّبِّ

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرَ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا
 وَالصِّقْلُ أَكْثَبَتِ الْبَيَاضَ حَتَّى غَدَتْ جُلُودَهَا بَيَاضًا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّامِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِاعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ
 الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِبَادِهِ
 وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ الثُّرُكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغُرُغُرِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكُتَيْرِ مِنَ الْأَفْرَنْجَةِ
 وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءَ مُتَفَرِّقَةٍ وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءَ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْأَعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ وَكَافَّةِ الْأَحْوَالِ
 الطَّبِيعِيَّةِ لِلِاعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرَّئِاسَاتِ
 وَالْمُلُوكِ فَكَانَتْ فِيهِمْ النُّبُوَاتُ وَالْمُلُوكُ وَالْأُمَمُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْمَصَارِ
 وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي
 وَفَّقْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلُ السِّنْدِ
 وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ
 لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وَلَدِ حَامٍ وَارْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ
 فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّامِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَلَدِ
 يَافَثَ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُتَخَلِّينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ
 وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلُوكِ مِنْ وَلَدِ سَامٍ وَهَذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَقَ الْحَقُّ فِي أَنْسَابِ
 هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَوَّدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ
 بِالسُّودَانَ وَالْجَبْشَانَ مِنْ أَجْلِ أَنْسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ . وَمَا آدَاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ
 إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ
 لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفَرَسِ وَيَكُونُ
 بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانَ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشُّعَارِ
 وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ يُغَيَّرُ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِهَا وَمُمَيِّزَاتِهَا
 فَتَعْمِيهِ الْقَوْلُ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ
 لَمَّا شَمَلَهُمْ مِنْ نَخْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجِدَتْ لِنَاكِ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْإِغْلِيظِ الَّتِي أَوْقَعَ
 فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طِبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ
 اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ
 وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمَنْعُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فَجَعَلَهُمْ
 مُوَلِّعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِالْحُمُقِ فِي كُلِّ فُطْرٍ وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي
 ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ
 الْحَيَوَانِيِّ وَتَنْفِيسُهُ وَطَبِيعَةُ الْحُزْنِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ
 مُفْسِدَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْبَخَارِ مُخْلِلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَيْفِيَّتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُنْتَشِي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ
 مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ وَذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ بَخَارُ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعَثُهَا
 سُورَةُ الْحُمُرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مَزَاجِهِ فَيَنْفَسِي الرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ وَكَذَلِكَ يَجِدُ
 الْمُتَنَعِّمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ
 لِذَلِكَ حَدَّثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْفَنَاءِ النَّاشِئِ عَنِ السُّرُورِ وَلَمَّا
 كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْأَقْلِيمِ الْحَارِّ وَاسْتَوَلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْزَجَتِهِمْ وَفِي أَصْلِ
 تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَأَقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ
 بِالنِّقَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفْشِيًّا فَتَكُونُ
 أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا وَيَجِيءُ الطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ وَكَذَلِكَ يَقَعُ بِهِمْ
 قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ الْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ
 أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعَتِهِ كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَاعِيحِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَّةِ مُوجُودَةً
 أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ الثَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ وَقَدْ يَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ
 مِنَ الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ لِتَوَقُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَرْيَافِ
 وَالثَّلُولِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا
 كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَّةُ وَالْعَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ
 سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ وَعَامَةً مَا كَلِمَتُهُمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَلَمَّا كَانَتْ فَاسٌ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ
 بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَعُّلِ فِي الثَّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرَقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزْنِ
 وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوَّتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ

الْحَنِظَةَ وَيُبَاكِ الْأَسْوَاقَ لِشَرِّ قُوْتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةً أَنْ يُرْزَأَ شَيْئًا مِنْ مَدَّخَرِهِ وَتَتَّبِعَ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِمِ وَالْبِلْدَانِ تَحْدٌ فِي الْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ وَاللَّهِ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلتَّبَحُّثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خِفَةِ السُّودَانِ وَطَيْبَتِهِمْ وَكَثَرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسٍ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِضَعْفِ أَدْمَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَهَذَا كَلَامٌ لَا مَحْصَلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك

من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِمَ الْمُتَعَدِّلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوْجَدُ بِهَا الْخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوْجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ الْعَيْشِ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ وَالْحَنِظَةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاةِ الْمَنَابِتِ وَاعْتِدَالِ الطَّيْنَةِ وَوُفُورِ الْعُمُرَانِ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عَشْبًا بِالْجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ وَمِثْلُ الْمُتَمَتِّعِينَ مِنْ صُنْهَاجَةِ الْأَسَاكِينِ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمْ الْأَلْبَانُ وَاللَّحُومُ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي الْقَفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَائِنِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى الْأَقَالِلِ لِقَلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سِدِّ الْخَلَّةِ أَوْ دُونِهَا فَضَلًا عَنِ الرِّغْدِ وَالْخِصْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الْأَلْبَانِ وَتَعَوُّضُهُمْ مِنَ الْحَنِظَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْفَنَاقِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ مِنْ أَهْلِ الْقَفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جِسْمِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّلُولِ الْمُتَمَتِّعِينَ فِي الْعَيْشِ فَأَلْوَانُهُمْ أَصْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَتْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الْإِنْخِرَافِ وَأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْأِدْرَاكِاتِ هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجَرُّبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ وَبَيْنَ الْمُتَمَتِّعِينَ وَأَهْلِ التَّلُولِ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبِرَهُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِنَّ كَثْرَةَ الْأَعْيِدَةِ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفْنَةُ
وَرُطُوبَاتُهَا تُولَدُ فِي الْجِسْمِ فَضَلَاتِ رَدِيَّةٍ تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ إِفْطَارِهَا فِي غَيْرِ نَسَبَةٍ وَتَبْعُ
ذَلِكَ أَنْكَسَافُ الْأَلْوَانِ وَفُجُحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا فَلَنَاهُ وَتُغْطِي الرُّطُوبَاتُ
عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أَبْجَرِهَا الرَّدِيَّةِ فَتُجَيِّدُ الْبَلَادَةَ
وَالْعُقْلَةَ وَالْإِنْخِرَافُ عَنِ الْأَعْتِدَالِ بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانَ الْقَفْرِ وَمَوَاطِنِ
الْجَدْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالْعَلَامِ وَالْمَهَا وَالزَّرَافَةِ وَالْحَمُرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقَرِ مَعَ أَهْلِهَا مِنْ
حَيَوَانَ الثَّلُولِ وَالْأَزْيَافِ وَالْمَرَاعِي الْخُصْبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا
وَحُسْنِ رَوْتِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحِدَةِ مَدَارِهَا فَالْغَزَالُ أَخُو الْمَعَزِ وَالزَّرَافَةُ
أَخُو الْبَعِيرِ وَالْحِمَارُ وَالْبَقَرُ أَخُو الْحِمَارِ وَالْبَقَرُ وَالْبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ
أَنَّ الْخُصْبَ فِي الثَّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيَّةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا
ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَالْجَمُوعُ لِحَيَوَانَ الْقَفْرِ حَسَنٌ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي
الْأَدَمِيِّينَ أَيْضًا فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْخُصْبَةِ الْعَيْشِ الْكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالْفَرْعِ
وَالْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهَ يَتَصَفُّ أَهْلُهَا غَالِبًا بِالْبَلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْخُشُونَةِ فِي أَجْسَادِهِمْ وَهَذَا
شَأْنُ الْبَرِّ الْمُتَعَمِّسِينَ فِي الْأَدَمِ وَالْخَنِطَةِ مَعَ الْمُتَقَشِّشِينَ فِي عَيْشِهِمْ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى
الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ مِثْلَ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلُ غِمَارَةِ السُّوسِ فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ
حَالًا فِي عَقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُتَعَمِّسِينَ فِي الْأَدَمِ
وَالْبَرِّ مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَقْفُودِ بِأَرْضِهِمْ السَّمْنُ جُمْلَةً وَغَالِبَ عَيْشِهِمْ الذَّرَّةُ فَتَجِدُ
لَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَا الْعُقُولِ وَخِفَةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا يَوْجَدُ لِغَيْرِهِمْ
وَكَذَا أَهْلُ الصَّوَاغِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْخَضِرِ وَالْأَمْصَارِ فَإِنَّ الْأَمْصَارَ
وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْأَدَمِ وَخُصْبِينَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا أَنَّ أَسْمَاعَهُمْ إِيَّاهَا
بَعْدَ الْعِلَاجِ بِالطَّبِخِ وَالتَّلَطُّفِ بِمَا يَخْاطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِدَاكِ غَلْظُهَا وَيَرْقُ قَوَامُهَا وَعَامَّةُ
مَا كَلِمَتُهُمْ لِحَوْمِ الضَّأْنِ وَالِدَجَاجِ وَلَا يَغْبُطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْأَدَمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقُلُّ
الرُّطُوبَاتُ لِدَاكِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخْفُ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَادِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيَّةِ
فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ الطَّيِّفِ مِنْ جُسُومِ الْبَادِيَةِ الْخُشْبِينَ فِي الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ
تَجِدُ الْمَعُودِينَ بِالْجَمُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا فَضَلَاتِ فِي جُسُومِهِمْ غَالِظَةً وَلَا لَطِيفَةً. وَأَعْلَمُ

أَنَّ أَثَرَهُذَا الْخُصْبُ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَجَعِدُ
 الْمُتَقَشِّصِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالتَّجَاعِي عَنْ الْمَلَاذِ
 أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالًا عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْخُصْبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ
 فِي الْمَدِينِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَغِيظُهَا مِنَ الْقِسَاوَةِ وَالْغَفْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْأَكْثَارِ مِنَ الْخَمَانِ
 وَالْأَدَمِ وَلِبَابِ الْبَرِّ وَيَخْتَصُّ وَجُودَ الْعِبَادِ وَالزُّهَادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَقَشِّصِينَ فِي غِذَائِهِمْ مِنْ
 أَهْلِ الْبُؤَادِي وَكَذَلِكَ نَجِدُ هَؤُلَاءِ الْخُصْبِينَ فِي الْعَيْشِ الْمُنْعَمِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ
 الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْأَوَاصِرِ وَالْأَمْصَارِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السِّنُونَ وَأَخَذَتْهُمْ الْجَمَاعَاتُ
 يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلُ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلُ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمِصْرَ
 فِيمَا يَبْتَغُونَا لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلُ الْقَفْرِ وَالصَّحْرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبُ
 عَيْشِهِمُ التَّمَرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشَّعِيرُ وَالزَّيْتُ
 وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الْأَذْرَةُ وَالزَّيْتُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمْ السِّنُونَ
 وَالْجَمَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلَئِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمْ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلَا
 يَنْدُرُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُنْعَمِينَ فِي الْخُصْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ
 وَالسَّمَنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمَرَاجِيَةِ
 حَتَّى تَجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَفَقْدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِعْمَالِ
 الْخَشَنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمَعَالِيسِ وَالْإِتِكَامِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي
 الْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَمَهْلِكُ صَاحِبِهِ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ فَالْهَالِكُ كُنْ فِي
 الْجَمَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ أَحَادِثُ الْأَحْقِ. وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ
 لِقِلَّةِ الْأَدَمِ وَالسَّمَنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ
 وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِي مَعَامِهِمْ تَبَدُّلُ الْأَغْذِيَةِ بَيْسٌ وَلَا انْخِرَافٌ
 فَيَسْتَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَعْزُضُ لِعَيْرِهِمْ بِالْخُصْبِ وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي
 الْمَاكِيلِ وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ أَنَّ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَاتِّتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ
 فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَا يَمْنَعُهُ تَنَاوُلُهُ كَانَ لَهُ مَأْلُوفًا وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً
 مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ ^(١) وَمَا أَفْرَطَ فِي الْإِنْخِرَافِ

١ قال في القاموس البتوع كصور أو تنوير نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمنهور منه سبعة

فَأَمَّا مَا وَجَدَ فِيهِ التَّغْدِي وَالْمَلَأَمَةُ فَيَصِيرُ غَدَاءً مَأْلُوفًا بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ
نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عِوَضًا عَنِ الْخِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَنًا فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ
غَدَاءً وَاسْتَعْنَى بِهِ عَنِ الْخِنْطَةِ وَالْحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَكَذَلِكَ مِنْ عَوْدِ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى
الْجُوعِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ عَنِ الطَّعَامِ كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ نَائِلًا لَسَمْعِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ
أَخْبَارًا غَرِيبَةً يَكَادُ يَنْكُرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلْفَتْ
شَيْئًا صَارَ مِنْ جَبَلَتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّلَوُّنِ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِيَادُ الْجُوعِ
بِالتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا وَمَا يَتَوَهَّمُ الْأَطِبَاءُ مِنْ أَنَّ
الْجُوعَ مَهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلَّا إِذَا حُمِلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَفُطِعَ عَنْهَا الْغَدَاءُ
بِالْكُلْيَةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْسِمُ الْمَعَاءُ وَيَبَالُغُ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ أَهْلَاكًا وَأَمَّا إِذَا
كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ تَدْرِيجًا وَرِيَاضَةً بِإِقْلَالِ الْغَدَاءِ شَيْئًا شَيْئًا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَصَوِّفُ
فَهُوَ بِمَعَزِلٍ عَنِ أَهْلَاكِهِ وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الرُّجُوعِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ
فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغَدَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خِيفَتْ عَلَيْهِ أَهْلَاكُهُ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا
بَدَأَ فِي الرِّيَاضَةِ بِالتَّدْرِيجِ وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَصَلًّا
وَأَكْثَرًا وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ أَمْرَانِ مِنَ أَهْلِ
الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ وَرَنَدَةِ حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ الْأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ سَنِينَ وَشَاعَ أَمْرُهُمَا
وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا فَصَحَّ شَأْنُهُمَا وَاتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَا وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ
أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَعَزِ يَلْتَقِمُ تَدْيِهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ
الْإِفْطَارِ وَيَكُونُ ذَلِكَ غَدَاءَهُ وَاسْتَدَامَ عَلَى ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ
وَلَا يُسْتَنْكَرُ ذَلِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهِ لِمَنْ
قَدَّرَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى الْإِقْلَالِ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَأْتِرْ فِي الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صَفَائِهَا وَصَلَاحِهَا
كَمَا قُلْنَا هُوَ أَعْتَبَرُ ذَلِكَ بِأَثَارِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْهَا فِي الْجُسُومِ فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَدِّينَ
بِلُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْفَاحِشَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَثْمَانِ تَنَشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي أَهْلِ
الْبَلَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ الْخَاضِرَةِ وَكَذَا الْمُتَغَدِّونَ بِالْبَانِ الْأَيْلِ وَلُحُومِهَا أَيْضًا مَعَ مَا يُؤَثِّرُ فِي

الشهيم واللاعبة والطرشيا واليهودانة والمازربون والفجلشت والعشر وكل البهوعات اذا استعملت في
غير وجهها هلكت اه

أَخْلَقَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الْأَثْقَالِ الْمَوْجُودِ ذَلِكَ لِلْإِبِلِ
وَتَلَسَّ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ الْإِبِلِ فِي الصَّحَّةِ وَالْفَلَاطِ فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا
يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرُهُمْ فَيَشْرَبُونَ الْيَتَوَعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بَطُونِهِمْ غَيْرَ
مَحْجُوبَةٍ كَلْحَنْظَلٍ قَبْلَ طَبْعِهِ وَالْدَّرِيَّاسِ وَالْقَرْيُونِ وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءُهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ
تَنَاولَهَا أَهْلُ الْخَضِرِ الرَّفِيقَةِ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ
اسْتَرْعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرَفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِيةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا
ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفَلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجَرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غَدَّيْتُ بِالْحُبُوبِ الْمَطْبُوخَةِ
فِي بَعْرِ الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ يَضُّهَا ثُمَّ حَضَنْتَ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ
يَسْتَعْنُونَ عَنْ تَغْدِيَتِهَا وَطَبَخَ الْحُبُوبِ بِطَرَحِ ذَلِكَ الْبَعْرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمَحْضَنِ فَيَجِيءُ
دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ الْعَظَمِ وَأَمثالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْتَ هَذِهِ الْأَثَارَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ فِي
الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْجُوعَ أَيْضًا أَثَارًا فِي الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي
التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ
الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخْلَلَةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجِسْمِ
وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالنظرة او الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرويا

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَصْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِمُطَابَقَةِ وَفَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ
وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ
وَيَأْخُذُونَ بِحُجُومِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ
الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمَغْشِيَةِ عَنِ الْبَشَرِ
الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسْاطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ خَبْرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ
خَاصِيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَةِ هَذَا الصِّنْفِ

مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تُوَجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبُهُ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَانَتْهَا
 غَشْيَةٌ أَوْ إِعْمَاءٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِعْرَاقٌ
 فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرُّوحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبَ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنْ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكَلِمَةِ
 ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيِّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ
 صُورَةٌ سَخِصٌ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا
 الْوَحْيُ إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ الْوَحْيِ أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَاحَةِ
 الْجُرْسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا
 فِي كَلِمَتِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ وَيَذْكُرُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْغَطِّ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي
 الْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالَجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ
 الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِنَهُ لِيَتَفَصَّدَ عَرَفًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
 وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمَشْرُكُونَ يَرْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ وَيَقُولُونَ
 لَهُ رَيْئٌ أَوْ تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ وَإِنَّمَا لَيْسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَمَنْ
 يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقٌ الْخَيْرِ
 وَالزَّكَاةُ وَجَنَابَةُ الْمَذْمُومَاتِ وَالرَّجْسِ أَجْمَعٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعَصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَقْطُورٌ
 عَلَى التَّنْزِهِ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنْفَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّمَا مُنَافِيَةٌ لِحَبْلَتِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ
 الْحِجَارَةَ وَهُوَ غَلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَأَنكَشَفَ فَسَقَطَ
 مَغْشِيًا عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلَيْمَةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ
 غَشْيٌ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يُخْضِرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ تَرَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ
 كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِحَبْلَتِهِ يَنْزَهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ لَا يَقْرُبُ الْبَصَلَ وَالثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي أَنُجِجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ وَأَنْظُرُ
 لِمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ
 وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ فَقَالَتْ أَجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ
 إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الثِّيَابِ
 إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْخَضِرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلِكُ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضِرَةَ
 مِنَ الْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَأَمَكَةِ وَالسَّوَادُ مِنَ الْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ .

وَمِنْ عِلَالَتِهِمْ أَيْضًا دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدْ
 اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي
 أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخَلْقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرْقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ يَمْلِكُهُ مِنْ فُرَيْشٍ وَفِيهِمْ
 أَبُو سَفْيَانَ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ يَمُورُكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ
 بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعِفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا نَقُولُ
 حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ وَالْعِفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقْلُ ^(١) هُوَ الْعِصْمَةُ
 فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالِدُعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ
 يَحْتَجْ إِلَى مُعْجَزَةٍ قَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَالَتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عِلَالَتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا
 ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رَوَايَةٍ
 أُخْرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَدْرَكَهُ الْخَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحِينَ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرْقْلَ لِأَبِي
 سَفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فَيَكُمُ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ هُوَ فِينَا دُوْحَسْبُ فَقَالَ
 هِرْقْلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِصْبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ
 عَنْ أَدَى الْكُفَّارِ حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مُرَادُ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ
 عِلَالَتِهِمْ أَيْضًا وَفُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالُ يُخْجَرُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا
 فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجَزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا نَفَعُ فِي غَيْرِ مَحَلٍّ قُدْرَتِهِمْ
 وَالنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وَفُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافُ مَا لَمْ تَكُنْ بِنَاءً عَلَى
 الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْخُتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَنْعَلُ النَّبِيُّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ
 الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَرِثَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ
 لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا
 الَّذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَفُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مَدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنْزَلَتْ مَنَزَلَةَ الْقَوْلِ
 الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجَزَةُ الدَّالَّةُ
 بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحْدِي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْأً مِنْهَا وَعِبَارَةٌ الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةً
 نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الدَّائِي عَنْدهُمْ وَالتَّحْدِي هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ

وَالسَّحَرُ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ فَلَا وَجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا إِنْ وَجِدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ
وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكَرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُحْزِمُهَا وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوَلَايَةِ وَهِيَ
غَيْرُ النَّبُوءَةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأُسْتَاذُ أَبُو اسْحَقَ وَغَيْرُهُ وَفُوعَ الْخَوَارِقِ كَرَامَةً فَرَارًا مِنْ
الْإِلْتِبَاسِ بِالنَّبُوءَةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوَلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ الْمَغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى
بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لَيْسَ عَلَى أَنْ النَّقْلَ عَنْ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا
وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى إِنْكَارِ لَنْ تَقَعَ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءٌ عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مَنْ
الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْتَزَلَةُ فَالْمَنْعُ مِنْ وَفُوعِ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ
لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا وَفُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْيِيسًا
فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجَزَةِ التَّصْدِيقِ وَالْهُدَايَةِ فَلَوْ وَقَعَتْ
بِمُخَالَفِ ذَلِكَ أَتَقَلَّبَ الدَّلِيلُ شُبُهَةً وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً وَالتَّصْدِيقُ كَذِبًا وَأَسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ
وَأَتَقَلَّبَتِ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وَفُوعِهِ الْحُجَالُ لَا يَكُونُ مُمَكِّنًا وَأَمَّا عِنْدَ
الْمُعْتَزَلَةِ فَلِأَنَّ وَفُوعَ الدَّلِيلِ شُبُهَةً وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةٌ فَيُحِبُّ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ
فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ حَمَلِ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي
الْإِيجَابِ الذَّائِي وَوُفُوعِ الْخَوَارِقِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشَّرُوطِ
الْحَادِثَةِ مُسْتَنَدَةٌ أَخِيرًا إِلَى التَّوَجُّبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ
عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ الْعُنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ
وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ فِي الْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ
اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاكَ كَانَ لِلتَّحْدِي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ
بَصْدَقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى تَصَرُّفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ
النَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ فَذَلِكَ لَا تَكُونُ دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ
قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحْدِي جَزْأً مِنَ الْمُعْجَزَةِ وَلَمْ يَصِحَّ
فَارَقًا لَهَا عَنِ السَّحَرِ وَالْكَرَامَةِ وَفَارَقَهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السَّحَرِ أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى أَعْمَالِ
الْخَيْرِ مَصْرُوفٌ عَنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ فَلَا يَأْتِي الشَّرُّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ فَأَعْمَالُهُ كُلُّهَا
شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ وَفَارَقَهَا عَنِ الْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَالصُّعُودِ إِلَى
السَّمَاءِ وَالنُّفُوزِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّيْرَانِ

فِي الْهَوَاءِ وَخَوَارِقُ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَثِيرٌ الْقَلِيلُ وَالْحَدِيثُ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ
وَأَمثالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ
عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَنُوهُ عَمَّنْ
أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَأَعْلَمُ أَنَّ أَعْظَمَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةُ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ الْمُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْغَالِبِ تَقَعُ
مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالْمُعْجَزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ
الْوَحْيُ الْمَدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجَزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ
كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةً لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا
مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَآتَى مِنَ آيَاتٍ مَا مِثْلُهُ
أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أُوحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ
تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجَزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهِارُهُ الْمَثَابَةِ فِي الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ
الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسُ الْوَحْيِ كَانَ الصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحًا فَكَثُرَ الْمَصْدَقُ
الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَالْمُتَّبِعُ

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

اعْلَمْ . أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَا نُشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْخُلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ
مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْأَحْكَامِ وَرَبَطَ الْأَسْبَابَ بِالسَّبَبَاتِ وَاتَّصَلَ الْأَكْوَانُ بِأَلَا كَوَانٍ
وَاسْتَحَالَ بَعْضُ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأَ
مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجُمْهَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمِ الْعُنَاصِرِ الْمَشَاهِدَةِ كَيْفَ تَدْرُجُ صَاعِدًا
مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ وَالصَّاعِدُ
مِنْهَا الْطُّفُ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ الْأَفلاكِ وَهُوَ الْطُّفُ مِنْ الْكُلِّ عَلَى
طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يَدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ وَبِهَا

يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا
هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا ثُمَّ أَنْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ
الْحَيَوَانَ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ آخِرُ أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلُ
الْحَشَائِشِ وَمَا لَا بَذَرَ لَهُ وَآخِرُ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلُ النَّخْلِ وَالْعُكْرَمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ
الْحَيَوَانَ مِثْلُ الْحَزُونِ وَالصَّدَفِ وَلَمْ يُوَجَدْ لِهَمَّا إِلَّا قُوَّةُ اللمسِ فَقَطْ وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ
فِي هَذِهِ الْمُبْكُونَاتِ أَنَّ آخِرَ أَفْقِ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ بِالْأَسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ لِأَنْ يَصِيرَ أَوَّلُ
أَفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَاسْتَسَعَّ عَالَمُ الْحَيَوَانَ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاءُهُ وَانْتَهَى فِي تَدْرِيجِ التَّكْوِينِ
إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْخَسُ
وَالْإِدْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهِ إِلَى الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقٍ مِنَ الْإِنْسَانِ
بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا آثَارًا مُتَنَوِّعَةً فِي عَالَمِ الْخَسِ
آثَارُ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِرِ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ آثَارُ مِنْ حَرَكَةِ الشُّمُوعِ وَالْإِدْرَاكِ
تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مَوْثِرًا مُبَايِنًا لِلْأَجْسَامِ فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمُبْكُونَاتِ لَوْجُودِ
إِتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْمَحْرُكَةُ وَلَا يَدْفُوقُهَا مِنْ
وُجُودِ آخِرٍ يُعْطِيهَا قُوَى الْإِدْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاتَهُ إِدْرَاكًا
صِرْفًا وَتَعَقُّلاً مُخَصَّصًا وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ
لِلْإِنْسَالِخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لِصَيْرِ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقَدْ بَدَأَ مِنْ
الْأَوْقَاتِ فِي لَمَحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمُلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا
تَدْكُرُهُ بَعْدُ وَيَكُونُ لَهَا إِتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا
قَدَّمَاهُ فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا وَتَكْتَسِبُ
بِهِ الْمَدَارِكَ الْحَسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعَقُّلِ بِالْفِعْلِ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى
مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَتَكْتَسِبُ بِهِ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَيْنِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ الْخَوَادِثِ
مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدَّمَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ فِي الْوُجُودِ
بِإِتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقُوَاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةً عَنِ الْعِيَانِ
وَأَثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَأَنَّهُ وَجَمِيعُ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُفْتَرِقَةٌ آلَاتٌ لِلنَّفْسِ وَلِقَوَاهَا
أَمَا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرِّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ

بِالْبَدَنِ مُتَدَاْفِعًا وَأَمَّا الْمُدْرَكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْأِدْرَاكِ مُرْتَبَةً وَمُرْتَفِعَةً إِلَى الْقُوَى
الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنْ الْمَفْكُرَةِ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقِيَّةِ فَقُوَى الْحِسِّ الظَّاهِرَةِ بِآلَاتِهِ مِنْ
السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ وَهُوَ قُوَّةُ تَدْرِكِ
الْمَحْسُوسَاتِ مُبَصَّرَةٍ وَمُسَمَّوَةٌ وَمَلْمُوسَةٌ وَغَيْرُهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةُ
الْحِسِّ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحِسُّ
الْمُشْتَرِكُ إِلَى الْخَيَالِ وَهِيَ قُوَّةُ تُمَثِيلِ الشَّيْءِ الْمَحْسُوسِ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنْ
الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَتَيْنِ فِي تَصَرُّفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ
مُقَدَّمُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخَيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةُ فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ
الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعِدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْآبِ وَافْتِرَاسِ
الدُّنْبِ وَالْحَافِظَةُ لِإِيْدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَالْخَزَانَةِ تَحْفَظُهَا لَوْفَتْ
الْحَاجَةُ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَتَيْنِ فِي تَصَرُّفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلأَوَّلَى
وَمُؤَخَّرُهُ لِلْآخِرَى ثُمَّ يَرْتَقِي جَمِيعُهُمَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْاَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ وَهِيَ الْقُوَّةُ
الَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّوْيَةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ الْعَقْلِ فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِبَ فِيهَا
مِنَ النُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ
فِي تَعَقُّلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي
إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْأَلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فِيهِ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَسْلُخُ
بِالْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ
بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأَوَّلَى فِي ذَلِكَ وَالثَّمُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ
اصْنَافٍ صَنَّفَ عَاجِزٌ بِالنَّطَبِ عَنِ الْوُصُولِ فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ
الْمُدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِبُ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى فَوَائِنٍ مَحْصُورَةٍ
وَتَرْتَبِيبِ خَاصٍ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلِّهَا
خَيَالِيٌّ مُنْخَصَرٌّ نِطَاقُهُ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مَبْدَأٍ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ
فَسَدَ فُسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَعْلَى نِطَاقُ الْأِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ يَنْتَهِي
مُدَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسُخُ أَقْدَامِهِمْ وَصَنَّفَ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ
الرُّوحَانِيِّ وَالْأِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْأَلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ

لِذَلِكَ فَيَتَسَّعُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ
وَيَسْرَحُ فِي فُضَاءِ الْمَشَاهِدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانُ كُلِّهَا نِطَاقُ لَهَا مِنْ مَبْدَأِهَا وَلَا مِنْ
مُنْتَهَاهَا وَهَذِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوَّلِيَّاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَهِيَ
الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرْزَخِ وَصِنِفٍ مَقْطُورٍ عَلَى الْإِنْسِلَاخِ مِنَ
الْبَشَرِيَّةِ جَمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفْنَى الْأَدْنَى لِيَصِيرَ فِي لَحْمَةٍ
مِنَ الْأَلْحَمَاتِ مَلَكًا بِالْإِنْعِلِ وَيَحْصُلُ لَهُ شَهِيدُ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى فِي أَفْقِهِمْ وَسَمَاعِ الْكَلَامِ
النَّفْسَانِيِّ وَالْخُطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ
جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ فَطَرَهُمْ اللَّهُ
عَلَيْهَا وَجَبَلَهُ صَوْرَهُمْ فِيهَا وَزَوَّجَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَانِقِهِ مَا دَامُوا مُلَاسِسِينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ
بِمَا رُكِبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَادِثُونَ بِهَا تِلْكَ الْوُجْهَةَ وَرُكِبَ فِي
طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تَكْشِفُ بِتِلْكَ الْوُجْهَةِ وَتُسَبِّغُ نَحْوَهَا فَيُتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ
الْأَفْقِ بِذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الْإِنْسِلَاخِ مَتَى شَاءَ وَابْتِكَاءَ الْنُظْرَةِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا لَا بِأَنْ كَتَسَابَ
وَلَا صِنَاعَةً فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَانْسَلَخُوا عَنْ شَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّوْنَهُ
عَاجِبًا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنْزَلَانِي فُؤَادًا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادَةِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا
كَأَنَّهُ رَزَمَ مِنَ الْكَلَامِ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي الْإِلَهِي إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوِيَّ إِلَّا وَقَدْ
وَعَاهُ وَفَهِمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُلْقَى إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيَعِي مَا يَقُولُهُ
وَالْتَقِي مِنَ الْمَلَكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهِمَهُ مَا أَتَى عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَحْمٍ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ بَلْ كُلُّهَا نَفْعٌ جَمِيعًا فَيُظْهِرُ
كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَحْيًا لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي اللُّغَةِ الْإِسْرَاعُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَوَّلَى وَهِيَ
حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَّةُ وَهِيَ حَالَةُ تَمَثُّلِ
الْمَلَكِ رَجُلًا يُخَاطَبُ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأَوَّلَى وَهَذَا
مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَّرَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ الْخَارِثُ بْنُ
هَشَامٍ وَقَالَ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ فَقَالَ أَحْيَانًا يَأْتِيَنِي مِثْلُ صَلَاطَةِ الْجُرْسِ وَهُوَ أَشَدُّ
عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ
وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأَوَّلَى أَشَدَّ لَانْتِبَاحِهَا مَبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ

فَيَعْسُرُ بَعْضُ الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَتْ بِالسَّمْعِ وَصَعِبَ
مَا سِوَاهُ وَعِنْدَ مَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلَقِّي يَسْهَلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَعِنْدَ مَا يَهْرَجُ
إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصًا الْأَوْفَحِ مِنْهَا وَهُوَ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ وَفِي
الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي الْأَوَّلِ بَصِغَةُ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَةِ بَصِغَةُ الْمُضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنَ
الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ تَجْمِيءُ التَّمْثِيلِ لِحَالَتِي الْوَحْيِ فَمَثَلَ الْحَالَةَ الْأَوَّلَى
بِالدَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَعَارِفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَحْيَ يَتَّبَعُهُ غَيْبُ انْقِضَائِهِ
فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصَوُّرِ انْقِضَائِهِ وَانْفِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي الْمُنَاطِقِ لِلِانْقِضَاءِ
وَالْإِنْقِطَاعِ وَمَثَلَ الْمَلِكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامُ يُسَاوِفُهُ
الْوَحْيُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ . وَأَعْلَمَ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا
صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ وَشِدَّةٌ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ
الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَنْصَمُّ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا . وَلِذَلِكَ كَانَ يَحْدُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ
الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْغَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَرْنَا مُفَارَقَةً
الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَائِكِيَّةِ وَتَلْقَى كَلَامَ النَّفْسِ فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ
الذَّاتِ ذَاتِهَا وَأَنْسِلَاحِهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخَرِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْغَطِيطِ الَّذِي
عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ فُغْطِئْتُ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَانِي فَقَالَ أَقْرَأْ فَقُلْتُ
مَا أَنَا بِقَارِئٍ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ نَفَضِيَ الْأَعْتِيَادُ بِالتَّنْذِيرِ فِيهِ
شَيْئًا فَسَيِّئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ تُنْزَلُ بُحُورُ الْقُرْآنِ
وَسُورُهُ وَآيُهُ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَنَظَرُ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ
سُورَةِ بَرَاءَةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَأَنَّهَا نُزِلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ
بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّرُورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصِلِ فِي وَقْتٍ وَيُنْزَلُ الْبَاقِي
فِي حِينَ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نُزِّلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّولِ بَعْدَ
أَنَّ كَانَتْ الْآيَةُ تُنْزَلُ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثَّرِ وَالضُّحَى
وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا وَاعْتَبَرْنَا مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ مِنَ السُّورِ
وَالْآيَاتِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ . هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَأَمَّا الْكُهَانَةُ فَهِيَ أَيْضًا

مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ النَّفْسَ
 الْإِنْسَانِيَّةَ اسْتَعْدَادًا لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ
 ذَلِكَ لَحْمَةُ الْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ
 غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ الصُّوَرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ
 الْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاحٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ
 بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ تَحَرُّكِ الْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتَعْدَادُ
 مَوْجُودًا فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيَّ وَإِنَّ هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصًا
 عَنْ رُتَبَةِ الصَّنِفِ الْأَوَّلِ نَقْصَانُ الْفِتْرِ عَنْ ضِدِّهِ الْكَمَالِ لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ
 الْأِدْرَاكِ ضِدُّ الْاسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَكَّانَ مَا بَيْنَهُمَا فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا
 آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَطْوَرًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الذِّكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ
 عِنْدَمَا يَبْعَثُهَا النَّزْوَعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجَبَلَةِ عِنْدَمَا يَعْرِقُهَا الْهَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّثُ
 بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مُحْسُوسَةٍ أَوْ مَخَيَّلَةٍ كَأَلْجَسَامِ الشَّنَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ
 الْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ أَوْ التَّخِيلُ مُسْتَعِينًا بِهِ
 فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاحِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَالْمُسَجِّعِ لَهُ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأُ
 لِنَاكِ الْأِدْرَاكِ هِيَ الْكُهَانَةُ وَلَكِنْ هَذِهِ النَّفُوسُ مَطْوَرَةٌ عَلَى النِّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنْ
 الْكَمَالِ كَانِ إِدْرَاكِهَا فِي الْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْخَيَلَةُ فِيهِمْ
 فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا أَلَّةُ الْجُزْئِيَّاتِ فَتَنْفِذُ فِيهَا نَفُودًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ بَقْظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا
 حَاضِرَةً عَنِيدَةً تُحْضِرُهَا الْخَيَلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ
 عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ الْعَقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَارْتَفَعَ أَحْوَالُ
 هَذَا الصَّنِفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السَّجْعُ وَالْمُؤَاوَنَةُ لِشَتَلِ بِهِ عَنِ الْخَوَاصِّ
 وَيَقْوَى بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَّاقِصِ فَيَسْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَالَّذِي
 يُشِيرُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ مَا يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ
 لِأَنَّهُ يُتِمِّمُ نَقْصَهُ بِأَمْرِ أَجْنَبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنَ لَهَا غَيْرَ مُلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ
 الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مُؤْتَوِّفًا بِهِ وَرُبَّمَا يَنْزِعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالْتَحَاضُّنَاتِ
 حِرْصًا عَلَى الظَّنِّ بِالْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَمُؤَيِّدًا عَلَى السَّائِلِينَ وَأَصْحَابِ هَذَا السَّجْعِ هُمْ

الْخُصُوصُونَ بِاسْمِ الْكَهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فِي مَثَلِهِ هَذَا مَنْ سَجَعَ الْكَهَّانُ فَعَلَّ السَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ
 صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْأَخْبَارِ كَيْفَ يَا بُنَيَّ هَذَا الْأَمْرُ قَالَ يَا بُنَيَّ صَادِقًا
 وَكَاذِبًا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ النَّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا الصِّدْقُ فَلَا يَعتَرِبُهَا الْكَذِبُ
 بِحَالٍ لِأَنَّهَا اتَّصَلَ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشِيعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجَنِيِّ
 وَالْكُهَّانَةُ لَمَّا احتاج صاحبها بسبب عجزه إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجَنِيَّةِ كَانَتْ
 دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَالتَّبَسُّتُ بِالْأَدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَفَةً
 الْكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَأَمْتَعَ أَنْ تَكُونَ نَبُوَّةً وَإِنَّمَا فَلَنَّا إِنْ أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْكَهَّانَةِ
 حَالَةَ السَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ أَخَذْتُ مِنْ سَائِرِ الْمُغِيَّبَاتِ مِنَ الْمَرَيَّاتِ وَالْمُسْمُوعَاتِ
 وَتَدَلُّ خَفَةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْأَدْرَاكِ وَالْبُعْدُ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضُ
 الشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكَهَّانَةُ قَدْ انْقَطَعَتْ مِنْذُ زَمَنِ النَّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ
 مِنْ شَأْنِ رَجَمِ الشَّيَاطِينِ بِالشَّهْبِ بَيْنَ يَدَيِ الْبَعَثَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَيْرِ
 السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ وَالْكَهَّانُ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتْ
 الْكَهَّانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ الْكَهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ
 تَكُونُ مِنْ نَفْسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَلَا لَبَّاءَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ
 نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبَعَثَةِ وَلَمْ يَمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَأَيْضًا
 فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبُوَّةِ فَقَطُّ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ
 عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا تَخْمَدُ فِي زَمَنِ النَّبُوَّةِ كَمَا تَخْمَدُ
 الْكَوَاكِبُ وَالشُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ لِأَنَّ النَّبُوَّةَ هِيَ النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ
 كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْكَهَّانِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوْجَدُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ
 وَهَكَذَا كُلُّ نَبُوَّةٍ وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ النَّبُوَّةِ لَا يَدُلُّهُ مِنْ وَضْعٍ فَلِكَيْ يَقْتَضِيَهُ فِي تِمَامِ
 ذَلِكَ الْوَضْعِ تِمَامُ تِلْكَ النَّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَتَقْصُرُ ذَلِكَ الْوَضْعُ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِي
 وَجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ
 فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ يَقَعُ الْوَضْعُ النَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وَجُودَ الْكَاهِنِ إِمَّا
 وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وَجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَانْقَضَتْ الْأَوْجَاعُ

الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَلَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ وَهَذَا بَيِّنٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْوَضْعِ
الْفَلَاسِفِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ فَلَعَلَّ الْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ
الْخَالِصَةِ وَلَوْ تَقَصَّ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا لِأَنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرَ نَاقِصًا كَمَا
قَالُوا ثُمَّ إِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّانُ إِذَا عَامَرُوا زَمَنَ النُّبُوَةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدِلَالَةِ
مُعْجَزَاتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوُجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ
وَمَعْقُوبِيَّةِ تِلْكَ النَّسَبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوقِعُهُمْ
فِي التَّكْذِيبِ الْإِفْوَةُ الْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَةٌ لَهُمْ فَيَقْعُونَ فِي الْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأَمِيَّةَ
بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَّبَعَ وَكَذَا وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا
غَلَبَ الْإِيمَانُ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الْأَمَانِي آمَنُوا أَحْسَنَ إِيْمَانٍ كَمَا وَقَعَ لَطَائِفَةِ الْأَسَدِيِّ
وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْأَثَارِ الشَّاهِدَةُ بِحُسْنِ
الْإِيمَانِ . وَأَمَّا الرُّوْيَا فَخَفِيفَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ لِحَقَّةٍ مِنْ صُورِ
الْوَاقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُورُ الْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِالْفِعْلِ كَمَا
هُوَ شَأْنُ الذُّلُومِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ الْمَوَادِّ الْجِسْمَانِيَّةِ
وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَتَدْقُقَ لَهَا ذَلِكَ لِحَقَّةٍ بِسَبَابِ النَّوْمِ كَمَا نَدْكُرُ فَيَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمٌ مَا
تَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْاِقْتِبَاسُ
ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْحُكَاكَةِ وَالْمِثَالِ فِي الْخَيَالِ لِنُخْلُصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْحُكَاكَةِ
إِلَى التَّعْبِيرِ وَقَدْ يَكُونُ الْاِقْتِبَاسُ قُوِيًّا يَسْتَعْنِي فِيهِ عَنِ الْحُكَاكَةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرِ
لِخُلُوصِهِ مِنَ الْمِثَالِ وَالْخَيَالِ وَالسَّبَبِ فِي وُقُوعِ هَذِهِ اللَّحَقَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ
بِالْقُوَّةِ مُسْتَكْمِلَةٌ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتَهَا تَعْقُلًا مُخَضًّا وَيَكْمُلُ وَجُودُهَا
بِالْفِعْلِ فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ آلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ
نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ الْمَلَائِكَةِ أَهْلُ الْأَفْقِ الْأَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا
ذَوَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ هَذَا الْاِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ
وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوَّلِيَاءِ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّوْيَا . وَأَمَّا الَّذِي
لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اِسْتِعْدَادٌ بِالْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ الْخُضْصَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى
الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ هَذَا الْاِسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ الْوَسْخِ وَهُوَ عِنْدَمَا

يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْأِدْرَاكِ شَبِيهَا بِحَالِ النَّوْمِ شَبِيهَا
بَيْنَمَا وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَدْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلِأَجْلِ هَذَا الشَّيْءِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا
بِأَنهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةِ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رِوَايَةٍ
سَبْعِينَ وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي حَمِيهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ
الْمَرَاتِبِ بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَأِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ
وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ
مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ فَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا
يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنَ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ
لَكَ هَذَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْأَسْتَعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ
لِلْبَشَرِ إِلَى الْأَسْتَعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفُطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
إِذْ هُوَ الْأَسْتَعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي النَّسْرِ وَمَعَهُ عَوَاقِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ
حُصُولِهِ بِالْفِعْلِ وَمِنْ أَكْثَرِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْخَوَاسُ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ
حِجَابِ الْخَوَاسِ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلِيٌّ لَهُمْ فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ
مَا تَشْتَوِي إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتُدْرِكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَحْمَةً يَكُونُ فِيهَا الظُّفْرُ
بِالْمَطْلُوبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ
قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ
وَمَا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْخَوَاسِ بِالنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَصْنَعُ لَكَ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ
إِنَّمَا إِدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بِخَارِ لَطِيفٍ مَرَكُزُهُ بِالتَّجْوِيفِ
الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ لِلْجَالِينُوسِ وَغَيْرِهِ وَتَبْعَتْ مَعَ الدَّمِ فِي
الشَّرَايِنَاتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطَى الْحَسَّ وَالْحَرَكَةَ وَسَائِرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَيرْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى
الدِّمَاغِ فَيَعْدِلُ مِنْ بَرْدِهِ وَتَنْتُمُ أَفْعَالُ الْقُوَى الَّتِي فِي بَطُونِهِ فَالْنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا تُدْرِكُ
وَتَعْقِلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبَخَارِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا أَقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ
الْطَّيْفَ لَا يُؤْتَرُ فِي الْكَثِيفِ وَلَمَّا لَطِفَ هَذَا الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ

صَارَ مَحَلًّا لِأَثَارِ الذَّاتِ الْمُبَايَنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَّفْسُ الْبَاطِنَةُ وَصَارَتْ أَثَارُهَا
حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطَتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدْ مَنَّا أَنْ إِدْرَاكِهَا عَلَى نَوْعَيْنِ إِدْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ
الْخَوَاسُ الْخَمْسُ وَإِدْرَاكِ بِالْبَاطِنِ وَهُوَ الْقَوَى الدَّمَاعِيَّةُ وَأَنَّ هَذَا الْإِدْرَاكِ كُلَّهُ
صَارَفٌ لَهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا مَا قَوْفَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا
كَانَتْ الْخَوَاسُ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً كَانَتْ مُعْرِضَةً لِلْوَسْنِ وَالْفَشْلِ بِمَا يَدْرِكُهَا مِنَ التَّعَبِ
وَالْكَلالِ وَتَغْشَى الرُّوحَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فَيَخْلُقُ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْأَنْجَامِ لِتَجَرُّدِ الْإِدْرَاكِ
عَلَى الصُّورَةِ الْكَمَالَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِإِنْخَاسِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْخَوَاسِ
الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا وَرُجُوعِهِ إِلَى الْحَسِّ الْبَاطِنِ وَيُعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَعْنَى الْبَدَنُ مِنَ الْبَرْدِ
بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ
مُسْبِغَةً مَرَكِبًا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ
إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ فَإِذَا انْخَاسَ الرُّوحُ عَنِ الْخَوَاسِ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقَوَى الْبَاطِنَةِ
وَحَفَّتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاعِلُ الْحَسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلُ
مِنْهَا بِالْتَرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُورٌ خَيَالِيَّةٌ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعْتَادَةً لِأَنْبِيَاءِ مُنْتَزَعَةً مِنْ
الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهِدَةِ قَرِيبًا ثُمَّ يَنْزِلُهَا الْحَسُّ الْمُشْتَرِكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْخَوَاسِ
الظَّاهِرَةِ فَيَدْرِكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْخَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ وَرَبَّمَا التَّنَفَّتِ النَّفْسُ لَفْتَةً إِلَى
ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقَوَى الْبَاطِنِيَّةِ تَذْرِكُ بِإِدْرَاكِهَا الرُّوحَانِيَّ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ
عَلَيْهِ وَتَقْتَنِسُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ ثُمَّ يَأْخُذُ الْخَيَالَ
تِلْكَ الصُّورَ الْمُدْرَكَةَ فَيَمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوْ الْمَحَاكَاةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْهُودَةِ وَالْمَحَاكَاةُ
مِنْ هَذِهِ هِيَ الْخِيتَابَةُ لِلتَّعْبِيرِ وَتَصَرُّفُهَا بِالْتَرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ فِي صُورِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ
تَذْرِكُ مِنْ تِلْكَ اللَّحْمَةِ مَا تَذْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الرُّؤْيَا ثَلَاثُ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَهَذَا
التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَالْجُلِّيُّ مِنَ اللَّهِ وَالْمَحَاكَاةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلِكِ
وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوعُ الْبَاطِلِ هَذِهِ حَقِيقَةُ
الرُّؤْيَا وَمَا يُسَبِّحُهَا وَبُشَيِّعُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ
عَلَى أَعْمُومٍ لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّاتِ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ

لَهُ فِي بَقْطَتِهِ مِرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مُدْرَكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ
وَلَا بُدَّ وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الذَّاتَ
الْمُدْرَكَةَ وَاحِدَةً وَخَوَاصُّهَا عَامَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بَيْنَهُ وَفَضْلُهُ
فَصْلٌ * وَوُفُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ
وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ اللَّحْخَةِ فِي النَّوْمِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ
إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ ذَكَرُ
أَسْمَاءَ تَذَكَّرُ عِنْدَ النَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيُسْتَوْفَى بِهَا الْحَالُومِيَّةُ
وَذَكَرَ مِنْهَا مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ حَالُومَةً سَمَّاها حَالُومَةَ الطَّمَعِ الْتَامَ وَهُوَ أَنَّ يُقَالَ
عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ السَّرِّ وَصِحَّةِ التَّوَجُّهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ تَمَاسُ بَعْدَ
أَنْ يَسْوَدَ وَغَدَاسُ نَوْفًا غَادَسَ وَيَذَكَّرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ
فِي النَّوْمِ * وَحِكْمِي إِنَّ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيَالٍ فِي مَأْكَلِهِ وَذَكَرَهُ
فَمَثَلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَّاعُكَ الْتَامُ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَقَدْ
وَقَعَ لِي أَنَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَّةً عَجِيبَةً وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيْهَا مِنْ
أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُعْدِّثُهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ الْحَالُومَاتُ تُعْدِّثُ
الْإِسْتِعْدَادَ فِي النَّفْسِ لَوُفُوعِ الرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ الْإِسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا
يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِيقَاعِ
الْمُسْتَعَدِّ لَهُ فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَتَذَكَّرَهُ فِيمَا
يُجِدُّ مِنْ أَمْثَالِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

فصل * ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَانَنَاتِ قَبْلَ وَفُوعِهَا
بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ وَلَا
يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ النُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا يَجِدُّ مَدَارَ كَهَمِّ فِي ذَلِكَ بِمَقْتَضَى
فِطْرَتِهِمْ الَّتِي فُطِّرُوا عَلَيْهَا وَذَلِكَ مِثْلُ الْعَرَّافِينَ وَالنَّاظِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَالْمَرَايَا
وِطَسَاسِ الْمَاءِ وَالنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الزَّجْرِ فِي الطَّيْرِ
وَالسَّبَاعِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالْحُبُوبِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالنَّوَى وَهَذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي
عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسَعُ أَحَدًا مَجْدُهَا وَلَا أَنْكَارُهَا وَكَذَلِكَ الْجَنَانِينَ يُلْقَى عَلَى السَّنَنِ

كَلِمَاتٍ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا وَكَذَلِكَ النَّامُ وَالذِّبْتُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ
بِالْغَيْبِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكُ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَائِلِ
الْكِرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ . وَتَحْنُ الْآنَ تَتَكَلَّمُ عَنْ هَذِهِ الْأِدْرَاكَاتِ كُلِّهَا وَتَبْتَدِئُ مِنْهَا
بِالْكِبَانَةِ ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا وَنَقْدِمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ النَّفْسَ
الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا
ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْتَعَلُّقِ بِالْبَدَنِ وَاحْوَالِهِ وَهَذَا أَمْرٌ مُدْرِكٌ لِكُلِّ
أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ . وَصُورَةُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وُجُودُهَا هُوَ عَيْنُ
الْإِدْرَاكِ وَالْاِتِّعَاقُ فِيهِ تَوْجِدٌ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ مُسْتَعِدَّةٌ لِلْإِدْرَاكِ وَقَبُولُ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ
وَالْجُزْئِيَّةِ ثُمَّ يَتِمُّ نَشُوءُهَا وَوُجُودُهَا بِالْاِتِّعَاقِ بِصَاحِبَةِ الْبَدَنِ وَمَا يَعُودُهَا بِوُجُودِ مُدْرَكَاتِهَا
الْمَحْسُوسَةِ عَلَيْهَا وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ الْأِدْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَلَّقُ الصُّورُ
مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَحْصُلَ لَهَا الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَلُّقُ بِالْاِتِّعَاقِ فَتَتِمُّ ذَاتُهَا وَتَبْقَى النَّفْسُ
كَالْهَيُولَى وَالصُّورُ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ يُجَدُّ الصَّبِيُّ فِي أَوَّلِ
نَشَأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا لَا بِنَوْمٍ وَلَا بِكَشْفٍ وَلَا بِغَيْرِهِمَا وَذَلِكَ
أَنَّ صُورَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهِيَ الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَلُّقُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ
الْكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُهَا بِالْاِتِّعَاقِ حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ نَوْعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ
إِدْرَاكُ بَالَاتِ الْجِسْمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيْهَا الْمَدَارِكُ الْبَدَنِيَّةُ وَإِدْرَاكُ بِذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ
وَهِيَ مُجْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالْإِنْفِصَالِ فِي الْبَدَنِ وَالْحَوَاسِ وَبِشَوَاعِلِهَا لِأَنَّ الْحَوَاسَ أَبَدًا جَاذِبَةٌ
لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنْغَمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ
إِلَى الْبَاطِنِ فَيَرْتَفِعُ حِجَابُ الْبَدَنِ لِحَظَّةٍ إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
مِثْلُ النَّوْمِ أَوْ بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ لِبَعْضِ الْبَشَرِ مِثْلُ الْكِبَانَةِ وَالطَّرْقِ أَوْ بِالرِّيَاضَةِ
مِثْلُ أَهْلِ الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَتَلْتَقِ حِينَئِذٍ إِلَى الذَّوَاتِ الَّتِي فَوْقَهَا مِنَ الْمَلَا
إِمَّا بَيْنَ أَفْقِهَا وَافْتِقِهِمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ كَمَا قَرَّرْنَا قَبْلَ ذَلِكَ الذَّوَاتِ رُوحَانِيَّةٍ
وَهِيَ إِدْرَاكُ تَحْصُّ وَعَقُولُ بِالْاِتِّعَاقِ وَفِيهَا صُورُ الْمَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فَيَنْجَلِي
فِيهَا شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَنَقِيسٌ مِنْهَا عُلُومًا وَرُبَّمَا دَفَعَتْ تِلْكَ الصُّورُ الْمُدْرَكَةَ إِلَى
الْخِلَاقِ فَيَصْرِفُهَا فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يُرَاجِعُ الْحِسَّ بِمَا أَدْرَكَتْ إِمَّا مُجَرَّدًا أَوْ فِي

قَوْلِهِ فَخُبِّرْ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْأِدْرَاكِ الْعَلِيِّ . وَلَزَجَ إِلَى
مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا النَّاطِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّافَةِ مِنَ الْمَرَايَا وَطَسَاسِ
الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّوَى فَكَلِمَتُهُمْ مِنْ
قَبِيلِ الْكَلْبَانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَصْعَبَتْ رُبَّةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ الْكَلْبَانَ لَا يَحْتَاجُ فِي
رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرٍ مُعَانَةٍ وَهَوْلَاءُ يُعَانُونَهُ بِأَخْصَارِ الْمَدَارِكِ الْحَسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي
نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعْكُفُ عَلَى الْمَرْتَبَةِ الْبَسِيطَةِ حَتَّى يَبْدُو لَهُ مُدْرَكُهُ
الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مُشَاهِدَةَ هَوْلَاءُ لِمَا يَرُونَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ وَلَيْسَ
كَذَلِكَ بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْبَصَرِ وَيَبْدُوَ فِيهَا بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ سَطْحِ الْمِرَاةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَسَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورُهُ هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيَشِيرُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ تَقْيٍ أَوْ اثْبَاتٍ فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى تَحْوِ مَا
ادْرَكُوهُ وَأَمَّا الْمِرَاةُ وَمَا يَدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا يَدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ
لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوعُ الْآخَرُ مِنَ الْأِدْرَاكِ وَهُوَ نَفْسَانِي لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ
يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرِكُ النَّفْسَانِي لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَعْزُضُ لِلنَّاطِرِينَ
فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلنَّاطِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطَّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ
شَاهَدْنَا مِنْ هَوْلَاءُ مَنْ يُشْغَلُ الْحِسُّ بِالْخُجُورِ فَقَطُّ ثُمَّ بِالْعَزَائِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا
ادْرَكَ وَبَزَعْمُونِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّورَ مُتَشَخَّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ
إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ وَغَيْبُهُ هَوْلَاءُ عَنِ الْحِسِّ أَخْفَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ
أَبُو الْغُرَائِبِ . وَأَمَّا الزَّجَرُ وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ
سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَالْمَكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى الْخُرُصِ
وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرَ فِيهِ مِنْ مَرْتَبَةٍ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْخَيَالَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قُوَّةً
فَيَعْبَثُ فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَى أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّي بِهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا كَمَا تَعْلَهُ الْقُوَّةُ
الْخَيَالَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ الْخَوَاسِ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْحَسُّوسِ الْمَرْتَبَةِ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ
مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّوْيَا . وَأَمَّا الْمَجَانِينُ فَذَوُهِمُ الْمُنَاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعَلُّقِ بِالْبَدَنِ
لِفَسَادِ أَمْرِ جَنَّتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَعْرِفَةٍ فِي
الْخَوَاسِ وَلَا مُنْغَمِسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النِّقْصِ وَمَرَضِهِ وَرُبَّمَا زَاخَمَهَا عَلَى

التعلق به روحانية اخرى شيطانية تشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه
التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمرآحة من
النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فأدرك لجة من عالم نفسه وأنطبع
فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة
الطبيقي وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال
وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يحيى
الكذب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم
ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن
والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك
معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلم عليها المسعودي
في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابةً ويظهر من كلام الرجل أنه كان
بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات
التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفتخرون إلى الكهان
في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك
غيرهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار
بن زار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا
الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبره به
ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قرينش ورؤيا
المؤبدان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة
وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير
وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوئي فانك إن داوئتي لطيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعرف تجد إن هما شنياني
فقالا شئناك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

وَعَرَفَ الْإِمَامَةَ هُوَ رَاحُ بْنُ عَجَلَةَ وَعَرَفَ نَجْدَ الْأَبْلَقِ الْأَسَدِيِّ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَدَارِكِ
الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْقِظَّةِ وَالتَّبَاسُخِ بِالنُّومِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى
الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي
مَبَادِي النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْقِظَّةِ وَذَهَابِ الْأَخْبَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ تَجَبُّوْلُ
عَلَى النُّطْقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْقَتُولَيْنِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ
وَأَوْسَاطِ أَرْبَابِهِمْ كَلَامٌ يُمَثِّلُ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَاغَنَا عَنْ بَعْضِ الْجُبَابَةِ الطَّالِمِينَ أَنَّهُمْ
قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يَسْتَشْمِعُ . وَذَكَرَ مُسَلِّمَةٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ أَدَمِيًّا إِذَا
جُعِلَ فِي دَنٍّ مَمْلُوءٍ بِدِهْنِ السَّمْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَغْدَى بِالتِّينِ وَالْجُوزِ
حَتَّى يَنْهَبَ لَحْمَهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشَوُّونُ رَأْسِهِ فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْنِ
خَفِينٌ يَحِفُّ عَلَيْهِ الْهُوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ
وَالْعَامَّةِ وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاقِبِ أَعْمَالِ السَّحَرَةِ لَكِنْ يَفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ
وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمَدْرَكِ الْغَيْبِيِّ بِالرَّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوَاقِفَ
صَنَاعِيًا بِإِمَانَةٍ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ يَخُونُ أَثَارَهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْدِي بِهَا
بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَفْسِهَا وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ
عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحُسُّ وَحُجَابُهُ وَاطَّاعَتِ النَّفْسُ عَلَى الدَّعِيَّاتِ
وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّحَرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاقُ عَلَى الدَّعِيَّاتِ
وَالْتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِمِ الْمُنْعَرِفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِأَلَدِ
الْهِنْدِ وَيَسَدُونَ هُنَاكَ الْحُكْمِيَّةَ وَلَهُمْ كِتَابٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ
الْمَدْمُومَةِ وَإِنَّمَا يَقْصُدُونَ جَمْعَ الْهَمَةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكَلِمَةِ لِيَحْصُلَ لَهُمُ اذْوَاقُ
أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ التَّغْدِيَّةِ بِالذِّكْرِ
فِيهَا تَمَّ وَجْهَتُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ إِلَى الذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا غَرِيَّتْ عَنِ الذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُمُولًا مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُودًا مِنْ أَوَّلِ

الْأَمْرَ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ أَلْوَجْهَةٌ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ
وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرَ بِهَا صَقَّةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرَكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ أَشْرَ
الْعَرَفَانَ الْعَرَفَانَ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي فِيهِمْ يَقْصِدُونَ بوجهِتهم المعبود لا لشيءٍ سِوَاهُ وَإِذَا
حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فِيَا الْعَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقْرَأُ مِنْهُ إِذَا
عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِإِذَاتِهِ لِغَيْرِهِ وَحَصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ
وَيَسْمَعُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ
التَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِتَكْبِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأَسْنَادُ
أَبُو إِسْحَاقَ الْأَسْزَرَانِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَالِكِيُّ فِي آخِرِينَ فِرَارًا مِنَ التَّبَاسِ
الْمُعْجَزَةِ بِغَيْرِهَا وَالْمَعُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ التَّفَرُّقِ بِالتَّحْدِيدِ فَبُهِ كَافٍ
وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنْ فِيكُمْ مَخَدِّثِينَ وَإِنْ
مِنْهُمْ عَمْرٌ وَقَدْ وَقَعَ الصَّحَابَةُ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٍ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا سَارِيَّةُ أَجَلٌ وَهُوَ سَارِيَّةُ بْنُ زَيْنِمٍ كَانَ قَائِدًا عَلَى بَعْضِ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفَتْوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرِكٍ وَهَمَّ بِالْإِمْرَازِ وَكَانَ يَقْرُؤُهُ
جَبَلٌ يُخَيِّزُ إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعَمْرٍ ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَّةُ أَجَلٌ
وَسَمِعَهُ سَارِيَّةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَاكَ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقَعَ مِثْلُهَا أَيْضًا لِأَبِي
بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَاشَةَ ابْنَتُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنٍ مَا تَحَلَّاهَا مِنْ أَوْسَقِ التَّمَرِّ مِنْ
حَدِيثِهِ ثُمَّ تَبَهَّأَ عَلَى جَذَاهُ لِيُخَوِّزَهُ عَنِ الْوَرِثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا
أَخَوَاكَ وَأَخْتَاكَ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمِنْ الْأُخْرَى فَقَالَ إِنْ ذَا بَطْنُ بِنْتٍ خَارِجَةٌ أَرَاهَا
جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي الْمَوْطَأِ فِي بَابٍ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ النَّجْلِ وَمِثْلُ هَذِهِ
الْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْأَقْدَاءِ إِلَّا أَنْ أَهْلَ التَّصَوُّفِ
يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقُولُ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِخُضْرَةِ النَّبِيِّ حَتَّى إِذَا هُمْ يَقُولُونَ
إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَسْلُبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يَبَارِقَهَا وَاللَّهُ يَرْزُقُنَا
الْهُدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى الْحَقِّ

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بِهَالِيلٍ مَعْتَوُونَ أَشْبَهُ بِالْمَجَانِينِ مِنَ
الْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ الصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ

أَحْوَالِهِمْ مِنْ يَنْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ مَعَ أَنَّهُمْ هَيَّرَ مُكَلِّفِينَ وَبَقَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ
عَنِ الْمَغِيبَاتِ عَجَائِبُ لَا يَتَقَيَّدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطْلِقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ
بِالْعَجَائِبِ وَرُبَّمَا بَنَكَرُ الْقَهْمَاءِ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ
التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ وَالْوَلَايَةِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوَلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرَهَا وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةَ
ثَابِتَةً الْوُجُودِ فَاللَّهُ تَعَالَى يُخْصِيهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَهُوَ لَا الْقَوْمُ لَمْ تَعْدَمْ نَفْسُهُمْ
النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْمَجَانِينِ وَإِنَّمَا فَقَدَ لَهُمُ الْعَقْلُ الَّذِي يَنْاطِ بِهِ التَّكْلِيفُ
وَهِيَ صِنْفٌ خَاصَّةٌ لِلنَّاسِ وَهِيَ عُلُومٌ خَرُورِيَّةٌ لِإِلَاسَانٍ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَيَعْرِفُ أَحْوَالَ
مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عُدْرٌ
فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ وَلَيْسَ مَنْ فَقَدَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدٍ لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلًا
عَنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودًا لِحَقِيقَتِهِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِفِيِّ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ
وَلَا اسْتِحَالَةٍ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِمَعْرِفَةٍ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ
وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَمِسُ حَالُ هَؤُلَاءِ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفْسُهُمْ
النَّاطِقَةُ وَيَتَحَقُّقُونَ بِالْبَهَائِمِ ذَلِكَ فِي تَمْيِيزِهِمْ عِلَامَاتٍ مِنْهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْبَهَائِلَ لَا تَعْبُدُ لَهُمْ
وَجِهَةً أَصْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ وَالْمَجَانِينُ يُعْرَضُ لَهُمْ
الْجَنُونُ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ لِعَوَاضِ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نَفْسُهُمْ
النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَيْمَةِ وَمِنْهَا كَثَرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالْشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ
عَلَى إِذْنِ لَعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالْمَجَانِينُ لَا تَصَرَّفُ لَهُمْ وَهَذَا فَضْلٌ أَنْتَهَى بِنَا
الْكَلَامِ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ

وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ الْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ فَمِنْهُمْ
الْمُتَجَمِّعُونَ الْقَائِلُونَ بِالِدَّلَالَاتِ النُّجُومِيَّةِ وَمَقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكَ وَآثَارِهَا فِي الْعَوَالِمِ
وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَمْزَاجِ بَيْنَ طَبَاعِهَا بِالتَّنَازُلِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذَلِكَ الْمَزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ
وهؤلاءِ الْمُتَجَمِّعُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ حَدْسِيَّةٌ وَتَحْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ
عَلَى التَّأَثُّرِ النُّجُومِيَّةِ وَحُصُولِ الْمَزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ زَيْدِ حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ التَّنَازُلُ عَلَى
تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْنِيمُوسُ وَنَحْنُ نُبَيِّنُ بَطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْ ثَبَتَ فَعَالِيَهُ حَدَسٌ وَتَحْمِينٌ وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ . وَمِنْ
 هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْعَيْبِ وَتَعْرِفُ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةَ سَمَوَهَا خَطَّ
 الرَّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ وَمَحْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا
 مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعٍ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الرُّوْجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ
 وَاسْتَوَائِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَرْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا
 كُلُّهَا فَشَكْلَانِ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَّ فَارْبَعَةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ
 كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ فَارْبَعَةُ أَشْكَالٍ
 جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مِيزُوهَا كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَمُخُوسٍ شَأْنُ
 الْكَوَاكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا طَبِيعِيَّةً بَرِّعَمِمْ وَكَانَتْهَا الْبُرُوجُ الْإِثْنَا عَشَرَ الَّتِي
 لِلْفَلَكَ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا بَيْتًا وَخُطُوطًا وَدَلَالَةً عَلَى صِنْفٍ
 مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فَنَاءً حَادِثًا بِهِ فَنَ النِّجَامَةِ
 وَنَوْعَ فَضَائِهِ إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ النِّجَامَةِ مُسْتَنَدَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ بَطْنِيْمُوسُ
 وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنَدُهَا أَوْضَاعٌ تَحْكِيمِيَّةٌ وَهِيَ اتِّفَاقِيَّةٌ وَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا
 وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوءَاتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْعَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانِيَالٍ أَوْ
 إِلَى آدَرِسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَرُبَّمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَحْتَجُّونَ
 بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ
 عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَحْصِيلَ لَدَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ
 نَبِيٌّ يَخْطُ فَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَطِّ وَلَا اسْتِحْطَالَهُ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ
 الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَاكَ أَيْ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ الْخَطِّ بِمَا عَصَدَهُ
 مِنَ الْوَحْيِ لِذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ عِنْدَ الْخَطِّ وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ
 ذَلِكَ مِنَ الْخَطِّ مُجَرَّدًا مِنْ غَيْرِ مَوَاقِفَةٍ وَحْيٍ فَلَا وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَإِذَا
 أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ مُغِيبِ بَرِّعَمِمْ عَمَدُوا إِلَى قِرطَاسٍ أَوْ رَمْلِ أَوْ دَقِيقٍ فَوَضَعُوا النُّقْطَ
 سَطْرًا عَلَى عَدَدِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَتَجِي سِتَّةَ عَشَرَ
 سَطْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَ النُّقْطَ أَرْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرِ زَوْجًا كَانَ أَوْ فَرْدًا
 فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى التَّرْتِيبِ فَتَجِي أَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرِ مُتَنَالِيَةٍ ثُمَّ يُولَدُونَ مِنْهَا

أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ الْعَرَضِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابِلَهَا مِنَ الشَّكْلِ
الَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةٍ فِي
سَطْرٍ ثُمَّ يُولَدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَهُمَا بِاعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ
مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةَ أُخْرَى تَحْتَهُمَا ثُمَّ يُولَدُونَ
مِنْ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هَذَا
الشَّكْلِ الْخَامِسِ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخِرَ السِّتَةِ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ
عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ بِالنَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ
وَالْإِمْتِرَاجِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحْكُمُهَا غَرِيبًا وَكَثُرَتْ
هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْعُمُرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا التَّكَلِيفُ وَاسْتَهْرَ فِيهَا الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ
وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحْكُمُ وَهَوَى وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَضْبَ
فِكْرِكَ أَنْ الْغُيُوبَ لَا تَدْرِكُ بِصِنَاعَةِ الْبَيِّنَةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْرِفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ
الْمَفْطُورِينَ عَلَى الرُّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَلِلذَلِكَ يُسَمَّى الْمُنْجِمُونَ هَذَا
الصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِالزَّهْرِ بَيْنَ نِسْبَةٍ إِلَى مَا نَقَضِيهِ دِلَالَةَ الزَّهْرَةِ بِزَعْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ
عَلَى إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ كَانَ النَّاطِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصِيَةِ
وَقَصَدَ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ النُّقْطِ أَوْ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْحِسِّ لِرَجْعِ
النَّفْسِ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لِحُظَّةٍ مَا فَهُوَ مِنْ بَابِ الطَّرِيقِ بِالْخَصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ
الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَرَايَا الشَّفَافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ
الْغَيْبِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَإِنَّمَا تَفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَذَرُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَالْعَلَامَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوْجُّهِهِمْ
إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ يَعْتَرِبُهُمْ خُرُوجٌ عَنْ حَالَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْتَّلَاوُبِ وَالتَّمَطُّطِ
وَمُبَادَايِ الْغَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ
فَمَنْ لَمْ تَوْجَدْ لَهُ هَذِهِ الْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي
تَنْفِيقِ كَذِبِهِ

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَصْعُقُونَ قَوَائِنَ لَاسْتَنْخِرَاجِ الْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ الطُّورِ الْأَوَّلِ الَّذِي
هُوَ مِنْ مَدَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْحَدْسِ الْمُبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا

زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَالْمُخَمِّنِ الَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ الْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَعَالِطُ
 يَجْعَلُونَهَا كَالْمَضَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضَعَّةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ
 الْمُصَنِّفُونَ وَوَلَجَ بِهِ الْخَوَاصُّ مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابِ الَّذِي يُسَدُّونَهُ حِسَابَ النَّيْمِ وَهُوَ
 مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمُنَسَّوبِ لِارِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي
 الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنَّ تُحْسَبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي اسْمِهِ أَحَدُهُمَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ
 الْمُضْطَمِّلِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أَيْجَدٍ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَلْفِ أَحَادًا وَعَشْرَاتٍ وَمِثْنٍ وَالْوُفَا
 فَإِذَا حُسِبَتِ الْأَسْمَاءُ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْسِبِ اسْمَ الْآخِرِ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَاحْظِ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا ثُمَّ أَنْظِرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ
 مِنْ حِسَابِ الْأَسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ
 فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا
 فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانََا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ
 فَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانََا مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَاكَ بَيْتَانِ فِي
 هَذَا الْعَمَلِ اسْتَمْرًا بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْمَوْنَ أَقْلَهُمَا وَأَكْثَرَهُمَا عِنْدَ التَّحَالُفِ غَالِبٌ
 وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي وَعِنْدَ اسْتِمْوَاءِ الْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبٌ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرَحِ
 تِسْعَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّلَالَةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ (أ)
 الدَّلَالَةُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ (ي) الدَّلَالَةُ عَلَى الْعَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ وَ (ق)
 الدَّلَالَةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئَتِينَ وَ (ش) الدَّلَالَةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ
 فِي مَرْتَبَةِ الْأَلْفِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخِرُ
 حُرُوفِ أَيْجَدٍ ثُمَّ رَتَّبُوا هَذِهِ الْأَحْرَفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ فَسَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ
 رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (اَيْقَش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّلَالَةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ
 وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْأَلْفِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَيْجَدٍ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ
 الْإِثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) الدَّلَالَةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْأَحَادِ
 وَ (ك) الدَّلَالَةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشْرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ وَ (ر) الدَّلَالَةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِئَتِينَ

وَهِيَ مَائَتَانِ وَصَيَّرُوها كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ بَكَرٌ ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ
بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةُ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أُبْجَدٍ
وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نِهَايَةً عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ اَيْقَشَ بَكَرٍ جَلَسَ دَمَتَ هَنْتَ وَصَحَّ زَعَدُ
حَنْظَ طَضَعَ مُرْتَبَةً عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ
فَالْوَاحِدِ لِكَلِمَةِ اَيْقَشَ وَالْاِثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكَرٍ وَالثَّلَاثَةِ لِكَلِمَةِ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى الثَّلَاثَةِ
الَّتِي هِيَ طَضَعَ فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرَحَ الْأِسْمِ بِتَسْعَةِ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ
مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ
الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا مِنْ حُرُوفِ الْأِسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ
عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْأِسْمِ الْآخِرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ
بِمَا قَدَمْنَاهُ وَالسِّرِّ فِي هَذَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِي مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ يَطْرَحُ
تِسْعَةً إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ
الْعُقُودِ كَأَنَّهُمَا أَحَادٌ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ وَالْعَشْرَيْنِ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهُمَا اِثْنَانِ
وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالْثَلَاثُونَ وَالْثَلَاثُمِائَةُ وَالْثَلَاثَةُ الْأَلْفُ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوُضِعَتْ
الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرَ وَجُعِلَتْ حُرُوفُ الدَّالَّةِ عَلَى أَصْنَافِ
الْعُقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْأَحَادِ وَالْعَشْرَاتِ وَالْمِئِينَ وَالْأَلْفِ ^(١) وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ
الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاهُ دَلَّ عَلَى الْأَحَادِ أَوْ الْعَشْرَاتِ أَوْ الْمِئِينَ
فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عَوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا
هَذَا هُوَ الْعَمَلُ الْمَتَدَوِّلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شَيْوَحِنَا
يَرَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتُ أُخْرَى تِسْعَةً مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيَهَا وَيَفْعَلُونَ
بِهَا فِي الطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاهُ وَهِيَ هَذِهِ اَرْبَ يَسْتَقُ جَزْأُ مَدُوصٍ
هَفٍ تَحْذَنُ عَشْ خَعٍ تَضْطُ تِسْعُ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا
الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِي وَالرُّبَاعِي وَالْثَّنَائِي وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلِ مَطْرُودٍ كَمَا
تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شَيْوَحِنَا يَقُولُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْعَرَبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ السِّيمِيَاءِ
وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنِّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الْبَنَاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ الْعَمَلَ بِهِذِهِ

(١) قوله (الألف في نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه)

الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّبَمِ أَسْحَ مِنْ أَعْمَلِ بِكَلِمَاتِ ابْقِشَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كَيْفَ
 ذَلِكَ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ الْغَيْبِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرَسَاوٍ عِنْدَ الْمُتَحَقِّقِينَ لِمَا فِيهِ مِنَ
 الْأَرَءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبَرْهَانِ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصْنَعُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ
 الرُّسُوحِ اهـ . وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لَا سِتْخَرَاغَ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ الزَّائِرِجَةَ
 الْمُسَمَّاةَ بِزَائِرِجَةِ الْعَالَمِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ السَّبْغِيِّ مِنْ أَعْلَامِ
 الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكِشَ وَلَعَهْدِ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ
 مِنْ مُلُوكِ الْمُوحِدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةٌ أَعْمَلُ صِنَاعَةٍ وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاضِ يُولَعُونَ بِإِقَادَةِ
 الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَعْلُومِ فَيَحْضِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى حَلِّ رَدِّهِ وَكُشْفِ غَامِضِهِ
 وَصُورَتِهَا الَّتِي يَقَعُ أَعْمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ
 وَالْعَنَاصِرِ وَالْمُكُونَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعَالَمِ
 وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكُلِّهَا إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا الْعَنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطُ
 كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَبَاعِيَةٌ مَوْضُوعَةٌ
 قَرْنَهَا بِرُشُومٍ ^(١) الزِّمَامِ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحِسَابِ بِالْمَغْرِبِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارِفَةِ فِي دَاخِلِ الزَّائِرِجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ
 وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ جَدُولٌ مُمَكِّنٌ لِلْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طَوَّلًا وَعَرْضًا
 يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطَّوْلِ جَوَانِبُ مِنْهُ
 مَعْمُورَةٌ الْبُيُوتُ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبُ خَالِيَةٌ الْبُيُوتُ وَلَا تَعْلَمُ نِسْبَةً
 تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةِ الَّتِي عَيَّنَتْ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَحَافَاتُ
 الزَّائِرِجَةِ أَيْكَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ الْأَلَمِ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ أَعْمَلِ
 فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّائِرِجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِلْغَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ
 وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّائِرِجَةِ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ مَنَسُوبٌ لِبَعْضِ أَكْبَارِ أَهْلِ الْخُدَّانِ
 بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَّةٍ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْأَمَوِيَّةِ وَنَشَأَ الْبَيْتُ
 سُؤَالَ عَظِيمٍ أَلْخَلِقُ حَزْتَ فَصْنٍ إِذْنِ غَرَائِبَ شَكٍّ ضَبَطَهُ الْخُدَّ مَثَلًا
 وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَتَدَاوِلُ عِنْدَهُمْ فِي أَعْمَلِ لَا سِتْخَرَاغَ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّائِرِجَةِ

(١) قوله برشوم أي موضوعة بضم راء جمع رشم باشين المعجمة اهـ

وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من برج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزايرة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فيما خذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويصرونها حروفاً بحساب الجمل وقد ينقلون أحادها إلى العشرات وعشراتهما إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط وفعولهم بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسّه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتوالت على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل وروية وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم حسبما ندكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرة وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث اللفظ والفهم والتوافق في الخطاب حتى يكون

الْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ الْحُرُوفِ
 الْجُمُعَةِ مِنَ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَالْخُذُولِ فِي الْجُدُولِ بِالْأَعْدَادِ الْجُمُعَةِ مِنْ ضَرْبِ
 الْأَعْدَادِ الْمَفْرُوضَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنَ الْجُدُولِ بِذَلِكَ وَطَرَحِ أُخْرَى وَمَعَاوِدَةٍ
 ذَلِكَ فِي الْأَدْوَارِ الْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ الْبَيْتِ عَلَى التَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ
 وَقَدْ يَقَعُ الْإِطْلَاعُ مِنْ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ
 الْجَهْلُولِ فَالْتَنَاسُبُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَى الْجَهْلُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ الْخَاصِلِ
 لِلنَّاسِ وَطَرِيقُ لِحْصُولِهِ سَيِّئًا مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً
 فِي الْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَهَذَا أَجَلُ هَذَا الْمَعْنَى يَنْسَبُونَ هَذِهِ الزَّائِرَةَ
 فِي الْغَالِبِ لِأَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَسْئُوبَةٌ لِلْسَّبَبِ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَسْئُوبَةٍ لِمَسْئَلِ
 بَنِ عَبْدِ اللَّهِ وَآمَرِي إِنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ وَالْمُعَانَاةِ الْعَجِيبَةِ وَالْجَوَابُ الَّذِي
 يَخْرُجُ مِنْهَا فَالْسِّرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّهَا هُوَ الْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَيْتِ
 وَلِهَذَا يَكُونُ النَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ
 ذَلِكَ أَسْقَطُوا فِيهَا الْمُقَابَلَةَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجِ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ
 عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَضِيقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَتُؤَوِّدُهُ
 إِلَى الْمَطْلُوبِ فَيَنْكِرُ حَقِّهَا وَيَحْسِبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخِيلَاتِ وَالْإِيهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ
 الْعَمَلِ بَهَا ثَبِتُ حُرُوفِ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظُمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَنْتَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ
 وَيَتَعَلَّ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ثُمَّ يَجِيئُ بِالْبَيْتِ وَيَوْمُهُ أَنَّ الْعَمَلَ جَاءَ
 عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهَذَا الْحَسْبَانُ تَوْهُمٌ فَاسِدٌ حَمَلٌ عَلَيْهِ الْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ
 الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَدَارِكِ وَالْعُقُولِ وَإِكْنٍ مِنْ شَأْنِ كُلِّ
 مَذْرِكٍ إِنْكَارًا مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهِذِهِ
 الصَّنَاعَةِ وَالْخُدْسُ الْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرَّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ
 يُبَاشِرُ ذَلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذِكَاؤٌ وَحَدَسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ
 أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ
 هَذَا مَعَ خَفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا فَلَنْدُرُ مَسْئَلَةً مِنَ الْمُعَايَاةِ يَتَضَحُّ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا
 ذَكَرْنَا مِثَالَهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنْ

الْفُلُوسُ ثُمَّ أَجْمَعَ الْفُلُوسَ إِلَيَّ أَخَذْتُ وَاشْتَرَيْتُ بِهَا طَائِرًا ثُمَّ اشْتَرَيْتُ بِالدَّرَاهِمِ كُلَّهَا طَيْرًا
 بِسَعْرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ فَكَمْ الطُّيُورُ الْمَشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ فُجِوَابُهُ أَنْ أَقُولَ هِيَ تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ
 تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ
 ثَمَانِيَةٌ فَإِذَا جُمِعَتِ الثَّمَنُ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخِرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ فِيهِ
 ثَمَانِيَةُ طَيْرٍ عِدَّةُ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمَشْتَرَى بِالْفُلُوسِ
 الْمَأْخُودَةِ أَوَّلًا وَعَلَى سَعْرِهِ اشْتَرَيْتُ بِالدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةٌ فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ
 لَكَ الْجَوَابُ الْمَضْمُونُ بِسَرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ أَعْدَادِ الْمَسْئَلَةِ وَالْوَهْمِ أَوَّلَ مَا يَأْتِي
 إِلَيْكَ فِيهِ وَآمَثَالُهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قِبَلِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ
 بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعَاتِ الْخَاصَّةِ فِي
 التَّوَجُّدِ أَوْ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تَعْلَمْ أَسْبَابُ وَفُوعِهَا وَلَا يَثْبُتَ لَهَا
 خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَلَا أَعْمَالُ الْوَاقِعَةِ
 فِي الزَّائِرَةِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ الْفَاطِ السُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ
 اسْتِنْبَاطَ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ بَعِيْنَهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرُّ ذَلِكَ إِنَّمَا
 هُوَ مِنْ تَنَاسُبِ يَتَنَبَّهَ عَلَيْهِ بَعْضُ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ التَّنَاسُبَ تَبَسَّرَ عَلَيْهِ
 اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُ
 الْفَاطِ وَتَرَكَبِهِ عَلَى وَفُوعٍ أَحَدِ طَرَفِي السُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ
 الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي الْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى
 مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلِ الْبَشَرُ مُحْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ



الفصل الثاني

في العمران البدوي والام الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الاول

في ان احيال البدو والحضر طبيعية

اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف فحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشط قبل الحاجة والكمالي فمهم من يستعمل الفلح من الغراسه والزراعه ومنهم من يتجمل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فوائدها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لهما لا يتسع له الخواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفع انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل باغة العيش من غير مزيد عليه للهمز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المتجملين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنيق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتخضر ثم تريد احوال الرفه والدعة فتجي عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنيق في علاج القوت واستجدارة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها من الحرير والدياج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح واحكام وضعها في تنجيدها والابتداء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها وبالعون في تنجيدها ويختلفون في استجدارة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او آنية او ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتجمل في معاشه الصنائع ومنهم من يتجمل التجارة

وَتَكُونُ مَكْسِبُهُمْ أَنَّنَى وَأَرْفَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ
وَمَعَاشِهِمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمُ الْمُنْتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْقَلْحِ
وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ
وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَا لِي يَتَّخِذُونَ
الْبَيْوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُجَدِّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ
الْإِسْتِظْلَالِ وَالْكِنِّ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ
فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بغيرِ عِلَاجٍ الْبَتَّةِ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ
فِي الزَّرَاةِ وَالْقِيَامِ بِالْقَلْحِ كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الظُّعْنِ وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ
وَالْقَرْىِ وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرِّ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلَ الْغَنَمِ
وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظُعْنٌ فِي الْأَغْلَبِ لِإِزْدِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَالْتَقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ
أَصْلَحَ بِهِمْ وَيُسَمَّوْنَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُعْدُونَ فِي الْقَفْرِ
لِفَقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعَةِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْبَرِّ وَالثَّرَكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ الثَّرَكْمَانِ وَالصَّاقِلَةِ
وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْأَيْلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظُعْنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ مَسَارِحَ
الْثَّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَعْنِي بِهَا الْأَيْلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ
وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ وَالتَّقَلُّبِ فَصَلَّ الشَّاءُ فِي نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أَذَى الْبَرِّ إِلَى دِفْءِ
هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَا خِصَّ النَّتَاجُ فِي رِمَالِهِ إِذَا الْأَيْلُ أَضْعَبَ الْحَيَوَانَاتِ فَصَلَّاهُ وَمَحَاضًا
وَأَحْوَجَهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدِّفْءِ فَاضْطَرُّوا إِلَى إِبْعَادِ الثَّجَعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمْ الْحَمَامَةُ عَنْ
الْثَّلُولِ أَيْضًا فَأَوْعَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفَرَةً عَنِ الضِّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَحُّشًا
وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنَازِلَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمَفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانِ
الْعَجَمِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُعُونُ الْبَرِّ وَزَنَاتُهُ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالثَّرَكْمَانِ
وَالثَّرَكِ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ ثَجَعَةً وَأَشَدَّ بِدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُونَ بِالْقِيَامِ عَلَى

الْأَبْلِ فَقَطَّ وَمَوْلَاءَ يَقُومُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى الشَّيَاحِ وَالْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِبِلَّ الْعَرَبِ طَبِيعِي لَا بَدَّ مِنْهُ فِي الْعُمَرَانِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضرة وسابق عليه وان البداية اصل العمران
والامصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدُوَّ هُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمُ الْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِّ وَالْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ الضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ وَسَابِقُ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَصْلُ وَالْكَمَالِيَّ فَرْعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَالْبَدُوُّ أَصْلُ لِلْمَدْنِ وَالْحَضَرُ وَسَابِقُ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالْتَّرَفِّ إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيُّ حَاصِلًا تَحْشُونَهُ الْبِدَاوَةُ قَبْلَ رِقَّةِ الْحَضَارَةِ وَلِهَذَا تَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيَّ يَجْرِي إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرِحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيَاسِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ التَّرَفِّ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى الدَّعَةِ وَأَمَكَّنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَالْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِنَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدُوَّ أَصْلُ لِلْحَضَرِ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدُوِّ الَّذِينَ يَنْجَحِيهِ ذَلِكَ الْمِصْرُ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالْتَّرَفِّ الَّذِي فِي الْحَضَرِ وَذَلِكَ بَدَلٌ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَتَفَهَّمْهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَدُوِّ وَالْحَضَرِ مُتَفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ قَرِيبٌ حَيَّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٌ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٌ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُ عُمُرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ الْبَدُوِّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَاشِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضرة

وَسَبَبُهُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَةٍ أَوْ يَحْيَسَانِيَةٍ وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخَلْقَيْنِ تَبَعْدُ عَنْ الْآخَرِ وَيَصْغُبُ عَلَيْهَا أَوْ كِتْسَابُهُ فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ الْخَيْرِ وَحَصَّاتُ لَهَا مَلَائِكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَصَغُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يَعْنُونَ مِنْ فُتُونِ الْمَلَائِكَةِ وَعَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْأَقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا وَالْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوْتُ أَنْفُسَهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخَلْقِ وَالشَّرِّ وَبَعْدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ يَقْدَعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كِبَرَانِهِمْ وَأَهْلٍ مُحَارِمِينَ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ الْحِشْمَةِ لَمَّا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ السُّوءِ فِي التَّظَاهُرِ بِالْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لَا فِي التَّرَفِّ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ الْخَلْقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ الْمَلَائِكَةِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وَفَتْحِهَا فَيَسْهُلُ عَلَيْهِمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ بَيَّنْتُ فِيهِ بَعْدَ أَنْ أَخْصَرْتُ فِي نِهَائِهِ الْعُمُرَانَ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ وَنِهَائِهِ الشَّرِّ وَالْبَعْدُ عَنِ الْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَلَا يُعَارِضُ عَلَيَّ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ النُّجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِيكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ فَأَعْلَمْتُ أَنَّ الْهَجْرَةَ أَقْرَبَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ

أَهْلُ الْبَادِيَةِ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُظَاهَرَةِ
 وَالْحِرَاسَةِ مَا لَا يَمَسُّ غَيْرُهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الْأَعْرَابِ وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْعِدُونَ بِاللَّهِ
 مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ لَا تَجِبُ الْهَجْرَةُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
 حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرَضِهِ بِمَكَّةَ اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هُجْرَتَهُمْ وَلَا
 تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَمَعْنَاهُ أَنَّ يُوَفِّقَهُمْ لِمُلَازِمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ عَنْهَا فَلَا يَرْجِعُوا
 عَنْ هُجْرَتِهِمْ الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهَا وَهُوَ مِنْ بَابِ الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقَبِ فِي السَّعْيِ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ
 الْوُجُوهِ وَقِيلَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهَجْرَةِ
 لِقَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاعْتَزَلُوا وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ
 بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا هَجْرَةَ بَعْدَ
 الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ إِنْشَاؤها عَنْهُمْ يُسَلِّمُ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وَجُوبُهَا عَنْهُمْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ
 قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْكُلُّ يَجْعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ أَفْرَقُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ
 فِي الْأَفَاقِ وَانْتَشَرُوا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هَجْرَةُ فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ
 لِسَلَمَةَ حِينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ ارْتَدَدَتْ عَلَى عَقِيكَ تَعَرَّبَتْ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ السُّكْنَى
 بِالْمَدِينَةِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قَدَّمَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ
 وَقَوْلُهُ تَعَرَّبَتْ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلَمَةَ
 بِإِنْكَارِ مَا أَلْزَمَهُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ وَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ
 ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ وَعِنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ أَوْ يَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ
 تَرْكَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ لِعَلِمِهِ بِسُقُوطِ الْهَجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّهُ
 اعْتَنَاهُ لِإِذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَى وَأَفْضَلُ فَمَا آتَرَهُ بِهِ وَاخْتَصَّهُ إِلَّا لِمَعْنَى
 عَلَيْهِ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالْتَّعَرُّبِ لِأَنَّ
 مَشْرُوعِيَّةَ الْهَجْرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ
 لَا لِمَذْمَةِ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذْمَةِ التَّعَرُّبِ وَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ اتَّقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مَهَادِ الرَّاحَةِ وَالِدَّعَةِ وَالنَّعْسِ
فِي النَّعِيمِ وَالزَّفَرِ وَوَكَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي الدِّفَاعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ
الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالْحَكِيمَةِ الَّتِي تَوَلَّى حِرَاسَتَهُمْ وَأَسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ
وَالْحُرُزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَمِيجُهُمْ هَيْعَةً وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ غَارُونَ آمِنُونَ
قَدْ اتَّقَوْا السَّلَاحَ وَتَوَلَّى عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَجْبَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الَّذِينَ
هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَتَوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ خُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ الْبَدْوِ لِنَفَرَدِهِمْ
عَنِ التَّجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ فِي الضَّوَاخِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَكِيمَةِ وَاتِّبَازِهِمْ عَنِ الْأَسْوَارِ
وَالْأَبْوَابِ فَائْتَمَنُوا بِالدِّفَاعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكُونُهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلَا يَقْنُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِمْ
فَهُمْ دَائِمًا يَحْمِلُونَ السَّلَاحَ وَيَتَلَفَتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطَّرِيقِ وَيَتَجَفَّوْنَ عَنِ الْهَجُوعِ
إِلَّا غَرَارًا فِي التَّجَالِسِ وَعَلَى الرَّحَالِ وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُّونَ لِلنَّبَاتِ وَالْمُحَبَّاتِ
وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْفَقْرِ وَالْيَبْدَاءِ مُدْلِينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَائْتِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمْ الْبَأْسُ خُلُقًا
وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا
خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ
أَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النُّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ
السُّبُلِ وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَبْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ لَا أَبْنَ طَبِيعَتِهِ
وَمَزَاجِهِ فَالَّذِي أَلْفَهُ فِي الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمَلَكََةً وَعَادَةً تَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ
وَالْجَبَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْأَدَمِيِّينَ تَجِدُهُ كَثِيرًا صَحِيحًا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضرة للاحكام مفسدة لباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكٌ أَمْرٍ نَفْسِهِ إِذِ الرُّؤَسَاءُ وَالْأَمْرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ
النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنْ الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي مَلَكََةٍ غَيْرِهِ وَلَا يَدَّ
فَإِنْ كَانَتْ الْمَلَكََةُ رُفِيقَةً وَعَادِلَةً لَا يُعَانِي مِنْهَا أَحَدٌ وَلَا مَنَعٌ وَصَدٌّ كَانَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ

يَدَهَا مُدْلِينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَاثْقِينَ بِعَدَمِ الْوَارِعِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ
الْإِدْلَالُ جُبْلَةً لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْمَأْكَةُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ وَالسُّطُورَةِ
وَالْإِخَافَةِ فَتَكْسِرُ حِينَئِذٍ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِمْ وَتُذْهِبُ الْمُنْعَةَ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنَ
التَّكَاسُلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَّهِدَةِ كَمَا بُيِّنَتْهُ وَقَدْ نَحَى عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ
مِثْلِهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةُ بْنُ حُوْبَةَ سَلَبَ الْجَالِنُوسِ وَكَانَتْ قِيَمَتُهُ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ
الذَّهَبِ وَكَانَ أَتْبَعَ الْجَالِنُوسِ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَأَنْزَعَهُ مِنْهُ سَعْدٌ وَقَالَ
لَهُ هَلَّا أَنْتَظَرْتُ فِي أَتْبَاعِهِ إِذْنِي وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ تَعَمُّدُ إِلَى
مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى بِهِ وَبَقِيَ عَلَيْكَ مَا بَقِيَ مِنْ حَرْبِكَ وَتَكْسِرُ فَوْقَهُ وَتُفْسِدُ
قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عُمَرُ سَلَبَهُ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ فَمَذْهَبَةٌ لِلْبَأْسِ بِالْكَلِيَّةِ
لِأَنَّهُ وَقَعَ الْعِقَابُ بِهِ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْ نَفْسِهِ بِكُنْسِيهِ الْمَذَلَّةَ الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِ
بِلاَ شَكٍّ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً وَأُخِذَتْ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا أَثَرَتْ
فِي ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ لِمَرْبَاهٍ عَلَى الْخُفَافَةِ وَالِاتِّقْيَادِ فَلَا يَكُونُ مُدْلًا بِبَأْسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ
الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَهْلَ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَأْسًا مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْأَحْكَامُ وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ
يَعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَا كَتَبَتْهُ مِنْ لَدُنْ مَرْبَاهِمُ فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ
وَالدِّيَّانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا وَلَا يَكَادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً
بُوجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُتَحِيلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخِذِ عَنِ الْمَشَائِخِ
وَالْأَيِمَّةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي تَجَالِسِ الْوُقَارِ وَالْهَيْبَةِ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ
وَذَهَابُهَا بِالْمُنْعَةِ وَالْبَأْسِ وَلَا تَسْتَنْكَرُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْعَهَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ
الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا لِأَنَّ الشَّارِعَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَارِعُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا
نُبِي عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَلَمْ يَكُنْ يَتَعَلَّمُ صِنَاعِي وَلَا تَأْدِيبٍ تَعْلِيمِي إِنْمَا
هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَآدَابُهُ الْمُتَقَلَّاةُ تَقَالًا يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ
الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ فَلَمْ تَزَلْ سَوْرَةُ بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْذِشْهَا أَظْفَارُ
التَّأْدِيبِ وَالْحُكْمِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ بِهِ الشَّرْعُ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ حَرَصًا
عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَارِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ

وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ وَآخَذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَارِثَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً
يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّنَادِيهِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْخَضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ
نَقَصَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْبَاسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ
لِلْبَاسِ لِأَنَّ الْوَارِثَ فِيهَا ذَاتِي وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا
تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ الْخَوَاصِرِ فِي ضَعْفِ نَفُوسِهِمْ وَخَضِ الشُّوْكَ مِنْهُمْ بِمُعَانَاةِهِمْ فِي وَلِيهِمْ
وَكُؤُلُومِهِمْ وَالْبَدُو بِمَعَزَلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ
وَالْآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الدُّعْلَمِينَ وَالتَّعْلِمِينَ
أَنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصِّبْيَانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ نَقْلَهُ
عَنْ شَرْيْحِ الْقَاضِي وَاجْتَمَعَ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدِّ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْغَطِّ وَأَنَّهُ
كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ
عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهُ أَحْكَمُ الْخَبِيرِ

الفصل السابع

في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ وَقَالَ فَأَتْلُمَهَا نُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمِلَ فِي مَرَعَى
عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْدِ بِهِ الْإِقْدَاءُ بِالْأَدِينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجُمُ الْغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَمِنْ
أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضُ عَلَى بَعْضٍ فَمِنْ أَمْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ
أَخِيهِ فَقَدْ أَمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَارِثٌ كَمَا قَالَ

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
فَأَمَّا الْمَدَنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكُومُ وَالِدَوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا
عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ فِهِمْ
مَكْبُوحُونَ بِحِكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ الظُّلْمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا
الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاحُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغُرُوءِ لَيَالًا
أَوْ أَعْمَجَ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ زُرْدِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْأَسْتَعْدَادِ
وَالْمَقَاوِمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدُو فَيَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَاخِطُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَفَرَ فِي

نَفْسَ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالْعِجَلَةِ وَأَمَّا حَالُهُمْ فَأَتَمَّا يَدُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةٍ
 الْحَيِّ مِنْ أُنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمْ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دَفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ
 إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشَدَّدَ شَوْكَتُهُمْ وَيُخَشَى جَانِبُهُمْ
 إِذْ نَعْرَةٌ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهْمٌ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ
 وَالنُّعْرَةِ ^(١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ
 التَّعَاوُدُ وَالتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ
 يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَيِّهِ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا الْخَاسِرُونَ
 وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ الْعَدُوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعِصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا الْمُبْتَغِدُونَ فِي
 أَسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نَعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ
 الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِغِيٍّ النِّجَاحَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَأَسْتَيْحَاشًا مِنَ التَّخَاذُلِ فَلَا
 يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهُمُهُمْ مِنَ
 الْأَمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ
 يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ بُؤْسَةٍ أَوْ إِقَامَةِ مَلِكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ
 الْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْأَسْتِعْصَاءِ وَلَا
 بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا فَأَخَذَهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ
 بَعْدَ وَ اللَّهِ الْمُؤْتَقِ لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَوَيْنَ صَانِيهَا النُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي
 الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ
 غَضَاضَةً مِنْ ظَلَمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعَبَاءَ عَلَيْهِ وَيُودُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ
 وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ
 قَرِيبًا جَدًّا بَحِثْ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّحَادُ وَالْإِلْتِمَامُ كَانَتْ الْوَصْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ
 يَجْعَرُهَا وَوُضُوحَهَا وَإِذَا بَعْدَ النَّسَبِ بَعْضُ الشَّيْءِ قَرِيبًا تُؤَسِّي بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شُهرَةٌ

(١) النعرة والنعار بالضم فيهما والنعير الصراخ والصياح في حرب او شر كما في القاموس

فَتَحْمِلُ عَلَى الثَّغْرَةِ لِدَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَارًا مِنَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي
نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْحِلْفُ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ
أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَلَائِهِ وَحِلْفِهِ لِلْإِلَافَةِ الَّتِي تَلْحُقُ النَّفْسَ مِنْ أَهْتِضَامٍ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ
تَسْلِبِهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللُّحْمَةِ الْخَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لُحْمَةِ النَّسَبِ
أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا وَمِنْ هَذَا تَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا
تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَايَدَتْهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ
الْأَرْحَامِ حَتَّى تَنْفَعِ الْمُنَاصَرَةَ وَالنُّعْرَةَ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَغْنَى عَنْهُ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ
لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوَصْلَةِ وَالْإِلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَاضِحًا حَمَلَ
الْنُفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ الثَّغْرَةِ كَمَا قُلْنَا هُوَ إِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفٌ
فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَايَدَتْهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَازًا وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ الْمُنْهِي عَنْهُ وَمِنْ
هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عَلِيمٌ لَا يَنْفَعُ وَجْهَالَةٌ لَا تَضُرُّ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا
خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قِبَلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَايَدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَانْتَفَتِ
الثَّغْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصَبِيَّةُ فَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب

ومن في معنائهم

وَذَلِكَ لِمَا اخْتَصَّوْا بِهِ مِنْ نَكِدِ الْعَيْشِ وَشَطَفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ حَمَاتِهِمْ
عَلَيْهَا الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ وَهِيَ لِمَا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ
وَنَتَاجِجِهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ لِرِعْيِهَا مِنْ شَجَرِهِ وَنَتَاجِجِهَا فِي
رِمَالِهِ كَمَا نَقَدَّمُ وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشَّظَفِ وَالسَّعْبِ فَصَارَ لَهُمْ الْفَأُ وَعَادَةً وَرَبِيتَ فِيهِ
أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجَبَلَةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ يُسَاهِمَهُمْ فِي
حَالِهِمْ وَلَا يَأْنِسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ
حَالِهِ وَامْكِنَهُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَهُ فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَاطِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا
وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ وَاعْتَبَرُ ذَلِكَ فِي مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَيْفَانَةٍ وَثَقِيفٍ وَبَنِي
أَسَدٍ وَهَذِيلٍ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُزَاعَةَ لِمَا كَانُوا أَهْلَ شَطَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ

وَلَا ضَرَعَ وَبَعَدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ وَالْحُجُوبِ كَيْفَ كَانَتْ
 أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْظُوتَةً لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ
 كَانُوا بِالْثَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخُصْبِ الْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ حِمَيرٍ وَكَهْلَانٍ مِثْلَ لَحْمٍ وَجُدَامٍ
 وَغَسَّانٍ وَطَيٍّ وَقُضَاعَةٍ وَإِيَادٍ فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
 يَوْمِيهِمْ مِنْ اخْتِلَافٍ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْجُمٍ وَمُخَالَطَتِهِمْ
 وَهُمْ لَا يَتَعَبَّرُونَ بِمُحَافَظَةِ عَلَى النَّسَبِ فِي يَوْمِيهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ .
 قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبْطِ السَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ
 عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةٍ كَذَا هَذَا أَيْ مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَهْلُ الْأَرْيَافِ مِنَ الْأَزْدِ حَامٍ
 مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخُصْبَةِ فَكَثُرَ الْاِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ
 وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدٌ فَنَسْرِينَ جُنْدٌ
 دِمَشْقَ جُنْدِ الْعَوَاحِمِ وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرُ النَّسَبِ
 وَإِنَّمَا كَانَ لِاخْتِصَامِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ
 زَائِدَةً عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيِّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ الْاِخْتِلَاطُ فِي الْخَوَاصِرِ مَعَ الْأَنْجُمِ
 وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتْ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ فَاطْرَحَتْ ثُمَّ ثَلَاثَتْ
 الْقَبَائِلُ وَدُنِرَتْ فَدُنِرَتْ الْعَصِيَّةُ بِدُثُورِهَا وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ
 الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

اعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةِ
 إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ أَوْ لِفَرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَابَةِ أَصَابِهَا فَيَدْعِي بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيَعُدُّ
 مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ الثُّعُورِ وَالْقُودِ وَحَمْلِ الدِّيَابِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ
 النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرِيَانُ أَحْكَامِهِمْ
 وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ اتَّحَمَ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ بَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ بِطُولِ الزَّمَانِ وَيَذْهَبُ
 أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيَحْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ
 قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْأَنْجُمِ . وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ

أَلِ الْمُنْدِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ بَيْعَةِ فِي عَرْجَةِ بْنِ هَرَثَمَةَ لَمَّا
وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيْقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ وَطَلَبُوا
أَنْ يُؤَلَّى عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ عَرْجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا
رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قُوَيْ وَلَحَقْتُ بِهِمْ وَأَنْظُرُ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْجَةُ بِبَيْعَةِ
وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَايُ بَنَسِيهِمْ حَتَّى تَرْتَحِلَ لِلرَّئِيسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِحِهِ
وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَأَمَّتْ الزَّمَنُ لَتَنَوَّسِي بِالْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ فَأَفْهَمَهُ
وَأَعْتَبِرَ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَاللَّهُ
الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهٍ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

(١) الفصل الحادي عشر

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبة

إِعْلَمُ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عَصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِّ
فَقِيهِمْ أَيْضًا عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِلنَّسَابِ خَاصَّةٌ هِيَ أَشَدُّ اتِّحَامًا مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ مِثْلُ
عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَيْنِ أَبٍ وَاحِدٍ لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوْ
الْأَبْعَدِينَ قَوْلَاءُ أَقْعَدُ بَنَسَبِهِمُ الْخُصُوصُ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِي
النَّسَبِ الْعَامِّ وَالنُّعْرَةِ نَقَعَ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْخُصُوصُ وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِّ إِلَّا أَنَّهَُا
فِي النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ اقْتِرَابَ اللَّحْمَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نَصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتْ الرَّئِيسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلَبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةٌ
ذَلِكَ النَّصَابُ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ لِيَقَعَ الْغَلَبُ بِهَا وَنَتَمَّ الرَّئِيسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ
ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرَّئِيسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ الْخُصُوصِ بِأَهْلِ الْغَلَبِ
عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى النَّازِلَةِ عَنْ عَصَابَتِهِمْ فِي
الْغَلَبِ لَمَّا تَمَّتْ لَهُمُ الرَّئِيسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى
فَرْعٍ وَلَا تَتَقَلُّ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَا مِنْ سِرِّ الْغَلَبِ لِأَنَّ الْاجْتِمَاعَ
وَالْعَصَبِيَّةَ بِمِثَابَةِ الْمِرَاجِ لِلْمَتَكِّوْنِ وَالْمِرَاجِ فِي الْمَتَكِّوْنِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَفَّاتِ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة الترنسبية وثابته اولى ليطابق كلامه

الْعُنَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلْبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّكْوِينُ فَبِذَا هُوَ سِرُّ اشْتِرَاطِ الْغَلْبِ فِي الْعَصِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِمْرَارُ الرَّئَاسَةِ فِي النَّصَابِ الْخُصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصية لا تكون في غير نسبهم
وَذَلِكَ أَنَّ الرَّئَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْغَلْبِ وَالْغَلْبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ
فَلَا بُدَّ فِي الرَّئَاسَةِ عَلَى الْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً
لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ بِغَلْبِ عَصِيَّةِ الرَّئِيسِ لَهُمْ أَقْرَبُوا بِالْإِذْعَانِ وَالْإِتِّبَاعِ
وَالسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِالْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ عَصِيَّةٌ فِيهِمْ بِالنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلْصَقٌ لَزِيْقٍ
وَعَايَةُ النَّعْصَبِ لَهُ بِالْوَلَاءِ وَالْخَلْفِ وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلْبًا عَلَيْهِمْ الْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ
قَدِ اتَّخَمَ بِهِمْ وَاخْتَلَطَ وَنُوبِي عَهْدُهُ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَى
بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ الرَّئَاسَةُ قَبْلَ هَذَا الْإِلْتِمَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَالرَّئَاسَةُ عَلَى الْقَوْمِ
إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَاقِلَةً فِي مَنَبَتٍ وَاحِدَةٍ تَعَيَّنَ لَهُ الْغَلْبُ بِالْعَصِيَّةِ فَالْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِهَذَا
الْمُلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا التَّصَافُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنْعُهُ ذَلِكَ الْإِلْتِصَاقُ مِنَ الرَّئَاسَةِ حِينَئِذٍ
فَكَيْفَ تُنَوَّلَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ الْإِلْتِصَاقِ وَالرَّئَاسَةُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْزُونَةً عَنْ
مُسْتَحَقِّهَا لِمَا قُلْنَا مِنْ التَّغْلِبِ بِالْعَصِيَّةِ وَقَدْ يَشُوقُ كَثِيرٌ مِنَ الرُّوَسَاءِ عَلَى الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يَلْتَحِجُونَ بِهَا إِمَّا لِحُصُوصِيَّةٍ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ النَّسَبِ مِنْ
شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذُكْرِ كَيْفَ اتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذَلِكَ النَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِالْأَعْوَى فِي
شُعُوبِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوقِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْقَدَحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَالطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ
وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّاسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَدْعِيهِ زَنَاتُهُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْهُ
أَدْعَاؤُ أَوْلَادِ رَبَّابِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْحِجَارِيِّينَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُعْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ
بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ مِنَ الشَّرِيدِ مِنْهُمْ لِحَقِّ جَدِّهِمْ بَنِي عَامِرٍ تَجَارًا يَصْنَعُ الْحِرَّجَانَ ^(١) وَاخْتَلَطَ
بِهِمْ وَاتَّخَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَارِيَّ . وَمِنْ ذَلِكَ أَدْعَاؤُ بَنِي عَبْدِ
الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ نُوحَيْنَ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا
النَّسَبِ الشَّرِيفِ وَغَلَطًا بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يَعْلَمْ دُخُولَ أَحَدٍ

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بنحيتين نعلن الموتى اهـ

مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعُلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ
 مِنَ الْأَدَارِسَةِ وَالْعَبِيدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شَيْعَةِ الْعُلَوِيِّينَ . وَكَذَلِكَ
 مَا يَدْعِيهِ أَبْنَاءُ زِيَانَ مُلُوكُ تَلَمْسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْقَاسِمِ بْنِ
 أَدْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا أَشْتَهَرُ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْقَاسِمِ . فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمُ الزَّنَاتِي
 أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيْ بَنُو الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدْعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ أَدْرِيسَ أَوْ الْقَاسِمُ
 بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فَقَايَةُ الْقَاسِمِ هَذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ
 سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ فَكَيْفَ نَبِمَ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قِبَلِ
 أَسْمِ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَغَمَّ
 غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لَذَلِكَ فَإِنَّ مَذَاهِبَهُمُ لِلْمَلِكِ وَالْعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ بَعْضِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بَادِعًا
 عُلَوِيَّةً وَلَا عَبَّاسِيَّةً وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّرُ بُونُ إِلَى الْمُلُوكِ
 بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَبِشْتَرَاهِ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ الرَّدِّ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ يَغْمُرَاسِنَ بْنِ زِيَانَ
 مُؤَثِّلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بَلَغْتِهِ الزَّنَاتِيَّةُ مَا مَعْنَاهُ أَمَّا الدُّنْيَا
 وَالْمَلِكُ فَلِنَلَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ وَأَمَّا نَفْعُهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى اللَّهِ
 وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَدْعِيهِ بَنُو سَعْدِ شَيْخُ بَنِي يَزِيدَ
 مِنْ زُعْبَةِ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شَيْخُ بَنِي بَدَلْتَنَ
 مِنْ تُوْجِينِ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَالزُّوَاوَدَةُ شَيْخُ رِيَّاحِ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ الْبَرَامِكَةِ وَكَذَا
 بَنُو مَهْنَأُ أَمْرَاءُ طَبِيعٍ بِالْمَشْرِقِ يَدْعُونَ فِيمَا بَلَغْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ
 وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنْ أَدْعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ نَعَيِّنُ أَنَّ يَكُونُوا
 مِنْ صَرْحِ ذَلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصِيَّاتِهِ فَأَعْتَبَرَهُ وَاجْتَنَبَ الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلَ مِنْ
 هَذَا الْبَابِ الْخَاقَ مَهْدِيٍّ الْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ الْعُلَوِيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنِتِ
 الرِّئَاسَةِ فِي هَرِثَمَةِ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالْدِّينِ وَدُخُولِ
 قَبَائِلِ الْمَصَالِمَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهُ
 عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العvisية

أو يكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّ يَدَّ الرَّجُلِ فِي أَبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بَوْلَادَتُهُمْ إِيَّاهُ وَالْإِنْسَابُ إِلَيْهِمْ نَجَلَةٌ فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ نَجَلَةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمُ وَالنَّاسُ فِي نَسَبَاتِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهَمُوا فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَالتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَالْمَنْبَتُ فِيهَا زَكِيٌّ تَحِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْأَبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرْفُ أَصْلَيْنِ فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ لَوْ جُودَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَفَاوُتَ الْبُيُوتِ فِي هَذَا الشَّرْفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْعِجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فُزْخَرُفٌ مِنَ الدَّعَاوَى وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعْذُ سَلَفًا فِي خِلَالِ الْخَيْرِ وَمَخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ وَهَذَا مُغَايِرُ لِسِرِّ الْعَصِيَّةِ الَّتِي فِي ثَمَرَةِ النَّسَبِ وَتَعْدِيدِ الْأَبَاءِ لَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِالْعِجَازِ لِعَلَّاقَةٍ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ اللَّغْوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ الْمَشْكُوكِ الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوَّلَى وَقَدْ يَكُونُ الْبَيْتُ شَرَفٌ أَوَّلٌ بِالْعَصِيَّةِ وَالْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِنَهَابِهَا بِالْحَضَارَةِ كَمَا نَقَدَّمُ وَيَخْتَلِطُونَ بِالْعَمَارِ وَيَبْقَى فِي نَفْسِهِمْ وَسْوَاسُ ذَلِكَ الْحَسَبِ يَعْذُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ الْبُيُوتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِنَهَابِ الْعَصِيَّةِ جَمَلَةً وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوسُوسُونَ بِذَلِكَ وَكَثُرَ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ الْعَالَمِ بِالْمَنْبَتِ أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ لَدُنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِالْعَصِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا

أَتَاهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمَلِكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ أَسْلَخُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ
 الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَأَنْفَرُوا بِالْأَسْتِعْبَادِ لِلْكَفَرِ
 الْأَقَا مِنَ السِّنِينَ وَمَا زَالَ هَذَا أَلَوْسَوَاسٌ مُصَاحِبًا لَيْمٌ فَمَجِدُّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا هَارُونِي هَذَا
 مِنْ نَسْلِ يَوْشَعَ هَذَا مِنْ عَقِبِ كَالِبِ هَذَا مِنْ سَيْطِ يَهُوذَا مَعَ ذَهَابِ الْعَصِيَّةِ وَرُسُوحِ الذِّلِّ
 فِيهِمْ مِنْذُ أَحْقَابِ مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُنْقَطِعِينَ فِي أَسَابِهِمْ
 عَنِ الْعَصِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَدْيَانِ . وَقَدْ غَلَطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ
 الْحَسْبَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ مِنْ تَلْخِصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَالْحَسْبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
 قَوْمٍ قَدِيمٍ نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ
 قَدَمُ نَزْلِهِمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَصَابَةٌ يَرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرُهُمْ عَلَى الْقَبُولِ
 مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسْبَ عَلَى تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ فَقَطَّ مَعَ أَنَّ الْخُطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ مِنْ
 بُؤْرٍ اسْتِمَالَتُهُ وَهُمْ أَهْلُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَمَا مِنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَلَا
 يَقْدِرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يَسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْخَضِرِ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ إِلَّا
 أَنَّ ابْنَ رُشْدٍ رَافِيَ فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يُمَارِسُوا الْعَصِيَّةَ وَلَا أَسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي أَمْرِ
 الْبَيْتِ وَالْحَسْبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَرِاجِعْ فِيهِ
 حَقِيقَةَ الْعَصِيَّةِ وَسِرِّهَا فِي الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم
 وَذَلِكَ أَنَّا قَدَمْنَا أَنَّ الشَّرْفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةَ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ فَإِذَا أَصْطَنَعَ
 أَهْلُ الْعَصِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ أَوْ اسْتَرْفُوا الْعِبْدَانَ وَالْمَوَالِيَّ وَأَتَحَمَّوْا بِهِ كَمَا قُلْنَاهُ
 ضَرَبَ مَعَهُمْ أُولَئِكَ الْمَوَالِيَّ وَالْمُضْطَنَعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَلَيْسُوا جِلْدَتِهَا
 كَانِهَا عَصَبَتُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي الْعَصِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِي نَسَبِهَا كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ
 تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ أَوْ مَوْلَى أَصْطِنَاعٍ وَحَلَفَ
 وَلَيْسَ نَسَبٌ وَلَادَتِهِ يَنْفَعُ لَهُ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ إِذْ هِيَ مَبَايِنَةٌ لِتِلْكَ النَّسَبِ وَعَصِيَّةٌ ذَلِكَ
 النَّسَبِ مَقْقُودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عِنْدَ اتِّحَامِ هَذَا النَّسَبِ الْآخَرِ وَفُقْدَانِهِ أَهْلَ عَصِيَّتِهَا
 قِصِيرٌ مِنْ هَوْلَاءِ وَتَبَدَّرَ فِيهِمْ فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ الْأَبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَصِيَّةِ كَانَ لَهُ يَنْبَغُهُمْ

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نَسَبِهِ فِي وَلَائِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ
 ادْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهَذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِي الدُّوَلِ وَالْخِدْمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا
 يَشْرَفُونَ بِالرُّسُوخِ فِي وَلَاءِ الدُّوَلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّ الْأَبَاءَ فِي وَلَايَتِهَا أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِي
 الْأَنْزَالِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتٍ كَيْفَ أَدْرَكُوا
 الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ وَبَنُوا التَّجَدُّدَ وَالْأَصَالَةَ بِالرُّسُوخِ فِي وَلَاءِ الدُّوَلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى
 بْنُ خَالِدٍ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ يَتَنَبَّأُ وَشَرَفًا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى وَلَاءِ الرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لَا بِالْإِنْتِسَابِ
 فِي الْفَرَسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخِدْمَتِهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ
 فِي وَلَايَتِهَا وَالْأَصَالَةِ فِي أَصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَلُ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْكُهَا لَا
 عِبْرَةٌ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَتَجَدُّدِهِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نَسَبُهُ وَلَايَتُهُ وَأَصْطِنَاعُهُ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصِيَّةِ
 الَّتِي بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ
 يَنْفَعَهُ نَسَبُ وَلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى تَجَدُّدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِي الدُّوَلَةِ وَلُحْمَةُ الْأَصْطِنَاعِ فِيهَا
 وَالْثَرِيَّةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ
 وَأَصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأَوَّلَى لِدَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَانْتَفَعَهُ بِالثَّانِيَةِ لَوْجُودِهَا وَهَذَا
 حَالُ بَنِي بَرْمَكٍ إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفَرَسِ مِنْ سَدَنَةِ يُبُوتِ النَّارِ عِنْدَهُمْ
 وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ أَعْتِبَارًا وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ
 وَلَايَتِهِمْ فِي الدُّوَلَةِ وَأَصْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هَذَا قَوْمٌ يُؤَسَّسُونَ بِهِ النَّفْسُ الْجَانِئَةُ وَلَا
 حَقِيقَةُ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا وَإِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة ابناء

اعلم ان العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من احواله
 فالممكنات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات والانسان وغيره كائنه فاسده
 بالمعابنة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشا ثم
 تدرس وكذا الصنائع وامثالها والحسب من العوارض التي تعرض للادميين فهو كائن
 فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من اهل الخليفة شرف متصل في ابائه من لدن ادم
 اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه

وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّئَاسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعَةِ
وَالْإِبْتِدَالِ وَعَدَمِ الْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنُ كُلِّ
مُحَدَّثٍ ثُمَّ إِنَّ نَهَايَتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَابِي الْمُجَدِّدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بَنَائِهِ وَحَافِظٌ
عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَأَبْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَيِّهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ
وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقْصِرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرِ السَّامِعِ بِالشَّيْءِ عَنِ الْمَعْنَى لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ
الثَّلَاثُ كَانَ حَظُّهُ الْإِقْتِفَاءَ وَالْتِقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَرَ عَنِ الْإِنْبَاءِ تَقْصِيرَ الْمُقْلِدِ عَنِ الْمُجْتَمِدِ
ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ الْخِلَالَ الْحَافِظَةَ لِبَنَاءِ مُجَدِّدِهِمْ
وَأَحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبَيَانُ لَمْ يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ وَلَا تَكْلُفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ
لَهُمْ مِنْذُ أَوَّلِ النِّشَاءِ بِمَجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعَصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْعِلَاجَةِ
بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حَدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ فَيَزْبَغُ بِنَفْسِهِ
عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وَثُبُوحًا بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنْ اسْتِتْبَاعِهِمْ وَجِهَلًا بِمَا
أَوْجَبَ ذَلِكَ الْاسْتِتْبَاعُ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُّعُ لَهُمْ وَالْأَخْذُ بِجَمَاعِهِمْ فَلَوْ بِهِمْ
فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْعَصُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْبِتِ
وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقَبِ لِلْإِذْعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَا بَعْدَ الْوُثُوقِ بِمَا يَرْضُونَهُ
مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُهُ هَذَا وَتَذْوِي فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هَذَا فِي الْمُلُوكِ
وَهَكَذَا فِي بُيُوتِ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعِ ثُمَّ فِي بُيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ
إِذَا انْطَحَّتْ بُيُوتُ نِشَاءَتِ بُيُوتٍ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِ
بِمُخْلَقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَأَشْتَرَاطُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي
الْغَالِبِ وَالْإِقْدَادِ يَدْنِي الْبَيْتِ مِنْ دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ بَتَّصُ أَمْرُهَا إِلَى
الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي انْخِطَاطِ وَذَهَابِ وَاعْتِبَارِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ قَبْلِ الْأَجْيَالِ
الْأَرْبَعَةِ بَانَ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمُقْلِدٌ وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ وَقَدْ اعْتَبَرْتَ الْأَرْبَعَةَ فِي
نَهَايَةِ الْحَسَبِ فِي بَابِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا الْكَرِيمُ ابْنُ
الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْمُجَدِّدِ وَفِي التَّوَرَاةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ رَبَّكَ طَائِقُ غَيُورٍ مُطَالِبٌ
بِذُنُوبِ الْأَبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَالرَّوَابِعِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابِ غَايَةُ

فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْغَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ
لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ نَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ يَا بَنِي شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ
ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤَسَاءُ ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ فَأَلْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ
فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَآلِ ذِي الْجَدَيْنِ بَيْتُ
شَيْبَانَ وَآلِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
الْمَنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَيْمٍ جَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمْ
الْحُكْمَ وَالْعُدُولَ فَقَامَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقِرَابَتِهِ مِنَ النُّعْمَانِ ثُمَّ
بَسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَتَرَوْا فَقَالَ
كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَيِّنَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ
بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي الذُّيَّانِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ كَعْبِ الْيَمَنِيِّ وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ
عَلَى أَنَّ الْأَزْبَعَةَ الْأَبَاءَ نِهَايَةً فِي الْحَسَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الام الوحشية اقدر على التغلب من سواها

إِعْلَمُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْبِدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّالِثَةِ لَا
جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجِيلُ الْوَحْشِيَّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجِيلِ الْآخِرِ فَبِمَا أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ
وَأَتَرَاعَ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ بَلِ الْجِيلُ الْوَاحِدُ يَتَخَلَّفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ
بِاخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا تَرَلُّوا الْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا النَّعِيمَ وَالْفَوَاعِيدَ الْخَصْبِ فِي
الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوْحُّشِهِمْ وَبِدَاوَتِهِمْ وَأَعْتَبِرْ
ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانَاتِ أَلْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ الطُّيَّانِ وَالْبَقَرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوْحُّشُهَا
بِمَحَاطَةِ الْأَدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَتَخَلَّفُ حَالُهَا فِي الْإِنْتِهَاضِ وَالشَّدَّةِ حَتَّى فِي
مَشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذَلِكَ الْأَدَمِيُّ الْمُتَوْحِّشُ إِذَا أَنَسَ وَأَلْفَ وَسْبَهُ أَنْ تَكُونَ
السَّجَايَا وَالطُّبَايِعُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ الْغَلْبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالْأَقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ أَعَزَّ قَ فِي الْبِدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوْحُّشًا
كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي الْعَدَدِ وَتَكَافَأَا فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَنْظُرْ
فِي ذَلِكَ شَأْنَ مُضَرٍّ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حَمِيرٍ وَكِهْلَانِ السَّاقِقِينَ إِلَى الْمَلِكِ وَالنَّعِيمِ وَمَعَ

رَبِيعَةَ الْمُتَوَطِّنِينَ أَرْيَافَ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرٌّ فِي يَدَاؤِهِمْ وَنَقَدَهُمُ الْآخَرُونَ
إِلَى خَضْبِ الْعَيْشِ وَغَضَارَةِ النَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتْ الْيَدَاؤُ حَذَمَهُ فِي التَّغْلِبِ فَغَلَبَهُمْ عَلَى
مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهَذَا حَالُ بَنِي طِيٍّ وَبَنِي عَامِرٍ بْنِ صَعْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ
بَنٍ مَضُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرٍّ وَالْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا
بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْيَدَاؤِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلِفْهَا مَذَاهِبُ
الْتَرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا
خَضِبًا دُونَ الْحَيِّ الْآخَرِ فَإِنَّ الْحَيَّ الْمُبْتَدِيَ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَأَا
فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ سَنَةً اللَّهُ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وَذَلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ
يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْأَدَمِيِّينَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ أَجْتِمَاعٍ إِلَى
وِازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ
وَالْأَلَمْ نَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرِّئَاسَةِ لِأَنَّ
الرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُودْدٌ وَصَاحِبُهَا مُتَبَوِّعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمُلْكُ
فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مُتَبَوِّعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا
الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُ الْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةِ طَلَبٍ مَا قَوْفَهَا
فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ السُّودْدِ وَالْإِتْبَاعِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ
مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتِمُّ قُدْرَتُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مُتَبَوِّعًا فَاتَّغْلِبَ الْمَلِكُ
غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتُمْ ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بَيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ
مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتِيعُهَا وَتَلْتَمِزُ جَمِيعَ الْعَصَبِيَّاتِ
فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى وَإِلَّا وَقَعَ الْإِفْتِرَاقُ الْمُنْضِي إِلَى الْإِخْتِلَافِ
وَالْتَنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغْلِبُ
بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمٍ طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا التَّغْلِبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ
كَفَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَفْتَالًا وَانْظَرَا وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغْلِبُ عَلَى حَوَازِنِهَا

وَقَوْمَهَا شَأْنَ الْقَبَائِلِ وَالْأَمْرِ الْمُفْتَرِقَةِ فِي الْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَاسْتَبَعَتْهَا انْتَحَمَتْ بِهَا أَيْضًا
وَرَادَتْ قُوَّةً فِي الْغَلَبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةَ مِنَ الْغَلَبِ وَالتَّحَكُّمِ أَعْلَى مِنَ الْغَايَةِ
الْأُولَى وَابْعَدَ وَهَكَذَا دَائِمًا حَتَّى تُكَافِيَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا
مُمانِعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا وَانْتَزَعَتْ الْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ
الْمَلِكُ أَجْمَعُ لَهَا وَإِنْ انْتَهَتْ قُوَّتُهَا وَلَمْ يَقَارِنْ ذَلِكَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا
إِلَى الْإِسْطِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ انْتِظَمَتْهَا الدَّوْلَةُ فِي أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَحْتَاجُ مِنْ
مَقَاصِدِهَا وَذَلِكَ مَلِكٌ آخَرُ دُونَ الْمَلِكِ الْمُسْتَنْدِ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَاصْنَهَاجَةَ وَزَنَانَةَ مَعَ كُتَّامَةٍ وَلِبْنِي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشَّيْبَةِ مِنَ الْعُلُوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ
فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمَلِكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمَلِكُ
إِمَّا بِالْإِسْتِئْذَارِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنُ لِذَلِكَ وَإِنْ عَاقَبَهُ
عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نَبَّيْنَاهُ وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِه

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانفاص القبيل في النعيم
وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ الْغَلَبِ اسْتَوْلَتْ عَلَى النِّعْمَةِ بِمِقْدَارِهِ
وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخَصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخَصِيمِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ
بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتَظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ
فِي انْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذِنَ ذَلِكَ الْقَبِيلُ لَوْلَايَتِهَا وَالْقَنُوعَ بِمَا يُسَوِّغُونَ
مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُسْرُكُونَ فِيهِ مِنْ جَبَائِثِهَا وَلَمْ تَسْمُ أَمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَلَا
اسْتِغَايَةِ إِنَّمَا هُمُتُهُمُ النِّعَمِ وَالْكَسْبُ وَخَصْبُ الْعَيْشِ وَالسُّكُونُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ إِلَى
الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمَلِكِ فِي الْمَبَانِي وَالْمَلَابِسِ وَالْإِسْتِكْفَارِ مِنْ ذَلِكَ
وَالْتَأَنُّ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيَاشِ وَالتَّرَفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذْهَبُ
خُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ وَتَضَعُفُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ
بُهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ التَّرَفِّ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ
وَيَسْتَنَكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ
وَسُجَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاقَبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصَبِيَّةُ

فَيَا ذُنُونُ بِالْأَنْقِرَاضِ وَعَلَى قَدَرٍ تَرْفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنْ
الْمَلِكِ فَإِنَّ عَوَاضِ التَّرَفِ وَالْفَرْقِ فِي النِّعَمِ كَأَسْرَ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلِبُ
وَإِذَا أَنْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ قَصَرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنْ الْمُطَالَبَةِ
وَالنِّعْمَتِ الْمَلِكِ الْأَمِّ سَوَاهُمْ فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَاقِبِ الْمَلِكِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواه

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالْأَنْقِيَادَ كَأَسْرَ ان لِسَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ أَنْقِيَادَهُمْ
وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا فَمَا رِئُومُوا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ
عَاجِزًا عَنْ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِلَى مَلِكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مَلَكَهَا كَيْفَ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا
إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا أَيْ يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا
بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لُجُؤُ
وَأَرْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أَسُوا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ آيَةُ وَمَا يُؤْتِرُ فِي تَفْسِيرِهَا
وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْأَنْقِيَادِ وَمَا رِئُومُوا مِنَ الذُّلِّ الْقَبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتْ
الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنْهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِحَقِّ الْإِيْمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ
لَهُمْ وَأَنَّ الْعِمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيسَتَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللَّهِ قُدْرَهُ لَهُمْ فَاقْصَرُوا
عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ
خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعْنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِالْتِيهِ
وَهُوَ أَنْهُمْ تَاهَوْا فِي قَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْذُوا فِيهَا
الْعُمَرَانُ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا فَصَّه الْقُرْآنُ لِعِلَاطَةِ الْعِمَالِقَةِ بِالشَّامِ
وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمُ الْعَجْزُ عَنْ مُقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيُظْهِرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَقْهُومِهَا
أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ الَّتِيهِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الذُّلِّ وَالْقَهْرِ
وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّفُوا بِهِ وَافْسَدُوا مِنْ عَصِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ الَّتِيهِ جِيلٌ آخَرُ عَزِيزٌ لَا
يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا

عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَالْغُلْبِ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرَبِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ
 جَبَلٍ وَنَشَأُ جَبَلٍ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ الْعَصِيَّةِ
 وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمَقَاوِمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ
 عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهَذَا الْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ الْمَدْلَةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ
 وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوْا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَدْلَةِ فِيهِ لِأَنَّ
 فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضِمًّا وَمَدْلَةً لَا تَحْتَمِلُهَا النَّفْسُ إِلَّا إِذَا اسْتَمْتَحَتْ عَنْ الْقَتْلِ
 وَالْتَلَفَ وَأَنَّ عَصِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصِيَّتُهُ لَا
 تَدْفَعُ عَنْهُ الضَّمِّ فَكَيْفَ لَهُ بِالْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِنْقِيَادُ لِلذِّلِّ وَالْمَدْلَةُ
 عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنُ الْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سَيْكَةَ
 الْحِمَارِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الذِّلُّ فَهُوَ دَلِيلُ
 صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ الْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ الْمَكْرِ
 وَالْخُدَيْعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ الذِّلِّ فَلَا
 تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخَرَ الدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ
 كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غَلْطٌ فَاحِشٌ كَمَا
 رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَّا اسْتَتَبَ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَأَنْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرُ بَرَّازٍ
 مَلِكُ الْبَابِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطْلَعَ عَلَيْهِ وَسَّالَ شَهْرُ بَرَّازٍ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ
 يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعْرِي مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ
 اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجَزَيْنَا إِلَيْكُمْ النَّصْرَ لَكُمْ وَالْقِيَامَ بِمَا تَحِبُّونَ وَلَا تَذَلُّونَا بِالْحِزْبَةِ فَتَوْهُنَا
 لِعَدُوِّكُمْ فَأَعْتَنِ هَذَا فِيمَا قُلْنَا فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِإِلَاسَانٍ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا هُ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ
 لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقَوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مَنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ
 إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةً لَا لِلْبَحْيَوَانِ فَإِذَا خَلَالَ الْخَيْرُ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ إِذَا
الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَحَقَّقَ بِهِ
حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرَعُ يَتِمُّمُ وُجُودَهُ وَيُكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ
الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصِيَّةِ فَهُوَ غَايَةُ لِفِرْعُوعِهَا وَمَتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مَتَمِّمَاتِهِ
كَوُجُودِ شَخْصٍ مُقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ غُرْبَانًا بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْعَصِيَّةِ
فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ انْتَصَالَ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقَصًا فِي أَهْلِ الْيُوتِ وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ
بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنِهَايَةُ لِكُلِّ حَسَبٍ وَآيَضًا فَالْسِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ
هِيَ كِفَالَةُ الْخَلْقِ وَخِلَافَةُ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيزِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا
هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقُدْرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا
وَمُقَدِّرُهُمَا إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأَوْنِسَتْ مِنْهُ
خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِيزِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ الْخِلَافَةُ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةُ
الْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحَةُ لِذَلِكَ وَهَذَا الْبَرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَاصْصَحُّ مِنْهُ فَقَدْ
تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ لِمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي
أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلْبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالْأَمْرِ فَوَجَدْنَاهُمْ
يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْبُكْرَمِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ
وَالْفَرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْكُلِّ وَكَسْبِ الْمُعْدِمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ
وَبَدْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا
وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يُعَدِّدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ
وَالْتَبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْمَسَاحِيحِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ
وَالْإِقْبَادِ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ الْمُسْتَغْفِرِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَدُّلِ فِي
أَحْوَالِهِمْ وَالْإِقْبَادِ لِلْحَقِّ وَالْوَضَاعِ لِلْمُسْكِينِ وَاسْتِمَاعِ شِكْوَى الْمُسْتَغْفِرِينَ وَالتَّوَدُّعِ
بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَانِّيِ عَنِ الْعَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَيْعَةِ
وَتَقْضِ الْعَهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا
أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ

مُنَاسِبٍ لِعَصَبِيَّتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُدَى فِيهِمْ وَلَا وَجَدَ عَشَاءَ مِنْهُمْ وَالْمَلِكُ أَنْسَبُ
الْمَرَاتِبِ وَالْخَيْرَاتِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأْذَنَ لَهُمْ بِالْمَلِكِ وَسَاقَةَ إِلَيْهِمْ
وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْمَلِكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ
الْمَذْمُومَاتِ وَالتَّحَالُ الرَّدَائِلِ وَسُلُوكِ طُرُقِهَا فَتَفْقَدُ الْفَضَائِلُ السِّيَاسِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً وَلَا
تَزَالُ فِي انْتِقَاصٍ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمَلِكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سَوَاهُمْ لِيَكُونَ نَعِيماً
عَلَيْهِمْ فِي سَلْبٍ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمَلِكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَإِذَا
أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَارَةً وَتَدْمِيرًا وَاسْتَقْرَى
ذَلِكَ وَتَتَبَعَهُ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ نَحْدَ كَثِيرًا مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسَمْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ أُلُو الْعَصَبِيَّةِ وَتَكُونُ شَاهِدَةً
لَهُمْ بِالْمَلِكِ إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَحْسَابِ وَأَصْنَافِ التَّجَارِ
وَالْعُرَبَاءِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنْزِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالْعَسَائِرِ
لِيَمُنَّ بِنَاهُضِهِمْ فِي الشَّرَفِ وَيَجَادِبَهُمْ حَبْلُ الْعَشِيرِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ
الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرُّغْبَةُ فِي الْجَاهِ أَوْ الْخُفَافَةُ مِنْ قَوْمِ
الْمُكْرَمِ أَوْ النَّاسِ مِثْلًا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصَبِيَّةٌ نَتَقَى وَلَا جَاهٌ
يُرْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ وَيَتَحَصَّصُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلتَّحَدِّ وَالتَّحَالِ
الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكَلِمَةِ لِأَنَّ إِكْرَامَ أَقْتَالِهِ وَأَمْثَالِهِ
ضَرُورِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنُظَرَائِهِ وَإِكْرَامُ الطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ
وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ وَالْعُلَمَاءُ لِلْجَاهِ إِلَيْهِمْ فِي
إِقَامَةِ مَرَامِ الشَّرِيعَةِ وَالتَّجَارُ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعَمَّ الْمَنْفَعَةُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْعُرَبَاءُ مِنْ
مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنْزِلَهُمْ مِنَ الْأَنْصَافِ وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ
ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ أَنْتِمَا وَهُمْ لِسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الْمَلِكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأْذَنَ بِوُجُودِهَا
فِيهِمْ لِوُجُودِ عِلَامَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلُ الْمَلِكِ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ
تَعَالَى بِسَلْبِ مَلِكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامُ هَذَا الصَّنَفِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ
مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الزَّهَابِ عَنْهُمْ وَأَرْتَقَبَ زَوَالَ الْمَلِكِ
مِنْهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع
وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف
لقدرتهم على محاربة الأمر سواهم ولأنهم ينزلون من الأهلين منزلة المفترس من
الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معانهم من الأكراد والتركمان
وأهل اللثام من صناجة وأيضا هؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتأفون منه ولا
بلد يجنون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على
ملكه فطرحهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أقيمتهم بل يظفرون إلى
الأقاليم البعيدة ويتغابون على الأمر النائية وأنظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي
الله عنه لما بويج وقام يحرض الناس على العراق فقال إن الحجاز ليس لكم بدار
إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله
سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على
الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك أيضا بحال العرب السائفة من قبل مثل
التبابعة وحمير كيف كانوا يحطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند
أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمر وكذا حال المثلثين من المغرب لما
نزعوا إلى الملك طفرأ من الأقليم الأول وبجالاتهم منه في جوار السودان إلى
الأقليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الأمم
الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقا وأبعد من مراكزها نهاية والله بقدر
الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من

عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من
سائر الأمم سواهم فيتعين منهم المباشرون للأمر الحاملون سرير الملك ولا يكون

ذَلِكَ لَجَمْعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثَرَةِ الَّتِي يَصِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ الْمُرَاحَةِ وَالْغَيْرَةِ الَّتِي
تَجْدَعُ أَنْوَفَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَطَوِّلِينَ لِلرُّثْبَةِ فَإِذَا تَعَيَّنَ أُولَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ أَنْفَعَسُوا
فِي النَّعِيمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَلِيلِ وَانْقَفَوْهُمْ
فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعَدُوا عَنِ الْأَمْرِ وَكَبَحُوا عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي ظِلِّ
مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ
فَإِذَا اسْتَوَلَتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَبَاءُ وَأَبَادَ غَضَاءَهُمُ الْهَرَمُ فَطَبَخَتْهُمْ الدَّوْلَةُ وَأَكَلَ الدَّهْرُ
عَلَيْهِمْ وَشَرَبَ بِمَا أَرْهَفَ النَّعِيمَ مِنْ حُلْمِهِمْ وَاسْتَقَتَ غَرِيزَةُ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَلَّغُوا
غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالتَّغْلِبِ السِّيَاسِيِّ (شعر)

كَدُودُ الْقَرْ يَنْسَجُ ثُمَّ يَفْتَى بِمَرْكَزِ تَسْجِهِ فِي الْأِنْعَكَاسِ

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصِيَّةَ الْآخِرِينَ مَوْفُورَةً وَسُورَةً غَلِبَهُمْ مِنَ الْكَلْبِ مَحْفُوظَةً وَشَارَتْهُمْ
فِي الْغَلَبِ مَعْلُومَةً فَتَسَمَّوْا مَالَهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ الْعَالِيَةِ مِنْ
جَنَسِ عَصِيَّتِهِمْ وَتَرْتَقِعُ الْمَنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلِبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَيَصِيرُ
إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضًا مُتَبِدِّدًا عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ
مُتَحِدًا فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْتَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا سَنَةَ اللَّهِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ لَمَّا أَنْقَرَضَ
مُلْكُ عَادَ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ الْعَمَالِقَةُ وَمِنْ
بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرَ أَيْضًا وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ التَّبَاعَةُ مِنْ حَمِيرَ أَيْضًا وَمِنْ بَعْدِهِمْ
الْأَذَوَاءُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا الْفُرْسُ لَمَّا أَنْقَرَضَ أَمْرُ الْكَلْبِيَّةِ مَلِكُ
مِنْ بَعْدِهِمْ السَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعَ بِالْإِسْلَامِ وَكَذَا الْيُونَانِيُّونَ
أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَاتَّقَلَّ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَكَذَا الْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا أَنْقَرَضَ
أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكُتَامَةَ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمُلْتَمِثِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ
مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَآنَةَ وَهَكَذَا سَنَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ إِنَّمَا
يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ وَالْمُلُوكِ يُخْلِقُ التَّرَفَ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَدَّ كُرُهُ
بَعْدَ إِذَا أَنْقَرَضَتِ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْأَمْرُ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصِيَّةٌ مُشَارَكَةٌ لِعَصِيَّتِهِمْ
الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالْإِنْقِيَادُ وَأُونِسَ مِنْهَا الْغَلَبُ لَجَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ

فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرُبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ خَيْرٌ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الْجَلِيلِ إِلَى الْجَلِيلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرِّ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَمْرِ وَالْدَوْلِ وَآخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه
ونخلته وسائر احواله وعوائده

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَأَنْقَادَتِ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَفَّرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيَادَهَا لَيْسَ لَغَلَبٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَتْ لَهَا اعْتِقَادًا فَأَنْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ الْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةٍ بِأَسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا انْتَحَلَتْهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضًا بِذَلِكَ عَنْ الْغَلَبِ وَهَذَا رَاجِعٌ لِلْأَوَّلِ وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَلَبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَنْبَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِاعْتِقَادِهِمُ الْكَمَالَ فِيهِمْ وَانْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيَّ الْحَلَمِيَّةِ وَجُنْدُ السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تَجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْري إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا التَّشَبُّهِ وَالْإِقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أُمِّ الْجَلَالَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ التَّمَاثِيلِ فِي الْجُدُرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّاطِرُ بَعِينَ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ الْأَسْنِيَاءِ وَالْأَمْرِ لِلَّهِ وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا سِرَّ قَوْلِهِ الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذَا الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِاعْتِقَادِ الْكَمَالِ فِيهِ اعْتِقَادَ الْأَنْبَاءِ بِآبَائِهِمْ وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَ دَرْهَاهَا عَلَيْهَا
وَصَارَتْ بِالْإِسْتِعْبَادِ آلَةً لِّسِوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الْأَمَلُ وَيَضَعُفُ التَّنَاسُلُ وَالْإِعْتَارُ
إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ الْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ
بِالتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْغَلَبِ الْحَاصِلِ
عَلَيْهِمْ تَنَاقَصَ عُمرَانِهِمْ وَتَلَاشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيهِمْ وَعَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ
أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَدَ الْغَلَبُ مِنْ شَوْكِتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُعَلِّينَ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ وَطَعْمَةً لِكُلِّ
أَكَلٍ وَسِوَاهُ كَانُوا حَاصِلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا. وَفِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ سِرَّهُ آخِرُ
وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ رَأْسُ بَطْنِهِ بِطَبْعِهِ بِمَقْتَضَى الْأَسْتِخْلَافِ الَّذِي خَلَقَ لَهُ وَالرَّئِيسُ إِذَا غَلَبَ عَلَى
رَأْسَتِهِ وَكَبَّحَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَسَّلَ حَتَّى عَنْ شَبَعِ بَطْنِهِ وَرِيَّ كِبِدِهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي
أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُنْتَرِسَةِ وَإِنَّهَا لَا تَسْفِدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ
فِي مَلَكَةِ الْأَدَمِيِّينَ فَلَا يَزَالُ هَذَا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَأَضْمَحَلَالٍ
إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ الْفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أُمَّةِ النُّرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدَمَلَاتٍ
الْعَالَمَ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ
يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَحْصَى مَا وَرَاءَ الْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ
سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَخَصَّصُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ
بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَدُنِرُوا كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَطْلَمٌ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٌ
شَمَلَهُمْ فَلَمَكَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمَتْ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ
عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آلَةً لِّغَيْرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُدْعَى لِلرَّقِّ فِي الْغَالِبِ أُمُّ السُّودَانِ لِنَقْصِ
الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَفُرْجِهِمْ مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ كَمَا قُلْنَا أَوْ مَنْ يَرْجُو بِأَنْتِظَامِهِ
فِي رِبْقَةِ الرَّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةِ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ
وَالْعُلُوجِ مِنَ الْجَلَالِقَةِ وَالْإِفْرِجَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لِنِسْمٍ فَلَا يَأْتُونُ
مِنَ الرَّقِّ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِأَصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتعابون الا على البسائط

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثُ يَنْتَهَبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُقَابَلَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَقْرُونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِالْقَفْرِ وَلَا يَدْهَبُونَ إِلَى الْمَزَاحِمَةِ وَالْمَحَارِبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَصْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْزُضُونَ لَهُ وَالْقَبَائِلُ الْمُحْتَمِنَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ الْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَنْمُونَ إِلَيْهِمْ الْخَضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ الصَّعَابَ وَلَا يُحَاوِلُونَ الْخَطَرَ وَأَمَّا الْبَسَائِطُ فَمَتَى اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفَقْدَانِ الْحَامِيَةِ وَضَعْفِ الدَّوَلَةِ فِيهِ نَهَبُ لَهُمْ وَطَعْمَةٌ لَا كَيْلَ لِمَنْ يُرَدُّونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالزَّحْنَ لِسَهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغْلَبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِاخْتِلَافِ الْإِيْدِي وَانْخِرَافِ السِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمَرَانُهُمْ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الحراب

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِيلَةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْدُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ وَعَدَمِ الْأَنْقِيَادِ لِلْسِّيَاسَةِ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمَرَانِ وَمُنَافِضَةٌ لَهُ فَنَافِيَةُ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمْ الرَّحْلَةُ وَالتَّغْلِبُ وَذَلِكَ مُنَافِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمَرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَالْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَتَانِي الْقَدَرُ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ الْمَبَانِي وَيُخْرِجُونَهَا عَلَيْهِ وَيَعْدُونَهُ لِنَازِلِ الْخَشْبِ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيَعْمَرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِيَبْنُوا بِهِمْ فَيُخْرِجُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لِنَازِلِ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وَجُرْدِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُمَرَانِ هَذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَأَنْ رَزَقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي اخْتِادِ أَمْوَالِ النَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كَلَّمَا أَمْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ انْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْاِتِّغْلَابِ وَالْمُلْكِ بَطَلَتِ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَخَرِبَ الْعُمَرَانُ وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ

يُكَفُّونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالُهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالُ كَمَا سَنَدُ كُرْهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكْسَبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مِجَانًا ضَعُفَتِ الْأَمَالُ فِي الْمَكْسَبِ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنْ الْعَمَلِ وَابْدَعَرَ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمُرَانُ وَأَيضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هُمُومُهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَّلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهَرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجَيَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجَرَ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَانِدًا فِيهَا لِاسْتِسْهَالِ الْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرِّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَلَّهَا قُوزَى ^(١) دُونَ حُكْمِ الْقُوزَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمُرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنْ وَجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وَجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَصْلِ وَأَيضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ وَقُلْ أَنْ يَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى كُرْهِهِ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَامُ مِنْهُمْ وَالْأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرِّعَايَةِ فِي الْجَيَايَةِ وَالْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمُرَانُ وَيَنْقُضُ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَأَفْدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحُجَّاجِ وَارَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمُرَانُ فَقَالَ تَرَ كُنْهَ يَظْلِمُ وَحَدَهُ وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقُوزُ عُمُرَانُهُ وَاقْفَرُ سَاكِنُهُ وَبَدَلَتْ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالْيَمْنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقِ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرَبَ عُمُرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةً وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مِنْذُ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا اثْنًا ثَمَانِيَةً وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بَسَاطَتُهَا خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرَّوِّيِّ كُلِّهِ عُمُرَانًا تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمُرَانِ فِيهِ مِنَ الْعَالَمِ وَمَتَائِلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهِ

ومها يعزى الى سيدنا علي لا تفصح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالم سادوا

يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة او ولاية

او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا التَّوْحُشَ الَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ الْأُمَمِ أَنْقِيَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغُلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ وَبُعْدِ الْهَمَةِ وَالْمَنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ الدِّينُ بِالنَّبُوءَةِ أَوْ الْوَلَايَةِ كَانَ الْوَزَاعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ الْكَبِيرِ وَالْمَنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهِّلَ أَنْقِيَادُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَسْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ لِلْغُلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ الْوَزَاعِ عَنِ التَّجَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَذْهَبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتُ الْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ التَّغَلُّبُ وَالْمَلِكُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْرَعَ النَّاسُ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَالْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَمْلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوْحُشِ الْقَرِيبِ الْمَعَانَاةِ الْمَتَّهِئَةِ لِقَبُولِ الْخَيْرِ ببقائه عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ وَسُوءِ الْمَمْلَكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بِدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا فِي الْفَقْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ الثَّلُولِ وَجُوبِهَا لِاعْتِيَادِهِمُ الشُّطْفَ وَخُشُونَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَغْنَوْا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعِبَ أَنْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيْلَافِهِمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوْحُشِ وَرَأْسِهِمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِبًا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاعَمَتِهِمْ لئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصِيَّتِهِ فَيَكُونُ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَّاسَةُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ نَقْضِي أَنْ يَكُونَ السَّاسُ وَارِعًا بِالْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمِ سِيَاسَتُهُ وَأَيضًا فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمَاهُ أَخَذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنْ

الْأَحْكَامَ بَيْنَهُمْ وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكَوا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَعَلُوا
 غَايَةَ مُلْكِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرْكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ
 وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمَفْسَدِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَكْثِيرِ الْحَيَايَاتِ وَتَحْصِيلِ
 الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَازِعًا وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِنًا بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَفْسَدِ
 وَاسْتِهَانَةً مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَنْمُو الْمَفْسَدُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخَرُّبُ
 الْعُمَرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ الْأُمَّةُ كَانَتْهَا قُوَّةً مُسْتَظِلَّةً أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ
 لَهَا عُمُرَانٌ وَتَخْرُبُ سَرِيعًا شَأْنُ الْفَوْضَى كَمَا قَدَمْنَاهُ فَبَعْدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ
 عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِغَةِ دِينِيَّةٍ
 تَمَحُّوْذِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ الْأَوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دَفَاعِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ
 عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوَلَّتِهِمْ فِي الْأُمَّةِ أَلَا شَيْدَ لَهُمُ الدِّينَ أَمْرُ
 السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَانِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَتَتَابَعِ فِيهَا
 الْخُلَفَاءُ عَظَمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقُوَّتِي سُلْطَانُهُمْ كَانَ رُسْتُمْ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ
 يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكُلَ عُمُرٍ كَيْدِي يُعَلِّمُ الْكِلَابَ الْأَدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
 انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَدُوا الدِّينَ فَنَسُوا السِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفَرِهِمْ وَجَهَلُوا
 شَأْنَ عَصِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ يُبْعِدُهُمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ النِّصْفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا
 كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ اسْمِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ
 أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَانْحَى رَسْمُهَا انْقَطَعَ الْأَمْرُ جَمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجْمُ دُونَهُمْ
 وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قَفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلِكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ
 قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ
 لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَدَوَّلٍ عَادٍ وَثَمُودٍ وَالْعَالِقَةِ وَحَمِيرٍ وَالتَّبَاعَةِ شَاهِدُهُ بِذَلِكَ ثُمَّ
 دَوْلَةُ مُضَرَ فِي الْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ لَكِنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا
 نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ
 عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْوِيبُ
 مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدَمْنَاهُ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْبَكَايَةِ نَاقَضَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ لِأَنَّ الْأُمُورَ
الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ الْبَدْوِ وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ
أُمُورُ الْقَلْعِ وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا الصَّنَائِعُ فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي الْكَلْبَةِ مِنْ تِجَارٍ
وَحَيَاطٍ وَحَدَادٍ وَآمِثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتَ مَعَاشِهِمْ فِي الْقَلْعِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا
الدَّنَائِرِ وَالْدِّرَاهِمِ مَقْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاذُهَا مِنْ مَغْلٍ الزَّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ
الْحَيَوَانِ أَوْ فَضْلَاتِهِ الْبَنَاءِ وَأَوْبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَيَعْوِضُونَهُمْ
عَنْهُ بِالْأَنْبَارِ وَالْدِّرَاهِمِ إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِي الضَّرُورِيِّ وَحَاجَةُ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وَجُودِهِمْ
فَمَا دَامُوا فِي الْبَكَايَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مَلِكٌ وَلَا أَسْتِيلَاءٌ عَلَى الْأَمْصَارِ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى
أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَلَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ
فِي الْمَصْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِعَلْبِ الْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَصْرِ مَلِكٌ
وَلَا بَدٌّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعٍ أَسْتَبَدَّ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى الْبَاقِينَ وَإِلَّا انْتَقَضَ عُمَرَانُهُ
وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعًا يَبْدُلُ الْمَالَ لَهُمْ ثُمَّ
يُبْدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مَصْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمَرَانُهُمْ وَإِمَّا كَرْهًا
إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالْغَرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يَغْلِبُ بِهِ
الْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لَذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمَرَانِهِمْ وَرُبَّمَا لَا يَسْمَعُهُمْ
مُفَارَقَةُ تِلْكَ النُّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبَدْوِ الَّذِينَ غَلَبُوا
عَلَيْهَا وَمَنْعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ هُوَ لَا مَلْجَأًا إِلَّا طَاعَةَ الْمَصْرِ فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ
لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ فَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك
كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبة

وذلك انا قررنا في الفصل الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبة لما
فيها من الثغرة والتدأمر واستتار كل واحد منهم دون صاحبه . ثم ان الملك منصب
شريف ملذوذ يستعمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية
فيقع فيه التنافس غالباً وقل ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة
وتنفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشي منها لا يقع الا بالعصبة كما ذكرناه انفاً
وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة
منذ اولها وطال امد مرابهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل فلا يعرفون ما
فعل الله اول الدولة انما يذكرون اصحاب الدولة وقد استحكمت صبتهم ووقع
التسليم لهم والاستغناء عن العصبة في تمهيد امرهم ولا يعرفون كيف كان الامر
من اوله وما لقي اولهم من المتاعب دونه وخصوصاً اهل الاندلس في نسيان هذه
العصبة وانرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبة بما تلاشى وطنهم
وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبة

والسبب في ذلك ان الدول العامة في اولها يصعب على النفوس الاتقياد لها الا
بقوة قوية من الغلب للعرابة وان الناس لم يألوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت
الرئاسة في اهل النصاب الخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في
اعتقاب كثيرين ودول متعاقبة نسبت النفوس شأن الأولية واستحكمت لاهل ذلك
النصاب صبة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الاتقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم

عَلَى أَمْرِهِمْ فَيَقَالُ لَهُمْ عَلَى الْعَقَائِدِ إِلَّا بِإِثْنَةٍ فَلَمْ يَحْتَجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عَصَابَةٍ
بَلْ كَانَ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ وَلَا مَرٌّ مَا يُوضَعُ الْكَلَامُ فِي
الْإِمَامَةِ آخِرَ الْكَلَامِ عَلَى الْعَقَائِدِ إِلَّا بِإِثْنَةٍ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ اسْتَظْهَارُهُمْ
حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ الْمَخْصُوصَةِ إِمَّا بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَّعِينَ الَّذِينَ نَشَاوُوا فِي
ظِلِّ الْعَصْبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِالْعَصَائِبِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّخِلِينَ فِي وَلَايَتِهَا وَمِثْلُ
هَذَا وَقَعَ لِنَبِيِّ الْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصْبِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَابْنِهِ
الْوَائِقِ وَاسْتَظْهَرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ وَالتُّرْكِ وَالِدَيْلِ وَالسُّجُوقِيَّةِ
وغيرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَمُ الْأَوَّلِيَاءُ عَلَى النَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالُ
بَعْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الدَّيْلَمُ وَمَلَكَوْهَا وَصَارَ الْخِلَافُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ
وَمَلَكَ السُّجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ النَّبَارِ
فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ وَحَوَّوْا رِسْمَ الدَّوْلَةِ وَكَذَلِكَ صَنَاجِدُ بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصْبِيَّتُهُمْ مِنْذُ الْمِائَةِ
الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةً الظَّلِيلُ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِحَايَةِ وَالْقَلْعَةِ
وَسَائِرِ ثَغُورِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَرَبَّمَا نَزَى بِتِلْكَ الثَّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ الْمَلِكُ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ
وَالْمَلِكُ مَعَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ
قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ فَحَوَّوْا آثَارَهُمْ وَكَذَلِكَ دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ
عَصْبِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خِطْبَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ
وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وَلَايَتِهِ وَشَمِجَ بِأَنفِهِ وَبَلَغَهُمْ
شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمَلِكِ وَلَبَسُوا شَارَتَهُ وَأَمْنُوا مِمَّنْ يَقْبِضُ
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبٍ وَلَا قِبَائِلٍ كَمَا سَنَذْكُرُهُ
وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ

مِمَّا يَزْهِدُنِي فِي أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
الْقَابُ مَمْلُوكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَأَلْهَرٍ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَّعِينَ وَالطَّرَاءَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدُوةِ
مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ أَقْتَدَاءُ بِالدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي الْأَسْتَظْهَارِ بِهِمْ حِينَ
ضَعُفَتْ عَصْبِيَّةُ الْعَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ

اسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظُّ كَبِيرٍ مِنَ الْمَلِكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ
 إِلَيْي أَقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرُ الْمُرَاطُونَ أَهْلُ
 الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةٍ فَأَسْبَدُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَكَزِهِمْ وَنَحَوُوا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا
 عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِنَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِيْذِهِ الْعَصِيَّةُ يَكُونُ تَمَيُّدُ الدَّوْلَةِ وَنَحْمَاتُهَا مِنْ
 أَوَّلِهَا وَقَدْ ظَنَّ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدُّوَلِ بِإِطْلَاقِ هُمْ الْجُنْدُ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ
 مَعَ الْآلِهَةِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ الْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ
 الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مُخَصَّصٌ بِالدُّوَلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمَيُّدِ وَاسْتِقْرَارِ
 الْمَلِكِ فِي النَّصَابِ وَاسْتَحْكَامِ الصِّبْغَةِ لِأَهْلِيهِ فَالْرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا
 وَخَلَقَ جِدَّتِهَا وَرُجُوعَهَا إِلَى الْأَسْطِظْهَارِ بِالْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَعْدِمِينَ مِنْ
 وَرَأَيْهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دُولَ الطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي
 أُمَيَّةٍ وَاتِّقِرَاضِ عَصِيَّتَيْهَا مِنَ الْعَرَبِ وَاسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقُطْرِهِ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ الْمُسْتَعِينِ
 بَنِي هُودٍ وَأَبْنَاهُ الْمُظْفَرُ أَهْلُ سِرْقَسَةِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مِنْ أَمْرِ الْعَصِيَّةِ شَيْءٌ لِاسْتِغْلَاةِ
 التَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرِ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِالْمَلِكِ
 عَنْ عَشَائِرِهِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْأَسْتِبْدَادِ مِنْذُ عَهْدِ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَصِيَّةِ فَهُوَ
 لِذَلِكَ لَا يَنَازِعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَجْرَاءِ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ فَأُطْلِقَ الطَّرْطُوشِيُّ الْقَوْلَ
 فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَنْفُظَنَّ لِكَيْفِيَّةِ الْأَمْرِ مِنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ
 فَتَمُظَنَّ أَنَّ لَهُ وَأَقْبَهُمْ سِرَّ اللَّهِ فِيهِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصية
 وذلك أنه إذا كان لعصية غلب كثير على الأمر والأجبال وفي نفوس القائمين
 بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبد عن
 مقر ملكه ومبني عزه اشتعلوا عليه وقاموا بأمره وظاهره على شأنه وعثوا بتمهيد
 دولته يرجون استقراره في نصايه وتناوله الأمر من يد أعياصه وجزاءه لهم على مظهرته
 بأصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية تغري ولا يطمعون في
 مشاركته في شيء من سلطانه تسليماً لعصيته وانقياداً لما استحكم له ولقومه من

صَبَغَهُ الْغَلْبَ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةَ إِيْمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي الْأَذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ
دُونَهُ لَزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْأَدَارِسَةِ بِالْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَالْعَبِيدِينَ
بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَمُضَرَ لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ وَابْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ
الْخِلَافَةِ وَسَمَّوْا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ
مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةٍ أَوَّلًا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ فَنَحَرَجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَا
لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ الْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرَثَهُ وَمَغِيلَةَ لِلْأَدَارِسَةِ وَكُتَامَةَ
وَصَنْهَاجَةَ وَهَوَارَةَ لِلْعَبِيدِيِّينَ فَشِيدُوا دَوْلَتَهُمْ وَهَدُّوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ
مَمْلَكَ الْعَبَّاسِيِّينَ الْمَغْرِبِ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةً وَلَمْ يَزَلْ خِلُ الدَّوْلَةِ يَقْلُصُ وَظِلُّ الْعَبِيدِيِّينَ
يَتَمَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكَوا مُضَرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَقَاسَمَهُمْ فِي الْمَمَالِكِ إِلَّا سِلَاسِيَّةَ شَقِّ
الْأَبْلَمَةِ وَهَوَّلَاءَ الْبَرَابِرَةِ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِمْ مُسْلِمُونَ لِلْعَبِيدِيِّينَ أَمْرَهُمْ
مُدْعُونَ لِمَلِكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّثْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ
صَبْغَةِ الْمَلِكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْغَلْبِ لِقُرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِ فَلَمْ
يَزَلِ الْمَلِكُ فِي أَغْقَابِهِمْ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمُعَقِّبِ حُكْمِهِ

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين

اما من نبوة او دعة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْغَلْبِ وَالْغَلْبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَاتِّفَاقِ
الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمَطْلَبَةِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَتَأْيِيدِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ
قَالَ تَعَالَى لَوْ أَتَفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَتَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا
تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمِيلِ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفُشِيَ الْخِلَافُ وَإِذَا انْصَرَفَتْ
إِلَى الْحَقِّ وَرَفُضَتِ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّحَدَتْ وَجَبَتْهَا فَدَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ
الْخِلَافُ وَجَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاوُدُ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ فَعُظُمَتِ الدَّوْلَةُ كَمَا
نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدَ أَنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية

التي كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُّدِ الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَتَقْرُدُ الْوُجْهَةَ إِلَى اتِّحَاقٍ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْأَسْتِصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ الْوُجْهَةَ وَاحِدَةً وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَضَهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ وَتَخَاضُّهُمْ لِنَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يَقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِ وَالذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالزُّمُوكِ بِضِعْفَةِ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مَعْسُكٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةِ وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هَزَقِلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلِبُوهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمُتُونَةَ وَدَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ فَقَدْ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَقَاوِمُهُمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشْفُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ الْإِحْتِمَاعَ الدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالْأَسْتِصَارِ وَالْإِسْجَانَةِ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ الدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْقُضُ الْأَمْرُ وَبَصِيرُ الْغَلْبِ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَحَدَّهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ فَتَغْلِبُ الدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْعَصَابِ الْمُكَافَةِ لَهَا أَوْ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلِبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بِدَاوَةً وَاعْتَبِرَ هَذَا فِي الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتِهِ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتُهُ أَبَدَى مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوْحُّشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلِبُوا عَلَى زَنَاتِهِ أَوَّلًا وَاسْتَبَعَوْهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبِدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ ذَلِكَ الصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلِبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لانهم
وهذا لما قدمناه من ان كل امر تحمل عليه الكفاة فلا بد له من العصبية وفي
الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في
الانبياء وهم اولى الناس بخزق العوائد فما ظنك بغيرهم ان لا تخزق له العادة في
الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين
في التصوف ناز بالاندلس داعيا الى الحق وسمي اصحابه بالمرابطين قبيل دعوة
المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من امر الموحدين ولم تكن
هناك عصابات ولا قبائل يدفعونه عن شانه فلم يلبث حين استولى الموحدون على
المغرب ان اذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بخص اركش وامكنهم
من تغره وكان اول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين
ومن هذا الباب احوال الثوار القامين بتغيير المنكر من العلماء والفقهاء فان كثيرا
من المتخيلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على اهل الجور من
الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء في الثواب
عليه من الله فيكثر اتباعهم والمثلثون بهم من الغوغاء والدماء ويعرضون انفسهم
في ذلك للمهلك واكثرهم يهلكون في هذا السبيل ما زورين غير ما جورين لان
الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى
الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فليسانه فان لم
يستطع فليقله واحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا
المطالبة القوية التي من وراءها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان
حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصابات وهم
المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه انما أجرى الامور على مستقر العادة
والله حكيم عليم فاذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به
الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك واما ان كان من المتلبيين بذلك في

طَلَبَ الرِّئَاسَةَ فَاجْدَرُ أَنْ تَعُوْقَهُ الْعَوَانِقُ وَتَنْقَطِعَ بِهِ أَلْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمَرُ اللَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا
 بِرِضَاهُ وَإِعَاتِيهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ وَالنَّصِيحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ
 فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ أَبْتَدَاءِ هَذِهِ الزَّرْعَةِ فِي أَلَمَةِ بَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ
 وَقَتْلُ الْأَمِينِ وَأَبْطَأَ الدَّامُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مُقَدِّمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهْدَ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى
 الرَّضَى مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ النَّكِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ
 وَخَلَعَ طَاعَةَ الدَّامُونِ وَالْأَسْتِبدَالِ مِنْهُ وَبُويعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْهَرَجُ
 بِبَغْدَادَ وَأُظْلِمَتْ أَيْدِي الزَّرْعَةِ بِهَا مِنَ الشُّطَارِ وَالْحَرَبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَاقِبَةِ وَالصَّوْنِ
 وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَأَمْتَلَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِهَابِ النَّاسِ وَبَاعُوهَا عِلَاقِيَّةً فِي الْأَسْوَاقِ وَاسْتَعْدَى
 أَهْلُهَا الْحَكَمَ فَلَمْ يَعْدُوهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفُسَّاقِ وَكَفِّ
 عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّرْيُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
 وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَاجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزَّرْعَةِ فَعَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ
 بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ
 ابْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ وَيَكْنَى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمِنْ دُونِهِمْ وَنَزَلَ قَصْرَ
 طَاهِرٍ وَاتَّخَذَ الدِّيْوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَمَنَعَ الْخِفَارَةَ
 لِأُولَئِكَ الشُّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدُّرْيُوسُ أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لَكِنِّي
 أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَتْ مِنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةً إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ
 وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَعَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا
 بِنَفْسِهِ ثُمَّ اقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسَّسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ
 وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغْبَةِ أَمْرِهِ وَمَا لِ
 أَحْوَالِهِمْ وَالَّذِي يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ إِمَّا الْمَدَاوَةَ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنُونِ وَإِمَّا
 التَّنْكِيلَ بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةَ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدَهُمْ
 مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ
 لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُتَنَحِّلِينَ لِمِثْلِ هَذَا

تَجِدُهُمْ مُوسِسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَسِّينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةً أَمَتَاتٍ
بِهَا جَوَانِحُهُمْ وَعَجَزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَذَا
مِنْ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنْ
الْهَلَكَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُعَدُّونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسْوُهُ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ وَقَدْ كَانَ
لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ خَرَجَ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التُّوبْذَرِيُّ عَمِدًا إِلَى
مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنتَظَرُ تَلَمِيسًا عَلَى الْعَامَّةِ هُنَاكَ
بِمَا مَلَأُوا بِهِمْ مِنْ أَحَدَثَانِ بَانْتِظَارِهِ هُنَاكَ وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ
فَتَهَافَتَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَّةِ الْبَرْبَرِ تَهَافَتَ الْفَرَّاشِ ثُمَّ خَشِيَ رُؤُسَاوَهُمْ اتَّسَاعَ
نِطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَامِدَةِ يَوْمَئِذٍ عُمَرُ السَّكْسِيوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ فِي
فَرَاشِهِ وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارِهِ أَيْضًا لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ
وَأَدْعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الْأَرْدَلُونَ مِنْ سَفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ
وَزَحَنَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عُنُودُهُ ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظُهُورِ
دَعْوَتِهِ وَمَضَى فِي أَهْلَاكِيَنِ الْأَوَّلِينَ وَأَمَثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالْغَلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ
عَنِ اعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلَامِيسُ فَأَحْرَى أَنْ لَا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنَّ
يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبَ غَيْرُهُ
وَلَا مَعْبُودَ سِوَهُ

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والاطوان لا تزيد عليها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عِصَابَةَ الدَّوْلَةِ وَقَوْمَهَا الْقَائِمِينَ بِهَا الْمُمَهَّدِينَ لَهَا لَا بُدَّ مِنْ
تَوْزِيْعِهِمْ حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالتَّغُورِ الَّتِي تُصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا لِحِمَايَتِهَا مِنْ
الْعُدُوِّ وَإِمْضَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جِبَايَةٍ وَرَدْعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا تَوَزَّعَتِ الْعِصَابُ
كُلُّهَا عَلَى التَّغُورِ وَالْمَمَالِكِ فَلَا بُدَّ مِنْ نِفَادِ عَدْدِهَا وَقَدْ بَلَغَتْ الْمَمَالِكُ حَيْثُ يُدْ إِلَى
حَدٍّ يَكُونُ تَعَرُّاَ لِلدَّوْلَةِ وَتَحْمَاَ لَوْطِنِهَا وَنِطَاقًا لِمَرْكَزِ مَلِكِهَا فَإِنْ تَكَفَّلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ
ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وَكَانَ مَوْضِعًا لَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعُدُوِّ
وَالْمَجَاوِرِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ الْهَيْبَةِ

وَمَا كَانَتْ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدْ عَدُّهَا فِي تَوَزُّعِ الْخِصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِي
بَقِيَ فِي الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَالْعِلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ
فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَنْعَالِ
فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الطَّرَفِ وَالنِّطَاقِ وَإِذَا
انْتَهَتْ إِلَى النِّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ عَجَزَتْ وَاقْصُرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنُ الْأَشْعَةِ وَالْأَنْوَارِ
إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَائِزِ وَالِدَوَائِرِ الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النَّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضُّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي التَّنَاقُصِ مِنْ جِبَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ
مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْأَمْرِ جُمْلَةً فَيُنَبِّذُ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ
وَإِذَا غَلَبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاؤُهَا الْأَطْرَافِ وَالنِّطَاقِ بَلْ تَقْصَحِلُ لَوْفَتِهَا
فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي تَتَّبِعُ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غَلَبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلَكَ أَنْهَزَ جَمِيعُ
الْأَطْرَافِ وَانْظُرْ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنُ فَلَمَّا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ
عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعٍ وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجُرْدَ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَطْرَافِ
مَمْلُوكَةٍ وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَغَلِبَهُمُ
الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ تَحَبَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ
أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ وَانْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ
الْعَرَبِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ
الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِاسْرِعِ وَقْتُ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبْشَةِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ وَنَزَلُوا
حَامِيَةً وَنَفَدَ عَدَدُهُمْ فِي تِلْكَ التَّوَزُّعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدَ وَانْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ
وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْخُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ
حَالُ الدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ وَعِنْدَ
نَفَادِ عَدَدِهِمُ بِالتَّوَزُّعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْإِسْتِيلَاءُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها
في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّةِ هُمُ الْحَامِيَةُ الَّذِينَ
يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهِمَا فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ قَبِيلَهَا
وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكِ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذَلِكَ
واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما آتت الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد
المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة
آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة
فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح
جمي فارس وأرثوم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم والتürk بالمشرق
والأفريقية والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى
ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الأقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك
دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم لما كان كتمانهم القائمين بدولة العبيديين
أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا أفريقية والمغرب
والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة
قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم
ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزنانة بني مرين وبني عبد الواد كانت
دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى . يقال إن
عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وإن بني عبد الواد كانوا ألفاً إلا
أن الدولة بالرّفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في أعداد
الممثلين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك
النسبة لأن عمر الحداث من قوة مزاجه ومزاج الدول إنما هو بالعصبة فإذا كانت
العصبة قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً والعصبة إنما هي بكثرة
العدد وقوته كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدو في الدولة من

الْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ
 نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَرْزَامُنِ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ وَاخْتِصَاصِ
 كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدُّوَلِ لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ
 وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ
 الْهَجْرَةِ وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَهْبَاجَةَ
 دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مَعْزِ الدُّوَلَةِ أَمْرًا فَرِيقِيَّةً لِبَنِي كَيْنَ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ
 وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ اسْتِنْيَالِ الْمُوحِدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِجَابَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ
 وَدَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَازَلَتْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَذَا كَذَا نَسَبُ الدُّوَلِ فِي
 أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا سَنَةِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة
 والسبب في ذلك اخلاف الازاء والاهواء وان وراء كل رأي منها وهوى
 عصبية تمنع دونهما فيكثُر الالتفاض دلى الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن
 كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تطعن في نفسها منعة وقوة وانظر
 ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد فإن ساكن هذه
 الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لأن
 أبي سرح عليهم وعلى الإفريقية شيئًا وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد
 أخرى وعظم الاثنان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة
 والخروج والاختذ بيد الخوارج رأت عديدة قال ابن أبي زيد أزدت البرابرة
 بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعبد ولاية موسى
 بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة
 إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والاعتقاد ولم
 يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام إنما كانت حاميتهما من فارس
 والروم والكافة دهما أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون على الأمر وأنزعوهم
 من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن

تُحْصَى وَكُلُّهُمْ بَادِيَةٌ وَأَهْلُ عَصَائِبَ وَعَشَائِرَ وَكُلَّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ عَادَتْ الْأُخْرَى
مَكَانَهَا وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرِّدَّةِ فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوُطْنِ
أَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِ مِنْ قَبَائِلِ
فَلَسْطِينٍ وَكَمْعَانَ وَبَنِي عِيصُو وَبَنِي مَدْيَنَ وَبَنِي لُوطٍ وَالرُّومَ وَالْيُونَانَ وَالْعِمَالِقَةَ وَكَرِيكَشَ
وَالنَّبْطَ مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ مَا لَا يُحْصَى كَثَرَةً وَتَنَوُّعًا فِي الْعَصَبِيَّةِ فَصَعِبَ عَلَى
بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِمْ وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ وَأَضْطَرَبَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى
وَسَرَى ذَلِكَ الْخِلَافُ إِتِّهَمُوا فَاخْتَلَفُوا عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَلِكٌ
مُوطَّدٌ سَائِرًا يَا مَعْ إِلَى أَنْ غَلَبَهُمُ الْفَرَسُ ثُمَّ يُونَانُ ثُمَّ الرُّومُ آخِرُ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَبَعَكَسَ هَذَا أَيْضًا الْأَوْطَانُ اخْتَالِيَةً مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيدُ
الدَّوْلَةِ فِيهَا وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعًا لِقِلَّةِ الْهَرَجِ وَالْاِتِّفَاقِ وَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ فِيهَا إِلَى
كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ إِذْ هِيَ خُلُوٌّ مِنَ الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَبِيَّاتِ كَانَ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ مَعْدِنًا لَهُمْ كَمَا فَلَنَاهُ مُلْكُ مِصْرَ فِي غَايَةِ الدَّعَةِ وَالْبُرْسُوحِ
لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَهْلُ الْعَصَائِبِ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التَّرِكِ
وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَنْتَقِلُ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ مَنْبِتٍ إِلَى مَنْبِتٍ
وَالْخِلَافَةُ مُسَمَّاةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ وَكَذَلِكَ الشَّانُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ
عَصَبِيَّةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ سُلْطَانِهَا لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقُوَّةٍ وَلَا كَانَتْ كَرَاتٍ إِنَّمَا يَكُونُ
أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ يَقْوَا مِنْ ذَلِكَ الْقِلَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ
الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ وَمَلَكَهُمْ الْبُزْزُرُ مِنْ لِمَتُونَةٍ وَالْمُوحِدِينَ
سَمَّوْا مِلَكْتَهُمْ وَنَقَلَتْ وَطَانَتَهُمْ عَلَيْهِمْ فَأَشْرَبَتْ الْقُلُوبُ بَغْضَاءَهُمْ وَأَمَكْنَ الْمُوَحِّدُونَ
وَالسَّادَةُ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ كَثِيرًا مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ فِي سَبِيلِ الْأَسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى شَأْنِهِمْ
مِنْ تَمْلِكِ الْخَصْرَةِ مَرَاكِشَ فَأَجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مَعَادِنُ
مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمُ الْمَنْبِتُ عَنِ الْحَاضِرَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَرَسَّخُوا فِي
الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُوْدٍ وَابْنِ الْأَحْمَرِ وَابْنِ مَرْدَنَشَ وَأَمْثَالِهِمْ فَقَامَ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ
وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ
فَنَبَذُوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَآخَرَجُوهُمْ وَاسْتَقَالَ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ سَمَّا ابْنُ

الْأَحْمَرِ لِلْأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنُ هُوْدٍ فِي دَعْوَتِهِ قَدْعَا هُوْلَاءِ لِابْنِ أَبِي حَنْصٍ صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةٍ
 مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَقَامَ بِالْأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعَصَابَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَدُّونَ الرُّؤْسَاءَ وَلَمْ
 يَحْتَجْ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ وَإِنَّمَا سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ
 ذَلِكَ عَلَى الطَّائِفَةِ بِمَنْ يُعِزُّ إِلَيْهِ الْبَحْرُ مِنْ أَعْيَاصِ زَنَانَةٍ فَصَارُوا مَعَهُ عَصَبَةً عَلَى
 الْمُتَاغَرَةِ وَالرُّيَاطِ ثُمَّ سَمَّا لِصَاحِبٍ مِنْ مُلُوكِ زَنَانَةٍ أَمَلٌ فِي الْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ
 فَصَارَ أَوَّلُكَ الْأَعْيَاصُ عَصَابَةُ ابْنِ الْأَحْمَرِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأْتَلَ
 أَمْرُهُ وَرَسَخَ وَأَلْفَتْهُ النَّفُوسُ وَعِزَّ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا تَظُنَّ
 أَنَّهُ يَغْيِرُ عَصَابَةَ فَلَبَسَ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَ مَبْدَأُهُ بِعَصَابَةٍ إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ وَعَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ
 فَإِنَّ فَطَرَ الْأَنْدَلُسِ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ يُغْنِي عَنْ كَثَرَةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي التَّغَلُّبِ
 عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالجد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ كَمَا قَدَّمَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عَصَبَاتٍ
 كَثِيرَةٍ تَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْآخَرَى كُلُّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصِيرَهَا
 جَمِيعًا فِي ضِمْنِهَا وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْأَجْمَاعُ وَالْغَلْبُ عَلَى النَّاسِ وَالْأُولُ وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ
 الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمَزَاجِ لِلْمَتَكُونِ وَالْمَزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعُنَاصِرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ
 فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعُنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مِتْكَافَةً فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مَزَاجٌ أَصْلًا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ
 أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا وَتُوَلِّفَهَا وَتُصِيرَهَا عَصَبِيَّةً
 وَاحِدَةً شَامِلَةً لْجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا وَتِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا
 تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلُ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا
 عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لِغَلْبِ مَبْنِئِهِ لْجَمِيعِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَذَلِكَ فَرْنَ الطَّيِّعَةِ
 الْحَيَوَانِيَّةِ خَلْقُ الْكَبِيرِ وَالْإِنْفَةِ فَيَأْتِي حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِتْبَاعِهِمْ
 وَالتَّحْكُمِ فِيهِمْ وَيَجِيئُ خَلْقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ
 انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَامِ لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتْ
 فَتَجْدَعُ حِينَئِذٍ أَنْوْفُ الْعَصَبِيَّاتِ وَتَفْلَحُ شَكَائُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحْكُمِ

وَأُفْرِعُ عَصِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَتَفَرَّدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَبْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَافَةَ وَلَا حِمْلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْحُجْدُ بِكَلْبَتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَعَةِ الْعَصِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدَّوْلَةِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِيَدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوِزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرَفَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِنِلكِ النَوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَزْعُمُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رَفَّةِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْأَنْرُشِ وَالْأَنِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيَتَفَاخَرُونَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَنُسِ الْأَنِيَةِ وَرُكُوبِ الْفَارِهِ وَبِنَاغِي خَلْفِهِمْ فِي ذَلِكَ سَلَفُهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدَرِ مَلَكَتِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَابَلَةِ وَالْمُطَابَلَةِ غَايَتُهَا الْعَلْبُ وَالْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتْ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنْ الْمَتَاعِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَانْثَرُوا الرِّاحَةَ وَالشُّكُونَ وَالِدَّةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الْأَرْيَاضَ وَيَسْتَمْتَعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَيُؤْنَسُونَ الرِّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْأَنِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْبَاهِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إِلَى أَنْ يَتَذَكَّرَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة

اقبلت الدولة على الهرم

وَيَبْأَنَّهُ مِنْ وَجْهِهِ . الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي الْإِنْفِرَادَ بِالْمَجْدِ كَمَا قُلْنَا هُما كَانِ
الْمَجْدُ مُشْتَرِكًا بَيْنَ الْعَصَابَةِ وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَّتُهُمْ فِي التَّغْلِبِ عَلَى الْغَيْرِ
وَالذَّبِّ عَنِ الْخَوَازِيرِ أَسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَاكِمِهَا وَزَمَانُهَا إِلَى الْعَزِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيعُونَ
الْمَوْتَ فِي بِنَاءِ بَيْتِهِمْ وَيُؤْتِرُونَ أَهْلَهُمْ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ
فَرَحَّ عَصَبَتُهُمْ وَكَبَّحَ مِنْ أَعْتَبَتِهِمْ وَأَسْتَأْثَرَ بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَكَاسَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَفَسَلَ
رُبُّهُمْ وَزَيْمُوا الْمَدَلَّةَ وَالْإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِّي الْجِيلُ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ
مِنَ الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَيْسَ عَنْ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقُلُّ
أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذَلِكَ وَهْنًا فِي الدَّوْلَةِ وَخَضًا مِنَ الشُّوْكَةِ
وَنَقِيلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِفَسَادِ الْعَصْبَةِ بِذَهَابِ الْبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا . وَالْوَجْهُ
الثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَلِكِ تَقْتَضِي التَّرَفَّ كَمَا قَدْ مَنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتِهِمْ
عَلَى أُعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَنِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَالْمُتَرَفُّ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ
بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمُ الْمَتَأَخَّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ
وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسُّهُمْ الْحَاجَةُ وَتَطْلُبُهُمْ مَلُوكُهُمْ بِمَحْصَرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الْغَزْوِ وَالْخَرْوبِ فَلَا
يَجِدُونَ وَلِجَةً عَنْهَا يَفُوقُونَ بِهِمُ الْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ
بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْتِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذَلِكَ عَنِ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ
وَيُضْعِفُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بَعْضُهُمْ وَابْتِغَاءً إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ
مُقْصَرًا عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ . أَحْتَاجُ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ
فِي أُعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلْلَهُمْ وَيُزِيحَ عَلَيْهِمُ وَالْجَبَايَةَ مَقْدَارَهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا
تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ الْمَكُوسِ فَيَصِيرُ مَقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُودًا
فَإِذَا وَزَعَتْ الْجَبَايَةُ عَلَى الْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا الزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ
تَرْفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ تَقْصُرُ عَدَدُ الْحِمَايَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يَعْظُمُ التَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الْأَعْطِيَاتِ لَذَلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى
أَنْ يَعُودَ الْعَسْكَرُ إِلَى أَقَلِّ الْأَعْدَادِ فَتُضَعَّفُ الْحِمَايَةُ لَذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَيَتَجَسَّرُ
عَلَيْهَا مَنْ يَجَاوِزُهَا مِنَ الدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ اللَّهُ
فِيهَا بِالْإِفْنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلْقَتِهِ وَأَيْضًا فَالتَّرَفُ مُنْسِدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ
الْوَانِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ الْحِصَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالَ
الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عِلَامَةً عَلَى الْمَلِكِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَبِتَصْفُونُ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلَالَ الشَّرِّ
فَيَكُونُ عِلَامَةً عَلَى الْإِدْبَارِ وَالْإِقْرَاضِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلْقَتِهِ وَتَأْخُذُ
الدَّوْلَةُ مَبَادِي الْعَطَبِ وَتَتَضَعَّضُ أَحْوَالُهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضُ مُزْمِنَةٍ مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ
يُقْضَى عَلَيْهَا. الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَلِكِ تَقْتَضِي الدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِذَا اتَّخَذُوا
الدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ مَا لَفْنَا وَخَلَقْنَا صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِيلَةً شَأْنُ الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِذَا لَفَيْنَا
فَقَرَّبَنِي أَجْيَالَهُمْ الْخَادِنَةُ فِي غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ وَبِنَقْلِ خُلُقِ التَّوَحُّشِ
وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْمَلِكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعُودُ الْإِفْتِرَاسِ وَرُكُوبِ
الْبَيْدَاءِ وَهِدَايَةِ الْقَفْرِ فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّوقَةِ مِنَ الْخَصْرِ إِلَّا فِي التَّقَافَةِ وَالشَّارَةِ
فَتُضَعَّفُ حِمَايَتُهُمْ وَيَذْهَبُ بِأَسْمِهِمْ وَتَنْخَضُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا
تُلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ الْهَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ التَّرَفِ وَالْحِصَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالدَّعَةِ
وَرَقَّةِ الْحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْزَانِهِمْ وَيَتَغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ
وَالْحَشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا وَيَنْسَوْنَ خُلُقَ الْبَسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ
حَتَّى يَعُودُوا عِيَالًا عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي أَخْبَارُهَا
فِي الصُّحُبِ لَدَيْكَ تَجِدُ مَا قُلْنَاهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحًا مِنْ غَيْرِ رَيْبَةٍ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ فِي الدَّوْلَةِ
إِذَا طَرَفًا هَذَا الْهَرَمُ بِالْتَّرَفِ وَالرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَارًا وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ
جَلَدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعُودُ الْحَشُونَةُ فَيَتَّخِذُهُمْ جُنْدًا يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَقْدَرُ عَلَى مُعَانَاةِ
الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُمُوعِ وَالشُّطَطِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي عَسَاهُ أَنْ
يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِ هَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ غَالِبَ
جُنْدِهَا الْمَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْمَمَالِكِ الَّتِي جُلُوبُ بَيْنَ إِلَيْهِمْ فُرْسَانًا
وَجُنْدًا فَيَكُونُونَ أَجْرًا عَلَى الْحَرْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى الشُّطَطِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِكِ الَّذِينَ

كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُّوا فِي مَاءِ الْذَمِّ وَالسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ
فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَانَةٍ وَالْعَرَبِ وَبَسْتَكْثُرُ مِنْهُمْ وَيَبْرُكُ أَهْلُ
الدَّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتُسْتَجِدُّ الدَّوْلَةُ بِذَلِكَ عُمَرًا آخَرَ سَالِمًا مِنَ الْهَرَمِ وَاللَّهِ
وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

اعْلَمْ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَّاءُ وَالْمُتَجَمِّعُونَ مِائَةً وَعِشْرُونَ
سَنَةً وَهِيَ سِنُو الْعُمَرِ الْكُبْرَى عِنْدَ الْمُتَجَمِّعِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمَرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ
الْقِرَآنَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَآنَاتِ مِائَةً تَامَةً
وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا نَقَّضِيهِ أَدِلَّةُ الْقِرَآنَاتِ عِنْدَ النََّاظِرِينَ فِيهَا
وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمَلَّةِ مَا بَيْنَ السَّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمَرِ
الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنْ
الْفَلَكَ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٌ مِنْ قَوْمٍ عَادَ وَتَمُودُ وَأَمَّا أَعْمَارُ
الدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَآنَاتِ إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُو
أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمَرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمَرِ الْوَسْطِ فَيَكُونُ
أَرْبَعِينَ الَّذِي هُوَ أَتْنَاهُ النُّمُوُّ وَالنُّشُوءُ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمَرُ الْجِيلِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ
فِي حِكْمَةِ التَّبَيُّهِ الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ
الْأَحْيَاءِ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا الدَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ عَلَى اعْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي
عُمَرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمَرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الدَّوْلَةِ لَا يَعْدُو فِي الْغَالِبِ
ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ وَخَشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ
شَغَفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالْإِسْتِرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيدَةِ
مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي
تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالتَّرَفِ مِنَ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ وَمِنْ الشَّغَفِ إِلَى التَّرَفِ
وَالْخِصْبِ وَمِنْ الْإِسْتِرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنْ

السَّعْيِ فِيهِ وَمِنْ عَزِّ الْأَسْطِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْأَسْتِكَانَةِ فَتَنَكَبِرُ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ بَعْضُ
الشَّيْءِ وَأَوْتَأَسُ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ بَمَا أَدْرَكُوا الْحِيلَ
الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَهِدُوا أَعْيَازَهُمْ وَسَعِيَهُمْ إِلَى الْحِجْدِ وَرَأَيْتُهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ
وَالْحَيَاةِ فَلَا يَسْعَهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكَلِمَةِ وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ
مِنْ مُرَاجَعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلْحِيلِ الْأَوَّلِ أَوْ عَلَى ظَنٍّ مِنْ وَجُودِهَا فِيهِمْ وَأَمَّا
الْحِيلُ الثَّلَاثُ فَيَنْسَوْنَ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْخَشُونَةَ كَأَن لَمْ تَكُنْ وَيَقْدُونَ حَلَاوَةَ الْعِزِّ
وَالْعَصِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكََةِ الْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمْ التَّرَفُّ غَايَتُهُ بِمَا تَبَقَّوهُ مِنَ النِّعَمِ
وَعُضَارَةِ الْعَيْشِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوُلَدَانِ الْمُحْتَاجِينَ
لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْقُطُ الْعَصِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ وَيَسْرُنَ الْحَيَاةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ
وَيَلْسِنُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالزَّرِي وَرُكُوبِ الْحِيلِ وَحُسْنِ الثَّقَافَةِ يُمَوِّهُونَ بِهَا وَهُمْ
فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ النَّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا
مُدَافَعَتَهُ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَسْتَظْهَارِ بِسَوَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعَجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ
بِالْمَوَالِي وَيَصْطَنِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْغِنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا فَتَذْهَبُ
الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ فَهَذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةُ أَجْيَالٍ فِيهَا يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخْلُفُهَا
وَلِهَذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسَبِ فِي الْحِيلِ الرَّابِعِ كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْعَجْدَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ
أَرْبَعَةُ آبَاءَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ فِيهِ بِزَهَانٍ طَبِيعِيٍّ كَافٍ ظَاهِرٍ مَبْنِيٍّ عَلَى مَا مَهَّدَاهُ قَبْلَ مِنْ
الْمُقَدِّمَاتِ فَتَأَمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُو وَجْهَ الْحَقِّ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَهَذِهِ الْأَجْيَالُ
الْثَلَاثَةُ عُمُرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَآرٍ وَلَا تَعْدُو الدَّوْلُ فِي الْغَالِبِ هَذَا الْعُمُرُ بِتَقْرِيبٍ
قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلَّا أَنْ عَرِضَ لَهَا عَارِضٌ آخَرُ مِنْ فَقْدَانِ الْمُطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلًا
مُسْتَوِلًا وَالطَّالِبُ لَمْ يَحْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ جَاءَ الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَافِعًا فَإِذَا جَاءَ أَجَاهُ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ فِهَذَا الْعُمُرُ لِلدَّوْلَةِ بِمِثَابَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّزْيِدِ
إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى سِنِّ الرُّجُوعِ وَلِهَذَا يَجْرِي عَلَى السَّنَةِ النَّاسُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ
عُمُرَ الدَّوْلَةِ مِائَةٌ سَنَةً وَهَذَا مَعْنَاهُ فَأَعْيَنَهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ الْأَبَاءِ فِي
عُمُودِ النَّسَبِ الَّذِي تُرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السَّنِينَ الْمَاضِيَةِ إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبْتَ فِي
عَدَدِهِمْ وَكَانَتْ السَّنُونَ الْمَاضِيَةُ مِنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ فَعَدِّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السَّنِينَ

ثَلَاثَةً مِنَ الْأَبَاءِ فَإِنْ تَقَدَّتْ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَبُهِتَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ
بِجِلٍّ فَقَدْ غَلِطَ عَدَدُهُمْ بِنِ يَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ
وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدُ السِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَاً لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدَهُ فِي الْغَالِبِ
صَحِيحاً وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

إِعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمَلِكُ إِنَّمَا هُوَ
بِالْعَصْدِيَّةِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِباً إِلَّا مَعَ
الْبَدَاوَةِ فَطَوْرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمَلِكُ تَبَعُهُ الرَّفَّةُ وَاتَّسَاعُ الْأَحْوَالِ
وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَقَنُّنٌ فِي التَّرْفِ وَإِحْكَامُ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ
مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ
فَالِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّنَاقُ فِيهِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضاً
وَيَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنَزَّعَ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالتَّعَمُّرِ بِأَحْوَالِ
التَّرْفِ وَمَا لِيَتَلَوَّنَ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ الْحَضَارَةِ فِي الْمَلِكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبَدَاوَةِ
ضُرُورَةً لِمُضْرُورَةٍ تَبَعِيَّةٍ لِرَفَّةِ الْمَلِكِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ أَبَدًا يُقْلِدُونَ فِي طَوْرِ الْحَضَارَةِ
وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ بِأَخْذُونَ وَمِثْلُ هَذَا
وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ أَلْفَتْحَ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَحْدَمُوا بَنَانَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ
يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ فَقَدْ حَكَمِي أَنَّهُ قَدْ مَ لَمْ الْمُرْفَقُ فَكَانُوا
يُحْسِبُونَهُ رِقَاءً وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجَبِهِمْ مِثْلًا وَمِثَالُ
ذَلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُ فِي مِهْنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ
وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمُهَرَّةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ
عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّنْفِيزِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّنْفِيزِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَّغُوا الْغَايَةَ
فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرْفِ فِي الْأَحْوَالِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ
وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسَاحَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُودِ وَالْخُرْنِيِّ وَكَذَلِكَ
أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَايِمِ وَلِيَالِي الْأَعْرَاسِ فَأَتَوْا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ وَأَنْظَرُ

مَا نَقَلَهُ الْمُسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَغْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ
 بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَدَلَ أَبُوهُمَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خُطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِفَمِ الصُّلْحِ
 وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّنِينَ وَمَا أَتَقَى فِي أَمَلَا كَيْهَا وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ وَأَتَقَى فِي عَرْسِهَا
 نَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْحَجَبِ فَتَنَّهُ أَنْ الْحُسَيْنَ بْنِ سَهْلٍ نَثَرَ يَوْمَ الْأَمَلَاكِ فِي الصَّنِيعِ الَّذِي
 حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ فَتَنَرَ عَلَى الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ بِنَادِقِ الدِّسَكِ مَأْثُوثَةً ذَلِكَ
 الرَّقَاعَ بِالضَّبَاعِ وَالْعَقَارِ مُسَوِّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَقَعُ إِكْلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا
 آدَاهُ إِلَيْهِ الْإِتِفَاقُ وَالْبَحْثُ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بَدْرَ الدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةٌ
 آلَافٍ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ بَدْرَ الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَتَقَى عَلَى مَقَامَةِ الْمَأْمُونِ
 بِدَارِهِ اضْعَافَ ذَلِكَ وَمَنْهُ أَنَّ الْمَأْمُونُ أَعْطَاهَا فِي مُهْرَهَا لَيْلَةً زَفَافِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنْ
 الْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شُمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةً مِنْ وَهُوَ رَطْلٌ وَثَلَاثُونَ ^(١)
 وَبَسَطَ لَهَا فُرْشًا كَانَ الْخَصِيرُ مِنْهَا مَسْجُوجًا بِالذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِاللُّدْرِ وَالْيَاقُوتِ وَقَالَ
 الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ قَاتِلَ اللَّهِ أَبَا نَوَاسٍ كَأَنَّهُ أَبْعَرَهُ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صَنِيعِ الْخَمْرِ
 كَانَ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبَخِ مِنَ الْخُطْبِ لِلَّيْلَةِ الْوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةِ رَأْسَيْنِ بَقْلًا مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ
 ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَنِي الْخُطْبَ لِيَمَاتَيْنِ وَأَوْقَدُوا الْجُرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ
 وَأَوْعَزَ إِلَى النُّوَاتِيَةِ بِإِحْضَارِ السُّنَنِ لِإِجَازَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ بِدِجَلَةٍ مِنْ بَعْدَادَ إِلَى
 قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ الْحَرَاقَاتُ ^(٢) الْمَعْدَةُ لِذَلِكَ
 ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أُخْرِيَاتِ مَهَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَكَذَلِكَ عَرَسَ
 الْمَأْمُونُ بْنُ ذِي النُّونِ بِطُلَيْطَلَةَ نَقَلَهُ ابْنُ سَامٍ فِي كِتَابِ الذَّخِيرَةِ وَأَبْنُ حَيَّانَ بَعْدَ أَنْ
 كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ جُمْلَةً لِفَقْدَانِ أَسْبَابِهِ
 وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ وَسَدَاجَتِهِمْ يُذَكِّرُ أَبَّ الْحَجَّاجِ أَوَّلًا فِي اخْتِنَانِ
 بَعْضٍ وَلَدِهِ فَاسْتَحْضَرَ بَعْضُ الدَّهَاقِينِ يَسْأَلُهُ عَنْ وَلَائِمِ الْفَرَسِ وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ
 صَنِيعٍ شَهِدْتُهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَاذِبِهِ كِسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ

(١) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة البونسية لئذان

(٢) الحرقاوات بالفتح جع حرقاة سفينة فيها مراعي نار برمي بها العدو اه مختار

فَارْسَ صَنِيعاً أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ الذَّهَبِ عَلَى اخْوَتَةِ الْفِضَّةِ أَرْبَعاً عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمِلُهُ
 أَرْبَعُ وَصَائِفَ وَيَحْمِلُسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا طَعِمُوا أَتَمِعُوا أَرْبَعَتَهُمُ الْمَائِدَةَ
 بِصِحَافِهَا وَوُصَفَائِهَا فَقَالَ الْحَجَّاجُ يَا غُلَامُ انْخَرِ الْخُزْرَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ
 بِهَذِهِ الْأُيُوبَةِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أُعْطِيَهُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ
 أَكْثَرُهَا إِلَّا إِلَى أَخْذِ إِمْدَادِ الْعَرَبِ وَبِدَاوَتِهِمْ ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
 وَالْعَبِيدِيَّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتُ مِنْ أَحْمَالِ الْمَالِ وَتَحْتَ الثِّيَابِ وَإِعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَاكِبِهَا
 وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ كُتَامَةِ مَعَ الْأَغَالِيَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَكَذَا بَنِي طَفَّحٍ بِمِصْرَ وَشَأْنُ لِمَتُونَةَ
 مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوحِدِينَ كَذَلِكَ وَشَأْنُ زَنَانَةَ مَعَ الْمُوحِدِينَ وَهَلُمَّ
 جَرّاً تَنْتَقِلُ الْحِضَارَةُ مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدُّوَلِ الْخَالِفَةِ فَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ الْفُرْسِ لِلْعَرَبِ
 بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ
 الْمُوحِدِينَ وَزَنَانَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ثُمَّ
 إِلَى السَّجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ الْمَمَالِكِ بِمِصْرَ وَالتُّرْكِ بِالْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى قَدَرِ عِظَمِ الدَّوْلَةِ
 يَكُونُ شَأْنُهَا فِي الْحِضَارَةِ إِذَا أُمُورُ الْحِضَارَةِ مِنْ تَوَاعِيحِ التَّرْفِ وَالتَّرْفِ مِنْ تَوَاعِيحِ
 الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةُ مِنْ تَوَاعِيحِ الْمَلِكِ وَمِقْدَارُ مَا يَسْتَوِلِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ
 فَعَلَى نِسْبَةِ الْمَلِكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَاعْتَبَرَهُ وَتَفَقَّهَهُ وَتَأَمَّلَهُ تَجِدُهُ صَحِيحاً فِي الْعُمُرَانِ
 وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَلِكُ وَالتَّرْفُ كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ
 وَالْعُمُومِيَّةُ فَكَثُرَتِ الْعَصَابَةُ وَاسْتَكْتَرُوا أَيْضاً مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَرَبَّيْتَ أَجْيَالَهُمْ
 فِي جَوْ ذَلِكَ النِّعَمِ وَالرَّفَةِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَداً إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ
 كَثَرَةِ الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ الْعَدَدُ فَإِذَا ذَهَبَ الْجَيْلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ
 فِي الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَغْلِ أُولَئِكَ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْيِيدِ
 مَلِكِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالاً عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا
 ذَهَبَ الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَغْلِ الْفَرْعُ بِالرُّسُوخِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلَاشَى وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا

مِنَ الْقُوَّةِ وَاعْتَبَرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْأَسْلَامِ كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا
لِعَهْدِ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يَقَارِبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَفَخْطَانٍ وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُّ
مِبَالِغُهُ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نِعْمُهُمْ بِتَوْفُرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ
بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازِلَ عُمُورِيَّةٍ لَمَّا افْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ
أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا إِذَا اعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي الثُّغُورِ الدَّانِيَةِ
وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى أَجْنَدِ الْحَمَلِينَ سَرِيرِ الْمَلِكِ وَالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنِعِينَ وَقَالَ
السَّعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونِ لِإِلَاقَةِ تَفَاقٍ عَلَيْهِمْ
فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذِكْرَانٍ وَإِنَّا فَانْظُرْ مِبَالِغَ هَذَا الْعَدَدِ لِأَقَلِّ مِنْ مِائَتِي سَنَةٍ
وَأَعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ الرَّفَّةَ وَالنَّعِيمَ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِّي فِيهِ أَجْيَاهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ الْعَرَبِ
لِلْأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار
إِعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَقَلَّبُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ
بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ لِأَنَّ
الْخَلْقَ تَابَعَ بِالطَّبْعِ لِمَزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتِ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي
الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ. الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظُّفْرِ بِالْبُغْيَةِ وَغَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمُمَانِعِ
وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَلِكِ وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ أُسُوءَةُ قَوْمِهِ فِي
اِكْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجَبَابَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحُوزَةِ وَالْحِمَايَةِ لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ
لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْغَلْبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدَ مَحَالِهَا. الطَّوْرُ الثَّانِي
طَوْرُ الْإِسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَالْإِنْتِزَاعِ دُونَهُمْ بِالْمَلِكِ وَكِبْهِمُ عَنْ التَّطَوُّلِ الْمُسَاهَمَةِ
وَالْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ مَعْنِيًا بِأَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ وَاتِّخَاذِ
الْمَوَالِي وَالْعَمَلِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ لِحَدِّعِ أَنْوَافِ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَامِمِينَ
لَهُ فِي نِسْبَةِ الْأَصَارِبِينَ فِي الْمَلِكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يَدْفَعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ
مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى اعْتِمَادِهِمْ أَنْ يُخْلَصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يَقِرَّ الْأَمْرُ فِي نِصَابِهِ وَيَفْرِدَ أَهْلُ
بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ تَجْدِيدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

الْأَمْرَ أَوْ أَشَدَّ لَانَ الْأَوَّلِينَ دَافَعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهُرُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلَ
الْعَصِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهَذَا يُدَافِعُ الْأَقْرَبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ
الْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الْأَمْرِ . الطُّورُ الثَّلَاثُ طُورُ الْفَرَاغِ وَالِدَّةُ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ
الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طَبَاغُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الْأَنْثَارِ وَبَعْدَ الصِّيتِ
فَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَهُ فِي الْجَبَايَةِ وَضَبْطِ الدُّخْلِ وَالْخُرُجِ وَإِحْصَاءِ النِّقَاطِ وَالْقَصْدِ فِيهَا
وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَاذِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَمْصَارِ الْمُتَّسِعَةِ وَالْيَمَا كِلِ الْمُنْتَعَةِ
وَأَجَاةِ الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ وَبَثِّ الْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هَذَا مَعَ
التَّوَسُّعَةِ عَلَى صَنَاعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ وَنَجَاهِ وَأَعْتَاضِ جُنُودِهِ وَإِدْرَارِ
أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أُعْطَايَتِهِمْ بِكُلِّ هِلَالٍ حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَاسِيهِمْ
وَشُكْمِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ فَيَبْأِي بِهِمْ الدُّوَلُ الْمُسَالِمَةُ وَيَرْهَبُ الدُّوَلُ الْمُحَارِبَةُ
وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الْأَسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا
مُسْتَقْبِلُونَ بِأَرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ الطَّرِيقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ . الطُّورُ الرَّابِعُ طُورُ
الْقَنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا قَانِعًا بِمَا بَنَى أَوَّلُهُ سَلِمًا لِأَنْظَارِهِ
مِنَ الْمُلُوكِ وَاقْتِنَالِهِ مُقْلِدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَدَوُ النُّعْلِ بِالنُّعْلِ وَيَقْتَفِي
طَرَفَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَهِجِ الْاِقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فُسَادٌ أَمْرُهُ وَأَنَّهُمْ
أَبْصَرُ بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ . الطُّورُ الْخَامِسُ طُورُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبَذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ
الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفًا لِمَا جَمَعَ أَوَّلُهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالْكَرَمِ عَلَى
بَطَانَتِهِ وَفِي جَبَالِسِهِ وَاصْطِنَاعِ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضِرَاءِ الدِّمَنِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ
الَّتِي لَا يَسْتَقْبِلُونَ بِمَحَامِلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدَ الْكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ
مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ حَتَّى يَطْغَنُوا عَلَيْهِ وَيَتَخَذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضِيعًا مِنْ جُنْدِهِ
بِمَا اتَّفَقَ مِنْ أُعْطَايَتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَبَّبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مِبَاشَرَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ فَيَكُونُ خُزْنًا
لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هَذَا الطُّورِ تَحْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ
الْهَرَمِ وَيَسْتَوِلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمَزْمِنُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ
بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا بُيِّنَتْ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْرِدُهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْتَارَ إِنَّمَا تَخْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا وَعَلَى قَدَرِهَا
يَكُونُ الْأَثَرُ فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَهِيَ كَلِمَةُ الْعَظِيمَةِ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ
الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهُمَا لَا تَنِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ بِالتَّعَاوُنِ
فِيهِ فَإِذَا كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسَبِيحَةُ الْجَوَابِ كَثِيرَةٌ أَلَمَّا لَكَ وَالرَّعَايَا كَانَ الْفَعْلَةُ
كَثِيرِينَ جَدًّا وَحُشِرُوا مِنْ أَفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ لَا تَرَى
إِلَى مَصَانِعِ قَوْمٍ عَادٍ وَتَمُودَ وَمَا قَصَهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَانْظُرْ بِالْمُشَاهِدَةِ إِيَّوَانِ كِسْرَى
وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الْفَرَسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخَرَّبِيهِ فَتَمَكَّأَ عَنْهُ وَشَرَعَ
فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجُزُ وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى ابْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَانْظُرْ كَيْفَ
تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ الْهَدْمِ وَالْبِنَاءِ فِي السُّهُولةِ
تَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَانْظُرْ إِلَى بَلَاطِ الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمِيَّةٍ
بِقَرْطَبَةٍ وَالْقَنْظَرَةِ الَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْخَنَائِصِ لِجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَابَةَ فِيهِ
الْقَنَاةُ الرَّابِجَةُ عَلَيْهَا وَاتَّارُ شَرْشَالٍ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَهْرَامُ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَنْتَارِ
الْمَائِلَةِ لِلْعِيَانِ يَعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلَافُ الدُّوَلِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ
الْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهَيْئَةِ وَاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَةِ الْأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَلِكَ شَبِّدَتْ
تِلْكَ الْهَيَاكِلَ كُلَّ الْمَصَانِعِ وَلَا تَتَوَهَّمُ مَا تَتَوَهَّمُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ الْأَقْدَمِينَ
عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كَبِيرٌ بَوْنٌ كَمَا نَحْدُ بَيْنَ
الْهَيَاكِلِ وَالْأَنْتَارِ وَلَقَدْ رَاعِ الْقَصَاصُ بِذَلِكَ وَتَعَالَوْا فِيهِ وَسَطَرُوا عَنْ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ
فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِي الْكَذِبِ مِنْ أَغْرِبِهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ عَوْجِ بْنِ عِنَاقٍ ^(١) رَجُلٍ
مِنَ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَطُولُهُ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ
مِنَ الْبَحْرِ وَيُسَوِّهُ إِلَى الشَّمْسِ وَبِزَيْدُونَ إِلَى جَهَنَّمَ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ الْجَهْلِ بِأَحْوَالِ
الْكَوَاكِبِ لَمَّا اعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قُرْبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب المجيم دوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس

عنى بالذون قاله نصر الهوري

اِنَّ الْحَرَّ هُوَ الضَّوُّهٗ وَاِنَّ الضَّوُّهٗ فَيَمَّا قَرَبَ مِنَ الْاَرْضِ كَثُرَ لَانْعِكَاسِ الْاَشْعَةِ
 مِنْ سَطْحِ الْاَرْضِ بِمُقَابِلَةِ الْاَضْوَاءِ فَنَضَاعَفُ الْحَرَارَةُ هُنَا لِاجْلِ ذَلِكَ وَاِذَا تَجَاوَزَتْ
 مَطَارِحَ الْاَشْعَةِ الْمُنْعَكِسَةِ فَلَا حَرَّ هُنَاكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ تَجَارِي السَّحَابُ
 وَاَنَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَاِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِطٌ مُضِيٌّ لَا مَزَاجَ لَهُ
 وَكَذَلِكَ عُوجُ بَنِي عِنَاقٍ هُوَ فَيَمَّا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ اَوْ مِنَ الْكِنَعَانِيِّينَ الَّذِينَ
 كَانُوا فَرِيْسَةَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ النَّشَامَ وَاَطْوَالَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَجِسْمَانِهِمْ لِنَدَاكَ
 الْعَهْدِ قَرِيْبَةً مِنْ هِيَا كَلِمًا يَشْهَدُ لِنَدَاكَ اَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَاِنَّهَا وَاِنْ خُرِبَتْ
 وَجُدِدَتْ لَمْ تَزَلْ اَلْمُحَافَظَةُ عَلَى اَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ اَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ
 عُوجٍ وَبَيْنَ اَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَاِنَّمَا مَثَارُ غَلَطِهِمْ فِي هَذَا اَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا اَثَارَ
 الْاَلَمِّ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوْلِ فِي الْاَجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ
 الْاَثَارِ الْعَظِيْمَةِ فَصَرَفُوهُ اِلَى قُوَّةِ الْاَجْسَامِ وَشَدَّتْهَا بِعَظَمِ هِيَا كَلِمًا وَلَيْسَ الْاَمْرُ كَذَلِكَ
 وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُوْدِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلَاسِفَةِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ اِلَّا اَلْتَّحَكُّمُ وَهُوَ اَنَّ
 اَلطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جَبَلَةٌ لِلْاَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللهُ الْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ الْكُرَّةِ وَنِهَآيَةِ الْقُوَّةِ
 وَالْكَمَالِ وَكَانَتْ اَلْاَعْمَارُ اَطْوَلَ وَالْاَجْسَامُ اَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَاِنْ طَرُوءَ
 اَلْمَوْتِ اِنَّمَا هُوَ بِاَلْاَحْلَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ فَاِذَا كَانَتْ قُوَّةٌ كَانَتْ اَلْاَعَارُ اَزِيدَ فَكَانَ
 اَلْعَالَمُ فِي اَوَّلِيَّتِهِ تَشَاطُهُ تَامَ اَلْاَعْمَارُ كَامِلَ الْاَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنُقْصَانِ الْمَادَّةِ
 اِلَى اَنْ بَلَغَ اِلَى هَذِهِ اَلْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ اِلَى وَقْتِ اَلْاَحْلَالِ
 وَانْقِرَاضِ الْعَالَمِ وَهَذَا رَأْيٌ لَا وَجْهَ لَهُ اِلَّا اَلْتَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ
 وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نَشَآهَدُ مَسَاكِنَ الْاَوَّلِيْنَ وَابْوَاهِمُ وَطُرُقَهُمْ فَيَمَّا اَحْدَثُوهُ مِنْ
 الْبَنِيَانِ وَالْهَيَاكِلِ وَالْاَدْيَارِ وَالْمَسَاكِنِ كَدْيَارِ مَمْدُودِ الْمُنْحَوْتَةِ فِي الصُّلْدِ مِنَ الصَّخْرِ يَوْمًا
 صَغَارًا وَابْوَاهَا ضَيْقَةً وَقَدْ اَشَارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِلَى اَنَّهُمْ دَبَارُهُمْ وَنَعَى عَنْ اَسْتِعْمَالِ
 مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عُجِنَ بِهِ وَاهْرَقَ وَقَالَ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا اَنْفُسَهُمْ اِلَّا
 اَنْ تَكُوْنُوا بَاكِيْنَ اَنْ يُصِيبَكُمْ مَا اَصَابَهُمْ وَكَذَلِكَ اَرْضُ عَادَ وَمِصْرَ وَالنَّشَامِ وَسَائِرِ
 بَقَاعِ الْاَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَالْحَقُّ مَا قَرَرْنَاهُ وَمِنْ اَثَارِ الدُّوْلِ اَيْضًا حَالُهَا فِي الْاَعْرَاسِ
 وَالْوَلَايِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَلِيْمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ الْحَجَّاجِ وَابْنِ ذِي النُّونِ وَقَدْ مَرَّ

ذَٰلِكَ كُلُّهُ وَمِنْ آثَارِهَا أَيْضًا عَطَايَا الدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَيَظْهَرُ ذَٰلِكَ
 فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ فَإِنَّ الْهَرَمَ الَّتِي لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ
 وَعَظِيمِهِمْ لِلنَّاسِ وَالْهَرَمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَٰلِكَ بِجَوَائِزِ
 أَبِي ذِي يَزَنَ لَوْفِدِ قَرِيشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبَدِ
 وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرِشِ الْعَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضْعَفَ ذَٰلِكَ بَعِثَرَةً أَمْثَالَهُ
 لِعَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يُؤَمِّدُ قَرَارَةَ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبدَادِ فَارَسَ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ
 عَلَى ذَٰلِكَ هِمَّةُ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَاعَةِ مِنَ الْمُلْكِ فِي الْأَرْضِ وَالْعَلْبِ عَلَى الْأُمَمِ
 فِي الْعَرَاقِينَ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانَ الصَّنَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقَةٍ أَيْضًا إِذَا أَجَازُوا الْوَفْدَ مِنْ
 أُمَرَاءِ زَنَانَةِ الْوَفَائِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالَ أَهْمَالًا وَالْكَسَاءَ مُخَوَّنًا مَمْلُوءَةً
 وَالْحِمَلَاتِ جَنَائِبَ عَدِيدَةٍ وَفِي تَارِيخِ أَبِي الرَّقِيقِ مِنْ ذَٰلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَٰلِكَ
 كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَتَفَقَّاهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِمًا فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ
 وَالنِّعْمَةُ آخِرُ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاءُ الَّذِي يَسْتَنْفِدُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَٰلِكَ
 كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ الدُّوَلِ جَارِيَةٌ هَذَا جَوْهَرُ الصِّقْلِيِّ الْكَاتِبِ
 فَإِنَّدُ جَيْشِ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا أَرْتَحَلَ إِلَى قَتَحٍ مِصْرَ اسْتَعَدَّ مِنَ الْفَقِيرِ وَأَنْبِ حِمْلٍ مِنَ
 الْمَالَ وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَكَذَٰلِكَ وَجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ
 عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يَحْمِلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالَ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي
 نَقَلَتْهُ مِنْ جَرَابِ الدَّوْلَةِ (غلات السواد) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ
 وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحِلَالِ الْبَحْرَانِيَّةِ مَائَتًا حَلَةً وَمِنْ طِينِ الْخُتَمِ مَائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ
 رِطْلًا (ككرك) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ (كورد حلة)
 عِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةَ دَرَاهِمٍ (حلوان) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ
 وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ (الاهواز) خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنْ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ
 أَلْفَ رِطْلٍ (فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ
 قَارُورَةٍ وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (كرمان) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفِ
 دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمَائَتًا أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةَ تُونٍ وَمِنْ التَّمْرِ عِشْرُونَ
 أَلْفَ رِطْلٍ (مكران) أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ

أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَمِنْ أَلْعُودِ الْإِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلًا
 (سجستان) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الثِّيَابِ الْمَعِينَةِ ثَلَاثُمِائَةِ تَوْبٍ وَمِنْ
 أَلْفَانِيْدِ عِشْرُونَ رِطْلًا (خراسان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ نَقَرِ
 أَلْفِضَةِ أَلْفَا نَقْرَةً وَمِنْ الْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ وَمِنْ الرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ
 عِشْرُونَ أَلْفَ تَوْبٍ وَمِنْ الْأَهْلِيَاكِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (جرجان) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ
 أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْإِبْرِيْسِمِ أَلْفُ شَقَّةٍ (فوس) أَلْفُ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ
 مِنْ نَقَرِ أَلْفِضَةِ (طبرستان والروبان ونهاوند) سِتَّةُ أَلْفِ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ
 وَمِنْ الْفَرَشِ الطَّبْرِيِّ سِتْمِائَةِ قِطْعَةٍ وَمِنْ الْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ وَمِنْ الثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ تَوْبٍ
 وَمِنْ الْمَتَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةِ وَمِنْ الْجَمَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةِ (الري) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ
 مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (همدان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ
 مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنْ رُبِّ الرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ وَمِنْ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ
 (ما بين البصرة والحكوفة) عَشْرَةُ أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ
 (ماسبدان والدينار^(١)) أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (شهرزور) سِتَّةُ أَلْفِ
 أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ (الموصل وما يليها) أَرْبَعَةُ وَعِشْرُونَ أَلْفَ
 أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْعَسَلِ الْأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ رِطْلٍ (اذريجان) أَرْبَعَةُ
 أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أَرْبَعَةُ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ
 أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنْ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍ وَمِنْ
 الْبَزَاةِ^(٢) عَشْرَةٌ وَمِنْ الْأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ (ارمينية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ
 مَرَّتَيْنِ وَمِنْ الْبَسِطِ^(٣) أَلْفَحْنُورٍ عِشْرُونَ وَمِنْ الزَّقَمِ خَمْسُمِائَةِ وَثَلَاثُونَ رِطْلًا وَمِنْ
 الْمَسَاكِجِ السُّورِ مَا هِيَ عَشْرَةُ أَلْفِ رِطْلٍ وَمِنْ الصُّوْنَجِ عَشْرَةُ أَلْفِ رِطْلٍ وَمِنْ
 الْبَغَالِ مِائَتَانِ وَمِنْ الْمَهْرَةِ ثَلَاثُونَ (فندرين) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنْ الزَّيْتِ أَلْفُ
 حِمْلٍ (دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (الأردن) سَبْعَةٌ
 وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشْرَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنْ

(١) قوله والدينار والظاهر انها الدينور وفي الترجمة التركية ما ندان ور بن اه (٢) قوله ومن
 ابرزاء في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه (٣) وفي نسخة الفسط

الزيت ثلثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون
 ألف دينار (بركة) ألف ألف درهم مرتين (افرقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم
 مرتين ومن البسط مائة وعشرون (اليمن) ثلثمائة الف دينار وسبعون ألف دينار
 سوى المتاع (الحجاز) ثلثمائة الف دينار انتهى . وأما الأندلس فإلدي ذكره
 الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خات في يوت أمواله خمسة آلاف ألف
 الف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بألفاظ ثمن ثمانية ألف فنطار .
 ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف
 فنطار وخمسمائة فنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا
 تنكرن ما ليس بمعمود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتصيق حوصلتك عند ملقط
 الممكنات فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة
 بادر بالإنكار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجرد والعمران متفاوتة ومن
 أدرك منها رتبة سئلى أو وسطى فلا يحضر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما
 ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعباسيين وناسبتنا الصحيح من ذلك والذي
 لا شك فيه بالذي نشاهد من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بونا
 وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالأثار كلها جارية على
 نسبة الأصل في القوف كما قدمناه ولا يسعنا إنكار ذلك عنها إذ كثير من هذه
 الأحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها
 المعاین والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول
 في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية
 المستخرجة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين
 رجل من مشيخة طنجة يعرف بأبن بطوطة^(١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها
 إلى المشرق وقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك
 الهند وهو السلطان محمد شاه وأصل ممالكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه
 مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم أنقلب إلى المغرب

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهى أواسط سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرة ٧ كراريس اهـ

وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عَنَّانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رَحْمَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ
بِمَمْلَكَتِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْوَيْلِدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ
بِمَا يَسْتَعْرِبُهُ السَّامِعُونَ مِثْلَ أَنْ مَلِكَ الْوَيْلِدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّيْرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ
مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ
عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلَى صُحَرَاءِ الْبَلَدِ
وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ مَنَاجِيقَاتٌ عَلَى الظَّاهِرِ تُرَى بِهَا شُكَاكِرُ
الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَابِيرُ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ أَيَّوَانُهُ وَأَمثالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَاحِي
النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَبَا مَيْدٍ وَزَيْرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنِ وَرْدَارِ الْبَعِيدِ الصَّبِي
فَتَأَوَّضْتُ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ
مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ فَارِسُ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكَرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ
بِمَا أَنْتَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَأَنَّ الْوَزِيرَ النَّاشِئَ فِي السَّجْنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا أَعْتَقَلَهُ
سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي السَّجْنِ سَنِينَ رَبْعِيٍّ فِيهَا أَبْنَاهُ فِي ذَلِكَ الْحَبْسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ
سَأَلَ عَنِ اللُّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ فَيَصِفُهَا
لَهُ أَبُوهُ بِشَيْئَاتِهَا وَنَعْوَتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيَنْكُرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ
مِنْ الْفَارِ وَكَذَا فِي لَحْمِ الْأَيْلِ وَالْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنِ فِي مَحْسِسِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الْفَارَ
فَيَحْسِبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جَنَسِ الْفَارِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي النَّاسَ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمْ
الْوَسْوَاسُ فِي الزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمَاهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ
الْإِنْسَانُ إِلَى أَصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيِّمًا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَنَبِّعِ
بَصَرِيحٍ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمٍ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ الْإِمْكَانِ قَبْلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفُضُهُ
وَلَيْسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ الْعَقْلِيَّ الْمَطْلُوقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ
الْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ
وَجِنْسَهُ وَصَنَفَهُ وَمَقْدَارَ عَظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ
وَحَكَمْنَا بِالْإِمْتِنَاعِ ذَلِكَ مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبته بالموالي والمصطنعين
 اعلم ان صاحب الدولة انما يتم امره كما قلناه بقومه فهم عصبته وظهر اوله
 على شانه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقد اعمال مملكته ووزارة دولته
 وحباية امواله لانهم اعوانه على الغلب وشركاؤه في الامر ومساهموه في سائر مهماته
 هذا ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد
 عنهم والافراد بالتحديد ودافعهم عنه بالمراح صاروا في حقيقة الامر من بعض
 أعدائه واحتاج في مدافعهم عن الامر وصددهم عن المشاركة الى اولياء اخرين من
 غير جلدتهم يستظرون بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون اقرب اليه من سائرهم
 واخص به قربا واصطناعا واولى ايثارا وجاهلا لما انهم يستميئون دونه في مدافعة
 قومه عن الامر الذي كان لهم والرغبة التي اتوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب
 الدولة ويخصهم بمن يد التكرمة والايثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقدمهم
 جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والحباية وما يختص به لنفسه وتكون
 خالصة له دون قومه من القاب المملكية لانهم حينئذ اولياؤه الاقربون ونصحاؤه
 المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها الفساد
 العصبية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة
 السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبأل ذلك على الدولة ولا يطمع
 في بزيها من هذا الداء لانه ما مضى بنا كد في الاعقاب الى ان يذهب رسمها واعتبر
 ذلك في دولة بني امية كيف كانوا انما يستظفرون في حروبهم وولاية اعمالهم
 برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن زياد بن ابي سفيان
 والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وحالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة
 وموسى بن نصير وبلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري ونصر بن سيار ومثاليهم
 من رجال العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها ايضا
 برجال العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالتحديد وكبح العرب عن التطاول
 للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني

طَاهِرٌ ثُمَّ بَنِي بُؤَيْبَةَ مَوَالِي التُّرْكِ مِثْلَ بَغَا وَوَصِيفٍ وَأَتْلَمَشَ وَبَاكِكَ وَأَبْنِ طُولُونَ
وَأَبْنَاءَهُمْ وَغَيْرَ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِعَیْرِ مِنْ مَهْدَاهَا وَالْعِزُّ لِعَیْرِ مِنْ
اجْتِنَابِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالى والمضطعين في الدول

إِغْلَمْ أَنَّ الْمُضْطَّعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِتِّحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ
قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي الْإِتِّحَامِ بِصَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصِيَةِ مِنْ
الْمَدْفَعَةِ وَالْمُعَالِجَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى وَالْتِحَاضِلِ
فِي الْأَجَابِ وَالْبَعْدَاءِ كَمَا قَدَمْنَاهُ وَالْوَلَايَةَ وَالْمُخَاطَبَةَ بِالرَّقِّ أَوْ بِالْحَلْفِ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةً
ذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الْإِتِّحَامُ
إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمَدْفَعَةُ وَطُولُ الْمَمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةِ بِالْمَرْبِيِّ وَالرِّضَاعِ وَسَائِرِ
أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ الْإِتِّحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ وَالْتَنَاصُرُ وَهَذَا مُشَاهِدٌ
بَيْنَ النَّاسِ وَأَعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْأَصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يُحَدِّثُ بَيْنَ الْمُضْطَّعِ وَمَنْ أَصْطَنَعَهُ نِسْبَةً
خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ تُنَزَّلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتُوَكِّدُ اللَّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَتَمَرَّاتُ
النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوَلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمَلِكِ
لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقَهَا أَوْشَجَّ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا أَمْرَحَ لَوْجِهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ
الْمَلِكِ أَسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقَلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ
مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا أَصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمَلِكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ
الْمَلِكِ مُبْمَزَّةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلى وَلِأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالْأَصْطِنَاعِ لِمَا
تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ
مَنْزِلَةَ الْأَجَابِ وَيَكُونُ الْإِتِّحَامُ بَيْنَهُمْ أَوْضَعُفَ وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أَبْعَدُ وَذَلِكَ أَنْقَصُ
مِنَ الْأَصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمَلِكِ أَلَوْجُهُ الثَّانِي أَنَّ الْأَصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمَلِكِ يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطُولِ الزَّمَانِ وَيُخَفِّي شَأْنَ تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ
فَيَقْوَى حَالُ الْعَصِيَةِ وَأَمَّا بَعْدَ الْمَلِكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَقْتَبِنُ
اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ فَتَضَعُفُ الْعَصِيَةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ

الدَّوْلَةَ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ وَالرَّئِاسَاتِ تَجِدُهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَصْطِنَاهُ قَبْلَ حُصُولِ
الرَّئِاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ اتِّخَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قِرَابَةً إِلَيْهِ وَيَنْزِلُ مِنْهُ مَنَزَلَةٌ
إِنْ بَنَاهُ وَإِخْوَانُهُ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ أَصْطِنَاهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرَّئِاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ
لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقِرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بِالْعَيَانِ حَتَّى إِنْ الدَّوْلَةَ فِي
آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَأَصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ تَجِدُ كَمَا بَنَاهُ
الْمُصْطَنِعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِقْتِرَاضِ
فَيَكُونُونَ مَنْحَطِينَ فِي مَهَاوِي الضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى أَصْطِنَاعِهِمْ
وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَاءِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِبُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ
الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ إِنَّمَا كُدَّ
اللَّحْمَةُ مِنْهُ الْعُصُورِ الْمُتَطَوِّلَةِ بِالْمَرْئِي وَالْإِتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْإِتِّظَامِ مَعَ
كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصِلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَأَعْتَزَّازُ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِغْلَاصِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا
يَبْلَغُونَ رُتَبَ التَّجِدِّ وَيَبْقُونَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي آخِرِهَا
وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحْدَثُونَ فَيَقْدَمُ
وَأَعْوَانُ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمُنْتَبِ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ
وَأَقْرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ
قَرِيبًا حَدَثَ التَّغْلُبُ عَلَى الْمُنْصَبِ مِنْ وَرَثَتِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبِهِ فِي الْأَكْثَرِ وَلَايَةِ
صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمُنْتَبِ يَتَرَشَّحُ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَ أَبِيهِ أَوْ يَتَرَشَّحُ ذَوِيهِ
وَحَوْلُهُ وَيُوَاسُّ مِنْهُ أَلْتَجَزُ عَنْ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَرَثَةِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ
وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلُهُ وَيُورِثِي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُوَاسَّ مِنْهُ الْأَسْتَبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ
ذَرِيعةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ وَيُعَوِّدُهُ إِلَيْهَا تَرْفُ أَحْوَالُهُ وَيَسِمُهُ فِي مَرَاغِبِهَا
مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُسَبِّحُهُ النَّظَرُ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ

أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصِّقَّةِ وَخِطَابُ التَّهْنِئِ
وَالْقُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحُلَّ وَالرَّبْطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ الْأَحْوَالِ
الْمُلُوكِيَّةِ وَتَفْقُدهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجُنُشِ وَالْمَالِ وَالنُّقُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي
ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةَ الرَّئَاسَةِ وَالْإِسْتِبْدَادَ وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْتَرَ
بِهِ عَشِيرَتُهُ وَأَبْنَاءُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِنَبِيِّهِ وَالتُّرْكِ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ
بِالْمَشْرِقِ وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَقَطُنَ ذَلِكَ الْحَجُورُ الْمَغْلَبُ لِشَأْنِهِ
فِيَحْأُولُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَجَرِ وَالْإِسْتِبْدَادِ وَيَرْجِعُ الْمُلْكُ إِلَى نَصَابِهِ وَيَضْرِبُ
عَلَى أَيْدِي الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا يَقْتُلُ أَوْ يَرْفَعُ عَنِ الرَّبْطَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ
الْأَقْلَ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ
تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَشَأْنَةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ
مُغْمِسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرُّجُوعَةِ وَأَلْفُوا أَخْلَاقَ الدَّيَّانِ وَالْأَظَارِ وَرَبَّوْا عَلَيْهَا
فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ إِنَّمَا هُمْ فِي الْقَنُوعِ بِالْإِبْهَةِ
وَالْتَنَفُسِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُصْطَفِعِينَ عِنْدَ
اسْتِبْدَادِ عَشِيرَةِ الْمُلْكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرْوَرِيٌّ
كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَهَذَانِ مَرَضَانِ لَا بُدَّ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

فِي أَنَّ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى السُّلْطَانِ لَا يَشَارِكُونَهُ فِي الْقَبْلِ الْخَاصِ بِالْمُلْكِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مِذَّ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّةِ
الَّتِي اسْتَبْعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمُلْكِ وَالتَّغْلِبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً
وَبِهَا اتَّخَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاوُهَا وَهَذَا الْمُتَغْلِبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ
الْمُلْكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدرَجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمُلْكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ
لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمُلْكِ وَهُوَ لَا يَحْأُولُ فِي اسْتِبْدَادِهِ أَنْتِزَاعَ تَمَرَاتِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ
وَالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالتَّقْضِ يَوْمَ فِيهَا أَهْلُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ
مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ

وَأَلْقَاهُ جُبَدَهُ وَيُعِدُّ نَفْسَهُ عَنِ التَّهْمَةِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْأَسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَرٌ فِي
 اسْتِبْدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْهُ
 أَوَّلُ الدَّوْلَةِ وَمَغَالِطٌ عَنْهُ بِالنِّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَنَفَسَهُ^(١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ
 وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْأَسْتِثْنَاءَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكَمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ
 عَلَى التَّسَامِيحِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ فِيهِ لِكُلِّ أَوَّلٍ وَهَلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ
 بْنِ مَنْصُورٍ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلٍ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ
 يَقْنَعْ بِمَا قَنَعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الْأَسْتِبْدَادِ بِالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَامِ الْمَتَّبِعَةِ فَطَلَبَ
 مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَنَفَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بُوَيْرَوَانُ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا
 لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْجُبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ
 خَرَابٌ دَوْلَةِ الْعَامِلِينَ بَيْنَ وَهَلَكَ الْمُؤَيَّدُ خَلِيفَتِهِمْ وَاسْتَبْدَلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ الدَّوْلَةِ
 إِلَى آخِرِهَا وَاخْتَلَتْ مَرَامُهُمْ مَلِكُهُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ
 إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ وَضُرُورِ بَاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتْ الضَّرُورَةُ
 إِلَى الْمَعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ بِأَخْذِهَا مِنْ
 صَاحِبِهَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَانِعُهُ الْآخَرُ
 عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْإِنْفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمَفْضِي
 إِلَى الْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْخُرْجِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمَفْضِي ذَلِكَ إِلَى
 انْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوَضَى دُونَ
 حَاكِمِهِمْ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتَنَجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَارِثِ وَهُوَ الْحَاكِمُ
 عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُنْتَحَكِمُ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ
 الْعَصِيَّةِ لِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدْفَعَاتِ لَا تَنُتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَهَذَا الْمَلِكُ
 كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَوَجَّهَ نَحْوُهُ الْمُطَالِبَاتِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدْفَعَاتِ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكرر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفجره لم يره اهلاً له ك في القاموس

مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغْلِبُ
 عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَلَيْسَ الْمَلِكُ لِكُلِّ عَصِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمَلِكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ
 لِمَنْ يَسْتَعِيدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْنِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ
 يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا
 مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعَثَ الْبُعُوثَ فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ يَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا
 وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْأَنْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَعْلِيَّةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدَرَ الدَّوْلَةِ
 الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ الْأَسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ
 عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ يَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلَاءِ
 مِثْلُ أَمْرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجَنَاهَاتِ الَّذِينَ يَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوْجَدُ هَذَا
 فِي الدَّوْلَةِ الْمُنْتَسَعَةِ الْبَطَاقِ اعْنِي تُوْجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ
 بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي يَجْمَعُهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةٍ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَزَنَانَةَ مَعَ الْأَمُويِّينَ تَارَةً وَالْعَبِيدِيِّينَ
 تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلُ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ مِنَ الْفَرَسِ مَعَ
 الْأَسْكَندَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فَأَعْتَبَرَهُ تَجِدُهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر
 اعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ
 أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عَظَمِ جِسْمَانِهِ أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُرْدَةِ خَطِّهِ أَوْ ثِقُوبِ ذَهْنِهِ وَإِنَّمَا
 مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ
 نِسْبَةُ بَيْنَ مُتَنَسِّبِينَ حَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ
 مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى
 الْمَلَكِيَّةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكِيَّةُ وَتَوَابَعُهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَسْكَانِ
 حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ
 مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ وَالْأَكْثَرُ أَنَّهُمْ يَعُودُ
 حُسْنُ الْمَلَكِيَّةِ إِلَى الرَّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنْقَبِحًا عَنْ
 عَوَزَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ تَمْلِكُهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَا ذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ

وَالْحَدِيدَةَ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ
وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتْ الْحِدَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْعَمُوا عَلَى قَتْلِ ذَلِكَ فَتَنَسَدَ الدَّوْلَةُ
وَتَحْرَبَ السِّيَاحُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرُهُ فَسَدَتْ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا قَانَاهُ أَوَّلًا وَفَسَدَ السِّيَاحُ
مِنْ أَصْلِهِ بِالْعِجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ
وَلَاذُوا بِهِ وَأَشْرَبُوا حُبَّهُ وَأَسْتَأْتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَرْضُ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَالِكَةِ فَهِيَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا
تَنْمُو حَقِيقَةُ الْمَلِكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جَمَالَةِ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ
لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلُ كَثِيرٍ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ وَعَالِمٌ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَ
الرَّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ بَقْطًا شَدِيدَ الذِّكَاةِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرَّفْقُ فِي
الْغَفْلِ وَالْمُتَعَفِّلِ وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْبَقْطِ لِأَنَّهُ يَكْفُلُ الرَّعِيَّةَ فَنَقَى طَائِفَتَهُمْ لِنَفْذِ
نَظَرِهِ فِيهَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَأَطْلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِيهَا بِالْعَمِيَّةِ فَيَهْلِكُونَ
لِفُلْكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَبْرٍ أَضَعَفْتُكُمْ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ
فِي الْحَاكِمِ قَلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاةِ وَمَا خَذَهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ابْنِ أَبِي سَنِيَانٍ لَمَّا عَزَلَهُ
عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْعِجْزُ أَمْ الْخِيَانَةُ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ
أَعَزَلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَهْمَلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَنِ النَّاسِ فَأَخَذَ مِنْ
هَذَا الْحَاكِمِ لَا يَكُونُ مُفْرَطُ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِثْلُ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَنِيَانٍ وَعُمَرُ
بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَتَعَ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَالِكَةِ وَهَمَلَ الْوُجُودَ عَلَى مَا لَيْسَ فِي
طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْعَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ
وَالذِّكَاةَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي
الْجُمُودِ وَالطَّرْقَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِنَةِ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْحَمْدُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكَرَمِ
مَعَ التَّبَذِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَذَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُشَيْطَانٌ
وَأَمثال ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ أَنَّهُ الْاجْتِمَاعُ الصَّرُورِيُّ لِلبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ
 اللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ الْغَضَبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْعَالِبِ جَائِزَةً عَنِ
 الْحَقِّ مُجْحَفَةً بَيْنَ تَحْتِ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحِمْلِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْعَالِبِ عَلَى
 مَا لَيْسَ فِي طَوْفِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلْفِ
 وَالسَّلَفِ مِنْهُمْ فَتَعَسَّرُ طَاعَتُهُ لِذَلِكَ وَتَحْجِي الْعَصِيَّةُ الْمُفْضِيَةُ إِلَى الْوُجُوحِ وَالْقَتْلِ فَوَجَبَ
 أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوَانِينِ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا الْكَافَّةُ يَتَقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا
 كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَإِذَا خَلَّتِ الدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ
 لَمْ يَسْتَبِ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ اسْتِبْلَاقُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فَإِذَا كَانَتْ
 هَذِهِ الْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ الْعُقَلَاءِ وَأَكْبَرِ الدَّوْلَةِ وَبُصَرَائِهَا كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً وَإِذَا
 كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ اللَّهِ بِشَارِعٍ يُقَرَّرُهَا وَيُشْرَعُهَا كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطُّ فَإِنَّهَا كُلُّهَا عِبْتُ
 وَبَاطِلٌ إِذْ غَايَتُهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَسْبُكُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا فَأَلْمَقْصُودُ
 بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى السَّعَادَةِ فِي آخِرَتِهِمْ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَجَاءَتْ الشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ
 عِبَادَةٍ وَمَعَامَلَةٍ حَتَّى فِي الْمَلِكِ الَّذِي هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ فَأَجَرَتْهُ عَلَى
 مَنَاجِ الدِّينِ لِيَكُونَ الْكُلُّ مُحَوَّطًا بِنَظَرِ الشَّارِعِ فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى الْقَهْرِ وَالتَّغَلُّبِ
 وَإِهْمَالِ الْقُوَّةِ الْعَصِيَّةِ فِي مَرَعَاهَا فَجُورٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى
 الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ نَظَرٌ
 بِغَيْرِ نُورٍ اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ لِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ
 الْكَافَّةِ فِيهَا هُوَ مَغِيبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ وَأَعْمَالِ الْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي
 مَعَادِهِمْ مِنْ مَلِكٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ
 وَأَحْكَامُ السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطُّ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ حَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ بِالنَّاسِ صَلَاحَ آخِرَتِهِمْ فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى الشَّرَائِعِ حَمْلُ الْكَافَّةِ

عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ
وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامُهُمْ وَهُمْ الْخُلَفَاءُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى اخْتِلَافِهِ
وَأَنَّ الْمَلِكَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمَلُ الْكَفَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى الْغَرَضِ وَالشَّهْوَةِ وَالسِّيَاسِيِّ هُوَ حَمَلُ
الْكُفَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ فِي جَلْبِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَالْخِلَافَةِ
هِيَ حَمَلُ الْكَفَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الشَّرْعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمُ الْآخِرَوِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ الرَّاجِعَةِ
إِلَيْهَا إِذَا أَحْوَالُ الدُّنْيَا تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ الشَّارِعِ إِلَى اعْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ فَهِيَ فِي
الْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ فَافْهَمْ ذَلِكَ
وَأَعْتَبِرْهُ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدُ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذَا قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ
وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ تَسْمَى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةً وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا
فَقَسْبُهَا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَلِهَذَا يُقَالُ الْأِيْمَامَةُ الْكُبْرَى وَأَمَّا
تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَوْنِهِ يُخْلَفُ النَّبِيَّ فِي أُمَّتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةُ بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ
وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةَ اللَّهِ فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ اقْتِبَاسًا مِنَ الْخِلَافَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لِلْإِلَادِمِيِّينَ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَقَوْلِهِ جَعَلَكُمْ خُلَافَةً فِي الْأَرْضِ وَمَنْعَ
الْجَمْعُورُ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ لَسْتُ
خَلِيفَةَ اللَّهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ الْأِسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ
فِي حَقِّ الْغَائِبِ وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا تَمَّ إِنِّ نَصَبُ الْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وَجُوبُهُ فِي
الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ
وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَلِكَ فِي
كُلِّ عَصْرِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَمْ تُتْرَكِ النَّاسُ قَوْضَى فِي عَصْرِ مِنْ الْأَعْصَارِ وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ
إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَى وَجُوبِ نَصَبِ الْإِمَامِ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مَدْرَكَ وَجُوبِهِ
الْعَقْلُ وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءُ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجِبَ
بِالْعَقْلِ لِمُضْرُورَةِ الْإِجْمَاعِ لِلشَّرِّ وَاسْتِحَالَةِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُتَفَرِّدِينَ وَمِنْ صَرُورَةِ

الاجتماع التنازع لأزدحام الأغراض فما لم يكن الحاكم ألوازع أفصى ذلك إلى
الخرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع
الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر
وقد تبيننا على فساده وأن إحدى مقدماته أن ألوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم
له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن ألوازع قد يكون بسطوة الملك
وقهر أهل الشوكرة ولو لم يكن شرع كما في أمر العجوس وغيرهم ممن ليس له
كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بحريم
الظلم عليه محكم العقل فأدعائهم أن ارتناع التنازع إنما يكون بوجود الشرع
هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود
الرؤساء أهل الشوكرة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم
العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو
الاجتماع الذي قدمناه وقد شد بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا نصب رأساً لا
بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من الاعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب
عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا توطأت الأمة على العدل وتنفيذ
أحكام الله تعالى لم يحتاج إلى إمام ولا يجب نصبه ودولاء تعجبون بالاجتماع
والذي حتمهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومداهيه من الاستطالة
والغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة محتلة بدم ذلك والتعبي على أهله
ومرغبة في رفضه وأعلم أن الشرع لم يدم الملك لذاته ولا حظر القيام به وإنما دمه
المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفاسد
مخطورة وهي من توابعه كما أنني على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب
عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فإذا إنما وقع الدم للملك
على صفة وحال دون حال أخرى ولم يدمه لذاته ولا طالب تركه كما دمه الشهوة
والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية ليدعيا الضرورة إليها وأما
المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه
عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم خلقه عنده

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمُلْكِ بَعْدَ وَجوبِ هَذَا النَّصْبِ لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئًا لِأَنَّكُمْ
 مُوََافِقُونَ عَلَى وَجوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَالشُّوْكَوَةِ
 وَالْعَصِيَّةِ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبْعِهَا لِلْمُلْكِ فَيَحْصُلُ الْمُلْكُ وَإِنْ لَمْ يَنْصَبْ إِمَامٌ وَهُوَ عَيْنُ مَا قَرَرْتُمْ
 عَنْهُ وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النَّصْبَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعٍ فَهُوَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ وَرَاجِعٌ
 إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحُلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ نَصْبُهُ وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ
 تَعَالَى أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا الْمَنْصَبِ فَهِيَ
 أَرْبَعَةٌ الْعِلْمُ وَالْعَدَالَةُ وَالْكَفَايَةُ وَسَلَامَةُ الْخَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي الرِّأْيِ
 وَالْعَمَلِ وَاخْتَلَفَ فِي شَرْطِ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ
 إِنَّمَا يَكُونُ مُنْفِذًا لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَالِمًا بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ
 لَهَا وَلَا يَكْفِي مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا لِأَنَّ التَّقْيِيدَ نَقْصٌ وَالْإِمَامَةُ تَسْتَدْعِي
 الْكَمَالَ فِي الْأَوْصَافِ وَالْأَحْوَالِ وَأَمَّا الْعَدَالَةُ فَلِأَنَّهُ مَنْصَبٌ دِينِي يَنْظَرُ فِي سَائِرِ
 الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا فَكَانَ أَوَّلَى بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَاءِ الْعَدَالَةِ فِيهِ
 بِفَسْقِ الْجَوَارِحِ مِنْ أَرْكَابِ الْحُظُورَاتِ وَأَمْثَالِهَا وَفِي انْتِفَائِهَا بِالْبِدْعِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ
 خِلَافٌ وَأَمَّا الْكَفَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئًا عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَافْتِحَامِ الْخُرُوبِ بِصِيرَا
 بِهَا كِفَالًا يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا عَارِفًا بِالْعَصِيَّةِ وَأَحْوَالِ الدَّمَاءِ قَوِيًّا عَلَى مُعَانَاةِ السِّيَاسَةِ
 لِيَصِحَّ لَهُ بِذَلِكَ مَا جُعِلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْعَدُوِّ وَإِقَامَةِ الْأَحْكَامِ وَتَدْبِيرِ
 الْمَصَالِحِ وَأَمَّا سَلَامَةُ الْخَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النِّقْصِ وَالْعَطْلَةِ كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالْعَمَمِ
 وَالْخَرَسِ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقَدُهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ كَتَقْفِدِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ
 فَتَشَرْطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلِّهَا لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي تِمَامِ عَمَلِهِ وَفِيَاكِهِ بِمَا جُعِلَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ
 إِنَّمَا يَسِينُ فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ كَقَفْدِ إِحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَشَرْطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطُ
 كَمَالٍ وَلْيَحْقُقْ بِنَقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِذِهِ فِي
 اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطٌ وَجُوبٌ وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْحُجْرُ عَنِ التَّصَرُّفِ جُمْلَةً بِالْأَسْرِ وَشَبْهِهِ
 وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِذِهِ وَهُوَ الْحُجْرُ بِاسْتِئْلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ
 فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوْلي فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ
 السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَفِضُ يَدُهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَدْفَعُ عَلَيْهِ

حَتَّى يَنْفَدَ فِعْلُ الْخُلَافَةِ وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَلِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِينَةِ دَلَى ذَلِكَ
 وَاخْتِجَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هُمَا يَوْمُئِذٍ بَيْعَةَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا مَنَا أَمِيرٌ
 وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَقُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ وَبَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِأَنْ نَحْسَنَ إِلَى خُسَيْنِكُمْ وَتَجَاوَزَ عَنْ مُسَيِّئِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ إِلَّا مَارَةً فِيمَكُمْ
 لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِكُمْ فَحَجُّوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ
 وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هُمَا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْدٍ لَذَلِكَ وَثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ لَا يَزَالُ هَذَا
 الْأَمْرُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدَلَّةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ
 قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ عَصَائِبُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِّ وَالنَّعِيمِ وَبِمَا أَنْفَقَتْهُمْ الدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ
 أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ وَصَارَ الْحُلُّ
 وَالْعَقْدُ لَهُمْ فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى تَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ
 وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرٍ فِي ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّيَ
 عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ دُورِيَّةٌ وَهَذَا لَا يَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مُخْرَجَ التَّمَثِيلِ
 وَالْغَرَضُ لِلْمُبَاغَةِ فِي إِيْجَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِثْلُ قَوْلِ عُمَرَ لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حَدِيفَةَ
 حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ أَوْ لَمَّا دَخَلْتَنِي فِيهِ الظَّنُّ وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَذْهَبَ
 الصَّحَابَةِ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصِيَّةٌ أَوْلَى حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ
 وَهِيَ الْفَائِدَةُ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَلَمَّا اسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَانَهَا
 مَفْقُودَةً فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوْفُرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمَفِيدِ
 لِلْعَصِيَّةِ كَمَا نَذَرْنَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُرَاحَةُ النَّسَبِ فَرَأَاهُ غَيْرَ مُخْتِاجٍ إِلَيْهِ إِذِ الْفَائِدَةُ
 فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حَرَصًا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لَأَئِمَّةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ
 وَمِنْ الْقَائِلِينَ بِتَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَلْقَائِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصِيَّةُ
 قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِي وَالْإِضْمَحَالِ وَأَسْتَبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاسْقَطَ شَرْطَ
 الْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ لِمَا رَأَى عَلَيْهِ حَالِ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ
 الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصَحَّةِ الْإِمَامَةِ الْقُرَشِيَّةِ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ الْقِيَامِ بِأُمُورِ
 الْمُسْلِمِينَ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لَأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتْ

الشَّوْكَةُ بِذَهَابِ الْعَصْبِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ الْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ
 تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَالِدِّينِ وَسَقَطَ اعْتِبَارُ شُرُوطِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ
 الْأَجْتِمَاعِ. وَلَنْتَكَلَّمَ الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصَّوَابُ فِي هَذِهِ
 الْمَذَاهِبِ فَقُولُ: إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدَ وَحِكْمٍ تَشْتَدِلُ
 عَلَيْهَا وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا وَتُخَنُّ إِذَا بَحِثْنَا عَنْ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيِّ وَمَقْصِدِ
 الشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يَقْصُرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوَصْلَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ فِي
 الْمَشْهُورِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوَصْلَةُ مَوْجُودَةً وَالتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلًا لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنْ
 الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَهِيَ
 الْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اعْتِبَارَ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ
 بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفِرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ
 إِلَيْهِ أَلْمَلَةُ وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حَبْلُ الْأَلْفَةِ فِيهَا وَذَلِكَ أَنْ قُرَيْشًا كَانُوا عَصْبَةً مُضَرَّ وَأَصَاهُمْ
 وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرِّ الْعِزَّةُ بِالْكَثَرَةِ وَالْعَصْبِيَّةُ وَالشَّرَفُ
 فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِعَالِيهِمْ فَلَوْ جُعِلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ
 لَتَوَقَّعَ اقْتِرَافُ الْكَلِمَةِ بِدُخَالَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ مُضَرَّ
 أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ وَلَا يَحْمَاهُمْ عَلَى الْكَرَّةِ فَيَتَفَرَّقَ الْجَمَاعَةُ وَتُخْتَلَفَ الْكَلِمَةُ
 وَالشَّارِعُ مُخْذَرٌّ مِنْ ذَلِكَ حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ وَرَفَعِ النِّزَاعَ وَالشَّتَاتَ بَيْنَهُمْ لِيَتَحَصَلَ
 اللُّحْمَةُ وَالْعَصْبِيَّةُ وَتَحْسُنَ الْحِمَايَةُ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ لَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ
 عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بِعَصَا الْغَلَبِ إِلَى مَا يَرَادُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافِ عَلَيْهِمْ
 وَلَا فِرْقَةٍ لَأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ يَدْفَعُهَا وَمَنْعَ النَّاسِ مِنْهَا فَاشْتَرَطَ سَبَهُمُ الْقُرَشِيُّ
 فِي هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ الْعَصْبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أَبْلَغُ فِي انْتِظَامِ أَلْمَلَةِ وَاتِّفَاقِ
 الْكَلِمَةِ وَإِذَا انْتَضَمَتْ كَلِمَتُهُمْ انْتَضَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَّ أَجْمَعَ فَأَدْعَى لَهُمْ
 سَائِرُ الْعَرَبِ وَأَنْقَادَتِ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ أَلْمَلَةِ وَوُضِعَتْ جُودُهُمْ قَاصِيَةَ الْبِلَادِ
 كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفُتُوحَاتِ وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنْ أَضْحَلَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ
 وَتَلَاشَتْ عَصْبِيَّةُ الْعَرَبِ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ الْكَثَرَةِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى بَطُونِ مُضَرَّ
 مِنْ مَارَسِ أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَسِيرِهِمْ وَتَفَظُّنِ لِنَلِكِ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ أَيْنَ إِسْحَاقَ

فِي كِتَابِ السَّيْرِ وَغَيْرِهِ فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ أَشْرَاطَ الْقُرْشِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ النَّازِعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْغَلَبِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ لَا يَخْصُ الْأَحْكَامَ بِحِجَلٍ وَلَا عَصْرِ وَلَا أُمَّةً عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِنَايَةِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعَلَمَةَ الْمُشْمَلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرْشِيَّةِ وَهِيَ وَجُودُ الْعَصِيَّةِ فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولِي عَصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ عَلَى مَنْ مَعَهَا لِعَصْرِهَا لِيَسْتَنْبِعُوا مِنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ فِي الْأَفْطَارِ وَالْأَفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقُرْشِيَّةِ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ كَانَتْ عَامَّةً وَعَصِيَّةُ الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَةً بِهَا فَعَلَبُوا سَائِرَ الْأُمَمِ وَإِنَّمَا يُخْصُ لِهَذَا الْعَهْدِ كُلُّ فُطْرٍ بَيْنَ تَكُونٍ لَهُ فِيهِ الْعَصِيَّةُ الْغَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ سِرَّ اللَّهِ فِي اخْتِلَافِهِ لَمْ تَعُدْ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَرُدَّهُمْ عَنْ مَضَارِّهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يَخَاطَبُ بِالْأَمْرِ إِلَّا مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ إِلَّا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ ^(١) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَنْتَهَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُلْنَ تَبَعًا لِلرَّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخُطَابِ بِالْوَضْعِ وَإِنَّمَا دَخَلْنَ عَنْدَهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ عَلَيْهِنَّ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخُطَبُوهُنَّ فِيهَا بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ حِجَلٍ إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقُلْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالِفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

اعْلَمْ أَنَّ الشَّيْعَةَ لَعْنَةُ هُمُ الصَّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ وَيُطَاقَى فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ مَنْ أَخْلَفَ وَالسَّلَفَ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ جَمِيعًا مُتَّفَقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفُوضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ وَبِتَعْيِنِ الْقَائِمِ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنٌ مِنَ الدِّينِ وَقَاعِدَةٌ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالُهُ وَلَا تَفْوِضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْأَمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَعْصُومًا مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَإِنَّ

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الغنير الرازي قاله نصر

عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيْنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنُصُوصٍ يَقُولُونَهَا وَيُؤَلِّفُونَهَا
 عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جَهَابُذَةُ السُّنَّةِ وَلَا ثِقَلَةُ الشَّرِيعَةِ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ
 أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ أَوْ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمْ الْفَاسِدَةِ وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى
 جَلِّيٍّ وَخَفِيِّ فَالْجَلِّيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ قَالُوا وَلَمْ تُطْرَدِ هَذِهِ الْوَلَايَةُ
 إِلَّا فِي عَلِيٍّ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَمِنْهَا قَوْلُهُ أَفْضَاكُمْ عَلِيٌّ
 وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِأُولِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتِهِمْ
 بِقَوْلِهِ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَالْمُرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَلِهَذَا
 كَانَ حُكْمًا فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِينَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ مَنْ بَيَّاعِي عَلِيٍّ
 رُوحِهِ وَهُوَ وَصِيٌّ وَوَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي فَلَمْ يَبَّاعِيَهُ إِلَّا عَلِيٌّ وَمِنْ أَخْيَرٍ عِنْدَهُمْ بَعَثَ
 النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوْسِمِ حِينَ أُنْزِلَتْ فَإِنَّهُ بَعَثَ
 بِهَا أَوَّلًا أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ أَوْحَى إِلَيْهِ لِيُبَلِّغَهُ رَجُلٌ مِنْكَ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ
 الْقَارِءَ الْمُبَلِّغَ قَالُوا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ وَأَيْضًا فَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى
 عَلِيٍّ وَامَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدِمَ عَلَيْهِمَا فِي غَزَاتَيْنِ أُسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ مَرَّةً وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ
 أُخْرَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ شَاهِدَةٌ بِتَعْيِينِ عَلِيٍّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ
 وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ عَلِيٍّ
 وَتَشْخِصِهِ وَكَذَلِكَ تَنْقَلِبُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ وَبَتَرَأُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ
 حَيْثُ لَمْ يَقْدِمُوا عَلِيًّا وَبَيَّاعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ وَبِغَمُصُونَ فِي إِمَامَتَيْهِمَا وَلَا يَأْتِفَتُ
 إِلَى نَقْلِ الْقَدَحِ فِيهِمَا مِنْ غُلَاتِهِمْ فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ
 الْأَدَلَّةُ إِنَّمَا أَتَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَصْفِ لَا بِالشَّخْصِ وَالنَّاسُ مُقْصِرُونَ حَيْثُ لَمْ يَصْعَوْا
 أَلَوْصَفَ مَوْضِعَهُ وَلَا هُمْ الزَّيْدِيَّةُ وَلَا بَتَرَأُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ وَلَا يَغْمُصُونَ فِي إِمَامَتَيْهِمَا مَعَ
 قَوْلِهِمْ بَانَ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ الْأَفْضَلِ ثُمَّ
 اخْتَلَفَتْ نَقُولُ هَؤُلَاءِ الشَّيْعَةِ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ
 بِالنِّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يَذْكُرُ بَعْدَ هَؤُلَاءِ بِسْمُونَ الْإِمَامِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى
 مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ وَهِيَ أَصْلٌ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا
 فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ لَكِنْ بِالْإِخْتِيَارِ مَعَ الشُّيُوخِ وَاشْتَرَطَ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا

زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهُؤُلَاءِ هُمُ الزَّيْدِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى صَاحِبِ
 الْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبِطُ وَقَدْ كَانَ يُنَازِرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى
 أَشْرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامَةِ فَيَلْزِمُهُ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَالَيْنِ إِمَامًا
 لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَتَّبِعِي عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَخَذَهُ
 أَيُّمًا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَازَرَ الْإِمَامِيَّةَ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ وَرَأَوْهُ يَقُولُ
 بِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَّبِعُ مِنْهُمَا رَفْضُهُ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَبِذَلِكَ تُنْمَوُ رَافِضَةً وَمِنْهُمْ
 مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ السَّبِطَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ
 ثُمَّ إِلَى وَلَدِهِ وَهُمْ الْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَوَائِفُ اخْتِلَافَاتٍ
 كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يُسَمُّونَ الْغُلَاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ
 فِي الْقَوْلِ بِالْوَهْيَةِ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ إِمَامًا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ اتَّصَفُوا بِصِفَاتِ الْإِلَهِِيَّةِ أَوْ أَنَّ
 الْأَلَةَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ وَهُوَ قَوْلُ بِالْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ النَّصَارَى فِي عَيْسَى صَلَوَاتُ
 اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَّقَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَّطَ
 مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِإِعْنَتِهِ وَالْبَرَاءَةَ
 مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقُولُ إِنَّ كِمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لغيرِهِ فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ
 لِيَكُونَ فِيهِ ذَلِكَ الْكِمَالُ وَهُوَ قَوْلُ بِالتَّنَاسُخِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْغُلَاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ
 مِنَ الْأَئِمَّةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يُعِينُ لِذَلِكَ عَنْهُمْ وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْوَاقِفِيَّةُ
 فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَتَّى لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ
 بِقِصَّةِ الْخَضِرِ قَبْلَ مِثْلِ ذَلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي السَّحَابِ وَالرَّعْدُ صَوْتُهُ
 وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلٍ رَضَوَى مِنْ أَرْضِ
 الْحِجَازِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

إِلَّا إِنْ الْأَئِمَّةَ مِنْ فُرَيْشٍ وَلَا أَلْحَقَّ أَرْبَعَةَ سِوَاهُ
 عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاهُ
 فَسَبِطُ سَبِطُ إِيْمَانٍ وَبَرٍّ وَسَبِطُ غَيْبَتِهِ كَرِّ بَلَاهُ
 وَسَبِطُ لَا يَدُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ الْوَاهُ

تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا
 بِرِضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ
 وَقَالَ مِثْلَهُ عَلَاةُ الْأِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْأَثْنَا عَشْرِيَّةُ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ
 أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْعَسْكَرِيِّ وَيَلْقَبُونَهُ الْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِمْ
 فِي الْحِلَّةِ وَتَغَيَّبَ حِينَ اعْتَقَلَ مَعَ أُمِّهِ وَعَابَ هُنَاكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ الزَّمَانِ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ
 عَدْلًا يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ فِي الْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى
 الْأَنِّ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ وَيَقْنُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِيَابِ
 هَذَا السِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرَكَبًا فِيهِمْ فَيَقْنُونَ بِأَسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ
 ثُمَّ يَنْفَضُونَ وَيَرْجِعُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ
 الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْأِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ بِمَا
 وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنْ أَخْوَارِ الْقِيَامَةِ وَقَعَتْ عَلَى
 طَرِيقِ الْعَمُوجَةِ وَلَا يَصِحُّ الْأَسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدُ
 الْحَمِيرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ بِالْخِطَابِ
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتُهُ وَأَوْدَى فَقُمُ يَا صَاحِبَ نَبِكَ عَلَى الشَّبَابِ
 إِلَى يَوْمٍ تَتُوبُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ
 فَلَيْسَ بِعَابِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْآيَاتِ
 أَدِينُ بَانَ ذَلِكَ دِينَ حَقٍّ وَمَا أَنَا فِي الشُّورِ بِذِي أَزْيَاتِ
 كَذَلِكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَسٍ حَيُّوا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي الثَّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَوْتُهُ هَؤُلَاءِ الْعُلَاةُ أَيْمَةُ الشَّيْعَةِ فَأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيُبْطِلُونَ احْتِجَاجَاتِهِمْ
 عَلَيْهَا وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَافُوا الْأِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ
 وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ أَفْتَرَقُوا فِيهِمْ مَنْ سَاقَاهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحُسَيْنِ
 ابْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَّاءِ مِنْصَرِفًا مِنَ الشَّامِ
 أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ
 بِالْأِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ الْمَلْقَبِ بِالسَّفَاحِ وَأَوْصَى هُوَ

إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَلَقَبِ بِالْمَنْصُورِ وَانْقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالْأَنْصِ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ شَيْعَةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ ابْنِي الْعَبَّاسِ وَكَانَ مِنْهُمْ
أَبُو مُسْلِمٍ وَسَلِيمَانُ بْنُ كُثَيْبٍ وَأَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ شَيْعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَرُبَّمَا
يَعُضِدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَتَ
الْوَفَاةِ وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصْبِيَّةِ الْعُمُومَةِ وَأَمَّا الزَّيْدِيَّةُ فَسَأَلُوا الْأِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ
فِيهَا وَإِنَّمَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ لَا بِالْأَنْصِ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ ثُمَّ
أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا
إِلَى الْأِمَامَةِ فَقُتِلَ وَصُلِبَ بِالْكِنَاسَةِ وَقَالَ الزَّيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ يَحْيَى مِنْ بَعْدِهِ فَمَضَى
إِلَى خُرَاسَانَ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانِ بَعْدَ أَنْ أَوْدَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
الْحُسَيْنِ السَّبْطِيِّ وَيُقَالُ لَهُ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ فَخَرَجَ بِالْحِجَازِ وَتَلَقَّبَ بِالْمُهْدِيِّ وَجَاءَهُ عَسَاكِرُ
الْمَنْصُورِ فَقُتِلَ وَعُهِدَ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَامَ بِالْبَصْرَةِ وَمَعَهُ عَيْسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ فَهَرَمَ وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمُ وَعَيْسَى وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقِ أَخْبَرَهُمْ
بِذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كِرَامَاتِهِ وَذَمَّ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ الْأِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدِ
ابْنِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّالِقَانِ فَقَضَى عَلَيْهِ وَسَبَقَ إِلَى الْمَعْصَمِ فَجَسَّهُ
وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِنَّ الْأِمَامَ بَعْدَ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ
عَيْسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ مَنْصُورٍ وَتَقَالُوا الْأِمَامَةَ فِي عَقِبِهِ
وَالِيهِ انْتَسَبَ دَعْيُ الزَّرَنْجِ كَمَا نَذَرُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِنَّ
الْأِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ أَدْرِيسُ الَّذِي قَرَّ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَاكَ
وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ أَدْرِيسُ وَأَخْطَطَ مَدِينَةَ فَاسَ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَقِبُهُ مُلُوكًا بِالْمَغْرِبِ
إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَذَرُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَبَقِيَ أَمْرُ الزَّيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ
وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
ابْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِيِّ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَامَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ
فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرُ الْأَطْرُوشُ مِنْهُمْ وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ابْنِ الْحُسَيْنِ
ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بِطَبْرَسْتَانَ دَوْلَةٌ وَتَوَصَّلَ

الدِّلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ وَالْأَسْتَبْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ كَمَا نَذَرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ .
 وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَافُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيِّ الرِّضَى إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ
 الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةً سَافَوْهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ
 وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةً سَافَوْهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاظمِ وَهُمْ الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ لَوْ قُوفِهِمْ
 عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْإِمَامَةِ وَقَوْلُهُمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ
 فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامِ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ
 كَانَ قَدَّمَاتٍ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِيهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ
 اللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ
 الْإِمَامَةِ الْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دُعَاؤُهُ
 ظَاهِرِينَ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتُهُ قَالُوا وَبَعْدَ
 مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ ابْنُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ الْمَسْتُورِينَ
 وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ الْمُهْدِيُّ الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ فِي كُتْمَةٍ وَتَتَابَعَ
 النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مَعْتَقِلِهِ بِسِجِلْمَاسَةَ وَمَلِكُ الْقَبْرِ وَانَ وَالْمَغْرِبَ وَمَلِكُ
 بَنُوهُ مِنْ بَعْدِ مُصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هُوَ لَا نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ
 إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمُّونَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ أَيْ الْمَسْتُورِ وَيُسَمُّونَ
 أَيْضًا الْمُلْحَدَةَ لِمَا فِي ضَمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ
 دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَمَلِكُ حُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ
 وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَ الْهَلَاكُ بَيْنَ مَلُوكِ التُّرْكِ بِمُصْرَ وَمَلُوكِ التُّنْجِ بِالْعِرَاقِ
 فَأَقْرَضَتْ وَمَقَالَةُ هَذَا الصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَدَّ كُورَةٌ فِي كِتَابِ الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ لِلشَّهْرِ سِتَانِي *
 وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ
 مُوسَى الْكَاظمِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ لَوَفَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا
 جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الرِّضَا الَّذِي عَهْدَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَمَاتَ
 قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الْهَادِي ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَسَنِ
 الْمُسْكِرِيِّ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْمُهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ الَّذِي قَدَّمَاتُهُ قَبْلَ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هَذِهِ الْمَقَالَاتُ لِلشَّيْعَةِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ أَشْهُرُ مَذَاهِبِهِمْ وَمَنْ ارَادَ اسْتِعْمَالَهَا وَمُطَاعَتَهَا فَعَلَيْهِ بِكِتَابِ الْمَلِكِ وَالنَّجَلِ لِابْنِ حَزْمٍ وَالشَّهْرَسْتَانِي وَغَيْرِهِمَا فَفِيهَا بَيَانُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَضِلُّ مَنْ إِشَاءَ وَيَهْدِي مَنْ إِشَاءَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة الى الملك

إِعْلَمُ أَنَّ الْمَلِكَ غَايَةُ طَبِيعَةِ الْعَصَبِيَّةِ لَيْسَ وَقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِضَرُورَةِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ الشَّرَائِعَ وَالْأَدْيَانَ وَكُلَّ أَمْرٍ يَحُلُّ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ إِذِ الْمَطْلَبَةُ لَا تَنُفِ الْأَبْيَاحُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَالْعَصَبِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمَلَكَةِ وَبُوجُودِهَا يَتِمُّ أَمْرُ اللَّهِ مِنْهَا وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّرَاعَ قَدْ ذَمَّ الْعَصَبِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى أَطْرَاحِهَا وَزَكَّاهَا فَقَالَ إِنْ اللَّهُ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِمِّيَّةً ^(١) الْجَاهِلِيَّةَ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ أَنْتُمْ بَنُو أَدَمَ وَأَدَمُ مِنْ تَرَابٍ وَقَالَ تَعَالَى إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ وَوَجَدْنَا أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمَلِكَ وَاهْلَهُ وَتَعَى عَلَى أَهْلِهِ أَحْوَالَهُمْ مِنَ الْأَسْتِحْتَاكِ بِالْخِلَافِ وَالْإِسْرَافِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ وَإِنَّمَا حَضَّ عَلَى الْإِلَافَةِ فِي الدِّينِ وَحَدَّرَ مِنَ الْخِلَافِ وَالْفُرْقَةِ * وَأَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَحْوَالَهَا مَطِيَّةٌ لِلْآخِرَةِ وَمَنْ فَقَدَ الْمَطِيَّةَ فَقَدَ الْوُصُولَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ فِيمَا يَنْتَهَى عَنْهُ أَوْ يَذْمُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالُهُ بِالْكَلِمَةِ أَوْ اقْتِلَاعُهُ مِنْ أَصْلِهِ وَتَعْطِيلُ الْقَوَى الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِالْكَلِمَةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَصْرِيفُهَا فِي أَغْرَاضِ الْحَقِّ جُهْدَ الْأَسْتَطَاعَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقًّا وَتَتَّحِدَ الْوُجْهَةُ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ أَمْرَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهُجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَذْمُ الْعُزْبُ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْغَضَبِ لَفَقَدَ مِنْهُ الْإِنْتِصَارُ لِلْحَقِّ وَبَطَلَ الْجِهَادُ وَإِعْلَاؤُ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَذْمُ الْعُزْبُ لِلشَّيْطَانِ وَلِلْأَغْرَاضِ الذَّمِيمَةِ فَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلذِّكِّ كَانَ مَذْمُومًا وَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ كَانَ مَمْدُوحًا وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَا ذَمُّ الشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ الْمُرَادُ إِبْطَالُهَا بِالْكَلِمَةِ فَإِنَّ مَنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ كَانَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَصْرِيفُهَا فِيمَا أُيِّحَ لَهُ بِاشْتِمَالِهِ

(١) عبة: ضم العين وكسرها وكسر الموحدة. شدة: وتشدد بالفتحة النخبة: الكبر والنخ: الخرقاء قاموس

عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَصَرِّقًا طَوْعَ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصِيَّةِ حَيْثُ
 ذَمُّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ فَإِنَّمَا مِرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ
 الْعَصِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ
 عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ نَجَانٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ
 فَإِنَّمَا إِذَا كَانَتْ الْعَصِيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةُ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ
 إِذْ لَا يَتِمُّ قَوَامُهَا إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ كَمَا فَلَنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمَلِكُ لَمَّا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ
 مِنْهُ الْغَلَبُ بِالْحَقِّ وَفَهَرَ الْكَافَّةُ عَلَى الدِّينِ وَرِئَاةِ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمُّهُ لِمَا فِيهِ مِنْ
 التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ وَتَضَرُّفِ الْأَدَمِيِّينَ طَوْعَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا فَلَنَاهُ فَلَوْ كَانَ
 الْمَلِكُ مُخْلِصًا فِي غَلَبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ وَلِحَمَلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ
 ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ قَالَ سَلِيمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
 بَعْدِي لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي التُّبُوءَةِ وَالْمُلْكِ * وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَهْبَةِ الْمَلِكِ وَزِيهِ مِنْ
 الْعَدِيدِ وَالْعَدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ أَكْسَرِيَّةٌ يَا مُعَاوِيَةُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 أَنَا فِي تَعَرُّجِ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مَبَادِيئِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ فَسَكَتَ وَلَمْ يَخْطِئْهُ
 لِمَا أَحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالِدِّينِ فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمَلِكِ مِنْ
 أَصْلِهِ لَمْ يَقْنَعْهُ أَجْوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرِيَّةِ وَانْتَهَالِهَا بَلْ كَانَ يُخَرِّضُ ذَلِكَ خُرُوجَهُ عَنْهَا
 بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكَسْرِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي ذَلِكَ يَوْمٍ مِنْ
 أَنْ يَكْتَبَ الْبَاطِلُ وَالظُّلْمَ وَالْبَغْيَ وَسُلُوكَ سَبِيلِهِ وَالْعَفْلَةَ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ
 بِذَلِكَ لَيْسَ كَسْرِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلِهِمْ وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَسَكَتَ * وَهَكَذَا
 كَانَ شَأْنُ الصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمَلِكِ وَأَحْوَالِهِ وَنَسِيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنَ التَّيَاسُفِ بِالْبَاطِلِ
 فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَهْمُ
 أُمُورِ الدِّينِ وَارْتِضَاهُ النَّاسَ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجِرْ
 لِلْمَلِكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّ مَقْلَبَهُ لِلْبَاطِلِ وَنَحْلَهُ يَوْمئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ
 بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَّبِعًا سُنَنَ صَاحِبِهِ وَقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ
 عَلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْنَتِي أَثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ

مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَأَنْزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ
 عَفَّانٍ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْكُلُّ مُتَبَرِّتُونَ مِنَ الْمُلْكِ مُنْكَبُونَ عَنْ طُرُقِهِ
 وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ الْإِسْلَامِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ
 الْأَمْرِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرْفِئِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النَّعِيمِ
 وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْعَبَسِ وَشَطَفَةِ الَّذِي الْفَوُءُ
 فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْنًا مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ
 زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِعَمَلِهَا
 مِنْ رِبْعَةٍ وَالْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ
 الْعُقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَغْفُرُونَ بِأَكْلِ الْعَلَبَرِ وَهُوَ وَرَأْسُ الْأَيْلِ يَمْهُونَهُ بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِ
 وَيَطْبَخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا كَانَتْ حَالُ فُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ
 عَصِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا
 إِلَى أَمِّ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصِّدْقِ فَابْتَزَوْا
 مُلْكَهُمْ وَأَسْتَبَاحُوا دِيَارَهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارِ الرَّفَةِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ
 لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا فَاسْتَوَلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ
 الْحَصَرُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْنِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرَفِّعُ نَوْبَهُ بِالْجُلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ
 يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَرِيٍّ غَرِيٍّ وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَنَّبُ عَنْ أَكْلِ الدَّلَجِ لِأَنَّهُ لَمْ
 يَعْبُدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمئِذٍ وَكَانَتْ الْمَنَاحِلُ مَفْقُودَةً عَنْدهُمْ بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ
 الْحِنْطَةَ يَنْخَالُهَا وَمَكَا سَبَهُمْ مَعَ هَذَا أَمَّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ الْمَسْعُودِيُّ
 فِي أَبَامِ عُثْمَانَ أَقْتَنَى الصَّحَابَةُ الصِّيَاعَ وَالْمَالُ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ
 وَمِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي الْقَرْيِ وَحَنِينٍ وَغَيْرِهِمَا
 مِائَتَا أَلْفٍ دِينَارٍ وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ
 وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ أَلْفِ قَرَسٍ وَأَلْفَ أُمَّةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ
 أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاقَةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 بْنِ عَوْفٍ أَلْفُ قَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ أَلْفٍ مِنَ الْغَنَمِ وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ
 بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلْفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ

بِالْفُؤُسِ غَيْرَ مَا خَلَفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضَّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ وَبَنَى الرَّبِيزُ دَارَهُ
 بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةَ وَالْأَسْكَدَرِيَّةَ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ
 بِالْكُوفَةِ وَشَدَّ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْجَنْصِ وَالْأَجْرَ وَالسَّاجَ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي
 وَقَاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَمَكَهَا وَأَوْسَعَ فُضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلَاهَا شُرَفَاتٍ وَبَنَى
 الْمَقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا تَحْصَصَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلَفَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَنِهَ حَسَنِينَ
 أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيَمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ أَهْ كَلَامُ الْمُسْعُودِيِّ
 فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْنِيًا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ
 حَلَالٌ لِأَنَّهُمْ غَنَائِمٌ وَفُيُوءٌ وَلَمْ يَكُنْ نَصْرُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي
 أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا هُ فَلََمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْأَسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا
 فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ
 حَالُهُمْ قَصْدًا وَنَفَقَاتُهُمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْأَسْتِكْثَارُ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى
 طُرُقِ الْحَقِّ وَكَتْسَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الدَّيَاوَةُ وَالْفَضَاضَةُ إِلَى نَهَايَتِهَا
 وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَا هُ وَحَصَلَ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ كَانَ
 حُكْمُ ذَلِكَ الْمَلِكِ عِنْدَهُمْ حُكْمُ ذَلِكَ الرَّفَةِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا
 ذَلِكَ التَّغَلُّبُ فِي بَاطِلٍ وَلَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعَتْ
 الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْإِجْتِهَادُ وَلَمْ
 يَكُونُوا فِي مُحَادَثَتِهِمْ لِعَرَضِ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِيْثَارِ بَاطِلٍ أَوْ لِاسْتِشْعَارِ حَقْدٍ كَمَا قَدْ بَيَّنَّاهُ
 مُتَوَهِّمٌ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ فُلُحْدٌ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ وَسَنَّهُ كُلُّ وَاحِدٍ نَظَرَ
 صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ فَاقْتَنَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِمًا
 فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ ثُمَّ
 اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الْإِنْتِرَادَ بِالْمَجْدِ وَاسْتِثْنَاءَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ
 يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فُؤُوءَ أَمْرٍ طَبِيعِيٍّ سَاقَتُهُ الْعَصَبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَاسْتَشْعَرَتْهُ بُؤَؤُ امِيَّةٍ وَمَنْ
 لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي أَتْفَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَأَعَصَوْصَبُوا عَلَيْهِ وَاسْتَمَاتُوا
 دُونَهُ وَلَوْ حَمَاهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الْإِنْتِرَادِ بِالْأَمْرِ لَوُفُّوعٍ فِي
 أَفْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهْمٌ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرُ مُخَالَفَةٍ

وَقَدْ كَانَتْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَائِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بَنَ
أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلَكِنَّهُ
كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَا فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِّلَ الْأَمْرَ
عَنْهُمْ إِلَّا نَفَعَ الْفُرْقَةَ وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ
فَالْمَلِكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ الْوَاحِدَ انْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَوُجُوهِهِ
لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدْ انْفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُو دَاوُدُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِهِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ مِنَ الْإِنْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ النُّبُوَّةِ
وَالْحَقِّ وَكَذَلِكَ عَهْدُ مُعَاوِيَةَ إِلَى يَزِيدَ خَوْفًا مِنْ أَفْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ
لَمْ يَرْضُوا تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْ قَدْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ
كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِعَهْدِ إِلَيْهِ
وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفُسْقِ حَاشَا لِلَّهِ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانُ
ابْنُ الْحَكَمِ وَأَبْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي الْمَلِكِ مَذْهَبُ أَهْلِ الْبِطَالَةِ
وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ جُنْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا
مِثْلَ خَشْيَةِ أَفْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّذِي هُوَ أَهَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالْإِفْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدْ أَحْتَجَّ مَالِكٌ
فِي الْمُوطَّأِ بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبِيقَةِ الْأُولَى مِنَ النَّابِعِينَ وَعَدَالَتِهِمْ
مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ الْأَمْرُ فِي وُلْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ
وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَتَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُنْدَهُ وَلَمْ
يُهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلْفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمَلِكِ فِي أَغْرَاضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَلَسُوا
مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّيِ الْقَصْدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا
دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعُوا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالِدَّعْوَةِ الْعَبَاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلَّى رِجَالَهَا الْأَمْرَ
فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا الْمَلِكَ فِي وَجْهِهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى
جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ
فَأَعْطُوا الْمَلِكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ وَانْعَمَسُوا فِي الدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا وَتَبَدَّلُوا الدِّينَ وَرَأَاهُمْ ظَهْرِيًّا
فَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِجَرِّهِمْ وَانْتَزَعَ الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمَكَّنَ سِوَاهُمْ وَاللَّهُ لَا

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ سَيْرَ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي تَعْرِی الْحَقِّ
 مِنَ الْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَاوَهُ وَقَدْ حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ
 أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتَهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ أَمَّا عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ
 جَبَّارًا لَا يُبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هَمُّهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ أَعْوَرَ
 بَيْنَ عُمَيَّانَ وَكَانَ رَجُلُ الْقَوْمِ هَشَامٌ قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ ضَاطِبِينَ لِمَا مَهَّدَ لَهُمْ مِنَ
 السُّلْطَانِ يُحَوِّطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ تَسْنِيمِهِمْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَرَفْضِهِمْ
 دَنِيَّاتِهَا حَتَّى أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى أَبْنَائِهِمُ الْمُتَرَفِّينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ
 اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِهِ وَأَمْنًا لِمَكْرِهِ مَعَ أَطْرَاحِهِمْ صَيَانَةَ الْخِلَافَةِ
 وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ السِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْمُومَ الدُّلَّ وَنَقَبَ
 عَنْهُمْ التَّعَمُّةَ ثُمَّ اسْتَحْضَرَ عَبْدُ اللَّهِ ^(١) بْنُ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ مَعَ مَلِكِ التُّوبَةِ لَمَّا
 دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَأَرَاهُ أَيَّامَ السُّفَاحِ قَالَ أَقَمْتُ مَلِكًا ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَى الْأَرْضِ
 وَقَدْ بُسِطَ لِي فُرْشٌ ذَاتُ قِيَمَةٍ فَقُلْتُ مَا مَنَعَكَ عَنِ الْقُعُودِ عَلَى ثِيَابِنَا فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ
 وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِعَظَمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي لِمَ تَشْرَبُونَ الْخَمْرَ
 وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَقُلْتُ أَجْتَرَأُ عَلَى ذَلِكَ عِبِيدُنَا وَأَتَبَاعُنَا قَالَ فَلِمَ تَطْشُونَ
 الزَّرْعَ يَدَوَابِكُمْ وَالْفَسَادَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ قُلْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ عِبِيدُنَا وَأَتَبَاعُنَا بِجَهْلِهِمْ قَالَ
 فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيَابِجَ وَالذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ قُلْتُ ذَهَبَ مِنَّا
 الْمَلِكُ وَانْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ الْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُرْهِ مِنَّا فَأُطْرُقَ
 يَنْكِتُ يَدِهِ فِي الْأَرْضِ وَيَقُولُ عِبِيدُنَا وَأَتَبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ
 إِلَيَّ وَقَالَ لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَا عَنْهُ
 نَهَيْتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ فَسَلَبَكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْمُومَ الدُّلَّ يَذْنُوبُكُمْ وَلِلَّهِ نَقْمَةٌ لَمْ
 تُبْلَغْ غَائِبَتُهَا فِيكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُحِلَّ بِكُمْ الْعَذَابَ وَأَنْتُمْ بِلَيْدِي فِيمَا لِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا
 الضِّيَافَةُ ثَلَاثُ قَرُودٍ مَا أَحْتَجُّ إِلَيْهِ وَأَرْجُلُ عَنْ أَرْضِي فَتَجَعَّبَ الْمَنْصُورُ وَأُطْرُقَ فَقَدْ
 تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَارِعُ
 كُلِّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكُلُّنَا يُؤْتِرُونَهُ عَلَى أُمُورِ دِيَارِهِمْ وَإِنْ أَفْضَتْ إِلَى

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك واطنه تصحيفا قاله نصر

هَلَاكِهِمْ وَحَدَّثَهُمْ دُونَ الْكَافَّةِ فَبَدَا عُثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي الدَّارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَأَمَثَالُهُمْ يُرِيدُونَ الْمُدَافَعَةَ عَنْهُ فَأَبَى وَهَجَّ مِنْ سَلِّ
السُّيُوفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ وَحِظًا لِلْإِلَافَةِ الَّتِي بَهَا حِظُ الْكَلِمَةِ وَلَوْ أَدَّى
إِلَى هَلَاكِهِ وَهَذَا عَلِيُّ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغْيِرَةُ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ بِاسْتِيقَافِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ عَائِدَةٌ
وَطَلْحَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَتِهِ وَتَتَّفِقَ الْكَلِمَةُ وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ
مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ فَأَبَى فِرَارًا مِنَ الْغَشِّ الَّذِي يُنَافِيهِ إِلَّا سَلَامًا
وَعَدًا عَلَيْهِ الْمُغْيِرَةُ مِنَ الْعُدَاةِ فَقَالَ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَيْكَ بِالْأَمْسِ بِمَا أَشْرْتَ ثُمَّ عُدْتُ إِلَى
نَظْرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيمَا رَأَيْتَهُ أَنْتَ فَقَالَ عَلِيُّ لَا وَاللَّهِ
بَلْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ تَصْحَتُنِي بِالْأَمْسِ وَغَشَشْتَنِي الْيَوْمَ وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِمَّا أَشْرْتَ بِهِ زَائِدُ
الْحَقِّ وَهَكَذَا كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ بِنِسَارِ دُنْيَاهُمْ وَنَحْنُ

نُزْفِعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينَأَ بَقِيَ وَلَا مَا نُزْفِعُ

فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى الْمَلِكِ وَبَقِيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَحْرِى الدِّينِ
وَمَدَاهِيهِ وَالْجُرْيِ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ وَلَمْ يَظْهَرْ الْغَيْثُ إِلَّا فِي الْوُزَاعِ الَّذِي كَانَ دِينًا
ثُمَّ انْقَلَبَ عَصِيَّةً وَسَيْفًا وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ وَمَرْوَانَ وَابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ
وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الرَّشِيدِ وَبَعْضُ وَلَدِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسْمَاءُ وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ الْغُلَبِ إِلَى غَايَتِهَا وَاسْتَعْمِلَتْ
فِي أَغْرَاضِهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّقْلُبِ فِي الشَّمُوتِ وَالْمَلَاذِ وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لَوْلِي عَبْدِ
الْمَلِكِ وَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَسْمُ الْخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ لِبَقَاءِ عَصِيَّةِ
الْعَرَبِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ فِي الطَّوَرَيْنِ مُلْتَبَسٌ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ ثُمَّ ذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ
وَأَثَرُهَا بِذَهَابِ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جَيْلِهِمْ وَتَلَاشِي أَحْوَالِهِمْ وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا
كَمَا كَانَ الشَّانُ فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبَرُّكًا وَالْمَلِكِ
بِجَمْعِ الْقَابِ وَنَاحِيهِ لَهُمْ وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ
مِثْلَ صَنَاجِدَةٍ مَعَ الْعَبِيدِيَّينَ وَمَغْرَاوَةَ وَبَنِي يَفْرُبَ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ
وَالْعَبِيدِيَّينَ بِالْقَبِيرِ وَانْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمَلِكِ أَوَّلًا ثُمَّ التَّبَسَّتْ
مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمَلِكُ حَيْثُ انْفَرَقَتْ عَصِيَّتُهُ مِنْ عَصِيَّةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ

مُقَدَّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة ^(١)

اعْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَانَ الْمُبَايَعُ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ
النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَنْزِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يَكْتَفُهُ
بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنْشِطِ وَالْمُكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا
أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً مُصَدَّرَ
بَاعَ وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَاحَةً بِالْأَيْدِي هَذَا مَدْلُولُهَا فِي عَرَفِ الْأَعْيَانِ وَمَعْنَى الشَّرْعِ وَهُوَ
الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ وَحِشْمًا
وَرَدَّ هَذَا اللفظ وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخُلَفَاءُ يُسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ
وَيَسْتَوْعِبُونَ الْإِيمَانَ كُلِّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَ هَذَا الْإِسْتِعَابُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِيمَانُ كَرَاهٍ
فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِيمَانِ كَرَاهٍ أَنْ يَكْرَهَا
الْوَلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مَحْنَةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكَسْرُ وَبِهِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ
أَوْ الْيَدِ أَوْ الرِّجْلِ أَوْ الذِّلِّ أُنْطِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا
كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالْإِزَامِ الْأَدَابِ مِنْ تَوَاضِعِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ
حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عَرَفِيَّةً وَاسْتَعْنَى بِهَا عَنْ مُصَاحَةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي
الْأَصْلِ لِمَا فِي الْمَصَاحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنْزِيلِ وَالْإِبْتِدَالِ الْمُتَابِعِينَ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ
الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي الْأَقْلِ مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضِعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ
خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَأَفْهَمَ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى
الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عِبَادًا وَجَبَانًا
وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكسرها على وزن شبعة يسكون الياء فيها فهي معبد النصارى اهـ

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إِعلم أَنَّا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِي الْأَمَّةِ وَمَشْرُوعِيَّتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَيَقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا وَيَتَّقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثَقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلَ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَأَنْعِقَادِهِ إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِحَضْرَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُهُ وَأَوْجِبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَهْدَ عُمَرَ فِي الشُّوْزَى إِلَى السَّنَةِ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَقَوَّضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَأَجْتَهَدَ وَتَأَخَّرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ عَلِيٌّ فَأَثَرُ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمَوَاقِفِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الْإِفْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فِي كُلِّ مَا يَعْنِي دُونَ اجْتِهَادِهِ فَأَعْقَدَ أَمْرَ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجِبُوا طَاعَتَهُ وَالْمَلَأُوا مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأَوَّلَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يَنْكُرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ وَالْاجْتِمَاعُ بِحُجَّةٍ كَمَا عُرِفَ وَلَا يَتَّبِعُهُ إِلَّا مَأْمُونٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَأَوَّلَى أَنْ لَا يَحْتَمِلَ فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي التَّوَلَّدِ وَالْوَالِدِ أَوْ لِمَنْ خَصَّصَ التَّهْمَةَ بِالتَّوَلَّدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِيْثَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَتَنَبَّهُ الظَّنُّ فِي ذَلِكَ رَأْسًا كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فِعْلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وَفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لِإِيْثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مِرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ إِذْ بَنُو أُمِيَّةٍ يَوْمَئِذٍ لَا يَرْضَوْنَ سِوَاهُمْ وَهُمْ عَصَابَةُ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ أَجْمَعٍ وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ فَأَثَرُهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظُنُّ أَنَّهُ أَوَّلَى بِهَا وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصًا عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّذِي شَأْنُهُ أَهَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَإِنْ كَانَ لَا يُظُنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هَذَا فَعَدَالَتُهُ

وَصَحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ
عَلَى انْتِفَاءِ الرَّيْبِ فِيهِ فَلْيَسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ
الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ تَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مَبَاحًا
كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِلَافَةِ هَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ
عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ وَتُدَوِّرُ الْخِلَافَ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ
مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخِلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسَلِيمَانَ
مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالسَّفَّاحَ وَالْمَنْصُورَ وَالْمَهْدِيَّ وَالرَّشِيدَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَلَهُمْ مِمَّنْ
عَرَفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحَسَنَ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِشَارَةُ أُنْبَاءِهِمْ
وَأَخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ الْخِلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلَئِكَ
الْخِلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدَثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوِزَاعُ دِينِيًّا فَعِنْدَ كُلِّ
أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعَبِدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الدِّينُ فَقَطَّ وَاتَّزَوْهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَّلُوا كُلَّ
مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ قَدْ
أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ وَالْوِزَاعِ الدِّينِيِّ قَدْ ضَعُفَ وَاحْتِجَاجُ إِلَى الْوِزَاعِ السُّلْطَانِيِّ
وَالْعَصْبَانِيِّ فَلَدَى عَهْدٍ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدُ وَاتَّقَضَ أَمْرُهُ
سَرِيعًا وَصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا بَالُ
الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَالَ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ
كَانَا وَالْيَمِينَ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالْغَدِ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ الدِّينِ أَفَلَا تَرَى إِلَى
الْأَمَامُونَ لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَسَمَاهُ الرَّضَا كَيْفَ أَنْكَرَتْ
الْعَبَاسِيَّةُ ذَلِكَ وَتَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَتَابَعُوا لِعِمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ الْوِزَجِ
وَالْخِلَافِ وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ الْأَرْضَ حَتَّى بَادَرَ
الْأَمَامُونَ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادٍ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمُعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَعْتَابِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ
فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ
بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يُخْصُهُ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ
يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التِّرَاثِ عَلَى الْأَنْبَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ

مِنْ اللَّهِ يَخْصُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحَسِّنَ فِيهِ النَّيَّةَ مَا أَمَكَنَ خَوْفًا مِنْ
 أَلْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَلِكُ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو
 الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا * فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفَسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ
 فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ
 وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْدِلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَيَتَبَاهَى عَنْهُ وَهُوَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ
 وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَكِنَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفَسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ
 حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَتَقَضَّى بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ
 الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا
 فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوُفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمئِذٍ هِيَ
 عَصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَبِيعُ عَصِيَّةَ مُصَرَّاجٍ جَمْعٍ وَهِيَ
 أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مَقَاوِمَتُهُمْ فَأَفْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى
 الدُّعَاءِ بِهَيْدَابَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَلِّ تَجْتَمِعُونَ وَلَا
 يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبَرِّ وَتَحَرِّيِ الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَقِنَا اللَّهُ
 لِلْإِقْدَاءِ بِهِمْ * وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ
 الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَوْرَثُ لَمْ يَصَحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أئِمَّةِ النُّقُلِ
 وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ
 مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ
 فِي الْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أَعْيَدَ فَقَدْ عَهْدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ
 مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْيِدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِلْعَبَّاسِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ لَاحِظٌ عَنْ
 شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ
 وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِيمٌ أَنَّهُ لَمْ يَوْصَ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ
 إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ
 الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفُوضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا
 شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَكِنْ يَسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَكِنْ يَشْهَرُ

كَمَا اَشْتَهَرَ اَمْرُ الصَّلَاةِ وَاجْتِنَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ
 فِي قَوْلِهِمْ اَرْضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا دَلِيلٌ عَلَى
 أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَنْقَعْ وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُبَحًّا
 كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَشَأْنُ الْعَصْبِيَّةِ الْمُرَاعَاةُ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقُ فِي تَجَارِي الْعَادَةِ
 لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ لِاعْتِبَارٍ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ
 مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَاسْتِمَانَةِ النَّاسِ دُونَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا
 يَشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خُطَابِ
 اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَخْتِجْ إِلَى مُرَاعَاةِ الْعَصْبِيَّةِ لِمَا شَمَلَ النَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ
 الْأَقْبَادِ وَالْإِذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْأَحْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ
 وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ الَّتِي وَجَّهُوا مِنْهَا أَوْدُهُشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ
 وَالْعَهْدِ وَالْعَصْبِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُنْدَرِجًا فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْحَصَرَ
 ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ ثُمَّ بَفَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ
 الصِّبْغَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَذَهَبَتْ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ فَاعْتَبِرْ أَمْرَ
 الْعَصْبِيَّةِ وَتَجَارِي الْعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ وَالْخِلَافَةُ
 وَالْعَهْدُ مِمَّا مُبَحًّا مِنَ الْمُهِمَّاتِ الْأَكْبَدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ فَانْظُرْ
 كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ فَلَمْ يَعْهَدْ فِيهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتْ
 الْأَهْمِيَّةُ زَمَانًا لَخِلَافَةِ بَعْضِ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ
 الرِّدَّةِ وَالْفُتُوحَاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 ثُمَّ صَارَتْ الْيَوْمَ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ لِإِلَافَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَاعْتَبِرْتَ فِيهَا
 الْعَصْبِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَازِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمَشَا الْاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ
 بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا * وَالْأَمْرُ الثَّلَاثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ
 بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَأَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّيْنِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنْ
 الْجَهْدِ فِي الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا
 إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْجَهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادَفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ
 فَإِنَّ جِهَتَهُ لَا تَتَعَيَّنُ بِاجْتِمَاعِ فَيَبْقَى الْكُلُّ عَلَى أَحْتِمَالِ الْإِصَابَةِ وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ

مِنْهَا وَالتَّائِبُ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ
 مُصِيبٌ فَأَحْرَى بِنَفْيِ الْخَطَايَا وَالتَّائِبِينَ وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّالِعِينَ أَنَّهُ
 خِلَافُ أَجْتِهَادِي فِي مَسَائِلِ دِينِيَّةٍ ظَنِيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ
 إِنَّمَا هُوَ وَاقِعُهُ عَلَيَّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ
 وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلَيٍّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ
 مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلَيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ مَنْ
 تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ
 وَالْمُعِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَقِدَامَةَ بْنِ مَطْعُونٍ وَابِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ وَكَعْبَ
 بْنِ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ وَمُسْلِمَةَ بْنَ مُخَلَّدٍ وَفَضَالََةَ بْنَ عُبَيْدٍ وَمِثْلَهُمْ
 مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ
 عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُولُونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ
 هَوَادَةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِهِ لَا فِي الْمَالَةِ عَلَيْهِ فَخَاشَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ
 وَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَخَ بِمَلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوجِّهَهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطُّ ثُمَّ اخْتَلَفُوا
 بَعْدَ ذَلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعٍ مِنْ أَجْتَمَعَ
 عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَاءِ الْأَمْرِ فِي
 الْمُطْلَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتِمَّ كُنْ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ
 وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ بِالْآفَاقِ وَلَمْ
 يَحْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تُلْزَمُ بِعَقْدِ
 مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى فِطَالِبُونَ
 أَوْلَا بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ
 وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ وَطَلْحَةُ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ
 وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ
 تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِ
 اتَّفَقُوا عَلَى اتِّعَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلُزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصَوِّبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ
 إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الْخَطَايَا مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصًا طَلْحَةَ

وَالَّذِينَ بَرَزُوا لِنَتَاقِزِهِمَا عَلَى عِلِّيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ التَّائِيهِ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
كَالشَّانِ فِي الْمُجْتَمِعِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي أَهْلِ
الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِي الْجَمَلِ وَصِفَتِي
فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَفِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى
الْفَرِيقَيْنِ نَقْلَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدَحٌ فِي
شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَاهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنْدَاتِ وَعَدَالَتِهِمْ
مَقْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بَعْثِينَ الْأَنْصَارِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ
الْإِخْلَافِ فِي عُثْمَانَ وَإِخْلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً أَبْتَلَى اللَّهُ
بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَتَزَلُّوا
الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ
تَزَلُّوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جُنَاةً لَمْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا
أَرْتَضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْخِلَافِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنِ
سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِحْضَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكََةِ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ مِنْ فُرُشٍ وَكِمَانَةٍ وَتَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَتَرَّبِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ
إِلَى الْإِيمَانِ فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَضُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ
وَكَثَرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلَ قِبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلَ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَيْعَةَ
وَقِبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مِصْرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ فُرُشٍ
وَالْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ وَالتَّمَرُّيْضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالْإِسْتِعْدَاءِ
عَلَيْهِمْ وَالطَّغْنِ فِيهِمْ بِالْعِزِّ عَنِ السُّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ
بِذَلِكَ وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانُ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ
مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمَّ
يُنْكِرُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ شَيْئًا وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَغْنًا وَادَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقُطِ
الطَّغْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنَمُّوْرُمِي الْوَلِيدُ بْنُ عَقَبَةَ وَهُوَ عَلَى
الْكُوفَةِ بِشَرْبِ الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّه عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ

مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَالِ وَشَكَاوَهُ إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ
 لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَادِي وَهُوَ
 عَلَى الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ أَعْرَضَهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّهُ مَعْرُولا ثُمَّ انْتَقَلَ اخْتِلَافَ بَيْنِ
 عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَتَقَمُّوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَايُّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 عَلَى جُرْحِهِ ثُمَّ نَقَلُوا النُّكَيْرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالْإِحْتِهَادِ وَهُمْ أَيْضًا
 كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْغَوَاةِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظَاهِرُونَ طَلِبَ النَّصْفَةِ مِنْ عُثْمَانَ
 وَهُمْ يُظَاهِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصَرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي
 ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الْأُمُورِ وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى
 رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلٌ مِصْرَ فَأَنْصَرَفُوا قَلِيلًا ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَسُوا بِكِتَابِ مَدْلَسٍ يَزْعُمُونَ
 أَنَّهُمْ لِقُوهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلٍ مِصْرَ يَأْتِيهِمْ وَحَلَفَ عُثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكِنَّا
 مِنْ مَرَّوَانٍ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَخَافَ مَرَّوَانُ فَقَالَ لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَحَاصِرُوهُ
 بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَمَلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتَلُوهُ وَأَنْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ فَاجْتَمَعَ مِنْ هَؤُلَاءِ
 عُدُوٌّ فِيمَا وَقَعَ وَكَلِمَةٌ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئًا مِنْ تَعَالُقَاتِهِ ثُمَّ نَظَرُوا
 بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَتَحَنُّنٌ لَا نَظَرَ بِهِمْ إِلَّا
 خَيْرًا لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فَسَقُ
 يَزِيدٌ عِنْدَ الْكَافَّةِ مِنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شَيْعَةُ أَهْلِ الْيَمَنِ بِالْكُوفَةِ الْحُسَيْنَ أَنْ
 يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنْ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدٍ مُتَعَيْنٌ مِنْ أَجْلِ فَسَقِهِ لَا
 سِيَّامًا مِنْ لَهْ الْقُدْرَةِ عَلَى ذَلِكَ وَظَنَهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ
 كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا الشُّوْكَةُ فَغَلَطَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصِيَّةَ مِصْرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ
 وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا
 يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا لَبِئْسَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الدُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ
 وَأَمْرِ الْوَحْيِ وَتَرَدَّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَأَغْلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ
 عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنَسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِفَاعِ
 يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ وَالِدِّينِ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَعْرُولَةٌ
 حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهْوَلَةِ تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ

فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلِمَنْ كَانَتْ وَأَصْبَحَتْ مُضَرَّ أَطْوَعَ لِيَّيْ أُمِيَّةٍ مِنْ سِوَاهُمْ
بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ لَا يُضِرُّهُ
الْغَلَطُ فِيهِ وَآمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى
ذَلِكَ وَلَقَدْ عَدَلَهُ ابْنُ الْعَبَّاسِ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ آخَرُهُ وَغَيْرُهُ
فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ
اللَّهُ وَآمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِنْ
التَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ
الْهَرَجِ وَالِدِمَاءِ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَا أُنْمُوهُ
لِأَنَّهُ مُجْتَنَبٌ وَهُوَ أَسْوَأُ الْمُجْتَنَبِينَ وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْثِيمٍ هُوَ لَا بِخَالَفَةِ
الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ
عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهِدُ بِهِمْ وَهُوَ يَكْرِ بِلَاءَهُ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ وَيَقُولُ سَلُوا جَابِرَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ وَآبَا سَعِيدَ الْخُدْرِيِّ وَآسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُمْ
وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلَا تَعَرَّضَ لِذَلِكَ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنْ اجْتِهَادٍ وَإِنْ
كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَبِكَوْنُ ذَلِكَ كَمَا يُعَدُّ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنَفِيُّ عَلَى شُرْبِ
النَّبِيذِ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقَتْلَهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ اجْتِهَادٍ هُوَ لَا وَإِنْ كَانَ خِلَافُهُ
عَنْ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدُ وَأَصْحَابُهُ وَلَا تَقُولُونَ إِنْ يَزِيدُ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا
وَلَمْ يَجِزْ هُوَ لَا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفِذُ مِنْ أَعْمَالِ
الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا وَقِتَالُ الْبَغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرَطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ
وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْئَلَتِنَا فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلَاتِهِ
الْمُؤَكَّدَةِ لِنَفْسِهِ وَالْحُسَيْنِ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادٍ وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ
كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادٍ وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ
فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ . إِنْ الْحُسَيْنُ قَتِلَ
بِشَرِّ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطٌ حَمَلَتْهُ عَلَيْهِ الْعُقْلَةُ عَنْ اشْتِرَاطِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنْ
الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْأَرَاءِ وَآمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى
فِي مَنَامِهِ مَا رَأَاهُ الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَعَلَطَهُ فِي أَمْرِ الشُّوْكَةِ أَعْظَمَ لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ

لَا يَقَاوِمُونَ بَنِي أُمِّيَّةٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ وَالْقَوْلُ بَعَيْنُ الْخَطَا فِي جِهَةِ مَعَاوِيَةَ مَعَ
عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْأَجْمَاعَ هُنَاكَ قَضَىٰ لَنَا بِهِ وَلَمْ يَجِدْهُ هَا هُنَا وَأَمَّا بِنُزُولِ يَدِ فَعَيْنِ
خَطَاةٍ فَنَفْسُهُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَكْثَرُ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بَعْدَ اللَّهِ
أَحْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ إِلَىٰ يَبْعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ
لِأَنَّهُ لَمْ يَخْضَرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحَلَّ كَبِيعَةِ مَرْوَانَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ وَالْكُلُّ
مُجْتَمِعُونَ مَحْمُولُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَّعِنَ فِي جِهَةِ مِنْهُمَا وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ
بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجْعَلُ عَلَىٰ قَوَاعِدِ النِّقَةِ وَقَوَائِمِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِأَعْتَابِ
قَصْدِهِ وَتَحَرُّيهِ الْحَقُّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ
وَالنَّابِغِينَ فِيهِمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقَدَحِ فَمَنْ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْعَدَالَةِ
وَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ
يَقْشُرُوا الْكَذِبَ لِفَعْلِ الْخَيْرَةِ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْقُرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَكُنِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ
تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يُشَوِّشُ قَلْبَكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ
مِنْهُمْ وَالتَّمَسُّ لِهَؤُلَاءِ مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَطُرُقُهُ مَا اسْتَطَعْتَ فِيهِمْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا
أَخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ بَيْنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قَاتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَاعْتَقَدَ مَعَ
ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ
وَيَجْعَلُهُ إِمَامَةً وَهَادِيَةً وَدَلِيلَةً فَافْتَمَرُوا ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَاعْلَمْ
أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ الْمُلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافة

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِبَايَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ
الدُّنْيَا فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَيَحْمَقُضِي التَّكَالِيفَ
الشَّرْعِيَّةَ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلُ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَيَحْمَقُضِي رِعَايَةَ
لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْأَعْمُرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْأَعْمُرَانِ ضَرْوَرِي لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ
مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لَوْلَا يَفْسُدُ إِنْ أَهْمَلَتْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسَطَوْتُهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هَذِهِ
الْمَصَالِحِ نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ اعْلَمْ بِهَذِهِ

الْمَصَالِح فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا
 وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوُظَائِفُ تَابِعَةٍ
 ثَمَنَيْنِ خَطَطًا وَتَوَزُّعٍ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَظَائِفُ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُظَيْفَتِهِ حَسَبَ مَا يَعْنِيهِ
 الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا
 الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَنْصَرِفُهُ
 الدِّينِي يَخْتَصُّ بِخَطَطٍ وَمَرَاتِبٍ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْأَيْسَلَامِيِّينَ فَلَمَّا ذَكَرْنَا الْآنَ الْخَطَطَ
 الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَزَجَّجْنَا إِلَى الْخَطَطِ الْمُلُوكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَطَ
 الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفَتَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلِّهَا مُنْدرَجَةٌ تَحْتَ
 الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ فَكَانَتْهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ وَهَذِهِ
 كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا الْعُمُومُ نَظَرُ الْخِلَافَةِ وَتَنْصَرِفُ فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ
 الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذُ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ
 هَذِهِ الْخَطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمُنْدرَجِ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَلَقَدْ
 يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي
 الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدِينَانَا قُلُوبَنَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ أَمَّا صَحْحُ الْقِيَاسِ وَإِذَا
 ثَبَتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ مَسَاجِدُ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةُ الْغَاشِيَةِ
 مُعَدَّةٌ لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ وَآخَرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ
 الْعَامَّةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ
 مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصِبُ لَهَا الْإِمَامُ فِي الصَّلَوَاتِ الْخُمُسَ
 وَالْجُمُعَةَ وَالْعِيدَيْنِ وَالْخُسُوفَيْنِ وَالْاِسْتِسْقَاءَ وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ
 الْأَوَّلَى وَالْاِسْتِسْقَاءِ وَلِئَلَّا يَفْتَاتَ الرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ
 وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصَبُ الْإِمَامِ
 لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَبِيرَانِ
 وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوَلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمَوَالِي فِيهَا
 مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرَدِيِّ وَغَيْرِهِ

فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يَقْلُدُونَهَا غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَأَنْظُرْ
مَنْ طُعِنَ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَصَّدَهُمْ لَذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا
يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُبَاشَرَتِهِمْ لَهَا وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا وَكَذَا كَانَ رِجَالُ
الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً رَأَاهَا وَاسْتِعْظَامًا لِتَبَتِّهَا يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ
أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةً يَا بَنِي الْأَعْنِ ثَلَاثَةٌ صَاحِبُ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَقْسُدُ
بِالْتَأْخِيرِ وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ وَالْبَرِيدِ فَإِنَّ فِي تَأْخِيرِهِ فُسَادَ الْقَاصِيَةِ
فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغُلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ
وَدُنْيَاهُمْ اسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَةِ
كَالْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَذْوِيهَا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ
صَدَرُ دَوْلَتِهِمْ وَأَمَّا الْفُتَيَّا فَلِخَلِيفَةِ تَصَفُّحِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسِ وَرَدُّ الْفُتَيَّا إِلَى مَنْ
هُوَ أَهْلُ لَهَا وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُهُ مِنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهُمَا مِنْ مَصَالِحِ
الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ فَتَجَبَّ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا لئَلَّا يَتَعَرَّضَ لَذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ
النَّاسَ وَلِلْمَدْرَسِ الْإِتِّصَابُ لِلتَّعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَثِّهِ وَالْجُلُوسُ لَذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ فَإِنْ كَانَتْ
مِنْ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلسُّلْطَانِ أَوَّلِيَّةٌ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أَيْمَتِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ
اسْتِئْذَانِهِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِ عَلَى أَنَّهُ
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَيْكُلٌ أَحَدٍ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْمَدْرَسِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ
التَّصَدِّي لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَهْدِي وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَشْدُ وَفِي الْأَثَرِ
أَجْرًا كُمْ عَلَى الْفُتَيَّا أَجْرًا كُمْ عَلَى جَرَائِمِهِمْ جَهَنَّمَ فَلِلسُّلْطَانِ فِيهِمْ لَذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ
مَا تَوَجُّبُهُ الْمَصْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةِ أَوْرَدِ وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ
الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْمًا لِلدَّعَايِ وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا
أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ فَكَانَ لَذَلِكَ مِنْ وَظَائِفِ
الْخِلَافَةِ وَمُنْدَرَجًا فِي عُمُومِهَا وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يُبَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا
يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَقَوَّضَهُ فِيهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ فَوَلَّى أَبَا الدَّرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَّى شَرِيحًا بِالْبَصْرَةِ وَوَلَّى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ
بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَشْهُورَ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ

وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَأَقْبَلُوا
 إِذَا أَدَّى إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكْلُمٌ يَحْتَقِ لَا نَقَازَ لَهُ وَأَسْ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَتَجَلَّسْ
 وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِبَتْ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْئَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ أَلْبَيْتُهُ عَلَى مَنْ
 أَدْعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَأَصْلَحُ جَائِزُ بَنِّ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ
 حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضَيْتَهُ أَمْسٍ فَرَأَجَعْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ
 لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرْجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي
 الْبَاطِلِ أَلَيْتَهُمْ فِيمَا يَتَلَجَّجُ فِي صَدْرِكَ بِمَا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ أَعْرِفِ الْأَمْثَالَ
 وَالْأَشْبَاهَ وَقِسْ الْأُمُورَ بِنُظَائِرِهَا وَاجْعَلْ لِمَنْ أَدْعَى حَقًّا غَايَةً أَوْ بَيْنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ
 فَإِنْ أَحْضَرَ بَيْنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ
 وَأَجْلٌ لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَخْلُودًا فِي حِلٍّ أَوْ مُجْرَى عَلَيْهِ
 شَهَادَةُ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَمَّا عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَا
 بِالْبَيِّنَاتِ وَإِيَّاكَ وَالْفَلَقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّائِفَ بِالْخُصُومِ فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ
 الْحَقِّ يَعْظُمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ وَيُخَسِّنُ بِهِ الدِّكَرَ وَالسَّلَامُ. انْتَهَى كِتَابُ عُمَرُ وَإِنَّمَا
 كَانُوا يَقْلُدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ
 اشْتغالِهِمْ مِنَ الْجِهَادِ وَالْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ
 غَيْرُهُمْ لِعَظَمِ الْعُنَايَةِ فَاسْتَحَقُّوا الْقَضَاءَ فِي الْوَأَقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ
 بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقْلُدُونَهُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوَلَاءِ
 وَلَا يَقْلُدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصَبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ
 فِي كُتُبِ الْفَقْهِ وَخُصُوصًا كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ
 فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى
 التَّدْرِيجِ بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى وَاسْتَقَرَّ مَنْصَبُ الْقَضَاءِ
 آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحَقُوقِ الْعَامَّةِ
 لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَجَانِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ
 السَّفَةِ وَفِي وَصَايَا الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَرْوِيجِ الْإِيَامِي عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مَنْ
 رَأَاهُ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الطَّرْفَاتِ وَالْأَبْنِيَةِ وَتَصْفَحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ

الْعِلْمَ وَالْخَبْرَةَ فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ لِيَحْصَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا
 مِنْ تَعْلَقَاتٍ وَظَائِفَةٍ وَتَوَابِعٍ وَلَا يَتَنَبَّهُ وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلِ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي النَّظَرَ
 فِي الْمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَانَةِ وَنَصْفَةِ الْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ
 يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ الظَّالِمَ مِنَ الْخُصَمَيْنِ وَتَزْجُرُ الْمُتَعَدِّيَّ وَكَانَهُ يُمَضَى مَا عَجَزَ
 الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمضائه وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْيِيرِ وَاعْتِمَادِ الْأَمَارَاتِ
 وَالْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِجْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمَلِ الْخُصَمَيْنِ عَلَى الصِّلَحِ وَاسْتِخْلَافِ
 الشُّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي * وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ يَبْأِشِرُونَهَا بَأَنفُسِهِمْ
 إِلَى أَيَّامِ الْمُتَعَدِّيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقَضَائِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أَدْرِيسَ الْخَوْلَائِيِّ وَكََمَا فَعَلَهُ الْمَأْمُونُ يُحْيَى بْنَ أَكْثَمَ
 وَالْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنَ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ
 الطَّوَائِفِ وَكَانَ يُحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يُخْرِجُ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ
 وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ
 هَذِهِ الطَّوَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ أَوْ
 سُلْطَانٍ مُتَغَلَّبٍ وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
 وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْبَيْهَقِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبَ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَهِيَ
 وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ الطَّوَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوْلِ تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ
 أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتَّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ نَجَالًا وَيَقْرَضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ
 ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَيَقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوَدِ وَالْقِصَاصِ وَيَقِيمُ
 التَّعْزِيزَ وَالتَّنَادُبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهَ عَنِ الْجَرِيمَةِ ثُمَّ تُنَوِّسُ شَأْنَهُاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ
 فِي الدَّوْلِ الَّتِي تُنَوِّسُ فِيهَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ كَانَ
 لَهُ تَقْوِيزٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَانْقَسَمَتِ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا
 وَظِيفَةُ التَّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَبَثُ يَتَعَيْنُ
 وَنُصِبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدَّوْلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ
 الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِأَسْمِ الْوَالِي وَتَارَةً بِأَسْمِ الشَّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ
 التَّنَازِيرِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرَفًا فَجُمِعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا نَقَدَّمَ وَصَادَ

ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَةِ وَلَايَتِهِ وَأَسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هَذِهِ
 الْوُظَيْفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْأَمْرَ كَانَتْ خِلَافَةً دِينِيَّةً وَهَذِهِ الْخِطَّةُ مِنْ
 مَرَامِسِ الدِّينِ فَكَانُوا لَا يُؤَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْخِلَافِ
 أَوْ بِالرِّقِّ أَوْ بِالْإِصْطِنَاعِ مِمَّنْ يُوثِقُ بِكَفَايَتِهِ أَوْ غِنَائِهِ فِيمَا يَدْفَعُ إِلَيْهِ * وَلَمَّا أَنْقَرَضَ
 شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَوْ سُلْطَانًا صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الدِّينِيَّةُ
 بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِسِهِ ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ
 جَمْلَةً مِنَ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمَلِكُ لِسَوَاهُمْ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَالزُّبُرِ فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ
 الْخِلَافِيَّةُ بَعْدًا عَنْهُمْ بِمَنْحَاهَا وَعَصِيَّتُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ
 وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نَحَلَتْهُمْ بَيْنَ الْأُمَمِ وَطَرِيقَهُمْ
 وَغَيْرُهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ الْعَظِيمِ لِمَا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطَّ قَصَارُوا
 يُقْلِدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَاهَلَّ لَهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّلَاطِيَّةِ وَكَانَ أَوَّلُكَ
 الْمَتَاهِلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدَّوْلِ مُنْذُ مِائِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْإِدَاوَةِ وَخَشُونَتَهَا
 وَالتَّبَسُّوْا بِالْخِصَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعَتِهِمْ وَقَلَّةِ الْمُمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ
 الْخِطَّةُ فِي الدَّوْلِ الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُخْتَصَةً بِهَذَا الْأَصْنَفِ مِنَ الْمُسْتَغْنَيْنِ فِي
 أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ لِنَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَسَابِيهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ
 الْخِصَارَةِ فَحَقَّقَهُمْ مِنَ الْإِحْقَارِ مَا لَحِقَ الْخَضِرِ الْمُنْعَمَسِينَ فِي التَّرَفِ وَالِدَعَةِ الْبَعْدَاءِ عَنْ
 عَصِيَّةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِبَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ وَصَارَ اعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا
 بِالْمِلَّةِ وَأَخَذَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا وَلَمْ
 يَكُنْ يُبَارَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِدَوَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَمُّلِ
 بِمَكَانِهِمْ فِي تَجَالِسِ الْمَلِكِ لِعَظِيمِ الرَّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحَلِّ
 وَالْعَقْدِ شَيْءٌ وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لَا حَقِيقَةٌ وَرَاءَهُ إِذْ حَقِيقَةُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا
 هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حِلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذُ
 الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَنْهُمْ وَتَلَقَّى الْفِتَاوَى مِنْهُمْ فَفَعَمْ وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ
 النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاءِ
 مِنَ الشُّوَرَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمَ أَنَّ

ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا انْقَضَتْهُ طَبِيعَةُ
 الْعُمَرَانِ وَالْأَكَانَ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئًا
 مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلِّ
 أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَآمًا مِنْ لَا عَصِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَا مِنْ
 حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَإِذَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيْ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى
 اعْتِبَارِهِ فِيهَا أَلَيْسَ إِلَّا شَوْرَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي
 الْأَسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً وَآمًا شَوْرَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِنَقْدَانِهِ الْعَصِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى
 مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الشَّاهِدَةِ
 لَهُمْ بِجَمِيلِ الْأَعْتِقَادِ فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ انْتَسَبَ وَآمًا قَوْلُهُ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمُ أَنَّ النُّقَبَاءَ فِي الْأَعْلَابِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا احْتَفَّ
 بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالًا فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي
 الْمَعْمَلَاتِ يَنْصُرُهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هَذِهِ غَايَةُ أَكْبَرِهِمْ وَلَا يَتَصَنُّونَ إِلَّا
 بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالسَّلَفُ رُضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنْ
 الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ اتِّصَافًا بِهَا وَتَحَقُّقًا بِمَذَاهِبِهَا فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافًا وَتَحَقُّقًا دُونَ نَقْلِ
 فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ مِثْلُ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقُسَيْرِيِّ وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ
 الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلُ فُقَهَاءِ التَّائِبِينَ وَالسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ اقْتَفَى طَرِيقَهُمْ
 وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ
 مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرَثَ بَصْفَةٍ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ
 شَيْئًا إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصَبُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ
 عَصَرِنَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ

(العدالة) * وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَصَرُّفِهِ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ
 الْوُظُفَةِ الْقِيَامُ عَنْ إِذْنِ الْقَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمَلًا عِنْدَ
 الْأَشْهَادِ وَادَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكِتَابًا فِي السَّجِلَّاتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وَأَمَّا لَكُمْ
 وَدِيُونُهُمْ وَسَائِرُ مُعَامَلَاتِهِمْ وَشَرَطُ هَذِهِ الْوُظُفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعِدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْبِرَاءَةِ
 مِنَ الْجُرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكِتَابِ السَّجِلَّاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَانْتِظَامِ فُصُولِهَا وَمِنْ

جَهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعُقُودِهَا فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْفَقْهِ
وَلِأَجْلِ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِرَانِ ^(١) عَلَى ذَلِكَ وَالْمَدَارَسَةِ لَهُ اخْتَصَصَ
ذَلِكَ بَعْضُ الْعُدُولِ وَصَارَ الصَّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَانَهُمْ مُخْتَصَّوْنَ بِالْعَدَالَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْوُظَيْفَةِ وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي تَصَفُّحُ أَحْوَالِهِمْ
وَالْكَشْفُ عَنْ سِيرِهِمْ رِعَايَةً لَشَرْطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَهْمِلَ ذَلِكَ لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ
مِنْ حِفْظِ حَقُوقِ النَّاسِ فَالْعَهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كَلِّهِ وَهُوَ ضَامِنٌ دَرَكُهُ وَإِذَا تَعَيَّنَ هُوَ لَاءُ
لِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ عَمَّتِ الْفَائِدَةُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَخَفَى عَدَالَتُهُ عَلَى الْقَضَاةِ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأَمْصَارِ
وَأَشْدْبَاهِ الْأَحْوَالِ وَأَضْطِرَارِ الْقَضَاةِ إِلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ بِالْبَيِّنَاتِ الْمَوْثُوقَةِ
فَيَعُولُونَ غَالِبًا فِي الْوُثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ دَكَاكِينُ وَمَصَاطِبُ
يَخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ الْمَعَامَلَاتِ لِلِاشْتِهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ
وَصَارَ مَدْلُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَدْلُولُهَا وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ
الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَخْتُ الْجَرْحِ وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَقْتَرِفَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الحسبة والسكة

إِمَّا الْحُسْبَةُ فَهِيَ وَظَيْفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
الَّذِي هُوَ فَرَضٌ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ يَعْنِي لَذَلِكَ مَنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ فَيَتَعَيَّنُ فَرَضُهُ
عَلَيْهِ وَيَتَخَذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيَبْتَغِي عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيُعَزِّزُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى قَدَرِهَا
وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنْعِ مِنَ الْمُضَايِقَةِ فِي الطَّرَفَاتِ
وَمَنْعِ الْحَمَالِينِ وَأَهْلِ السُّفْنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ وَالْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ الْمَبَانِي
الْمُتَدَاعِيَةِ لِلْسُّفُوطِ بِهِدْمِهَا وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّائِلَةِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي
الْمُعَلِّمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِلْبَاحِ فِي ضَرَبِهِمْ لِلصَّبْيَانِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَلَا
يَتَوَقَّعُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِ
مِنْ ذَلِكَ وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ وَيَأْتِسُّ لَهُ إِمضَاءُ الْحُكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا بَلْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِشْرِ
وَالْتَدَلِّيسِ فِي الْمَعَايِشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ وَلَهُ أَيْضًا حَمْلُ الْمُطَاطِلِينَ
عَلَى الْإِنْصَافِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ بَيِّنَةٌ وَلَا إِنْقَازٌ حُكْمٌ وَكَانَتْهَا أَحْكَامٌ

(١) الميران بكسر الميم النعنع والاعتباد على الشيء

يُزَنَّهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسَهْوَةِ أَغْرَافِهَا فَيُتَدَفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِيَقُومَ بِهَا
فَوْضِعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُومِ
وِلَايَةِ الْقَاضِي يُؤَلَّى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَتْ وَظَيْفَةُ السُّلْطَانِ عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ
نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ انْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأُفْرِدَتْ بِالْوِلَايَةِ
وَأَمَّا السِّكَّةُ فَفِي النَّظَرِ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِظْهَا مِمَّا يَدَاخِلُهَا
مِنَ الْعِشِّ أَوْ النِّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَبُوصِلَ إِلَيْهِ مِنْ
جَمِيعِ الْأَعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عَلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالْإِسْتِجَادَةِ وَالْخُلُوصِ
بِرِسْمِ تِلْكَ الْعَلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمٍ حَدِيدٍ اتَّخَذَ لَذَلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نَقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ
عَلَى الدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ وَتَكُونَ
عَلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السَّبْكُ وَالتَّخْلِصُ فِي مُتَعَارِفِ أَهْلِ
الْقَطْرِ وَمَذَاهِبِ الدَّوَلَةِ الْحَاكِمَةِ فَإِنَّ السَّبْكُ وَالتَّخْلِصَ فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ
وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْاجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَفْقَى أَوْ فُطِرَ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِصِ
وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَتَقَدَّرُونَ بِمُثَالَتِهِ فَإِنْ نَقَصَ
عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْفًا وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ وَهِيَ دَيْنِيَّةٌ بِهَذَا
الْإِعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ الْقَاضِي ثُمَّ أُفْرِدَتْ
لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَبْشَةِ هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا
وَظَائِفٌ ذَهَبَتْ بِدِهَابٍ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَآخَرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوْظَيْفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ
وَالْحَرْبِ وَالْخِرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَّا كُنْهَا بَعْدَ وَظَيْفَةِ الْجِهَادِ وَوَظَيْفَةِ
الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ وَيُذَرِّجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي
السُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا نَقَابَةُ الْأَنْسَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي بَيْتِ الْمَالِ
قَدْ بَطَلَتْ لِذَوْرِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ انْدَرَجَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِي
رُسُومِ الْمَلِكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء
وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة رضي الله عنهم
وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر
على ذلك إلى أن هلك فلما بويع لعمر بعده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استقلوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته وأنه
يتزايد فيما بعد دائماً إلى أن ينتهي إلى الخئبة ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات
وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى
به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة وقد كان
الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة
أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية
وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه
يا أمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال إن أول من دعاه
بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمر بن العاصي والغيرة بن شعبة وقيل يزيد جاء
بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول أين أمير
المؤمنين وسميها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه إنه والله أمير المؤمنين
حقاً فدعوه بذلك وذهب لقباً له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركون
فيها أحد سواهم إلا سائر دولة بني أمية ثم إن الشيعة خصوصاً علياً باسم الإمام نعتاً له
بالإمامة التي هي اخت الخلافة وتغريضا بذهبهم في أنه أحق بالإمامة الصلاة من
أبي بكر لما هو مذهبهم ويدعونهم فخصوه بهذا اللقب ولعن يسوقون إليه منصب
الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخلفاء
حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيما بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله
شعبة بن عباس فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا
بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعي أخوه السفاح أمير المؤمنين
وكذا الرافضة بأفريقيا فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام حتى

أَنْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ الْمُهَدِّي وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُوهُ بِالْإِمَامِ وَلِابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُمُ الْأَمْرُ دُعُوا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا الْأَدَارِسَةُ
 بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يَلْقَبُونَ أَدْرِسَ بِالْإِمَامِ وَابْنَهُ أَدْرِسَ الْأَصْغَرَ كَذَلِكَ وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ
 وَتَوَارَثَ الْخُلَفَاءُ هَذَا الْقَلْبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ الْحِجَازَ وَالشَّامَ
 وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَاكِرُ الدَّوْلَةِ وَاهْلُ الْمِلَّةِ وَالْفَتْحِ وَازْدَادَ
 لَذَلِكَ فِي عُنُقِ الْدَّوْلَةِ وَبَدْخِهَا قَلْبٌ آخَرٌ لِلْخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَشْرَافِ بَيْنَهُمْ فَاسْتَحْدَثَ لَذَلِكَ بَنُو الْعَبَّاسِ حِجَابًا لِلْأَمَائِمِ
 الْأَعْلَامِ عَنْ أَمْنِيَّتِهَا فِي أَلْسِنَةِ السُّوْفَةِ وَصَوْنًا لَهَا عَنِ الْإِبْتِدَالِ فَتَلَقَّبُوا بِالسَّنَاحِ وَالْمَنْصُورِ
 وَالْمُهَدِّيِّ وَالْهَادِيِّ وَالرَّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَاقْتَفَى أَثَرُهُمْ فِي ذَلِكَ الْعَبِيدِيُّونَ بِأَفْرِيقَةِ
 وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ الْغَضَاظَةِ وَالسَّدَاجَةِ لِأَنَّ
 الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تَقَارِفْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْحِزَابَةِ
 وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلَفِهِمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ بِالْقُصُورِ
 عَنْ مُلْكِ الْحِجَازِ أَصْلَ الْعَرَبِ وَالْمِلَّةِ وَالْبُعْدِ عَنْ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرَكَزُ الْعَصِيَّةِ
 وَأَنْبَهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّخْلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ
 ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ وَاشْتَهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالْمَشْرِقِ
 مِنَ الْحُجْرِ وَاسْتَبْدَادِ الْمَوَالِي وَعَيْثُهُمْ فِي الْخُلَفَاءِ بِالْعَزْلِ وَالْإِسْتِبْدَالِ وَالْقَتْلِ وَالسُّدْلِ
 ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقَةِ وَتَسَمَّى
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ وَأَخْلَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ وَمَذَهَبٌ لَقِيَ عَنْهُ
 وَلَمْ يَكُنْ لِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَاسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ عَصِيَّةُ
 الْعَرَبِ أَجْمَعٍ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصَّنَائِعِ
 عَلَى الْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَاجِحُهُ عَلَى أُمَرَاءِ أَفْرِيقَةِ وَزَنَانُهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكِ
 الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ وَاقْتَسَمُوهُ وَافْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَاخْتَلَفَتْ
 مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي الْأَخْتِصَاصِ بِالْإِنْقِلَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَدَّوْا حَمِيحًا
 بِأَسْمِ السُّلْطَانِ فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يُخَوِّنُهُمْ بِالْأَقَابِ

تُشْرِيفِيَّةٍ حَتَّى يُسْتَشْعَرَ مِنْهَا انْقِيَادُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ وَحُسْنُ وَلَايَتِهِمْ مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَعُضْدِ
الدَّوْلَةِ وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ وَمَعْرِ الدَّوْلَةِ وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِ الْمَلِكِ وَبِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَذَخِيرَةِ
الْمَلِكِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَكَانَ الْعَبِيدُونَ أَيْضًا يَخْشَوْنَ بِهَا أُمَرَاءَ صَنْهَاجَةَ فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا
عَلَى الْخِلَافَةِ قَنَعُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَافَوْا عَنِ الْقَابِ الْخِلَافَةِ أَدَبًا مَعَهَا وَعُدُولًا عَنْ
سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنِ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبَدِّينَ كَمَا قُلْنَا هُ وَنَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَعَاجِمُ
الْمَشْرِقِ حِينَ قَوِيَ اسْتِبْدَادُهُمْ عَلَى الْمَلِكِ وَعَدَلَ كُعبُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ وَتَلَاشَتْ
عَصِيَّةُ الْخِلَافَةِ وَأَضْحَكَتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمَلِكِ مِثْلِ النَّاصِرِ
وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةِ عَلَى الْقَابِ يَخْتَصُّونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتِحَالِ مُنْعِرَةً بِالْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ
أَوْلَاءِ الْأَصْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطُّ فَيَقُولُونَ صَلَاحُ الدِّينِ أَسَدُ الدِّينِ
نُورُ الدِّينِ وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَاقْتَسَمُوا الْقَابِ الْخِلَافَةِ وَتَوَزَّعُوا الْقُوَّةَ
اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِهَا وَعَصِيَّتِهَا فَتَلَقَّبُوا بِالْناصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَمِدِ
وَالْمُظْفَرِ وَأَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي شَرْفٍ يَنْعَى عَلَيْهِمْ

يَا يَزِيدُ نِي فِي أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ

الْقَابِ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَأَقْتَصَرُوا عَنِ الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانَ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدُونَ يَلْقَبُونَ بِهَا لِتَنَوُّبِهِ مِثْلَ
نَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَمَعْرِ الدَّوْلَةِ وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِدَعْوَةِ
الْعَبَاسِيِّينَ ثُمَّ بَعْدَ الشُّقَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا فَنَسُوا هَذِهِ الْأَلْقَابَ وَأَقْتَصَرُوا
عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةِ الْمَغْرِبِ لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ
إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانِ جَرِيًّا عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاظَةِ وَلَمَّا حُيِّ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ
دَسْتُهَا وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قِبَالِ الْبَرْبَرِ يُوسُفُ بْنُ نَاشِيفِينَ مَلِكُ لِمْتُونَةَ فَمَلَكَ الْعُدَوْنَيْنِ
وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْإِفْتِدَاءِ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخُلَيفَةِ تَكْمِيلًا
لِمَرَامِهِ دِينِهِ فَنَاطَبَ الْمُسْتَظْهِرَ الْعَبَّاسِيَّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بَيْعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنَهُ
الْقَاضِي أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِسْطَيْلِيَّةٍ يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ
فَاتَّقَلَّبُوا إِلَيْهِ بَعْدَ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَاسْتَشْعَارَ زِيَمِهِمْ فِي لُبُوسِهِ وَرُبَّتِيهِ وَخَاطَبَهُ
فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفًا وَاخْتِصَاصًا فَاتَّخَذَهَا لِقَبًا وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ دُعَى لَهُ بِأَمِيرِ

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِ أَدْبًا مَعَ رُتْبَةِ اخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَاطِبُونَ مِنْ اتِّحَالِ
الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ أَخَذًا بِمَذَاهِبِ
الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ فِي تَرْكِ التَّأْوِيلِ
لِظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يُؤْوِلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ
وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ تَعْرِضًا بِذَلِكَ الذِّكْرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي
الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بَدْلَ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ فَسَمَّى
بِالْإِمَامِ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا مِنْ مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ فِي الْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأَرْدَفَ بِالْمَعْصُومِ
إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَنَزَّهَهُ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخَذًا
بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مَشَارَكَةِ الْأَغْمَارِ وَالْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ
أَهْلِ اخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيَّ عَهْدِهِ الْقَبَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَالْأَبِي حَنْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً بِهِ
عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ
بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لَانْتِفَاءِ عَصِيَّةِ فَرِيشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَائِهِمْ وَلَمَّا
انْتَقَضَ الْأَمْرُ بِالْمَغْرِبِ وَانْتَزَعَتْ رِثَاتُهُ ذَهَبَ أَوْلَهُمْ مَذَاهِبُ الْبِدَاوَةِ وَالسَّذَاجَةِ وَاتَّبَعَ
لِمَثُونَةِ فِي اتِّحَالِ الْقَبِّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَدْبًا مَعَ رُتْبَةِ اخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا
لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِي أَبِي حَنْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ تَزَعَّ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَبِّ
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاتَّجَلَّوْهُ لِهَذَا الْعَهْدِ اسْتِثْلَاغًا فِي مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَتَتَمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ
وَسِمَاتِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوhen عند اليهود

إِعْلَمَنَّ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بَدْلَ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا
وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبُكَالِيفِ وَالنَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ أَيْضًا بِمَا
تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا بَدْلَ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى
مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمَلِكِ وَالْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِمَا
كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ الْكِفَاةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ

كُرْهًا اتَّخَذَتْ فِيهَا اخْلَافَةً وَالْمَلِكُ لَتَوَجَّهَ الشُّوْكَهُ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعًا وَأَمَّا
مَا سَوَى الْمَلَةِ إِلَّا سَلَامِيَّةٌ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَةً وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعًا إِلَّا
فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا
وَقَعَ الْمَلِكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَلِأَمْرِ غَيْرِ دِينِي وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ لَهُمُ الْعَصِيَّةُ لِمَا
فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمَلِكِ بِالطَّبَعِ لِمَا قَدَّمَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالْتَغَلُّبِ عَلَى الْأَمْرِ
كَمَا فِي الْمَلَةِ إِلَّا سَلَامِيَّةٌ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَّتِهِمْ وَلِذَلِكَ بَقِيَ
بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَعْنُونَ
بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُمْ مُقَامَةٌ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ يَنْبَغُ يُسَمَّى
الْكُوهَنَ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقِيمُ لَهُمُ أَمْرَ الصَّلَاةِ وَالْقُرْبَانِ وَيَسْتَرْطُونَ
فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يَقْبَلْ ثُمَّ اخْتَارُوا
لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي فِي الْبَشَرِ بِالطَّبَعِ سَبْعِينَ سَنَةً كَانُوا يَتَلَوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَةَ
وَالْكُوهَنَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رُبَّةً فِي الدِّينِ وَابْعَدُ عَنْ شَعْبِ الْأَحْكَامِ وَابْتَصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ
إِلَى أَنْ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصِيَّةِ وَتَحَضَّتْ الشُّوْكَهُ لِلْمَلِكِ فَعَابُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى
الْأَرْضِ الَّتِي أَوْزَرَهُمُ اللَّهُ يَتَى الْمُقَدَّسِ وَمَا جَاوَرَهَا كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَخَارَبَتَهُمْ أُمُّ الْفِلِسْطِينِ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرَمْنَ وَأَرْدَنَ وَعَمَانَ
وَمَارِبَ وَرَأَسَتَهُمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةً إِلَى شِيُوخِهِمْ وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ
سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمَلِكِ وَضَجَرُ بَنِي طَالُوتَ وَعُغْلِبَ الْأَمُّ وَقُتِلَ جَالُوتُ مَلِكُ
الْفِلِسْطِينِ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سَلِمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَأَمْتَدَّ
إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافَ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ ثُمَّ أَفْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ
سَلِمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَقْتَضَى الْعَصِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَّمَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ كَانَتَا
إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ وَالْآخَرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا
وَبَنِيَامِينَ ثُمَّ غَلِبَهُمْ بَحْتَ نَصْرٍ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَوَّلًا الْأَسْبَاطُ
الْعَشْرَةُ ثُمَّ ثَانِيًا بَنِي يَهُوذَا وَبَنِي الْقُدْسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ سَنَةٍ وَخَرَّبَ
مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوَارِيهِمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْهَانَ وَبِلَادِ الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ
رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكَلْبَانِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى يَتَى الْمُقَدَّسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ

خُرُوجِهِمْ فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطَّ وَالْمَلِكُ
لِلْفَرَسِ ثُمَّ غَلَبَ الْأَلَكَنْدَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفَرَسِ وَصَارَ الْيَهُودُ فِي مَلَكَتِهِمْ ثُمَّ
فَشَلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ فَأَعَزَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِمُ بِالْعَصِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ الْأَسْتِيْلَاءِ
عَلَيْهِمْ وَقَامَ بِمَلِكِهِمُ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حَشْمَنَائِي وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى
انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَغَلَبَهُمُ الرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَفِيهَا
بَنُو هِيرُودُسَ أَصْهَارُ بَنِي حَشْمَنَائِي وَبَقِيَتْ دَوْلَتُهُمْ فَحَاصَرُوهُمْ مَدَّةً ثُمَّ أَقْتَحَوْهَا عُنُوةً
وَأَفْتَحُوهَا فِي الْقَتْلِ وَالْهَدْمِ وَالتَّحْرِيقِ وَخَرَبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةٍ وَمَا
وَرَاءَهَا وَهُوَ الْخُرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ وَيُسَمِّيهِ الْيَهُودُ بِالْجَلُوتِ الْكُبْرَى فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ
بَعْدَهَا مَلِكٌ لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَةِ الرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ يُقِيمُ
لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمُ الرَّئِيسُ عَلَيْهِمُ الْمُسَمَّى بِالْكُوهِنِ ثُمَّ جَاءَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالنَّسَخِ لِبَعْضِ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ أَلْخَوَارِقُ
الْعَجِيبَةِ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
وَأَمَنُوا بِهِ وَكَثُرَتْ أَلْخَوَارِيقُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى
الْأَفَاقِ دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ وَذَلِكَ أَيَّامَ أَوْغُسْطُسَ أَوَّلِ مُلُوكِ الْقِيَاصِرَةِ وَفِي مَدَّةِ هِيرُودُسَ
مَلِكِ الْيَهُودِ الَّذِي أَنْتَزَعَ الْمَلِكُ مِنْ بَنِي حَشْمَنَائِي أَصْهَارِهِ فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَدَّبُوهُ
وَكَاتَبَ هِيرُودُسُ مَلِكَهُمْ مَلِكَ الْقِيَاصِرَةِ أَوْغُسْطُسَ يُغَرِّبُهُ بِهِ فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ
وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ وَافْتَرَقَ الْخَوَارِيقُ شَيْعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ
دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَ بَطْرُسُ كَبِيرُهُمْ فَزَلَّ بِرُومَةٍ دَارَ مَلِكِ الْقِيَاصِرَةِ ثُمَّ
كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي سُخْرِ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافٍ
رَوَايَاتِهِمْ فَكَتَبَ مَتَّى الْإِنْجِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَنَقَلَهُ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي
مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ اللَّاتِينِيِّ وَكَتَبَ لَوْقَا مِنْهُمْ الْإِنْجِيلَ بِاللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكْبَرِ الرُّومِ
وَكَتَبَ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ الْإِنْجِيلَ بِرُومَةٍ وَكَتَبَ بَطْرُسُ الْإِنْجِيلَ بِاللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ
إِلَى مَرْقَاصَ تَلْمِيزِهِ وَأَخْتَلَفَتْ هَذِهِ السُّخَرُ الْأَرْبَعُ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا
وَحِيدًا صَرَفًا بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْخَوَارِيقِ وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ
وَفِصَصٌ وَأَلْحَاكِمَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا وَاجْتَمَعَ الْخَوَارِيقُ الرُّسُلُ لِدَلِكِ الْعَهْدِ بِرُومَةٍ

وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَصَبَرُواهَا بِإِدِّ أَفْلِيْمَنْطُسَ تَلْمِيذَ بَطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا
عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا مِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ الثُّورَاةِ وَهِيَ خَمْسَةُ
أَسْفَارٍ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ الْقَضَاةِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ
أَرْبَعَةٌ وَسَنَرُ بَنِيَامِينَ وَكُتُبُ الْمُقَابِلِينَ لِأَنَّ كِرْيُونَ ثَلَاثَةٌ وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ
وَكِتَابُ أَوْشَرٍ وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصَّدِيقِ وَزَمِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُتُبُ
أَبْنَيْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَتُبُوتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ سِتَّةٌ عَشَرَ وَكِتَابُ
يَسُوعَ بْنِ شَارِخَ وَزَيْرِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَقَلِّدَةُ مِنَ
الْحَوَارِيِّينَ نَسْخُ الْأَنْجِيلِ الْأَرْبَعِ وَكُتُبُ الْقِتَالِيقُونَ سَبْعُ رِسَائِلَ وَثَامِنُهَا الْإِبْرِيكْسِيُّ
فِي قِصَصِ الرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَفْلِيْمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ
وَكِتَابُ أَبُوعَالْمَسِيحِ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوْحَنَّا بْنِ زَبْدِي وَاخْتَلَفَتْ شَأْنُ الْقِيَاصِرَةِ فِي الْأَخْذِ
بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكِهَا أُخْرَى وَالتَّسْلُطِ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَالْبَغْيِ إِلَى
أَنْ جَاءَ قِسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الدِّينِ وَالْمَقِيمُ
لِمِرَاسِيْمِهِ يُسَمُّونَهُ الْبَطْرُكَ وَهُوَ رَئِيسُ الْمَلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَبْعَثُ
نُوبَاهُ وَخُلَفَاؤُهُ إِلَى مَا بَعْدَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ النَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْأُسْقُفَ أَيْ نَائِبَ الْبَطْرُكِ
وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُفْتِيهِمْ فِي الدِّينِ بِالْقِسْطِ وَيُسَمُّونَ الْمُنْقَطِعَ
الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخُلُوةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ وَأَكْثَرُ خُلَوتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ
بَطْرُسُ الرَّسُولُ رَأْسُ الْحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ التَّلَامِيذِ بِرُومَةٍ يُقِيمُ بِهَا دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ إِلَى
أَنْ قَتَلَهُ نِيرُونُ خَامِسُ الْقِيَاصِرَةِ فِيمَنْ قَتَلَ مِنَ الْبَطَارِيقِ وَالْأَسَاقِفَةِ ثُمَّ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي
كُرْسِيِّ رُومَةٍ أَرِيُوسُ وَكَانَ مَرْفَاسُ الْأَنْجِيلِيِّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبَ دَاعِيًا
سَبْعَ سِنِينَ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَمَّى بِالْبَطْرُكِ وَهُوَ أَوَّلُ الْبَطَارِكَةِ فِيهَا وَجَعَلَ مَعَهُ
أَتْنِي عَشَرَ قِسَالًا أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْبَطْرُكُ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ الْأَتْنِي عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَخْتَارُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدًا مَكَانَ ذَلِكَ الثَّانِي عَشَرَ فَكَانَ أَمْرُ الْبَطَارِكَةِ إِلَى الْقُسُوسِ ثُمَّ لَمَّا
وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِ وَاجْتَمَعُوا بِنِيقِيَّةِ أَيَّامَ قُسْطَنْطِينِ
لِتَحْزِيرِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ وَاتَّفَقَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي
الدِّينِ فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ الْإِمَامَ وَصَيَّرُوهُ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ فِيمَا كَتَبُوهُ أَنَّ

الْبَطْرِكَ الْقَائِمُ بِالَّذِينَ لَا يُرْجَعُ فِي تَعْيِينِهِ إِلَى اجْتِهَادِ الْأَقْسَةِ كَمَا قَرَّرَهُ حَنَانِيَّا تَلْمِيزُ
مَرْقَاسَ وَأَبْطَلُوا ذَلِكَ الرَّأْيَ وَإِنَّمَا يُقَدَّمُ عَنْ بِلَاءٍ وَاجْتِهَادٍ مِنْ أَيْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرُؤُوسَائِهِمْ فَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَقْرِيرِ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَكَانَتْ لَهُمْ
مُجْتَمَعَاتٌ فِي تَقْرِيرِهِ وَلَمْ يَخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَبَقِيَ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ وَاتَّصَلَ
فِيهِمْ نِيَابَةُ الْأَسَافَةِ عَنِ الْبَطَارِكَةِ وَكَانَ الْأَسَافَةُ يَدْعُونَ الْبَطْرِكَ بِالْأَبِ أَيْضًا
تَعْظِيمًا لَهُ فَاشْتَبَهَ الْأَسْمُ فِي أَعْصَارِ مَطَاوِلَةٍ يُقَالُ آخِرُهَا بَطْرِكِيَّةٌ هَرْقُلٌ بِاسْكَنْدَرِيَّةَ
فَارَادُوا أَنْ يُمِيزُوا الْبَطْرِكَ عَنِ الْأَسْقَفِ فِي التَّعْظِيمِ فَدَعَوْهُ الْأَبَا وَمَعْنَاهُ أَبُو الْأَبَاءِ
وظَهَرَ هَذَا الْأَسْمُ أَوَّلَ ظُهُورِهِ بِمِصْرَ عَلَى مَا زَعَمَ جَرَجِيسُ بْنُ الْعَمِيدِ فِي تَأْرِخِهِ ثُمَّ
نَقَلُوهُ إِلَى صَاحِبِ الْكُرْسِيِّ الْأَعْظَمِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ كَرْسِيُّ بَطْرُسَ الرَّسُولِ كَمَا قَدَّمَاهُ
فَلَمْ يَزَلْ سِمَةً عَلَيْهِ حَتَّى الْآنَ ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَفِيمَا يَتَقَدُّونَهُ
فِي الْمَسِيحِ وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفِرَقًا وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ كُلِّ عَلَى صَاحِبِهِ
فَاخْتَلَفَ الْحَالُ فِي الْعُصُورِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ
طَوَائِفَ فِي فِرْقَتِهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهُمْ الْمَلِكِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ
اخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكَ فَبَطْرِكَ رُومَةَ الْيَوْمِ الْمُسَمَّى بِالْأَبَا عَلَى رَأْيِ
الْمَلِكِيَّةِ وَرُومَةَ لِلْإِفْرَنْجِيَّةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِنَاكِ النَّاحِيَّةِ وَبَطْرِكَ الْمَعَاهِدِينَ بِمِصْرَ
عَلَى رَأْيِ الْيَعْقُوبِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ وَالْحَبْشَةَ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَلِبَطْرِكَ مِصْرَ
فِيهِمْ أَسَافَةُ يُنُوبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَاكَ وَاخْتَصَّ أَسْمُ الْأَبَا بِبَطْرِكَ رُومَةَ
لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا تُسَمَّى الْيَعَاقِبَةُ بِطْرَكُهُمْ بِهَذَا الْأَسْمِ وَضَبَطَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ بِيَاءٍ مِنْ مُوَحَّدَتَيْنِ
مِنْ أَسْفَلِ وَالنُّطْقُ بِهَا مُفْخَمَةٌ وَالثَّانِيَّةُ مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ الْأَبَا عِنْدَ الْإِفْرَنْجِيَّةِ أَنَّهُ
يُخَضُّهُمْ عَلَى الْإِقْبَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ تَخَرُّجًا مِنْ
اِقْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ وَتُحَرِّى بِهِ الْعَصِيَّةُ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لَتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى
جَمِيعِهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْإِبْرَدُورَ ^(١) وَحَرْفُهُ الْوَسْطِيُّ بَيْنَ النَّالِ وَالظَّاءِ الْمُجْمَعَتَيْنِ وَمُبَاشَرُهُ
يَضَعُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِلتَّبَرُّكِ فَيُسَمَّى الْمَتَوَجَّ وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِبْرَدُورِ وَهَذَا

(١) المشهور قديمًا إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس نقول إمبرور ومعناها عندهم ملك المملوك

مُلَخَّصٌ مَا أَوْزَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا أَلْبَابُ وَالْكُوهِنِ وَاللَّهُ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقباهيا

اعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْأَسْتِعَانَةِ بِأَنْبَاءِ
جَنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَهْنِهِ ^(١) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ
وَمَنْ أَسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِ بِالْمَدْفَعَةِ
عَنْهُمْ وَإِلَى كِفْتِ عَدُوِّانٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ الْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ
فِيهِمْ وَكَفْتِ الْعَدُوِّانِ عَلَيْهِمْ فِي أُمُورِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَابِغَتِهِمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ
وَمَا تَعْمَلُهُمْ بِهِ الْبُلُوغَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَقْدِيرِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ
حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيفِ وَإِلَى النَّظَرِ فِي السِّكَّةِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْغَشِّ
وَالِإِسْتِعَانَةِ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالرَّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَأَنْفِرَادِهِ
بِالْمَجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ
مِنَ الْحُكَمَاءِ لِمُعَانَاةِ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ
إِنَّ الْأَسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ أَوْ التَّرْبِيَةِ أَوْ الْأَصْطِنَاعِ
الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ إِمَّا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لَخُلُقِهِ فَتَنْتُمِ الْمَشَاكِلَةَ
فِي الْأَسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ
أَوْ بِحُجَابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيُشْغِلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ أَوْ يَدْفَعِ النَّظَرَ
فِي الْمُلْكِ كُلِّهِ وَيَعُولَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ وَأَضْطَلَاعِهِ فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ
وَاحِدٍ وَقَدْ تَفَتَّرَ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلَمِ
يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ الرِّسَالِ وَالْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِفْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ الْحَاسِبَاتِ
وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيَوَانِ الْجَيْشِ وَكَالِسَيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْبِ

وَصَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي
هَذِهِ الْمِلَّةِ الْأِسْلَامِيَّةِ مُنْدرِجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ
وَالدُّنْيَا كَمَا قَدَّمَاهُ فَأَلْحَاكُمُ الشَّرْعِيَّةَ مُتَعَلِّقَةً بِجَمِيعِهَا وَوُجُودَهُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ
مِنْهَا فِي سَائِرِ وَجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهَ يَنْظُرُ
فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا اسْتِبْدَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانِ
أَوْ تَعَوُّضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي فِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَمْوَالِ
وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي
الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ
جَبَايَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنْسَحَابِ
حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْأِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِلَّا أَنَّ
كَلَامَنَا فِي وُظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمَرَانِ وَوُجُودِ
الْبَشَرِ لَا يَمَّا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا
مُتَعَجِّزَ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ
مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَاوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ النُّفَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ
اسْتِنْفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَاكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا
لِنُمِيزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ
غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا نَقْضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي الْوُجُودِ
الْإِنْسَانِيِّ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ

الوزارة * وَهِيَ أُمُّ الْخَطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرُّتْبِ الْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ
الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ إِمَّا مِنَ الْمُوَازَرَةِ وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ
النَّقْلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَقَالِهِ أَوْزَارَهُ وَانْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ
كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ
تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَفَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجِدِّ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ
أُمُورِ الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارِفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ
بِالْمَشْرِقِ وَلِهَذَا الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ وَمَا أَنَّ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي

أُمُورِ جَبَايَةِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَبْطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وَجْهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبُطَةٍ وَصَاحِبُ
هَذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِمَّا أَنْ
يَكُونَ فِي مُدَاعَفَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزِدَّحُوا عَلَيْهِ فَيُسْغَلُوهُ عَنْ قَهْمِهِ وَهَذَا
رَاجِعُ إِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَحْجِبُهُ فَلَا تَعْدُو أَحْوَالُهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ بَوَاجِهُ وَكُلُّ خِطَّةٍ
أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعُ مِنْهَا مَا كَانَتْ الْأَعَانَةُ
فِيهِ عَامَّةً فَمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصَّنِفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ السُّلْطَانِ دَائِمًا
وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صَنْفٍ مِنْ أَحْوَالِ مَلِكِهِ وَآمًا مَا كَانَ خَاصًّا بِبَعْضِ النَّاسِ أَوْ
بِبَعْضِ الْجَبَايَاتِ فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى كَقِيَادَةِ نَعْرِ أَوْ وِلَايَةِ جَبَايَةٍ خَاصَّةٍ أَوْ
النَّظَرِ فِي أَمْرِ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ أَوْ النَّظَرِ فِي السِّكَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ فِي
أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعُلَمَاءِ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرُؤُسَةً لِأُولَئِكَ
وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الدُّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ خِلَافَةً
فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ بِالْأَرْبَعِ
وَالْمَعَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيَفَاوِضُهُمْ فِي مُمِيزَاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَخُصُّ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ
بِمُخْصَوِّصَاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلَ وَأَحْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ
وَالنَّجَاشِيِّ يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِنُزَاهَةِ
رُتْبَةِ الْمَلِكِ بِسَدَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ وَآمًا
حَالُ الْجَبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْحِسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ
لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا
مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَآمًا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ
لِأَنَّ الْأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِي أَمْتَارُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ الْمُخَطَّابَاتِ وَتَنْفِيذِ الْأُمُورِ لَمْ
تَكُنْ عَنْدهُمْ رُتْبَةٌ خَاصَّةٌ لِلْأُمِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كِتْمَانِ الْقَوْلِ
وَتَأْدِيتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينَ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ
الْمَالِكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنْ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيُسْتَجَادُ لِخَلِيفَةِ أَحْسَنِهَا لِأَنَّ
الْكُلَّ كَانُوا يُعْبِرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ

يَسْتَتِيبُ فِي كِتَابَتِهِ مَتَى عَنْ لَهُ مِنْ يُحْسِنُهُ وَأَمَّا مُدَانَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ أَبَوَائِهِمْ
فَكَانَ حَظُورًا بِالْشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ
السُّلْطَانِ وَالْقَابِئُ كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بَدِئَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ وَسَدُّ دُونِ الْجُبُورِ بِمَا
كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ
وَعُمَرَ بْنِ الْعَادِي وَغَيْرِهِمْ مَعَ مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ أَرْذِ حَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشَغْلِهِمْ بِهِمْ عَنْ
الْمِهْمَاتِ فَاتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمَّوهُ الْحَاجِبَ وَقَدْ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا
وَلَّى حَاجِبَهُ قَالَ لَهُ قَدْ وَلَيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي
اللَّهِ وَصَاحِبُ الْبَرِّ يَدْفَعُ مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبُ الطَّعَامِ إِنَّمَا يَفْسُدُ ثُمَّ اسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ بَعْدَ
ذَلِكَ فَظَهَرَ الْمَشَاوِرُ وَالْمَعِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِنَالَفَهُمْ وَاطَّاقَ عَلَيْهِ اسْمُ
الْوَزِيرِ وَبَقِيَ أَمْرُ الْحِسْبَانِ فِي الْمَوَالِي وَالذَّمِّيِّينَ وَاتَّخَذَ لِلسَّجِلَاتِ كَاتِبَ مُخْصَصًا
حَوْطَةً عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ فَتَنْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِدَثَابَةِ
الْوَزِيرِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَحْتِيجَ لَهُ مِنْ حَبْثِ الْخَطِّ وَالْكِتَابِ لَا مِنْ حَبْثِ اللِّسَانِ الَّذِي هُوَ
الْكَلَامُ إِذِ اللِّسَانُ لِدَلِكِ الْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ فَكَانَتْ أَوْزَارُهُ لِدَلِكِ أَرْفَعُ رُتَبِهِمْ
يَوْمئِذٍ فِي سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ نَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًا فِي أحوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمَفَاوِضَاتِ
وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَاتِ وَالْمُطَالَبَاتِ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي دِيَوَانِ الْجُنْدِ وَقَرُصِ الْعَطَاءِ
بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَاسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ وَعَظُمَتْ مَرَاتِبُهُ
وَأَزْدَنَتْ وَعَظُمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِي إِنْفَازِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ تَعَيَّنَتْ مَرَاتِبُهُ
فِي الدَّوْلَةِ وَعِنَتْ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابُ وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِي دِيَوَانِ الْحِسْبَانِ
لَمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قِسْمِ الْأَعْطِيَاتِ فِي الْجُنْدِ فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمْعِهِ وَتَقَرُّبِهِ
وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ
وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لَمَّا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمُورِ وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسَجِلَاتِ السُّلْطَانِ
لِيَحْفَظَهَا مِنَ الدِّيَاعِ وَالشَّيَاعِ وَدُفِعَ إِلَيْهِ فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِحِطَّتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ
وَسَائِرِ مَعَانِي أَوْزَارَةِ وَالْمَعَاوَنَةِ حَتَّى لَقَدْ دُعِيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ
إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا
الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنْدَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي

الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان
أخرى وصار الوزير إذا استبد محتجاً إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام
الشرعية وتجي على حالها كما تقدمت فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي
حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه وإلى وزارة تقيض وهي حال ما يكون الوزير
مستبداً عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم
يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء
في القاب لأنهم خول لهم فتمسوا بالأماردة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى
أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحل به الخليفة من القاب كما تراه في القابهم
وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاهم للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى
آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس
فامتنت وترفع الوزير راء عنها لذلك ولأنهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من
لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير وأختص
اسم الأمير بصاحب الخروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل
الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً واستمر الأمر على هذا ثم جاءت
دولة الترك آخرًا بمصر فزاد أن الوزارة قد ابتدلت بارتفع أولئك عنها ودفعها لمن
يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مروءة نافذة
فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب
الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في
مدلوله وأختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية وأما دولة بني أمية بالاندلس
فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل
صنف وزيراً فجعلوا الحسبان المال وزيراً والترسيل وزيراً والنظر في حوائج المتظلمين
وزيراً والنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش
منضدة لهم ويفدون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتدرد بينهم وبين
الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن

مَجَالِسِهِمْ وَخَصَّوهُ بِأَسْمِ الْحَاجِبِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ فَأَرْفَعَتْ خِطَّةُ
 الْحَاجِبِ وَمَرَّتْهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتَّى صَارَ مُلُوكُ الطُّوَائِفِ يَنْتَحِلُونَ لِقَبْهَا فَأَكْثَرُهُمْ
 يَوْمئِذٍ يُسَمَّى الْحَاجِبَ كَمَا نَذَرُ كُرُهُ ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْقَيْرَوَانِ وَكَانَ
 لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُوخٌ فِي الْبِدَاوَةِ فَأَغْفَلُوا أَمْرَ هَذِهِ الْخِطَطِ أَوَّلًا وَتَنَجَّحَ أَسْمَاءُهَا كَمَا
 تَرَاهُ فِي أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَغْفَلَتِ الْأُمَرَاءُ
 أَوَّلًا لِلْبِدَاوَةِ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى انْتِحَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ وَكَانَ اسْمُ الْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ ثُمَّ
 اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَقَلَّدُوها فِي مَذَاهِبِ السُّلْطَانِ وَاخْتَارُوا اسْمَ الْوَزِيرِ لِمَنْ
 يُحِبُّ السُّلْطَانُ فِي مَجْلِسِهِ وَيَقِفُ بِالْوُفُودِ وَالِدَّاهِلِينَ عَلَى السُّلْطَانِ عِنْدَ الْخُدُودِ فِي تَحِيَّتِهِمْ
 وَخِطَابِهِمْ وَالْآدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي الْكُفُونِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا خِطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا
 شَاءُوا وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَيُسَمُّونَ
 هَذَا الَّذِي يَقِفُ بِالْأَدْلَسِ عَلَى حُدُودِ الْآدَابِ فِي اللَّقَاءِ وَالْتِحِيَّةِ فِي مَجَالِسِ السُّلْطَانِ
 وَالتَّقَدُّمِ بِالْوُفُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ الدَّوِيْدَارِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِغْبَاعَ كَاتِبِ السِّرِّ وَأَصْحَابِ
 الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ وَحَالَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ يَشَاءُ

(الحِجَابَةُ) * قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
 وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يُحِبُّ السُّلْطَانُ عَنِ الْعَامَّةِ وَيُغْلِقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَقْفَحُهُ لَهُمْ عَلَى
 قَدَرِهِ فِي مَوَاقِفِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ مُزَلَّةً يَوْمًا عَنِ الْخِطَطِ مَرُؤَسَةً لَهَا إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ
 فِيهَا بِمَا يَرَاهُ وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ بِمِصْرَ مَرُؤَسَةٌ
 لِصَاحِبِ الْخِطَّةِ الْعُلِيَّا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ * وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ
 الْحِجَابَةُ لِمَنْ يُحِبُّ السُّلْطَانُ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَيَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ
 فَمَنْ دُونَهُمْ فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رُفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِهِمْ كَانِ حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ
 مِنْ حُجَابِهِمْ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْأَسْتَبْدَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتُصَّ الْمُسْتَبَدُّ بِأَسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرَفِهَا
 فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَأَبْنَاؤُهُ كَذَلِكَ وَلَمَّا بَدَّوْا فِي مَظَاهِرِ الْمَلِكِ وَأَطْوَارِهِ
 جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ فَلَمْ يَتْرُكُوا لِقَبْهَا وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ وَأَسْمَائِهِ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ

يَعُونُ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ وَيَدُلُّونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ
وَيَذِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِحِطَّتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرٌ لِهَذَا الْأَسْمِ لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوْجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيَّينِ
بِمِصْرَ عِنْدَ أَسْتَغْطَامِهَا وَحَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ لَمْ
تَسْتَمْكِنْ فِيهَا الْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى اتِّحَالِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخُطَطِ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَسْمَاءِ
إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الرُّتَبِ إِلَّا الْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوَّلًا يَخُصُّونَ بِهَذَا الْأَسْمِ
الْكَاتِبَ الْمُتَصَرِّفَ الْمُشَارِكَ لِلسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَانِ عَطِيَّةً وَعَبْدَ السَّلَامِ
الْكُؤُوبِيَّ وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَسْمُ الْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ كَأَبْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنْ أَسْمُ
الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ * وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَنْضَلٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَكَانَتْ الرِّئَاسَةُ
فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلًا وَالتَّقَدُّمُ لَوْزِيرٍ وَالرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ وَكَانَ يَخُصُّ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُؤَحِّدِينَ
وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْوِلَايَاتِ وَالْعَزْلِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ وَأَخْطَصَّ الْحُسَيْنُ
وَالدَّيُّوَانُ بِرُتْبَةٍ أُخْرَى وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيَهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرُ الْمُطْلَقَ فِي
الدَّخْلِ وَالخُرُجِ وَيَحْجَسِبُ وَيَسْتَخْلَصُ الْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّفْرِيطِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ
أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ وَأَخْطَصَّ عِنْدَهُمُ الْقَلَمُ أَيْضًا بِمَنْ يُجِدُ التَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمِنُ
عَلَى الْأَسْرَارِ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُنْتَحَلِ الْقَوْمِ وَلَا التَّرْسِيلَ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ
يَشْتَرَطْ فِيهِ النَّسَبُ وَاحْتِاجُ السُّلْطَانِ لِاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُرْتَرِقِينَ بِدَارِهِ إِلَى
قَهْرِمَانٍ خَاصٍّ بِدَارِهِ فِي أحوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدَرِهَا وَتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وَكُسُوفَةٍ
وَنَفَقَةٍ فِي الْمَطَابَخِ وَالْإِصْطِبَاتِ وَغَيْرِهَا وَحَضَرَ الذَّخِيرَةَ وَتَنْفِيزَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي
ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْحِجَابَةِ فَخُصُّهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى
السَّيِّلَاتِ إِذَا اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ غَيْرَهُ وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى
ذَلِكَ وَحَجَبَ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ قَصَارَ هَذَا الْحَاجِبِ وَاسْطَةً بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ
الرُّتَبِ كُلِّهِمْ ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ الدَّوْلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ثُمَّ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ فَصَارَتْ لِحِطَّةُ
أَرْفَعِ الرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخُطَطِ ثُمَّ جَاءَ الْأَسْتَبْدَادُ وَالْحَجَرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الثَّانِي عَشَرَ
مِنْهُمْ ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَذْهَبَ آثَارُ الْحَجَرِ

وَالْإِسْبَادُ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِي كَانَتْ سَلَامًا إِلَيْهِ وَبَاشَرُ أُمُورِهِ كَأَنَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ
أَسْتَعَانَهُ بِأَحَدٍ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنٍ فَلَا أَثَرَ لِأَسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ
وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتَبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحِسْبَانِ وَالرِّسَالِ رَاجِعَةٌ
إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنْ أَخْصَصَتْ بَعْضُ الْيُتُومِ الْمُصْطَفِيِّينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ
تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفَرَّقَ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحُجْبُهُ عَنِ الْعَامَةِ فَهِيَ رُتَبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيَسْمَى
صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجُنَادِ رِوَاةُ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي
تَنْفِيزِ أُمُورِهِ وَتَصْرِيفِ عَقُوبَاتِهِ وَإِنْ زَالَ سَطَوَاتِهِ وَحَفِظَ الْمُعْتَقِلِينَ فِي سِجُونِهِ وَالْعَرِيفَ
عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَةِ رَاجِعُ
إِلَيْهِ فَكَانَتْهَا وَزَارَةُ صُغْرَى وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَارِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ
الْأَلْقَابِ وَلَا تُمَيِّزُ الْخِطَطِ لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَفُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِأَسْمِ الْحَاجِبِ فِي
بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَنْصٍ وَقَدْ
يَجْمَعُونَ لَهُ الْحِسْبَانُ وَالسَّجَلُ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي
تَبِعَتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهَا

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَالْخُصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحِسْبَانِ وَتَنْفِيزُ حَالِ السُّلْطَانِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَةِ يَسْمُونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يَجْمَعُ لَهُ الرِّسَالُ
وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خِطَّةً عَلَى السَّجَلَاتِ كَمَا فُلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَامَةِ كَمَا الْغَيْرُ مِنَ الدُّوَلِ
وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمَضَرٍ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضِعُ الْحَاكِمِ مِنْ أَهْلِ الشُّوَكَةِ وَهُمْ التُّرْكُ
يَنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوُضُفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةٍ
النِّبَاةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَةِ عَلَى الْأِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوَلِيَّةُ وَالْعَزَلُ
فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبْتَهَا وَتَنْفِذُ أُمُورِهِ
كَمَا تَنْفِذُ الْمَرَاسِمِ السُّلْطَانِيَّةِ وَكَانَ لَهُ النِّبَاةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَالْحِجَابُ الْحُكْمُ فَقَطْ
فِي طَبَقَاتِ الْعَامَةِ وَالْجُنْدُ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارُ مَنْ أَبَى الْإِتْقَادَ لِحُكْمِهِمْ وَطَوْرُهُمْ
تَحْتَ طَوْرِ النِّبَاةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى
اِخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جَزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْأَنْفِقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ

أَوْ الْجَرَائِزِ الْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوَلَّى وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعُمَالِ الْمُبَشِّرِينَ لَهُدِهِ
الْجَبَايَةِ وَالتَّنْفِيزِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا
الْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ الْقَبِطِ الْقَائِمِينَ عَلَى دِيَوَانِ الْحِسْبَانِ وَالْجَبَايَةِ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ فِي
مَضَرٍّ مِنْهُ عَصُورٌ قَدِيمَةٌ وَقَدْ يُولِيهَا السُّلْطَانُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ لِأَهْلِ الشُّوْكَةِ مِنْ رِجَالِ
الْتُرْكِ أَوْ أَبْنَاءِهِمْ عَلَى حَسَبِ الدَّاعِيَةِ لِنِزَالِ اللَّهِ مُدِيرِ الْأُمُورِ وَمُصَرِّفِهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

ديوان الاعمال والجبایات

إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ مِنَ الْوُظَائِفِ الْضَّرُورِيَّةِ لِلْمَلِكِ وَهِيَ الْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ
الْجَبَايَاتِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الدَّوْلَةِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَإِحْصَاءِ الْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرِ
أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفِ أَعْطِيَاثِهِمْ فِي إِبَائَاتِهَا وَالرُّجُوعِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِي يُرْتَبِهَا قَوْمَةُ
تلك الْأَعْمَالِ وَقَهَارِمَةُ الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذَلِكَ فِي
الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ مَبْنِيٌّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْمَهَرَّةُ مِنْ أَهْلِ
تلك الْأَعْمَالِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْكِتَابُ بِالْدِيَوَانِ وَكَذَلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ الْعُمَالِ
الْمُبَشِّرِينَ لَهَا * وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كِتَابِ
دِيَوَانِهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَانَهُمْ يُحَادِّثُونَ فَقَالَ دِيَوَانُهُ أَيُّ تَجَانِينِ بُلَغَةِ الْفُرْسِ
فَسَمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذَلِكَ وَحُذِفَتِ الْهَاءُ لِكَثْرَةِ الْأَسْتِعْمَالِ تَحْقِيقًا فَقِيلَ دِيَوَانٌ ثُمَّ نُقِلَ هَذَا
الْإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَالْحِسْبَانَاتِ وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمُ
لِلشَّيَاطِينِ بِالْفَارْسِيَّةِ سُمِّيَ الْكِتَابُ بِذَلِكَ لِسُرْعَةِ نَفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ الْأُمُورِ وَوُقُوفِهِمْ عَلَى
الْحَلِيِّ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَدَّ وَتَفَرَّقَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ
وَعَلَى هَذَا فَيَتَنَاوَلُ اسْمُ الدِّيَوَانِ كِتَابَ الرِّسَالِ وَمَكَانَ جُلُوسِهِ بَيَابِ السُّلْطَانِ عَلَى مَا
يَأْتِي بَعْدَ وَقَدْ تَفَرَّدَ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ بِنَظَرٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ يَفْرُدُ
كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَظَرٍ كَمَا يَفْرُدُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ النَّظَرُ فِي الْعَسَاكِرِ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ
وَحِسْبَانِ أَعْطِيَاثِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوَّلُهَا . وَاعْلَمْ
أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْغَلَبِ وَالْإِسْتِيْلَاءِ وَالنَّظَرِ فِي
أَعْطَافِ الْمَلِكِ وَفُتُونِ التَّمْهِيدِ وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيَوَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبٍ مَالٌ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَأَسْتَكْتَرُوهُ
 وَتَعَبُوا فِي قَسَمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ
 الْوَلِيدِ بِالْدِيَّانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يَدُونُونَ فَقِيلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ
 الْهَرَمِزَانُ لَمَّا رَأَاهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيَّانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةٍ مِنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ
 فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلَ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ فَأُثْبِتَ لَهُمْ دِيَّانًا وَسَأَلَ
 عُمَرُ عَنْ اسْمِ الدِّيَّانِ فَعَبَّرَ لَهُ وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ عَقِيلٌ بَنَى أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةُ
 ابْنُ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرُ بْنُ مَطْعَمٍ وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ فُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيَّانَ الْعَسَاكِرِ الْأَسْلَامِيَّةِ
 عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ
 فَأَلْفَرَبُ هَكَذَا كَانَ أَبْنَاءُ دِيَّانِ الْحَيْشِ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْمُسَيَّبِ
 أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ عَشْرِينَ وَأَمَّا دِيَّانُ الْخُرَاجِ وَالْحَبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ
 الْأَسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ دِيَّانِ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيَّانِ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ
 وَكُتَّابُ الدَّوَلِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ
 الْأَمْرُ مُلْكًا وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْقِ الْحِضَارَةِ وَمِنْ سَدَاجَةِ
 الْأُمِّيَّةِ إِلَى حَذَقِ الْكِتَابَةِ وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَّةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحِسَابِ
 فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سَلِيمَانُ بْنُ سَعْدٍ وَالْيَاسَدُ بْنُ الْأَرْدَنِ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيَّانَ الشَّامِ إِلَى
 الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونُ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ
 لِكُتَّابِ الرُّومِ أَطْلُبُوا الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ . وَأَمَّا دِيَّانُ
 الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ
 وَلَقِّنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 ابْنِ الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَّانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ
 إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغِمَ لَذَلِكَ كُتَّابُ الْفَرَسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ دَرُّ
 صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مَنِّتَهُ عَلَى الْكِتَابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوُظُفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
 مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ بَنِي نُوبَخْتٍ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّوَلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْوُظُفَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا
 يَخْتَصُّ بِالْحَيْشِ أَوْ يَتَّيَسَّرُ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَتَمْيِيزِ الدَّوَاخِي بِالصِّلَحِ وَالْعُنُودِ وَفِي تَقْلِيدِ

هَذِهِ الْوُضَائِفَةُ لِمَنْ يَكُونُ وَشُرُوطُ النَّظَرِ فِيهَا وَالْكَاتِبُ وَقَوَانِينِ الْحِسَابَاتِ فَأَمْرٌ رَاجِعٌ
إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَاكَ وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا تَسْكُمُ
فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّذِي تَحْتِ بِصَدْرِ الْكَلَامِ فِيهِ وَهَذِهِ الْوُضَائِفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ
الْمُلْكِ بَلْ هِيَ ثَالِثُهُ أَرْكَانُهُ لِأَنَّ الْمُلْكَ لَا يَبْدُلُهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالنَّحْطَابَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ
فَأَحْتِاجَ صَاحِبِ الْمُلْكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ فَيَنْفَرِدُ
صَاحِبُهَا لِلذَّكَ بِجُزْءٍ مِنْ رِئَاسَةِ الْمُلْكِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ
وَالطَّوَانِبِ بَعْدَهُمْ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوحِدِينَ
يَسْتَقِلُّ بِالنَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا وَتَعْقُبِ نَظَرِ الْأُولَاةِ وَالْعَمَالِ فِيهَا
ثُمَّ تَنْفِيذِهَا عَلَى قَدَرِهَا وَفِي مَوَاقِفِهَا وَكَانَ يُعْرِفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا
فِي الْجِهَاتِ غَيْرَ الْمُوحِدِينَ بَعْدَ يَحْسِنُهَا وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِ بَقِيَّةً وَكَانَ شَأْنُ
الْجَالِيَةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ
مِثْلَ بَنِي سَعِيدٍ أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ جَوَارِ غُرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي أَبِي الْحَسَنِ فَأَسْتَكْفَوْا بِهِمْ
فِي ذَلِكَ وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَدَاوُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْمُوحِدِينَ ثُمَّ اسْتَقْلَ بِهَا أَهْلُ الْحِسَابِ وَالْكَتَّابُ وَخَرَجَتْ عَنِ الْمُوحِدِينَ ثُمَّ كَمَا
اسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَتَفَدَّ أَمْرُهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ تَعَطَّلَ هَذَا الرَّسْمُ
وَصَارَ صَاحِبُهُ مُرُوْسًا لِلْحَاجِبِ وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ وَذَهَبَتْ تِلْكَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ
لَهُ فِي الدَّوْلَةِ وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَحِسَابُ الْعَطَاءِ وَالْخَرَاجِ جَمْعُ وَاحِدٍ
وَصَاحِبُ هَذِهِ الرُّتْبَةِ هُوَ الَّذِي يُصَحِّحُ الْحِسَابَاتِ كُلَّهَا وَيَرْجِعُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَنَظَرِهِ
مُعَقَّبٌ يَنْظُرُ السُّلْطَانُ أَوْ الْوَزِيرُ وَخَطُّهُ مُعْتَبَرٌ فِي صِحَّةِ الْحِسَابِ فِي الْخَارِجِ وَالْعَطَاءِ
هَذِهِ أَصُولُ الرُّتْبِ وَالْخَطِّ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ الرُّتْبَةُ الْعَالِيَةُ الَّتِي هِيَ عَامَّةُ النَّظَرِ وَمُبَاشَرَةٌ
لِلْسُلْطَانِ وَأَمَّا هَذِهِ الرُّتْبَةُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ فَمُتَنَوِّعَةٌ وَصَاحِبُ دِيَوَانِ الْعَطَاءِ يُعْرِفُ
بِنَظَرِ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ الْمَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي دِيَوَانِ الْجَبَاةِ الْعَامَةِ
لِلدَّوْلَةِ وَهُوَ أَعْلَى رُتْبِ النَّظَرِينَ فِي الْأَمْوَالِ لِأَنَّ النَّظَرَ فِي الْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى
رُتْبِ كَثِيرَةٍ لَا تَنْفَسِحُ دَوْلَتُهُمْ وَعَظَمَةُ سُلْطَانِهِمْ وَاتِّسَاعُ الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ عَنْ
أَنْ يَسْتَقِلَّ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدُ مِنَ الرِّجَالِ وَلَوْ بَلَغَ فِي الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ الْعَامِ

مِنْهَا هَذَا الْمُخْصُوصُ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيفُ لِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي السُّلْطَانِ
وَأَهْلُ عَصَبِيَّتِهِ وَأَرْبَابُ السُّيُوفِ فِي الدَّوْلَةِ يَرْجِعُ نَظْرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَهِدُ جُهْدَهُ
فِي مُتَابَعَتِهِ وَيُسَبِّحُ عَنْدهُمْ أَسْتَاذُ الدَّوْلَةِ وَهُوَ أَحَدُ الْأُمَرَاءِ الْأَكْبَرِ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ
الْجُنْدِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَيَتَّبِعُ هَذِهِ الْخُطَّةَ خُطَطُ عَنْدهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْأَمْوَالِ
وَالْحُسْبَانِ مَقْصُورَةٌ النَّظَرِ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْلَ نَظَرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمُبَاشَرَةُ لِلْأَمْوَالِ
السُّلْطَانِ الْخَاصَّةُ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سَهْمَانِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْخَرَاجِ وَبِلَادِ الْحِجَابَةِ مِمَّا لَيْسَ
مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ وَهُوَ تَحْتَ يَدِ الْأَمِيرِ أَسْتَاذِ الدَّارِ وَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنْ
الْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأَسْتَاذِ الدَّارِ نَظَرٌ عَلَيْهِ وَنَظَرُ الْخَاصِّ تَحْتَ يَدِ الْخَازِنِ لِأَمْوَالِ السُّلْطَانِ
مِنْ مَمَالِكِهِ الْمُسَمَّى خَازِنِ الدَّارِ لِاخْتِصَاصِ وَظَافِعِهَا بِأَمَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصِّ . هَذَا
بَيَانُ هَذِهِ الْخُطَّةِ بِدَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ بَعْدَ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَوَّلِهَا بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ
الْأُمُورِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

ديوان الرسائل والكتابة

هَذِهِ الْوُظُفَةُ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ فِي الْمَلِكِ لِاسْتِغْنَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ عَنْهَا رَأْسًا كَمَا فِي
الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبِدَاوَةِ الَّتِي لَمْ يَأْخُذْهَا تَهْدِيبُ الْحِضَارَةِ وَلَا اسْتِحْكَامُ الصَّنَاعِ وَإِنَّمَا
أَكَّدَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي الدَّوْلَةِ الْأَيْسَلَامِيَّةِ شَأْنُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَالْبَلَاغَةِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ
الْمَقَاصِدِ فَصَارَ الْكِتَابُ يُؤَدِّي كُنْهَ الْحَاجَةِ بِأَبْلَغٍ مِنَ الْعِبَارَةِ اللَّسَانِيَّةِ فِي الْأَكْثَرِ
وَكَانَ الْكَاتِبُ لِلْأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ وَمِنْ عِظَمَائِهِ قَبِيلُهُ كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ وَأُمَرَاءِ
الْصَّحَابَةِ بِالسَّامِ وَالْعِرَاقِ لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ وَصَارَ
صِنَاعَةً اخْتَصَّ بِمَنْ يُحْسِنُهُ وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِي الْعَبَّاسِ رَفِيعَةً وَكَانَ الْكَاتِبُ يُصَدِّرُ الْمَحَلَّاتِ
مُطْلَقَةً وَيَكْتُبُ فِي آخِرِهَا اسْمَهُ وَيَخْتُمُ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ طَائِعٌ مُتَقَوِّشٌ فِيهِ
اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ شَارَتْهُ بَعْضُ فِي طِينِ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِالْمَاءِ وَيُسَمَّى طِينُ الْخَتْمِ
وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفِي السَّجَلِ عِنْدَ طَبِيعِهِ وَالصَّاقِي ثُمَّ صَارَتْ السَّجَلَاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ
بِاسْمِ السُّلْطَانِ وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عَلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا دَلِيلًا حَسَبَ الْإِخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا
وَفِي لَفْظِهَا ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلَ هَذِهِ الْخُطَّةُ بِأَرْتِفَاعِ الْمَكَانِ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا مِنْ أَهْلِ
الْمَرَاتِبِ فِي الدَّوْلَةِ أَوْ أَسْتَبْدَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ فَتَصِيرُ عَلَامَةُ هَذَا الْكِتَابِ مُلْغَاةً لِحُكْمِ

بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ عَلَامَتِهِ الْمَعْبُودَةِ وَالْحُكْمَ لِعَلَامَةِ ذَلِكَ
الرَّئِيسِ كَمَا وَقَعَ آخِرُ الدَّوْلَةِ الْخَفِصِيَّةِ لَمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُ النُّجَابَةِ وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيزِ
ثُمَّ الْأَسْتِبدَادِ صَارَ حُكْمُ الْعَلَامَةِ الَّتِي لِلْكَاتِبِ مُلَغًى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةً إِنْ بَاعَ لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرٍ
فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ لِلْكَاتِبِ إِمضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخَطِّ يَصْنَعُهُ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صِيغِ الْإِنْفَازِ
مَا شَاءَ فَيَأْتُرُ الْكَاتِبُ لَهُ وَيَضَعُ الْعَلَامَةَ الْمَعْتَادَةَ وَقَدْ يَخْتَصُّ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ بِوَضْعِ
ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْدِأً بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ فَيَرْسِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عَلَامَتَهُ وَمِنْ
خَطِّطِ الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعُ وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ
وَفَضْلِهِ وَيُوقِعُ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهَا حُكُمًا وَالْفَصْلُ فِيهَا مُتَلَقَاءٌ مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَرِ
لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ فَإِمَّا أَنْ تَصْدُرَ كَذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَخْذُو الْكَاتِبُ عَلَى مِثَالِهَا فِي سِجِلٍ يَكُونُ بِيَدِ
صَاحِبِ الْقِصَّةِ وَيَحْتَاجُ الْمُوقِعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا تَوْقِيعُهُ وَقَدْ كَانَ
جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقِعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيَرْمِي بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا
فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلَغَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ وَفُتُونِهَا
حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ * وَأَعْلَمُ
أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخِطَّةِ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْزَعَ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَأَهْلِ الْمَرْوَةِ
وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعَارِضَةَ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُ مُعَرِّضٌ لِلنَّظَرِ فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لِمَا
يَعْرِضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أُمُثَالِ ذَلِكَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةُ
الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ
مَقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ الرُّتْبَةُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتَنَدَةً
إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لَمَّا يَقْتَضِيهِ طَبْعُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ
الْعَصِيَّةِ فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِ بِخَطِّطِ دَوْلَتِهِ وَسَائِرِ رُتْبَةٍ يَقْلُدُ أَلْمَالُ وَالسَّيْفُ
وَالْكِتَابَةُ مِنْهُمْ فَأَمَّا رُتْبَةُ السَّيْفِ فَتَسْتَعِينُ عَنْ مُعَانَاةِ الْعِلْمِ وَأَمَّا أَلْمَالُ وَالْكِتَابَةُ
فَيَضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَاغَةُ فِي هَذِهِ وَالْحُسْبَانُ فِي الْأُخْرَى فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ
مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ وَيَقْلُدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَكُونُ يَدٌ أُخْرَى مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ غَالِبَةً
عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ
فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ الْأَنْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ

عَصِيَّةَ السُّلْطَانِ يُعْرِفُ بِالذَّوِيدَارِ وَتَعْوِيلِ السُّلْطَانِ وَوُثُوقِهِ بِهِ وَاسْتِنَامَتِهِ فِي غَالِبِ
أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ الْبَلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكُتْمَانِ الْأَسْرَارِ
وَعَبْرَ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا * وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرُّتَبَةِ الَّتِي يَلَاحِظُهَا
السُّلْطَانُ فِي اخْتِيَارِهِ وَانْتِقَائِهِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ فَبَعِيدَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنْ اسْتَوْعَبَهَا
عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى الْكَتَّابِ وَهِيَ أَمَّا بَعْدُ حَفِظَكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ
صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطَكُمْ وَوَفَّقَكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرَمِينَ
أَصْنَافًا وَإِنْ كُنَّا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً وَصَرَفْنَاهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمُحَاوَلَاتِ
إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ فَبَعَثَكُمْ مَعَشَرَ الْكَتَّابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ
أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرِّزَانَةِ بِكُمْ بِنْتَظُمِ لِلْخِلَافَةِ مُحَاسِنَهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا
وَيُصْلِحَ كُنُفُكُمْ يَصْلُحُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بِلَادَهُمْ لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا
يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ
وَأَبْصَارُهُمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ وَالسِّنْتِيمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ فَأَمَّا مَتَعُكُمْ
اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ
وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَجْوَجَ إِلَى أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمُحْمَدِيِّ وَخِصَالِ
الْفَضْلِ الْمَدْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكَتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا
الْكِتَابِ مِنْ صَنِيعِكُمْ فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ فِي تَنْسِهِ وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقُ
بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ قَبِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحَقِيمِ مُقَدِّمًا
فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ مُتَّحِجًا فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ مُؤْتِرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلَ وَالْإِنْصَافِ
كُتُومًا لِلْأَسْرَارِ وَفِيًّا عِنْدَ الْأَشْدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ النَّوَازِلِ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا
وَالطَّوَارِقَ فِي أَمَا كَيْفَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهَا وَإِنْ لَمْ يَحْكَمْهَا أَخَذَ
مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بَغَيْرِ زَعْفٍ عَقْلَهُ وَحُسْنَ أَدَبِهِ وَفَضْلَ تَجَرُّبَتِهِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ قَبْلَ
وُرُودِهِ وَعَاقِبَتُهُ مَا يَصْدُرُّ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيَعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ وَعِتَادُهُ وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ
وَعَادَتَهُ فَيَتَنَافَسُوا يَا مَعَشَرَ الْكَتَّابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَبِ وَتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَابْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافُ السِّنِّكُمْ ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حَلِيَّةُ

كُتِبَ كُمْ وَأَرْوُوا الْأَشْعَارَ وَأَعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالنَّجْمَ وَأَحَادِيثَهَا
 وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هَمَمُكُمْ وَلَا تُضِعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ
 فَإِنَّهُ قِيَامُ كُتَابِ الْخُرَاجِ وَأَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطْلَعِ سَنِيَّتِهَا وَدَنِيَّتِهَا وَسَنَسَفِ
 الْأُمُورِ وَتَحَاقَرَهَا فَإِنَّهَا مِدْلَةٌ لِلرَّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِلْكِتَابِ وَتَزْهَوُ صِنَاعَتُكُمْ عَنِ الدُّنَاءِ
 وَأَرْبَاوَا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْأَجَلَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَبِيرَ
 وَالسَّخْفَ وَالْعِظَمَةَ فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَنَبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ وَتَحَلَّوْا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ
 وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ الْيَقِي لَأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ
 بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَأَعْطِفُوا عَلَيْهِ وَأَسْوَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ وَيَتَوَبَّ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ
 أَحَدًا مِنْكُمْ الْكَبِيرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَرُورُهُ وَعِظْمُوهُ وَسَاوَرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا
 بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلِيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ يَوْمَ
 حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحَوطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مُحَمَدَةٌ فَلَا يَصْنُفُهَا إِلَّا إِلَى
 صَاحِبِهَا وَإِنْ عَرَضَتْ مَدْمَةٌ فَلْيُحْمَلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَيُخَذَرِ السَّقَطَةُ وَالزَّلَّةُ وَالْمَلَكُ عِنْدَ تَغْيِيرِ
 الْحَالِ فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ الْكِتَابِ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى الْقُرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهْمُ فَقَدْ
 عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْدُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ
 عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَأَحْسَالِهِ وَخَيْرِهِ وَتَصِيحِهِ وَكَيْفَ سِرِّهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ
 مَا هُوَ جَزَاءُ الْحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالْإِضْطِرَارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعِرُوا
 ذَلِكَ وَفَقِّحْكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْحَرَمَانِ وَالْمَوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ
 وَالسَّرَّاءِ وَالْفُرَّاءِ فَتَعَمَّتِ السَّيِّئَةُ هَذِهِ مِنْ وَسْمِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا
 وَلَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْصِرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ فَلْيُرَاقِبْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُوَازِ
 طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَجَبُهُمْ إِلَيْهِ
 أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفُقَرَاءِ مُؤَفِّرًا وَلِلْبِلَادِ
 عَامِرًا وَلِلرَّعِيَةِ مُتَالِفًا وَعَنْ أَذَاهُمْ مُخْلَفًا وَلِيَكُنْ فِي نَجْلَتِهِ مُوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سِيَلَاتِ
 خُرَاجِهِ وَاسْتَفْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلْيَحْتَبِرْ خِلَاتِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ
 حُسْنَهَا وَفُحْشَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحُسْنِ وَأَحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقُبْحِ
 بِاللَّطْفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلَ وَسِيلَةٍ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَيْمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرًا لِسَائِسَتِهَا

أَلْتَمَسَ مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا لَمْ يَبْجِهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شُجُوبًا أَثَقَّهَا
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُّودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُوتًا قَمَعَ
 بِرَفْقٍ هَوَاهَا فِي طَرَفِهَا فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَظْفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادَهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ
 مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَالٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ بِفَضْلِ
 أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُخَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَظَرُهُ وَيَفْهَمُ
 عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطَوَتَهُ أَوَّلَى بِالرَّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ
 الَّتِي لَا تُخْبِرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَهْتَمُّ خَطَابًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا
 الرَّكَّابُ عَلَيْهَا إِلَّا فَارَقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَاعْمَلُوا مَا أَمَّاكُمْ فِيهِ مِنْ
 الرُّيَّةِ وَالْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ صَحَّبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ وَالْإِسْتِقَالَ وَالْخَفْوَةَ وَيَصِيرُ
 مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاحَاةِ وَالشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا يُخَاوِرَنَّ
 الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ تَجَلُّسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبَنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ مِنْ ذُنُونِ أَمْرِهِ قَدَرِ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنَعْتُمْ خَدَمَهُ
 لَا تُحْمِلُونَ فِي خَدَمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحَفْظَةِ لَاتُحْمِلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ الضَّيِّعِ وَالتَّبْدِيرِ
 وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ وَاحْذَرُوا
 مَتَالِفَ السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ الْتَرَفِ فَإِنَّهُمْ بِأَعْقَابِ الْفَقْرِ وَيَذِلُّنَ الرَّقَابَ وَيَفْضَحْنَ أَهْلَهُمَا
 وَسَيِّمًا الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْأَدَابِ وَالْأُمُورِ أَشْبَاهَ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى
 مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبَتُكُمْ ثُمَّ اسْأَلُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّبْدِيرِ أَوْفَحُهَا
 حُجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّبْدِيرِ أَفَّةً مُتَلَفَةً وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ
 لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْقَازِ عِلْمِهِ وَرُويته فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ
 مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي أَبْدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِنَعْلِهِ
 وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ وَمَخَافَةِ
 وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا إِنْ
 الَّذِي يَرَى مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حُرْكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ
 تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكْلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ
 كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقِلُّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ

لِعَبِّ التَّدْبِيرِ مِنْ مَرَاتِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ
ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَأَى ظَهْرَهُ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحَدُ فِي
طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ
اعْتِرَازٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَلَا يُكَاثِرَ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ
وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَالتَّحَدُّثِ
بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلَزِمُهُ الْعَمَلُ
وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذَلِكَ
جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكِتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَبْدِهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
(الشرطة) * وَيُسَمَّى صَاحِبَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقَةِ الْحَاكِمِ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ
الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي وَهِيَ وَطَنُهُ مَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ
فِي الدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا
فَإِنَّ التَّهَمَ الَّتِي تُعْرَضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلْسِّيَاسَةِ
النَّظَرَ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يُكْرَهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا اخْتَفَتْ بِهِ الْقُرَآنُ لِمَا
تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الْاسْتِبْدَادِ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ
بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ وَرَبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ
وَالدَّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي وَنَزَّهُوا هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارُ الْقَوَادِ
وَعُظَمَاءُ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوْلَاهُمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيدِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَ
حُكْمُهُمْ عَلَى الدَّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرَّبِّ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الرِّعَاعِ وَالْفَجَرَةِ ثُمَّ عَظُمَتْ
نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَنُوعَتْ إِلَى شَرْطَةِ كُبْرَى وَشَرْطَةِ صُغْرَى وَجُعِلَ
حُكْمُ الْكُبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَاللَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ
وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظَّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ
وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مُخْصُوصًا بِالْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكُبْرَى كُرْسِيُّ بَابِ دَارِ
السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّوْنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ وَكَانَتْ

وَلَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا كَآبِرٌ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحًا لِلْوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ
وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِالْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حِظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُهَا
عَامَةً وَكَانَ لَا يَلِكُمَا إِلَّا رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَكِبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحْكُمُ عَلَى أَهْلِ
الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مِنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الْمُوحِدِينَ وَصَارَتْ
وَلَا يَتَّبِعُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُصْطَفِيِّينَ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرَيْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ
فَوَلَا يَتَّبِعُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ أَصْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكَ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالِ
التُّرْكَ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكَ يَتَخَيَّرُونَ مِنْهُمْ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ
مِنَ الصَّلَابَةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ الدَّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ
مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا نَقَضِيهِ رِعَايَةَ
الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ
(قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخِطَطِهَا فِي مَلِكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ
وَمَرْؤُسَةِ إِصْحَابِ السَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي
عَرَفِهِمُ الْبَلَكَمَنْدُ بِتَفْخِيمِ اللَّامِ مَنقُولًا مِنْ لُغَةِ الْأَفْرِجِيَّةِ فَإِنَّهُ اسْمُهَا فِي أَصْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ
وَإِنَّمَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ بِمَلِكِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمَا جَمِيعًا عَلَى ضِفَّةِ الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِإِلَادِ الْبَرِّ كَلِمَتُهُمْ مِنْ سَبْتَةِ إِلَى
الشَّامِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِإِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْأَفْرِجِيَّةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالرُّومِ إِلَى بِلَادِ
الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالْبَحْرُ الشَّامِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدُوتِهِ وَالسَّائِكُونَ
بِسَيْفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدُوتِهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لَا تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ
الْبَحَارِ فَقَدْ كَانَتْ الرُّومُ وَالْأَفْرِجِيَّةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدُوتِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ وَالْحَرْبُ فِي
أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَ مِنْهُمْ إِلَى مَلِكِ الْعُدُوتِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ الرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ
وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا وَتَعَلَّمُوا عَلَى الْبَرِّ بِهَا وَانْتَزَعُوا
مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمُدُنُ الْحَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجَنَةِ وَسَيْطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمَرِنَاقَ
وَشَرِشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ
الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْهَسَاكِرِ وَالْعِدَدِ فَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ

أَلْسَا كَيْنَ حَفَافِيهِ مَعْرُوفَةً فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ
 ابْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفَ لِي الْبَحْرَ نَكْتَبُ إِلَيْهِ
 إِنْ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يَرْكُوبُهُ خَلَقَ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى عَوْدٍ فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِنَعْلِ الْمُسْلِمِينَ
 مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكُوبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنْ أَقْنَتَ عَلَى عُمَرُ فِي رُكُوبِهِ وَقَالَ مَنْ
 عَقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بَعْرِجَةَ بْنِ مَرْثَمَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدَ بَجِيلَةٍ لَمَّا أَغْرَاهُ عَمَّانُ فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ
 فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنْفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا
 كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّيْبِ فِي ذَلِكَ
 أَنَّ الْعَرَبَ لِيَدَاوِيهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهْرَةً فِي ثِقَاتِهِ وَرُكُوبِهِ وَالرُّومُ وَالْأَفَرَجَةُ لِمَارَسَتِهِمْ
 أَحْوَالَهُ وَمَرَبَأُفُمْ فِي التَّقَالِبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرَبُوءًا عَلَيْهِ وَأَحْكَمُوا الدَّرَايَةَ بِثِقَاتِهِ فَلَمَّا
 اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَشَتَّحَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَمُ الْجَمْعِ خَوْلًا لَهُمْ وَتَعَتْ أَيْدِيهِمْ
 وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ وَاسْتَحْدَهُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فِي حَاجَاتِهِمْ
 الْبَحْرِيَّةِ أُمَمًا وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَاتُهُ وَاسْتَحْدَتْهَا بِصُرَاءَ بِهَا فَشَرُّهُوا إِلَى
 الْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا السُّفْنَ فِيهِ وَالشَّوَانِي وَشَحَنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَأَمْطَوْهَا
 الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ وَأَخْصَصُوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ
 وَتَغَوَّرَ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ
 وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةِ
 بَنُو سِمْسٍ لِإِنْشَاءِ الْأَلَاتِ الْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَامِ الْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ قُبْحُ صَقِيلَةِ أَيَّامِ
 زِيَادَةَ اللَّهِ الْأَوَّلِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ شَيْخِ الْفَتَمَاءِ وَفَتَحَ
 قَوْصَرَةَ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ أَعَزَّى صَقِيلَةَ أَيَّامِ مُعَاوِيَةَ بْنِ
 أَبِي سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ
 وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ تَتَعَاقَبُ
 إِلَى الْإِدِيمَاءِ فِي سَبِيلِ الْفَتْحِ فَجَسُ خِلَالِ السَّوَاحِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالتَّخْرِيبِ وَأَنْتَهَى
 اسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مَا تَنَبَّأَ مَرْكَبُ أَوْ نَحْوَهَا وَاسْطُولُ
 أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلُهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ابْنُ دُمَاحِيسَ
 وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَالْإِفْلَاحِ بِجَايَةِ وَالْمَرِيَّةِ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ الْمَالِكِ

مِنْ كُلِّ بَلَدٍ نَتَّخِذُ فِيهِ السُّنُنُ اسْتَطُولُ يَرْجِعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النَّوَانِيَةِ يُدِيرُ أَمْرَ حَرْبِهِ
 وَسِلَاحِهِ وَمَقَاتِلَتِهِ وَرَأْسُ يُدِيرُ أَمْرَ جَرِيَّتِهِ بِالرَّيْحِ أَوْ بِالْمَجَازِيفِ وَأَمْرَ إِزْسَائِهِ فِي
 مَرْفَئِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لَغْزٍ وَمُخْتَفِلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ مِنْهُمْ عَسَكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا
 الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادٍ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ
 مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لَوُجُهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ
 إِلَيْهِمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا
 الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمِّ النَّصْرَانِيَّةِ
 قَبْلَ بِأَسَاطِيلِهِمْ شَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِفَتْحِ سَائِرِ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمْ
 الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَالِكُ وَاسَائِرِ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاهِلِ
 فِيهِ مِثْلُ مَيُورَقَةٍ وَمَمُورَقَةٍ وَيَابَسَةٍ وَسِرْدَانِيَّةٍ وَصَقْلِيَّةٍ وَقَوْصِرَةٍ وَمَالِطَةٍ وَأَفْرِيطِشٍ
 وَقَيْرُسٍ وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّيْبِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ
 أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنُودَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ وَافْتَتَحَ مُجَاهِدُ الْعَامِرِيُّ
 صَاحِبُ دَانِيَّةٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَّةٍ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 وَأَرْبَعِينَ النَّصَارَى لَوْفَتِهَا وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هَذَا
 الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَّةً وَذَاهِبَةً وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ مِنْ صَقْلِيَّةٍ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمَقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ تَتَوَقَّعُ بِمُلُوكِ
 الْإِفْرَنْجِ وَتُشْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ مُلُوكِ صَقْلِيَّةِ الْقَائِمِينَ
 فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَانْخَارَتْ أُمُّ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَنَابِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ
 مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَدُونُهَا وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ
 قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءُ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيستِهِ وَقَدْ مَلَأَتْ إِلَّا كَثِيرٌ مِنْ بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ
 عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِي طَرَفِهِ سَلْمًا وَحَرْبًا فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ الْوَالِحُ حَتَّى إِذَا
 ادْرَكَ الدَّوْلَةُ الْعَبِيدِيَّةَ وَالْأُمُويَّةَ الْفُشْلُ وَالْوَهْنُ وَطَرَقَ الْاِعْتِلَالُ مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ
 إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صَقْلِيَّةٍ وَأَفْرِيطِشٍ وَمَالِطَةٍ فَمَلَكُوها ثُمَّ اخْتَوَاعُوا عَلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ
 فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّا وَاسْتَوْلُوا عَلَى جَمِيعِ النُّغُورِ
 بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبَنُوا عَلَيْهِ كَنِيْسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بني خزرون على طرابلس ثم على فاس وصفافس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر
ملوك العبيدين من يد أعقاب بلكين بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة
الكرّة بهذا البحر وضعت شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم
يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت
الحّد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت
بأفريقية والمغرب فصارت مخصصة بها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد
مؤفّر الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرامة فكان قائد
الأسطول به العهد امتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها
عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد
العدوتين جميعاً * ولما استعجلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا
العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكانت قائد
أسطولهم أحمد الصقليّ صلّه من صدّ غيار الموطنين بجزيرة سرويّش أسرّة النصارى
من سواحلهما وربّي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك ووليّ ابنه
فأسخطه بعض الزنات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني
عبد المؤمن وأجاز مراكش فتلّقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة
والكرامة وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أمر النصرانية وكانت
له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين * وانتهت أساطيل
المسلمين على عهده في الكثرة والاستحادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما
عهدها ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعنده باسترجاع
نغور الشام من يد أمر النصرانية وتطهير بيت المقدس تابعت أساطيلهم بالمدد
لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم
بالعدد والأفوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك
الجانب الشرقي من البحرية وتعدّد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل
عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور
سلطان المغرب لعنده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ

مُلُوكٍ شِيزَرٍ وَكَانَ مَلِكُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ بَعَثَ عَبْدُ انصَرِيهِ مِنْهُمْ
 هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ لِيَتَحُولَ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْأَجَانِبِ
 وَبَيْنَ مَرَاهِمُ مِنْ أَمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ يَنْغُورُ الشَّامُ وَأَصْحَبُهُ كِتَابُهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ
 الْفَاضِلِ الْيَسَّاسِيِّ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِهِ فَتَحَ اللَّهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ وَالْمَيَامِنِ حَسْبَمَا
 نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ فَنَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ نَجَافِيَهُمْ عَنْ
 خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِحِ الْبَرِّ وَالْمَكْرَامَةِ وَرَدَّهُمْ
 إِلَى مُرْسِلِهِمْ وَلَمْ يَجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ
 بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِي الْأَجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْإِسْطِطَالَةِ وَعَدَمِ
 عِنَايَةِ الدَّوْلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِنِشَانِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ
 مِنْهَا لِلدَّوْلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَأَعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَاسْتَوْلَتْ أُمُّ
 الْجَلَالَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَزَائِرِ وَالْمُسْلِمِينَ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَمَلَكَوا
 الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْأَجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ وَاشْتَدَّتْ
 شَوْكَتُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ
 كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحُسَيْنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ
 مَرَامِهِ الْجَزَائِرَ مِثْلَ عُدَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ لِضَعْفِ الدَّوْلَةِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَانْقِطَاعِ
 الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجْعِ النَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الدُّرْبَةِ فِيهِ وَالْمِرَانِ
 عَلَيْهِ وَالْبَصَرِ بِأَحْوَالِهِ وَغَابَ الْأَمْرُ فِي لُجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ
 إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمْ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ
 وَالْأَعْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدَّوْلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتُوضِحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلَكًا
 وَبَقِيَتْ الرُّتْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدَّوْلَةِ الْغَرْبِيَّةِ خَفُوظَةً وَالرَّسْمُ فِي مُعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ
 وَالرُّكُوبِ مَعْبُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَعْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ
 الْبَحْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَرْبِهُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنْ الْمَشْهُورِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
 عَنْ كُتَيْبِ الْأَحْدَثَانِ أَنَّهُ لَا يَدُّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكِرَّةِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ
 الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْأَفْرِجَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إِعْلَمَنَّ أَنَّ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا أَلَةُ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ
الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ إِلَى السَّيْفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدَّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى
الْقَلَمِ لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنْفَذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالسَّيْفُ شَرِيكَ فِي
الْمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضَعُ عَصِيَّتَهُمَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا
يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي قَدَمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الْأَسْتَظْهَارِ بِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَتَقْوَى
الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا
فَيَكُونُ لِلسَّيْفِ مِزِيَّةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ السَّيْفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا
وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِعْطَاءً وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعِينُ صَاحِبُهَا بِبَعْضِ الشَّيْءِ عَنْ
السَّيْفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هَمُّهُ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْجَبَايَةِ
وَالضَّبْطِ وَمُبَاهَاةِ الدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ وَالْقَلَمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعَظُمُ الْحَاجَةُ
إِلَى تَصْرِيفِهِ وَتَكُونُ السُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَعْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنْابَتْ نَائِبَةٌ أَوْ
دُعِيَتْ إِلَى سِدِّ فُرْجَةٍ وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي
هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَتَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَجْلِسًا
وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرَدُّدًا وَفِي خُلُوتِهِ نَحِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ أَلْتَهُ الَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ
ثَمَرَاتِ مَلِكِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَالْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ
الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ مُسْتَعْنَى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنِ بَاطَنِ السُّلْطَانِ حَذِيرِينَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ
بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا الْفَرَسِ أَخَوْفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا
سَكَتَتِ الدَّهْمَا سَكَنَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِعْلَمَنَّ أَنَّ لِلْسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًَا اقْتَضَتْهَا الْأَهْلَةُ وَالْبَدْحُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

بِأَنْتَعَالِهَا عَنِ الرِّعْيَةِ وَالْبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلَمَّا دُكِّرَ مَا هُوَ مُشْتَرِكٌ مِنْهَا
بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ
الْآلَةُ * فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ الْآلَةِ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ
وَالنَّفْحِ فِي الْأَبْوَاقِ وَالْقُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرِسْطُو فِي الْكِتَابِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ
أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ
بِالرَّوْعَةِ وَالْعَمَرِي إِنَّهُ أَمْرٌ وَجَدَانِي فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهَذَا
السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ صَحِيحٌ بَعْضُ الْأَعْتِبَارَاتِ * وَأَمَّا
الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النِّغَمِ وَالْأَصْوَاتِ يَذُرُّهَا الْفَرْحُ وَالطَّرَبُ بِلَا
شَكٍّ فَيُصِيبُ مَزَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَسْمِلُ بِهَا الصَّعْبُ وَيَسْتَمِيتُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ
الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ بِأَنْتَعَالِ الْأَيْلِ بِالْحِدَاءِ وَالْخَيْلِ
بِالصَّنِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتْ الْأَصْوَاتُ مُنَاسِبَةً كَمَا
فِي الْغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِعِيهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ نَتَّخِذُ الْعُجْمَ فِي
مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ ^(١) لَا طَبْلًا وَلَا بَوْقًا فَيَحْدُقُ الْمَغْنُونُ بِالسُّلْطَانِ فِي
مَوْكِهِ بِالْأَتِيمِ وَيَغْنُونُ فَيَجْرُ كَوْنُ نَفُوسِ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الْأَسْتِمَانَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي
حُرُوبِ الْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمَوْكِبِ بِالشَّعْرِ وَيُطَرِّبُ فَيُخَيِّشُ هُمُ الْأَبْطَالِ بِمَا فِيهَا
وَيُسَارِعُونَ إِلَى تَجَالِ الْحَرْبِ وَيَنْبَغِثُ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى قَوْمِهِ وَكَذَلِكَ زَنَانَةٌ مِنْ أُمَّةٍ الْمَغْرِبِ
يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّنُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيَجْرُكَ بِغِنَائِهِ الْجِبَالَ الرَّوَاسِي وَيَبْعَثُ عَلَى
الْأَسْتِمَانَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ الْغِنَاءَ تَأْصُوكَايَ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرْحٌ يَحْدُثُ فِي
النَّفْسِ فَتَنْبَغِثُ عَنْهُ الشَّجَاعَةُ كَمَا تَنْبَغِثُ عَنْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَّثَ عَنْهَا مِنَ الْفَرْحِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ وَأَمَّا تَكْثِيرُ الرَّايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَطَالَتِهَا فَأَلْقَصُدُ بِهِ التَّهْوِيلَ لَا أَكْثَرُ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ
فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْأَقْدَامِ وَأَحْوَالِ النُّفُوسِ وَتَلْوِينَاتُهَا غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ * ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالْدُّوْلَ يَخْتَلِفُونَ فِي اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ فَمِنْهُمْ مُكْثَرٌ وَمِنْهُمْ
مُقَلِّلٌ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ وَعَظَمِهَا فَأَمَّا الرَّايَاتُ فَإِنَّهَا شِعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيقَةِ

(١) فوله موسيقية وفي نسخة المرسية رية وفي صحيفة لاس الموسيقى بكسر الهمزة وفتح الهمزة بين التختين اسم للنغم
والألحان وتوقعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر اول سفينة الشيخ محمد شهاب

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْفَزَوَاتِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ * وَأَمَّا قَرْعُ الطُّبُولِ وَالنَّفْعُ فِي الْأَبْوَابِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ
الْمَلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنَزُّهَا عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ وَرَفْضًا لِأَحْوَالِهِ وَاحْتِقَارًا لِأُيُوتِهِ الَّتِي لَبَسَتْ
مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ اخِلَافَةُ مَلِكٍ وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَا بَسَمُ
الْمَوَالِي مِنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ أَهْلِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ وَأَرْوَهُمْ مَا كَانَ أَوْلَكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ
مَذَاهِبِ الْبَدْعِ وَالتَّرَفِ فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذَ الْأَلَةِ فَآخَذُواهَا وَأَذْنُوا لِعَمَالِهِمْ
فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهَا بِالْمَلِكِ وَآهْلِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ النَّعْرِ أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ
يَعْقِدُ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ الْعَبِيدِيِّينَ لَوَاءَهُ وَيُخْرِجُ إِلَى بَعْتِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ
الْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوَكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرِّيَاسَاتِ وَالْأَلَاتِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَوَكِبِ الْعَامِلِ
وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَالسَّوَادِ
فِي رَايَاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا حَزَنًا عَلَى شَهْدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَنَعِيًا
عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ وَلِلَّذَلِكَ سُمُّوا الْمُسَوَّدَةَ * وَلَمَّا أَفْتَرَقَ أَمْرُ الْأَهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ
الطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصَرَ ذَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ فَاتَّخَذُوا
الرِّيَاسَاتِ بِيضًا وَسُمُّوا الْمُبْيِضَةَ لِذَلِكَ سَاطَرِ أَيَّامِ الْعَبِيدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ فِي
ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْمَسْرِقِ كَالدَّاعِي بِطَبْرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بِدْعَةِ الرَّافِضَةِ
مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةِ وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ السَّوَادِ وَشَعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى
لَوْنِ الْخَضِرَةِ فَبَجَلَ رَايَتَهُ خَضِرَاءَ وَأَمَّا الْأَسْتِثْكَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ
أَلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إِلَى قَتْمِ السَّامِ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْبُنُودِ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ
الْأَبْوَابِ وَأَمَّا مَلُوكُ الْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْجَاةٍ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ
وَشَوْهَا بِالذَّهَبِ وَاتَّخَذُوا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مَلُونَةً وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْأَذْنِ فِيهَا لِعَمَالِهِمْ
حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَانَةِ قَصْرُوا الْأَلَةَ مِنَ الطُّبُولِ وَالْبُنُودِ
عَلَى السُّلْطَانِ وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عُمَّالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوَكِبًا خَاصًّا يَتَّبِعُ أَثَرُ السُّلْطَانِ
فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى السَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثَرٍ وَمَقْلٍ بِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي ذَلِكَ
فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْعَدَدِ تَبَرُّكًَا بِالسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَبَنِي
الْأَخْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَشْرَةَ وَالْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَانَةِ وَقَدْ بَلَغَتْ فِي

أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ فِيمَا أَدْرَكَنَاهُ مِائَةً مِنَ الطُّبُولِ وَمِائَةً مِنَ الْبُودِ مُلَوَّهَةً
بِالْحَرِيرِ مَسْجُوعَةً بِالذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَا ذُنُونَ لِلْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ وَالْقَوَادِ فِي
اتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْكُتَاتِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ الْحَرْبِ لَا يَتَجَاوَزُونَ
ذَلِكَ وَمَا دَوْلَةُ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالشَّرْقِ فَيَتَخَذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَأْسِهَا
خَصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا الشَّالَاشَ وَالْجَزْرَ وَهِيَ شَعَارُ السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ اتَّعَدُّ
الرَّايَاتُ وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاقِي وَاحِدُهَا سَنَقِي وَهِيَ الرَّايَةُ يَلْبَسَانِهَا. وَأَمَّا الطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ
فِي الْأَسْتِكَثَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا الْكُوسَاتِ وَيُبِيحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدٍ عَسْكَرٍ أَنْ
يَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا الْجَزْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالسُّلْطَانِ. وَأَمَّا الْجَلَالِقَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ
أُمَمِ الْأَفْرَنْجَةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمْ اتِّخَاذُ الْأَلْوِيَةِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةٍ فِي أَجْوِ صُغْدَا
وَمَعَهَا قَرْنُ الْأَوْتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ وَتَفْخُ الْغَيْطَاتُ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ الْغِنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ
حُرُوبِهِمْ هَكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاتِّخِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَاتٌ لِلْعَالَمِينَ

(السري) . وَأَمَّا السَّرِيرُ وَالْمَنْبَرُ وَالتَّخْتُ وَالْكُرْسِيُّ فِيهِ أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَاكُ
مَنْصُودَةٌ جُلُوسُ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا مَرْتَبَعًا عَنْ أَهْلِ تَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي الصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ
ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْلِ الْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ
وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْسِيُّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ
إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الدُّوْلُ إِلَّا بَعْدَ الْأَسْتِخْلَالِ وَالتَّرَفِّ شَأْنِ الْأَهْبَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا
وَمَا فِي أَوَّلِ الدُّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ
مُعَاوِيَةُ وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنْ قَدْ بَدَنْتُ فَأَذِنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ
الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأَهْبَةِ وَلَقَدْ كَانَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِي بِمَصْرَ يَجْلِسُ
فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُقَوْسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ
مَحْمُولًا عَلَى الْأَيْدِي جُلُوسُهُ شَأْنُ الْمُلُوكِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ
بِمَا اعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الذِّمَّةِ وَأَطْرَاحًا لِأَهْبَةِ الْمُلِكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ
وَالْعَبِيدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرَفًا وَغَرَبًا مِنَ الْأَسِرَّةِ وَالْمَنْابِرِ وَالتَّخُوتِ مَا عَفَا عَنْ
الْأَكَاكِسَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(السكة) يوهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس يطابع حديد ينقش فيه صوراً أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رؤسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير اشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يسطح عليه فيكون التعامل بها عدداً وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصارت علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقنون في سلامتها الغش بمختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعندها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسداجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويزها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله كما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دنانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أَيَّامُ الْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عَشْرُونَ قِيرَاطًا وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ
 وَمِنْهَا عَشْرَةٌ فَلَمَّا أَحْتِيجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ أُخِذَ الْوَسْطُ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا
 فَكَانَ الْمِثْقَالُ دَرْهَمًا وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعٍ دَرْهَمٍ وَقِيلَ كَانَتْ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ ثَمَانِيَةً دَوَانِقَ
 وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةً دَوَانِقَ وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَةً دَوَانِقَ وَالْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يُنْظَرَ
 الْأَغْلَبُ فِي التَّعَامُلِ فَكَانَ الْبَغْلِيُّ وَالطَّبْرِيُّ اثْنَيْ عَشَرَ دَانِقًا وَكَانَ الدَّرْهَمُ سِتَّةَ
 دَوَانِقَ وَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالًا وَإِذَا انْقَصَتْ ثَلَاثَةُ أَغْشَارِ الْمِثْقَالِ كَانَ
 دَرْهَمًا فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السِّكَّةِ لِصِيَانَةِ التَّقْدِينِ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ
 الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغَشِّ عَيْنَ مَقْدَارِهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَاتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتٍ لَا صُورًا لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ الْكَلَامَ وَالْبَلَاغَةَ أَقْرَبَ مَنَاحِيهِمْ وَأَظْهَرَهَا
 مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ الصُّورِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَحَرَّ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْمِلَّةِ كُلِّهَا
 وَكَانَ الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مُدَوَّرَيْنِ وَالْكِتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرٍ مُتَوَازِيَةٍ
 يُكْتَبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ الْأَوْجِهَيْنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَصَلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَفِي
 الْوَجْهِ الثَّانِي التَّارِيخُ وَأَسْمُ الْخُلَيفَةِ وَهَكَذَا أَيَّامُ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعَبِيدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ
 وَأَمَّا صَنْهَاجُهُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ الْأَمْرِ اتَّخَذَهَا مَنْصُورٌ صَاحِبُ بَيْجَانَةٍ ذَكَرَ ذَلِكَ
 ابْنُ حَمَادٍ فِي تَارِيخِهِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ الْمَهْدِيُّ اتِّخَاذَ
 سِكَّةِ الدَّرْهَمِ مُرَبَّعِ الشَّكْلِ وَأَنْ يُرْسَمَ فِي دَائِرَةِ الدِّينَارِ شَكْلُ مُرَبَّعٍ فِي وَسْطِهِ
 وَيُمَلَأَ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَمِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ كُتِبَ فِي السُّطُورِ بِاسْمِهِ
 وَأَسْمِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ ذَلِكَ الْمُوَحِّدُونَ وَكَانَتْ سِكَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَلَقَدْ كَانَ الْمَهْدِيُّ فِيمَا يُنْقَلُ يُنْقَلُ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِصَاحِبِ الدَّرْهَمِ الْمُرَبَّعِ نَعْتَهُ بِذَلِكَ
 الْمُتَكَلِّمُونَ بِالْحَدَّثَانِ مِنْ قَبْلِهِ الْمُخْبِرُونَ فِي مَلَاحِمِهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ فَسَكَّتَهُمْ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَإِنَّمَا يَتَعَامَلُونَ بِالْدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ وَزَنًا بِالصَّنَجَاتِ
 الْمُقَدَّرَةِ بَعْدَهُ مِنْهَا وَلَا يَطْبَعُونَ عَلَيْهَا بِالسِّكَّةِ نَقُوشَ الْكَلِمَاتِ بِالتَّهْلِيلِ وَالصَّلَاةِ وَأَسْمِ
 السُّلْطَانِ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
 وَلَتُخْتَمَ الْكَلَامُ فِي السِّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الدَّرْهَمِ وَالْدِّينَارِ الشَّرْعِيَيْنِ وَيَبَانَ
 حَقِيقَةُ مَقْدَارِهِمَا

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَارَ وَالدرَّهَمَ مُخْتَلِفَا السِّكَّةِ فِي الْمَقْدَارِ وَالْمَوَازِينَ بِالْأَفَاقِ
وَالْأَمْصَارِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعُ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ
بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لَهُمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمَقْدَارٍ
مَعَيَّنٍ فِي تَقْدِيرِ تَجَرِّي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَأَعْلَمَ أَنَّ الْإِجْمَاعَ
مَنْعَقِدٌ مِنْذُ صَدَرِ الْإِسْلَامِ وَعَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالْبَاقِينَ أَنَّ الدِّرْهَمَ الشَّرْعِيُّ هُوَ الَّذِي تَزَنُ
الْعَشْرَةُ مِنْهُ سَبْعَةُ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَوْفَى مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبْعَةُ
أَعْشَارِ الدِّينَارِ وَوزنُ الْمِثْقَالِ مِنَ الذَّهَبِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالدِّرْهَمُ
الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَعْشَارِهِ خَمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسًا حَبَّةً وَهَذِهِ الْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ
فَإِنَّ الدِّرْهَمَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْوَاعٍ أَجْوَدُهَا الطَّبْرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقٍ وَالْبَغْلِيُّ
وَهُوَ ثَمَانِيَةُ دَوَانِقٍ فَبَعَلُوا الشَّرْعِيُّ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سِتَّةُ دَوَانِقٍ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الزَّكَاةَ
فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَعْلِيَّةً وَمِائَةِ طَبْرِيَّةٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ وَسَطًا وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ
كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدَ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ .
ذَكَرَ ذَلِكَ الْخَطَّاطُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ السَّنَنِ وَالْمَوَازِدِيِّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ
وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالدرَّهَمُ الشَّرْعِيَّانِ
مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَمِنْ بَعْدِهِمْ مَعَ تَعَلُّقِ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ
وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَاتَّخَذَ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومِي الْمَقْدَارِ فِي ذَلِكَ
العَصْرِ لِحُرْيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمَئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُتَخَصِّصٍ
فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارِفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمَقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا
وَرَزْنَتِهِمَا حَتَّى اسْتَفْحَلَ الْإِسْلَامُ وَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ وَدَعَتْ أَحْالُ إِلَى تَشْخِصِهِمَا فِي
الْمَقْدَارِ وَالْوِزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كِلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ
عَبْدِ الْمَلِكِ فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الذَّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا
السِّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَأْرِيخِهِ أَثَرُ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأْسًا
حَتَّى خُلِصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَاشَى وَجُودَهَا فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ
وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السِّكَّةِ فِي الدَّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمَقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي
الدِّينَارِ وَالدرَّهَمِ وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَفْطَارِ وَالْأَفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهِمَا

الشَّرْعِيَّةُ ذَهْنًا كَمَا كَانَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أَفْقٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحَقُّوقَ
الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سَكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّسَبَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ
الدِّينَارِ بِاثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوُسْطِ فَهُوَ الَّذِي ثَقَلَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ
إِلَّا ابْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . ثَقُلَ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي
عَبْدُ الْحَقِّ وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَدَّوْهُ وَهَمًّا وَعَاطَا وَهُوَ الصَّحِيحُ وَاللَّهُ يُخَيِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
وَكَذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَوْفِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمُتَعَارَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْمُتَعَارَفَةَ
مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْأَفْطَارِ وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذَهْنًا لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا

(الخاتمة) وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخُطُوطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْوُضَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْخَتَمُ عَلَى
الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ
أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ قَيْلٍ لَهُ إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ
كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ
الْبُخَارِيُّ جَعَلَ الثَّلَاثَ الْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ
وَتَخَتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أَرِيَسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةً
الْمَاءُ فَلَمْ يُدْرِكْ قَعْرُهَا بَعْدُ وَأَعْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ
نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتَمِ بِهِ وَجُوهٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْأَلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْأَصْبَعِ وَمِنْهُ
تَخْتَمُ إِذَا لَيْسَتْ وَيُطْلَقُ عَلَى النِّهَايَةِ وَاللَّتَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتَ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ
الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْأَمْرِ وَيُطْلَقُ عَلَى السَّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي
وَالدَّرَنَانِ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خِتَامُهُ مِسْكٌ وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالنِّهَايَةِ
وَاللَّتَامِ . قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَاهِمِهِمْ رِيحُ الْمِسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ
مِنَ الْخِتَامِ الَّذِي هُوَ السَّدَادُ لِأَنَّ الْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي الدِّنِّ سَدَادٌ الطِّينِ أَوْ الْقَارِ يَحْفَظُهَا
وَيُطَيَّبُ عَرَفَهَا وَذَوْقَهَا فَبُورِغٌ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بَأَنَّ سَدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ
عَرَفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطِّينِ الْمَعْبُودِينَ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كَلِمَاتِهَا
صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى آخِرِهَا النَّاشِئَةِ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نَقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ
ثُمَّ غُمِسَ فِي مِدَافٍ مِنَ الطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ الْقُرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ

فِي ذَلِكَ الصَّنْعِ وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ ابْنُ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتُ وَارْتَسَمَتْ فَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى
 إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ مِنَ الِئْمَنِ وَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ
 مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى لِأَنَّ الْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ
 أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَتْمُ هَذَا الْخَاتَمَ بَعْمِهِ فِي الْمِدَادِ أَوْ الطِّينِ وَوَضَعَهُ
 فِي الصَّفْحِ فَتَنْتَقِشَ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالْأَمَامِ بِمَعْنَى صَحَّةِ ذَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ وَتَفْوِذِهِ كَانَ الْكِتَابُ إِنَّمَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا
 مُغْنَى لَيْسَ بِتَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَتْمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ
 مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ
 شَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عِلَامَةً عَلَى صَحَّةِ الْكِتَابِ وَتَفْوِذِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي
 الْمُتَعَارِفِ عِلَامَةً وَيُسَمَّى خَتْمًا تَسْبِيحًا لَهُ بِأَثَرِ الْخَاتَمِ الْأَصْنَى فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا
 خَاتَمُ الْفَارُخِيِّ الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيْ عِلَامَتُهُ وَخَطُّهُ الَّذِي يُنْفِذُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ
 وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيْ عِلَامَتُهُ قَالَ الرَّشِيدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ
 يَسْتَوْرِرَ جَعْفَرًا وَيُسْتَبَدَّلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَيِّهِمَا يَحْيَى يَا أَبْتَ إِنِّي أَرَدْتُ
 أَنْ أَحُولَ الْخَاتَمَ مِنْ يَدَيْنِي إِلَى شِمَالِي فَكُنَى لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتْ الْعِلَامَةُ
 عَلَى الرِّسَالِ وَالْمُكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَتَهَدُّ لَصَحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا
 نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى الْحُسَيْنِ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيَضَاءَ
 خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ أَشْرَطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ
 فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَتْمِ هُنَا عِلَامَةٌ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ
 فِي جِسْمٍ لَيْنٍ فَتَنْتَقِشُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْحَزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حَزَمَ
 وَعَلَى الْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوُجْهِينِ أَثَارُ الْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ
 خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ الْخَتْمَ عَلَى الْكِتَابِ أَيْ الْعِلَامَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لَعْمَرَ بْنَ الزُّبَيْرِ
 عِنْدَ زِيَادٍ بِالْكَوْفَةِ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَتَحَ الْكِتَابَ وَصَيَّرَ الْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادَ حِسَابَهُ
 فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَحَسَبَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَاتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ
 عِنْدَ ذَلِكَ دِيوَانَ الْخَاتَمِ ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكِتَابَ وَلَمْ تَكُنْ

يُحْزَمُ أَيَّ جَعَلَ لَهَا السَّادَ وَدِيَوَانُ أَخْتَمَ عِبَارَةً عَنِ الْكِتَابِ الْقَائِمِينَ عَلَى إِنْقَازِ
 كُتُبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتَمَ عَلَيْهَا إِمَّا بِالْعَلَامَةِ أَوْ بِالْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيَوَانُ عَلَى مَكَانٍ
 جُلُوسٍ هُوَ لَا الْكِتَابَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيَوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزْمُ لِلْكِتَابِ يَكُونُ
 إِمَّا بِدَسِّ الْوَرَقِ كَمَا فِي عُرْفِ كِتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِإِصْصَاقِ رَأْسِ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا
 تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ كَمَا فِي عُرْفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ أَوْ
 الْإِصْصَاقِ عَلَامَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ فَتْحِهِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى
 مَكَانِ الدَّسِّ قِطْعَةً مِنَ الشَّمْعِ وَيَخْتَمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمٍ نَقِشَتْ فِيهِ عَلَامَةٌ لِذَلِكَ فَيَرْتَسِمُ
 النَّقْشُ فِي الشَّمْعِ وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ اللَّصْقِ بِخَاتَمٍ
 مَنقُوشٍ أَيْضًا قَدْ غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ الطِّينِ مَعْدٍ لِذَلِكَ صِبْغُهُ أَحْمَرٌ فَيَرْتَسِمُ ذَلِكَ
 النَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ هَذَا الطِّينُ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ أَخْتَمٍ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْ
 سِيرَافٍ فَيُظْهِرُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا الْخَاتَمُ الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوْ النَّقْشُ
 لِلْسَّادِ وَالْحَزْمُ لِلْكِتَابِ خَاصٌّ بِدِيَوَانِ الرِّسَالِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
 ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُرْفُ وَصَارَ لِمَنِ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيَوَانُ الْكِتَابِ فِي الدُّوَلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي
 دُولِ الْمَغْرِبِ يَعْدُونَ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمُ لِلْإِصْبَعِ فَيَسْتَجِيدُونَ صَوْنَهُ
 مِنَ الذَّهَبِ وَيُرْصَعُونَهُ بِالْفُصُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيَازِ وَزَجَّ وَالزُّمُرُودِ وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ
 شَارَةً فِي عُرْفِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْمِظْلَةُ فِي الدُّوَلَةِ
 الْعَبِيدِيَّةِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ بِحُكْمِهِ

(الطراز) * مِنْ أَهْبةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلِ أَنْ تُرْسَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ
 عَلَامَاتُ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طَرَازِ أَثَوَابِهِمْ الْمَعْدَّةِ لِلْبَاسِمِهِمْ مِنَ الْحَرِيرِ أَوْ الدَّبِجِ أَوْ
 الْأَبْرِ يَسِمُ تُعْتَبَرُ كِتَابَةً خَطًّا فِي نَسْجِ الثَّوبِ الْحَمَامِ وَإِسْدَاءً بِخَيْطِ الذَّهَبِ أَوْ مَا يَخْلَفُ
 لَوْنِ الثَّوبِ مِنَ الْخُيُوطِ الْمَلُونَةِ مِنْ غَيْرِ الذَّهَبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ فِي تَقْدِيرِ ذَلِكَ
 وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسْجِهِمْ فَتَصِيرُ الثِّيَابُ الْمَلُوكِيَّةُ مُعْلَمَةً بِذَلِكَ الطَّرَازِ قَصْدُ التَّنْوِيهِ
 بِالْإِسْمِ مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوْ التَّنْوِيهِ بِمَنْ يَخْتَصُّهُ السُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ
 تَشْرِيفَهُ بِذَلِكَ أَوْ وِلَايَتَهُ لَوْظِيَّةً مِنْ وُظَائِفِ دَوْلَتِهِ وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجَمِ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ
 يَجْعَلُونَ ذَلِكَ الطَّرَازَ بِصُورِ الْمُلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ أَوْ أَشْكَالٍ وَصُورٍ مُعَيَّنَةٍ لِذَلِكَ ثُمَّ

أَعْتَاضَ مُلُوكِ الْأِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بَكْتَبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي تَجْرِي
الْقَالِ أَوْ السَّيْلَاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أَجِبَةِ الْأُمُورِ وَأَنْفَحِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتْ
الدُّورُ الْمَعْدَةُ لِنَسْحِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ الطَّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى
النَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطَّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصَّبَاغِ وَالْأَلَةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ
أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ أَلَتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يَقْلُدُونَ ذَلِكَ لِحَوَاصِ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ
مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي
دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا صَاقَ
نَطَاقُ الدُّوَلِ عَنْ التَّرَفِ وَالْفَنَنِ فِيهِ لِيُضِيقَ نِطَاقُهَا فِي الْأَسْتِيْلَاءِ وَتَعَدَّدَتِ الدُّوَلُ تَعَطَّلتِ
هَذِهِ الْوُظُفَةُ وَالْوَلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ الدُّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ
بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلَ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لَمَّا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّدَاجَةِ الَّتِي لَقْنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدَ بْنَ نُومَرْتِ الْمَهْدِيِّ
وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوُظُفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَاسْتَدْرَكَ
مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ الدَّوْلَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ التَّبَاهَةِ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ فَأَدْرَكْنَا بِالْمَغْرِبِ
فِي الدَّوْلَةِ الْمُرْنِيَّةِ لِعَنْفَوَانِهَا وَشُمُوحِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لَقْنُوهَا مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ مُعَاصِرِهِمْ
بِالْأَنْدَلُسِ وَاتَّبَعَ هُوَ فِي ذَلِكَ مُلُوكُ الطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِسَمْعَةٍ شَاهِدَةٍ بِالْآثَرِ وَأَمَّا دَوْلَةُ
الْتُرْكِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ الطَّرَازِ تَحْرِيرٌ آخَرُ عَلَى مَقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمْرَانِ
بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا
يَنْسَجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوْلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صُنَاعِهِ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنْ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَيُسَمُّونَهُ
الْمَزْرَكَشَ لَفْظَةً أَعْجَمِيَّةً وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَبُعْدُهُ الصَّنَاعُ لَهُمْ فِيمَا
يُعْدُونَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طَرَفِ الصَّنَاعَةِ الْإِثْقَةِ بِهَا وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفساطيط والسياج

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مِنْ شَرَارَاتِ الْمُلْكِ وَتَرْفِهِ اتِّخَاذُ الْأَخْبِيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَارَاتِ مِنْ ثِيَابِ
الْكُتَّانِ وَالصُّوفِ وَالْقُطْنِ فَيَبَاهِي بِهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتَتَوَعُّ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرِ
وَصَغِيرِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ فِي التَّرَوُّةِ وَالْيَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي يَوْمِهِمْ
الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ الْمُلْكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

إِنَّمَا يَسْكُنُونَ بُيُوتَهُمُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ خِيَامًا مِنَ الْوَبَرِ وَالصُّوفِ وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ لِنِذَلِكَ
 الْعَهْدِ بَادِينَ إِلَّا الْأَقْلَ مِنْهُمْ فَكَانَتْ أَسْنَازُهُمْ لِعَزَوَاتِهِمْ وَحُرُوبُهُمْ بَطْعُونُهُمْ وَسَائِرُ
 حَالِهِمْ وَأَحْيَاءُهُمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوُلْدِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَكَانَتْ عَسَاكِرُهُمْ
 لِنِذَلِكَ كَثِيرَةٌ الْحُلُلُ بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْمَنَازِلِ مُتَفَرِّقَةٌ الْأَحْيَاءُ يَغِيبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ
 نَظَرِ صَاحِبِهِ مِنَ الْأُخْرَى كَشَأْنِ الْعَرَبِ وَلِنِذَلِكَ مَا كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَحْتَاجُ إِلَى سَاقَةِ
 تَحْشُدِ النَّاسِ عَلَى أَثَرِهِ أَنْ يُقِيمُوا إِذَا ظَعَنَ وَنَقَلَ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْحُجَّاجَ حِينَ
 أَشَارَ بِهِ رَوْحُ بْنُ زُرْبَاعٍ وَقَصَّتُهُمَا فِي إِحْرَاقِ فَسَاطِيطِ رَوْحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ
 حِينَ وَجَدَهُمْ مُقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ الْمَلِكِ قِصَّةً مَشْهُورَةً وَهِيَ هَذِهِ الْوَلَايَةُ تُعْرَفُ
 رُبَّةُ الْحُجَّاجِ بَيْنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى إِرَادَتُهُمْ عَلَى الظُّعْنِ إِلَّا مَنْ يَأْمَنُ بِوَادِرِ
 السُّفْهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ الْحَائِلَةِ دُونَ ذَلِكَ وَلِنِذَلِكَ اخْتَصَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ
 بِهَذِهِ الرُّبَّةِ ثِقَةً يَغْنَاهُ فِيهَا بِعَصِيَّتِهِ وَصِرَافَتِهِ فَلَمَّا تَفَنَّتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ
 الْحِصَارَةِ وَالْبَذَخِ وَتَزَلُّوا الْمَدْنَ وَالْأَمْصَارَ وَانْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى الْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى
 الْقُصُورِ وَمِنْ ظَهَرِ الْخُفِّ إِلَى ظَهَرِ الْحَافِرِ اتَّخَذُوا لِلْسُّكْنَى فِي أَسْنَازِهِمْ ثِيَابَ الْكُتَّانِ
 يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا يُيُونًا مُخْتَلَفَةً الْأَشْكَالَ مُقَدَّرَةً الْأَمْثَالَ مِنَ الْقُورَاءِ وَالْمُسْتَطِيلَةِ وَالْمُرَبَّعَةِ
 وَيَحْتَمِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ مَذَاهِبِ الْأَحْتِفَالِ وَالزِّيْنَةِ وَيُدِيرُ الْأَمِيرُ وَالْقَائِدُ لَلْعَسَاكِ عَلَى
 فَسَاطِيطِهِ وَفَازَاتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ سِيَاجًا مِنَ الْكُتَّانِ يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ الَّذِي
 هُوَ لِسَانُ أَهْلِ أَفْرَاكِ بِالْكَافِ وَالْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ الْقَطْرِ لَا يَكُونُ
 لِعَبِيدِهِ وَأَمَّا فِي الْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ السُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ الدَّعَاةُ
 بِالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ إِلَى الْمَقَامِ بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ نَخَفَ لِنِذَلِكَ ظَهَرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ السِّيَاجُ
 بَيْنَ مَنَازِلِ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَ الْجَيْشُ وَالسُّلْطَانُ فِي مُعَسْكَرٍ وَاحِدٍ يَحْصُرُهُ الْبَصَرُ فِي بَسِيطَةٍ
 زَهْوًا أَيْقَانًا لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي بَذَخِهَا وَتَرَفِّهَا
 وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَزَنَانَةُ الَّتِي أَظَلَّتْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ فِي بُيُوتِ سُكْنَاهُمْ
 قَبْلَ الْمَلِكِ مِنَ الْخِيَامِ وَالْقِيَاطِينَ حَتَّى إِذَا اخْتَدَتِ الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَسُكْنَى
 الْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى الْأَخْيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ بَلَّغُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنْ
 التَّرَفِ بِمَسْكَانٍ إِلَّا أَنَّ الْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ غُرُضَةً لِلْيَسَاتِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ

فِيهِ الصِّحَّةُ وَلِخَفَّتِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْأَسْمَانَةُ دُونَهُمْ فَيَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحْنُطٍ آخَرَ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ اخِلَافِيَّةٍ وَمِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ الْأِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرَفْ فِي غَيْرِ دَوْلِ الْأِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السُّلْطَانِ فَيَتَّخِذُ سِيَجَاً عَلَى الْخُرَابِ فَيَحْجُزُهُ وَمَا يَلِيهِ فَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ حِينَ طَعَنَهُ أَخْرَجِيٌّ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ طَعَنَهُ الْيَمَانِيُّ ثُمَّ اتَّخَذَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمْيِيزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ حُصُولِ التَّرَفِّ فِي الدَّوْلِ وَالِاسْتِخْلَالِ شَأْنِ أَجْوَالِ الْأَبْهَةِ كُلِّهَا وَمَا زَالَ الشَّانُ ذَلِكَ فِي الدَّوْلِ الْأِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا وَعِنْدَ اقْتِرَاقِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّ الدَّوْلِ بِالْمَشْرِقِ وَكَذَا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ اقْتِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَتَعَدُّ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدِيُّونَ ثُمَّ وَلَدَتِهِمْ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صَنَاجِدَ بَنُو بَادِيسٍ بِقَاسٍ وَبَنُو حَمَادٍ بِالْقَلْعَةِ ثُمَّ مَلِكُ الْمُوَحِّدُونَ سَائِرَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَنَحْوَ ذَلِكَ الرَّسْمُ عَلَى طَرِيقَةِ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ شِعَارُهُمْ وَلَمَّا اسْتَفْجَلَتِ الدَّوْلَةُ وَأَخَذَتْ بِحِطَّهَا مِنَ التَّرَفِّ وَجَاءَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَاتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةَ لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَهَكَذَا كَانَ الشَّانُ فِي سَائِرِ الدَّوْلِ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ . وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخِطْبَةِ فَكَانَ الشَّانُ أَوَّلًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَلَايَةِ الصَّلَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرَّحْمَى عَنْ أَصْحَابِهِ وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمَنَابِرَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوَّلُ مَنْ دَعَا لِلْخِلَافَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ أَبُو عَبَّاسٍ دَعَا لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي خِطْبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ عَامِلٌ لَهُ عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصَلَ الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ وَبَعْدَ أَخَذَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ الْمَنَابِرَ بَلَغَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمَّا بَعْدَ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مَنَابِرًا تَرْقِي بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقَبِكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَّثَتِ الْأَبْهَةُ وَحَدَّثَ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَانِعُ مِنَ الْخِطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنْابُوا

فِيهَا فَكَانَ الْخَطِيبُ يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمَنِيرِ تَوْبِيهَا بِاسْمِهِ وَدَعَاءُ لَهُ بِمَا جَعَلَ
 اللَّهُ مَصْحَةَ الْعَالَمِ فِيهِ وَلَآنَ تِلْكَ السَّاعَةِ مَظْنَةُ لِإِلْجَابِهِ وَلِمَا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ
 مَنْ كَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيَضَعَهَا فِي السُّلْطَانِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفَرِّدُ بِذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ
 الْحَجْرُ وَالْإِسْتِئْذَانُ صَارَ الْمُتَغَابِلُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يُشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ
 وَيُشَادُّ بِأَسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ وَذَهَبَ ذَلِكَ بِذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ
 السُّلْطَانِ بِالْإِدْعَاءِ لَهُ عَلَى الْمَنِيرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ وَحُظِرَ أَنْ يُشَارِكَ فِيهِ أَحَدٌ أَوْ يَسْتَوْ
 إِلَيْهِ وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرِّسْمَ عِنْدَ مَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي
 اسْلُوبِ الْغَضَاضَةِ وَمَنَاحِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّغَاوُلِ وَالْحُشُونَةِ وَيَقْنَعُونَ بِالْإِدْعَاءِ عَلَى الْإِلَهَامِ
 وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيُسَمُّونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَتْ عَلَى هَذَا
 الْمَنْحَى عَبَاسِيَّةً يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيَّ تَقْلِيدًا فِي
 ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا يَحْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَعْيِينِهِ وَالتَّصَرُّحِ بِاسْمِهِ يُخْصِي
 أَنَّ يَغْمُرَ اسْمَ بَنِي زِيَانَ عَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَّا يَحْيَى بْنُ
 أَبِي حَفْصٍ عَلَى تَلْمِزَانٍ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى شُرُوطٍ شَرَطَهَا كَانَ فِيهَا
 ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ فَقَالَ يَغْمُرَ اسْمُ تِلْكَ أَعْوَادِهِمْ يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاءُوا
 وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ عَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي مُرِينَ حَضَرَهُ رَسُولُ الْمُنتَصِرِ الْخَلِيفَةِ
 يَتُونِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَنْصٍ وَثَلَاثَ مَلُوكِهِمْ وَتَخَلَّفَ بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ لُجْمَعَةٍ فَقِيلَ
 لَهُ لَمْ يَحْضُرْ هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةً لِحُلُولِ الْخُطْبَةِ مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِهِ فَأَذِنَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ
 وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي بَدَايَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاضَةِ
 وَالْبِدَاوَةِ فَإِذَا انْتَبَهَتْ عَيْنُ سِيَاسَتِهِمْ وَنَظَرُوا فِي أَعْطَافِ مَلِكِهِمْ وَأَسْتَحْشَرُوا شَيْآتِ
 الْحِضَارَةِ وَمَقَاتِلِ الْبَدَخِ وَالْأَبْيَةِ اتَّحَلَّوْا جَمِيعَ هَذِهِ السَّيَّاتِ وَتَفَنَّنُوا فِيهَا وَتَجَارَوْا إِلَى
 غَايَتِهَا وَأَقْفُوا مِنَ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا وَجَزَعُوا مِنْ أَفْتِقَادِهَا وَخَلَّوْا دَوْلَتِهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَالْعَالَمُ
 بُسْتَانٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

إِعْلَمَنَّ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلْقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ وَأَصْلَهَا

إِرَادَةُ انْتِقَامِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلُ عَصِيَّتِهِ فَإِذَا تَدَامَرُوا لِذَلِكَ
 وَتَوَاقَفَتِ الطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطْلُبُ الْإِنْتِقَامَ وَالْآخَرَى تُدَافِعُ كَأَنَّ الْحَرْبَ وَهُوَ أَمْرٌ
 طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا حِيلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْإِنْتِقَامِ فِي الْأَكْثَرِ إِمَّا غِيْرَةٌ
 وَمُنَافَسَةٌ وَإِمَّا عُدْوَانٌ وَإِمَّا غَضَبُ اللَّهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبُ الْمَلِكِ وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ
 فَلِأَوَّلِ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِرَةِ وَالْعَشَائِرِ الْمُتَنَازِلَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ
 الْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأُمَمِ الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقَفْرِ كَالْعَرَبِ وَالتُّرْكِ
 وَالتُّزْكُمَانِ وَالْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ وَمَعَانِهِمْ فِيْمَا
 بِيَدَيْ غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ أَذْنَوْهُ بِالْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ فِيْمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ
 رُتْبَةٍ وَلَا مَلِكٍ وَإِنَّمَا هُمُومُهُمْ وَنُصْبُ أَعْيُنِهِمْ غَلَبَ الدَّاسِ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالثَّلَاثُ هُوَ
 الْمُسَمَّى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّوَلِ مَعَ الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَالِعِينَ
 لِبَطَاعَتِهَا فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّنَفَانِ الْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بُغْيٍ وَفِتْنَةٍ
 وَالصَّنَفَانِ الْآخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدَلٍ وَصِنَةُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ مِنْذُ
 أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى تَوْعِينَ تَوْعٍ بِالزَّخْفِ صُنُوفًا وَنَوْعٍ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ أَمَّا الَّذِي بِالزَّخْفِ
 فَهُوَ قِتَالُ النِّجْمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاظُبِ أَجْيَالِهِمْ وَأَمَّا الَّذِي بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ
 وَالْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ الزَّخْفِ أَثْقَى وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَذَلِكَ
 لِأَنَّ قِتَالَ الزَّخْفِ تَرْتَّبُ فِيهِ الصُّوْفُ وَتُسَوَّى كَمَا تُسَوَّى الْقِدَاحُ أَوْ صُنُوفُ الصَّلَاةِ
 وَيَمْسُونَ بِصُوفِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ قُدَمَا فَلِذَلِكَ تَكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي
 الْقِتَالِ وَأَرْهَبَ لِلْعَدُوِّ لِأَنَّهُ كَالْحَائِطِ الْمُحْتَدِّ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ لَا يُطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي
 التَّنْزِيلِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَرْضُوضٌ أَيْ يَشُدُّ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ وَفِي الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا
 وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَكَ حِكْمَةُ إِجْبَابِ الثَّبَاتِ وَتَحْرِيمِ النُّوْلِ فِي الزَّخْفِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ
 الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ حِفْظُ النِّظَامِ كَمَا قُلْنَا هُ فَمَنْ وَلَّى الْعَدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ أَخْلَى بِالْمَصَافِ
 وَبَاءَ بِأَثْمِ الْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا مَكْنُ مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ
 فَعَظَمُ الذَّنْبِ الْعُمُومُ الْمَفْسَدَةُ وَتَعَدِّيْهَا إِلَى الدِّينِ يَحْرِقُ سِيَاجِهِ فَعُدُّ مِنَ الْكِبَايِرِ وَيَظْهَرُ
 مِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ الزَّخْفِ أَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَأَمَّا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ

مِنَ الشَّدَّةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الرَّحْفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَخَذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي
 الْقِتَالِ مَصَافًا ثَابِتًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْكُرِّ وَالْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامُ قِتَالِ الرَّحْفِ كَمَا
 نَذَرُكَ بَعْدُ ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُنْسَبَةِ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ
 الْجُيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يُسَمُّونَهَا كِرَادِيسَ وَيُسَوُّونَ فِي كُلِّ كِرْدُوسٍ صُنُوفَهُ وَسَبَبُ
 ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النَّوَاحِي اسْتَدْعَى
 ذَلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي نَجَالِ الْحَرْبِ وَأَعْتَوَرُوا مَعَ عَدُوِّهِمُ الطَّعْنَ
 وَالضَّرْبَ يَخْشَى مِنْ تَدَاغِيهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ النُّكْرَاءِ وَجْهَلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذَلِكَ كَانُوا
 يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جُمُوعًا وَيَضُمُّونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرْتَبُونَهَا قَرِيبًا مِنَ التَّرْتِيبِ
 الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرَبِيسُ الْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هَذَا
 التَّرْتِيبَ التَّعْيِيَّةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي أَخْبَارِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالْدَّوْلَتَيْنِ وَصَدَرَ إِلَّا سَلَامَ فَيَجْعَلُونَ
 بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ عَسْكَرًا مُنْفَرِدًا بِصُفُوفِهِ مَتَمِّيزًا بِقَائِدِهِ وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ الْمَقْدَمَةَ
 ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ نَاحِيَةِ الْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْيَمِينَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا
 آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ وَرَاءِ الْعَسْكَرِ
 يُسَمُّونَهُ السَّاقَةَ وَيَقِفُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ
 الْقَلْبَ فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هَذَا التَّرْتِيبُ الْحُكْمُ إِمَّا فِي مَدَى وَاحِدٍ لِلْبَصَرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ
 أَكْثَرُهَا الْيَوْمُ وَالْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أَعْطَاهُ حَالُ الْعَسَاكِرِ فِي
 الْقَلَّةِ وَالْكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الرَّحْفُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ التَّعْيِيَّةِ وَنَظَرُ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ
 الْفَتْوحَاتِ وَأَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ بِالْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتْ الْعَسَاكِرُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ تَتَخَلَّفُ
 عَنْ رَحِيلِهِ لِبَعْدِ الْمَدَى فِي التَّعْيِيَّةِ فَاحْتِجَّ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعَيْنَ ذَلِكَ الْحُجَّاجُ
 ابْنُ يُوسُفَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
 بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ يَجْهَلُ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا أَدْرَكْنَا دَوْلًا قَلِيلَةَ الْعَسَاكِرِ
 لَا تَنْتَهِي فِي نَجَالِ الْحَرْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ الْجُيُوشِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مَعًا يَجْمَعُهُمْ
 لَدَيْنَا حَالَةً أَوْ مَدِينَةً وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِرْنَهُ وَيُنَادِيهِ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ بِاسْمِهِ وَلَقَبِهِ
 فَاسْتَغْنَى عَنْ تِلْكَ التَّعْيِيَّةِ

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فِي الْحُرُوبِ ضَرْبُ الْمَصَافِ رِوَاءِ عَسْكَرِهِمْ مِنْ

الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمَ فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخَيْالَةِ فِي كَرِّهِمْ وَفَرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ ثَبَاتَ
الْمُقَاتَلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْغَلَبِ وَقَدْ يَعْلَمُهُ أَهْلُ الزَّحْفِ أَيْضًا
لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا وَشِدَّةً فَقَدْ كَانَ الْفَرَسُ وَهُمْ أَهْلُ الزَّحْفِ يَتَّخِذُونَ الْفِيلَةَ فِي الْحُرُوبِ
وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أَجْرًا مِنَ الْخَشَبِ أَمْثَالُ الصُّرُوحِ مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ وَالرَّايَاتِ
وَيَصْفُونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَأَنَّهُمْ حُصُونٌ فَتَنْقُوزُ بِذَلِكَ نَفْسَهُمْ وَيَزِدَادُ وَثُوقُهُمْ
وَأَنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِسِيَّةِ وَإِنَّ فَارِسَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ أَشْتَدُّوا بِهِمْ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَشْتَدَّتْ رِجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ فَنَاطَلُوهُمْ وَبَعَجُوهُمْ بِالسُّيُوفِ عَلَى خَرَاطِيمِهَا
فَنَفَرَتْ وَتَكَصَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرِاطِطِهَا بِالْمَدَائِنِ فَجَفَا مَعْسُكُ فَارِسَ لِذَلِكَ وَأَنْهَزُوا
فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ * وَأَمَّا الرُّومُ وَمَلُوكُ الْقُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَكَثُرَ الْعَجْمُ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ
لِذَلِكَ الْأَسِرَّةَ يَنْصُبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ وَيَحْفُ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ وَحَاشِيَتِهِ
وَجُنُودِهِ مَنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالْإِسْتِمَاتَةِ دُونَهُ وَتُرْفَعُ الرَّايَاتُ فِي أَزْكَانِ السَّرِيرِ وَيُحْدِقُ بِهِ سِيَّاحُ
آخَرُ مِنَ الرُّمَاءِ وَالرَّجَالَةِ فَيَعْظُمُ هَيْكَلُ السَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِتْنَةً لِلْمُقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِّ
وَالْفَرِّ وَجَعَلَ ذَلِكَ الْفَرَسُ أَيَّامَ الْقَادِسِيَّةِ وَكَانَ رُسْتُمُ جَالِسًا عَلَى سَرِيرِ نَصَبَهُ لِحُلُوسِهِ
حَتَّى اخْتَلَفَتْ صُفُوفُ فَارِسَ وَخَالَطَهُ الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْفُرَاتِ وَقَتْلَ *
وَأَمَّا أَهْلُ الْكُرِّ وَالْفَرِّ مِنَ الْعَرَبِ وَكَثُرَ الْأُمَمُ الْبَدَوِيَّةُ الرَّحَالَةُ فَيَصْفُونَ لِذَلِكَ
إِبِلَهُمْ وَالظَّهْرَ الَّذِي يَحْمِلُ ظَعَانَهُمْ فَيَكُونُ فِتْنَةً لَهُمْ وَيُسَمِّنُهَا الْحَبُودَةُ وَلَيْسَ أُمَّةٌ
مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهَا وَتَرَاهَا أَوْثَقَ فِي الْجَوْلَةِ وَأَمَنَ مِنَ الْغَرَةِ وَالْهَزِيمَةِ
وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ وَقَدْ أَغْلَقَتْهُ الدُّوَلُ لِعَهْدِنَا بِالْجُمْلَةِ وَأَعْتَاضُوا عَنْهُ بِالظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْإِنْتِقَالِ
وَالْفَسَاطِيطِ يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَا تُغْنِي عَنْهُ الْفِيلَةُ وَالْإِبِلُ فَصَارَتْ الْعَسَاكِرُ
بِذَلِكَ عُرْضَةً لِلْهَزَائِمِ وَمُسْتَشْعِرَةً لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ * وَكَانَ الْحَرْبُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ
كُلَّهُ زَحْمًا وَكَانَ الْعَرَبُ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ الْكُرَّ وَالْفَرَّ لَكِنْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَ
الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ كَانُوا يَقَاتِلُونَ زَحْفًا فَيَضْطَرُّونَ إِلَى مُقَاتَلَتِهِمْ
بِمِثْلِ قِتَالِهِمْ الثَّانِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمِيعِينَ فِي جِهَادِهِمْ لِمَا رَغِبُوا فِيهِ مِنَ الصَّبْرِ وَلِمَا رَسَخَ
فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالزَّحْفِ إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ أَقْرَبُ * وَأَوَّلُ مَنْ أَبْطَلَ الصَّفَّ فِي الْحُرُوبِ
وَصَارَ إِلَى التَّعَبِئَةِ كِرَادِيسَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي قِتَالِ الضَّحَّاكِ الْخَارِجِيِّ وَالْجَبَرِيِّ بَعْدَهُ

قَالَ الطَّبْرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ الْجَبْرِ فِي قَوْلِي الْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الشُّكْرِيِّ وَيَلْقَبُ أَبَا الدَّلْفَاءِ قَاتَلَهُمْ مَرْوَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ الصَّفَّ مِنْ
 يَوْمَئِذٍ أَنْتَهَى فَنُتَوَسَّى قِتَالُ الزَّحَفِ بِأَبْطَالِ الصَّفِّ ثُمَّ تَوَسَّى الصَّفُّ وَرَاءَ الْمُقَاتِلَةِ بِمَا
 دَاخَلَ الدُّوْلَ مِنَ التَّرَفِ وَذَلِكَ أَنَّهَا حِينَئِذٍ كَانَتْ بَدْوِيَّةً وَسَكَنَتْهُمْ أَعْلِيَامٌ كَانُوا
 يَسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْإِبِلِ وَسَكَنَى النِّسَاءُ وَأُولَدَانِ مَعَهُمْ فِي الْأَحْيَاءِ فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى تَرْفِ
 الْمُلْكِ وَالْفَوَاسِكُنِ الْقُصُورِ وَالْحَوَاضِرِ وَتَرَكُوا شَأْنَ الْبَادِيَةِ وَالْقَفَرِ نَسُوا لِذَلِكَ عَهْدَ الْإِبِلِ
 وَالظُّلَعَانِ وَصَعَبَ عَلَيْهِمْ اتِّخَاذُهَا فَخَلَفُوا النِّسَاءَ فِي الْأَسْفَارِ وَحَمَلَهُمُ الْمُلْكُ وَالتَّرَفُ عَلَى اتِّخَاذِ
 الْفَسَاطِيطِ وَالْأَخْبِيَةِ فَأَقْتَصَرُوا عَلَى الظُّهْرِ الْحَامِلِ لِلْإِنْقَالِ^(١) وَالْأَنْبِيَةِ وَكَانَ ذَلِكَ صَنْتَهُمْ فِي
 الْحَرْبِ وَلَا يَغْنِي كُلَّ الْعِنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى الْأَسْتِجَانَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا الْأَهْلُ وَالْمَالُ فَيُخَفِّضُ
 الصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَتَضَرِّفُهُمُ الْهَوَاعِثُ وَتُخْرِجُهُمْ صُنُوفُهُمْ وَلِمَاذُ كَرَاهَاهُ مِنْ ضَرْبِ الْمَصَافِ
 وَرَاءَ الْعَسَاكِرِ وَتَأَكُّدُهُ فِي قِتَالِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ الْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ
 الْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ وَأَخْطَصُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلِّهِ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ وَالسُّلْطَانُ
 يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبُ الْمَصَافِ لِيَكُونَ رَدًّا لِلْمُقَاتِلَةِ أَمَامَةً فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذَلِكَ
 الصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي الزَّحَفِ وَالْإِجْفَالِ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ
 فَأَنْهَزَ السُّلْطَانُ وَالْعَسَاكِرُ بِإِجْفَالِهِمْ فَأَحْتَاجَ الْمُلُوكُ بِالْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ الْمُتَعَوِّدَةِ لِلثَّبَاتِ فِي الزَّحَفِ وَهُمْ الْإِفْرَنْجُ وَيُرْتَبِنُ مَصَافُهُمُ الْمُحَدِّقُ بِهِمْ مِنْهَا هَذَا عَلَى مَا
 فِيهِ مِنَ الْأَسْتِجَانَةِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ وَإِنَّهُمْ اسْتَخَفُّوا ذَلِكَ لِلْفَرُورَةِ الَّتِي أَرَيْنَا كَمَا مِنْ
 تَخَوُّفِ الْإِجْفَالِ عَلَى مَصَافِ السُّلْطَانِ وَالْإِفْرَنْجِ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الثَّبَاتِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ
 عَادَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ الزَّحَفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ فِي الْمَغْرِبِ
 إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَرْبِ مَعَ أُمِّ الْعَرَبِ وَالْبَرْبِ وَقِتَالَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي الْجِهَادِ
 فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مُمَالَاتِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ
 أَبَدْنَا سَبَبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَبَاغَنَا أَنْ أُمَّةً التَّرَكَّ لِهَذَا الْعَهْدِ قِتَالَهُمْ مُنَاضِلَةً
 بِالسَّهَامِ وَأَنَّ تَعْبِيَةَ الْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِالْمَصَافِ وَإِنَّهُمْ يُقْسِمُونَ بِثَلَاثَةِ صُنُوفٍ يَضْرِبُونَ
 صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خِيُولِهِمْ وَيَقْرَعُونَ سِهَامَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَتَنَاضِلُونَ

١ ! قَوْلُهُ لِلْإِفْقَالِ وَالْأَنْبِيَةِ مَرَادُهُ بِالْأَنْبِيَةِ أَعْلِيَامٌ كَمَا بَدَلْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي فَصْلِ الْحَدِيقِ الْآتِي قَرِيبًا إِذَا نَزَلُوا وَضُرِبُوا بِنَبْتِهِمْ هـ

جُلُوسًا وَكُلُّ رَدٍّ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْسِبَهُمُ الْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتَبَيَّأَ النَّصْرُ لِاحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ
 عَلَى الْأُخْرَى وَهِيَ تَعْبِيَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَوَّلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفَرُ
 الْخُنَادِقِ عَلَى مَعْسِكِرِهِمْ عِنْدَ مَا يَتَقَارَبُونَ لِلزَّحْفِ حَدَرًا مِنْ مَعْرِقِ الْبَيَاتِ وَالْهَجُومِ عَلَى
 الْعَسْكَرِ بِاللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مُضَاعَفَةِ الْخَوْفِ فَيَلْجَأُ الْجَيْشُ بِالْفَرَارِ
 وَيَجِدُ النَّفُوسَ فِي الظُّلْمَةِ سِتْرًا مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي ذَلِكَ أَرْجَفَ الْعَسْكَرُ وَوَقَعَتْ
 الْأَهْزِيمَةُ فَكَانُوا لِلذَّكَاءِ يَخْتَفِرُونَ الْخُنَادِقَ عَلَى مَعْسِكِرِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَهُمْ
 وَيَذِيرُونَ الْحَفَائِرَ نَاطِقًا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ حَرِصًا أَنْ يَخْلِطَهُمُ الْعَدُوُّ بِالْبَيَاتِ
 فَيَتَخَذَلُوا وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أَمْثَالِ هَذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ اقْتِدَارٌ بِاخْتِشَادِ الرَّجَالِ وَتَجَمُّعِ
 الْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنَزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وَفُورِ الْعُمَرَانِ وَضَخَامَةِ الْمَلَائِكِ
 فَلَمَّا خَرِبَ الْعُمَرَانُ وَتَبِعَهُ ضَعْفُ الدُّوَلِ وَقَلَّةُ الْجُنُودِ وَعَدَمُ النُّعْلَةِ نُسِيَ هَذَا الشَّأْنُ
 جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاللَّهِ خَيْرُ الْقَادِرِينَ وَأَنْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَحَرِّضُهُ
 لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صَنِيعِ تَجْدِيدِ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ قَالَ فِي
 كَلَامِهِ لَهُ فَسَوْا صُنُوفَكُمْ كَالْبَنِيَانِ الْمَرْصُوصِ وَقَدِّمُوا الدَّارِعَ وَآخِرُوا الْخَاسِرَ وَعَضُّوا
 عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَالتَّوَلَّوْا عَلَى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصَوْنٌ لِلْأَسِنَّةِ
 وَعَضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَاخْتَنُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشْلِ
 وَأَوَّلَى بِالْوَقَارِ وَأَقِيمُوا رَايَاتَكُمْ فَلَا تُدِيلُوهَا وَلَا تُجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَاسْتَعِينُوا
 بِالْصِّدْقِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّهُ يَقْدِرُ الصَّبْرُ يَنْزِلُ النَّصْرُ وَقَالَ الْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يُعْرَضُ الْأَزْدَ عَضُّوا
 عَلَى الدُّوَاغِدِ مِنَ الْأَضْرَاسِ وَاسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ وَشَدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورِينَ يَتَارُونَ
 بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لئَلَّا يُسَبِّقُوا بُونَرٍ
 وَلَا يُلْحَقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ شَاعِرٌ لِمَتُونَةٍ
 وَاهِلِ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا تَاشَفِينَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُونُسَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ
 شَهِدَهَا وَيَذْكُرُهُ بِأُمُورِ الْحَرْبِ فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تَنْبِيْهِكَ عَلَى مَعْرِفَةٍ كَثِيرٍ مِنْ
 سِيَاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَّقَعُ مِنْ مَنِكُمْ الْمَلِكُ الْهَامُ الْأَرْوَعُ
 وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوُّ بِهِ دُجَى فَأَنْفَضَ كُلُّهُ وَهُوَ لَا يَتَزَعَّزَعُ

تَمْضِي الْفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ
أَنْتَ فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةَ
إِنْسَانٌ عَيْنٌ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمْ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشَفِينٍ وَإِنَّهُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةٍ
يَا تَاشَفِينُ أَفَمَ لِحْيَتِكَ عُذْرُهُ

ومنها في سياسة الحرب

أَهْدِيكَ مِنْ آدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ
لَا إِنِّي أَدْرِي بِهَا لَكُنْهَا
وَالْبَسْ مِنَ الْخَلْقِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي
وَالْهِنْدُوَانِي الرَّقِيقِ فَإِنَّهُ
وَأَرْكَبَ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةً
خَنْدِيقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً
وَالْوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَأَنْزِلْ عِنْدَهُ
وَأَجْعَلْ مُنَاجَزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً
وَإِذَا تَضَاقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرِكَ
وَأَصْدَمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرْ
وَأَجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ
لَا تَسْمَعْ الْكَذَّابَ جَاءَكَ رُجُئًا

قَوْلُهُ وَأَصْدَمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرْ الْبَيْتُ مُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ
فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدٍ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقَ فَقَالَ لَمَّا سَمِعَ
وَأَطَاعَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرَكَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَا يُجِيبُنَ مُسْرِعًا
حَتَّى تَنْبَيَنَّ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ
وَالْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي الْآخِرِ إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَاطِطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ

وَفِي التَّسَرُّعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنْ بَيَانِ ضِيَاعٍ وَاللَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمَرْتُهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا
 يُصَحِّحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ هَذَا كَلَامُ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بَيَانُ التَّنَاقُلِ فِي الْحَرْبِ أَوَّلَى
 مِنَ الْخُفُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصَّبْرِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ
 أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْيَأْنِ فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ * وَلَا وَثُوقَ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ
 حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْغَلْبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ وَالْإِتِّفَاقِ
 وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ الْجَيُوشُ
 وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ وَمِنْهُ صِدْقُ
 الْقِتَالِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَامٌ مِنْ خِدَاعِ الْبَشَرِ وَحِيلِهِمْ فِي
 الْأَرْجَافِ وَالشَّانِيعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَّا كِنْ الْمُرْتَقِعَةِ لِيَكُونَ
 الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ الْمُنْخَفِضُ لِلذَّكَ وَفِي الْكُفُومِ فِي الْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنِّ الْأَرْضِ
 وَالتَّوَارِي بِالْكَدَى حَوْلَ الْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلَهُمُ الْعَسْكَرُ دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَمَّحُونَ
 إِلَى النِّجَافِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِمَامٌ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ أُمُورًا سَمَوِيَّةً لَا فُتْرَةَ
 لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا تَلْقَى فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوِلِي الرَّهْبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَخْتَلُ مَرَكَزُهُمْ
 فَتَقْعُ الْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا نَفَعَ الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ كَثْرَةُ مَا يَعْتَمَلُ لِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلْبِ فَلَا بُدَّ مِنْ وَفُوعِ التَّأْثِيرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا
 ضَرُورَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ رَبُّ حِيلَةٍ
 أَنْفَعُ مِنْ قَبِيلَةٍ فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ وَفُوعَ الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنْ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ
 وَوُفُوعَ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ هُوَ مَعْنَى الْبَحْثِ كَمَا أَتَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْ
 مِنْ وَفُوعِ الْغَلْبِ عَنِ الْأُمُورِ السَّمَوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَرْتُ
 بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَمَا وَقَعَ مِنْ غَلْبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَلْبِ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ فِي الْفَتْوحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلُ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ
 الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى يَسْتَوِلِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزُوا مُعْجَزَةً لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفَتْوحَاتِ إِلَّا سَلَامِيَّةً كُلَّهَا إِلَّا
 أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعَيْنِ * وَقَدْ ذَكَرَ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحَرْبِ أَنَّ
 تَفْضِيلَ عِدَّةِ الْفَرَسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ

الْآخِرِ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ مِنَ الشَّجْعَانِ الْمَشَاهِيرِ وَفِي
 الْجَانِبِ الْآخِرِ ثَمَانِيَةٌ أَوْ سِتَّةٌ عَشَرَ فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ يَوْحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ وَأَعَادَ
 فِي ذَلِكَ وَابْدَى وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ
 الْمَعْتَبَرُ فِي الْغَلْبِ حَالُ الْعَصِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصِيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ
 وَفِي الْجَانِبِ الْآخِرِ عَصَائِبُ مُتَعَدِّدَةٌ لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنْ
 التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصِيَّةِ تَنْزِلُ كُلُّ عَصَايَةٍ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً
 الْوَاحِدَ وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَابَتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ لَا يَقَاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصَابَتُهُ وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ
 ذَلِكَ فَفَقِهْنَاهُ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ أَصَحُّ فِي الْأَعْتَابِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّرِيقُ وَهُوَ وَلَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى ذَلِكَ
 الْإِنْسِيَانُ شَأْنَ الْعَصِيَّةِ فِي حِلَّةٍ وَبَلَدَةٍ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الدِّفَاعَ وَالْحِمَايَةَ وَالْمُطَالَبَةَ
 إِلَى الْوَحْدَانِ وَالْجَمَاعَةِ النَّاشِئَةِ عَنْهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ فِي ذَلِكَ عَصِيَّةً وَلَا نَسَبًا وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ
 أَوَّلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّ هَذَا وَمِثَالَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صَحِيحِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ
 مِثْلُ اتِّفَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَصَدْقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ الْأَسْلِحَةِ وَمَا أَشَبَّهَا فَكَيْفَ يُجْعَلُ
 ذَلِكَ كَيْفًا بِالْغَلْبِ وَنَحْنُ قَدْ قَرَّرْنَا لَكَ الْآنَ أَنَّ شَيْئًا مِنْهَا لَا يُعَارِضُ الْأَسْبَابَ الْخَفِيَّةَ
 مِنَ الْحَيْلِ وَالْخِدَاعِ وَلَا الْأُمُورَ السَّمَاوِيَّةَ مِنَ الرُّعْبِ وَالْخِذْلَانِ الْإِلَهِيِّ فَافْهَمْهُ وَتَفَهَّمْ
 أَحْوَالَ الْكَوْنِ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ * وَيَلْحَقُ بِمَعْنَى الْغَلْبِ فِي الْخُرُوبِ وَأَنَّ سَبَابَهُ
 خَفِيَّةٌ وَغَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ حَالُ الشُّهْرَةِ وَالصِّبْتُ فَقُلْ أَنَّ تُصَادِفُ مَوْضِعَهَا فِي أَحَدٍ مِنْ طَبَقَاتِ
 النَّاسِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمُنْتَخَلِينَ لِلْفَضَائِلِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ
 اشتهر بالشَّرِّ وَهُوَ بِخِلَافِهِ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تَجَاوَزَتْ عَنْهُ الشُّهْرَةُ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ
 تُصَادِفُ مَوْضِعَهَا وَتَكُونُ طَبَقًا عَلَى صَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الشُّهْرَةَ وَالصِّبْتَ إِنَّمَا
 هُمَا بِالْإِخْبَارِ وَالْإِخْبَارُ يَدْخُلُهَا الدُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ التَّنَاقُلِ وَيَدْخُلُهَا التَّعَصُّبُ
 وَالتَّشْبِيحُ وَيَدْخُلُهَا الْأَوْهَامُ وَيَدْخُلُهَا الْجَهْلُ بِمُطَابَقَةِ الْحِكَايَاتِ لِلْأَحْوَالِ خِلَافَهَا
 بِالْتَّمِيسِ وَالتَّصْنَعِ أَوْ لِيَجْلِيَ النَّاقِلُ وَيَدْخُلُهَا النُّقْرُبُ لِأَصْحَابِ النُّجَلَةِ وَالْمَرَاتِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ
 بِالْإِنْتَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ وَالنَّفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ النِّبَاءِ
 وَالنَّاسُ مُتَطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ نَزْوَةٍ وَلَيْسُوا مِنَ الْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي
 الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا وَإِنْ مُطَابَقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا فَتَحْتَ الشُّهْرَةَ عَنْ

أَسْبَابُ خَفِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَفِيٍّ قَبْلَهُ الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ
بِالْبَحْثِ كَمَا تَقَرَّرَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

اعْلَمْ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلُ الدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعُ كَثِيرَةً الْجُمْلَةُ وَآخِرُ الدَّوْلَةِ تَكُونُ
كَثِيرَةً الْوَزَائِعُ قَلِيلَةً الْجُمْلَةُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الدِّينِ فَلَيْسَتْ
تَقْتَضِي إِلَّا الْمَغَارِمَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْجَزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ الْوَزَائِعِ لِأَنَّ مَقْدَارَ
الزَّكَاةِ مِنَ أَمْوَالٍ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ الْحُبُوبِ وَالْمَالِشِيَةِ وَكَذَا الْجَزْيَةُ وَالْخَرَاجُ
وَجَمِيعُ الْمَغَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ التَّغْلِبِ وَالْعَصَبِيَّةِ
فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقْدَمُ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمُسَامَحَةَ وَالْمُسْكَارِمَةَ وَخَنْضَ
الْجَنَاحِ وَالتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْغَفْلَةَ عَنْ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذَلِكَ
مِقْدَارُ الْوُظَيْفَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْوُزَيْعَةُ الَّتِي يَجْمَعُ الْأَمْوَالُ مِنْ تَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ الْوَزَائِعُ
وَالْوُظَايِفُ عَلَى الرَّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغِبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ الْأَعْتِمَارُ وَتَزِيدُ الْحُصُولُ
الْأَعْتِمَارُ بِقَلَّةِ الْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ الْأَعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوُظَايِفِ وَالْوَزَائِعِ
فَكَثُرَتْ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدَّوْلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ وَاتَّصَفُوا بِالْكَفَسِ وَذَهَبَ سِرُّ الْبِدَاوَةِ وَالسَّدَاجَةِ وَخُلِقَ مِنْ الْأَغْضَاءِ وَالتَّجَافِي
وَجَاءَ الْمَلِكُ الْعَضُوضُ وَالْحِضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكَفَسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ
بِخُلُقِ التَّحَدُّقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا انْعَمَسُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالتَّرَفِ
فَيَكْثُرُونَ الْوُظَايِفَ وَالْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى الرَّعَايَا وَالْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ
الْمَغَارِمِ وَتَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيْفَةٍ وَوُزَيْعَةٍ مِقْدَارًا عَظِيمًا لِنُكْثَرِ لَهُمُ الْجَبَايَةُ وَيَضَعُونَ
الْمَكُوسَ عَلَى الْمُبَايَعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَرْنَا بَعْدُ ثُمَّ تَنْدَرُجُ الزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارِ
بَعْدَ مِقْدَارٍ تَنْدَرُجُ عَوَائِدُ الدَّوْلَةِ فِي التَّرَفِ وَكَثْرَةِ الْحُلَاجَاتِ وَالْإِنْتِاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تُثْقَلَ
الْمَغَارِمُ عَلَى الرَّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرُ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ تَنْدَرُجَتْ قَلِيلًا
قَلِيلًا وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ مِنْ زَادِهَا عَلَى التَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَتَ عَلَى الرَّعَايَا فِي
الْأَعْتِمَارِ لِدَهَابِ الْأَمَلِ مِنْ نَفْسِهِمْ بِقَلَّةِ النِّفَعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيْنَ

تَمَرَّتْهُ وَقَائِدَتُهُ فَتَنْقِصُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنِ الْأَعْتِمَارِ جُمْلَةً فَتَنْقُصُ جُمْلَةُ الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ يَنْقُصَانِ تِلْكَ الْوَزَائِعُ مِنْهَا وَرُبَّمَا يَزِيدُونَ فِي مَقْدَارِ الْوُظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النَّقْصَ فِي الْجَبَايَةِ وَيَحْسِبُونَهُ جَبْرًا لِمَا تَقْصَحُ حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ إِلَى غَايَةِ لَيْسَ وَرَاءَهَا نَفْعٌ وَلَا فَائِدَةٌ لِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْأَعْتِمَارِ وَكَثْرَةِ الْمَعَارِمِ وَعَدَمِ وِفَاءِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ بِهِ فَلَا تَزَالُ الْجُمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمَقْدَارُ الْوَزَائِعِ وَالْوُظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لِمَا يَحْتَقِرُونَهُ مِنْ جَبَرِ الْجُمْلَةِ بِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعُمَرَانُ بِذَهَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَبَعْدُ وَبِالْذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ لِأَنَّ فَائِدَةَ الْأَعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي الْأَعْتِمَارِ تَقْلِيلُ مَقْدَارِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمَرِينَ مَا أَمْكَنَ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَيْهِ لِثِقَتِهَا بِإِدْرَاكِ الْمَنْعَةِ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَيَدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس واخر الدولة

اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا بَدْوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَكُونُ لِذَلِكَ قَلِيلَةً الْحَاجَاتِ لِعَدَمِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خَرْجُهَا وَإِنْفَاقُهَا قَلِيلًا فَيَكُونُ فِي الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ وِفَاءً بِأَزِيدٍ مِنْهَا كَثِيرٌ عَنْ حَاجَاتِهِمْ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَأْخُذَ بِدِينِ الْخِصَارَةِ فِي التَّرَفِ وَعَوَائِدِهَا وَتَجْرِيَ عَلَى نَهْجِ الدَّوْلِ السَّابِقَةِ قَلِيلًا فَيَكْثُرُ لِذَلِكَ خَرَجُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَيَكْثُرُ خَرَجُ السُّلْطَانِ خُصُوصًا كَثْرَةً بِالْعَةِ بِنَفَقَتِهِ فِي خَاصَّتِهِ وَكَثْرَةً عَطَائِهِ وَلَا تَبْقَى بِذَلِكَ الْجَبَايَةُ فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجَبَايَةِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَاكِمِيَّةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالسُّلْطَانُ مِنَ النَّفَقَةِ فَيَزِيدُ فِي مَقْدَارِ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ أَوَّلًا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ يَزِيدُ الْخَرَجُ وَالْحَاجَاتُ وَالتَّدْرِيجُ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِ وَفِي الْعَطَاءِ لِلْحَاكِمِيَّةِ وَيَذُرُّ الدَّوْلَةُ الْهَرَمَ وَتَضَعُ عِصَابَتَهَا عَنْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَاصِيَةِ فَتَقْلُ الْجَبَايَةُ وَتَكْثُرُ الْعَوَائِدُ وَيَكْثُرُ بِكَثَرَتِهَا أَرْزَاقُ الْجُنْدِ وَعَطَاؤُهُمْ فَيَسْتَحْدِثُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْوَاعًا مِنَ الْجَبَايَةِ يَضُرُّ بِهَا عَلَى الْبِلَاعَاتِ وَيَفْرِضُ لَهَا قَدْرًا مَعْلُومًا عَلَى الْأَثْمَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَعَلَى أَعْيَانِ السَّلْعِ فِي أَمْوَالِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَعَ هَذَا مُضْطَرٌّ لِذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ طُرُقُ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ مِنْ زِيَادَةِ الْجِيُوشِ وَالْحَاكِمِيَّةِ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ زِيَادَةً بِالْغَةِ فَتَكْثُرُ

الأسواقُ لفسادِ الآمالِ وَيُؤْذِنُ ذَلِكَ بِاخْتِلَالِ الْعُمَرَانِ وَيَعُودُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ الْمَشْرِقِ فِي أُخْرِيَّاتِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتْ الْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى الْحَاجِّ فِي الْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صَالِحُ الدِّينِ أَبُو تِلْكَ الرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِأَنْثَارِ الْخَبْرِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ الْعَهْدُ الطَّوَائِفَ حَتَّى مَحَى رَسْمُهُ يُوسُفُ بْنُ تَاشِينَ أَمِيرُ الْمُرَابِطِينَ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ الْجَزِيرَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ حِينَ اسْتَبَدَّ بِهَا رُوَسَاؤُهَا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضره بالرعايا ومفسده للجباية

اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جَبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمَ مِنْ التَّرَفِ وَكَثُرَتْ الْعَوَائِدُ وَالنَّفَقَاتُ وَخَفَصَ الْخَاصِلُ مِنْ جَبَايَتِهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَاحتاجت إلى مزيد المال وَجَبَايَةِ فَتَارَةً تُوضَعُ الْمَكُوسُ عَلَى بِيَعَاتِ الرِّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْقَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ فِي الْقَابِ الْمَكُوسِ إِنْ كَانَ قَدْ اسْتُحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ الْعُمَالِ وَالْجَبَاةِ وَامْتِكَائِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ لَا يَظْهَرُ الْحِسْبَانُ وَتَارَةً بِاسْتِخْدَاتِ التِّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ التُّجَّارَ وَالْفَلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْوَفَائِدِ وَالْغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ الْأَرْزَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي اكْتِسَابِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ لِاسْتِعْلَالِهِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَالتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَارِ الْجَبَايَةِ وَتَكْثِيرِ الْوَفَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِذَا خَالَ الضَّرَرُ عَلَى الرِّعَايَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوْلَى مُضَايِقَةُ الْفَلَاحِينَ وَالتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ الْحَيَوَانِ وَالْبَضَائِعِ وَتَبْسِيرِ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَإِنَّ الرِّعَايَا مُمَكِّنُونَ فِي الْيَسَارِ مُتْقَارِبُونَ وَمُزَاحِمَةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقَرُّبٍ وَإِذَا رَافَقَهُمُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى النَّفُوسِ مِنْ ذَلِكَ غَمٌّ وَتَكْدُّ ثُمَّ إِنْ السُّلْطَانُ قَدْ يَنْتَزِعُ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًا أَوْ بَاسِرًا ثَمَنَ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يَنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَنْخَسُ ثَمَنُهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ الْفَلَاحَةِ وَمُعْلَاهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سَكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

الْغَلَاتِ وَحَصَلَتْ بَضَائِعُ التِّجَارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ وَلَا
 نِفَاقَ الْبِيعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فَيُكَلِّفُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ
 تَاجِرٍ أَوْ فَلَاحٍ شِرَاءَ تِلْكَ الْبَضَائِعِ وَلَا يَرْضَوْنَ فِي أَنْمَانِهَا إِلَّا الْقِيمَ وَأَزِيدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ
 فِي ذَلِكَ نَاضًا أَمْوَالَهُمْ وَتَبَقَى تِلْكَ الْبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عَرُوضًا جَامِدَةً وَيَكْثُرُونَ عَطْلًا
 مِنَ الْإِدَارَةِ الَّتِي فِيهَا كَسِبَهُمْ وَمَعَاشُهُمْ وَرُبَّمَا تَدْعُوهُمْ الْفَرُورَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ
 فَيَبِيعُونَ تِلْكَ السِّلْعَ عَلَى كَسَادٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ بِأَبْخَسِ ثَمَنٍ وَرُبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ عَلَى
 التَّاجِرِ وَالْفَلَاحِ مِنْهُمْ بِمَا يَذْهَبُ رَأْسَ مَالِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ سُوقِهِ وَيَتَعَدَّدُ ذَلِكَ وَيَتَكَرَّرُ
 وَيَدْخُلُ بِهِ عَلَى الرِّعَايَا مِنَ الْغَنَةِ وَالْمُضَاقَةِ وَفَسَادِ الْأَرْبَاحِ مَا يَقْبِضُ أَمْوَالَهُمْ عَنْ
 السَّعْيِ فِي ذَلِكَ جُمْلَةً وَيُؤَدِّي إِلَى فُسَادِ الْجَبَايَةِ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْجَبَايَةِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْفَلَاحِينَ
 وَالتَّجَارِ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ وَضْعِ الْمَكُوسِ وَنُمُو الْجَبَايَةِ بِهَا فَإِذَا انْقَبَضَ الْفَلَاحُونَ عَنْ
 الْفِلَاحَةِ وَقَعَدَ التَّجَارُ عَنْ التِّجَارَةِ ذَهَبَتِ الْجَبَايَةُ جُمْلَةً أَوْ دَخَلَهَا النِّقْصُ الْمُتَفَاحِشُ وَإِذَا
 قَايَسَ السُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْجَبَايَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَاحِ الْقَلِيلَةِ وَجَدَهَا بِالنِّسْبَةِ
 إِلَى الْجَبَايَةِ أَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ ثُمَّ إِنَّهُ وَلَوْ كَانَ مُفِيدًا فَيَذْهَبُ لَهُ بِحِطِّ عَظِيمٍ مِنَ الْجَبَايَةِ فِيمَا
 يُعَانِيهِ مِنْ شِرَاءٍ أَوْ بَيْعٍ فَإِنَّهُ مِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يُوجَدَ فِيهِ مِنَ الْمَكُوسِ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ فِي
 تِلْكَ الصَّنَفَاتِ لَكَانَ تَكْسِبُهَا كَلْبًا حَاصِلًا مِنْ جِهَةِ الْجَبَايَةِ ثُمَّ فِيهِ التَّعَرُّضُ لِأَهْلِ
 عُمْرَانِهِ وَاخْتِلَالُ الدَّوْلَةِ بِفَسَادِهِمْ وَنَقْصِهِمْ فَإِنَّ الرِّعَايَا إِذَا قَعَدُوا عَنْ تَشْمِيرِ أَمْوَالِهِمْ
 بِالْفِلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ نَقَصَتْ وَتَلَاشَتْ بِالنِّفَقَاتِ وَكَانَ فِيهَا تَلَاُفٌ أَحْوَالِهِمْ فَأَفْهَمَ ذَلِكَ
 وَكَانَ الْفَرَسُ لَا يُمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أَهْلِ
 الْفَضْلِ وَالِدِينَ وَالْأَدَبِ وَالسَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ ثُمَّ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ
 الْعَدْلَ وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ صَنْعَةً فَيُضِرَّ مَجِيرَانِهِ وَلَا يَتَّجِرَ فَيُحِبَّ غَلَاءَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَضَائِعِ
 وَأَنْ لَا يَسْتَخْدِمَ الْعَبِيدَ فَإِنَّهُمْ لَا يُشِيرُونَ بِخَيْرٍ وَلَا مَصْلَحَةٍ وَأَعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا
 يُنْبِي مَالَهُ وَلَا يَدِرُ مَوْجُودَهُ إِلَّا الْجَبَايَةُ وَإِدَارَتُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَدْلِ فِي أَهْلِ الْأَمْوَالِ
 وَالنَّظَرِ لَهُمْ بِذَلِكَ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ أَمْوَالُهُمْ وَتَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلْإِخْذِ فِي تَشْمِيرِ الْأَمْوَالِ
 وَتَنْمِيَّتِهَا فَتُعْظَمُ مِنْهَا جَبَايَةُ السُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ فَلَاحٍ فَإِنَّمَا هُوَ مُضَرَّةٌ
 عَاجِلَةٌ لِلرِّعَايَا وَفُسَادٌ لِلْجَبَايَةِ وَنَقْصٌ لِلْعِمَارَةِ وَقَدْ بَتَّهِيَ الْحَالُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنْسَلِخِينَ لِلتِّجَارَةِ

وَالْفَلَاحَةَ مِنَ الْأَمْزَاءِ وَالْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْغَلَّاتِ وَالسَّاعِ
 مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَادِهِمْ وَيَفْرَضُونَ لِنَفْسِهِمْ مَا يَشَاءُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي
 وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّعَايَا بِمَا يَفْرَضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى
 وَأَقْرَبُ إِلَى فُسَادِ الرِّعْيَةِ وَاخْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَزُبْمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ
 يَدْخُلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَعْنَى التُّجَّارِ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ
 السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسْمِهِمْ لِنَفْسِهِ لِيَحْصَلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعًا
 وَلَا سِيمَا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التُّجَارَةِ بِلاَ مَعْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّهَا أَجْدَرُ بِنُمُوِّ الْأَمْوَالِ
 وَأَسْرَعُ فِي تَنْمِيهِهِ وَلَا يَقْهَرُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرَرِ بِنَقْصِ حِبَابَتِهِ فَيَنْبَغِي
 لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْتَذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سَعَايَتِهِمْ الْمُضَرَّةِ بِحِبَابَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ
 يُلْهِمُنَا رُشْدًا أَنْفُسَنَا وَيَنْفَعَنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصَبِيَّةِ
 بِحَقِّدَارِ غَنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ
 فَرِئْسُهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يُسْمَوْنَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْتِبْدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ
 وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ فِي سُهْمَانِهِ مِنَ الْجَبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ
 لِنَفْسِهِ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهِهِمْ مُتَقَلِّصٌ
 لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مُخْدُوعِهِمْ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا اسْتَفْخَلَتْ
 طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْأَسْتِبْدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبْضُ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْجَبَايَاتِ
 إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَتَقِلُّ حُظُوظُهُمْ إِذْ ذَاكَ لِقَلَّةِ غَنَائِهِمْ فِي
 الدَّوْلَةِ بِمَا أَنْكَبَحَ مِنْ أَعْنِيَتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِالدَّوْلَةِ
 وَتَمْهِيدِ الْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجَبَايَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالِ
 وَيَحْتَجِجُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مُهِمَّاتِ الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِكُ خَزَائِنُهُ وَيَتَسَّعُ نِطَاقُ
 جَاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعِظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ
 وَمَوْلَى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ الْأَمْوَالِ وَيَتَأَثَّلُونَهَا ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي

أَهْرَمَ بِتِلَاشِي الْعَصِيَّةِ وَفَنَاءِ الْقَلِيلِ الْمُعَاهِدِينَ لِلدَّوْلَةِ أَحْتَاجُ صَاحِبُ الْأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ لِكَثْرَةِ أَخْوَارِجِ وَالْمَنَازِعِينَ وَالْثَوَارِ وَتَوَهُّمِ الْإِتِّقَاضِ فَصَارَ خَرَابُهُ لَظْهَرًا لَهُ وَأَعْوَانُهُ وَهُمْ أَرْبَابُ السُّيُوفِ وَأَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ وَأَنْفَقَ خَزَائِنُهُ وَحَاصِلُهُ فِي مَهْمَاتِ الدَّوْلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ الْجَبَايَةُ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ فَيَقِلُّ الْخُرَاجُ وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ فَيَتَقَلَّصُ ظِلُّ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ عَنِ الْخَوَاصِّ وَالنَّجَابِ وَالْكِتَابِ يَتَقَلَّصُ الْجَاهُ عَنْهُمْ وَضَيِّقُ نَظَافِهِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ تَشْتَدُّ حَاجَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ وَتَنْفَقُ أُنْبَاءُ الْبُطَانَةِ وَالْحَاشِيَةِ مَا تَأْتِلُهُ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا مِنْ إِعَانَةِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَيُقْبَلُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَسَلَفُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَحَةِ وَيَرَى صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي أُكْسِبَتْ فِي دَوْلَةِ سَلَفِهِ وَبِجَاهِهِمْ فَصَطَلِمَهَا وَيَنْزِعُهَا مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَوَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى نِسْبَةِ رُتَبِهِمْ وَتَتَكَرَّرُ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِفَنَاءِ حَاشِيَتِهَا وَرَجَالِهَا وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ مِنْ بَطَانَتِهَا وَيَتَقَوَّضُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مَبَانِي الْعَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَدْعُمَهُ أَهْلُهُ وَيَرْفَعُوهُ . وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لَوُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي بَنِي قُحْطَبَةَ وَبَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْحِلَالِهَا أَيَّامَ الطَّوَائِفِ فِي بَنِي شَهِيدٍ وَبَنِي أَبِي عَبْدَةَ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بَرْذُ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِعَهْدِنَا سَنَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ

فصل * وَلِمَا يَتَوَقَّعُهُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَنْزِعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرُّتَبِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ مَالِ الدَّوْلَةِ إِلَى قُطْرِ آخَرَ وَيُرُونَ أَنَّهُ أَهْنٌ لَهُمْ وَأَسْلَمٌ فِي إِتْقَانِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ مِنَ الْأَعْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَوْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَدُنْيَايِهِمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ اخْتِلَاصَ مَنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْغُرْضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ نَفْسُهُ فَلَا تُمْكِنُهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرَفَةً عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ الْمُرَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَذْمٌ لِمُلْكِهِ وَإِنْ تَلَفَ لِنَفْسِهِ بِجَارِي الْعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ الْمَلِكِ يَعْسُرُ اخْتِلَاصَ مِنْهَا وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ وَضَيِّقِ نَظَافَتِهَا وَمَا يَعْزِضُ فِيهَا مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْعَمَلِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالسَّرِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغُرْضِ مِنْ بَطَانَةِ السُّلْطَانِ

وَحَاشِيَتُهُ وَأَهْلُ الرَّبِّ فِي دَوْلَتِهِ فَقَالَ أَنْ يُخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ أَمَّا أَوَّلًا فَلَمَّا يَرَاهُ
 الْمُلُوكُ أَنْ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتُهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِكُ لَهُمْ مُطَاعُونَ إِلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ
 فَلَا يَسْمَحُونَ بِحُلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ وَأَخْوَالِهِمْ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَغَيْرُهُ
 مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَاهِهِمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِيضَةِ
 الْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وَقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمْ يُحَجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
 دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ الْحَجُّ لِأَهْلِ الدَّوْلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ قَرَارِغٍ شَأْنِ الْأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا
 إِلَى الطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِيًا فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَخَّوْا بِحُلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنْ ذَلِكَ
 الْمَالِ لِمَا يَرُونَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرُونَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسَبْ
 إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِيَا فَتَحُمُّ نَفُوسُهُمْ عَلَى انْتِزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالتَّقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ
 مِنَ الدَّوْلَةِ يَنْتَعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَاصٌّ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَهُوَ فِي
 النَّادِرِ الْأَقْلُ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمُلُوكِ بِذَلِكَ الْقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِالْإِرْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ
 تَعَرِّضًا أَوْ بِالْقَهْرِ ظَاهِرًا لِمَا يَرُونَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَايَةِ وَالدَّوْلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي
 الْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْإِسَارِ الْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وَجُوهِ
 الْمَعَاشِ فَأُخْرِجَ بِهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ وَالدَّوْلِ الَّتِي تَجِدُ السَّيْلَ إِلَيْهِ بِالسَّعْرِ
 وَالْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ اللَّخْيَانِيُّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ
 الْخَفَصِيِّينَ بِأَفْرِيقَةِ الْخُرُوجِ عَنْ عَهْدَةِ الْمَلِكِ وَاللِّخَاقِ بِمَضَرٍّ فِرَارًا مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ
 الثُّغُورِ الْغُرَبِيَّةِ لَمَّا اسْتَجْمَعَ لِعَزْوِ تُونِسَ فَاسْتَعْمَلَ اللَّخْيَانِيُّ الرَّحْلَةَ إِلَى نَغْرٍ دَرَابَسَ
 يُورِّي بِتَمَهِيدِهِ وَرَكِبَ السَّفِينِ مِنْ هُنَاكَ وَخَلَصَ إِلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ
 جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بَيْنَ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ وَالذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ مِنْ
 الْمَتَاعِ وَالْعَقَارِ وَالْجَوْهَرِ حَتَّى الْكُتُبِ وَاحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مَضَرٍّ وَنَزَلَ عَلَى
 الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نَزْلَهُ وَرَفَعَ
 مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلَصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالْغَرَضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ
 مَعَاشُ ابْنِ اللَّخْيَانِيِّ إِلَّا فِي جِرَائِيَتِهِ الَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ
 حَسَبَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ الدَّوْلِ
 لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنْ اتَّفَقَ لَهُمْ الْخُلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ الْحَاجَةِ فَعَطَّوْهُمْ وَالَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الشُّهُرَةِ بِخِدْمَةِ الدُّوَلِ كَفٍ
فِي وَجْدَانِ الْمَعَاشِ لَهُمْ بِالْجَرَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِالْجَاهِ فِي اتِّحَالِ طُرُقِ الْكَسْبِ مِنَ
التِّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ وَالدُّوَلِ أَنْسَابُ لَكِنِ

الْإِنْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقَعُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرِّزَاقُ وَهُوَ الْمُوفِّقُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ الْعُمَرَانِ
فَإِذَا احْتَجَّ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوْ الْجَبَايَاتِ أَوْ فَقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينَئِذٍ
مَا بِيَدَيِ الْحَاشِيَةِ وَالْحَامِيَةِ وَانْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ
تَفَقَّاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السُّوَادِ وَتَفَقَّاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةٍ لِلْأَسْوَاقِ مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ
الْكِسَادُ حِينَئِذٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَرْبَاحُ فِي الْمُتَاجِرِ فَيَقِلُّ الْخُرَاجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ
الْخُرَاجَ وَالْجَبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَالْعَامَلَاتِ وَتَفَاقُ الْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ النَّاسِ
لِلْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحِ وَبِإِذَا ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالنَّقْصِ لِقَلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينَئِذٍ
بِقَلَّةِ الْخُرَاجِ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَا هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ أَمْ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا
وَمَادَّتُهَا فِي الدُّخْلِ وَالْخُرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْزَرَ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ
أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَاشْدَّ مِنْهُ وَآيْضًا فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرَّعِيَةِ وَالسُّلْطَانِ
مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ الرَّعِيَةُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موزن بخراب العمران

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُدْوَانَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَكَتْسَابِهَا
لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا أَنْتَهَابُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي
اكتسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدَرِ الْأَعْتِدَاءِ وَنِسْبَتِهِ
يَكُونُ انْقِبَاضُ الرِّعَايَا عَنِ السَّعْيِ فِي الْأَكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ الْأَعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي
جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ كَانَ الْقُعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذَلِكَ لِدَهَابِهِ بِالْأَمْوَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ الْأَعْدَاءُ يَسِيرًا كَانَ الْأَنْقِبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى نِسْبَتِهِ
 وَالْعُمُرَانُ وَوُفُورُهُ وَتَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسَعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ
 وَالْمَكْسَبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِنَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ
 الْمَكْسَبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمُرَانِ وَانْتَفَضَتْ الْأَحْوَالُ وَابْدَعَرَ النَّاسُ فِي الْأَفَاقِ مِنْ
 غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَتْ سَاكِنُ الْقُطْرِ وَخَلَّتْ
 دِيَارُهُ وَخَرَجَتْ أَمْصَارُهُ وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ لِمَا أَنَّهَا صُورَةُ
 الْعُمُرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادَتِهَا ضَرُورَةً وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَخْبَارِ
 الْفَرَسِ عَنِ الْمُؤَبَّدَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامُ بَهْرَامِ بْنِ بَهْرَامٍ وَمَا عَرَّضَ بِهِ لِلْمَلِكِ
 فِي إِنْكَارِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِضَرْبِ الْمَثَالِ فِي
 ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْيَوْمِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَهْمِهِ كَلَامُهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّ بَوْمًا
 ذَكَرًا يَرُومُ نِكَاحَ بَوْمٍ أُنْثَى وَإِنَّمَا شَرِطَتْ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنَ الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامٍ
 فَقِيلَ شَرِطَهَا وَقَالَ لَهَا إِنْ دَامَتْ أَيَّامُ الْمَلِكِ أَقْطَعْتُكَ أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا أَسْهَلُ مَرَامٍ فَتَبَّهَ
 الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَا بِالْمُؤَبَّدَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ
 لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِيَامَ
 لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِيَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ وَلَا
 سَبِيلَ إِلَى الْأَمْوَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ
 بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَصَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَمَدَتِي إِلَى الضِّيَاعِ
 فَأَنْزَعْتَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا وَعُمَارِهَا وَهُمْ أَرْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَأَقْطَعْتَهَا
 الْحَاشِيَةَ وَالْخُدَمَ وَأَهْلَ الْبِطَالَةِ فَتَرَكُوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يَصْلُحُ الضِّيَاعِ
 وَسُوحُوا فِي الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْخُفْيُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَاجِ وَعُمَارِ
 الضِّيَاعِ فَأَنْجَلُوا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلَوْا دِيَارَهُمْ وَأَوُوا إِلَى مَا تَعَذَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا
 فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرَّعِيَّةُ وَطَمَعَ فِي
 مُلْكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا اسْتَقِيمُ دَعَائِمُ
 الْمَلِكِ إِلَّا بِهَا فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ وَأَنْزَعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ
 أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرَدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا وَحُمِلُوا عَلَى رُسُومِهِمْ السَّالِفَةِ وَآخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ وَقَوِيَ

مِنْ ضَعْفِ مِنْهُمْ فَعَمَرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جِبَاةِ الْخَرَابِ
 وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَشَبِحَتِ الثُّغُورُ وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى مَبَاشَرَةِ أُمُورِهِ
 بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَهَزَ مَلَكَهُ فَتَفَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ مَخْرِبٌ لِلْعُمَرَانِ
 وَأَنَّ عَائِدَةَ الْخَرَابِ فِي الْعُمَرَانِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالْفَسَادِ وَالْإِنْتِفَاضِ وَلَا تَنْتَظِرُ فِي ذَلِكَ إِلَى
 أَنَّ الْأَعْتِدَاءَ قَدْ يُوْجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ وَأَعْلَمُ
 أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْأَعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ
 الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمُرَانُهُ كَثِيرًا وَأَوْحَالُهُ مُتَّسِعَةً بِمَا لَا يَنْخَصِرُ كَانَ وَقُوعُ النِّقْصِ فِيهِ بِالْأَعْتِدَاءِ
 وَالظُّلْمِ بَسِيرًا لِأَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِذَا خَفِيَ بِكَثَرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَعَ
 الْأَعْمَالُ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ تَذَهَبَ تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْمُعْتَدِيَةُ مِنْ
 أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ الْمِصْرِ وَتَحْيَى الدَّوْلَةُ الْأُخْرَى قَبْرَ قَعَةٍ يَجِدُهَا وَتَجِبُ النِّقْصَ الَّذِي كَانَ
 خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يُشْعَرُ بِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ حُصُولَ
 النِّقْصِ فِي الْعُمَرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدُونِ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدْ مَنَاهُ وَوَبَّأَهُ عَائِدُ عَلَى
 الدُّوَلِ وَلَا تَحْسَبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخَذُ الْمَالِ أَوْ الْمُلْكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوَضٍ
 وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بَلِ الظُّلْمُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مَلِكًا أَحَدًا أَوْ عَصَبَةً
 فِي عَمَلِهِ أَوْ طَائِفَةً بغيرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَقْرُضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجَبَاهُ
 الْأَمْوَالُ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَهُ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَهُ وَالْمُتَحَبِّثُونَ لَهَا ظَلَمَهُ وَالْمَانِعُونَ
 لِحُقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَهُ وَخُصَّابُ الْأَمَلِكِ عَلَى الْعُمُومِ ظَلَمَهُ وَوَبَّأَلُ ذَلِكَ كَلِمَةً عَائِدَةً عَلَى الدَّوْلَةِ
 بِخَرَابِ الْعُمَرَانِ الَّذِي هُوَ مَادَتُهَا لِإِذْهَابِهِ الْأَمَالِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ
 الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فِسَادِ الْعُمَرَانِ وَخَرَابِهِ وَذَلِكَ
 مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النُّوعِ الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ
 مَقَاصِدِهِ الصَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ مِنْ حِظِّ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ فَلَمَّا كَانَ
 الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا بِانْقِطَاعِ النُّوعِ لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ الْعُمَرَانِ كَانَتْ
 حِكْمَةُ الْخَطَرِ فِيهِ مَوْجُودَةً فَكَانَ تَخْرِيمُهُ مُهِمًّا وَآدِلَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُ
 مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضَّبْطِ وَالْحَصْرِ وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوَضِعَ بِإِزَائِهِ
 مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ مَا وَضِعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ النُّوعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى

أَقْرَبُهَا مِنْ الزَّيْنِ وَالْقَتْلِ وَالسُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَيُؤْلَغُ فِي ذِمَّةٍ وَتَكْرِيرِ الْوَعِيدِ فِيهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ
أَوَازِعُ فِيهِ لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ وُضِعَتْ
بِإِزَاءِ الْحِرَابَةِ فِي الشَّرْعِ وَهِيَ مِنْ ظُلْمِ الْقَادِرِ لِأَنَّ النُّكَارَ زَمَنَ حِرَابَتِهِ قَادِرٌ فَإِنْ فِي
الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةُ عَلَى مَا يَقْتَرِفُهَا مِنَ الْحِنَايَاتِ فِي نَفْسِ
أَمْوَالٍ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِجِنَايَتِهِ
وَأَمَّا نَفْسُ الْحِرَابَةِ فِيهِ خُلُوفٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ . الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ النُّكَارُ لَا يُوَصَفُ
بِالْقُدْرَةِ لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ الظَّالِمِ الْيَدَ الْمَبْسُوطَةَ الَّتِي لَا تَعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فِيهِ الْمُؤَذِّنُ
بِالْحِرَابِ وَأَمَّا قُدْرَةُ النُّكَارِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْمَدْفَعَةِ
عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ مَوْجُودَةٍ شَرْعًا وَسِيَاسَةً فَلَيْسَتْ مِنَ الْقُدْرِ الْمُؤَذِّنِ بِالْحِرَابِ وَاللَّهُ
قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ . وَمِنْ أَشَدِّ الظَّالِمَاتِ وَأَعْظَمِهَا فِي إِفْسَادِ الْعُمَرَانِ تَكْلِيفُ الْأَعْمَالِ
وَتَسْخِيرُ الرِّعَايَا بِغَيْرِ حَقٍّ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْ قِبَلِ الْمُتَمَمُولَاتِ كَمَا سَبَّيْنَا فِي
بَابِ الرِّزْقِ لِأَنَّ الرِّزْقَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا هُوَ قِيمُ أَعْمَالِ أَهْلِ الْعُمَرَانِ فَإِذَا مَسَّاعِيَهُمْ
وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا مُتَمَمُولَاتٌ وَمَكَاسِبُ لَهُمْ بَلْ لَا مَكَاسِبَ لَهُمْ سِوَاهَا فَإِنَّ الرِّعَايَةَ
الْمُعْتَمِلِينَ فِي الْعِمَارَةِ إِنَّمَا مَعَاشُهُمْ وَمَكَاسِبُهُمْ مِنْ أَعْتِمَالِهِمْ ذَلِكَ فَإِذَا كَلَّفُوا الْعَمَلَ
فِي غَيْرِ شَأْنِهِمْ وَاتَّخَذُوا سِخْرِيًّا فِي مَعَاشِهِمْ بَطَلَ كَسْبُهُمْ وَأَغْتَضَبُوا قِيَمَةَ عَمَلِهِمْ ذَلِكَ
وَهُوَ مُتَمَمُولُهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ وَذَهَبَ لَهُمْ حِطٌّ كَبِيرٌ مِنْ مَعَاشِهِمْ بَلْ هُوَ مَعَاشُهُمْ
بِالْجُمْلَةِ وَإِنْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَفْسَدَ أَمَالَهُمْ فِي الْعِمَارَةِ وَقَعَدُوا عَنِ السَّعْيِ فِيهَا
جُمْلَةً فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى انْتِقَاصِ الْعُمَرَانِ وَتَغْرِيْبِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ
وَأَعْظَمُ مَنْ ذَلِكَ فِي الظُّلْمِ وَإِفْسَادِ الْعُمَرَانِ وَالِدَوْلَةُ التَّسَلُّطُ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ
بِشِرَاءٍ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ ثُمَّ فُرِضَ الْبُضَائِعُ عَلَيْهِمْ بِأَرْقَعِ الْأَثْمَانِ عَلَى
وَجْهِ الْغَضَبِ وَالْإِكْرَاهِ فِي الشِّرَاءِ وَالتَّبِيعِ . وَرُبَّمَا تُفْرَضُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَثْمَانُ عَلَى
التَّوَّاحِي وَالتَّعْجِيلِ فَيَتَعَلَّلُونَ فِي تِلْكَ الْخِسَارَةِ الَّتِي تَلْحَقُهُمْ بِمَا تُعَدُّهُمْ الدُّطَائِعُ مِنْ جَبَرِ
ذَلِكَ بِحَوْلَةِ الْأَسْوَاقِ فِي تِلْكَ الْبُضَائِعِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ بِالْغَلَاءِ إِلَى بَيْعِهَا بِأَبْخَسِ
الْأَثْمَانِ وَتَعُدُّ خِسَارَةً مَا بَيْنَ الصَّنَفَتَيْنِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ يَعْمُ ذَلِكَ أَصْنَافُ

التَّجَارَةُ الْمُقِيمِينَ بِالْمَدِينَةِ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْأَفَاقِ فِي الْبُضَائِعِ وَسَائِرِ السُّوقَةِ وَأَهْلُ
الدِّكَكَائِينَ فِي الْمَاكِيلِ وَالْفَوَاكِهِ وَأَهْلُ الصَّنَائِعِ فِيمَا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ
فَتَشْمَلُ الْخِيسَارَةُ سَائِرَ الْأَصْنَافِ وَالطَّبَقَاتِ وَتَمُوتَالِي عَلَى السَّاعَاتِ وَتُجَحِّفُ بِرُؤُوسِ
الْأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِجَةً إِلَّا الْقَعُودَ عَنِ الْأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فِي
جَبْرِهَا بِالْأَرْبَاحِ وَيَتَنَاقَلُ الْوَارِدُونَ مِنَ الْأَفَاقِ لِشِرَاءِ الْبُضَائِعِ وَيَبْعُهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ الرِّعَايَا لِأَنَّ عَامَتَهُ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتْ
الْأَسْوَاقُ عَطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنْقُصُ حَيَاتُهُ السُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ
أَوْسَطِ الدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الدُّكُوسِ عَلَى الْبَيْعَاتِ كَمَا قَدَّمَاهُ وَيُؤْوِلُ ذَلِكَ
إِلَى تَلَاثِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمُرَانِ الْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى الدَّرَجَةِ وَلَا يُشْعُرُ
بِهِ هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ وَالْأَسْبَابُ إِلَى اخْتِزِ الْأَمْوَالِ وَأَمَّا اخْتُزُهَا مَجَانًا
وَالْعُدُونُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرْبِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَافِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي
إِلَى الْخُلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْقِصُ الدَّوْلَةَ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمُفْضِي إِلَى
الْإِنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الدُّكَايَسَةَ فِي
الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سَدًّا لِلْأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى
إِنْتِقَاضِ الْعُمُرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ
حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَعْزُضُ لَهُمْ مِنَ التَّرَفِّ فِي الْأَحْوَالِ
فَيَكْثُرُ تَفَقُّهُمُ وَيَعْظُمُ الْخُرْجُ وَلَا يَبْقَى بِهِ الدَّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ الْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ
الْقَابَا وَوُجُوهًا يَوْسَعُونَ بِهَا الْحَبَايَةَ لِيَفِي لَهُمُ الدَّخْلُ بِالْخُرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّرَفُّ يَزِيدُ
وَالْخُرْجُ يَسْبِيهِ يَكْثُرُ وَالْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ تَشْتَدُّ وَيَطَاقُ الدَّوْلَةَ بِذَلِكَ يَزِيدُ
إِلَى أَنْ تَحْمِيَ دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرِسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع والاربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند الهرم
إِذْ عَلِمَ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ كَمَا قَدَّمَاهُ
لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ اسْتِبْلَاؤُهَا وَالْبِدَاوَةُ فِي شِعَارِ
الْعَصَبِيَّةِ وَالْدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِالذِّينِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا

بِعَزِّ الْغَلْبِ فَقَطْ فَالِدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْغَلْبُ بَعِيدَةٌ أَيْضًا عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَمَذَاهِبِهِ
فَإِذَا كَانَتْ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بِدَوِيَّةٍ كَانَتْ صَاحِبِهَا عَلَى حَالِ الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ
وَالْقُرْبِ مِنَ النَّاسِ وَسُؤْلَةٍ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ عَنِ
النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُؤْنِهِ لِمَا يَكْثُرُ حَيْثُئِذٍ بِحَاشِيَتِهِ فَيَطْلُبُ
الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَابِهِ عَلَى مَنْ لَا يَأْتِيهِ مِنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ
دَوْلَتِهِ وَيَتَّخِذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ يَقْبِضُهُ بِبَابِهِ لِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ ثُمَّ إِذَا اسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ
وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَازِعُهُ اسْتَحْتَأَتْ أَخْلَاقَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَخْلَاقِ الْمَلِكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ
غَرِيبَةٍ مُخْصُوصَةٍ يَخْتَلِجُ بِمَاشَرُهَا إِلَى مُدَارِيهَا وَمَعَامِلِهَا بِمَا يَجِبُ لَهَا وَرُبَّمَا جَهَلَ تِلْكَ
الْأَخْلَاقَ مِنْهُمْ بَعْضُ مَنْ يَبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِعْمَا لَا يُرْضِيهِمْ فَتَسْخَطُوا وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِنْتِقَامِ
مِنْهُ فَانْفَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ الْخَوَاصِّ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَحَجَّبُوا غَيْرَ أَوْلِيكَ الْخَاصَّةِ
عَنِ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعَانِيَةٍ مَا يُسْخِطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنْ
التَّعَرُّضِ لِعِقَابِهِمْ فَصَارَ لَهُمْ حِجَابٌ آخَرُ أَخْصُ مِنَ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ
خَوَاصُّهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى
مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ
الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَرْنَا كَمَا حَدَّثَ لَيَالَى مُعَاوِيَةَ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةٍ وَكَانَ
الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى عِنْدَهُمُ الْحَاجِبَ جُزْئًا عَلَى مَذَهَبِ الْإِسْتِشْقِ الصَّحِيحِ
ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَجَدَتْ الدَّوْلَةَ مِنَ التَّرَفِّ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ
وَكَمَلَتْ خُلُقُ الْمَلِكِ عَلَى مَا يَجِبُ فِيهَا فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى النُّجَابِ الثَّانِي وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ
أَخْصَ بِهِ وَصَارَ بِبَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانَ لِلْعَبَّاسِيَّةِ دَارُ الْخَاصَّةِ وَدَارُ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ
فِي أَخْبَارِهِمْ ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدَّوْلِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَخْصُ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ الْحَجَرِ
عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمَلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَبْنَاءَ مِنَ الْأَعْقَابِ
وَحَاوَلُوا الْإِسْتِبْدَادَ عَلَيْهِمْ فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبْدُ أَنْ يَحْجُبَ عَنْهُ بِطَانَةٌ أَبْنُوهُ
وَخَوَاصُّ أَوْلِيَائِهِ يَوْمَهُ أَنْ فِي مَبَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُ خَرَقَ حِجَابَ الْأُمِّيَّةِ وَفَسَادَ قَانُونِ الْأَدَبِ
لَيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الْغَيْرِ وَيَعُودَهُ مَلَاسَةً أَخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنْ
يَسْتَحْكِمَ الْإِسْتِبْدَادَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الْحِجَابُ مِنْ دَوَاعِيهِ وَهَذَا الْحِجَابُ لَا يَقَعُ فِي

الْغَالِبِ إِلَّا أَوَّخِرَ الدَّوْلَةَ كَمَا قَدَمْنَاهُ فِي الْحَجَرِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَنَفَادِ قُوَّتِهَا وَهُوَ مِمَّا يَخْشَاهُ أَهْلُ الدُّوَلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ يَحَاوِلُونَ عَلَى ذَلِكَ يَطْبَعُهُمْ عِنْدَ هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَذَهَابِ الْأَسْبَادِ مِنْ أَعْقَابِ مُلُوكِهِمْ لِمَا رَكِبَ فِي النُّفُوسِ مِنْ مَحَبَّةِ الْأَسْبَادِ بِالْمُلْكِ وَخُصُوصًا مَعَ التَّرْشِيحِ لِلذِّكِّ وَحُصُولِ دَوَائِعِهِ وَمَبَادِيهِ

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إِعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَقَعُ مِنْ آثَارِ الْهَرَمِ فِي الدَّوْلَةِ انْقِسَامُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ عِنْدَمَا يَسْتَفْحِلُ وَيَبْلُغُ مِنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ إِلَى غَايَتِهَا وَيَسْتَبِدُّ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِالْمُجْدِ وَيَتَفَرَّدُ بِهِ وَيَأْتِي حِينَئِذٍ عَنِ الْمَشَارَكَةِ وَيَصِيرُ إِلَى قَطْعِ أَسْبَابِهَا مَا اسْتَطَاعَ بِإِهْلَاكِ مَنْ اسْتَرَابَ بِهِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ الْمُرْتَشِحِينَ لِمَنْصِبِهِ قَرِيبًا أَرْتَابَ الْمُسَاهِمُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَتَزَعُّوا إِلَى الْقَاصِيَةِ إِلَيْهِمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِثْلَ حَالِهِمْ مِنَ الْإِعْتَزَارِ وَالْإِسْتِرَابَةِ وَيَكُونُ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ قَدْ أَخَذَ فِي التَّضَايِقِ وَرَجَعَ عَنِ الْقَاصِيَةِ فَيَسْتَبِدُّ ذَلِكَ النَّازِعُ مِنَ الْقَرَابَةِ فِيهَا وَلَا يَزَالُ أَمْرُهُ يَعْظُمُ بِتَرَاجُعِ نِطَاقِ الدَّوْلَةِ حَتَّى يُقَالِمَ الدَّوْلَةَ أَوْ يَكَادُ وَتَنْظُرُ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ حِينَ كَانَ أَمْرُهَا حَرِيرًا مُجْتَمِعًا وَنِطَاقًا مُمْتَدًّا فِي الْإِتْسَاعِ وَعَصِيَّةً بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَاحِدَةً غَالِبَةً عَلَى سَائِرِ مُضَرَ فَلَمَّ يَنْبُضْ عِرْقُ مِنَ الْخِلَافَةِ سَائِرَ أَيَّامِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَدْعَةِ الْخَوَارِجِ الْمُسْتَمِيتِينَ فِي شَأْنِ بَدْعَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنَزَعِ مُلْكٍ وَلَا رِئَاسَةٍ وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُمْ لِمَزَاحِمَتِهِمْ الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَأَسْتَقَلَ بَنُو الْعَبَّاسِ بِالْأَمْرِ وَكَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ مِنَ الْغَلَبِ وَالتَّرَفِ وَادْنَتْ بِالْقُلُوصِ عَنِ الْقَاصِيَةِ نَزَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ قَاصِيَةَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ فَاسْتَحْدَثَ بِهَا مُلْكًا وَاقْتَطَعَهَا عَنْ دَوْلَتِهِمْ وَصَيَّرَ الدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ ثُمَّ نَزَعَ أَدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَخَرَجَ بِهِ وَقَامَ بِأَمْرِهِ وَأَمَرَ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ الْبَرَابِرَةَ مِنْ أَوْرُبَةٍ وَمُغِيلَةٍ وَزَنَانَةٍ وَاسْتَوَلَى عَلَى نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِينَ ثُمَّ أَرْدَادَتْ الدَّوْلَةَ نَقْلًا فَاضْطَرَبَ الْأَعْلَامُ فِي الْإِمْتِنَاعِ عَلَيْهِمْ ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْعَةُ وَقَامَ بِأَمْرِهِمْ كِتَابَةُ وَصْنَاهُجَةً وَاسْتَوَلَوْا عَلَى أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَغَلَبُوا عَلَى الْأَدَارِسَةِ وَقَسَمُوا الدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ أُخْرَيْنِ وَصَارَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ ثَلَاثَ دَوْلٍ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ

مَرَكَزَ الْعَرَبِ وَأَصْلَهُمْ وَمَادَّهُمْ الْإِسْلَامُ وَدَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ الْمُجَدِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ
 مُلْكُهُمُ الْقَدِيمُ وَخِلَافَتُهُمُ بِالْمَشْرِقِ وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ
 وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ أَنْقَرَضَاهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ أَنْقَسَمَتِ دَوْلَةُ
 بَنِي الْعَبَّاسِ بِدَوْلٍ أُخْرَى وَكَانَ بِالْقَاصِيَّةِ بَنُو سَاسَانَ فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخُرَاسَانَ وَالْعُلُوبِيَّةَ
 فِي الدَّلِيلِمْ وَطَبَرِسْتَانَ وَالْزَلَّ إِلَى أَسْتِيْلَاءِ الدَّلِيلِمْ عَلَى الْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى بَغْدَادَ وَالْخَلْفَاءُ
 ثُمَّ جَاءَ السُّجُوفِيَّةُ فَمَلَكَوا جَمِيعَ ذَلِكَ ثُمَّ أَنْقَسَمَتِ دَوْلَتُهُمْ أَيْضًا بَعْدَ الْأِسْتِفْحَالِ كَمَا
 هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذَلِكَ اعْتَبَرَهُ فِي دَوْلَةِ صِنَهَاةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ لَمَّا بَلَغَتْ
 إِلَى غَايَتِهَا أَيَّامَ بَادِيَسَ بْنِ الْمَنْصُورِ خَرَجَ عَلَيْهِ عَمَّهُ حَمَادٌ وَأَقْطَعَ مَا لِكَ الْعَرَبِ لِنَفْسِهِ
 مَا بَيْنَ جَبَلِ أُوْرَاسَ إِلَى تَلْمُسَانَ وَمَلُوكِيَّةَ وَأَخْطَطَ الْقَلْعَةَ بِجَبَلِ كُتَامَةِ حِيَالِ الْمَسِيلَةِ وَنَزَلَهَا
 وَأَسْتَوَلَى عَلَى مَرَكَزِهِمْ أَشِيرَ بِجَبَلِ تَيْطَرِي وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا آخَرَ قَسِيمًا لِمُلْكِ آلِ بَادِيَسَ
 وَبَقِيَ آلُ بَادِيَسَ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَا إِلَيْهَا وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ أَنْقَرَضَ أَمْرُهَا جَمِيعًا وَكَذَلِكَ
 دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ أَمَّا تَقْلُصَ ظَاهِبًا ثَارَ بِأَفْرِيقِيَّةَ بَنُو أَبِي حَفْصٍ فَاسْتَقْلَوْهَا وَأَسْتَحْدَثُوا
 مُلْكًا لِأَعْقَابِهِمْ بِوَحْدِيَّتِهَا ثُمَّ لَمَّا اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَأَسْتَوَلَى عَلَى الْغَايَةِ خَرَجَ عَلَى الْمَمَالِكِ
 الْغَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْقَابِهِمُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَاءَ يَحْيَى ابْنُ السُّلْطَانِ أَبِي اسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ رَابِعَ خُلَفَائِهِمْ
 وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا بِجَبَايَةِ وَقَسَنْطِينَةِ وَمَا إِلَيْهَا أَوْرَثَهُ بَنِيهِ وَقَسَمُوا بِهِ الدَّوْلَةَ قِسْمَيْنِ
 ثُمَّ اسْتَوَلَوْا عَلَى كُرْسِيِّ الْخَضِرَةِ يُونُسَ ثُمَّ أَنْقَسَمَ الْمُلْكُ مَا بَيْنَ أَعْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ الْأَسْتِيْلَاءُ
 فِيهِمْ وَقَدْ يَنْتَهِي الْأَنْقِسَامُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ دَوْلَتَيْنِ وَثَلَاثٍ فِي غَيْرِ أَعْيَاصِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمِهِ
 كَمَا وَقَعَ فِي مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ صِنَهَاةَ بِأَفْرِيقِيَّةَ
 فَقَدْ كَانَ لِأَخِيرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حُصْنٍ مِنْ حُصُونِ أَفْرِيقِيَّةَ ثَائِرٌ مُسْتَقِلٌّ بِأَمْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ
 ذِكْرُهُ وَكَذَا حَالَ الْجُرَيْدِ وَالزَّابِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ قَبِيلَ هَذَا الْعَهْدِ كَمَا نَذَرْتُ وَهَكَذَا شَأْنُ
 كُلِّ دَوْلَةٍ لَا بُدَّ وَأَنْ يَعْرِضَ فِيهَا عَوَارِضُ الْهَرَمِ بِالْتَرَفِ وَاللَّعَّةِ وَتَقْلُصَ ظِلَالُ الْعَلَبِ فَيَنْقَسِمُ
 أَعْيَاصُهَا وَمَنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا لِأَمْرٍ وَيَتَعَدَّدُ فِيهَا الدُّوَلُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قَدْ قَدَمْنَا ذِكْرَ الْعَوَارِضِ الْمُؤْذِنَةِ بِالْهَرَمِ وَأَسْبَابُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَبَيْنَا أَنَّهَا

تَحَدُّثُ الدَّوْلَةِ بِالطَّبَعِ وَأَنَّهَا كُلُّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لَهَا وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبِيعِيًّا فِي الدَّوْلَةِ
كَانَ حَدُوثُهُ بِمِثَابَةِ حَدُوثِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ كَمَا يَحْدُثُ الْهَرَمُ فِي الْمَزَاجِ الْحَيَوَانِيِّ
وَالْهَرَمُ مِنَ الْأَرَاضِ الْمَزْمَنَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ دَوَائِهَا وَلَا ارْتِفَاعُهَا بَلَّا أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ وَالْأُمُورُ
الطَّبِيعِيَّةُ لَا تَبْدُلُ وَقَدْ يَتَّبِعُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوَلِ مِنْ لَهْ يَقْطَعُ فِي السِّيَاسَةِ فَيَرَى مَا
نَزَلَ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ الْهَرَمِ وَيُظَنُّ أَنَّهُ مُمَكِّنُ الْارْتِفَاعِ فَيَأْخُذُ نَفْسُهُ بِثَلَاثِ الدَّوْلَةِ
وَأَصْلَاحِ مَزَاجِهَا عَنْ ذَلِكَ الْهَرَمِ وَيَحْسِبُهُ أَنَّهُ لِحَقِّهَا بِتَقْصِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ
وَعَفْلَتِهِمْ وَيَسْ كَذَلِكَ فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ الْمَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلَايِفِهَا
وَالْعَوَائِدُ مَنَزَلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنْ مِنْ أَدْرَكَ مِثْلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ أَهْلِ بَيْتِهِ يَلْبَسُونَ
الْحَرِيرَ وَالذِّيَابَاجَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ فِي السَّلَاحِ وَالْمَرَكَبِ وَيَتَحَجَّبُونَ عَنِ النَّاسِ فِي
الْمَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ فَلَا يُمْكِنُهُ مُخَالَفَةُ سَلَفِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْخُشُونَةِ فِي اللَّبَاسِ وَالزِّيِّ
وَالْإِخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ إِذَا الْعَوَائِدُ حِينَئِذٍ تَمْنَعُهُ وَتَقْبَحُ عَلَيْهِ رُتَبَهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَرُمِيَ
بِالْجُنُونِ وَالْوَسْوَاسِ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْعَوَائِدِ دَفْعَةً وَخُشْيَ عَلَيْهِ عَائِدَةُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ فِي
سُلْطَانِهِ وَأَنْظُرْ شَأْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي إِنْكَارِ الْعَوَائِدِ وَتَغَالُتِهَا لَوْلَا الذِّأْيِدُ الْإِلَهِيُّ وَالنَّصْرُ
السَّمَاوِيُّ وَرَبَّمَا تَكُونُ الْعَصِيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَيَكُونُ الْأَبْهَةُ تَعَوُّضٌ عَنْ مَوْجِعِهَا مِنْ
النَّفْسِ فَإِذَا أُرِيَتْ تِلْكَ الْأَبْهَةُ مَعَ ضَعْفِ الْعَصِيَّةِ تَجَاسَرَتْ الرِّعَايَا عَلَى الدَّوْلَةِ بِذَهَابِ
أَوْهَامِ الْأَبْهَةِ فَيَنْدَرِعُ الدَّوْلَةُ بِتِلْكَ الْأَبْهَةِ مَا أُمَكَّنَهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَمْرُ وَرَبَّمَا يَحْدُثُ
عِنْدَ آخِرِ الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ تُوهِمُ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهَا وَيَوْمَئِذٍ ذُبَالُهَا إِيمَاضَةُ الْحُمُودِ
كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمُشْتَعِلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مُقَارَبَةِ انْطِفَائِهِ يَوْمِضُ إِيمَاضَةً تُوهِمُ أَنَّهَا اشْتَعَالٌ
وَهِيَ انْطِفَاءٌ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَلَا تَعْفَلْ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتَهُ فِي أَطْرَادِ وُجُودِهِ عَلَى مَا
قَدَّرَ فِيهِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مَبْنَى الْمَلِكِ عَلَى أَسَاسَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا فَا لَأَوَّلُ الشُّوْكَ وَالْعَصِيَّةُ وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ
بِالْجُنْدِ وَالثَّانِي الْمَالُ الَّذِي هُوَ قَوَامُ أَوْلِيكَ الْجُنْدِ وَإِقَامَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ
الْأَحْوَالِ وَالْخُلُقِ إِذَا طَرَقَ الدَّوْلَةُ طَرَقَهَا فِي هَذَيْنِ الْأَسَاسَيْنِ فَلَنْذَكَرُ أَوَّلًا طُرُوقَ

الْخُلَالِ فِي الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى طُرُوقِهِ فِي الْمَالِ وَالْحَبَايَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ تَمْهِيدَ
 الدَّوْلَةِ وَتَأْسِيسَهَا كَمَا فَلَنَاهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عَصِيَّةٍ كَبْرَى جَامِعَةٍ
 الْعَصَائِبِ مُسْتَنْبَعَةٍ لَهَا وَهِيَ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْخَاصَّةِ مِنْ عَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ فَإِذَا جَاءَتْ
 الدَّوْلَةُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ مِنَ التَّرَفِ وَجَدَعَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ كَانَ أَوَّلُ مَا يُجْدَعُ أَتُوفِ
 عَشِيرَتِهِ وَذَوِي قُرْبَاهُ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي اسْمِ الْمَلِكِ فَيَسْتَبِدُّ فِي جَدْعِ أَتُوفِهِمْ بِمَا بَلَغَ
 مِنْ سَوَادِهِمْ إِمَّا كَانِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَالْعِزِّ وَالْغَلْبِ فَيَحْطِطُ بِهِمْ هَادِمَانِ وَهُمَا التَّرَفُ وَالْقَهْرُ
 ثُمَّ يَصِيرُ الْقَهْرُ آخِرًا إِلَى الْقَتْلِ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوحِ الْمَلِكِ لِصَاحِبِ
 الْأَمْرِ فَيَقْلُبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى الْخَوْفِ عَلَى مَلِكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِهَانَةِ وَسَلْبِ
 النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي تَعَوَّدُوا الْكَثِيرَ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقُولُونَ وَتَفْسُدُ عَصِيَّةُ صَاحِبِ
 الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ الْعَصِيَّةُ الْكَبْرَى الَّتِي كَانَتْ تُجْمَعُ بِهَا الْعَصَائِبُ وَتَسْتَبْعُهَا فَتَحُلُّ
 عُرْوَتَهَا وَتَضَعُ شِكَمَتَهَا وَتُسْتَبَدُّ عَنْهَا بِالْطَّانَةِ مِنْ مَوَالِي النِّعْمَةِ وَصَنَائِعِ الْإِحْسَانِ
 وَتَتَّخِذُ مِنْهُمْ عَصِيَّةً إِلَّا أَنَّهُمَا لَيْسَتْ مِثْلُ تِلْكَ الشَّدَةِ الشَّكِيمَةِ لِفَقْدَانِ الرَّحِمِ وَالْقَرَابَةِ
 مِنْهَا وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ شَأْنَ الْعَصِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِالْقَرَابَةِ وَالرَّحِمِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ
 فِي ذَلِكَ فَيَفَرِّدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَنْ الْعَشِيرِ وَالْأَنْصَارِ الطَّبِيعِيَّةِ وَيَحْسُ بِذَلِكَ أَهْلُ
 الْعَصَائِبِ الْآخَرَى فَيَتَجَسَّرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَطَانَتِهِ تَجَسَّرًا طَبِيعِيًّا فَيَهْلِكُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
 وَيَتَّبِعُهُمْ بِالْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَقْلُدُ الْآخَرُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ الْأَوَّلِ مَعَ مَا
 يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَهْلِكَةِ التَّرَفِ الَّذِي قَدَّمْنَا فَيَسْتَوِلِي عَلَيْهِمْ الْهَلَاكُ بِالتَّرَفِ
 وَالْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِبْغَةِ تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَيَفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَتَوَرَّتْهَا وَيَصِيرُوا أَوْجَرَ
 عَلَى الْحِمَايَةِ وَيَقُولُونَ لِذَلِكَ فَتَقِلُّ الْحِمَايَةُ الَّتِي تَنْزِلُ بِالْأَطْرَافِ وَالتُّغُورِ فَتَتَجَسَّرُ الرِّعَايَا
 عَلَى بَعْضِ الدَّعْوَةِ فِي الْأَطْرَافِ وَيَبَادِرُ الْخَوَارِجُ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى
 تِلْكَ الْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حَيْثُ مِنْهُمْ حُصُولُ غَرْضِهِمْ بِمَبَايِعَةِ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ لَهُمْ
 وَأَمْنِهِمْ مِنْ وُصُولِ الْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَدَرَّجُ وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ يَتَضَايِقُ حَتَّى
 تَصِيرَ الْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ الْأَمَاكِنِ إِلَى مَرَكَزِ الدَّوْلَةِ وَرُبَّمَا انْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ عِنْدَ
 ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي الْأَصْلِ كَمَا فَلَنَاهُ وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ
 عَصِيَّتِهَا لَكِنْ إِذْغَانًا لِأَهْلِ عَصِيَّتِهَا وَلِغَلْبِهِمُ الْمَعْرُودِ وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ فِي

إِلَّا سَلَامَ كَيْفَ أَنْتَهَتْ أَوَّلًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ نَافِذًا فِي جَمِيعِ
 الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَتَّى لَقِدَ أَمْرَ سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقٍ بِقَتْلِ
 عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِقَرْطَبَةَ فَقَتِلَ وَلَمْ يَرِدْ أَمْرُهُ ثُمَّ تَلَاسَتْ عَصِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةٍ
 بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّرَفِّ فَأَقْرَضُوا وَجَاءَ بَنُو الْعَبَّاسِ فَغَضُّوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا
 الطَّالِبِيِّينَ وَشَرَّدُوهُمْ فَأَتَحَلَّتْ عَصِيَّةُ عَبْدِ مَنَافٍ وَتَلَاسَتْ وَتَجَاسَرَ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَاسْتَبَدَّ
 عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْقَاصِيَةِ مِثْلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقَةَ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَانْقَسَمَتِ
 الدَّوْلَةُ ثُمَّ خَرَجَ بَنُو آدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبَزْبُزُ بِأَمْرِهِمْ إِذْ عَانَا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ
 وَأَمْنًا أَنْ تَصْلَهُمْ مُقَاتَلَةٌ أَوْ حَامِيَةٌ لِلدَّوْلَةِ فَإِذَا خَرَجَ الدُّعَاةُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ
 وَالْقَاصِيَةِ وَتَحْصِلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمَلِكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ الدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَى زَادَتِ
 الدَّوْلَةُ أَثْقَلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضَعُفُ الْبَطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَخَذَ مِنْهَا التَّرَفُّ
 فَتَهْلِكُ وَتَضَعُفُ الدَّوْلَةُ الْمُنْقَسِمَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمْدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَسْتَعْنِي
 عَنِ الْعَصِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الصَّبْغَةِ فِي نُفُوسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ صِبْغَةُ الْإِنْقِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ
 مِنْذُ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَعْقِلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا وَلَا أَوَّلِيَّتَهَا فَلَا يَعْقِلُونَ إِلَّا
 التَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعْنِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ الْعَصَائِبِ وَبِكُفْيِ صَاحِبِهَا بِمَا حَصَلَ
 لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا الْإِجْرَاءِ عَلَى الْحَامِيَةِ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَعْضُدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي
 النُّفُوسِ عَامَةً مِنَ التَّسْلِيمِ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ عُصِيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجُمْهُورُ
 مُنْكَرُونَ عَلَيْهِ نَخْلَانُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّصَدِّي لِذَلِكَ وَلَوْ جَبَدَ جَبْدَهُ وَرُبَّمَا كَانَتْ
 الدَّوْلَةُ فِي هَذَا الْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمَنَازِعَةِ لَا سَخِيكًا صِبْغَةَ التَّسْلِيمِ وَالْإِنْقِيَادِ
 لَهُمْ فَلَا تَكَادُ النُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرًّا بِمُخَالَفَةٍ وَلَا يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْخِرَافٌ عَنْ
 الطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ الْهَرْجِ وَالْإِنْتِقَاضِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ
 ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ تَتَلَاشَى فِي ذَاتِهَا شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْفَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ
 الْعَادِمِ لِلْغِذَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ
 أَمَدٌ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَأَمَّا الْخُلُكُ الَّذِي يَتَطَرَّقُ مِنْ جِهَةِ
 الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا تَكُونُ بِدَوِيَّةٍ كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ الرَّفِي بِالرَّعَايَا
 وَالْقَصْدُ فِي النِّفَقَاتِ وَالْتِعَافُ عَنِ الْأَمْوَالِ فَتَنْتَجَبَى عَنِ الْأَمْعَانِ فِي الْحَبَابَةِ وَالتَّحَذُّقِ

وَالْكَيْسَ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِسْبَانِ الْعُمَالِ وَلَا دَاعِيَةً حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النِّفَقَةِ
فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ الْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ الْإِسْتِیْلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيُسْتَفْجَلُ الْمَلِكُ فَيَدْعُو
إِلَى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ
بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النِّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرِّعَايَةِ
لَأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِا وَعَوَائِدِهِا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمَكُوسِ عَلَى
أَثْمَانِ الْبِیَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِذْ رَارِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ
بِأَلَرِّ فِيهِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ
فَلَا تَبْقَى بَهَا الْمَكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدْ اسْتَفْجَلَتْ فِي الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا
مِنَ الرِّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرِّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ
فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشَبْهَةٍ أَوْ بَغَيْرِ شَبْهَةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى
الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفُشْلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتُدَاوِي بِسَكِينَةٍ
الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَلِيحَةً وَتَكُونُ جَبَاةُ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ
قَدْ عَظُمَتْ ثُرُوتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجَبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا أَسْعَى لَذَلِكَ
مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِاحْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَتَفْشُو السَّعَايَةُ فِيهِمْ بَعْضُهُمْ
مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحَقْدِ فَتَعْمَهُمُ النِّكَبَاتُ وَالْمُصَادَرَاتُ وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ
تَذْهَبَ ثُرُوتُهُمْ وَتَنَلَّاشِي أَحْوَالُهُمْ وَيَفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأَهْبَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا
أَصْطَلَمَتْ نَعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمْ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرِّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهْنُ
فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ
الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مَدَارَةِ الْأُمُورِ بِبَدْلِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعُ مِنَ السَّيْفِ لِقَلَّةِ غِنَائِهِ فَتَعْظُمُ
حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النِّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يَغْنَى فِيهَا يَرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَمُ
بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النُّوَاحِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاها فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى
أَنْ تَقْضِيَ إِلَى الْهَلَاكِ وَتَنْعَوِضُ مِنَ الْإِسْتِیْلَاءِ الْكَمَالَ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ أَنْزَعَهَا مِنْ
أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَإِلَّا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَّاشِي إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السِّرَاجِ إِذَا
فِي زَيْتِهِ وَطَفِي وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

اعلم ان نشأة الدول ویدانتها اذا اخذت الدولة المستقرة في الهرم ولا تنقاص
تكون على نوعين اما بان يستبد ولاية الاعمال في الدولة بالقاصية عند ما تنقل
ظلمها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه
عنه ابناءؤه او مواليه ويستفحل اهل الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك
ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على
صاحبه وينتزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين اخذت دولتهم في الهرم
وتقلص ظلمها عن القاصية واستبد بنو ساسان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام
وبنوطولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس وافترق ملوكها في الطوائف
الذين كانوا ولايتها في الاعمال وانقسمت دولا وملوكا اورثوها من بعدهم من
قرابتهم او مواليتهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حربا لانهم
مستقرون في رئاستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما
الدولة اذركها الهرم وتقلص ظلمها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني
بان يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس
عليها كما اشرنا اليه او يكون صاحب شوكة وعصية كبيرا في قومه قد استفحل امره
فيسموهم الى الملك وقد حدثوا به انفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة
المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة
الى ان يظفروا بها وينزلون^(١) كما يتبين والله سبحانه وتعالى اعلم

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستقرة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطالبة لا بالمناجزة

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الأطراف اذا
تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر
كما قدمناه لان فصار اهل النوع بما في ايديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثاني نوع

(١) قوله وينزلون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اهـ

الدِّعَاةَ وَالْخَوَارِجَ عَلَى الدَّوْلَةِ وَهَؤُلَاءِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْمُطَالَبَةِ لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ وَافِيَةٌ بِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ
 إِنَّمَا يَكُونُ فِي نَصَابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْإِعْتِرَازِ مَا هُوَ كِفَاءُ ذَلِكَ وَوَأَفَ بِهِ
 فَيَقَعُ بَيْنَهُمْ وَيَبْتَ الدَّوْلَةُ الْمُسْتَقَرَّةَ حُرُوبٌ سَجَالٌ تَنْكَوُزُ وَتَتَّصِلُ إِلَى أَنْ يَقَعَ لَهُمْ
 الْأَسْتِيْلَاءُ وَالظُّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ ظَفَرٌ بِالْمُنَاجَزَةِ وَالسَّبَبُ فِي
 ذَلِكَ أَنَّ الظُّفَرَ فِي الْحُرُوبِ إِنَّمَا يَقَعُ كَمَا قَدَّمَاهُ بِأُمُورٍ نَفْسَانِيَّةٍ وَهَمِيَّةٍ وَإِنْ كَانَ
 الْعَدَدُ وَالسَّلَاحُ وَصِدْقُ الْقِتَالِ كِفِيَالًا بِهِ لَكِنَّهُ قَاصِرٌ مَعَ تِلْكَ الْأُمُورِ الْوَهْمِيَّةِ كَمَا
 مَرَّ وَلِذَلِكَ كَانَ الْخُدَاعُ مِنْ أَرْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْبِ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ الظُّفَرُ بِهِ وَفِي
 الْحَدِيثِ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ قَدْ صَيَّرَتِ الْعَوَائِدَ أَلْمَا لَوْفَةَ طَاعَتِهَا ضَرْوَةً
 وَاجِبَةً كَمَا نَقَدَمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَتَكْثُرُ بِذَلِكَ الْعَوَائِقُ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَحْدَةِ
 وَيَكْثُرُ مِنْ هَمِّهِمْ أَتْبَاعُهُ وَأَهْلُ شَوْكَتِهِ وَإِنْ كَانَ الْأَقْرَبُونَ مِنْ بَطَانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي
 طَاعَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ إِلَّا أَنَّ الْأَخْرِينَ أَكْثَرُ وَقَدْ دَاخَلَهُمُ الْفُتْلُ بِتِلْكَ الْعَقَائِدِ فِي التَّسْلِيمِ
 لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فَيَحْصُلُ بَعْضُ الْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكَادُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ يَرْجِعُ
 إِلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَّضِحَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فَتُخْجَلُ عَقَائِدُ التَّسْلِيمِ لَهَا
 مِنْ قَوْمِهِ وَتَتَّبَعَتْ مِنْهُمْ أَلْهَمٌ لِصِدْقِ الْمُطَالَبَةِ مَعَهُ فَيَقَعُ الظُّفَرُ وَالْأَسْتِيْلَاءُ وَإِيضًا
 فَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ بِمَا اسْتَحْصَكَمَ لَهُمْ مِنَ الْمَلِكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النِّعَمِ
 وَاللَّدَاتِ وَاخْتَصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ فَيَكْثُرُ عِنْدَهُمْ ارْتِبَاطُ الْحَيُولِ
 وَاسْتِجَادَةُ الْأَسْلِحَةِ وَتَعْظُمُ فِيهِمُ الْأَلْبَةُ الْمَالِكِيَّةُ وَبِفَيْضِ الْعَطَايَا بَيْنَهُمْ مِنْ مُلُوكِهِمْ
 اخْتِيَارًا وَأَضْطِرَارًا فَيُرْهِمُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَدُوَّهُمْ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَحْدَةِ بِمَعَزَلٍ عَنْ
 ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَحْوَالِ الْفَقْرِ وَالْخُصَاصَةِ فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ
 الرُّغْبِ بِمَا يَبْتَهِمُونَ مِنْ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ وَيُحْرَمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
 فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ الْمُسْتَقَرَّةُ مَا خُذَهَا مِنَ الْهَرَمِ وَيَسْتَحْكِمَ
 الْحُلُلَ فِيهَا فِي الْعَصِيَّةِ وَالْجَبَايَةِ فَيَنْتَهِرُ حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَحْدَةِ فُرْصَتَهُ فِي
 الْأَسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينَ مِنْهُدِ الْمُطَالَبَةِ سَنَةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَإِيضًا فَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَحْدَةِ
 كُلُّهُمْ مَبَايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَفِي سَائِرِ مَنَاحِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفَاخِرُونَ
 لَهُمْ وَمُنَابِدُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ هَذِهِ الْمُطَالَبَةِ وَبِعَظَمِيِّهِمْ فِي الْأَسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ فَنَتَمَكَّنُ

الْمُبَاعَدَةِ بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرًّا وَجَهْرًا وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبْرٌ عَنْ
 أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ يُصِيدُونَ مِنْهُ غَرَّةً^(١) بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَا تَقْطَاعَ الْمُدَاخَلَةَ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ
 فَيَقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكَلُونَ عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِ
 الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ وَفَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُفُورِ الْخِلَالِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتَّضَحَ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ
 الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ دَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا أَقْطَعُوهُ
 مِنْ أَعْمَالِهَا وَتَقْصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَلَبَّثَ هَمَمُهُمْ بِدَا وَاحِدَةٍ لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ
 بُثًّا فِي عَزَائِمِهِمْ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي الْمُطَاوَلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ الْأَسْتِيْلَاءُ آخِرًا
 بِالْمُعَاجَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ ظَهَرُوا حِينَ قَامَ الشَّيْخَةُ بِخُرَّاسَانَ
 بَعْدَ انْقِضَادِ الدَّعْوَةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْمُطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ تَمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ
 وَاسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا الْعُلُوِيَّةُ بِطَبْرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ فِي الدَّيْلَمِ
 كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُ الْعُلُوِيَّةِ وَسَمَا
 الدَّيْلَمِ إِلَى مُلْكِ فَارَسَ وَالْعِرَاقَيْنِ فَمَكَّثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يَطَاوُلُونَ حَتَّى أَقْطَعُوا
 أَصْبَهَانَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى الْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا الْعَبِيدِيُّونَ أَقَامَ دَاعِيَتَهُمْ بِالْمَغْرِبِ
 أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ بَيْنِي كِتَامَةً مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ عَشْرَ سِنِينَ وَبَزِيدُ تَطَاوُلُ بَنِي الْأَغْلَبِ
 بِأَفْرِيقِيَّةٍ حَتَّى ظَفَرَ بِهِمْ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَّثُوا
 ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي ظُلُمِهَا يَجْهَرُونَ إِلَيْهَا الْعَسَاكِرُ وَالْأَسَاطِيلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ
 الْمَدَدُ لِمُدَافَعَتِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنْ بَغْدَادَ وَالشَّامِ وَمَلَكُوا الْأَسْكَندَرِيَّةَ وَالْقَيْسِيَّةَ
 وَالصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْحِجَازِ وَأَقِيمَتِ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ فَأَدْبَمَ
 جَوْهَرَ الْكَاتِبِ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَأَقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجٍ مِنْ أَصُولِهَا
 وَأَخْطَطَ الْقَاهِرَةَ لِحِجَاةِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَ الْمُعْزِ لِدِينِ اللَّهِ فَزَلَّهَا لِسِتِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا مِنْذُ
 اسْتِيْلَائِهِمْ عَلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَكَذَا السُّجُوفِيَّةُ مُلُوكُ التُّرْكِ لَمَّا اسْتَوْلُوا عَلَى بَنِي سَاسَانَ
 وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَّثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يَطَاوُلُونَ بَنِي سَبَكْتِكِينِ بِخُرَّاسَانَ
 حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى دَوْلَتِهِ ثُمَّ زَحَنُوا إِلَى بَغْدَادَ فَاسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ
 مِنَ الدَّهْرِ وَكَذَا التُّرْكُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةِ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْأَسْتِيْلَاءُ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْأُمَرَاؤُ مِنْ

(١) قولة شره بكسر الهمزة أي غفلة

لِمَثُونَةٍ عَلَى مَلُوكِهِ مِنْ مَغْرَاوَةٍ فَطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ اسْتَوَلَوْا عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ الْمُوحِدُونَ
يَدْعُوهُمْ عَلَى لِمَثُونَةٍ فَمَكَّشُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى اسْتَوَلَوْا عَلَى
كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَاكِشَ وَكَذَا بُنُورِينَ مِنْ زَنَاتَةٍ خَرَجُوا عَلَى الْمُوحِدِينَ فَمَكَّشُوا يُطَاوَلُونَهُمْ
نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَاسْتَوَلَوْا عَلَى فَاكِسَ وَاقْتَطَعُوهَا وَأَعْدَالَهَا مِنْ مُكَّهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا
فِي مُحَارِبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى اسْتَوَلَوْا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَاكِشَ حَسْبَمَا نَذَرُ ذَلِكَ
كَلَمَةً فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدُّوَلِ فَهَكَذَا حَالُ الدُّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْمَطَالِبَةِ
وَالْمَطَاوَلَةِ سَنَةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي
الْفَتْوحَاتِ إِلَّا سَلَامِيَّةً وَكَيْفَ كَانَ اسْتِبْلَاؤُهُمْ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ لثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ
وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا
سِرُّهَا أَسْمَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْعَادًا بِالْإِيمَانِ وَمَا أَوْفَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ
عَدُوِّهِمْ مِنَ الرُّعْبِ وَالتَّخَذُّلِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ الْمُقَرَّرَةِ فِي مَطَاوَلَةِ الدُّوَلِ
الْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقَرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ
الْمُتَعَارِفِ ظُهُورُهَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمُعْجَزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ الْعَادِيَّةُ وَلَا
يُعَارِضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات
إِذْ عُلِمَ أَنََّّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بَدَّ لَهَا مِنَ الرِّفْقِ
فِي مَلَكَتِهَا وَلَا اعْتِدَالٍ فِي إِيَالَتِهَا إِمَّا مِنْ الدِّينِ إِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنْ
الْمَكَارَمَةِ وَالنَّحَاسَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْبِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتْ الْمَلَكََةُ
رَفِيقَةً خَسَنَةً انْبَسَطَتْ أَمَالُ الرِّعَايَا وَانْتَشَطُوا لِلْعُمُرَانِ وَأَسْبَابُهُ تَتَوَفَّرُ وَيَكْثُرُ التَّنَاسُلُ
وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الْأَقْلِ وَفِي
انْقِضَاءِ الْجِيلَيْنِ تُشْرِفُ الدَّوْلَةُ عَلَى نِهَايَةِ عُمْرِهَا الطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينئِذٍ الْعُمُرَانُ فِي
غَايَةِ الْوُفُورِ وَالنَّمَاءِ وَلَا نَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ يَكُونُ فِيهَا إِلَّا جَفَافٌ
بِالرِّعَايَا وَسُوءُ الْمَلَكََةِ فَذَلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْنَا لِأَنَّ الْأَجْفَافَ وَإِنْ حَدَثَ
حِينئِذٍ وَقَلَّتِ الْجَبَايَا فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ التَّدْرِيجِ

فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ الْجَمَاعَاتِ وَالْمَوْتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلِ
وَالسَّبَبُ فِيهِ إِمَّا الْجَمَاعَاتُ فَلِقَبْضِ النَّاسِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْقُلُحِ فِي الْأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَفْعُ
فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْعُدُونِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ أَوْ الْفِتَنِ الْوَاتِعَةِ فِي انْتِقَاصِ الرِّعَايَا
وَكثْرَةِ الْخَوَارِجِ لَهُمْ الدَّوْلَةُ فَيَقِلُّ احْتِكَارُ الزَّرْعِ غَالِبًا وَلَيْسَ صِلَاحُ الزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ
بِمُسْتَمَرِّ الوجودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ الْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ
وَالْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضَعُفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَالزَّرْعُ وَالتِّيمَارُ وَالضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ
النَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَانِهِمْ بِالْإِحْتِكَارِ فَإِذَا فَقِدَ الْإِحْتِكَارَ عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلْجَمَاعَاتِ
فَغَلَا الزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أُولُو الْخِصَاصَةِ فَهَلَكُوا وَكَانَ بَعْضُ السَّنَوَاتِ الْإِحْتِكَارَ مَقْفُودًا
فَشَمَلَ النَّاسُ الْجُوعُ وَأَمَّا كَثْرَةُ الْمَوْتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ الْجَمَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ
أَوْ كَثْرَةِ الْفِتَنِ لِاخْتِلَالِ الدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ الْمَرْجُ وَالْقَتْلُ أَوْ وَفُوعُ الْوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي
الْغَالِبِ فِسَادُ الْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الْعَفَنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ
وَإِذَا فَسَدَ الْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَمُلَاسِسُهُ دَائِمًا فَيَسْرِي الْفَسَادُ إِلَى
مَزَاجِهِ فَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ الْمَرَضُ فِي الرِّثَّةِ وَهَذِهِ هِيَ الطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا
مَخْصُوصَةٌ بِالرِّثَّةِ وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ دُونَ الْقَوِيِّ وَالْكَثِيرِ فَيَكْثُرُ الْعَفَنُ وَيَتَضَاعَفُ
فَتَكْثُرُ الْحُمَمَاتُ فِي الْأَنْزَجَةِ وَتَمْرَضُ الْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَفَنِ وَالرُّطُوبَاتِ
الْفَاسِدَةِ فِي هَذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ الْعُمْرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرُ الدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ
الْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ الْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهَذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ
تَخَلُّلَ الْخِلَاءِ وَالْقَفْرِ بَيْنَ الْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ تَمْوُجُ الْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي
الْهَوَاءِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْعَفَنِ بِمُخَالَطَةِ الْحَيَوَانَاتِ وَيَأْتِي بِالْهَوَاءِ الصَّحِيحِ وَلِهَذَا أَيْضًا فَإِنَّ
الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمَدَنِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمْرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كَمَصْرِ بِالْمَشْرِقِ
وَفَاسَ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينظم بها امره

اعلم أَنَّهُ قَدْ نَقَدَّمْ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْأَجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى
الْعُمْرَانِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي الْأَجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ

إِلَيْهِ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنَدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجِبُ اتِّقَادَهُمْ
إِلَيْهِ إِيْمَانُهُمْ بِالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبْلَغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوجِبُ
اتِّقَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابِ ذَلِكَ الْحَاكِمِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ فَلَاوَلَى
يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَلِمُرَاعَاتِهِ نَجَاةَ
الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةُ إِنَّمَا يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ
الْمَدْنِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْجُمُوعِ فِي نَفْسِهِ وَخَلْقِهِ حَتَّى يَسْتَغْنُوا عَنْ الْحُكَمَاءِ رَأْسًا
وَيُسَمُّونَ الْجُمُوعَ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ مَا يُسَمَّى مِنْ ذَلِكَ بِالْمَدْنِيَّةِ الْفَاصِلَةِ وَالْقَوَانِينِ
الْمُرَاعَاةِ فِي ذَلِكَ بِالسِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ وَلَيْسَ مُرَادُهُمُ السِّيَاسَةَ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ
الْاجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ وَهَذِهِ الْمَدْنِيَّةُ الْفَاصِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ
بَعِيدَةٌ لَوُفُوعٍ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرَضِ وَالْتَقْدِيرِ ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ
الَّتِي قَدَّمَائِهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا يُرَاعَى فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحُ
السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفَرَنْسِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ
الْحِكْمَةِ وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلِعَهْدِ الْخِلَافَةِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ
مُغْنِيَةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَةِ وَأَحْكَامُ الْمَلِكِ مُنْدرِجَةٌ فِيهَا. أَلَوْجُهُ الثَّانِي
أَنْ يُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمُلْكُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَتَكُونُ
الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ الَّتِي لِسَائِرِ
الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا نَقَضِيهِ
الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِحَسَبِ جُهْدِهِمْ فَقَوَانِينُهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ وَادَابِ
خَلْقِيَّةٍ وَقَوَانِينِ فِي الْاجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ مِنْ مُرَاعَاةِ الشُّوْكَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ ضَرُورِيَّةٍ
وَالْإِقْتِدَاءِ فِيهَا بِالشَّرْعِ أَوَّلًا ثُمَّ الْحُكْمَاءِ فِي آدَابِهِمْ وَالْمُلُوكِ فِي سِيرِهِمْ وَمِنْ أَحْسَنِ
مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ وَأَوْدَعَ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وَلَاهُ
الْمَأْمُونُ الرِّقَّةَ وَمِصْرَ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو طَاهِرٍ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ عِنْدَ إِلَيْهِ
فِيهِ وَوَصَّاهُ بِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانَتِهِ مِنَ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْخَلْقِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ
الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوكِيَّةِ وَحَثَّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّيْءِ بِمَا لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مُلْكٌ

وَلَا سَوْقَةً. وَنَصُّ الْكِتَابِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدِّهِ
لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ آيَاتِهِ سَخَطُهُ وَاحْظَرْ رَعِيَّتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْزَّمْ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْفُوفٌ عَلَيْهِ
وَمُسْتَوْفٍ عَنْهُ وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصُمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
عِقَابِهِ وَالْيَمُّ عَذَابُهُ فَإِنَّ اللَّهَ مُبْجِحَانُهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ مِنْ أَسْرَعَاكَ
أَمْرُهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَالزَّمْكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالِدْفَعُ
عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالْأَذْنَ لِسِرِّهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ
وَمَوْأَدُكَ بِمَا فُرِضَ عَلَيْكَ وَمَوْفِقُكَ عَلَيْهِ وَسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُثْبِتُكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ
فَفَرَّغْ لِدَلِّكَ فِهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصَرَكَ وَلَا يُشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمَلَاكَ
شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَلْزَمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فَعَلَّكَ
الْمَوَاطَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَاةِ الْخُمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ
قَبْلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتْلِ
فِي قِرَاءَتِكَ وَتَدْمِكُنْ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهَدُكَ وَتَلْتَصِرْفُ فِيهِ رَأْيَكَ وَنَيْتَكَ
وَأَحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مَعْنٍ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَأَدَّابَ عَائِيهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَالْمُتَابَرَةِ عَلَى خُلَاقِهِ وَافْتِتَاحِ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ نَاسَعٌ
عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبَازُومٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرٍ
وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَائْتِمَامٍ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ثُمَّ فَمُ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ
مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ الْفَقْهَ وَآهْلَهُ وَالِدِينَ وَحَدَّثَتَهُ وَكِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ
بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ وَالطَّابُّ لَهُ وَنَحْتُ عَلَيْهِ وَالِدَعْرِفَةُ
بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِهِ وَالنَّاهِي
عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزْدَادُ الْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَاجْتِلَالًا
لَهُ وَدَرَكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالْيَمِينَةِ
لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنَسَةِ بِكَ وَالْفَقْهَ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ

نَفْعًا وَلَا أَخْصَ أَمْنًا وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنْهُ وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى
 التَّوْفِيقِ وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقِيَامُ الدِّينِ وَالسَّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ وَكَذَا فِي
 دُنْيَاكَ كُلِّهَا وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالْآخِرِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ
 وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ وَالْإِعَانَةِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْبَرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ إِذَا كَانَ يُطْلَبُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ
 تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ وَمِرَافَقَةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا
 يُورِثُ الْعِزَّ وَيُمَحِّصُ مِنَ الذُّنُوبِ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ مِنْ قَائِلٍ وَلَا تَنْصَلِحَ أُمُورَكَ
 بِأَفْضَلِ مَنْهُ فَإِنَّهُ وَاهْتَدِ بِهِ نَتِمَّ أُمُورُكَ وَتَزِدْ مَقْدَرَتَكَ وَتَصْلَحَ عَامَّتُكَ وَخَاصَّتُكَ وَأَحْسِنِ
 ظَنِّكَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسْتَقِمَّ لَكَ رِعْيَتُكَ وَالتَّمَسُّبُ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا تَسْتَدِمُّ
 بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَلَا تُتِمِّنَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا نُؤَلِّيهِ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ
 أَمْرَهُ فَإِنَّ إِبْقَاعَ النَّهْمِ بِالْبِرِّ وَالظُّنُونِ الْبَسِيطَةِ بِهِمْ أَثَمٌ إِثْمٌ فَأَجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حَسَنَ
 الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ وَارْزُقْهُمْ فِيهِمْ بَعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِمْ
 وَرِضَاتِهِمْ وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِكَ مَغْمَرًا فَإِنَّهُ يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنْ
 وَهْنِكَ وَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَنَمِ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ مَا يُنْقِصُ لَدَاذَةِ عَيْشِكَ وَاعْلَمْ أَنَّكَ
 تَجِدُ بِحَسَنِ الظَّنِّ قُوَّةَ وَرَاحَةٍ وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ وَتَدْعُو بِهِ
 النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ وَالِاسْتِيقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَلَا يَمْنَعُكَ حَسَنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ
 وَالرَّأْفَةُ بِرِعْيَتِكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئَلَةَ وَتَبْحَثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ
 وَحَيَاطَةَ الرَّعِيَّةِ وَالنَّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمْلَ مَوَاقِفِهِمْ أَيْسَرُ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ
 فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ وَأَحْيَا لِلسَّنَةِ وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا وَتَفَرَّدَ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ
 تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَوَلٌّ عَمَّا صَنَعَ وَتَجَزَّى بِمَا أَحْسَنَ وَمُواخَذُ بِمَا أَسَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
 وَجَلَّ جَعَلَ الدِّينَ حَزْرًا وَعِزًّا وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ وَأَسْلَكَ بَيْنَ تَسْوِسُهُ وَتَرْعَاهُ
 نَهْجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهَدْيِ وَأَقَمَ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ
 وَمَا اسْتَحَقُّوه وَلَا تُعْطَلْ ذَلِكَ وَلَا تَتَهَاوَنَ بِهِ وَلَا تُؤَخَّرْ عِقُوبَةُ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ فَإِنَّ فِي
 تَقَرُّبِكَ فِي ذَلِكَ مَا يَفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ وَأَعْتَزِّمَ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ
 الْمَعْرُوفَةِ وَجَانِبِ الْبِدْعِ وَالشُّبُهَاتِ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ وَنَقَمٌ لَكَ مُرُوتُكَ وَإِذَا عَاهَدْتَ
 عَهْدًا فَأَوْفِ بِهِ وَإِذَا وَعَدْتَ خَيْرًا فَأَنْجِزْهُ وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ وَأَدْفَعْ بِهَا وَأَغْمِضْ عَنْ عَيْبِ

كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَشَدُّ لِسَانِكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَأَبْغَضُ
أَهْلِ النَّمِيْمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآخِرُهَا تَقْرِيْبُ الْكَذُوبِ وَالْجُرْءَةِ
عَلَى الْكَذِبِ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَأْتِمِ وَالزُّورُ وَالنَّمِيْمَةُ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ النَّمِيْمَةَ لَا
يَسْلُمُ صَاحِبُهَا وَقَاتِلُهَا لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَخْبِيْبُ أَهْلِ الصَّلَاحِ
وَالصِّدْقِ وَأَعَزُّ الْأَشْرَافِ بِالْحَقِّ وَأَسِ الضُّعَفَاءِ وَصِلِ الرَّحِمَ وَأَبْغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ
تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَالتَّمَسُّنَ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ وَأَجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورِ
وَأَصْرِفْ عَنْهُمَا رَايَكَ وَأَظْهِرْ بِرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ
وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهَدَى وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ
وَأَثِرِ الْحَمْلِ وَالْوَقَارِ وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْعُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ
أَنَا مُسْلِمٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى تَقْصُرِ الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الْيَقِيْنِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَأَخْلَصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ النَّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِيْنَ بِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَلِكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَكِنْ تَجِدُ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةٍ
النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ
وَأَسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعَوْا عَنْكَ شَرَّ نَفْسِكَ وَلَمْ يَكُنْ ذَخَائِرُكَ
وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدْخِرُ وَتَكْنِزُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ الرِّعْيَةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمُ وَالتَّنْفِذَ
لِأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَالْإِعَانَةَ لِمَلِكُوهُمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتُنِزَتْ وَادْخُرَتْ
فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صِلَاحِ الرِّعْيَةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْأَذْيَةِ
عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرْتَبَتْ بِهَا الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتَقَدَ
فِيهَا الْعَزُّ وَالْمَنْفَعَةُ فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ
وَوَقْرٍ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حُقُوقُهُمْ وَأَوْفِ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَعَهَّدْ مَا
يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّبْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَاسْتَوْجَبْتَ الزَّمَانَ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَجِكَ وَجَمْعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرُ
وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِمَا عَمَلْتَ وَأَطِيبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا
أَرَدْتَ وَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّثَكَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلْيُعْظَمْ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ
الْمَالِ مَا انْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْرِفَ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَانْتَبِهْ عَلَيْهِمْ وَإِيَّاكَ أَنْ

تُسَبِّحُكَ الدُّنْيَا وَغُرُودُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ فَتَنْتَهَوْنَ بِمَا يُحِقُّ عَلَيْكَ فَإِنَّ التَّهَوُّنَ يُورِثُ التَّفَرِّيطَ
وَالْتَّفَرِّيطَ يُورِثُ الْبَوَارَ وَلَيْسَ كُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَرْجُ الثَّوَابَ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَأَعْتَصِمَ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ بِزِدِكَ اللَّهُ خَيْرًا
وَإِحْسَانًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَإِحْسَانَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا
تُحَقِّرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تُمَالَنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا وَلَا تَتَصَلَّ كَفُورًا وَلَا تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا
وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا وَلَا تَوَالِ الْيَنَافِسَةَ وَلَا تُتَبِعَنَّ غَاوِيًا وَلَا تَحْمَدَنَّ
مُرَائِيًا وَلَا تُحَقِّرَنَّ إِنْسَانًا وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تُحْسِنَنَّ بَاطِلًا وَلَا تَلَاظِمَنَّ مُضْحِكًا
وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا وَلَا تَزْهَوَنَّ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا وَلَا تُبَايِنَنَّ رَجَاءً وَلَا تَمُشِينَ مَرْحًا
وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّمَامِ عَيْنًا وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ
أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ وَأَسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ
بِالْحِلْمِ وَخُذْ عَنِ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي
مَشُورَتِكَ أَهْلَ الرِّقَّةِ وَالْبُخْلِ وَلَا تَسْمَعْ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِيهِ أَمْرٌ رَعَيْتَكَ مِنَ الشَّيْءِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا
كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ
أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْقُدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ
عَلَيْهِمْ وَابْتِدِئْ مَنْ صَافَاكَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنِ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ وَاجْتَنِبِ
الشَّيْءَ وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى الْإِنْسَانُ بِهِ رَبَّهُ وَإِنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْ
لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ قَيْتِكَ حَقًّا وَنَصيبًا وَابْقِنَنَّ الْجُودَ أَفْضَلَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَأَعِدْهُ لِنَفْسِكَ
خَلْقًا وَأَرْضًا بِهِ عَمَلًا وَمَنْهَبًا وَتَفَقَّدِ الْجُنْدَ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَسْكَاتِهِمْ وَأَدِرَّ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ
وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ يُذْهِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاقْتَتَهُمْ فَيَقْوَى لَكَ أَمْرُهُمْ وَتَزِيدَ
قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرُكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا وَحَسْبُ ذِي السُّلْطَانِ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ
يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَا رَحْمَةٍ فِي عَدْلِهِ وَحَيْطَتِهِ وَإِنْصَافِهِ وَعِنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ
وَتَوْسِعَتِهِ فَرَايِلَ مَكْرُوهَةِ أَحَدِ الْبَالِبِينَ بِأَسْتِشْعَارِ فَضِيلَةِ الْبَابِ الْآخِرِ وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ
تَلَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ

الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعْدِلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي
الْأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلَحُ أَحْوَالُ الرَّعِيَّةِ وَتَأْتِي السُّبُلُ
وَيَتَنَصَّفُ الْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ الدَّعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ الطَّاعَةِ
وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْعَاقِبَةَ وَالسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ الدِّينَ وَيُجَرِّي السَّنَنَ وَالشَّرَائِعَ فِي تِجَارِيهَا وَاشْتَدَّ
فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النُّطْفِ وَأَنْصَحَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَأَقْبَلَ الْعِجْلَةَ وَأَبْعَدَ
عَنِ الصَّجْبِ وَالْقَلْقِ وَأَفْنَعَ بِالْقِسْمِ وَأَنْتَفَعَ بِتِجَارَتِكَ وَأَنْتَبَهَ فِي صَمْتِكَ وَأَسَدَّدَ فِي مَنْطِقِكَ
وَأَنْصَفَ الْخَصْمَ وَقَفَّ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَأَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ
مُحَابَاةً وَلَا مُجَامَلَةً وَلَا لَوْمَةً لِأَمْرِ وَثَبَّتَ وَتَأَنَّنَ وَرَاقِبَ وَأَنْظَرَ وَتَنَكَّرَ وَتَدَبَّرَ وَاعْتَبَرَ
وَتَوَاضَعَ لِرَبِّكَ وَارْتَفَعَ بِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ وَسَاطِئِ الْحَقِّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَنَكِ
دَمٍ فَإِنَّ الدِّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُمْكِنُ عَظِيمُ أَنْتَهَا كَمَا لَمَّا بَغِيرَ حَقِّهَا وَأَنْظُرْ هَذَا
الْخَرَجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرَّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرَفْعَةً وَلِأَهْلِهِ
تَوْسِعَةً وَنِعْمَةً وَلَعْدُوهُ وَعَدُوَّهُمْ كِتَابًا وَغِيظًا وَلِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا
فَوَزَعَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ
لشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ لِعِزِّهِ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَتِكَ وَلَا
تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْأَحْتِمَالِ وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَاحِلُ النَّاسِ كُلُّهُمْ
عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعٌ لِنَفْسِهِمْ وَأَلْزَمُ لِرِضَاءِ الْعُلَمَاءِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ
خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ لِأَنَّكَ رَاعِيَهُمْ وَقِيمَهُمْ فَخُذْ
مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفْذِهِ فِي قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَنَفْقِهِمْ أَوْدِهِمْ وَأَسْتَعْمِلْ
عَلَيْهِمْ أُولِي الرَّأْيِ وَالتَّذَكُّرِ وَالتَّجَرُّبَةِ وَالتَّخْبَرَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعِفَافِ وَوَسِّعْ
عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ الْحَقُوقِ الْإِلَازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ وَأَسْنَدَ إِلَيْكَ فَلَا
يُشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى أَثَرْتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ
أَسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ الْأَحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ وَاجْتَرَرْتَ بِهِ
الْمُحِبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتْ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتْ الْخَيْرَاتُ بِإِدْرِكَ وَفَشَتْ الْعِمَارَةُ
بِنَاجِيَتِكَ وَظَهَرَ الْخُصْبُ فِي كُورِكَ وَكَثُرَ خَرَجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أُمُوكَ وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى
ارْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعُلَمَاءِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكَانَتْ مَحْجُودَ السِّيَاسَةِ

مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكَذَتْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعِدَةٍ
 فَنَافَسَ فِي ذَلِكَ وَلَا تَقْدِمَ عَلَيْهِ شَيْئًا تُحَمَّدَ عَاقِبَةُ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاجْعَلْ فِي
 كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَلِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِرِّهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ
 حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ
 فَأَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَاقِبَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ
 حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالشَّنْعَ فَأَمُضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ
 فِيهِ عِدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدَرَهُ وَأَنَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَاعْجَبَهُ
 فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنُقِضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَاسْتَغْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ
 وَبَاشِرُهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرْ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ
 وَأَفْرَغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لَعْدِكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لَلْغَدِ أُمُورًا وَحَوَادِثَ
 تُلْهِيكُ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي آخَرْتَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا
 آخَرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَثْقُلُكَ ذَلِكَ حَتَّى تَمْرُضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمُضْتَ
 لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أُرْحَتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَأَنْظُرْ أَخْرَارَ النَّاسِ
 وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيلَتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتِهِمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتِهِمْ
 بِالنُّصْحِ وَالْحِفَافَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبَيُوتَاتِ مِمَّنْ
 قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ الْحَاجَةُ وَاحْتَمَلُوا مَوْتَهُمْ وَأَصْلَحَ حَالُهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِحَافَتِهِمْ مَسًّا
 وَأَفْرُدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ
 وَالْمُحَقَّرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلْ عَنْهُ أَحْفَى مَسْئَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ
 مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرُفَّهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ لِيَنْتَظِرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ
 وَتَعَاهَدْ ذَوِي الْبِائِسَاءِ وَابْتِمَائِهِمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَاةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ
 عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَاتٍ وَزِيَادَةً وَأَجْرًا لِلْأَضْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمِ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ
 مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجَرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَنْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا
 تَأْوِيهِمْ وَقَوَامًا يَرْفِقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفُهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ
 ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ

لَمْ يُرْضِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِيبْ أَنْفُسَهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وَلَا تَهْمُ طَمَعًا فِي نَيْلِ
الْزِيَادَةِ وَفَضْلِ الرَّفْقِ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا تَبَرَّمِ الْمُتَصَفِّحِ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ
وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ وَذَهْنَهُ فِيهَا مَا يَبْأَلُهُ بِهِ مِنْ مَوْثِقَةٍ وَمَشَقَّةٍ وَلَيْسَ مَنْ يَرَعُبُ فِي الْعَدْلِ
وَيَعْرِفُ مُحَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يَقَرُّ بِهِ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى وَبِلَتَمِسُ رَحْمَتَهُ وَأَكْثَرَ الْأَذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرَزَ لَهُمْ وَجْهَكَ وَسَكَنَ
لَهُمْ حَوَاسِكَ وَأَخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ بَشْرَكَ وَلَنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ
وَأَعْطَفَ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ وَإِذَا أَعْطَيْتَ فَأَعْطِ بِسَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسَ وَالنَّاسِ
لِلصَّنِيعَةِ وَالْآخِرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا أَمْتِنَانِ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ
وَالرَّيَّاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأَمْرِ الْبَائِدَةِ ثُمَّ اعْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مُحَبَّتِهِ وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتِنَابِ
مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا إِلَى سُخْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَّالَكَ مِنْ
الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا تَجْمَعُ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافًا وَأَكْثَرَ مُجَاسَلَةِ الْعُلَمَاءِ
وَمُشَاوَرَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَلَيْسَ كُنْ هَوَاكَ أَتْبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
وَمَعَالِيهَا وَلَيْكُنْ أَكْثَرُ دُخْلَانِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْبًا فِيكَ لَمْ تَمْنَعَهُ
هَيْبَتِكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ فَإِنَّ أَوَّلِيكَ أَنْصَحُ
أَوَّلِيَانِكَ وَمُظَاهَرُونَ لَكَ وَأَنْظُرْ عُمَّالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكِتَابِكَ فَوْقَ لِكُلِّ
رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ
عُمَّالِكَ وَأُمُورِ الدَّوْلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُوْرِدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصْرَكَ وَفَهْمَكَ
وَعَقْلَكَ وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ وَاسْتَخْرِ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالِفًا لِذَلِكَ فَأَصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْئَلَةِ عَنْهُ وَالتَّثَبُّتِ فِيهِ وَلَا تَمْتَنِ
عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفِ تَوْثِيهِ إِلَيْهِمْ وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْوَفَاءَ وَالْإِسْقَامَةَ
وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ وَتَهْمَنَّ كِتَابِي
إِلَيْكَ وَأَنْعِمِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّالِحِ وَاهْلِهِ وَلَيْكُنْ أَكْثَرُ سِرِّتِكَ وَأَفْضَلُ رَعِيَّتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ

الْمُنْكَرُونَ كَمَا نَذَرَهُ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى
 التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْمًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ بِغَلَّةٍ أَوْ إِسْوَاءٍ حَفْظٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ
 سُوءٍ رَأَيْ تَطَرَّقَ ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلُ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ
 إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحِينَ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ فِي الْأَمَّةِ عَلَى تَلْقِيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ
 بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ حِمَايَةٍ وَأَحْسَنُ دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحِينَ بِمِثَابَتِهِمَا
 فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجِدُ مَجَالَ الْكَلَامِ فِي أَسَانِيدِهَا بِمَا نُقِلَ عَنْ أَيْمَةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ.
 وَلَقَدْ تَوَعَّلَّ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْشَمَةَ عَلَى مَا نُقِلَ السَّمِيعِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ لِلْحَادِثِ
 الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرِبِهَا إِسْنَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ فِي فَوَائِدِ
 الْأَخْبَارِ مُسْتَنَدًا إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَذَبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَبَ بِالْجَلَّالِ فَقَدْ كَذَبَ
 وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَا حَسِبُ وَحَسِبُكَ هَذَا غُلُوءًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافَ عِنْدَهُمْ مَتَّهِمٌ وَضَاعٌ.
 وَأَمَّا الثَّرْمُذِيُّ فَخَرَجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ يَسْنُدُهُمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمٍ بْنِ أَبِي
 النُّجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرَّارِ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ
 رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ يَتِي يُوَاطِي أُسْمُهُ أَسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ أَسْمُ أَبِي هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ
 وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ
 وَلَفْظُ الثَّرْمُذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ يَتِي يُوَاطِي أُسْمُهُ أَسْمِي
 وَفِي لَفْظٍ آخَرَ حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ يَتِي وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضًا
 مِنْ طَرِيقٍ مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ
 أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ وَطَرَفُ عَاصِمٍ عَنْ زُرَّارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ عَلَى
 مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْأَحْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ (إِنْتَهَى) إِلَّا
 أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثَقَّةً وَالْأَعْمَشُ
 أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيتِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْأَعْمَشُ كَانَ يَخْتَلِفُ
 عَلَيْهِ فِي زُرَّارٍ وَأَبِي وَائِلٍ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رَوَاتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ

كَانَ ثَقَّةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ أَضْطَرَابُ
 وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنْ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثَقَّةٌ فَقَالَ
 لَيْسَ مَحَلُّهُ هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُثَيْمٍ فَقَالَ كُلُّ مَنْ أَسَمَهُ عَاصِمٌ سَيِّئٌ الْخَفِظُ
 وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصِّدْقِ صَالِحُ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْخَفِظُ
 وَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حَرَّاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكْرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ
 الْعُقَيْلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ الْخَفِظِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى
 الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلًا أَسَمَهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْخَفِظِ وَقَالَ أَيُّضًا سَمِعْتُ
 شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النُّجُودِ وَفِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبَتَ فِي
 الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَإِنْ أَخْتَجَّ أَحَدٌ بَأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَقُولُ أَخْرَجَاهُ
 مَقْرُونًا بغيرِهِ لَا أَصْلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ
 رِوَايَةِ قُطْنِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مَرْثَةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي بِمَآلِهَا
 عَدْلًا كَمَا مَلِئْتُ جَوْرًا وَقُطْنُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثِقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى ابْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ
 مُعِينٍ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعُقَيْلِيَّ قَالَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيِيعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ابْنُ
 مُعِينٍ مَرَّةً ثَقَّةٌ شَيْعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قُطْنٍ وَهُوَ مَطْرُوحٌ
 لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَادَعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ لَا يُخْتَجُّ
 بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ
 زَائِعٌ غَيْرُ ثَقَّةٍ انْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيُّضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ
 ابْنَ الْمَغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّسَفِيِّ
 قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرْتُ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ إِنْ أَبْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي
 الْخُلُقِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مَطْرِفِ بْنِ طَرِيفٍ
 عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ عَلَى مَقْدَمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنصُورٌ يُوْطَى
 أَوْ يُمْكَنُ لَالٍ مُحَمَّدٌ كَمَا مَكَنَّتُ فُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي
 هَارُونَ هُوَ مِنْ وَلَدِ الشَّيْبَةِ وَقَالَ السُّلَيْمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ
 لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأٌ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ صَدَقَ لَهُ أَوْهَامٌ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبِيُّ وَإِنْ
 خَرَجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِينَ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمُرِهِ وَرَوَاتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةٌ
 وَكَذَلِكَ رَوَاةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمَغِيرَةِ . وَأَمَّا السُّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ
 وَهَلَالُ بْنُ عُمَرَ مَجْهُولَانِ وَلَمْ يَعْرِفْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رَوَاةٍ مُطَرَفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ
 أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرِيقِ عَلِيٍّ
 ابْنَ نَقِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا
 غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ لَا يُتَابِعُ عَلِيُّ بْنُ نَقِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا بِهِ
 وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رَوَاةٍ صَالِحَةٍ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ
 أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِبًا
 إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ وَهُوَ كَارِهٌ فَيَبَايَعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ
 فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخَفِّفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسُ
 ذَلِكَ أَنَّهُ أَنْدَالَ أَهْلُ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيَبَايَعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ
 أَخْوَالُهُ كَلْبٌ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثًا فَيُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثُ كَلْبٍ وَالْحَبِيبَةُ لِمَنْ لَمْ
 يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ الْمَالُ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسَنَةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَيَأْتِي الْأَسْلَامُ بِجِرَّانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبَثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ
 أَبُو دَاوُدَ مِنْ رَوَاةٍ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ
 الْمُبْهَمُ فِي الْأَسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِينَ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَعْمَرٌ وَقَدْ
 يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رَوَاةٍ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ وَقَتَادَةُ مُدَلِّسٌ وَقَدْ غَنَّعَهُ وَالْمُدَلِّسُ لَا يَقْبَلُ
 مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صَرَّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَضَرُّعٌ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ
 نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبِيهِ وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا وَتَابِعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
 الْحَذَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجَلُ الْجِبَةِ أَقْنِي

الْأَنْفَ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُمْ ظُلْمًا وَجَوْرًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ هَذَا لَفْظُ
أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ الْمَهْدِيِّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَشْمُ الْأَنْفِ أَفْنَى أَجَلِي
يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُمْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعِيشُ هَكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَهُ
وَإِصْبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهِ السَّبَابَةَ وَالْأَيْهَامَ وَعُقْدَ ثَلَاثَ قَالِ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ
عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجْهُ ١٠٠ هـ. وَعَمْرَانُ الْقَطَّانُ مُخْتَلَفٌ فِي الْأَحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ
لَهُ الْبُخَارِيُّ أَسْنَشَهُادًا لَا أَصْلًا وَكَانَ يَحْيَى الْقَطَّانُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ
لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَ
الْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرْعَةَ كَانَ حَرُورِيًّا وَكَانَ يَرَى السَّيْفَ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلَةِ وَقَالَ
النِّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْأَجَرِيُّ سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ
وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ يَفْتَوِي شَدِيدَةً فِيهَا سَفَكُ الدِّمَاءِ وَخَرَجَ التُّرْمُذِيُّ وَأَبْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ الْعَمِيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقٍ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
الْخُدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَّثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِنْ فِي أَمِّي الْمَهْدِيِّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا زَيْدُ الشَّائِكُ قَالَ قُلْنَا وَمَا ذَاكَ
قَالَ سِنِينَ قَالَ فَيُجِيءُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُ اعْطِنِي قَالَ فَيَحْتَوِلُهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ
يَحْمِلَهُ لَفْظُ التُّرْمُذِيِّ وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أَمِّي الْمَهْدِيِّ إِنْ قَصَرَ
فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ فَتَنْعَمُ أُمِّي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ ثَوَّتِي الْأَرْضُ أَكْلَهَا وَلَا
يُدْخِرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كَدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُ اعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ
إِنْتَهَى وَزَيْدُ الْعَمِيِّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ الدَّارُ قُطْنِي وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ
وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدَ الرِّقَاشِيِّ وَفَضْلُ ابْنِ عَسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيفٌ
يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى لَا شَيْءَ وَقَالَ مَرَّةً
يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ مُتَمَاسِكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيٍّ وَاهِي
الْحَدِيثِ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ
وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ عَامَّةٌ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضَعْفَاءُ عَلَيَّ أَنْ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ

شُعْبَةَ لَمْ يَرْوُ عَنْ أَضْعَفَ مِنْهُ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ التُّرْمُذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ
 فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي
 خَلِيفَةٌ يَحْتَوِ الْمَالَ حَتَّى لَا يَبْعُدَ عَدَا وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ
 يَحْتَوِ الْمَالَ حَتَّى وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ
 وَلَا يَبْعُدُ أَنْتَهَى وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ
 مِنْهَا وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ عَوَفٍ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّجَّاجِيِّ عَنْ أَبِي
 سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُمْلَأَ الْأَرْضُ
 جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدُونًا ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْ أَهْلِ بَيْنِي رَجُلٌ يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلَّتْ ظُلْمًا
 وَعُدُونًا وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ هَذَا صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجْ جَاهُ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ
 أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّجَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُخْرِجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ
 وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ نَبَاتَهَا وَيُعْطِي الْمَالَ صِحَابَهَا وَتَكْثُرُ الْأَمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ الْأُمَمَةُ يَعْلَمُ سَبْعًا
 أَوْ ثَمَانِيًا يَعْنِي حُجَجًا وَقَالَ فِيهِ حَدِيثُ صَحِيحِ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجْ جَاهُ مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ
 عُبَيْدٍ لَمْ يُخْرِجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثَّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحَدًا
 تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ
 مَطَرِ الزُّرَّاقِيِّ وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّجَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ عَتَرَتِي
 فَيَمْلَأُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مِلَّتْ جَوْرًا وَظُلْمًا وَقَالَ الْحَاكِمُ
 فِيهِ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ شَيْخِهِ
 مَطَرِ الزُّرَّاقِيِّ وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ
 جِدًّا مَتَّهَمٌ بِالْكَذِبِ وَلَا جَازِمَةٌ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ وَأَمَّا الرَّايُّ لَهُ
 عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يَلْقَبُ أَسَدَ السَّنَةِ وَإِنْ قَالَ الْبُخَارِيُّ مَشْهُورُ
 الْحَدِيثِ وَأَسْتَشْهَدُ بِهِ فِي صَحِيحِهِ وَاحْتِجَّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى
 ثِقَةً لَوْ لَمْ يُصَنَّفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ
 فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْأَوَّاصِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ

النَّاجِي عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحَدِ بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ
 رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُخْرَجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي يَقُولُ يَسْتَقِي يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَتُخْرَجُ الْأَرْضُ بِرُكَّتَيْهَا وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا
 مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعْدِلُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيَنْزِلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالَ
 الطَّبْرَانِيُّ فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي
 سَعِيدٍ أَحَدًا إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنْتَهَى وَهَذَا
 الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يَعْرِفْهُ بَأْ كَثَرٍ مِمَّا فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ
 رَوَاتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَرَوَايَةِ أَبِي الصَّدِّيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ إِنَّهُ يَجْهَلُ
 لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ فَلَمْ
 يُخْرَجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ
 يَرْوَى عَنْ أَنَسٍ رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَابُ بْنُ بُشَيْرٍ وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
 قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ فَتِيَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا
 رَأَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالُ نَرَى
 فِي وَجْهِكَ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَقَالَ إِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّ أَهْلَ
 بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِبُوا وَتَطْرِبُوا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ
 رَايَاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الْحَبَرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيَقَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا
 فَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهُمْ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطًا كَمَا مَلَأُهَا جَوْرًا
 فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَكْتُمْهُمْ وَلَوْ حَبَا عَلَى الثَّلْجِ أَنْتَهَى . وَهَذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ
 عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّاكِبِ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ رَوَاهُ فِيهِ شُعْبَةُ كَانَ رَفَاءً
 يَعْنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ مِنْ كِبَارِ أَيْمَةِ
 الشَّيْبَةِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ وَقَالَ يَحْيَى
 ابْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ جَائِزُ الْحَدِيثِ وَكَانَ بِآخِرِهِ يَلْقَنُ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ
 بِكُتُبِ حَدِيثِهِ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ الْجَرَجَانِيُّ سَمِعْتُهُمْ
 يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَرَكَ حَدِيثَهُ وَغَيْرُهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ وَقَالَ

ابْنُ عَدِيٍّ هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضَعْفِهِ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ
 لَكِنْ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا كَثْرُونَ عَلَى ضَعْفِهِ وَقَدْ صَرَحَ الْأَيْمَةُ بِتَضْعِيفِ
 هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عُلُقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرِّايَاتِ وَقَالَ
 وَكِيعُ بْنُ الْجُرَّاحِ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْتُ
 أَبَا سَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرِّايَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا
 أَسَامَةُ مَا صَدَّقْتُهُ أَهَذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ أَهَذَا مَذْهَبُ عُلُقَمَةَ أَهَذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ وَأُورِدَ
 الْعُقْلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي الضَّعْفَاءِ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعُجْلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُصَلِّحُ اللَّهُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ وَيَاسِينَ الْعُجْلِيُّ
 وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ أَصْطِلَاحِهِ
 قُوَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جَدًّا وَأُورِدَ لَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ وَالذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ هَذَا
 الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ الْأِسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ
 عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِنَّا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا
 يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ بَلْ مِنَّْا يَا نَحِيْمُ اللَّهُ كَمَا بَنَّا فَتَحَ وَبَنَّا يَسْتَفْقِدُونَ مِنَ الشَّرِكِ وَبَنَّا
 يُؤَلِّفُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عِدَاوَةِ بَيْنِهِ كَمَا بَنَّا أَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عِدَاوَةِ الشَّرِكِ قَالَ
 عَلِيٌّ أُمُومُونُ أَمْ كَافِرُونَ قَالَ مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ أَنْتَ هُوَ وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُحَيْعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ
 مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيُّ وَهُوَ أَوْضَعُ مِنْهُ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
 رَوَى عَنْ جَابِرٍ مِنْ أَكْثَرٍ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ لَيْسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ ابْنُ
 لُحَيْعَةَ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ عَلِيٌّ فِي السَّحَابِ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِرُ
 سَحَابَةً فَيَقُولُ هَذَا عَلِيٌّ قَدْ مَرَّ فِي السَّحَابِ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْصُلُ النَّاسُ فِيهَا
 كَمَا يَحْصُلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسْبُوا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سَبُوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمْ
 الْأَبْدَالَ يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَفْرِقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ
 قَاتَلَتْهُمْ الثَّعَالِبُ غَلَبَتْهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمُكْرَرُ
 يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمَقْلُ يَقُولُ بِهِمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَّا رِثَتُهُمْ أَمَّا يَلْقَوْنَ

سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يُطَلِّبُ الْمَلِكَ فَيَقْتُلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا وَيَرُدُّ اللَّهُ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ الْفَتَنَ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأْيَهُمْ ١٠٠. وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ لَهْيَعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ
مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحٌ إِلَّا سَنَادَهُ وَلَمْ يُخَرِّجْ جَاهُ فِي رِوَايَتِهِ
ثُمَّ يَظْهَرُ الْهَاشِعِيُّ قَيْرُودُ اللَّهِ النَّاسِ إِلَى الْفَتَنِ الْخِ وَنَاسٍ فِي طَرِيقِهِ ابْنُ لَهْيَعَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ
صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ
أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ
الْمَهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ هِيَ بَاتَتْ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَلِكَ يُخْرَجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ
الرَّجُلُ اللَّهُ اللَّهُ قُتِلَ وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا قَزَعًا كَقَزَعِ السَّحَابِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ
بَدْرٍ لَمْ يَسْبِقُهُمُ الْأَوَّلُونَ وَلَا يَدْرِكُهُمُ الْآخِرُونَ وَعَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ
جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ قَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ أَتَرِيدُهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ يُخْرَجُ مِنْ
بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخَشَبَيْنِ قُلْتُ لَا جَرَمَ وَاللَّهِ وَلَا أَدْعُهَا حَتَّى أَمُوتَ وَمَاتَ بِهَا يَعْنِي مَكَّةَ
قَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ أَنْتَهَى وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ
فَقَطُّ فَإِنَّ فِيهِ عَمَّارَ الدَّهْيِيِّ وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُمَا الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو
بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَقَرِيُّ وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ أَحْتِجَاجًا بَلْ اسْتِشْهَادًا مَعَ مَا يَنْضُمُ إِلَى ذَلِكَ
مِنْ تَشْيِيعِ عَمَّارَ الدَّهْيِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثَقَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ
فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ عَنْ سَفْيَانَ أَنَّ بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عِرْقَ قَوْمِهِ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ
قَالَ فِي التَّشْيِيعِ وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ
عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادٍ الْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُخْرَجُ وَلَدٌ
عَبْدُ الْمُطَّلَبِ سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمَهْدِيُّ
أَنْتَهَى وَعِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابَعَةً وَقَدْ ضَعَفَهُ بَعْضُ
وَوَثَقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ هُوَ مُدَلِّسٌ فَلَا يَقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصَرِّحَ بِالسَّمْعِ
عَلَيْ بْنِ زِيَادٍ قَالَ الدَّهْيِيُّ فِي الْمِيزَانِ لَا تَدْرِي مَنْ هُوَ ثُمَّ قَالَ الصَّوَابُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِنْ وَثَقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ

مُعِين لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثَّوْرِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَأَى يَفْعِي فِي مَسَائِلَ وَيُخْطِئُ
فِيهَا وَقَالَ ابْنُ حَبَانَ كَانَ مِنْ فَحَشٍ عَطَاؤُهُ فَلَا يُخْتَجُّ فِيهِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَعِيدُ
ابْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يَدْعِي أَنَّهُ سَمِعَ عَرَضَ كُتُبِ مَالِكٍ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ
هَهُنَا بِبَغْدَادَ لَمْ يُخْتَجَّ فَكَيْفَ سَمِعَهَا وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مَنْ تَكَلَّمَ
فِيهِ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ رَوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوقًا عَلَيْهِ قَالَ
مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ
فَقَالَ مُجَاهِدٌ فَإِنَّهُ فِي سَنَرٍ لَا أَذْكَرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ
أَرْبَعَةٌ مَنَا السَّفَاحُ وَمَنَا الْمُنْدِرُ وَمَنَا الْمَهْدِيُّ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدُ بَيْنَ لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ
فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَّا السَّفَاحُ فَرُبَّمَا قُتِلَ أَنْصَارُهُ وَعَفَا عَنْ عَدُوِّهِ وَأَمَّا الْمُنْدِرُ أَرَاهُ قَالَ
فَأَنَّهُ يُعْطَى الْمَالُ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاضَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَّا الْمَنْصُورُ
فَأَنَّهُ يُعْطَى النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشَّطْرَ مِمَّا كَانَ يُعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ
وَأَمَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَتَأْمِنُ الْبَهَائِمُ السِّيَاحَ وَتَلْقَى
الْأَرْضُ أَفْلَاحًا كَيْدِهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا أَفْلَاحُ كَيْدِهَا قَالَ أَمْثَالُ الْأُسْطُوَانَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجْ جَاهُ وَهُوَ مِنْ رَوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ
ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مِهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ وَإِسْمَاعِيلُ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ
فَالَا كَثَرُونَ عَلَى تَضْعِيفِهِ ١٠٠. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتُلُ عِنْدَ كِبَرِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ
ثُمَّ تَطْلُعُ الرِّيَّاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا
لَا أَحْفَظُهُ قَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الشَّلْحِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ ١٠٠. هـ
وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّيْحَانِ إِلَّا أَنْ فِيهِ أَبَا قِلَابَةَ الْجَرْنِيِّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ مُدْلَسٌ
وَفِيهِ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِأَنَّهُ لَيْسَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنَعَنَ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالسَّمَاعِ
فَلَا يُقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالشَّيْعِ وَعَمِي فِي آخِرِ وَقْتِهِ فَخَلَطَ
قَالَ ابْنُ عَدِي حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَاسْبُوهُ إِلَى الشَّيْعِ
إِنْتَهَى. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءِ الزَّيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ

لِهَيْعَةٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرٍ الْخَضِرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْرٍ قَالَ
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطِئُونَ لِلْمَهْدِيِّ يَعْنِي
سُلْطَانَهُ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لِهَيْعَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثٍ عَلَى الَّذِي خَرَجَهُ
الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ لِهَيْعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أَضْعَفُ
مِنْهُ وَخَرَجَ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ فَسَبْعٌ
وَأَلَّا فَتَمَّانَ وَإِلَّا فَتَسْبَعٌ تَنَعَّمُ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تَرْسُلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا
وَلَا تَذْخُرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالُ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ اعْطِنِي
فَيَقُولُ خُذْ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَزَّازُ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعُجْلِيُّ زَادَ الْبَزَّازُ وَلَا نَعْلَمُ
أَنَّهُ تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حَبَّانَ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثَّقَاتِ
وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ
لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعُجْلِيَّ
حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ تَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكَتَبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ
كَأَنَّهُ ضَعْفُهُ وَخَرَجَهُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ حَدَّثَنِي خَلِيلِي
أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِي يُضَرِّبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ وَكَمْ يَمْلِكُ قَالَ خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا
خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي ١٠ وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُخْتَجٍّ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهْيَكٍ
وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يُخْتَجُّ بِهِ فَقَدْ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانُ وَوَثَقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ
أَبِي حَاتِمٍ لَا يُخْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءُ ابْنِ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ
أَبُو زُرْعَةَ ثِقَةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ضَعِيفٌ وَقَالَ مَرَّةً صَالِحٌ وَعَلَّقَ
لَهُ الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي
مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةَ بْنِ إِيَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لَتَمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ
أَسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ أَسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ
مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَذْخُرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا

يَعْنِي سَنِينَ ١٠ هـ. وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْحُبَيْبِ بْنِ الْحُجْرِ عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَجَ
الطَّبْرَانِيُّ فِي مُجْمَعِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ بَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ
تَلَا حَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ جَوْرًا
وظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ
بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَابَةِ الْمَهْدِيِّ أَنْتَهَى. وَفِيهِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُحَيْعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ ١٠ هـ. وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُجْمَعِهِ
الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ
لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ أَمِيرُكُمْ فُلَانٌ.
١٠ هـ. وَفِيهِ الثَّمَنِيُّ بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ
وَأِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجُمَتِهِ اسْتِنْسَاسًا فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَجَهَا
الْأَئِمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنْ
النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلُ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُنْكَرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ
خَالِدِ الْجُنْدِيِّ عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحٍ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ عَنِ الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا أَعْيَسَى بْنُ مَرْزِيمٍ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ
مُعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثَقَّةٌ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَقَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ
إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ
لِمُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ الْحُسَيْنِ عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُسُلًا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ
مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ مَذْرُوكٌ عَنِ الْحُسَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرَبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنَّ لَامَ مَهْدِيٍّ إِلَّا أَعْيَسَى
لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِيِّ إِلَّا أَعْيَسَى يُحَاوِلُونَ هَذَا التَّأْوِيلَ رَدًّا لِالْحَتَّاجِ بِهِ أَوْ الْجَمْعِ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَذْمُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ. وَأَمَّا الْمَذْمُوقَةُ فَلَمْ
يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْجَاهِدَةِ

بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ نَتَائِجِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ
 مِنَ الشَّيْعَةِ فِي تَفْصِيلِ عِلِّيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَادِّعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ
 بِذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّبَرُّيِّ مِنَ الشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ
 ثُمَّ حَدَّثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّالِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَجَاءَ
 الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهْبِيَّةَ الْإِمَامَ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةَ
 مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِنَوْعِ التَّنَاسُخِ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ تَجَيُّيٍّ مَنْ يَقْطَعُ بَيِّنَتَهُ مِنْهُمْ
 وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَ نَاهُ مِنْ
 الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ
 فِي الْكُشْفِ وَفِيَا وَرَاءَ الْحُسْنِ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْحُلُولِ
 وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهْبِيَّةِ الْأَئِمَّةِ وَحُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ
 وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَانَهُ يُحَاكِي مَذَهَبَ الرَّافِضَةِ فِي الْإِمَامِ
 وَالتَّقْبِئَةِ وَأَشْرَبُوا أَقْوَالَ الشَّيْعَةِ وَتَوَعَّلَوْا فِي الدِّيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَدَّ طَرِيقِهِمْ
 فِي لُبْسِ الْحُرُوفَةِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلْبَسَهَا الْحُسَيْنَ الْبَصْرِيَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ
 بِالْإِتِمَامِ الطَّرِيقَةِ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالْجَنِيدِ مِنْ شُيُوعِهِمْ وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ عِلِّيٍّ مِنْ
 وَجْهِ صَحِيحٍ وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بَلِ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ
 أُسُوءَ فِي طَرِيقِ الْهَدْيِ وَفِي تَخْصِصِ هَذَا بِعَلِيٍّ دُونَهُمْ رَاحَةً مِنَ التَّشْيِيعِ قُوَّةً فِيهِمْ
 مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقَوْمِ دَخَلُهم فِي التَّشْيِيعِ وَانْخِرَاطُهُمْ فِي سَلَكِهِ وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا
 الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَامْتَلَأَتْ كُتُبُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضَةِ وَكُتِبَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ
 الْمُتَصَوِّفَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الْفَاطِمِيَّةِ الْمُنتَظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُعَلِّمُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيُلْقِيهِ بَعْضُهُمْ
 عَنْ بَعْضٍ وَكَانَهُ مُبْتَنًى عَلَى أَصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ
 الْمُخْتَمِينَ فِي الْقِرَآنَاتِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ فِي الْمَلَا حِمٍ وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا
 فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا وَكَثُرَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَأْنِ
 الْفَاطِمِيَّةِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فِي كِتَابِ عُنُقَاءِ مَغْرِبٍ وَابْنُ قَسِيٍّ فِي كِتَابِ خَلْعِ
 التَّعَلِّينِ وَعَبْدُ الْحَقِّ بْنُ سَبْعِينَ وَابْنُ أَبِي وَاصِلٍ تَلْمِيزُهُ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ خَلْعِ التَّعَلِّينِ
 وَكَثُرَ كَلِمَاتُهُمْ فِي شَأْنِهِ الْغَاثُ وَامْتِثَالُ وَرُبَّمَا يَصْرِحُونَ فِي الْأَقْلِ أَوْ يَصْرِحُ مُفَسِّرُو

كَلَامِهِمْ وَحَاصِلُ مَذْمِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ النُّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ الْحَقُّ
 وَالْهَدْيُ بَعْدَ الضَّلَالِ وَالْعَمَى وَأَنَّهَا تَعْقِبُهَا الْخِلَافَةُ ثُمَّ يَعْقِبُ الْخِلَافَةَ الْمُلْكُ ثُمَّ يَعُودُ مُجْبِرًا
 وَتَكْبِيرًا وَبَاطِلًا قَالُوا وَلَمَّا كَانَ فِي الْمَعْبُودِ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ رُجُوعُ الْأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجِبَ
 أَنْ يَحْيَا أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْحَقُّ بِالْوِلَايَةِ ثُمَّ بِخِلَافَتِهَا ثُمَّ يَعْقِبُهَا الدَّجَلُ مَكَانَ الْمُلْكِ وَالتَّسْلُطِ
 ثُمَّ يَعُودُ الْكُفْرُ بِحَالِهِ يُشِيرُونَ بِهَذَا إِمَّا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَالْمُلْكِ
 بَعْدَ الْخِلَافَةِ هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ وَكَذَلِكَ الْوِلَايَةُ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْفَاطِمِيِّ وَالْدَّجَلُ بَعْدَهَا
 كِتَابَةٌ عَنْ خُرُوجِ الدَّجَالِ عَلَى أَثَرِهِ وَالْكَفْرُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ عَلَى نِسْبَةِ
 الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى قَالُوا وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالْإِجْمَاعِ
 الَّذِي لَا يُوْهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ لَمْ يَزُولْ عِلْمُهُ وَجِبَ أَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَخْصُ
 مِنْ قُرَيْشٍ بِالْأَبْنِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا ظَاهِرًا كِبْنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ
 كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَلِّ وَالْأَلِّ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يَلْقَبْ مَنْ هُوَ آلُهُ وَأَبْنُ الْعَرَبِيِّ
 الْخَاتَمِيُّ سَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ عَقَاءَ مُغْرِبٍ مِنْ تَأْلِيفِهِ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ وَكُنِيَ عَنْهُ بِابْنَةِ
 الْفَضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ
 إِلَّا مَوْضِعُ ابْنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ الْابْنَةُ فَيُفْسِرُونَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ بِالْابْنَةِ حَتَّى أَكْمَلْتُ الْبَنِيَّانَ
 وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النُّبُوَّةُ الْكَمَالَةُ وَيُحْتَمِلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا
 بِالنُّبُوَّةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَازِرَ الرُّتْبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتَمَةُ
 الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ حَازِرًا لِمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتَمَةُ النُّبُوَّةِ نَكْنَى الشَّارِحُ
 عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتَمَةَ بِالْبْنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ
 فِيهِمَا فِيهِ ابْنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّمْثِيلِ فِي النُّبُوَّةِ ابْنَةٌ ذَهَبَ وَفِي الْوِلَايَةِ ابْنَةٌ فِضَّةٌ لِلتَّفَاوُتِ
 بَيْنَ الرُّتْبَتَيْنِ كَمَا بَيَّنَّ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ فَيَجْعَلُونَ ابْنَةَ الذَّهَبِ كِتَابَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْنَةَ الْفِضَّةِ كِتَابَةً عَنْ هَذَا الْوَلِيِّ الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَهَذَا خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا نَقَلَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الْإِمَامُ
 الْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُصْحِي خ ف ج مِنْ
 النُّجُورَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ عَدْدَهَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ وَهُوَ الْخَاءُ الْمُجْمَعُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ

فَوْقُ سِتْمِائَةٍ وَالْفَاءُ أُخْتُ الْقَافِ بِشَمَانِينَ وَالْجِيمُ الْمُجْمَعَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلِ ثَلَاثَةِ
وَذَلِكَ سِتْمِائَةٌ وَثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقُرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا أَنْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ
وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلُ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلَاهُ وَعَبَّرَ
بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلَاهُ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ وَالسَّبْعِ الْمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ
بَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ قَالَ وَإِذَا كَانَ مَوْلَاهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ
وَسِتْمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ
يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْحَمْدِيِّ وَابْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْحَمْدِيِّ
عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ
فِي شَرْحِهِ كِتَابَ خَلْعِ النُّعْلَيْنِ الْوَلِيُّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِحَمْدِ
الْمُهْدِيِّ وَخَاتِمِ الْأَوَّلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّ أَيْتَعَهُ رُوحُهُ وَحَبِيْبُهُ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَالِمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقَالَ عَلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَمْ تَزَلِ الْبَشَرَى تَتَابِعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْحَمْدِيِّ إِلَى قَبِيلِ الْخُمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ
وَتَأْكُلُ وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَاحِبِ بِتَقَرُّبِ وَقْتِهِ وَأَزْدِلَافِ زَمَانِهِ مِنْذُ انْقَضَتْ
إِلَى هَلُمِّ جَرَّأٍ قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ
وَيُجَدِّدُ إِلَّا سَلَامًا وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَةٍ فَيَفْتَحُهَا
وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مَلِكُ الْأَرْضِ فَيَنْقَوِي
الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُو إِلَّا سَلَامًا وَيُظْهِرُ دِينَ الْخَنَفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ
وَقْتُ صَلَاةٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتٍ وَقَالَ الْكِنْدِيُّ أَيْضًا
الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُجْمَعَةِ يَعْنِي الْمَفْتُوحَ بِهَا سُورَةُ الْقُرْآنِ جُمْلَةً عَدَدُهَا سَبْعِمِائَةٌ
وَثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ وَسَبْعٌ دَجَالِيَّةٌ ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصْلِحُ الدُّنْيَا
وَتَمْشِي النِّسَاءُ مَعَ الذُّنُبِ ثُمَّ مَبْلَغُ مَلِكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا
عَدَدُ حُرُوفِ الْمُجْمَعِ وَهِيَ قِيَامُ دَوْلَةِ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ
وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مُهْدِي إِلَّا عِيسَى فَمَعْنَاهُ لَا مُهْدِي تُسَاوِي هِدَايَتَهُ هِدَايَتَهُ وَقِيلَ لَا
يَتَكَلَّمُ فِي الْمُهْدِي إِلَّا عِيسَى وَهَذَا مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِ وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ
أَنَّهُ قَالَ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاءَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً

يَعْنِي قُرْشِيًّا وَقَدْ أَعْطَى الْوُجُودَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ
سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ وَقَالَ الْخُلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتِّ وَثَلَاثُونَ
وَأَنْقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحُسَيْنِ وَأَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةً أَخَذًا
بِأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْباقُونَ
خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ إِنَّكَ لَذُو قَرْنِيهَا يُرِيدُ الْأُمَّةَ أَيْ إِنَّكَ
لَخَلِيفَتُهُ فِي أَوَّلِهَا وَذُرِّيَّتِكَ فِي آخِرِهَا وَرَبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرَّجْعَةِ
فَالأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي تَقْسِي
بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اتَّفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِي مِنْكَ قَيْصَرٌ وَيُنْفَقُ كُوزُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ
الْقُسْطَ طَبِيعَةً فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ كَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَمَدَّةُ حُكْمِهِ بَضْعٌ وَالْبَضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرِ وَجَاءَ ذِكْرُ
أَرْبَعِينَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَأَيُّهَا مَدَّتُهُ وَمَدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ
الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمْ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ اصْطِحَابُ
النَّجْمِ وَالْقِرَانَاتِ أَنَّ مَدَّةَ بَقَاؤِ أَمْرِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا
فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ
فَتَكُونُ مُلْكًا أَنْتَهَى كَلَامُ ابْنِ أَبِي وَاصِلٍ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نَزُولُ عِيسَى
يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْحَمْدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعُهُ قَالَ وَذَكَرَ
الْكِنْدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجُفْرِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْقِرَانَاتِ أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ
الْقُرْآنُ إِلَى الثَّوْرِ عَلَى رَأْسِ فُجٍّ بِحَرَفَيْنِ الضَّادِ ^(١) أَلَمْ مُجْمَعَةً وَالْحَاءُ الْمَهْمَلَةَ يُرِيدُ ثَمَانِيَةً
وَتِسْعِينَ وَسَمِئَاتِهِ مِنَ الْهَجْرَةِ يَنْزِلُ الْمَسِيحُ فَيَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ يَنْزِلُ بَيْنَ
مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حَلَّتَيْنِ مَرْغُورَتَيْنِ صَرَاوِينَ مُمَصَّرَتَيْنِ وَاضِعًا كَنِيَّةً عَلَى أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكِينَ
لَهُ لِمَةٌ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ فَطَرَّ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُدَانٌ

(١) الضاد عند البخاري بـ تسعين والصاد تسعين ١٠٥٠٠ قاله نصر

كَالْوَلُو كَثِيرٌ خِيَلَانِ أَلْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ
 وَفِي آخَرَ أَنَّهُ يَنْزَوِجُ فِي الْغَرْبِ وَالْغَرْبُ دَلُّ الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَنْزَوِجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتَهُ
 وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَامًا وَجَاءَ أَنَّ عَيْسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عُمَرَ
 ابْنِ الْخَطَّابِ وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يُخَشَرَانِ بَيْنَ نَبِيَيْنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِلٍ وَالشَّيْعَةُ
 تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَاحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ
 حَدِيثٌ لَا مَهْدِي إِلَّا عَيْسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِي إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نُسِبَتْهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ
 الْمَحْمُودِيَّةِ نِسْبَةً عَيْسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُؤَسَّسَةِ فِي الْإِتْبَاعِ وَعَدَمُ النَّسَخِ إِلَى كَلَامٍ
 مِنْ أَمْثَالِ هَذَا يَعْنُونَ فِيهِ الْوَقْتُ وَالرَّجُلُ وَالْمَكَانُ بِأَدَلَّةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحَكُّمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ
 فَيَنْقُضِي الزَّمَانَ وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيِ آخَرَ مُنْتَحَلٍ كَمَا
 تَرَاهُمْ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءٍ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نَجْمِيَّةٍ فِي هَذَا انْقَضَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ
 مِنْهُمْ وَالْآخِرِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ
 مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَامِ الْحَقِّ وَيَتَعَيَّنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرَّبَ مِنْ عَصْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ
 مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطْلِقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمِعْنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْثَرُهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِسِيُّ
 كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ حَافِدُهُ صَاحِبُنَا
 أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَاءُ عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَذْكُورِ
 هَذَا آخِرُ مَا أَطْلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَّغْنَا مِنْ كَلَامِهِ هُوَ لَا الْمُتَصَوِّفَةَ وَمَا أوردَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ
 مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدْ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغٍ طَافَقْنَا وَالْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ
 لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا نَتِمُّ دَعْوَةً مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ عَصِيَّةٍ تَظْهِرُهُ وَتُدَافِعُ
 عَنْهُ مِنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ بِالْبَرْهَانِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي
 أَرَبْنَاكَ هُنَاكَ وَعَصِيَّةُ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَفَرِيشُ أَجْمَعَ قَدْ تَلَاسَتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ وَوُجِدَ
 أَمْرُ آخَرُونَ قَدْ اسْتَعْلَتْ عَصِيَّتُهُمْ عَلَى عَصِيَّةِ قُرَيْشٍ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَيَنْبَغُ
 بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْ بَنِي حَسَنَ وَبَنِي حُسَيْنَ وَبَنِي جَعْفَرَ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ
 وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَصَائِبُ بَدَوِيَّةٍ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ وَآرَائِهِمْ يَبْلُغُونَ
 آفَاقًا مِنَ الْكَثَرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظُهُورُ هَذَا الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ
 مِنْهُمْ وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَتِمَّ لَهُ شَوْكَةُ وَعَصِيَّةٌ وَفِيهِ بِإِظْهَارِ

كَلِمَتِهِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلُ أَنْ يَدْعُو فَاطِمِي مِنْهُمْ إِلَى
مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقٍ مِنَ الْأَفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا تَجَرَّدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ
الْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ وَلَا يُمْكِنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ
وَالْأَعْمَارُ مِنَ الدَّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلِ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ
ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ تَقْلِيدًا لِمَا أَشْهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِي وَلَا يَعْلَمُونَ
حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرُ مَا يُجِيبُونَ فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ
الْعُمُرَانِ مِثْلُ الزَّابِ بِأَفْرِيقَةِ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ ضُعَفَاءِ الْبَصَائِرِ
يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الرِّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُتَمَثِّلِينَ مِنْ كِدَالَةٍ وَاعْتِقَادِهِمْ
أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأُمْرِ وَبَعْدَهُمْ عَنْ
يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثَرَةِ أَوْ قِلَّةِ أَوْ ضَعْفِ أَوْ قُوَّةِ وَلِبَعْدِ الْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ
الدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْدَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بَخْرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ
الدَّوْلَةِ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَبْرِ وَلَا تَحْصُلُ لَدَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذَلِكَ
الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلَاسِ بِدَعْوَةِ يَمِيهِ تَمَامِهَا وَسَوَاسِهَا وَحَقًّا وَقَتْلَ
كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيَّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطٍ مَاسَةٍ لِأَوَّلِ
الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصَرَ السُّلْطَانُ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُتَحَلِّي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ
بِالتَّوَيْزِي نِسْبَةً إِلَى تَوَزَّرَ مُصَغَّرًا وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ
أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكَزُولَةٍ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ الْمَصَالِمَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ
عَلَيْهِ السَّكْسُوسِيُّ مِنْ قَتْلِهِ بَنَاتًا وَانْحَلَّ أَمْرُهُ وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي عِمَارَةٍ فِي آخِرِ الْمِائَةِ
السَّابِعَةِ وَعَشْرِ السَّعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الدَّهْمَاءُ
مِنْ عِمَارَةٍ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عُنُوَّةً وَحَرَّقَ أَسْوَاقَهَا وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَرْمَةِ فَقُتِلَ بِهَا
غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَلَمَدُ كُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هَذَا
وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حِجِّهِ فِي رِبَاطِ الْعِمَادِ وَهُوَ مَدْفُنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ فِي جَبَلِ تَلَمَّسَانَ
الْمُطَّلِ عَلَيْهِمَا رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتَّبِعًا مُعْظَمًا كَثِيرَ التَّلْمِيزِ
وَالْحَادِمِ قَالَ وَكَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْبَنَفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ قَالَ
وَتَا كَدَّتِ الصَّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَأَنْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنْهَمُ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لَطَلَبَ هَذَا الْأَمْرَ وَانْتَحَالَ دَعْوَةَ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَيْنَ
 دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مَنَازِلُ تَلَمَّسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ أَرْجِعُوا فَقَدْ
 أَرَزَى بِنَا الْعَلَطُ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَفَتَنَّا وَيَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ
 مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ
 غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنَ لِنَظَرِ الْعَهْدِ لَا يَقَاوِمُهَا أَحَدٌ
 مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ اسْتَسْكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَفْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ
 أَنَّ عَصِيَّةَ الْفُتُوَاظِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ
 لِسَانِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهَذَا الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِالْمَغْرِبِ لِهَيْدِهِ
 الْعُصُورِ الْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ
 وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْوَاحِدُ فَالْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ السُّنَّةِ
 وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَيَعْنِي بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعَوِّنُ بِإِصْلَاحِ السَّالِبَةِ
 لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فُسَادِ الْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ طَبِيعَةٍ مَعَاشِهِمْ فِيمَا خُذُوا فِي تَغْيِيرِ
 الْمُنْكَرِ بِمَا اسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تُسْتَحْكَمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ
 وَرُجُوعَهُمْ إِلَى الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا الْإِفْصَارَ عَنِ الْفَارَةِ وَالنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ
 وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي الدِّيَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا
 تَوْبَتُهُمْ فَجِدَّ ذَلِكَ الْمُنْتَحِلُ لِلدَّعْوَةِ وَالْقَائِمُ بِزَعْمِهِ بِالسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَمَعِّقِينَ فِي فُرُوعِ
 الْإِفْتِدَاءِ وَالْإِتْبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّهْبِ وَالْبَغْيِ وَافْسَادِ السَّالِبَةِ ثُمَّ
 الْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْمَعَاشِ بِأَفْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَّى بَيْنَ هَذَا الْأَجْرِ مِنْ إِصْلَاحِ
 الْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا فَاتِّفَاقُهُمَا مُشْتَعٍ لَا تَسْتَحْكِمُ لَهُ صِبْغَةُ فِي الدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ
 لَهُ نَزْوَعٌ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي
 اسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوَلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ انْهَلَّ أَمْرُهُمْ وَاتَّلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ
 وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقَةِ رَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مَرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي
 الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ بَادِيَةِ رِيَّاحٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ
 وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةً وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ
 يَسْتَبْ أَمرُ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سُلَيْمٍ وَرِيَّاحٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيَلْبَسُونَ
فِيهَا وَيَتَحَلُّونَ أَسْمَ السَّنَةِ وَلْيَسُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَ فَلَا يَتِمُّ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ
مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي انكلام على الملاحم والكشف عن مسعى الجفر

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ الدُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشَوُّقُ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمُ مَا يَحْدُثُ
لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيمَا الْخَوَاصِّ الْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ
مُدَدِ الدُّوَلِ أَوْ تَقَاتُلِهَا وَالتَّلَطُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ مَجْبُورُونَ عَلَيْهَا وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ
النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوُفُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَالْأَخْبَارِ مِنَ الْكِبَرَانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ
مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوْفَةِ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ تَجِدُ فِي الْمُدُنِ صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَتَحَلُّونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ
لِعَالِمِهِمْ يَحْرُصُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْكَافِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ
يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرْوَحُ نِسْوَانُ الْمَدِينَةِ وَصَنِيعَاتُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ
يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الْكَسْبِ وَالْجَاهِ وَالْمَعَاشِ وَالْمُعَاشِرَةِ وَالْعِدَاوَةِ وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطِّ فِي الرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ الْمَجِيْمَ وَطَرِيقَ الْخَصِي وَالْحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ الْحَاسِبَ
وَنَظَرَ فِي الْأَمْزِيَا وَالْمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ الْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاشِيَةِ فِي
الْأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذَلِكَ وَإِنَّ الْبَشَرَ مَجْبُورُونَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مَنْ
أَظْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ لَوَايَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَتَطَّلَعُ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ
وَالْمُلُوكُ فِي أَمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذَلِكَ أَنْصَرَفَتِ الْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنْ
الْأُمَّةِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُجِيْمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِيُونَهُ أَوْ
دَوْلَةٍ يَحْدِثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْحَرْبِ وَالْمَلَاخِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَعَدَدِ
الْمُلُوكِ فِيهَا وَالتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذَلِكَ الْخَدَثَانِ وَكَانَ فِي الْعَرَبِ الْكِبَرَانُ
وَالْعَرَاثُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ الْعَرَبُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْدَوْلَةِ
كَمَا وَقَعَ إِشْقٌ وَسَطِيحٌ فِي تَاوِيلِ رُؤْيَا رِبِيعَةَ بْنِ نَضْرٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ
الْجَبَشَةِ بِأَدْنَاهُمْ ثُمَّ رُجِعَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُلْكُ وَالْدَوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا

تَأْوِيلُ سَطِيحِ لِرُؤْيَا الْمُؤْبَدَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كَسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ الْمَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ
بِظُهُورِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ وَكَذَا كَانَ فِي جَيْلِ الْبَرَبْرِ كَهَانُ مِنْ أَشْهُرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ
بَنِي يَفْرَنْ وَيُقَالُ مِنْ غَمْرَةٍ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَّثَانِيَّةٌ عَلَى طَرِيقَةِ الشَّعْرِ بِرِطَائِنِهِمْ وَفِيهَا حَدَّثَانُ
كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ لِرِئَاثَةِ مِنَ الْمُلْكِ وَالِدَوْلَةِ بِالْمَغْرِبِ وَهِيَ مَتَدَوْلَةٌ بَيْنَ
أَهْلِ الْجَيْلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيٌّ وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ زَعَامِهِمْ أَنَّهُ
كَانَ نَبِيًّا لِأَن تَارِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَقَدْ يَسْتَدُّ الْجَيْلُ إِلَى
خَبَرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ الْمُتَعَايِينَ فِيهِمْ
كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَبْعَثُهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ
مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمَدَّتِهَا عَلَى الْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا
عَلَى الْخُصُوصِ وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي مَنْ صَدَرَ الْإِسْلَامُ لَا تَارَ مَنْقُولَةٍ عَنِ الصَّحَابَةِ
وْخُصُوصًا مَسْلُمةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنِيَّةٍ وَأَمثالِهِمَا وَرُبَّمَا
أَقْتَبَسُوا بَعْضُ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ مَا ثَوَّرَ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ وَوَقَعَ لِحُجْفَرٍ وَأَمثالِهِ مِنْ أَهْلِ
الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنْدَهُمْ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْكُتُفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَلَايَةِ وَإِذَا
كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوَّلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ فَهُمْ أَفْوَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ
الْمَوْهُوبَةِ وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ الْمِلَّةِ وَحَبْنِ عِلْقِ النَّاسِ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ
وَتَرْجُمَتِ كُتُبُ الْحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَأَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ
الْمُنْجِمِينَ فِي الْمُلْكِ وَالِدُّوْلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَةِ مِنَ الْقِرَآنَاتِ وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ مِنَ الطُّوَالِغِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ الْفَلَكَ عِنْدَ حُدُوثِهَا فَلَمَّا كُرِيَ الْأَنَ
مَا وَقَعَ لِأَهْلِ الْأَثَرِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ الْمُتَجَمِّعِينَ أَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي
مُدَّةِ الْمَلَالِ وَبَقَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ الشَّهْبِيلِيِّ فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ الطَّبْرِيِّ مَا
يَقْتَضِي أَنْ مَدَّةَ بَقَاءِ الدُّنْيَا مِنْذُ الْمِلَّةِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَنُقِضَ ذَلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ وَمُسْتَنْدُ
الطَّبْرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمُعِ الْآخِرَةِ وَلَمْ يَذْكُرْ
لِذَلِكَ دَلِيلًا وَسِرَّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ تَقْدِيرُ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهِيَ سَبْعَةٌ
ثُمَّ الْيَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
 مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ وَقَالَ بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاءَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِالسَّابَةِ
 وَالْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ
 مِثْلِيهِ يَكُونُ عَلَى التَّقَرُّبِ نِصْفُ سَبْعٍ وَكَذَلِكَ وَصَلَ الْوُسْطَى عَلَى السَّابَةِ فَتَكُونُ هَذِهِ
 الْمُدَّةُ نِصْفُ سَبْعٍ الْجُمُعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمِلَّةِ
 خَمْسَةُ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنِيَّةٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَسِتِّمِائَةِ سَنَةٍ أَعْنِي
 الْمَاضِيَّ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ قَالَ السُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثَيْنِ
 مَا يَشْهَدُ لَشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وَفُوعِ الْوُجُودِ بِخِلَافِهِ فَمَا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ
 يُؤَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ الزِّيَادَةِ عَلَى النَّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بَعَثْتُ
 أَنَا وَالسَّاءَةَ كَهَاتَيْنِ فَانَّمَا فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاءَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ
 وَلَا شَرَعٌ غَيْرُ شَرَعِهِ ثُمَّ رَجَعَ السُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ الْمِلَّةِ مِنْ مَدْرَكِ آخِرِ لَوْ سَاعَدَهُ
 التَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ الْحُرُوفَ الْمُقْطَعَةَ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بَعْدَ حَذْفِ الْمَكْرَرِ قَالَ
 وَهِيَ أَرْبَعَةٌ عَشْرَ حَرْفًا يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (الْمِ يَسْطَعُ نَصْحُ كَرِهٍ) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ
 الْجَمَلِ فَكَانَ سَبْعُمِائَةً وَثَلَاثَةً ^(١) أَضَافَهُ إِلَى الْمُنْقَضِيِّ مِنَ آلَافِ الْآخِرِ قَبْلَ بَعْثِهِ
 فَهَذِهِ هِيَ مُدَّةُ الْمِلَّةِ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا
 قُلْتُ وَكَوْنُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا التَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَالَّذِي حَمَلَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى ذَلِكَ
 إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السَّيْرِ لِابْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ابْنِي أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ
 وَهُمَا أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْآخِرِ الْمُقْطَعَةِ أَلَمْ وَتَأَوَّلَاهَا عَلَى بَيَانِ
 الْمُدَّةِ بِهَذَا الْحِسَابِ فَلَبَّغْتُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَاسْتَقَلَّ الْمُدَّةَ وَجَاءَ حَيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ فَقَالَ الْمَصْ ثُمَّ اسْتَزَادَ الرَّثْمُ ثُمَّ اسْتَزَادَ الْمَرْ فَكَانَتْ
 إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَاسْتَطَالَ الْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى
 لَا نَذَرِي أَقْلِيَاءَ أُعْطِيَتْ أَمْ كَثِيرَاتُكُمْ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرَ مَا يَذَرِيكُمْ
 لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلُّهَا تِسْعِمِائَةً وَأَرْبَعَ سِنِينَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَتَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

١ هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٢٠ وإنما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٢

آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ١٠ وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ تَلِي
 تَقْدِيرَ الْمَلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لَأَنَّ دَلَالَتهُ هُذِهِ الْحُرُوفُ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا
 عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُعِ وَالِإِصْطِلَاحِ الَّذِي يُسَمُّوهُ حِسَابَ الْجَمَلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ
 مَشْهُورٌ وَقَدِيمُ الْإِصْطِلَاحِ لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو بَكْرٍ وَأَخُوهُ حَتَّى مِمَّنْ يُوْخَذُ رَأْيُهُ
 فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِأَدْيَةٍ بِالْحِجَازِ غُفْلًا عَنْ الصَّنَائِعِ
 وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقِهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَقَفُّونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ
 كَمَا تَتَلَفَّهَ الْعَوَامُّ فِي كُلِّ مَلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ السُّبُهِيُّ دَلِيلٌ تَلِي مَا أَدْعَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَوَقَعَ
 فِي الْمَلَّةِ فِي حَدَّثَانِ دَوَّلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٍّ فِي حَدِيثِ خَرَجَهُ
 أَبُو دَاوُدَ عَنْ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ
 ابْنِ أَبِي مَرْثَمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرْوَجٍ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ
 ذُوَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَسِيَّ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ
 وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدِ فِئَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ مِنْ
 مَعَهُ ثَلَاثُمِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاهُ بِاسْمِهِ وَأَسَمَى أَبِيهِ وَفِيئَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَقَدْ
 تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ إِذَا كَانَ
 صَحِيحًا فَهُوَ جَمْلٌ وَيُفْتَقَرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مَبَاهِيهِ إِلَى آثَارِ أُخْرَى يُجُودُ
 أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ فَوْقَ
 فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ أَيْضًا قَالَ نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا
 فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ
 مِنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابُهُ هَؤُلَاءِ ١٠ وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا
 ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ
 إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مِنْ نَسِيَهُ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا تَحْمُولَةٌ عَلَى مَا
 ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْأَشْرَاطِ لِأَنَّ الْمَعْمُودَ مِنَ الشَّارِعِ صَوَاتُ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَقَرَّرَدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي
 هَذِهِ الطَّرِيقِ شَاذَةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَئِمَّةَ اخْتَلَفُوا فِي رَجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْثَمٍ فِي

ابْنُ فَرُوحٍ أَحَادِيثُهُ مَنَا كَبِيرُ وَقَالَ الْبُخَارِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ وَيُنْكِرُ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ
 أَحَادِيثُهُ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَوَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ
 فَإِنَّمَا خَرَجَ لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَادًا وَضَعْفُهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ابْنُ
 حَاتِمٍ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَخْتَجُّ بِهِ وَأَبُو قَبِيصَةَ ابْنُ دُؤَيْبٍ مُجْهُولٌ فَتَضَعُفُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ
 الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شَذُوذِهَا كَمَا مَرَّ . وَقَدْ
 يَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَفْرِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمَ ذَلِكَ
 كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَثَارِ وَالْجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذَلِكَ وَلَا
 مُسْتَنَدَهُ وَاعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنُ سَعِيدٍ الْعُجْلِيَّ وَهُوَ رَأْسُ
 الزِّيَدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَزِيدُ بِهِ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَقَعَ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى
 الْعُمُومِ وَلِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لَجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالِهِمْ
 عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ
 جَعْفَرٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونَ الْعُجْلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَاهُ الْجَفْرَ بِاسْمِ الْجِلْدِ
 الَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَفْرَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْاسْمُ عَلَمًا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ
 عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ الْمَعَانِي مَرْوِيَةً عَنْ جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ يَنْتَهِلْ رِوَايَتَهُ وَلَا عَرَفَ عَيْنُهُ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَاطِدُ مِنَ
 الْكَلِمَاتِ لَا يَضْمَحُّهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ السَّنَدُ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعْمُ الْمُسْتَنَدُ
 مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رِجَالٍ قَوْمِهِ فَمَنْ أَهْلُ الْكِرَامَاتِ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ بَعْضَ
 قُرَابَتِهِ بِوَفَائِعٍ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصِحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَدَّثَ يَحْيَى ابْنُ مَعْمَرٍ زَيْدٌ مِنْ مَصْرَعِهِ
 وَعَصَاهُ نَجْرَجَ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِذَا كَانَتِ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لِغَيْرِهِمْ
 فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْمًا وَدِينًا وَآثَارًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَعِنَايَةٍ مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشْهَدُ
 لِفُرُوعِهِ الطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مُنْسَوْبٍ إِلَى
 أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَأَنْظُرْ مَا حَكَاهُ ابْنُ الرَّقِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي
 عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْبِيِّ لِعَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ
 بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ فَأَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَّ الدَّعْوَةَ
 فِيهِ عَلَى عِلْمِهِ لَقِنَهُ أَنَّ دَعْوَتَهُ نَدِمَ هُنَاكَ وَأَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ اسْتِفْخَالِ

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقَةٍ قَالَ بَنَيْتُهَا لِيُعْتَصِمَ بِهَا الْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ مَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْفَقَ صَاحِبِ
 الْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِالْهُدْيَةِ وَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْفِقِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبَرُ بِبُلُوغِهِ إِلَى
 الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ أَبُو عَيْدٍ اللَّهُ فَأَيَّقَنَ بِالظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَمَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ
 إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرُ بِهِ وَقَتْلَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ. وَأَمَّا الْمُتَحَمُّونَ فَيَسْتَنْدُونَ
 فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلُ الْمَلِكِ وَالْدُّوَلِ
 فَمِنْ الْقِرَانَاتِ وَخُصُوصًا بَيْنَ الْعُلُوِّ بَيْنَ وَذَلِكَ أَنَّ الْعُلُوِّ بَيْنَ زُحَلٍ وَالْمُشْرِيِّ يَقْتَرِنَانِ فِي
 كُلِّ عَشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ الْمُثْلَثَةِ مِنَ الثَّلَاثِ
 الْآيَمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرٍ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي الْمُثْلَثَةِ الْوَاحِدَةِ ثِنْتِي عَشْرَةَ
 مَرَّةً تَسْتَوِي بُرُوجُهُ الثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ
 ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمُثْلَثَةِ بِثِنْتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعَ عَوَدَاتٍ فِي مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
 سَنَةً وَيَكُونُ انْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى الثَّلَاثِ الْآيَمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثْلَثَةِ إِلَى الْمُثْلَثَةِ
 الَّتِي تَلِيهَا أَعْنَى الْبُرْجِ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ الْآخِرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثْلَثَةِ وَهَذَا
 الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ قِرَانُ الْعُلُوِّ بَيْنَ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ أَجْتِمَاعُ
 الْعُلُوِّ بَيْنَ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمَائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً
 وَاحِدَةً وَالْوَسْطُ هُوَ أَقْتِرَانُ الْعُلُوِّ بَيْنَ فِي كُلِّ مُثْلَثَةٍ اثْنَتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِئَتَيْنِ
 وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثْلَثَةٍ أُخْرَى وَالصَّغِيرُ هُوَ أَقْتِرَانُ الْعُلُوِّ بَيْنَ فِي دَرَجَةٍ بُرْجٍ
 وَبَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ آخَرَ عَلَى ثَلَاثَةِ الْآيَمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجَةٍ أَوْ دَفَائِقِهِ
 مِثَالُ ذَلِكَ وَقَعَ الْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلَ دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمَلِ وَبَعْدَ عَشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ
 الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهَذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ
 سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرُ الْقِرَانِ وَعَوْدُ الْقِرَانِ وَبَعْدَ مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى
 الثَّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهَذَا قِرَانٌ وَسْطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى
 أَوَّلِ الْحَمَلِ فِي تِسْعِمَائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَانُ الْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ
 الْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ الْمَلِكِ وَالِدَوْلَةِ وَانْتِقَالِ الْمَلِكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسْطُ عَلَى ظُهُورِ
 الْمُتَغَلِّبِينَ وَالطَّالِبِينَ لِلْمَلِكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالِدُّعَاةِ وَخَرَابِ الْمَدُنِ أَوْ
 عُمَرَانِهَا وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْقِرَانَاتِ قِرَانُ التَّحْسِينِ فِي بُرْجِ السَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سَنَةً مَرَّةً وَيُسَمَّى الرَّابِعَ وَبُرْجُ السَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالُ زُحَلٍ وَهَبُوطُ
الْمَرْيَخِ فَتَعَظُمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقِرَانِ فِي الْفَنَنِ وَالْخُرُوبِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَظُهُورُ الْخَوَارِجِ
وَحَرَكَةُ الْعَسَاكِرِ وَعِصْيَانُ الْجُنْدِ وَالْوَبَاءُ وَالْقَحْطُ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدَرِ
السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدَرِ تَبْسِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ قَالَ جِرَاسُ بْنُ أَحْمَدَ
الْحَاسِبُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ لِنِظَامِ الْمَلِكِ وَرُجُوعِ الْمَرْيَخِ إِلَى الْعَقَرِ لَهَا ثَرٌّ
عَظِيمٌ فِي الْمِلَّةِ الْأَيْسَلِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلًا عَلَى الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ كَانَ عِنْدَ قِرَانِ الْعُلُوبَيْنِ
بِبُرْجِ الْعَقَرِ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَاكَ حَدَثَ التَّشْوِيشُ عَلَى الْخُلَفَاءِ وَكَثُرَ الْمَرَضُ فِي أَهْلِ
الْعِلْمِ وَالِدِّينِ وَتَقَصَّتْ أَحْوَالُهُمْ وَرُبَّمَا أَهْلَهُمْ بَعْضُ ثُبُوتِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ
عِنْدَ قَتْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَرَوَانُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَالْمُتَوَكِّلُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِذَا
رُوعِيَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ الْقِرَانَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْأَحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانُ
الْبَلْخِيُّ أَنَّ الْمِلَّةَ تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ هَذَا الْقَوْلِ وَقَالَ
أَبُو مَعْشَرٍ يَظْهَرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْهَا اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ وَقَالَ خِرَاشُ
رَأَيْتُ فِي كُتُبِ الْقَدَمَاءِ أَنَّ الْمُتَحَمِّينَ أَخْبَرُوا كَسْرِي عَنْ مَلِكِ الْعَرَبِ وَظُهُورِ النُّبُوَّةِ
فِيهِمْ وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الزُّهْرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرْفِهَا فَيَبْقَى الْمَلِكُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقَالَ
أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ الْقِرَانَاتِ الْقِسْمَةُ إِذَا انْتَهَتْ إِلَى السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْحُوتِ فِيهَا
شَرْفُ الزُّهْرَةِ وَوَقَعَ الْقِرَانُ مَعَ ذَلِكَ بِبُرْجِ الْعَقَرِ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ
دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةُ مَلِكِهِ وَمُدَّتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ دَرَجَاتِ شَرْفِ
الزُّهْرَةِ وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِتَقَرُّبٍ مِنْ بُرْجِ الْحُوتِ وَمُدَّةُ ذَلِكَ سِتِّمِائَةٍ وَعِشْرُ
سِنِينَ وَكَانَ ظُهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ انْتِقَالِ الزُّهْرَةِ وَوُقُوعِ الْقِسْمَةِ أَوَّلَ الْحَمَلِ وَصَاحِبُ
الْجَدِّ الْمُشْتَرِي وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ اسْتَحْقَ الْكِنْدِيُّ إِنَّ مُدَّةَ الْمِلَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سِتِّمِائَةٍ
وِثَلَاثَ وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ لِأَنَّ الزُّهْرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قِرَانِ الْمِلَّةِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً
وِثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ الْحُوتِ فَالْبَاقِي إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانٍ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَقَائِقُهَا
سِتُّونَ فَيَكُونُ سِتِّمِائَةً وَثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ وَهَذِهِ مُدَّةُ الْمِلَّةِ بِاتِّفَاقِ الْحُكَمَاءِ
وَيَعْضُدُهُ الْحُرُوفُ أَوَّاقِعُهُ فِي أَوَّلِ السُّورِ بِحَذْفِ الْمُكَرَّرِ وَاعْتِبَارِهِ بِحِسَابِ الْجُمْلِ
قُلْتُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ وَالْغَالِبُ أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَنَدُ السُّهَيْلِيِّ فِيمَا ثَقَلْنَاهُ

عَنْهُ قَالَ خِرَاشُ سَأَلَ هِرْمُزُ إِفْرِيدَ الْحَكِيمِ عَنْ مَدَّةِ أَرْدَشِيرَ وَوَلَدِهِ مُلُوكِ السَّاسَانِيَّةِ
فَقَالَ دَلِيلُ مُلْكِهِ الْمُشْتَرِي وَكَانَ فِي شَرْفِهِ فُيُعْطَى أَطْوَلُ السِّنِينَ وَأَجُودَهَا أَرْبَعُمِائَةٍ
وَسَبْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ تَزِيدُ الزُّهْرَةُ وَتَكُونُ فِي شَرْفِهَا وَهِيَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَيَمْلِكُونَ
لِأَنَّ طَالِعَ الْفَرَانِ الْمِيزَانَ وَصَاحِبِهِ الزُّهْرَةَ وَكَانَتْ عِنْدَ الْفَرَانِ فِي شَرْفِهَا فَدَلَّ أَنَّهُمْ
يَمْلِكُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَزِيرَهُ بَزَرْجَهَرَ الْحَكِيمِ
عَنْ خُرُوجِ الْمَلِكِ مِنْ فَارِسَ إِلَى الْعَرَبِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْقَائِمَ مِنْهُمْ يُولِدُ لِحُمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَيَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَالْمُشْتَرِي يَغُوصُ إِلَى الزُّهْرَةِ وَيَنْتَقِلُ الْفَرَانُ
مِنَ الْهَوَائِيَّةِ إِلَى الْعَقَرِ وَهُوَ مَائِيٌّ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَهَذِهِ الْأَدَلَّةُ تُفْضِي لِلْمِلَّةِ بِمُدَّةِ
دَوْرِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسْرَى أَبَرْوِزُ الْيُوسُ الْحَكِيمِ عَنْ ذَلِكَ
فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ بَزَرْجَهَرَ وَقَالَ تُوْفِيلُ الرُّومِيُّ الْعَلَمِيُّ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ إِنَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ
تَبْقَى مَدَّةَ الْفَرَانِ الْكَبِيرِ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإِذَا عَادَ الْفَرَانُ إِلَى بُرْجِ الْعَقَرِ
كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِهَا الْمِلَّةُ وَتَغَيَّرَ وَضْعُ الْكَوَاكِبِ عَنْ هَيْئَتِهَا فِي قِرَانِ الْمِلَّةِ فَحِينَئِذٍ
إِمَّا أَنْ يَفْتَرِ الْعَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَجَدَّدَ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُوجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ قَالَ خِرَاشُ
وَأَتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ يَكُونُ بِأَسْبِلَاءِ الْمَاءِ وَالنَّارِ حَتَّى تَهْلِكَ سَائِرُ الْمَكُونَاتِ
وَذَلِكَ عِنْدَ مَا يَقْطَعُ قَلْبُ الْأَسَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ الْمَرِيحِ وَذَلِكَ بَعْدَ
مُضِيِّ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَذَكَرَ خِرَاشُ أَنَّ مَلِكَ زَابَلِسْتَانَ بَعَثَ إِلَى الْمَأْمُونِ
بِحَكِيمِهِ ذُو بَانَ اتَّخَفَهُ بِهِ فِي هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ لِلْمَأْمُونِ فِي الْإِخْتِيَارَاتِ بِحُرُوبِ أَخِيهِ
وَبِعَقْدِ اللِّوَاءِ لِطَاهِرٍ وَأَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْظَمَ حِكْمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مَدَّةِ مُلْكِهِمْ فَأَخْبَرَهُ
بِأَنْقِطَاعِ الْمَلِكِ مِنْ عَقِبِهِ وَاتِّصَالِهِ فِي وَلَدِ أَخِيهِ وَأَنَّ الْعَجَمَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ مِنْ
الدَّيْلَمِ فِي دَوْلَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَيَكُونُ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ ثُمَّ يَسُوءُ حَالُهُمْ ثُمَّ تَظْهَرُ التَّرْكُ مِنْ
شَمَالِ الْمَشْرِقِ فَيَمْلِكُونَ إِلَى الشَّامِ وَالْفَرَاتِ وَسَيَعُونَ وَسَيَمْلِكُونَ بِلَادَ الرُّومِ وَيَكُونُ
مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا فَقَالَ مِنْ كُتُبِ الْحُكَمَاءِ وَمِنْ أَحْكَامِ
صَصَةَ بْنِ دَاهِرِ الْهِنْدِيِّ الَّذِي وَضَعَ الشِّطْرَنْجَ فَلْتُ وَالْتَّرْكُ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَى ظُهُورِهِمْ
بَعْدَ الدَّيْلَمِ هُمُ السُّجُوقِيَّةُ وَقَدْ انْقَضَتْ دَوْلَتُهُمْ أَوَّلَ الْقَرْنِ السَّابِعِ قَالَ خِرَاشُ وَانْتَقَلَ
الْفَرَانُ إِلَى الْمِثْلَةِ الْمَائِيَّةِ مِنْ بُرْجِ الْحُوتِ يَكُونُ سَنَةً ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ

لِيَزْدَجِرْدَ وَبَعْدَهَا إِلَى بَرْجِ الْعَقَرِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ الْمِلَّةِ سَنَةً ثَلَاثَ وَخَمْسِينَ قَالَ وَالَّذِي
فِي الْحَوْتِ هُوَ أَوَّلُ الْإِنْتِقَالِ وَالَّذِي فِي الْعَقَرِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِلَّةِ قَالَ وَتَحْوِيلُ
السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ فِي الْمِثْلَثَاتِ الْمِائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ
وَتَمَامِهَا وَلَمْ يَسْتَوْفِ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ. وَأَمَّا مُسْتَدُّ الْمُنَجِّمِينَ فِي دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ
فَمِنَ الْقِرَانِ الْأَوْسَطِ وَهَيْئَةُ الْفَلَكَ عِنْدَ وَقُوعِهِ لِأَنَّ لَهُ دَلَالََةً عِنْدَهُمْ عَلَى حَدُوثِ الدَّوْلَةِ
وَجِهَاتِهَا مِنَ الْعُمُرَانِ وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَنَحْلِهِمْ
وَأَدْيَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي الْقِرَانَاتِ وَقَدْ تَوَجَّدَ هَذِهِ
الدَّلَالَةُ مِنَ الْقِرَانِ الْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ دَلَالَةً عَلَيْهِ فَمِنْ هَذَا يُوجَدُ الْكَلَامُ فِي الدُّوَلِ
وَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ مُنْجِمُ الرَّشِيدِ وَالْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي الْقِرَانَاتِ الْكَائِنَةَ
فِي الْمِلَّةِ كِتَابًا سَمَاهُ الشَّيْخَةُ بِالْجُفْرِ بِأَسْمِ كِتَابِهِمُ الْمُنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَذَكَرَ
فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَّثَانِ دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نَهَائَتُهُ وَأَشَارَ إِلَى أَنْقِرَاضِهَا وَالْحَادِثَةَ عَلَى
بَغْدَادِ أَنَّهَا تَقَعُ فِي انْتِصَافِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُ بِأَنْقِرَاضِهَا يَكُونُ أَنْقِرَاضُ الْمِلَّةِ وَلَمْ نَقِفْ
عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي طَرَحَهَا
هَلَاكُ كَوْمَلِكِ التَّتَرِ فِي دَجَلَةٍ عِنْدَ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَى بَغْدَادِ وَقَتْلِ الْمُسْتَعِصِمِ آخِرِ الْخُلَفَاءِ وَقَدْ
وَقَعَ بِالْمَغْرِبِ جُزْءٌ مُنْسُوبٌ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ الْجُفْرَ الصَّغِيرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَضَعَ لِبَنِي
عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَهُوَ طَائِفَةٌ مِنْ تَقْدِيمِ عَنْ
ذَلِكَ مِنْ حَدَّثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ الْكِنْدِيِّ مُنْجِمُونَ
وَكُتُبٌ فِي الْحَدَّثَانِ وَأَنْظَرُ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عَنْ أَبِي بُدَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِ
صَنَائِعِ الدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ الرَّبِيعُ وَالْحُسَيْنُ فِي غَزَاتِهِمَا مَعَ الرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ فُجِئْتُهُمَا
جَوْفَ اللَّيْلِ فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الدَّوْلَةِ بَعْثِي الْحَدَّثَانِ وَإِذَا مَدَّةُ الْمَهْدِيِّ فِيهِ
عَشْرُ سِنِينَ فَقُلْتُ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُخْفَى عَلَى الْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَضَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا
وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ قَالَا فَمَا الْحِيلَةُ فَاسْتَدْعَيْتُ عُبَيْسَةَ الْوَرَّاقَ مَوْلَى
أَبِي بُدَيْلٍ وَقُلْتُ لَهُ أَسْخِ هَذِهِ الْوَرَقَةَ وَأَكْتُبْ مَكَانَ عَشْرِ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ قَوْلَهُ لَوْلَا
أَنِّي رَأَيْتُ الْعَشْرَةَ فِي تِلْكَ الْوَرَقَةِ وَالْأَرْبَعِينَ فِي هَذِهِ مَا كُنْتُ أَشْكُ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كُتِبَ
النَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِي حَدَّثَانِ الدُّوَلِ مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا وَرَجَزًا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ

وَبِأَيْدِي النَّاسِ مُتَفَرِّقَةً كَثِيرٌ مِنْهَا وَتُسَمَّى الْمَلَا حِمَ وَبَعْضُهَا فِي حَدَثَانِ الْمَلَّةِ عَلَى الْعُمُومِ
وَبَعْضُهَا فِي دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنَسُوبَةٌ إِلَى مُشَاهِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا أَصْلٌ
يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ الْمَنَسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذِهِ الْمَلَا حِمَ بِالْمَغْرِبِ قَصِيدَةُ ابْنِ
مُرَّانَةَ مِنْ بَجْرِ الطُّوِيلِ عَلَى رُويِ الرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَتُخَسَّبُ الْعَامَّةُ أَنَّهَا مِنْ
الْحَدَثَانِ الْعَامِّ فَيُطْلَقُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا
أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةٍ لِمَثُونَةٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَبِيلَ دَوْلَتِهِمْ وَذَكَرَ فِيهَا اسْتِئْذَانَهُمْ عَلَى
سَبْتَةِ مَنْ يَدُ مَوَالِي بَنِي حَمُودٍ وَمُلُكِهِمُ الْعُدُودَةَ الْأَنْدَلُسِ وَمِنْ الْمَلَا حِمِ يَدُ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
أَيْضًا قَصِيدَةُ تُسَمَّى التَّبَعِيَّةُ أَوَّلُهَا

طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبٌ وَقَدْ يَطْرَبُ الطَّائِرُ الْمَغْتَصَبُ

وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَّهِ أَرَاهُ وَلَكِنْ لِنَدِّكَ كَارِ بَعْضِ السَّبَبِ

قَرِيبًا مِنْ خَمْسِمِائَةِ يَتُّ أَوْ أَلْفٍ فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَأَشَارَ
فِيهَا إِلَى الْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنْ الْمَلَا حِمِ بِالْمَغْرِبِ أَيْضًا مَلْعِبَةٌ
مِنَ الشَّعْرِ الرَّجَلِيِّ مَنَسُوبَةٌ لِبَعْضِ الْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ الْفَرَانَاتِ لِعَصْرِهِ الْعُلَوِيِّينَ
وَالنَّحْسِينَ وَغَيْرَهَا وَذَكَرَ مِمَّتَهُ قَتِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ كَذَلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوَّلُهُ

فِي صَبْغِ ذَا الْأَزْرَقِ لَشَرْفِهِ خِيَارَا فَافْهَمُوا يَا قَوْمَ هَذِي الْأَشَارَا

نَجْمُ زَحَلِ اخْبِرْ بِذِي الْعِلَامَا وَبَدِّلِ الشُّكْلَا وَهِيَ سِلَامَا

شَاشِيَّةُ زَرْقَا بَدَلِ الْعِلَامَا وَشَاشُ أَزْرَقُ بَدَلِ الْفِرَارَا

يقول في آخره

قَدْ تَمَذَا التَّجْنِيسُ لِنَاسَانِ يَهُودِي يَصْلُبُ فِي بَلَدَةِ فَاسَ فِي يَوْمِ عِيدِ

حَتَّى يَجِيَهُ النَّاسُ مِنَ الْبُودَايِ وَقَتْلُهُ يَا قَوْمَ عَلَى الْفِرَادِ

وَأَبْيَانُهُ نَحْوُ الْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي الْفَرَانَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَمِنْ مَلَا حِمِ الْمَغْرِبِ
أَيْضًا قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رُويِ الْبَاءِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ
بَتُونَسَ مِنَ الْمُوحِدِينَ مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَّارِ وَقَالَ لِي قَاضِي فُسْطَاطِيَّةِ الْخَطِيبِ الْكَبِيرِ
أَبُو عَلِيٍّ بْنُ بَادِيَسَ وَكَانَ بَصِيرًا بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ فِي التَّنْجِيمِ فَقَالَ لِي إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَّارِ
لَيْسَ هُوَ الْحَافِظُ الْأَنْدَلُسِيُّ الْكَاتِبُ مَقْتُولُ الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خِيَاطٌ مِنْ أَهْلِ

تُونِسَ تَوَاطَّاتْ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ الْحَافِظِ وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هَذِهِ
الْأَيَّاتَ مِنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي حِفْظِي مَطْلَعُهَا

عَذِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبٍ يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْنَبِ
وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِدًا وَتَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرَقَبِ
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيُقْبِلُ كَلْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجَابِ

ومنها في ذكر احوال تونس على العموم

فَإِمَّا^(١) رَأَيْتِ الرُّسُومَ أَمَحَتْ
نُفُذَ فِي التَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسِ
فَسَوَتْ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةً تَضِيفُ الْبَرِيءَ إِلَى الدُّنْبِ
وَلَمْ يُرْعَ حَقُّ لَدِيهِ مَنَصِبِ وَوَدَعَ مَعَالِمَهَا وَأَذْهَبِ

وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَنْصِ هُوَ لَا يَتُونِسَ فِيهَا بَعْدَ
السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذَكَرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ يَقُولُ فِيهَا
وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ وَبُعْرَفَ بِالْوَنَابِ فِي نُسْخَةِ الْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُمْنِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَبَنَ
الْمَلَا حِمٍ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضًا الْمَلْعَبَةُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْهُوثِيَّةِ عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي عَرُوضِ الْبَلَدِ

دعني بدمي الهتان فترت الامطار ولم تفر

واستقت كلها الوبدان واني تملى وتغدر

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَحَفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَالْغَالِبِ عَلَيْهَا الْوَضْعُ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا
قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُحَرِّفُهُ الْعَامَّةُ أَوْ الْحَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنَ الْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ
عَلَى مَلْحَمَةٍ مُنْسُوبَةٍ لِأَبْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شَبِهَ الْأَلْغَازَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا
اللَّهُ لِيَحْلُلَهُ إِلَى أَوَاقٍ عَدَدِيَّةٍ وَرَمُوزٍ مَلْعُوزَةٍ وَأَشْكَالٍ حَيَوَانَاتٍ تَامَةٍ وَرُؤُوسٍ مُقَطَّعَةٍ
وَتَمَاثِيلٍ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رُويِ الْأَلَمِ وَالْغَالِبِ أَنَّهَا كُلُّهَا
غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلِ عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَسَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ

١ قوله فاما رابت اصله فان رابت زبدت ما وادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطأ وفي نسخة فلما
رابت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية ٥٠٠٠ قاله نصر

مَلَا حِمٍّ أُخْرَى مَسْبُوبَةً لِأَبْنِ سَبْنَاءَ وَأَبْنِ عُقَابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصَّحَّةِ لِأَنَّ
 ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقِرَاطَاتِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضًا عَلَى مَلْحَمَةٍ مِنْ حَدَثَانِ دَوْلَةِ
 التُّرْكِ مَسْبُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجِرِيِّ وَكَلَّمَهَا الْغَزَارُ بِالْخُرُوفِ أَوَّلَهَا
 إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سُوْلِي مِنْ عِلْمٍ جَنَرٍ وَصِيٍّ وَالِدِ الْحَسَنِ
 فَافْهَمْ وَكُنْ وَاعِيًا حَرْفًا وَجُمْلَةً وَالْوَصْفُ فَافْهَمْ كَفْعِلِ الْحَاذِقِ الْقَطَنِ
 أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكُرُهُ لَكِنِّي أَذْكُرُ الْآتِي مِنَ الزَّمَنِ
 بِشَهْرِ بِيَرْسَ يَبْقَى بَعْدَ خَمْسَتِهَا بِحَاءٍ مِيمٍ بَطِيشٌ نَامٌ فِي الْكُنَنِ
 شَيْنٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَي ذَلِكَ الْمِنَنِ
 فَمِصْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ وَأَذَرَبَيْجَانُ فِي مُلْكٍ إِلَى الْيَمَنِ
 وَأَيَّانَهَا كَثِيرَةٌ وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صِنْعَتِهَا كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرٌ
 وَمَعْرُوفٌ الْإِنْتِحَالُ

حَكَمَى الْمَوْزُونِ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامُ الْمُقْتَدِرِ وَرَاقٌ ذِكْرِي يُعْرِفُ
 بِالْدَانَالِيِّ يَبْلُ الْأَوْرَاقَ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطِّ عَتِيقٍ يَرْمُزُ فِيهِ بِخُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ
 الدَّوْلَةِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يُعْرِفُ مِيْلَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرِّفْعَةِ وَالْجَاءِ كُنْهَا مَلَا حِمٍّ وَيَحْصُلُ
 عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ مِيمًا مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
 وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحٍ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ فَقَالَ لَهُ هَذَا كِتَابَةٌ عَنْكَ وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ
 وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يَرْضَاهُ وَيَنَالُهُ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَصَبَ لِذَلِكَ عِلَامَاتٍ يُمَوِّدُ بِهَا عَلَيْهِ فَبَدَّلَ لَهُ
 مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى مُفْلِحٍ هَذَا وَكَانَ مَعْرُوفًا لِحُجَّاهُ
 بِالْأَوْرَاقِ مِثْلَهَا وَذَكَرَ اسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُرُوفِ وَبِعِلَامَاتٍ ذَكَرَهَا وَأَنَّهُ يَكِلِي
 الْوِزَارَةَ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَتَسْتَقِيمُ الْأُمُورُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقْبُرُ الْأَعْدَاءُ وَتَعْمُرُ الدُّنْيَا
 فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَ مُفْلِحًا هَذَا عَلَى الْأَوْرَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَائِنَ أُخْرَى وَمَلَا حِمٍّ مِنْ هَذَا
 النَّوعِ مِمَّا وَقَعَ وَمِمَّا لَمْ يَقَعْ وَنَسَبَ جَمِيعَهُ إِلَى دَانَالٍ فَأُعْجِبَ بِهِ مُفْلِحٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِ
 الْمُقْتَدِرُ وَأَهْنَدَى مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ وَالْعِلَامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَوِزَارَتِهِ
 بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْعَرِيقَةِ فِي الْكُذِبِ وَالْجَهْلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلْغَازِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ
 الْمَلْحَمَةَ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَى الْبَاجِرِيِّ مِنْ هَذَا النَّوعِ وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ

شَيْخِ الْحَنْفِيَّةِ مِنَ الْحَجَمِ بِالْذِّبَارِ الْمَصْرِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْمَلِكَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ
الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ الْبَاجَرِيُّ وَكَانَ عَارِفًا بِطَرِيقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنْ
الْقَلَنْدَرِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ فِي حَاقِ اللَّحْيَةِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الْكَشْفِ وَيُؤْيِي
إِلَى رِجَالٍ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ وَيَأْخُذُ عَلَيْهِمْ بِمُحَرُّوفٍ يُعَيِّنُهَا فِي ضَمْنِهَا لَعَنَ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرَبَّمَا
يُظَاهِرُ نَظْمُ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتَنَوَّلَتْ عَنْهُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا
مَلِكَةً مَرْمُوزَةً وَزَادَ فِيهَا الْخَرَّاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجَنَسِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَشَغَلَ الْعَامَّةُ بِفِكَ
رُمُوزِهَا وَهُوَ أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ إِذِ الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرِفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ
لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِدِلَالَتُهَا عَلَى الدُّرَادِ مِنْهَا تَخْصُوصَةٌ بِهَذَا النِّظْمِ لَا يَتَجَاوَزُهُ
فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ شَفَاءَ لِمَا كَانَ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْمَلِكَةِ
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال
وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك
وَيَبَيِّنُهُ أَنَّ الْبِنَاءَ وَأَخْطِاطَ الْمَنَازِلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الْحِصَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
الْتَرَفُ وَالِدَّةُ كَمَا قَدَّمَاهُ وَذَلِكَ مُتَّخِزٌ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَهَذَا عَمَّا وَأَيْضًا فَالْمَدُنُ وَالْأَمْصَارُ
ذَاتُ هِيَ كُلِّ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ لَا لِلْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ
إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الْفَرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا
الْبَلَوَى حَتَّى يَكُونَ نَزْوَعُهُمْ إِلَيْهَا أَضْطِرَارًا بَلْ لَا يَدْنُ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَسَوْفَ يَكُونُ
إِلَيْهِ مُضْطَهَّدِينَ بَعْضُ الْمَلِكِ أَوْ مُرْغَبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَبْقَى بِكَثْرَتِهِ إِلَّا

الْمَلِكُ وَالِدَوْلَةُ فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَأَخْطَاطِ الْمُدُنِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكِ ثُمَّ إِذَا
بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا وَبِمَا اقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ
وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمِرَ الدَّوْلَةُ حِينَئِذٍ عُمُرُ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمُرُ الدَّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَفَتِ الْحَالُ فِيهَا
عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمُرَانِهَا وَخَرَبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الدَّوْلَةِ طَوِيلًا وَمَدَّتْهَا مُنْفَسِحَةً
فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَالْمَنَازِلُ الرَّحْبِيَّةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ
يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَنْسَعِ الْخِطَّةُ وَتَبْعُدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ
بِبَغْدَادَ وَأَمثالِهَا. ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ
الْمَأْمُونِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ
تُجَاوِزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِأَفْرَاطٍ الْعُمُرَانِ وَكَذَا حَالُ
الْقَيْرَوَانِ وَقُرْطُبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي أَلَمَلَّةِ الْأِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا
لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْمُشِيدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَمَا أَنْ يَكُونَ إِصْوَاحِي تِلْكَ
الْمَدِينَةِ وَمَا قَارِبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَةً يُمِدُّهَا الْعُمُرَانُ دَائِمًا فَيَكُونُ ذَلِكَ
حَافِظًا لَوْجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَابَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ
الْعَجَمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودِ لَهَا الْعُمُرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبِدَاوَةِ إِذَا أَنْتَهَتْ
أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الرِّفَةِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ
الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَوْسَسَةِ
مَادَّةٌ تُفِيدُهَا الْعُمُرَانُ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الدَّوْلَةِ خَرَفًا
لِسَيَاحِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقِصُ عُمُرَانُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَبْذَعَرَ سَاكِنُهَا وَتُخْرَبَ
كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبِبَغْدَادَ وَالْكُوفَةِ بِالْمَشْرِقِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْمَهْدِيَّةِ وَقَلْعَةِ بَنِي حَمَادٍ
بِالْمَغْرِبِ وَأَمثالِهَا فَتَفْهَمُهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ انْقِرَاضِ مُحْتَطِبِهَا الْأَوَّلِينَ مَلِكٌ
أَخَرٌ وَدَوْلَةٌ تَانِيَةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًا يَسْتَغْنِي بِهَا عَنْ أَخْطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ
تِلْكَ الدَّوْلَةُ سِيَاحَهَا وَتَنْزَايِدُ مَبَانِيَهَا وَمَصَانِعَهَا بِتَزَايِدِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَتَرْفَأُ
وَتَسْتَجِدُّ بِعُمُرَانِهَا عُمَرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ وَالْقَاهِرَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَلِكُ اضْطَرُّوا لِلْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَمْصَارِ
لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنَ الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَحِطِّ الْأَثْقَالِ وَاسْتِكْمَالِ
مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ الْعُمَرَاءِ فِي الْبَدْوِ وَالثَّانِي دَفْعُ مَا يَتَوَقَّعُ عَلَى الْمَلِكِ مِنْ أَمْرِ
الْمَنَازِعِينَ وَالْمَشَاغِبِينَ لِأَنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا يَكُونُ مُلْجَأً
لِمَنْ يَرُومُ مَنَازِعَتَهُمْ وَالْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَاتِّزَاعَ ذَلِكَ الْمَلِكِ الَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ
فَيَعْتَصِمُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ وَيُعَالِيهِمْ وَمُعَالِبَةُ الْمِصْرِ عَلَى نِهَابَةٍ مِنَ الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ
وَالْمِصْرُ بِقَوْمٍ مَقَامُ الْعَسَاكِرِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِمْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ الْحَرْبِ مِنْ
وَرَاءِ الْجُدُرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرٍ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمٍ شَوْكَةٍ لِأَنَّ الشُّوْكَةَ وَالْعَصَابَةَ
إِنَّمَا أَحْتِيجُ إِلَيْهِمَا فِي الْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ الْقَوْمِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ
الْجَوْلَةِ وَثَبَاتٍ هَؤُلَاءِ بِالْجُدُرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَبِيرِ عَصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ
هَذَا الْحُصْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْمَنَازِعِينَ مَا يَفُتُّ فِي عَضْدِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَرُومُ الْأَسْتِيْلَاءَ
وَيَخْضُدُ شَوْكَةَ أَسْتِيْلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارٌ أَنْتَضَمُوهَا فِي أَسْتِيْلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ
مِنْ مِثْلِ هَذَا الْإِلْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ اسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِلتَّكْمِيلِ عُمَرَانِهِمْ
أَوَّلًا وَحِطَّ أَثْقَالُهُمْ وَلِيَكُونَ شَجَاً فِي حَلْقٍ مِنْ يَرُومُ الْعِزَّةَ وَالْإِمْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ
وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمَلِكَ يَدْعُو إِلَى نَزُولِ الْأَمْصَارِ وَالْأَسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهيكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي آثَارِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَمَّا تَكُونُ عَلَى نَسَبِهَا وَذَلِكَ أَنَّ
تَشْيِيدَ الْمَدْنِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثَرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً
مُتَّسِعَةً أَلَمَّا لِكَ حُسْرِ الْفَعْلَةِ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا اسْتُعِينَ فِي
ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ بِالْهِنْدَامِ الَّذِي يُضَاعَفُ الْقَوِيُّ وَالْقَدْرُ فِي حَمْلِ أَثْقَالِ الْبِنَاءِ

لِعَجْزِ الْقُوَّةِ اللَّشَرِيَّةِ وَضَعُفِهَا عَنْ ذَلِكَ كَالْمَخَالِ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
إِذَا نَظَرَ إِلَى آثَارِ الْأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمِ الْعَظِيمَةِ مِثْلَ إِيْوَانِ كِسْرَى وَأَهْرَامِ مِصْرَ
وَحَنَائِيَا الْمُعَلَّقَةِ وَشَرِّشَالِ بِالْمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ بِقُدْرِهِمْ مَتَفَرِّقِينَ أَوْ مُجْتَمِعِينَ فَيَتَخِيلُ
لَهُمْ أَجْسَامًا تَنَاسُبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ بِكَثِيرٍ فِي طَوْلِهَا وَقُدْرَهَا لِنَتَاسُبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
الْقُدْرِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي عَنْهَا وَيُغْفَلُ عَنْ شَأْنِ الْهِنْدَامِ وَالْمَخَالِ وَمَا أَقْتَضَتْهُ فِي
ذَلِكَ الصَّنَاعَةُ الْهِنْدَسِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَعَلِّينَ فِي الْبِلَادِ يُعَايِنُ فِي شَأْنِ الْبِنَاءِ وَاسْتِعْمَالِ
الْحِجْلِ فِي نَقْلِ الْأَجْزَامِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُتَعَتِّينَ بِذَلِكَ مِنَ الْعُجَمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَا
عَيَانًا وَكَثَرَا نَارِ الْأَقْدَمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَسْمِيهَا الْعَامَّةُ عَادِيَّةً نَسَبَهُ إِلَى قَوْمِ عَادٍ لِتَوَهُّمِهِمْ
أَنَّ مَبَانِي عَادٍ وَمَصَانِعِهِمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعَظَمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرُهُمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
فَقَدْ نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ تُعْرَفُ مُقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَهِيَ فِي
مِثْلِ ذَلِكَ الْعَظَمِ أَوْ أَعْظَمَ كَمَا يُوَانِ كِسْرَى وَمَبَانِي الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِقِيَّةَ
وَالصَّنْهَاجِيِّينَ وَأَتَرُغُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي صَوْمَعَةٍ قَلْعَةٍ بَنَى حَمَادٌ وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْأَغَالِبَةِ فِي
جَامِعِ الْقَيْرَوَانِ وَبِنَاءُ الْمُوحِدِيِّينَ فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ
أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ تَلَمَّسَانَ وَكَذَلِكَ الْحَنَائِيَا الَّتِي جَابَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجَنَةَ
الْمَاءِ فِي الْفِتْنَةِ الرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا مَا ثَلَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَانِي وَالْهَيَاكِيلِ الَّتِي نَقَلَتْ
إِلَيْنَا أَخْبَارُ أَهْلِهَا قَرِيبًا وَبَعِيدًا وَثَبَتْنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مُقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا
هَذَا رَأْيٌ وَلَعِبٌ بِهِ الْقَصَاصُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَنَجِدُ بَيُوتَ تَمُودَ فِي الْحَجَرِ مَخُونَةً
إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا بَيُوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرُّكْبُ الْحِجَازِيُّ
أَكْثَرَ السَّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لَا تَزِيدُ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَتَسْمِكِهَا عَلَى الْمُتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ
لَيَبَالُغُونَ فِيهَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عُوْجَ بَنِ عَنَاقٍ مِنْ حَيْلِ الْعَمَالِقَةِ
كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيقًا فَيَسْوِيهِ فِي الشَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّمْسَ حَارَّةٌ
فِيمَا قُرْبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ الضَّوُّ لِأَنِّعْكَاسِ الشَّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ
الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَّا الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ وَلَا بَارِدَةٍ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيٌّ
لَا مَزَاجَ لَهُ وَقَدْ نَقَدَّمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ عَلَى
نَسَبَةِ قَوِّمَتِهَا فِي أَصْلِهَا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُخَيِّكُم مَّا يَرِيدُ

الفصل الرابع

في ان الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بينائها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقُدْرِ الْبَشَرِيَّةِ
وَقَدْ تَكُونُ الْمَبَانِي فِي عَظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْقُدْرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِالْهِنْدَامِ كَمَا قُلْنَا
فَيُحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرٍ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَرْزَمِيَّةٍ مُتَعَابِقَةٍ إِلَى أَنْ نَتِمَّ فَيَتَدَيُّ الْأَوَّلُ
مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ
الْفَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلُ وَيَكُونُ مَائِلًا لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ
مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَنْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا تَقْلَهُ الْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ
سِدِّ مَارِبَ وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَا بْنُ يَشْجَبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِيًا وَعَاقَفَهُ الْمَوْتُ عَنْ
إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هَذَا مَا تَقُلُ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَةِ وَقَنْتَارِهَا الرَّابَّةِ
عَلَى الْحَنَائَا الْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ فِي الْغَالِبِ هَذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ
الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ الْمَلِكَ الْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي اخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ
أَثَرُهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ فِي إِتْمَامِهَا بَقِيَ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ
أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ أَثَارًا كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ نَعْرِجُ الدُّوْلَ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ
أَنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ يَكْثُرُ لِأَنَّ الْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ وَالْبِنَاءُ
عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُفُ قُوَّتُنَا الْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سَهُولَةِ الْهَدْمِ
عَلِمْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرَطَةٌ الْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَبَسَتْ أَثَرُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا مِثْلُ مَا
وَقَعَ الْعَرَبُ فِي إِيوَانَ كِسْرَى لَمَّا اعْتَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
وَهُوَ فِي مَحْبَسَةٍ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَاتْرُكْهُ مَائِلًا يَسْتَدِلُّ
بِهِ عَلَى عَظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ الَّذِينَ سَلَبُوا الْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَلِكَ أَلْهَيْكَ كُلَّ فَاتَمِّهِ فِي النَّصِيحَةِ
وَقَالَ أَخَذْتُهُ الثُّغْرَةَ لِلْعِجْمِ وَاللَّهُ لَأَصْرَعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَاتَّخَذَ
لَهُ الْفُؤُسَ وَحَمَاهُ بِالنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ الْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعِجْزُ بَعْدَ ذَلِكَ كَلَّمَهُ وَخَافَ
الْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّجَافِي عَنْ الْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَاسْتَمَرَّ
عَلَى ذَلِكَ لَيْثًا يُقَالُ عِجْزُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكِ الْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ الْعِجْمِ
فَعَرَفَهَا الرَّشِيدُ وَافْصَرَّ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ الْأَهْرَامِ الَّتِي بِمِصْرَ

وَجَمَعَ أَلْفَعَلَّةً لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْبِهِ فَأَنْتَبَهُوا إِلَى جَوْ بَيْنَ الْحَائِطِ وَالظَّاهِرِ
وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْخَيْطَانِ وَهُنَاكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْقَذُ ظَاهِرٍ
وَيَزْعُمُ الزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْخَيْطَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَكَذَلِكَ حَنَابَا الْمَعْلَقَةِ
إِلَى هَذَا الْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلُ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى اتِّخَابِ الْحِجَارَةِ لِبِنَائِهِمْ وَتَسْتَجِدُّ الصَّنَاعُ
حِجَارَةَ تِلْكَ الْحَنَابَا فَيَحَاوِلُونَ عَلَى هَدْمِهَا الْأَيَّامَ الْعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ الصَّغِيرُ مِنْ جُذْرَانِهَا
إِلَّا بَعْدَ عَصَبِ الرِّبْقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ الْحَفَائِلُ الْمَشْهُورَةُ شَهَدَتْ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ
كَثِيرًا وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة
إِعلم أَنَّ الْمَدُنَ قَرَارٌ يَتَخَذُهُ الْأُمَمُ عِنْدَ حُصُولِ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ التَّرَفِّ وَدَوَاعِيهِ
فَتَتَوَثَّرُ الدَّعَاةُ وَالشُّكُونُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَى اتِّخَاذِ الدَّمَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْقَرَارُ
وَالْمَأْوَى وَجَبَ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِّ بِالْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِفِهَا وَجَلَبُ الْمَنَافِعِ
وَتَسْهِيلُ الْمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا الْحِمَايَةُ مِنَ الْمَضَارِّ فَيُرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى مَنَازِلِهَا جَمِيعًا
سِيَّاحُ الْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذَلِكَ فِي مُتَنَعِّجٍ مِنَ الْأَمْكِنَةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعَّرَةٍ
مِنَ الْجَبَلِ وَإِمَّا بِاسْتِدَارَةِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوَصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى جِسْرِ
أَوْ قَطْرَةٍ فَيَصْعَبُ مَنَاقِلُهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ امْتِنَاعُهَا وَحُصْنُهَا وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ
لِلْحِمَايَةِ مِنَ آلِفَاتِ السَّمَاءِ طَيْبُ الْهُوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَإِنَّ الْهُوَاءَ إِذَا كَانَ
رَاكِدًا خَبِيثًا أَوْ مُجَاوِرًا لِلْمِيَاهِ الْفَاسِدَةِ أَوْ مَنَاقِعَ مُتَعَفِّئَةٍ أَوْ مُرُوجٍ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا
الْعَفْنُ مِنْ مُجَاوِرِهَا فَأَسْرَعَ الْمَرَضُ لِلْحَيَوَانِ الْكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ وَالْمَدُنُ
الَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طَيْبُ الْهُوَاءِ كَثِيرَةٌ الْأَمْرَاضِ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ اشتهرَ بِذَلِكَ فِي قَطْرِ
الْمَغْرِبِ بِلَدِ قَابَسَ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِفُهَا يَخْلُصُ مِنْ
حُمَى الْعَفْنِ بِوَجْهِهِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنْ ذَلِكَ حَدَثَ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ وَتَقَلَّ
الْبُكَرِيُّ فِي سَبَبِ حَدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفَرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَاءٌ مِنْ نُحَاسٍ مَخْتُومٌ بِالرَّصَاصِ
فَلَمَّا فُضَّ خَتَمُهُ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى الْجَوِّ وَانْقَطَعَ وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ الْحُمَمَاتِ
فِيهِ وَارَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنَاءَ كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الطَّلِسْمَاتِ لَوَبَائِهِ وَأَنَّهُ

ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفْنُ وَالْوَبَاءُ وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَالَمَةِ وَمَبَاحِثِهِمْ
 الرَّكِيكَةِ وَالْبَكْرِيِّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بَحِثٌ يَدْفَعُ مِثْلَ هَذَا
 أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرَفُهُ فَتَقْلَهُ كَمَا سَمِعَهُ وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَّةَ
 الْعَفَنَةَ أَكْثَرُ مَا مُهِئَتْهَا لِتَغْفِيَنِ الْأَجْسَامَ وَأَمْرَاضِ الْحُمَمَاتِ رُكُودُهَا فَإِذَا تَخَلَّلَتْهَا الرِّيحُ
 وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا خَفَّ شَأْنُ الْعَفْنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ وَالْبِلَدِ
 إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّائِكِينَ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهَا فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ
 الرِّيحُ الْمُتَغَلَّلَةُ لِلْهَوَاءِ الرَّائِكِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِينًا لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ
 السَّائِكُنَ لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءَ مُعِينًا عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِدًا رَاكِدًا وَعَظُمَ عَفْنُهُ
 وَكَثُرَ ضَرَرُهُ وَبَلَدٌ قَابَسَ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ مَا كَانَتْ أَفْرِيقَةُ مُسْتَجِدَّةَ الْعُمْرَانِ كَثِيرَةً
 السَّائِكِينَ تَمَوَّجُ بِأَهْلِهَا مَوْجًا فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمَوُّجِ الْهَوَاءِ وَأَضْطَرَّابِهِ وَتَخْفِيفِ
 الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَفْنٍ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَ مَا خَفَّ سَاكِدًا رَاكِدًا هَوَاؤُهَا
 الْمُتَعَفِّنُ يَفْسَادُ مِيَاهُهَا فَكَثُرَ الْعَفْنُ وَالْمَرَضُ فَهَذَا وَجْهُهُ لَا غَيْرُ وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ
 ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وَضَعَتْ وَلَمْ يَرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْهَوَاءِ وَكَانَتْ أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّائِكِينَ فَكَانَتْ
 أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا أَثْقَلَ حَالُهَا عَنْ ذَلِكَ وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِفَاسَ
 لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَالَمِ فَتَهْتَمُّ بِتَجِدُّ مَا فَتَنَّهُ لَكَ
 وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ مِنْهَا الْمَاءُ بِأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى
 نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِيهَا عَيْنٌ عَذْبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنْ وَجُدَ الْمَاءُ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى السَّائِكِينَ
 حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وَجُودِهِ مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَّةٌ وَمِمَّا يُرَاعَى
 مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمَدِينِ طِيبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذَا صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
 دَوْجَنِ الْحَيَوَانِ لِلتَّنَاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَرَاعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا
 طَيِّبًا كَانَ ذَلِكَ أَرْزَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يَعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بَعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضًا
 الْمَرَاعُ فَإِنَّ الزَّرْعَ هِيَ الْأَقْوَاتُ فَإِذَا كَانَتْ مَرَاعُ الْبَلَدِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ
 أَسْهَلًا فِي اخْتِازِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ لِلْخَطْبِ وَالْبِنَاءُ فَإِنَّ الْخُطْبَ مِمَّا
 تَعْمُ الْبُلُوكَى فِي اخْتِازِهِ لَوْفُودِ النِّيرَانِ لِلْأَصْطِلَاءِ وَالطَّبْخِ وَالْخَشَبُ أَيْضًا ضَرُورِي
 لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضًا قُرْبُهَا مِنَ

الْبَحْرَ لِمَسْجِدِ الْحَاجَاتِ الْقَاصِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ الْأَوَّلِ
وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ الْوَاضِعُ
غَافِلًا عَنْ حُسْنِ الْأَخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهْمٌ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلَا
يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينِ الَّتِي أَخْطَطُوهَا
بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا الْأَهْمَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي الْإِبِلِ وَمَا يَصْلُحُ
لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْمَالِحِ وَلَمْ يُرَاعُوا الْمَاءَ وَلَا الْمَزَارِعَ وَلَا الْحُطَبَ وَلَا مَرَاعِي
السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظُّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ كَالْقَبْرِوَانِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِهَا
وَلِهَذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْخُرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ
أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ مُؤَفَّرَةً الْعَدَدِ تَكُونُ صَرِيحًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَفُهَا طَارِقٌ مِنَ الْعَدُوِّ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحِلِهَا عُمَرَانُ
لِلْقَبَائِلِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعُهَا مُتَوَعَّرٌ مِنَ الْجَبَلِ كَانَتْ فِي غَرَّةِ اللَّيَالِ وَسَبِيلُ طُرُوقِهَا
فِي الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحْفِيفُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وَجُودِ الصَّرِيخِ لَهَا وَأَنَّ
الْخَضِرَ الْمُتَوَعَّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ الْمُقَاتَلَةِ وَهَذِهِ
كَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَطَرَابُلسَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبُؤْنَةَ وَسَلَاوَمَتِي كَانَتْ الْقَبَائِلُ
وَالْعَصَائِبُ مُوَطَّنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُهُمُ الصَّرِيخُ وَالنَّعِيرُ وَكَانَتْ مُتَوَعَّرَةً الْمَسَالِكَ عَلَى
مَنْ يَرُومُهَا بِأَخْطَاطِهَا فِي هَضَابِ الْجِبَالِ وَتَلَى أَسْنَمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
وَيَسُوءُ مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يَسْكَابِدُونَهُ مِنْ وَعَرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي
سَبْتَةِ وَبِجَابَةِ وَبَلَدِ الْقُلِّ عَلَى صَغَرِهَا فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَاعْتَبَرَهُ فِي اخْتِصَاصِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ
بِاسْمِ الثَّغْرِ مِنْ لَدُنِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ الدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِرَقَّةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَإِنَّمَا اعْتَبَرُ
فِي ذَلِكَ الْخَفَافَةَ الْمُتَوَقَّعَةَ فِيهَا مِنَ الْبَحْرِ لِسَهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ الْعَدُوِّ
لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلسَ فِي الْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلَ مِنَ الْأَرْضِ بَقَاءً اخْتَصَمَهَا بِشَرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لِعِبَادَتِهِ يُضَاعَفُ فِيهَا الثَّوَابُ وَيَتَمُوهِيهَا الْأَجُورُ وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ عَلَى أَلْسِنِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ
لُطْفًا بِعِبَادِهِ وَتَسْبِيلاً لِمَطْرُقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ. وَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بِقَاعِ
الْأَرْضِ حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَمَّا الْبَيْتُ
الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ بِنَائِهِ وَإِنْ
يُؤْذَنُ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّهُ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ
فِيهِ وَاسْكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجَرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرُومٍ إِلَى أَنْ قَبَضَهُمَا اللَّهُ وَدَفِنَا
بِالنَّجْرِ مِنْهُ. وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَمَرَهَا اللَّهُ بِبِنَائِهَا
مَسْجِدَهُ وَنَصَبَ هِيَ كُلَّهُ وَدُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالَيْهِ.
وَالْمَدِينَةُ مُحَاجَرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّجْرِ إِلَى يَهِْيَا
وَأَقَامَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْعَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْبَتِهَا
فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قَوَّةٌ عَيْنُ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْتِدَتِهِمْ وَعَظْمَةُ دِينِهِمْ وَفِي الْأَثَارِ
مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مُحَاقَرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلَنُشِيرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ
الْخَبَرِ عَنْ أَوَّلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمُلَ ظُهُورُهَا
فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوَّلِيَّتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَنَاهَا فُبَالَهُ الْبَيْتُ
الْمَعْمُورُ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ بِعَوْلِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَقْتَبَسُوهُ
مِنْ مُحْمِلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنُ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجَرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى
اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَذْكُرْ أَبْنَاهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِالْفَلَاةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ
عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللَّطْفِ فِي نَبْعِ مَاءِ زَمْزَمَ وَمُرُورِ الرُّفْقَةِ مِنْ جُرُومٍ
بِهَا حَتَّى أَحْتَمَلُوهُمَا وَاسْكَنُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهَا حَوَالِي زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ
فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ وَادَارَ عَلَيْهِ سِيَّاجًا مِنَ الرَّدَمِ وَجَعَلَهُ
زَرْبًا لِنَعْمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِرَارًا لِيُيَاذِرْتَهُ مِنَ الشَّامِ أَمَرَ فِي آخِرِهَا
بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ فَبَنَاهُ وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِأَبْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
حُجَّةٍ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ وَلَمَّا قَبِضَتْ أُمُّهُ هَاجَرَ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ
مَعَ أَخَوَاتِهِمْ مِنْ جُرُومٍ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ

إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفُقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا
 أَوْ نَائَى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ التَّبَاعِيَةَ كَانَتْ تَحْجُ الْبَيْتَ وَتُعْظِمُهُ وَأَنَّ تَبَعًا كَسَاهَا الْمَلَاءُ
 وَالْوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْيِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا وَنُقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحْجُهُ وَتُقَرِّبُ
 إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَايَ الذَّهَبِ الَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَلِّبِ حِينَ أَحْفَرُ زَمْزَمَ كَانُوا مِنْ
 قَرَابَتِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ جُرُومُ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ خُؤُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا
 خَرَجَتْ خِزَاعَةٌ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَاتَّسَعُوا إِلَى
 كُنَانَةِ ثُمَّ كُنَانَةُ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وَلَايَةُ خِزَاعَةٍ فَعَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ
 وَآخَرُ جُورِهِمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قَصِيَّ بْنُ كِلَابٍ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ
 الدُّومِ وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعَشَى

خَلَقْتُ بَنُو بِي رَاهِبَ الدُّورِ وَالَّتِي بَنَاهَا قَصِيٌّ وَالْمِضَاضُ بْنُ جُرُومٍ
 ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النِّفْقَةَ لِذَلِكَ مِنْ
 أَمْوَالِهِمْ وَأَنْكَسَرَتْ سَفِينَةُ إِسْحَاحٍ جَدَّةٌ فَأَشْتَرُوا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ
 الْقَامَةِ لَجَعَلُوهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ لَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لِمَلَأَ
 تَدْخُلُهُ السُّيُولُ وَفَصَّرَتْ بِهِمُ النِّفْقَةُ عَنْ إِيْتَامِهِ فَقَصَرُوا عَنْ قَوَاعِيدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتًّا
 أَذْرُعَ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْعَجَرُ وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا
 الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحْصَنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَرَحْنَتْ إِلَيْهِ جِيُوشُ يَزِيدَ
 بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ السَّكُونِيِّ وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةً أَرْبَعَ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ
 حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ
 أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصَّخَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَأَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِعَاهِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ
 وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا فَهَدَمَهُ وَكَشَفَتْ عَنْ أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ
 الْأُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْتَّحْرِي فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ
 فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صُنْعَاءَ
 فِي الْفِصَّةِ وَالْكِلْسِ لِحَمَلِهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ الْأَوَّلِ لَجَمَعَ مِنْهَا مَا أَحْتَاجَ
 إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ

ذِرَاعًا وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لِاصِقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ قَرْشَهَا وَإِزْرَهَا
 بِالْزَخَامِ وَصَاغَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَنَعَ الْأَبْوَابَ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ جَاءَ الْحَجَّاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمُجَنَّبَاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ
 بَابُ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ
 عَلَى قَوَاعِدِ قُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ وَيُقَالُ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رَوَايَةِ ابْنِ
 الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَقَالَ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَبِيبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبَنَائِهِ
 مَا تَحْمَلُ فَهَدَمَ الْحَجَّاجُ مِنْهَا سِتَ أَذْرُعٍ وَشَبْرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ قُرَيْشٍ
 وَسَدَّ الْبَابَ الْغُرَبِيَّ وَمَا تَحْتَ عَتَبَةِ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرَفِيِّ وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يَغَيِّرْ
 مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبَنَاءُ الْحَجَّاجِ فِي الْخَائِطِ صَلَةُ
 ظَاهِرَةُ الْعِيَانِ لِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ بَيْنَ الْبِنَاءِ وَالْبِنَاءِ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِعَقْدَارٍ إِصْبَعٍ شِبْهُ
 الصَّدْعِ وَقَدْ حُجِمَ وَيَعْرُضُ هُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ النُّقَّاطُ فِي أَمْرِ الطُّوُفِ
 وَيَحْذَرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرِ وَأَنَّ الدَّائِرَ عَلَى أَسَاسِ الْجُدْرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ
 طُوفُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدْرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضُهُ وَهُوَ
 مَكَانُ الشَّاذِرِ وَأَنَّ قَالُوا فِي تَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بَدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنَ
 التَّقْبِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا أَيْثَلًا يَقَعُ بَعْضُ طُوفِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتْ الْجُدْرَانُ
 كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بَنَى عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ
 وَلَا مَخْلَصَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِأَحَدٍ أَوْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا أَنْ يَكُونَ الْحَجَّاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ
 وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْإِتِّحَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَاءِ وَتَمْيِيزِ أَحَدٍ
 الشَّقِيقَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخِرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ
 الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِبَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطْ لِيَدْخُلَهُ فَيَهِيَ
 الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا بَعِيدٌ وَلَا يَحْصِي مِنْ
 هَذَيْنِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فُضَاءً لِلطَّائِفِينَ
 وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدْرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَى بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ كَثُرَ
 النَّاسُ فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا
 دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بَعْدَهُ

الرَّحَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ الْمَنْصُورُ وَابْنُهُ الْمَهْدِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ الزِّيَادَةُ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ اللَّهِ لِهَذَا الْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهْطًا لِلوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ وَأَوْجَبَ حُرْمَتَهُ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حَقُوقِ التَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لغيرِهِ فَمَنَعَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنَ الْخَطِيطِ إِلَّا إِذَا رَأَى بَسْتَرَهُ وَحَمَى الْعَائِدَ بِهِ وَالرَّائِعَ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ الْأَفَاتِ فَلَا يُرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُضَادُّ لَهُ وَحَشٌّ وَلَا يُعْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدَّ الْحَرَمِ الَّذِي يُخَصَّصُ بِهِذِهِ الْحُرْمَةُ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ إِلَى التَّنْعِيمِ وَمِنْ طَرِيقِ الْعِرَاقِ سَبْعَةَ أَمْيَالٍ إِلَى الثَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطِعِ وَمِنْ طَرِيقِ الطَّائِفِ سَبْعَةَ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمْرَةٍ وَمِنْ طَرِيقِ جَدَّةِ سَبْعَةَ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطِعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأْنُ مَكَّةَ وَخَبَرُهَا وَتُسَمَّى أُمَّ الْقُرَى وَتُسَمَّى الْكُتُبَةُ لِغُلُوبِهَا مِنْ أَسْمِ الْكُتُبِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا بَكَّةَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءَ بَكَّةَ أَبَدَلُوهَا مِيمًا كَمَا قَالُوا لَازِبٌ وَلَا زِمَ لِقُرْبِ الْخَمْرَيْنِ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ يَا بَاءَ وَيَا لَمِيمَ الْبَلَدِ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ يَا بَاءَ لِلْمَسْحِدِ كُلِّهِ وَيَا لَمِيمَ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ مِنْذُ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تُعْظِمُهُ وَالْمُلُوكُ تُبْعَثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهَا وَفَصَّةُ الْأَسْيَافِ وَغَرَالِي الذَّهَبِ الَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلَبِ حِينَ أَخْتَفَرَ زَمْزَمَ مَعْرُوفَةً وَوَدَّ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَفْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْحَجِّ الَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يَهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ مُكْرَرَةً . مَرَّتَيْنِ بِمِائَتِي فَنُطَارَ وَزَنًا وَقَالَ لَهُ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْنَتْ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يُحَرِّكْهُ هَكَذَا قَالَ الْأَزْرَقِيُّ وَفِي الْبُخَارِيِّ . يُسْنَدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بِنْتِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسْتُ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَنَمًا وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا اسْمَعْتَهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قُلْتُ مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ قَالَ وَلَمْ قُلْتُ فَلَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا الَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا وَخَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَقَامَ ذَلِكَ الْمَالُ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ الْأَفْطُسِ وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحُسَيْنِ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ حِينَ غَلَبَ مَكَّةَ عَمَدٌ إِلَى

الْكَعْبَةَ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا تَصْنَعُ الْكَعْبَةُ بِهَذَا الْمَالِ مَوْضِعًا فِيهَا لَا يَنْتَفَعُ بِهِ
 مَعْنَى أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ وَبَطَلَتِ الذَّخِيرَةُ مِنَ الْكَعْبَةِ
 مِنْ يَوْمَئِذٍ (واما بيت المقدس) وَهُوَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ الصَّابِئَةِ
 مَوْضِعَ الزُّهْرَةِ وَكَانُوا يُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ الزَّيْتِ فِيمَا يُقَرِّبُونَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي هُنَاكَ
 ثُمَّ ذُكِرَ ذَلِكَ الْهَيْكَلُ وَاتَّخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكَوْهَا قَبْلَهُ لِصَلَاتِهِمْ. وَذَلِكَ أَنَّ
 مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِمَلِكِيهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَمَا
 وَعَدَ اللَّهُ آبَاءَهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ إِسْحَاقُ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ التِّيهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِاتِّخَاذِ
 قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ عَيْنَ الْوُحْيِ مَقْدَارَهَا وَصِفَتَهَا وَهِيَ كُلُّهَا وَتَمَانِيلُهَا وَأَنَّ يَكُونَ
 فِيهَا التَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ يَصْحَافُهَا وَمَنَارَةٌ يَقْنَادُ بِهَا وَأَنَّ يَصْنَعَ مَذْبَحًا لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذَلِكَ
 كُلَّهُ فِي التَّوْرَةِ أَكْمَلَ وَصَفَ فَصْنَعَ الْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ
 الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ الْمَصْنُوعَةُ عَوَضًا عَنِ الْأَلْوَاحِ الْمُنْزَلَةِ بِالْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ
 وَوَضَعَ الْمَذْبَحَ عِنْدَهَا. وَعَهْدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى بِأَنَّ يَكُونَ هَارُونُ صَاحِبَ الْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا
 تِلْكَ الْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي التِّيهِ يَصْلُونَ إِلَيْهَا وَتَقْرَبُونَ فِي الْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَتَعْرِضُونَ
 لِلْوُحْيِ عِنْدَهَا. وَلَمَّا مَلَكَوا السَّامَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقُبَّةُ قِبَاتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى الصَّخْرَةِ
 بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى الصَّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ
 ذَلِكَ وَعَهْدَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ بِنَاؤُهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَقَاةِ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّخَذَ عُمْدَةً مِنَ الصَّنَرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْحَ الزَّجَاجِ وَعَشَى أَبْوَابَهُ
 وَحِيطَانَهُ بِالذَّهَبِ وَصَاغَ هِيَ كُلَّهُ وَتَمَانِيلَهُ وَأَوْعَيْتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَفَتَاحَتَهُ مِنَ الذَّهَبِ وَجَعَلَ
 فِي ظَهْرِهِ قَبْرًا لِيَضَعَ فِيهِ تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ
 صِهْيُونَ بَلَدِ أَبِيهِ دَاوُدَ تَعْمَلُهُ الْأَسْبَاطُ وَالْكَهَنُوتُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ وَوُضِعَتِ الْقُبَّةُ
 وَالْأَوْعِيَةُ وَالْمَذْبَحُ كُلُّ وَاحِدٍ حَيْثُ أَعْدَلَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَأَقَامَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ
 خَرِبَهُ بَغْتًا نَصَرَ بَعْدَ ثَمَانِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأَحْرَقَ التَّوْرَةَ وَالْعَصَا وَصَاغَ الْهَيْكَلَ وَنَثَرَ
 الْأَحْجَارَ ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ الْفَرَسِ بَنَاهُ عَزِيزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَهْدِهِ بِإِعَانَةِ بَهْمَنْ
 مَلِكِ الْفَرَسِ الَّذِي كَانَتْ الْوِلَادَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّ بَغْتًا نَصَرَ وَحَدَّ لَهُمْ فِي
 بَنِيَانِهِ حُدُودًا دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوا مَا ثُمَّ تَدَاوَلَتْهُمْ

مُلُوكُ يُونَانَ وَالْفُرسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لَبِنِي
 حَشَدًا مَائِي مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ أَصْبَرَهُمْ هِيرُودُسُ وَلِبْنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْقُدُسِ
 عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأَثَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طَيْطُسُ
 مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَغَابَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَبَ بَيْتَ الْقُدُسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يَزْرَعَ
 مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِيَدَيْنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالُ
 مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِبَيْنِ النَّصَارَى تَارَةً وَتَرَكَهَ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ
 وَانْتَصَرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَارْتَمَتْ إِلَى الْقُدُسِ فِي سَائِبِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ
 بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَأُلْقِيَ عَلَيْهَا الْقَهَامَاتُ وَالْقَادُورَاتُ
 فَأَسْتَفْرَجَتِ الْخَشَبَةُ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ الْقَهَامَاتِ كَنِيسَةً الْقَهَامَةِ كَانَتْهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ
 وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الزُّبُلِ وَالْقَهَامَاتِ عَلَى الصَّخْرَةِ حَتَّى
 غَطَّاهَا وَخَيَّ مَكَانَهَا جَزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقَهَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ
 وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ
 وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْقُدُسِ وَسَأَلَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَأُورِي مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَّاهَا الزُّبُلُ
 وَالثَّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَدْنَى اللَّهُ
 مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبًا ثَبَتَ ثُمَّ أَحْفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ
 عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سِتْنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْإِحْتِفَالِ
 كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَفِي
 مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بِالْأُولَادِ وَالزَّمَّ مَلِكَ الرُّومِ أَنَّ يَبْعَثَ النُّعْلَةَ
 وَالْمَالُ لِبَنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يَنْحَقُّوْهَا بِالْأَسْفِسَاءِ فَطَاعَ لِذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى
 مَا اقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَعْوَامَ الْخُمْسِيَّةِ مِنَ الْعُجُورَةِ فِي آخِرِهَا
 وَكَانَتْ فِي مَلَكََةِ الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الْقَاهِرِ مِنَ السَّيِّئَةِ وَاخْتَلَأَ أَرْهُمُ زَحَفَ الْفَرَنْجَةُ
 إِلَى بَيْتِ الْقُدُسِ فَمَلَكَوْهُ وَمَلَكَوْهُ مَعَهُ عَامَةً تُغَوِّرُ الشَّامَ وَبَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعْظِمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقَلَّ صَالِحُ الدِّينِ بْنُ
 أَيُّوبَ الْكُرْدِيَّ بِمَلِكِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ الْعَبِيدِيِّينَ وَبَدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ
 وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفَرَنْجَةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْقُدُسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكَوْهُ

مِنْ نُجُورِ السَّامِ وَذَلِكَ لِتَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ الْكَنِيسَةَ
 وَأَظْهَرَ الْهَجْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى الدَّخْوِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَعْزُ
 لَكَ إِلَّا شَكَاكُ الْمَعْرُوفِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ
 أَوَّلِ بَيْتٍ وَضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ
 سَنَةً فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ
 لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَنَاهُ وَهُوَ يُنْفِثُ عَلَى الْأَلْفِ بِكَثِيرٍ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ
 لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عَيْنٍ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَيْنَ
 لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الْهَجْرَةِ مِثْلَ
 الزُّهْرَةِ فَفَعَلَ ذَلِكَ نَهْجًا كَانَتْ مَسْكَنًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالْتِمَائِيلَ
 حَوَالِي الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مُدَّةُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَفَهَّمْهُ فِيهِ حُلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ . وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمَسْمُومَةُ بِثَرِبَ
 فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ هَلَالٍ مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا
 مَلَكَوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَزَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا .
 ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عَيْنَاةِ اللَّهِ بِهَا فَجَازَ إِلَيْهَا
 وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبُيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ
 قَدْ أَعَدَّ لِدَلِّكَ وَشَرَفَهُ فِي سَابِقِ أَرْزَاهِ وَأَوَاهُ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْأَنْصَارُ
 وَتَمَّتْ كَلِمَةُ الْأَنْصَارِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَتْ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ
 مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارُ أَنََّّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَمَّهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَبَّرَهُمْ أَنََّّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُلْحَدُهُ الشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خِتَاءَ
 بِهِ وَوَقَعَ اخْتِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَنْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَا لَكَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا ثَبَتَ
 عَنْهُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخْذَجٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثٍ أُخْرَى

تَلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ وَخَالَتْ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيَّ ! وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةً
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَمَعَ إِلَيْهَا الْأَمَمُ بِإِفْتِدَائِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَأَنْظَرُ كَيْفَ تَدْرَجَتْ
 الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْمُعْظَمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا وَتَفَهُمِ سِرِّ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ
 وَتَدْرِيجِهِ عَلَى تَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ
 فَلَا نَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ
 جَزَائِرِ الْهِنْدِ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ الْأَمَمُ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ
 يُعْظَمُونَهَا عَلَى جِهَةِ الدِّيَارَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بِيُوتُ النَّارِ لِلْفَرَسِ وَهِيَ كُلُّ بُونَانَ وَبِيُوتُ الْعَرَبِ
 بِالْحِجَازِ أَلَيْسَ أَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِدْمِهَا فِي غُرَوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا
 بِيُوتًا لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي وَلَا يَلْتَفِتُ
 إِلَيْهَا وَلَا إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْبِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ
 فَعَلَيْهِ بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافرقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَنْطَارَ كَانَتْ لِلْبَزِيرِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 وَكَانَ عُمَرَانُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمْ الْحَضَارَةُ حَتَّى تُسْتَكْمَلَ أَحْوَالُهَا وَالْدُّوَلُ
 أَلَيْسَ مَلَكَتْهُمْ مِنَ الْإِفْرِئِجَةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطْلُ أَمْدُ مَلَكَتْهُمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْمَخَ الْحَضَارَةُ
 مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبِدَاوَةِ وَشَوْوُونَهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكُنْ مَبَانِيهِمْ وَأَيْضًا
 فَالْصَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَزِيرِ لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَالصَّنَائِعُ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ وَإِنَّمَا
 نَتَمَّ الْمَبَانِي فِيهَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْخَلْقِ فِي تَعْلُمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَزِيرِ انْتِعَالٌ لَهَا لَمْ يَكُنْ
 لَهُمْ تَشَوُّقٌ إِلَى الْمَبَانِي فَضَلَّ عَنِ الْمَدُنِ وَأَيْضًا فَبِهِمْ أَهْلُ عَصَبِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو
 عَنْ ذَلِكَ جَمْعُهُ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْمَدُنِ
 الدَّعْوَةُ وَالسَّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنًا عِيَالًا عَلَى حَامِيَتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ لَذَلِكَ يَسْتَنْكَفُونَ
 عَنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرَفُّ وَالْغَنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ
 فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ كَانَ عُمَرَانُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيًّا أَهْلُ خِيَامٍ
 وَظَوَاعِنَ وَقِيَاطِنَ وَكَثَنَ فِي الْجِبَالِ وَكَانَ عُمَرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرَى

وَأَمَّصَارًا وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقَ الْعَجَمِ وَأَمْثَالَهَا لَأَنَّ
 الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَّبِعُونَ فِي مُرَاحَتِهَا وَالتَّجَارِمِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لِحِمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ
 عَصِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَارِفِ عَنِ الْمِصْرِ الَّذِي يَذْهَبُ
 بِالْبَسَالَةِ وَيُضِيرُهُ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فَأَفْهَمُهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها

والى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرْبَرِ بَعِيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضًا عَرِقُوا فِي الْبَدْوِ
 وَأَبْعَدُوا عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيُّضًا فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 وَلَمَّا تَمَلَّكُوْهَا لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومُ الْحِضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمْ اسْتَعْنَوْا بِمَا
 وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيُّضًا فَكَانَ الَّذِينَ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَا نَعَا مِنَ الْغُلَاظَةِ أَوْ الْبُنْيَانِ
 وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَهَدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ الْكُوفَةِ
 بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ أَفْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ
 أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيْكَاتٍ وَلَا تُطَاوُلُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالزُّمُوا السَّنَةَ تَلَزِمُكُمْ الدَّوْلَةُ وَعَهْدُ إِلَى
 الْوَفْدِ وَتَقْدَمَ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَزِفَعُوا بُنْيَانًا فَوْقَ الْقَدَرِ قَالُوا وَمَا الْقَدَرُ قَالَ لَا يَقْرَبُكُمْ
 مِنَ السَّرَفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ فَلَمَّا بَعْدَ الْعَهْدِ بِالرِّدْنِ وَالتَّخَرُّجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
 الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَالزَّرْفِ وَاسْتَحْدَمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمْ
 الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعَوْتَهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ الدَّعَةِ وَالزَّرْفِ فَيُحْنِئِدُ شَيْدُوا الْعَبَانِي وَالْمَصَانِعِ
 وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيبًا بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكثَرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ
 الْمَدُنِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَالْفُرْسُ طَالَتْ مَدَّتُهُمْ الْأَفَافُ
 مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقَبْطُ وَالنَّبَطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَادَ وَثُمَّ دَوَالِقِ الْعَالَمَةِ
 وَالتَّبَاعَةِ طَالَتْ أَمَادُهُمْ وَرَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهِيَ كُلُّهُمْ أَكْثَرُ
 عَدَدًا وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثَرًا وَاسْتَبْصَرَ فِي هَذَا تَجَدُّدَهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ
 وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تخطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني
وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو امس به وذلك فله مراعاتهم لحسن
الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع
والمراعي فانه بالتفاوت في هذا انتفاوت جودة المصير وردائه من حيث العمران
الطبيعي والعرب بمنزل عن هذا وانما يراعون مراعي ابلهم خاصة لا يبألون بالماء
طاب او خبت ولا قل او كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والعيون والآهوية
لانتقالهم في الارض ونقلهم المحبوب من البلد البعيد واما الرّياح فالفقر مختلف للمهاب
كلها والظعن كميل لهم بطبيعتها لان الرّياح انما تخبث مع القفار والسكنى وكثرة
الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها
الا مراعي ابلهم وما يقرب من الفقر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع
الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا انه يحتاج اليه في
العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الامر فيعمرها الناس
والاول وهلة من انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سببا لها اتي عليها الخراب
والانحلال كان لم تكن والله يحكم لامعقب لحكمه

الفصل العاشر

في مباني الخراب في الامصار

اعلم ان الامصار اذا اخطت أولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء
من الحجر والجير وغيرهما مما يعلى على الحيطان عند التائق كاللحم والرخام والنج
والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا والاتها فاسدة فاذا عظم
عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرت الصنائع
الى ان تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها فاذا تراجع عمرانها وخفت ساكنها
قلت الصنائع لاجل ذلك وفقدت الاجادة في البناء والاحكام والمعالة عليه بالتنميق
ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما

فَتَفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَسِيدُهُمْ مِنَ الْأَلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَقْلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقَلَّةِ الْعُمَرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تَنْقُلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يَفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا حُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عَوَضًا عَنِ الْحِجَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكَلِمَةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقَرْيَةِ وَالْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِمَاءُ الْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قَدِّرَ لَهَا بِهِ سَنَةٌ لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعًا فِي عُمُرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةً الْأَكْثَرُ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافًا فَالْقُوتُ مِنَ الْخِنْطَةِ مِثْلًا لَا يَسْتَقِلُّ الْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصْنِهِ مِنْهُ وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ السَّنَةُ أَوْ الْعَشْرَةُ مِنْ حَدَادٍ وَتِجَارٍ لِلْأَلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحِصَادِ السُّبُلِ وَسَائِرِ مَوَاقِفِ الْفَلَحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوْ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الْقُوتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوتٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضُرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضُرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ أَكْتَفَى فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتْ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى الْضُرُورَاتِ فَتُصَرَّفُ فِي حَالَاتِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَفِيمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ حِظٌّ مِنَ الْغِنَى وَقَدْ بَيَّنَّ لَكَ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ أَنَّ الْمَكْسَبَ إِنَّمَا هِيَ فِيمَ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ فِيمَهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكْسَبُهُمْ ضَرُورَةً وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ الرِّفَةِ وَالْغِنَى إِلَى التَّرْفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ التَّانِقِ فِي الْمَسَاكِينِ وَالْمَلَايِسِ وَاسْتِجَادَةِ الْآلِيَةِ وَالْمَاعُونِ وَاتِّخَاذِ الْخَدَمِ وَالْمَرَائِبِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيمَتِهَا وَيُخْتَارُ الْمَهْرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ

وخرجه ويحصل اليسار ينتحلي ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال
ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنيطت الصنائع
لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال
بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها
تختص بالتurf والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش فالمعسر إذا
فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورقيه بعوائد من الترف لا توجد في الآخر
فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال
المعسر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف القاذي مع القاذي والتاجر مع
التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع
الشرطي * واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره مثل بجاية
وتلمسان وسبته تجد بينهما بونا كثيراً على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاذي
بفاس أوسع من حال القاذي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا
أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن
تنتهي إلى المدر الذين أعتملهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وما
ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكانت كلها أسواق للأعمال والخرج في كل سوق على
نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاه خرجه وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج
أكثر تكون الأحوال أعظم وهما بفاس أكثر لتفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه
الترف فالأحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينية والجزائر وبسكرة حتى
تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تعد في الأمصار إذا
هي من قبيل القرى والمدر فذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال
مقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثرونه
كسباً فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محالون إلى الأقل النادر واعتبر
ذلك حتى في الأحوال الفقراء والسؤال فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان
أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم
يسألون كثيراً من الأحوال الترف وأقتراح المأكول مثل سؤال اللحم والسمن

وَعَلَّاجُ الطَّبَخِ وَالْمَلَأْسِ وَالْمَاعُونِ كَالْغُرَبَالِ وَالْأَنِيَةِ وَلَوْ سَالَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا
 بَتَلْمُسَانَ أَوْ وَهْرَانَ لَا سُنُكِرَ وَعَنَفَ وَزَجَرَ وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ الْقَاهِرَةِ
 وَمِصْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْغِنَى فِي عَوَائِدِهِمْ مَا يُقْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ
 بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ الثَّقَلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذَلِكَ وَإِنَّمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ الرَّفِ فِيهِ مِصْرَ
 أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لَزِيَادَةِ إِيْثَارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ
 عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ لَدَيْهِمْ وَأَنْتَهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِثَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ
 الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ لَمَّا تَعَرَّفَهُ مِنْ أَنَّ عُمَرََانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ
 عُمَرََانَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمَتْ لَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ. وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالْخُرُجِ
 فَمَتَّكَافٍ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَمَتَّى عَظُمَ الدَّخْلُ عَظُمَ الْخُرُجُ وَبِالْعَكْسِ وَمَتَّى عَظُمَ
 الدَّخْلُ وَالْخُرُجُ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ السَّاكِنِينَ وَوَسَّعَ الْمِصْرُ كُلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا
 فَلَا تُنْكِرُهُ وَاعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ الْعُمَرََانَ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمُسْكَبَةِ الَّتِي
 يَسْهَلُ بِسَبَبِهَا الْبَدَلُ وَالْإِثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ يَبُوتِ الْمَدِينَةِ
 الْوَاحِدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَفُ أَحْوَالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ غَشْيَانِهَا فَإِنَّ يَبُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالثَّرْوَةِ
 وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيصَةِ مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَفْنِيَّتِهَا يَنْتَرْ الْحُبُوبُ وَسَوَاقِطُ الْفُتَاتِ فَيَزْدَحِمُ
 عَلَيْهَا غَوَاشِي النَّمْلِ وَالْخَنَاشِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَابُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَانًا وَتَمَلِّي شَبَعًا
 وَرِيًّا وَيَبُوتُ أَهْلُ الْخَصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءُ الْكَاسِدَةُ أَرْزَاقُهُمْ لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَيْبٌ وَلَا
 يَحْلِقُ بِجَوَّهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا يَبُوتِهِمْ فَارَةٌ وَلَا هَرَّةٌ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
 تَسْقُطُ الطُّيُورُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ الْحَبَّ م وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكُرْمَاءِ

فَتَأْمَلُ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْإِنْسَانِيِّ بِغَاشِيَةِ الْعُجْمِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَفُتَاتِ
 الْمَوَائِدِ بِفَضْلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسَهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْذُلُهَا لِاسْتِغْنَانِهِمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ
 لَوْجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ اتِّسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ النِّعَمِ فِي الْعُمَرََانَ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَدَلُّهُمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

اعْلَمْ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ الْأَقْوَاتُ

مِنَ الْخَنْطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَالْبَقْلَاءِ وَالْبَصْلِ وَالثُّومِ وَاشْبَاهِهِ وَهِيَ الْحَاجِي وَالْكَمَالِي
 مِثْلُ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْمَلَايسِ وَالْمَاعُونِ وَالْمَرَكَبِ وَسَائِرِ الْمَصَانِعِ وَالْمَبَانِي فَإِذَا
 اسْتَبَجَرَ الْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخِصَتْ أَسْعَارُ الضَّرُورِيِّ مِنَ الْقُوتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَغَلَّتْ
 أَسْعَارُ الْكَمَالِي مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ الْمِصْرِ وَضَعُفَ
 عُمُرَانُهُ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحُجُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ الْقُوتِ فَنَتَوَقَّرُ
 الدَّوَاعِي عَلَى اتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يُهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِ وَأَوْ سَنَتِهِ
 فَيَعْمُ اتِّخَاذُهَا أَهْلُ الْمِصْرِ أَجْمَعُ أَوْ الْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ أَوْ نِهَا قَرَبَ مِنْهُ
 لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَتَخِذٍ لِقُوتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تَسُدُّ خَلَّةَ
 كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمِصْرِ فَتَفْضُلُ الْأَفْوَاتُ عَنْ أَهْلِ الْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
 فَتَرْخُصُ أَسْعَارُهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السِّنِينَ مِنَ الْأَلْفَاتِ السَّمَوِيَّةِ وَلَوْلَا
 احْتِكَارُ النَّاسِ لَهَا لِمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاتِ لَبَدَلَتْ دُونَ ثَمَنِ وَلَا عِوَضَ لِكَثَرَتِهَا
 بِكَثَرَةِ الْعُمُرَانِ . وَمَا سَائِرُ الْمَرَافِقِ مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمُ بِهَا
 الْبُلُوى وَلَا يَسْتَغْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالُ أَهْلِ الْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنْ
 الْمِصْرُ إِذَا كَانَ مُسْتَبَجِرًا مَوْفُورًا الْعُمُرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرْفِ تَوَقَّرَتْ حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي
 عَلَى طَلَبِ تِلْكَ الْمَرَافِقِ وَالِاسْتِكْتَارِ مِنْهَا كُلُّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ الْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى
 الْحَاجَاتِ قُصُورًا بَالِغًا وَيَكْثُرُ الْمُسْتَمَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزِدُ مِنْ أَهْلِ الْأَغْرَاضِ
 وَيَبْدُلُ أَهْلُ التَّرْفِ وَالْثَرَفِ أُنْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا
 فَيَقَعُ فِيهَا الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَمَا الصَّنَائِعُ وَالْأَعْمَالُ أَيْضًا فِي الْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمُرَانِ
 فَسَبَبُ الْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ الْأَوَّلُ كَثَرَةُ الْحَاجَةِ لِمَكَانِ التَّرْفِ فِي الْمِصْرِ بِكَثَرَةِ
 عُمُرَانِهِ وَالثَّانِي اعْتِزَالُ أَهْلِ الْأَعْمَالِ لِحُدُومَتِهِمْ وَامْتِنَانِ أَنْفُسِهِمْ لِسَهُولَةِ الْمَعَاشِ فِي
 الْمَدِينَةِ بِكَثَرَةِ أَقْوَانِهَا وَالثَّالِثُ كَثَرَةُ الْمُتَرَفِينَ وَكَثَرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى امْتِنَانِ غَيْرِهِمْ
 وَإِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِ فِي مِنْهُمْ فَيَبْدُلُونَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيَمَةِ
 أَعْمَالِهِمْ مُرَاحَةً وَمُنَاقَسَةً فِي الْاسْتِنْتَارِ بِهَا فَيَعْتَزُّ الْعَمَالُ وَالصَّنَاعُ وَأَهْلُ الْحَرْفِ وَتَقْلُو
 أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْمِصْرِ فِي ذَلِكَ . وَمَا الْأَمْصَارُ الصَّغِيرَةُ وَالْقَلِيلَةُ
 السَّاكِنِ فَأَقْوَانُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقَلَّةِ الْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ إِصْغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ الْقُوتِ

فَيَمْسِكُونَ بِمَا يَحْتَمِلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَيَحْتَكِرُونَهُ فَيَعِزُّ وَجُودُهُ لَدَيْهِمْ وَيَبْغُلُو ثَمَنَهُ
 عَلَى مُسْتَأْمَرِهِ وَأَمَّا مُرَافِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةٌ بِقِلَّةِ السَّاكِنِ وَضَعْفِ الْأَحْوَالِ
 فَلَا تَنْفَقُ لَدَيْهِمْ سُوقَةٌ فَيُخْتَصُّ بِالرُّخْصِ فِي سِعَرِهِ وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ
 قِيَمَةُ مَا يَبْعَرُضُ عَلَيْهِمَا مِنَ الدُّكُوسِ وَالْمَغَارِمِ لِلسُّلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَقْرِ
 وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا عَنِ الْبُيُوتَاتِ لِمَا يَمْسِكُهُمْ وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأَسْعَارُ فِي الْأَمْصَارِ
 أَعْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَادِيَةِ إِذِ الدُّكُوسُ وَالْمَغَارِمُ وَالْفَرَضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ
 مَعْدُومَةٌ وَكَثُرَتْهَا فِي الْأَمْصَارِ لِأَنَّ سَبَبًا فِي آخِرِ الدَّوَلَةِ وَقَدْ تَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ
 قِيَمَةُ عِلَاجِهَا فِي الْفُلْحِ وَيُحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْجَأُوهُمُ النَّصَارَى إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزَّرَاعَةِ
 الدَّيْكَدَةِ الثَّبَاتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الرَّأْكِيَّةَ وَبِلَادَ الطَّيِّبِ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلَاجِ
 الْمَزَارِعِ وَالْفُذْنِ لِأَصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَفُلْحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادِّ
 مِنَ الزُّبَيْلِ وَغَيْرِهِ لَهَا مَوْتَةٌ وَصَارَتْ فِي فُلْحِهِمْ نَقَقَاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَأَعْتَبَرُوا فِي سِعَرِهِمْ
 وَأَخْتَصُّ قَطْرُ الْأَنْدَلُسِ بِالْغَلَاءِ مِنْذُ اضْطَرَّ لَهُمُ النَّصَارَى إِلَى هَذَا الْمَعْمُورِ بِالْإِسْلَامِ
 مَعَ سَوَاحِلِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَيَحْتَسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِغَلَاءِ الْأَسْعَارِ فِي قُطْرِهِمْ أَنَّهَا لِقِلَّةِ
 الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِيهِمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعْمُورِ فُلْحًا فِيمَا عَلِمْنَاهُ
 وَأَقْوَمُهُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ أَنْ يَخْلُو مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سُوقَةٌ عَنْ فِدَانٍ أَوْ مَرْزَعَةٍ أَوْ قُلْحٍ إِلَّا
 قَلِيلٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ وَالْمِهْنِ أَوْ الطَّرَاءِ عَلَى الْوُطْنِ مِنَ الْغَزَاةِ الْجَاهِلِينَ وَلِهَذَا
 يُخْتَصُّهُمُ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعُولَةِ وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ وَإِنَّمَا السَّبَبُ
 فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ
 فِي زَكَاةِ مَنَافِعِهِمْ وَطَيِّبِ أَرْضِهِمْ أَرْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْعُمُونُ جُمْلَةً فِي الْفُلْحِ مَعَ كَثَرَتِهِ
 وَعُمُومَتِهِ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِلَدِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمُرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدْ مَنَاهُ وَتَكْثُرُ

حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيزَةً وَالْمُرَافِقُ غَالِيَةً بِأَزْدِ حَامِ الْأَغْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَبِالْمَعَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبِيَاعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي فَيْمِ الْمَبِيعَاتِ وَبَعْظُهَا فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمُرَافِقِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لِذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثَرَةً بِالْعَةِ عَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهِ وَبَعْظُهَا خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِمُ وَالْبَدْوِيِّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيرًا سَاكِنًا بِمَكَانِ كَسِدِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأْتَلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُكْنَى الْمِصْرِ الْكَبِيرِ لِعَلَاءِ مُرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقْلٍ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَالِلٌ عَوَائِدِ التَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِ فَلَا يُضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَشْتَوِي إِلَى الْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنْ الْبَادِيَةِ فَيَسْرِعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِطَاعَتِهِ إِلَّا مَنْ يُقَدِّمُ مِنْهُمْ تَأْتِلُ الْمَالِ وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمُرَانِ مِنَ الدَّعَاةِ وَالتَّرَفِ حِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالُهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ وَهَكَذَا شَأْنُ بِدَاءَةِ عُمْرَانِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ خَبِيرٌ

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرقة والفقر مثل الامصار

اعلم ان ما توفّر عُمْرَانُهُ مِنَ الْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتِ الْأُمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَمِمَّا لَكُمُ مِنَ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثَرَةِ الْأَعْمَالِ وَمَا سَيَّأِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلثَّرْوَةِ بِمَا يُفْضَلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِ مِنَ الْفَضْلَةِ الْبَالِغَةِ عَلَى مِقْدَارِ الْعُمُرَانِ وَكَثَرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَهُ حَسْبَمَا تَذَكَّرُ ذَلِكَ فِي فَضْلِ الْمَعَاشِ وَيَبَازِ الْرِّزْقِ وَالْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ الرَّفَّةُ لِذَلِكَ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ وَيَجِيئُ التَّرَفُ وَالْغِنَى وَتَكْثُرُ أَجْبَايَةُ الدَّوْلَةِ بِنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَسْمَعُ سُلْطَانُهَا وَتَنْتَفِنُ فِي اتِّخَاذِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُضُونِ وَاتِّخِطَاطِ الدُّنَى وَتَشِيدُ الْأَمْصَارَ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ مِثْلَ مِصْرَ وَالشَّامِ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَنَاحِيَةِ الشِّمَالِ كُلِّهَا

وَأَفْطَارَهَا وَرَأَى الْبَحْرَ الرُّومِيَّ لَمَّا كَثُرَ عُمرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ أَلْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ
دَوْلَتُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَدَنُهُمْ وَخَوَاصِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ فَالَّذِي نَشَاهِدُهُ
هَذَا الْعَهْدُ مِنْ أَحْوَالِ تِجَارَةِ الْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِيهِ
رَفَاهُهُمْ وَاتِّسَاعُ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الْوَصْفُ وَكَذَا تِجَارَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
الْأَفْصَى مِنْ عِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرِّفَةِ غَرَائِبُ
تَسِيرِ أَرْكَبَانِ بِحْدَيْهِمَا وَرُبَّمَا انْتَلَقَى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ وَيَحْسَبُ مَنْ يَسُدُّهَا مِنَ
الْعُلَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لَا بَادَةَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَمْ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ الذَّهَبِيَّةَ وَالْفِضَّةَ أَكْثَرُ بِأَرْضِهِمْ
أَوْ لِأَنَّ ذَهَبَ الْأَفْدَمِينَ مِنَ الْأُمَمِ اسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَمُعْدِنُ
الذَّهَبِ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَفْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ
أَقْرَبُ وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبَضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلِبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتِّجَارَةِ فَلَوْ
كَانَ أَلْمَالُ عَتِيدًا مَوْفُورًا لَدَيْهِمْ لَمَّا جَلَبُوا بَضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَتَغَوَّنَ بِهَا الْأَمْوَالُ وَلَا
اسْتَعْنَوْا عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُمْلَةِ وَقَدْ ذَهَبَ الْمُتَحَمُّونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ وَاسْتَعْرَبُوا
مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتِّسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِ أَتَقَالُوا بِأَنَّ عَطَايَا الْكُوكِبِ
وَالسَّهَامِ فِي مَوَالِدِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصَصًا فِي مَوَالِدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ
صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الْجُيُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَا هُمْ
إِنَّمَا أُعْطُوا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ الْجُيُومِيِّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا
ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثَرَةِ الْعُمَرَانِ وَاخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَأَفْطَارِهِ وَكَثَرَةِ الْعُمَرَانِ
تَفِيدُ كَثَرَةَ الْحَسَبِ بِكَثَرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُهَا فَلِذَلِكَ اخْتَصَّ الْمَشْرِقُ بِالرِّفَةِ
مِنْ بَيْنِ الْأَفَاقِ لِأَنَّ ذَلِكَ لِيَجْرِدَ الْأَثَرُ الْجُيُومِيُّ فَقَدْ فَهِمْتَ مَا أَشْرْنَا لَكَ أَوَّلًا أَنَّهُ
لَا يَسْتَقِلُّ بِذَلِكَ وَأَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمَرَانِ الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا يَدُّ مِنْهُ
وَأَعْتَبِرْ حَالَ هَذَا الرِّفَةِ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي قُطْرِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَبَرْقَةِ لَمَّا خَفَتْ سَكَنُهَا وَتَنَاسَّخَ
عُمَرَانُهَا كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا وَانْتَهَوْا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَضَعَتْ جَبَايَاتُهَا
فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلَتِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلُ الشَّيْعَةِ وَصَنَاجَةِ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ الرِّفَةِ
وَكَثَرَةِ الْجَبَايَاتِ وَاتِّسَاعِ الْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ
تَرْفَعُ مِنَ الْفَقْرِ وَإِنْ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمُحَامَاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلُ

جَوْهَرُ الْكَاتِبِ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ الْفَحْمِلِ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ
الْجُنُودِ وَأَعْطِيَتِهِمْ وَنَفَقَاتِ الْغَزَاةِ وَقَطْرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةَ
فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُوحِدِينَ مُتَّسِعَةً وَجَبَابَتُهُ مَوْفُورَةً
وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمُرَانِ فِيهِ وَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمُرَانِ
الْبَرْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعْبُودِهِ نَقْصًا ظَاهِرًا مُحْسُوسًا وَكَأَنَّ يَحْقَ فِي أَحْوَالِهِ
بِمِثْلِ أَحْوَالِ أَفْرِيقِيَّةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمُرَانُهُ مُتَّصِلًا مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ
السُّودَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَنْصَبِيِّ وَرَقَّةَ وَهِيَ الْيَمِّمُ ذَاكَ أَوْ أَكْثَرُهَا فَتَارَ
وَحَلَاةٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ التَّأُولِ وَاللَّهُ وَارِثُ
الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تاتل العقار والضياع في الامصار وحال فوئدها ومستغلاتها
إِعلمُ أَنَّ تَاتِلَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ الْكَثِيرَةَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً
وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرِ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ الْأَمْلَاقَ
الَّتِي تَخْرُجُ قِيَمَتُهَا عَنِ الْحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الرَّفَةِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ
مُلْكُهُمْ وَتَاتِلُهُمْ لَهَا تَدْرِيجًا إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَنَادَى أَمْلَاقُ
الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرُ ذَلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونُ بِمَجْوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعَقَارَ
فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ الْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ الْحَاكِمِيَّةِ وَخَرَقِ السِّيَاحِ وَتَدَاعِي الدِّمْرِ إِلَى
الْخَرَابِ ثَقُلَ الْغَبْطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ الْمُنْعَةِ فِيهَا بِتَلَاثِي الْأَحْوَالِ فَتَرْخُصُ قِيَمَتُهَا وَتَمْلِكُ
بِالْإِثْمَانِ الْيَسِيرَةِ وَتُخْطَى بِالْمِيرَاثِ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ وَفَدَ اسْتَجَدَّ أَنْ مِصْرَ شَبَابَهُ بِاسْتِحْجَالِ
الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَانْتَضَمَتْ لَهُ أَحْوَالُ رَائِقَةٍ حَسَنَةٍ تَحْصُلُ مَعَهَا الْغَبْطَةُ فِي الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ
بِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيَمَتُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ وَهَذَا مَعْنَى الْحَوَالَةِ
فِيهَا وَيُصْبِحُ مَالِكُهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَعِيهِ وَأَكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ
تَعْجُزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ لِمَالِكِهَا فِي حَاجَاتِ
مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لَا تَتَنِي بِعَوَائِدِ الثَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْغَالِبِ لِسَدِّ الْخَلَّةِ وَضَرُورَةِ
الْمَعَاشِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ مُسَيِّخَةِ الْبُلْدَانِ أَنَّ الْقَصْدَ بِاقْتِنَاءِ الْمَلِكِ مِنَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ اخْشِيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ الدُّرِّيَّةِ الضُّعْفَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقُهُ فِيهِ وَلَشَوْهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْاِكْتِسَابِ فَإِذَا اقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَكْسَبِ سَعَوْا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْوَلَدِ مَنْ يَعْجُزُ عَنِ التَّكْسِبِ لِضَعْفِ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ الْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَقَارُ قِيَامًا لِحَالِهِ هَذَا قَصْدُ الْمُتَرَفِّينَ فِي أَقْبَانِهِ وَأَمَّا التَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ الْمُتَرَفِّينَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوْ النَّادِرِ بِمَجْوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ الْكَثَرَةِ الْبَالِغَةِ مِنْهُ وَالْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي الْمِصْرِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْأَمْرَاءِ وَالْوَلَدَةِ وَأَغْنَصَبُوهُ فِي الْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ أَصْحَابُهُ مِنْهُ مَضَارٌّ وَمَعَاطِبُ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ تَأْتَلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنَى أَهْلُ الْمِصْرِ وَرَمَقَتُهُ الْعَيْنُ بِذَلِكَ وَانْقَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي التَّرَفِّ وَالْعَوَائِدِ زَاخَمَ عَلَيْهَا الْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ وَعَصَوْا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَعْمَلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يَحْصُلُوهُ فِي رِبْقَةٍ حَكِيمٍ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ الْمَوَازِدَةِ ظَاهِرٍ يَنْتَزِعُ بِهِ مَالَهُ وَكَثُرَ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ جَائِرَةٌ فِي الْغَالِبِ إِذَا الْعَدْلُ الْخَفِضُ إِنَّمَا هُوَ فِي اخْتِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ أَلَيْتُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْتِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَصُوفًا فَلَا بَدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالنَّزْوَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْأَعْمُرَانِ مِنْ حَامِيَةِ تَدْوُدٍ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالَصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا السُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ الْعَدِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهَبًا بِوُجُوهِ التَّخْيَلَاتِ وَأَسْبَابِ الْحُكَامِ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا يُعَقَّبُ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانما ترسخ باتصال الدولة ورسوخها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ

الْعُمَرَانُ زِيَادَةً تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرِّفَةِ وَتَفَاوُتِ الْأَثَرِ فِي الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ تَفَاوُتًا غَيْرَ
 مُنَحْصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثَرَةِ التَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ
 وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهَرَةِ فِيهِ وَيَقْدَرُ مَا يَزِيدُ مِنْ أَصْنَافِهَا
 تَزِيدُ أَهْلَ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ لِجِلْبِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ
 حَذَقُوا لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْيَارُ يَطُولُهَا وَانْفِسَاحُ أَمَدِهَا
 وَتَكَرُّرُ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِغْنَاءً كَمَا وَرُسُوحًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِغْنَاءِ
 الْعُمَرَانِ وَكَثَرَةِ الرِّفَةِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ
 تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرِّعَايَةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَسَّعُ أَحْوَالُهُمْ بِأَجْلَاهِ أَكْثَرُ مِنْ
 اتِّسَاعِهَا بِأَلْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرِّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي
 مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَهُمْ إِلَّا كَثُرَ فَتَعْظُمَ لِذَلِكَ ثَرَوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ وَتَزِيدُ
 عَوَائِدُ التَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمَ لَدَيْهِمْ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْحِضَارَةُ
 وَلِهَذَا تَجِدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةً الْعُمَرَانُ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَحْوَالُ الْبِدَاوَةِ
 وَتَبْعُدُ عَنِ الْحِضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ الْمُدُنِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي هِيَ
 مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِجَوَازَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَلَّمَاءُ
 يَخْضَرُ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجُفُوفِ عَلَى الْبُعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا
 أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ سَوَقٌ لِلْعَالَمِ فَالْبُضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا
 أَبْعَدَتْ عَنِ السُّوقِ أَفْتَقَدَتِ الْبُضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ تِلْكَ الدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ
 مَلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ اسْتَحْكَمَتِ الْحِضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوحًا
 وَاعْتَبَرْ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مَلِكُهُمْ بِالشَّامِ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَارْبَعِمِائَةٍ سَنَةٍ رَسَخَتْ
 حَضَارَتُهُمْ وَحَذَقُوا فِي أَحْوَالِ الْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ
 وَالْمَلَأْسِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤْخَذُ عَنْهُمْ فِي الْغَالِبِ إِلَى الْيَوْمِ وَرَسَخَتْ
 الْحِضَارَةُ أَيْضًا وَعَوَائِدُهَا فِي الشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ الرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتْمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا
 فِي غَايَةِ الْحِضَارَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْقُبْطُ دَامَ مَلِكُهُمْ فِي الْخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ
 فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ فِي بِلَادِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مَلِكُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ثُمَّ مَلِكُ
 الْأَسْلَامِ النَّاسِخُ لِلْكُلِّ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَسَخَتْ

عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ بِالْيَمَنِ لِاتِّصَالِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ بِهَا مُنْذُ عَهْدِ الْعِمَالِمَةِ وَالْتَبَاعَةِ الْآفَاءَ
 مِنَ السِّنِينَ وَأَعَقِبَهُمْ مُلْكُ مِصْرَ وَكَذَلِكَ الْحَضَارَةُ بِالْعِرَاقِ لِاتِّصَالِ دَوْلَةِ الْبَطْنِ وَالْفُرْسِ
 بِهَا مِنْ لَدُنِ الْكَلْدَانِيِّينَ وَالْكَيْمَانِيَّةِ وَالْكِسْرَوِيَّةِ وَالْعَرَبِ بَعْدَهُمُ الْآفَاءَ مِنَ السِّنِينَ فَلَمْ
 يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْضَرُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَكَذَا أَيْضًا
 رَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِالْأَنْدَلُسِ لِاتِّصَالِ الدَّوْلَةِ الْعَظِيمَةِ فِيهَا لِلْقُوطِ
 ثُمَّ مَا أَغْنَيْهَا مِنْ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةِ الْآفَاءَ مِنَ السِّنِينَ وَكَلَّمَا الدَّوْلَتَيْنِ عَظِيمَةَ فَأَتَّصَلَتْ فِيهَا
 عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ وَأَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 مُلْكٌ ضَخْمٌ إِنَّمَا قَطَعَ الْإِفْرِيقِيَّةُ إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ الْبَحْرِ وَمَا كَوُ السَّاحِلِ وَكَانَتْ طَاعَةٌ
 الْبَرْبَرِ أَهْلُ الضَّاحِيَةِ لَهُمْ طَاعَةٌ غَيْرُ مُسْتَحْكَمَةٍ فَكَانُوا عَلَى قَلْعَةٍ وَأَوْقَازٍ وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ
 لَمْ يُجَاوِزْهُمْ دَوْلَةٌ وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْعَثُونَ بِطَاعَتِهِمْ إِلَى الْقُوطِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ وَلَمَّا جَاءَ
 اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمَلَكَ الْعَرَبُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ لَمْ يَلْبَثْ فِيهِمْ مُلْكُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلًا
 أَوَّلَ الْإِسْلَامِ وَكَانُوا لِدَوْلَةِ الْعَهْدِ فِي طَوْرِ الْبِدَاوَةِ وَمِنْ أَسْفَرٍ مِنْهُمْ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ
 لَمْ يَجِدْ بِهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ مَا يَقْلُدُ فِيهِ مِنْ سَلَفِهِ إِذْ كَانُوا بَرَابِرَ مُنْعَمِينَ فِي الْبِدَاوَةِ
 ثُمَّ انْتَفَضَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لِأَقْرَبِ الْعُيُودِ عَلَى يَدِ مَبْسَرَةِ الْمُطَفِرِيِّ أَيَّامَ هِشَامِ
 ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَرْجِعُوا أَمْرَ الْعَرَبِ بَعْدَ وَاسْتَقْلَوْا بِأَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ بَايَعُوا
 لِأَدْرِيسٍ فَلَا تُعَدُّ دَوْلَتُهُ فِيهِمْ عَرَبِيَّةً لِأَنَّ الْبَرَابِرَ هُمْ الَّذِينَ تَوَلَّوْهَا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَرَبِ
 فِيهَا كَثِيرٌ عَدَدٌ وَبَقِيَتْ أَفْرِيقِيَّةٌ لِلْأَغَالِبَةِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْحَضَارَةِ
 بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ تَرْفِ الْمُلْكِ وَنَعِيمِهِ وَكَثَرَةِ عُمَرَانَ الْقَيْرَوَانَ وَوَرثَ
 ذَلِكَ عَنْهُمْ كِتَامَةً ثُمَّ صَنَاهَا جُزْءٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ لَمْ يَبْلُغْ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ
 وَأَنْصَرَمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَاسْتَحَالَتْ صِبْغَةُ الْحَضَارَةِ بِمَا كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ وَتَغَلَّبَ
 بَدْوُ الْعَرَبِ الْهَلَالِيِّينَ عَلَيْهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَقِيَ أَثَرُ خَفِيِّ مِنَ حَضَارَةِ الْعُمَرَانَ فِيهَا وَإِلَى هَذَا
 الْعَهْدِ يُنْسَى سَلَفُ لَهُ بِالْقَلْعَةِ أَوْ الْقَيْرَوَانَ أَوْ الْمَهْدِيَّةِ سَلَفٌ مُتَجِدُّ لَهُ مِنَ الْحَضَارَةِ
 فِي شُؤْنِ مَنْزِلِهِ وَعَوَائِدُ أَحْوَالِهِ آثَارًا مُلْتَبَسَةً بِغَيْرِهَا يُدْزِهَا الْخَضِرِيُّ الْبَصِيرُ بِهَا وَكَذَا
 فِي أَكْثَرِ أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ لِرُسُوخِ الدَّوْلَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ
 أَكْثَرًا مِمَّا مُنْذُ عَهْدِ الْأَغَالِبَةِ وَالشَّيْعَةِ وَصَنَاهَا جُزْءٌ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَأَنْتَقَلَ إِلَيْهِ مُنْذُ دَوْلَةِ

الْمُوحِدِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْحِضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ
لِدَوْلِهِمْ مِنَ الْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَانْتَقَلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَكَانَتْ مِنْ اتِّسَاعِ النَّطَاقِ مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْحِضَارَةِ
وَاسْتَحْكَمَهَا وَمُعَظَّمُهَا مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ انْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَةِ
النَّصَارَى إِلَى أَفْرِيقِيَّةٍ فَأَبْقَوْا فِيهَا وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ الْحِضَارَةِ آثَارًا وَمُعَظَّمُهَا بِتُونِسَ
أَمْتَزَجَتْ بِحِضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ الْمَسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا فَكَانَ بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْحِضَارَةِ عَنِّي عَلَيْهِ الْخُلَاءُ وَرَجَعَ إِلَى أَعْقَابِهِ وَعَادَ الْبَزِيرُ
بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ تَارُ الْحِضَارَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ
أَكْثَرُ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ بِلَا تَدَاوُلٍ فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَغْرِبِ
وَلِقُرْبِ عَوَائِدِهِمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ مِصْرَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ . فَتَفْتَنُ لِهَذَا
السِّرِّ فَإِنَّهُ خَفِيَ عَنِ النَّاسِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ الدُّوَلَةِ فِي الْقُوَّةِ
وَالضَّعْفِ وَكَثْرَةِ الْأُمَّةِ أَوْ الْجِيلِ وَعِظَمِ الْمَدِينَةِ أَوْ الْمِصْرِ وَكَثْرَةِ النِّعْمَةِ وَالْيَسَارِ
وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلَةَ وَالْمَلِكَ صُرَّةُ الْحَالِيَةِ وَالْعُمَرَانُ وَكُلُّهَا مَادَّةٌ لَهَا مِنَ الرَّعَايَا وَالْأَمْصَارِ
وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَأَمْوَالِ الْحِبَابَةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي الْغَالِبِ مِنَ أَسْوَاقِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ
وَإِذَا أَفَاضَ السُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِيهَا أَنْبَتَ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ
فَهِيَ ذَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي الْحِبَابَةِ وَالْخَرَجِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ الدُّوَلَةِ
يَكُونُ يُسَارُ الرَّعَايَا وَعَلَى نِسْبَةِ يُسَارِ الرَّعَايَا وَكَثْرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ الدُّوَلَةِ وَأَصْلُهُ
كُلُّهُ الْعُمَرَانُ وَكَثْرَتُهُ فَأَعْتَبَرُهُ وَتَأَمَّلْهُ فِي الدُّوَلِ تَجِدُهُ وَاللَّهُ يُحْكِمُ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها موزنة بفساده
قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالدُّوَلَةَ غَايَةُ لِلْعَصِيَّةِ وَأَنَّ الْحِضَارَةَ غَايَةُ لِلْبِدَاوَةِ وَأَنَّ
الْعُمَرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحِضَارَةٍ وَمَلِكٍ وَسُوقَةٍ لَهُ عُمَرٌ مُحْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ
اشْتِخَاصِ الْمَكُونَاتِ عُمَرًا مُحْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ
غَايَةُ فِي تَزَايُدِ قُوَّاهُ وَنُمُوِّهَا وَإِنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَّ الْأَرْبَعِينَ وَقَفَتِ الطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ الشُّؤْءِ
وَالنُّمُوِّ بَرَهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْإِنْخِطَاطِ فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الْحِضَارَةَ فِي الْعُمَرَانِ أَيْضًا

كَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَايَةٌ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذَلِكَ أَنَّ التَّرَفَ وَالنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلَ لِأَهْلِ الْعُمَرَانِ
 دَعَاهُمْ بِطَبْعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالنَّخْلِ بِعَوَائِدِهَا وَالْحَضَارَةِ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ التَّفَنُّنُ
 فِي التَّرَفِ وَاسْتِجَادَةِ أَحْوَالِهِ وَالصَّنَاعُفَ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تَوَقَّعُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ
 مِنَ الصَّنَائِعِ الْمُهَيَّمَةِ لِلْمَطَامِحِ أَوِ الْمَلَائِسِ أَوِ الْمَبَانِي أَوِ الْقُرُشِ أَوِ الْإِنِيَةِ وَلِسَائِرِ
 أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ وَلِلنَّائِثِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صَنَائِعُ كَثِيرَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ
 الْبِدَاوَةِ وَعَدَمِ النَّائِثِ فِيهَا وَإِذَا بَلَغَ النَّائِثُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْغَايَةَ تَبَعَهُ طَاعَةُ
 الشَّهَوَاتِ فَتَتَلَوَّنُ النَّفْسُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٌ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا
 وَلَا دُنْيَاهَا أَمَّا دُنْيَاهَا فَلَا سَخِرْكُمْ صِبْغَةَ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَغْسِرُ زُرْعُهَا وَأَمَّا دُنْيَاهَا فَلِكَثْرَةِ
 الْحَاجَاتِ وَالْمُتَوَنِّاتِ الَّتِي تُطَالِبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيُجْزِ وَيُنْكَبُ عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا وَيَبْأُئُهُ أَنَّ
 الْمَصْرَ بِالتَّفَنُّنِ فِي الْحَضَارَةِ تَعْظُمُ تَنَفُّاتُ أَهْلِهَا وَالْحَضَارَةُ تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الْعُمَرَانِ فَمَتَى
 كَانَ الْعُمَرَانُ أَكْثَرَ كَانَتْ الْحَضَارَةُ أَكْمَلَ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْمَصْرَ الْكَثِيرَ
 الْعُمَرَانِ يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَتِهِ ثُمَّ تَزِيدُهَا الْمُكُوسُ غَلَاءً لِأَنَّ
 الْحَضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ فِي اسْتِفْهَالِهَا وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ الْمُكُوسِ فِي
 الدُّوَلِ لِكَثْرَةِ خُرْجِهَا حِينَئِذٍ كَمَا تَقْدَمُ وَالْمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبَيَاعَاتِ بِالْغَلَاءِ لِأَنَّ
 الْأُسُوقَةَ وَالتَّجَارَةَ كُلَّهَا يَحْتَسِبُونَ عَلَى سَائِعِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يَنْفَعُونَهُ حَتَّى فِي مُؤَنَّةِ
 أَنْفُسِهِمْ فَيَكُونُ الْمَكْسُ لِدَلِكِ دَاخِلًا فِي قِيَمِ الْبَيَعَاتِ وَأَتَمَانِيَا تَعْظُمُ تَنَفُّاتُ أَهْلِ
 الْحَضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْأَسْرَافِ وَلَا يَجِدُونَ وَبِجَّةً عَنْ ذَلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ مِنْ
 أَثَرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَمُّبِ مَكَاسِبِهِمْ كُلِّهَا فِي التَّنَفُّاتِ وَبِتَتَابُعُونَ فِي الْأُمْلَاقِ
 وَالْخَاصَّةِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ وَيَقِلُّ الْمُسْتَأْمُونُ لِلْمَبَائِعِ فَيَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ
 حَالُ الْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ إِفْرَاطُ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ وَهَذِهِ مُفْسِدَاتُ فِي الْمَدِينَةِ
 عَلَى الْعُدُومِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْعُمَرَانِ وَأَمَّا نَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا عَلَى الْخُصُوصِ
 فَمِنْ الْكَدِّ وَالْعَبِّ فِي حَاجَاتِ الْعَوَائِدِ وَالتَّلَوْنِ بِالْوَانِ الشَّرِّ فِي تَخْصِيصِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى
 النَّفْسِ مِنَ الضَّرَرِ بَعْدَ تَخْصِيصِهَا بِحُصُولِ لَوْنٍ آخَرَ مِنَ الْوَانِهَا فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمْ الْفَسْقُ
 وَالشَّرُّ وَالسَّنَسَفَةُ وَالتَّحِيلُ عَلَى تَخْصِيلِ الْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ وَتَنْصَرِفُ
 النَّفْسُ إِلَى الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ وَالْغُوصِ عَلَيْهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْحِيلَةِ لَهُ فَتَجِدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى

الْكُذْبِ وَالْمُقَامَرَةِ وَالْفُحْشِ وَالْخِلَافَةِ وَالسَّرِقَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْإِيمَانِ وَالزُّبَانِ فِي الْبَيِّنَاتِ
 ثُمَّ تَجِدُهُمْ أَبْصَرَ يَطْرُقُ الْفُسْقُ وَمَذَاهِبُهُ وَالنَّجَاهَةُ بِهِ وَبِدَوَائِعِهِ وَأَطْرَاحِ الْحِشْمَةِ
 فِي الْخَوْصِ فِيهِ حَتَّى بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَذَوِي الْحَرَامِ الَّذِينَ تَقْضِي الْبِدَاوَةُ الْحَيَاءَ مِنْهُمْ
 فِي الْأَفْذَاعِ بِذَلِكَ وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَبْصَرَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ يَدْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ
 مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقًا
 لَا كَثَرَهُمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَيَمُوجُ بَحْرُ الْمَدِينَةِ بِالسَّفَلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ
 وَبِجَارِهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدُّوَلَةِ وَلِدَانِهِمْ مِنْ أَثْمَلٍ عَنِ التَّأْدِيبِ وَغَلَبَ عَلَيْهِ
 خُلُقُ الْجَوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ أَنْسَابٍ وَبُيُوتَاتٍ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُتَمَاثِلُونَ وَإِنَّمَا
 تَنَاضَلُوا وَتَمَيَّزُوا بِالْخُلُقِ وَأَكْتَسَابِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ فَمَنْ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ
 لَمْ يَنْفَعَهُ زَكَاةُ نَسَبِهِ وَلَا طِبُّ مَنْتَبِهِ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ وَذَوِي
 الْأَحْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْغَمَارِ مُتَحَلِّينَ لِلْخُرْفِ الدَّنِيئَةِ فِي
 مَعَاشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبْغَةِ الشَّرِّ وَالسَّفَسَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ
 فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأَمَةِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِرَاضِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
 نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا وَوَجَّهَهُ حِينَئِذٍ
 أَنْ مَكَاسِبُهُمْ حِينَئِذٍ لَا تَنِي بِجَاجَاتِهِمْ لِكثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْقِيمُ
 أَحْوَالُهُمْ وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحِدًا وَاحِدًا اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ
 وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرَسُ النَّارَنِجِ
 تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَامَّةِ يَتَحَامَى غَرَسُ النَّارَنِجِ بِالْدُّورِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ
 ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصِيَّةٌ فِي النَّارَنِجِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَاجِرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ
 تَوَابِعِ الْحِضَارَةِ ثُمَّ إِنَّ النَّارَنِجَ وَاللَّيَّةَ وَالسَّرَوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنَفْعَةَ
 هُوَ مِنْ غَايَةِ الْحِضَارَةِ إِذْ لَا يَقْصَدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْكَالُهَا فَقَطْ وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ
 التَّنْفِيزِ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَهَذَا هُوَ الطَّوْرُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَالِكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا
 قُلْنَا هُوَ وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدِّفْلِيِّ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذِ الدِّفْلِيُّ لَا يَقْصَدُ بِهَا إِلَّا
 تَلَوُّنُ الْبَسَاتِينَ بِنُورِهَا مَا بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَمِنْ مَفَاسِدِ
 الْحِضَارَةِ لِأَنَّهُمْ مَكَّ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِسْرَسَالِ فِيهَا لِكثْرَةِ التَّرَفِ فَيَقَعُ التَّنْفِيزُ فِي شَهَوَاتِ

الْبَطْنِ مِنَ الْمَا كُلِّ وَالْمَلَاذِ فَيُنْضِي ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ النَّوعِ فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَأَعْتَبَرَ بِهِ
 أَنَّ غَايَةَ الْعُمُرَانِ هِيَ الْخِصَارَةُ وَالْتَرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ انْقَلَبَ إِلَى الْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي
 الْهَرَمِ كَالْأَعْدَارِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ نَقُولُ إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْخَاصَّةَ مِنَ الْخِصَارَةِ وَالْتَرَفِ
 هِيَ عَيْنُ الْفَسَادِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِاِقْتِدَارِهِ عَلَى جَانِبِ مَنْفَعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِهِ
 وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَالْخُصْرِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزًا إِمَّا
 حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّعَةِ أَوْ تَرَفًا إِمَّا حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّرَبِ فِي النَّعِيمِ وَالْتَرَفِ وَكَلا الْأَمْرَيْنِ
 ذَمِيمٌ وَكَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَضَارِّ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَالْخُصْرِي بِمَا
 قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الْإِنْسَانِ بِالْتَرَفِ وَالنَّعِيمِ فِي قَهْرِ التَّأْدِيبِ قُبُو بِذَلِكَ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ
 الَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ مِنْهُ الْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ
 النَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَإِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ
 عَلَى اخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَبِهَا الْإِعْتِبَارُ كَانَ
 الَّذِينَ يَتَرَبَّوْنَ عَلَى الْخِصَارَةِ وَخُلُقِهَا مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ اخْصَارَةَ هِيَ
 سُنُّ الْوُفُوفِ لِعُمُرِ الْعَالَمِ فِي الْعُمُرَانِ وَالْدَّوْلَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ
 لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تحرب بحراب الدولة وانقراضها
 قَدْ اسْتَقَرَّ بِنَا فِي الْعُمُرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا اخْتَلَّتْ وَانْتَقَضَتْ فَإِنَّ الْمِصْرَ الَّذِي
 يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمُرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِقَاضِهِ إِلَى الْخُرَابِ وَلَا يَكَادُ
 ذَلِكَ يَتَخَلَّفُ وَالسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ الْأَوَّلُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بَدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ
 لِلتَّجَانِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْبُعْدُ عَنْ التَّحَدُّقِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْحَبَايَةِ وَالْمَغَارِمِ
 الَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ الدَّوْلَةِ فَتَقُلُّ الْفَقَاتُ وَيَقِلُّ التَّرَفُ فَإِذَا صَارَ الْمِصْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا
 لِلْمَلِكِ فِي مَلَكَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ التَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ التَّرَفُ
 فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ لِأَنَّ الرِّعَايَا تَبِعَ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ
 إِمَّا طَوْنًا إِمَّا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتَّبِعِيهِمْ أَوْ كُرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ
 مِنَ الْإِنْقِبَاضِ عَنِ التَّرَفِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَقَلَّةِ الْفَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ

لَتَكْ حِصَارَةُ الْمِصْرِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَهُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُ فِي خَرَابِ
 الْمِصْرِ . الْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنَّمَا يَحْصُلُ لَهَا الْمَلِكُ وَالْإِسْتِثْلَاءُ بِالْغَلَبِ وَإِنَّمَا
 يَكُونُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْحُرُوبِ وَالْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي مُنَافَاةَ بَيْنِ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ وَتَكْثُرُ
 أَحَدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَغَلَبَ أَحَدُ الْمُتَنَافِسِينَ يَذْهَبُ بِالْمُنَافِي
 الْآخَرِ فَتَكُونُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ مُنْكَرَةً عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَمُسْتَبْشَعَةً وَفَيْحَةً
 وَخُصُوصًا أَحْوَالُ التَّرَفِّ فَتَفْقَدُ فِي عُرْفِهِمْ بِسُكْرٍ الدَّوْلَةَ لَهَا حَتَّى تَنْشَأَ لَهُمْ بِالتَّدْرِيجِ
 عَوَائِدُ أُخْرَى مِنَ التَّرَفِّ فَتَكُونُ عَنْهَا حِصَارَةٌ مُسْتَأْنَفَةً وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ قُصُورُ الْحِصَارَةِ
 الْأُولَى وَنَقْصُهَا وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ الْعُمَرَاءِ فِي الْمِصْرِ . الْأَمْرُ الثَّالِثُ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَا
 يَدُلُّهُمْ مِنْ وَطَنِ وَهُوَ مَنَاشَأُهم وَمَنْهُ أَوْلِيَهُم مَلِكُهُمْ وَإِذَا مَلَكَوا مُلْكًا آخَرَ صَارَ تَبَعًا
 لِلْأَوَّلِ وَأَمْصَارُهُ تَابِعَةٌ لِأَمْصَارِ الْأَوَّلِ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ وَلَا بَدَّ مِنْ تَوْسِطِ
 الْكُرْسِيِّ تَخُومِ الْمَمَالِكِ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُ شَبْهُ الْمَرْكَزِ لِلنِّطَاقِ فَيَعْدُ مَكَانُهُ عَنْ
 مَكَانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ وَتَهْوِي أَفْتِدَةُ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ فَيَنْتَقِلُ إِلَيْهِ
 الْعُمَرَاءُ وَيَخِفُّ مِنَ مِصْرِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ وَالْحِصَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَوْفُرُ الْعُمَرَاءِ كَمَا
 قَدَّمَاهُ فَتَنْقُصُ حِصَارَتُهُ وَتَمُدُّهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلسُّجُوقِيَّةِ فِي عَدُولِهِمْ
 بِكَرْسِيَّهِمْ عَنْ بَغْدَادَ إِلَى أَصْبَهَانَ وَلِلْعَرَبِ قَبْلَهُمْ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْمَدَائِنِ إِلَى الْكُوفَةِ
 وَالْبَصْرَةِ وَلِبَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْعُدُولِ عَنْ دِمَشْقَ إِلَى بَغْدَادَ وَلِبَنِي مُرِينَ بِالْعَرَبِ فِي
 الْعُدُولِ عَنْ مَرَاكِشَ إِلَى فَاسَ وَبِالْجَمَلَةِ فَاتَّخَذَ الدَّوْلَةُ الْكُرْسِيَّ فِي مِصْرِ
 يُحِلُّ بِعُمَرَاءِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ . الْأَمْرُ الرَّابِعُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الثَّانِيَةَ لَا بَدَّ فِيهَا مِنْ تَبَعِ
 أَهْلِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ وَأَشْيَاعُهَا بِتَحْوِيلِهِمْ إِلَى قَطْرِ آخَرٍ يُؤْمَنُ فِيهِ غَائِلَتُهُمْ عَلَى الدَّوْلَةِ
 وَكَثُرَ أَهْلُ الْمِصْرِ الْكُرْسِيِّ أَشْيَاعُ الدَّوْلَةِ إِمَّا مِنَ الْحُلَمِيَّةِ الَّذِينَ نَزَلُوا بِهِ أَوَّلَ
 الدَّوْلَةِ أَوْ أَعْبَانِ الْمِصْرِ لِأَنَّ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ مُخَالَطَةَ الدَّوْلَةِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ وَتَنَوُّعَ أَصْنَافِهِمْ
 بَلْ أَكْثَرُهُمْ نَاشِئٌ فِي الدَّوْلَةِ فَهُمْ شَبْعَةٌ لَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِالشُّوْكَةِ وَالْعَصْبِيَّةِ فَهُمْ
 بِالْمِيلِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْعَقِيدَةِ وَطَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَحْوُ آثارِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ فَيُنْقَلِبُ
 مِنْ مِصْرِ الْكُرْسِيِّ إِلَى وَطَنِهَا الْمُتِمَكِّنِ فِي مَلَكَتِهَا فَبَعْضُهُمْ عَلَى نَوْعِ التَّغَرُّبِ
 وَالْحُبْسِ وَبَعْضُهُمْ عَلَى نَوْعِ الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ بَحِثُ لَا يُودِي إِلَى النَّفَرَةِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي

مَضِرُ الْكُرْسِيِّ إِلَّا الْبَاعَةُ وَالْمَمْلُ مِنْ أَهْلِ الْفَلَحِ وَالْعِبَارَةِ وَسَوَادُ الْعَامَةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ
 حَامِيَتَهَا وَأَشْيَاعُهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ الْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ الْمِصْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ
 سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمَرَانِهِ ثُمَّ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمَرَانُ آخَرُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ
 الْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلُ فِيهِ حِصَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدَرِ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَثَابَةِ مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى
 أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ
 وَيَقْتَرِحُهُ فَيَغْتَرِبُ ذَلِكَ الْبَيْتُ ثُمَّ يَبْعِدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي
 هِيَ كُرَاسِي الْمُلُوكِ وَشَاهِدَانَهُ وَعِلْمَانَهُ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ
 فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ لِلْعُمَرَانِ بِثَابِتَةِ الصُّورَةِ الْمَادَّةِ وَهُوَ الشَّكْلُ الْخَافِظُ
 بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْتِكَالُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ
 فَالدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمَرَانِ لَا تُتَصَوَّرُ وَالْعُمَرَانُ دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكَ مُتَعَدِّ بِمَا فِي طَبَاعِ
 الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ الدَّاعِي إِلَى الْوَارِعِ فَتَتَعَيَّنُ السِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا الشَّرْعِيَّةَ أَوِ الْمَلِكِيَّةَ
 وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَّانَ فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ الْآخَرِ
 كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَالْخُلُلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الدَّوْلَةِ الْكُلِّيَّةِ
 مِثْلَ دَوْلَةِ الرُّومِ أَوِ الْفَرَسِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ بَنِي الْعَبَّاسِ كَذَلِكَ
 وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ نُوشَرَوَانَ أَوْ هَرْقِلَ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوْ
 الرَّشِيدِ فَاشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمَرَانِ حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبِقَائِهِ وَقَرِيبَةُ الشَّبهِ بَعْضُهَا
 مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرُ اخْتِلَالِ الدَّوْلَةِ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةِ فِي مَادَّةِ الْعُمَرَانِ إِنَّمَا
 هِيَ الْعَصَبِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا
 عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي الْعُمَرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِاجْتِمَاعِهِمْ وَعَظُمُ الْخُلُلِ كَمَا
 قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ
 الْعُمَرَانِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ الْأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ
 وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَحْتَصُونَ بِوُضُفِيَّتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ

الْبَلْوَى بِهِ فِي الْمِصْرِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَمَا لَا يَسْتَدْعِي فِي الْمِصْرِ يَكُونُ غُفْلًا إِذْ لَا فَائِدَةَ
لِمُنْتَحِلِهِ فِي الْإِحْتِرَافِ بِهِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَلِكَ لِضَرُورَةِ الْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ
كَالْحَيَّاطِ وَالْحُدَّادِ وَالنَّجَّارِ وَأَمْثَالَهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ التَّرَفِّ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ
فِي الْمَدِينِ الْمُسْتَبْحِرَةِ فِي الْعِمَارَةِ الْأَخْذَةِ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْحَضَارَةِ مِثْلَ الزَّجَّاجِ
وَالصَّائِغِ وَالْدِهَانِ وَالطَّبَّاحِ وَالصَّنَّارِ وَالْفَرَّاشِ وَالذَّبَّاحِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَثِي مِثْفَاوَةٌ
وَبَقْدَرٌ مَا تَرِيدُ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَدْعِي أَحْوَالُ التَّرَفِّ تَحْدُثُ صَنَائِعٌ لِذَلِكَ النَّوْعِ
فَتُوجَدُ بِذَلِكَ الْمِصْرِدُونَ غَيْرُهُ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْحَمَامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي الْأَمْصَارِ
الْمُسْتَحْضَرَةِ الْمُسْتَبْحِرَةِ الْعُمُرَانِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُّ وَالْغِنَى مِنَ التَّعَمُّ وَلِذَلِكَ
لَا تَكُونُ فِي الْمَدِينِ الْمَتَوَسِّطَةِ وَإِنْ نَزَعَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْطُهَا
وَيُجْرِي أَحْوَالَهَا إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ النَّاسِ فَسَرَعَانَ مَا تُهْجَرُ وَتُخْرَبُ
وَتَفْرُقُ عَنْهَا الْقَوْمَةُ لِقَلَّةِ فَائِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض
مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ الْأَلْتِمَامَ وَالْإِتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ
وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمَاهُ أَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ بِالنَّسَبِ وَأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ الْعَصْبِيَّةُ بَعْضًا مِمَّا
تَحْصُلُ بِالنَّسَبِ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِمُونَ بِالْصَّهْرِ يُجَذُّ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا إِلَى
أَنْ يَكُونُوا لَحْمًا لَحْمًا وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَتَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالصَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ
الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ مِثْلَهُ فَيَفْتَرِقُونَ شَيْعًا وَعَصَائِبَ فَإِذَا نَزَلَ الْهَرَمُ بِالْدَوْلَةِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّ
الدَّوْلَةِ عَنِ الْقَاصِيَةِ أَحْتَجَّ أَهْلُ الْأَمْصَارِهَا إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمُ وَالنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بِلَدِهِمْ
وَرَجَعُوا إِلَى الشُّورَى وَتَمَيَّزَ الْعَلِيَّةُ عَنِ السُّفْلَةِ وَالنُّفُوسُ بِطَبَاعِهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى الْغَلَبِ
وَالرَّئَاسَةِ فَتَطْمَحُ الْمَشِيخَةُ خِلَاءَ الْجَوِّ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْدَوْلَةِ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْأَسْتَبْدَادِ
وَيَنَازِعُ كُلُّ صَاحِبَةٍ وَيَسْتَوْصِلُونَ بِالْأَتْبَاعِ مِنَ الْمَوَالِي وَالشَّيْعِ وَالْأَحْلَافِ وَيَتَدَلَّوْنَ
مَا فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَالْأَوْثَابِ فَيَعْضُوبُ كُلُّ إصَاحِبِهِ وَيَتَعَبَّنِ الْغَلَبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَعْطِفُ
عَلَى كَفَائِهِ لِيَقْصَّ مِنْ أَعْتَبِهِمْ وَيَتَبَعَهُمْ بِالْقَتْلِ أَوِ التَّغْرِيبِ حَتَّى يُخْضَعُ مِنْهُمْ الشُّوَكَاتُ
الْذَائِدَةُ وَيَقْلَمَ الْأَظْفَارُ الْخَادِشَةُ وَيَسْتَبِدُّ بِمِصْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ اسْتَحْدَثَ مُلْكًا

بِوَرُثَةِ عَقِبِهِ فَيَحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْمَلِكِ الْأَصْغَرِ مَا يَحْدُثُ فِي الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ مِنْ عَوَارِضِ
 الْحِدَّةِ وَالْهَرَمِ وَرُبَّمَا يَسْمُو بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَنَازِعِ الْمُلُوكِ الْأَعْظَمِ أَصْحَابِ الْقَبَائِلِ
 وَالْعَشَائِرِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَالزُّحُوفِ وَالْخُرُوبِ وَالْأَفْطَارِ وَالْمَمَالِكِ فَيَنْتَحِلُونَ بِهَا مِنَ الْجُلُوسِ
 عَلَى السَّرِيرِ وَاتِّخَاذِ الْأَلَةِ وَإِعْدَادِ الْمَوَاكِبِ لِلسَّيْرِ فِي أَفْطَارِ الْبَلَدِ وَالنَّخْمِ وَالْحُسْبِيَّةِ
 وَالْخُطَابِ بِالتَّمْوِيلِ مَا يَسْتَحْزِنُ مِنْهُ مَنْ يُشَاهِدُ أَحْوَالَهُمْ لَمَّا اتَّخَلَّوْهُ مِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ الَّتِي
 لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ إِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلُصُ الدَّوْلَةِ وَالنِّعَامُ بَعْضُ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصَبِيَّةً
 وَقَدْ يَنْتَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُخْرِجِي عَلَى مَذْهَبِ السَّادِجَةِ فِرَارًا مِنَ التَّعْرِيضِ بِنَفْسِهِ لِلشُّخْرِيَّةِ
 وَالْعَبَثِ وَقَدْ وَقَعَ هَذَا بِأَفْرِيقِيَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْخَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ
 مِنْ طَرَابُلُسَ وَقَايسَ وَتُؤَزَّرَ وَنَقْطَةَ وَقَفْصَةَ وَبِسْكَرَةَ وَالزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ سَمَوْا إِلَى
 مِثْلِهَا عِنْدَ تَقْلُصِ ظِلِّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مِنْدُ عُقُودِ مِنَ السَّنِينَ فَاسْتَعْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ
 وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْحَيَايَةِ وَأَعْطَوْا طَاعَةً مَعْرُوفَةً وَصَفَقَةً
 مُمَرَّصَةً وَأَقْطَعُوهَا جَانِبًا مِنَ الْمَلَابِنَةِ وَالْمَلَاظِفَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَهُمْ بِمَعَزِلِ عَنْهُ وَأَوْرَثُوا
 ذَلِكَ أَعْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَحَدَثَ فِي خَلْفِهِمْ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّجْبُرِ مَا يَحْدُثُ لِأَعْقَابِ الْمُلُوكِ
 وَخَلْفِهِمْ وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السَّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى نَحَا ذَلِكَ
 مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَأَنْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَرُ فِي
 أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَاسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ
 أَهْلُهَا وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى انْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُوحِدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ
 بْنُ عَلِيٍّ وَتَقْلَهُمْ كُلُّهُمْ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَنَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ أَنْتَزَهُمْ كَمَا
 نَذَرُ فِي أَخْبَارِهِ وَكَذَا وَقَعَ بِسَبْتَةِ لِآخِرِ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ
 غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَوَاتِ وَالْبُيُوتَاتِ الْمُرَشَّحِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِي الْحَضَرِ وَقَدْ يَحْدُثُ
 التَّغْلِبُ لِبَعْضِ السَّفَلَةِ مِنَ الْغَوَاغِ وَالْهَمَاءِ وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْإِنْتِحَامُ بِالْأَوْعَادِ
 لِأَسْبَابٍ يُجْرِمُهَا لَهُ الْمَقْدَارُ فَيَتَغْلَبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعِلْيَةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعَصَابَةِ وَاللَّهِ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجليل الغالبين عليها او المختطين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالشرق والغرب لهذا العهد عربية وان كان اللسان العربي المضرى قد فسدت ملكته وتغير اعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامة والدين والملة صورة للوجود والمملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من اللسان في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن بيانة الاعاجم وقال انها خب ابي مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القانمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامة لغاتهم ولسانهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسنه العجمية دخيلة فيها وعربية ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض احكامه وتغير اخره وان كان بقي في الدلالات على اصله وسمي لسانا حضريا في جميع امصار الاسلام وايضا فاكثروا اهل الامصار في الملة لهذا العهد من اعقاب العرب المالكين لها المالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا ارضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الاباء وان فسدت احكامها بمخالطة الاعجام شيئا فشيئا وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فانها كانت اعرق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسجوقية بعدتهم بالشرق وزانته والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وسار ذلك مرجحا لبقاء لغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فلما ملك التتر

وَالْمَغُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَرْجَحُ وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ
 الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ
 وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الشِّمَالِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَذَهَبَتْ
 أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الشَّعْرِ وَالْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَبْقَى تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِالْقَوَانِينِ
 الْمَتَدَارِسَةِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسِرُّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِذَلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيَتْ
 اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَضْرِيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ بِالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَلَبًا لَهَا
 فَأُحْفِظَتْ بَعْضُ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ
 حَتَّى إِنْ كُتِبَ الْعُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِسُهُ فِي الْجَمَالِسِ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله
 من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية
 اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويموته في حالته واطواره من لدن نشوئه
 الى اشده الى كبره والله الغني وانتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان
 وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال خلق لكم ما في السموات وما في الارض جميعا
 منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهد يد
 الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وايدي البشر منتشرة
 فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر الا بعوض فالانسان متى
 اقتدر على نفسه وتجاوز الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها
 في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله

الرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ الْمُصْلِحِ لِلزَّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا
تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكْسَبُ مَعَاشًا إِنْ
كَانَتْ بِمِقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشًا وَمُتَمَوِّلًا إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ إِنْ ذَلِكَ
الْحَاصِلُ أَوْ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنَفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَّتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ انْتِفَاعِهِ فِي مَصَالِحِهِ
وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ رِزْقًا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ
فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِئْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ
وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالِكِ رِزْقًا وَالْمَتَمَّاكَ مِنْهُ حِينَئِذٍ يَسْمَى الْعَبْدُ
وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْبًا وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْهَالِكِ كَسْبًا وَلَا يُسَمَّى
رِزْقًا إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مَنَفَعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقًا هَذَا حَقِيقَةُ
مُسَمَّى الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ اشْتَرَطَ الْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَةِ رِزْقًا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ
يَصِحُّ تَمْلُكُهُ وَمَا لَا يَتَمَّاكَ عَنْدهُمْ لَا يُسَمَّى رِزْقًا وَأَخْرَجُوا الْعُصُوبَاتِ وَالْحُرَامَ كُلَّهُ
عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقًا وَاللَّهُ تَعَالَى بِرِزْقِ الْغَاصِبِ وَالظَّالِمِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ
بِرَحْمَتِهِ وَهُدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجْجٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعٌ بَسْطِهَا ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ
الْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالسَّعْيِ فِي الْإِفْتِنَاءِ وَالْقَصْدِ إِلَى التَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي الرِّزْقِ مِنْ
سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وَجْهِهِ قَالَ تَعَالَى فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَالسَّعْيُ
إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامَةِ فَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَعْمَالِ
الْإِنْسَانِيَةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوِّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ الصَّنَاعِ فَظَاهِرٌ
وَإِنْ كَانَ مُقْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْدَّعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا
تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ انْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْحَجَرَيْنِ الْمَعْدَنَيْنِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِيمَا أَكُلَ مُتَمَوِّلٌ وَهُمَا الذَّخِيرَةُ وَالْقَنِيَّةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي الْغَالِبِ
وَإِنْ أَقْنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ تَحْصِيلُهُمَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ
الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا يَعْزَلُ فَعَمَّا أَصْلُ الْمَكْسَبِ وَالْقَنِيَّةِ وَالذَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا
كُلُّهُ فَاعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَبِقَنِيَّتِهِ مِنَ الْمُتَمَوِّلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَاعِ
فَالْمَقَادُ الْمُقْتَنَى مِنْهُ فِيمَا عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقَنِيَّةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَلَيْسَ
بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ الْقَنِيَّةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَاعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ الْبِجَارَةِ وَالْحَيَاكَةِ

مَعَهَا الْخَشَبُ وَالْغَزْلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ قِيَمَتُهُ أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ
الصَّنَاعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيَمَةٍ ذَلِكَ الْمَقَادِرُ وَالْقَنِيَّةِ مِنْ دُخُولِ قِيَمَةِ الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ
بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْصُلْ قِنِيَّتُهَا وَقَدْ تَكُونُ مِلَاحِظَةُ الْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا
فَتَحْصُلُ لَهُ حِصَّةٌ مِنَ الْقِيَمَةِ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ وَقَدْ تَخْفَى مِلَاحِظَةُ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ
الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَعْتَبَرَ الْأَعْمَالُ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا مِلَاحِظُ فِي أَسْعَارِ الْحُبُوبِ كَمَا
قَدَّمَاهُ لَكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفُلَحِ فِيهَا وَمَوْنَتُهُ بِسِيرَةٍ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا
الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفُلَحِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمَقَادِرَ وَالْمَكْتَسِبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا هِيَ
فِي الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مَسْمَى الرِّزْقِ وَأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْمَكْسَبِ
وَالرِّزْقِ وَشَرَحَ مَسْمَاهَا وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا فَقِدْتَ الْأَعْمَالَ أَوْ قَلْتَ بِانْتِقَاصِ الْعُمُرِ
تَأْذَنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْمَكْسَبِ أَلَا تَرَى إِلَى الْأَمْصَارِ الْقَلِيلَةِ السَّاكِنِ كَيْفَ يَقِلُّ الرِّزْقُ
وَالْمَكْسَبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمُرَانِهَا
أَكْثَرَ يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالًا وَأَشَدَّ رَفَاهِيَّةً كَمَا قَدَّمَاهُ قَبْلَ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ نَقُولُ
الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمُرَانِهَا إِنَّمَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنَّ الْأَنْهَارَ وَالْعِيُونَ
يَنْقَطِعُ جَرِيَّتُهَا فِي الْفَقْرِ لَمَّا أَنَّ قُوَّةَ الْعِيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ
بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَلَمَّا يَكُنْ إِنْبَاطٌ وَلَا أَمْتِرَاءٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ
بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَجِفُّ الضَّرْعُ إِذَا تَرَكَ أَمْتِرَاؤُهُ وَأَنْظَرُهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعْهَدُ فِيهَا الْعِيُونَ
لِأَيَّامِ عُمُرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخُرَابُ كَيْفَ تَغُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَانَتْ لَمْ تَكُنْ وَاللَّهُ
مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

أَعْلَمَ أَنَّ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ ابْتِغَاءِ الرِّزْقِ وَالسَّعْيِ فِي تَحْصِيلِهِ وَهُوَ مَفْعَلٌ مِنَ
الْعَيْشِ كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَيْشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهَذِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعًا لَهُ عَلَى
طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَحْصِيلَ الرِّزْقِ وَكَسْبَهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ
وَأَنْتِزَاعِهِ بِالْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونِ مُتَعَارِفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَمًا وَجِبَايَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
مِنْ الْحَيَوَانِ الْوَحْشِيِّ بِأَفْتِرَاسِهِ وَأَخْذِهِ بِرَمِيهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ وَيُسَمَّى أَصْطِيَادًا

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ الْمُنْصَرَفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي
 مَنَافِعِهِمْ كَاللِّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دُودِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ
 فِي الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هَذَا كُلُّهُ قَائِحًا وَإِمَّا
 أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ إِمَّا فِي مَوَادِّ مُعِينَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعُ مِنْ كِتَابَةِ
 وَنِجَارَةٍ وَخِيطَاةٍ وَحَيَاكَةِ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مُعِينَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ
 الْأُمْتِرَانَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبُضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ
 إِمَّا بِالْتَّقَلُّبِ بَهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَارْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هَذَا تِجَارَةً
 فَهَذِهِ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ
 كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا الْإِمَارَةُ
 فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ نَقَدَّمْ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ
 الْحَيَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ فَهِيَ وَجُوهُ
 طَبِيعِيَّةُ الْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةُ
 فِطْرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ
 مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَأَمَّا
 الصَّنَائِعُ فَهِيَ تَأْتِيهَا وَمَتَأَخَّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصَرَّفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ
 وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْخَضِرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا
 الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى أَدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ
 بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا التَّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْكَسْبِ فَلَا كَثْرَ مِنْ
 طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحِيلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيَمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ
 لَتَحْصَلَ فَائِدَةُ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ
 مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذًا لِمَالٍ الْغَيْرِ تَجْنًا فَلِهَذَا اخْتَصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمَنَّ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ
 الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَمُ

غَنَاءُهُ فِيهِ وَيَتَكَفَّلُ بِأَرْزَاقِهِمْ مِنْ بَيْتِ مَالِهِ وَهَذَا كُلُّهُ مُنْدرَجٌ فِي الْأَمَارَةِ وَمَعَاشِهَا
 إِذْ كُلُّهُمْ يَتَسَحَّبُ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْأَمَارَةِ وَالْمَلِكُ الْأَعْظَمُ هُوَ يَنْبُوعُ جَدَاوِلِهِمْ وَأَمَّا مَا
 دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْخِدْمَةِ فَسَبَبُهَا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُتَرَفِينَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ حَاجَاتِهِ أَوْ يَكُونُ
 عَاجِزًا عَنْهَا لِمَا رَزَقَ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِ النِّعَمِ وَالتَّرَفِ فَيَتَخَذُ مَنْ يَتَوَكَّلُ ذَلِكَ لَهُ وَيَقْطَعُهُ عَلَيْهِ
 أَجْرًا مِنْ مَالِهِ وَهَذِهِ الْحَالَةُ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ بِحَسَبِ الرَّجُولِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ إِذِ الثَّقَةُ
 بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ وَلَئِنْهَا تَزِيدُ فِي الْوُضَائِفِ وَالْخُرُجِ وَتَدُلُّ عَلَى الْعِجْزِ وَالْخَنَثِ الَّذِي يَنْبَغِي
 فِي مَذَاهِبِ الرَّجُولِيَّةِ النَّزَهُ عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ تَقْلِبُ طَائِعَ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا لَوْهَا فَرَوُ
 أَبْنُ عَوَائِدِهِ لَا أَبْنَ نَسَبِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَالْخَدِيمُ الَّذِي يُسْتَكْفَى بِهِ وَيُوثَقُ بِغَنَائِهِ كَالْمَقْشُودِ
 إِذْ الْخَدِيمُ الْقَائِمُ بِذَلِكَ لَا يَعْدُو أَرْبَعَ حَالَاتٍ إِمَّا مُضْطَلَعٌ بِأَمْرِهِ وَلَا مَوْثُوقٌ فِيمَا يَحْصُلُ
 بِيَدِهِ وَإِمَّا بِالْعَكْسِ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ مُضْطَلَعًا غَيْرَ مَوْثُوقٍ أَوْ مَوْثُوقًا غَيْرَ
 مُضْطَلَعٍ فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ الْمُضْطَلَعُ الْمَوْثُوقُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدٍ أَسْتَعْمَلَهُ بِوَجْهِهِ إِذْ
 هُوَ بِأَضْطِرَّائِهِ وَثِقَتِهِ غَيَّبٌ عَنْ أَهْلِ الرَّتَبِ الدِّينِيَّةِ وَتُخَفَّرُ لِمِثَالِ الْأَجْرِ مِنَ الْخِدْمَةِ
 لِاقْتِدَارِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا الْأُمَرَاءُ أَهْلُ الْجَاهِ الْعَرِضِ لِعُمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَى الْجَاهِ وَأَمَّا الصَّنْفُ الثَّانِي وَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُضْطَلَعٍ وَلَا مَوْثُوقٍ فَلَا يَنْبَغِي
 لِعَاوِلِ أَسْتَعْمَالِهِ لِأَنَّهُ يُخَفَّفُ بِخُدُومِهِ فِي الْأُمُورِ مَعَ فَيَضِيعُ عَلَيْهِ لِعَدَمِ الْأَصْطِنَاعِ
 تَارَةً وَيَذْهَبُ مَالُهُ بِالْخِيَانَةِ أُخْرَى فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ فِهَذَانِ الصَّنِفَانِ لَا
 يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي أَسْتَعْمَالِهِمَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسْتِعْمَالُ الصَّنِفَيْنِ الْآخَرَيْنِ مَوْثُوقٍ غَيْرَ مُضْطَلَعٍ
 وَمُضْطَلَعٍ غَيْرَ مَوْثُوقٍ وَلِلنَّاسِ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا مَذْهَبَانِ وَلِكُلِّ مِنَ التَّرْجِيحَيْنِ وَجْهٌ
 إِلَّا أَنَّ الْمُضْطَلَعِ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مَوْثُوقٍ أَرْجَحُ لِأَنَّهُ يُؤْمَنُ مِنْ تَضْيِيعِهِ وَيُحَاوَلُ عَلَى التَّحَرُّزِ
 مِنْ خِيَانَتِهِ جُهْدُ الْأَسْطِطَاعَةِ وَأَمَّا الْمُضْطَلَعُ وَلَوْ كَانَ مَأْمُونًا فَضَرَرُهُ بِالتَّضْيِيعِ أَكْثَرُ مِنْ
 نَفْعِهِ فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَامْخُذْهُ قَانُونًا فِي الْأَيْتِمَانِ بِالْخِدْمَةِ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرسون على استخراج الاموال من

تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَتَبَوَّنَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مُخْتَزِنَةٌ
كُلُّهَا تَحْتَ الْأَرْضِ مَخْتُومٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطَلَاسِمٍ سِحْرِيَّةٍ لَا يَنْضُ خَتَمُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَتَرَ
عَلَى عِلْمِهِ وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالِدُعَاءِ وَالْقُرْبَانِ فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِأَفْرِيقَةٍ يَرَوْنَ
أَنَّ الْأَفْرِيقَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْأِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي
الْصُّخْرِ بِالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ
يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أُمَمِ الْقَيْطِ وَالرُّومِ وَالْفَرَسِ وَيَتَنَاقِلُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ تُشَبِّهُ حَدِيثَ
خُرَافَةٍ مِنْ أَنْتَهَاءِ بَعْضِ الظَّالِمِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَنْزِ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طَلْسَمَهُ
وَلَا خَبْرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِالْيَدِيدَانِ أَوْ يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً
وَالْحَرَسَ دُونَهَا مُنْتَظِينَ سَيُوفِهِمْ أَوْ تَمِيدُ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى يَطْنَهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ
مِنْ أَلْهَرٍ وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلِيبَةِ الْبَزْرِ بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ
وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْأَوْرَاقِ الْمُتَحَرِّمَةِ الْحَوَاشِي إِمَّا بِخُطُوطٍ مُجَمَّعَةٍ أَوْ
بِمَا تُرْجِمُ بَرَعُهُمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدِّقَاتِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا
يَتَبَوَّنَ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْعَثُونَهُ عَلَى الْخَفَرِ وَالطَّلَبِ وَيُمَوِّهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا
حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ الْجَاهِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَامِ وَالْعُقُوبَاتِ وَرَبَّمَا
تَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةً أَوْ غَرِيبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ السِّحْرِيَّةِ يُمَوِّهُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا
بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ وَهُوَ بِمَعَزَلٍ عَنِ السِّحْرِ وَطُرُقِهِ فَتَوَلَّعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ بِجَمْعِ
الْأَيْدِي عَلَى الْأَحْنَفَارِ وَالتَّسْتَرِّ فِيهِ بِظُلُمَاتِ اللَّيْلِ مُخَافَةَ الرُّقَبَاءِ وَعُيُونِ أَهْلِ الدُّوَلِ فَإِذَا
لَمْ يَبْعَثُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالطَّلَسِمِ الَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ
يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطْلَعِهِمْ وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْعَالِبِ زِيَادَةً
عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنْ
التِّجَارَةِ وَالْقُلُوعِ وَالصَّنَاعَةِ فَيُطْلَبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُتَحَرِّفَةِ وَعَلَى غَيْرِ الْعَجْزِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ
هَذَا وَأَمَّا هَلْ عَجْزًا عَنِ السَّعْيِ فِي الْمَكَاسِبِ وَرُكُوبًا إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ
وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَكَتْسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِبْتِغَاءِ ذَلِكَ مِنْ
غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجَهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذَلِكَ
لِمَنَالِ الْعُقُوبَاتِ وَرَبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ زِيَادَةُ التَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ وَخُرُوجُهَا

عَنْ حَدِّ النَّهْيَةِ حَتَّى تُقَصِّرَ عَنْهَا وَجُوهُ الْمَكْسَبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَقِفْ بِمَطْلِبِهَا فَإِذَا عَجَزَ
عَنِ الْمَكْسَبِ بِالْعَجْزِ الطَّبِيعِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيَّةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَوْ جُودَ الْمَالِ الْعَظِيمِ
دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ لِيَقِفَ لَهُ ذَلِكَ بِالْعَوَائِدِ الَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرَافِهِ فَيُخَرِّصُ عَلَى ابْتِغَاءِ ذَلِكَ
وَيَسْعَى فِيهِ جِدَّهُ وَلِهَذَا فَإِنَّ كَثْرَ مَنْ تَرَاهُمْ يَخْرُصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ الْمُتَرَفُونَ مِنْ أَهْلِ
الدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ الْأَمْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ الْمُسَعِّعَةِ الْأَحْوَالِ مِثْلَ مِصْرَ وَمَا فِي
مَعْنَاهَا فَيَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُعْرِضِينَ بِابْتِغَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءِلَةِ الرُّكْبَانِ عَنْ شَوَادِهِ
كَمَا يَخْرُصُونَ عَلَى الْكَيْمِيَاءِ هَكَذَا بَلَّغَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مَفَاوِضَ مِنْ يَأْقُونَهُ مِنْ
طَلَبَةِ الْمَعَارِبَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْتَرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَرِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ أَلْتَبَثَ عَنْ
تَغْوِيرِ أَلْمِيَاءِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الدَّفِينَةِ كُلَّهَا فِي تِجَارَةِ النَّبْلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ
مَا يَسْتَرُ دَفِينًا أَوْ مُخْتَزِنًا فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ وَيُؤَمِّدُهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الدَّفَاتِرِ الْمُفْتَعَلَةِ
فِي الْإِعْتِدَارِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجَزِيَةِ النَّبْلِ تَسْرًا بِذَلِكَ مِنَ الْكَيْدِ حَتَّى يَحْصَلَ
عَلَى مَعَاشِهِ فَيُخَرِّصُ سَامِعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ الْمَاءِ بِالْأَعْمَالِ السَّخِرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ ابْتِغَاءِ
مِنْ هَذِهِ كَلْفًا بِشَأْنِ السَّخِرِ مُتَوَارِتًا فِي ذَلِكَ الْقَطْرِ عَنْ أَوْلِيهِ فَعُلُومِهِمُ السَّخِرِيَّةِ وَأَنَارُهَا
بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي الْبَرَارِيِّ وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِأَخْصَاصِهِمْ بِذَلِكَ
وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ قِصِيدَةً يَنْسِبُونَهَا إِلَى حُكَمَاءِ الْمَشْرِقِ تُعْطَى فِيهَا كَيْفِيَّةُ
الْعَمَلِ بِالْتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةِ سَخِرِيَّةٍ حَسَبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هَذِهِ

بَا طَالِبَا لِلسِّرِّ فِي التَّغْوِيرِ
دَع عَنْكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتُبِهِمْ
وَأَسْمَعُ لِيَصْدَقَ مَقَالَتِي وَتَصِيحَتِي
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغْوِيرَ الْبَشَرِ الَّتِي
صَوَّرَ كُصُورَ تِكَ الَّتِي أَوْفَقَتْهَا
وَيَدَاهُ مَا سَكَّتَانِ الْخَبْلِ الَّذِي
وَبَصْدَرِهِ هَاءُ كَمَا عَابَتْهَا
وَيَطَا عَلَى الطَّاءَاتِ غَيْرَ مُلَامَسٍ
وَيَكُونُ حَوْلَ الْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ
إِسْمَعُ كَلَامَ الصِّدْقِ مِنْ خَبِيرٍ
مِنْ قَوْلِ بَهْتَانٍ وَلَقَطِ غُرُورٍ
إِنْ كُنْتَ مَحَنٌ لَا يَرَى بِالزُّورِ
حَارَتْ لَهَا الْأَوْهَامُ فِي التَّنْدِيرِ
وَالرَّأْسُ رَأْسُ الشَّيْلِ فِي التَّقْوِيرِ
فِي الدَّلْوِ يُشَلُّ مِنْ قَرَارِ الْبِيرِ
عَدَدُ الطَّلَاقِ أَحَدٌ مِنَ التَّكْرِيرِ
مَشْنَى اللَّيْبِ الْكَيْسِ النِّجْرِيرِ
تَرْبِيعُهُ أَوَّلَى مِنَ التَّكْوِيرِ

وَأَذْبَحَ عَلَيْهِ الطَّيْرَ وَالْحُفَّةَ بِهِ
بِالسَّنْدَرُوسِ وَبِالْأَبَانِ وَمِيعَةً
مِنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لَا أَرْزَقُ
وَيَشْدُهُ خِطَّانُ صُوفٍ أَيْضِي
وَالطَّلَعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ بَيْنُوا
وَالْبَدَنُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتٍ سَاعَةِ التَّذْيِيرِ
وَأَقْصَدَهُ عُقْبَ الذَّبْحِ بِالتَّبْخِيرِ
وَالْقِسْطُ وَاللِّسَةُ بِشَوْبِ حَرِيرٍ
لَا أَخْضَرَ فِيهِ وَلَا تَكْنِيزِ
أَوْ أَحْمَرَ مِنْ خَالِصِ التَّحْمِيرِ
وَيَكُونُ بَدْءُ الشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرٍ

بَعْنِي أَنَّ تَكُونُ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ
تَمْوِيهَاتِ الْمُتَحَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَأَصْطِلَاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي التَّخْرِفَةُ
وَالْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالْأُورَ الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ
وَيَحْتَفِرُونَ الْخَفَرُ وَيَضَعُونَ الْمَطَاقِ فِيهَا وَالشَّوَاهِدِ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفِ كَتَبِهِمْ
ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّحَائِفِ وَيَعْتُونُ عَلَى كِبَرَاءِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ
وَسُكْنَاهُ وَيُوهَمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْمَالِ لَا يَعْبُرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِالْمَالِ لِاشْتِرَاءِ
الْعَقَاقِيرِ وَالْبُخُورَاتِ لِحُلِّ الطَّلَاسِمِ وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعْدَوْهَا هُنَاكَ
بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَغِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا
يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ أَصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يُلْتَسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيُخْفِيَ عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ
فِيمَا يَتْلُوهُ مِنْ حَفَرٍ وَبُخُورٍ وَذَبْحٍ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى
الْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرَ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لِكُنْهَا
فِي حُكْمِ النَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ الْإِتِّفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعُمُّ
بِهِ الْبَلَوَى حَتَّى يَدْخِرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَحْتَمُونَ عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِمِ لَا
فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ وَالرَّكَازُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينٌ
الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِالْعَثُورِ وَالْإِتِّفَاقِ لَا بِالْقَصْدِ وَالطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنْ اخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ
عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ فَقَدْ بَالَغَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصُبُ عَلَيْهِ الْأَدَلَّةَ وَالْأَمَارَاتِ
لِمَنْ يَتَّبِعُهُ وَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي الصَّحَائِفِ حَتَّى يَطْلُعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْأَفَاقِ
هَذَا يَنْقُضُ قَصْدَ الْإِخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ الْعُقَلَاءِ لَا بَدْءَ وَأَنْ تَكُونَ لِعَرَضٍ مَقْصُودٍ
فِي الْإِتِّفَاقِ وَمَنْ اخْتَزَنَ الْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لَوْلَاهُ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مِنْ يُؤْتِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يَقْصِدُ اخْتِئَاذَهُ بِالْكَلِمَةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبَلَاءِ وَالْهَلَاكِ أَوْ لِمَنْ لَا يَعْرِفُهُ
بِالْكَلِمَةِ مِمَّنْ سَيَأْتِي مِنَ الْأَمَمِ فَبِهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقَلَاءِ بَوَاحٍ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
أَبْنِ أَمْوَالَ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عَلِمَ فِيهَا مِنَ الْكَثَرَةِ وَالْوُفُورِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْوَالَ مِنْ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْتِعةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ وَمَكَاسِبُ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ
وَالرَّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالْعُمَرَانِ يُظْهِرُهَا بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ وَيَزِيدُ
فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا وَمَا يُوْجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ مُتَنَاقِلٌ مُتَوَارِثٌ وَرَبَّمَا أُنْتَقَلَ مِنْ
قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ أَغْرَاضِهِ وَالْعُمَرَانُ الَّذِي يَسْتَنْدِعِي لَهُ فَإِنْ
نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ فَلَمْ يَنْقُصْ بِلَادَ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرِنجِ وَإِنْ نَقَصَ فِي
مِصْرَ وَالشَّامِ فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَإِنَّمَا هِيَ الْأَلَاتُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْعُمَرَانُ
يُوقِرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا مَعَ أَنَّ الْمَعَادِنَ يَدْرِكُهَا الْبَلَاءُ كَمَا يُدْرِكُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ
وَيُسْرِعُ إِلَى اللُّوْلُؤِ وَالْجَوْهَرِ الْعَظِيمِ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ وَكَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ
وَالْحَدِيدُ وَالرَّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ يَبَالِغُهَا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَنَاءِ مَا يَذْهَبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتٍ
وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُذُورِ فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ فِي مَلَكَةِ الْقُبْطِ
مُنْذُ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ وَكَانَ مَوْتَاهُمْ يُدْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْجَوْهَرِ وَالْأَلْيَةِ عَلَى مَذْهَبِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ فَلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ الْقُبْطِ وَمَلَكَ
الْفَرَسُ بِلَادَهُمْ تَقَرَّرُوا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ فَكَشَفُوا عَنْهُ فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يُوصَفُ
كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَصَارَتْ قُبُورُهُمْ
مَظَنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَبْدِ وَيُعْتَرَى عَلَى الدِّفِينِ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْأَوْقَاتِ أَمَّا مَا يَدْفَنُونَهُ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ أَوْ مَا يَكْرُمُونَ بِهِ مَوْتَاهُمْ فِي الدَّفْنِ مِنْ أَوْعِيَةٍ وَتَوَابِيَتْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
مَعْدَةٌ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقُبْطِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ مَظَنَّةً لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا فَلِذَلِكَ
عَنِ أَهْلِ مِصْرَ بَالْتَحَثَ عَنِ الْمَطَالِبِ لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتَخْرَاجِهَا حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضَرِبَتْ
الْمَكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرَ الدَّوَلَةِ ضَرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ وَصَدَرَتْ ضَرْبَةً عَلَى مَنْ
يَسْتَعْمِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَمَقَى وَالْمُهَوسِينَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاطُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ
الدَّرِيعَةَ إِلَى الْكُشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعَ بِاسْتَخْرَاجِهِ وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى الْخُبْيَةِ فِي جَمِيعِ
مَسَاعِيرِهِمْ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتَلَى بِهِ أَنْ

يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَتَنَصَّرَفَ عَنْ طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغُلُ نَفْسَهُ بِالْمَحَالَّاتِ وَالْمَكَاذِبِ مِنَ الْحِكَايَاتِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْحُظْوَةَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَارًا وَثَرَوَةً مِنْ فَاقِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ يُخَدِّمُ بِالْأَعْمَالِ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالنَّاسُ مُعِينُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ أَوْ كِمَالِيٍّ فَتَحْصُلُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَجَمِيعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تُبَدَلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنَ الْعَمَلِ يَسْتَعْمِلُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ عَوَاضٍ فَتَتَوَقَّرُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ فَبَيْنَ قِيَمِ لِلْأَعْمَالِ بِكَتْسِهَا وَقِيَمِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الْضَرُورَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَتَتَوَقَّرُ عَلَيْهِ وَالْأَعْمَالُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ كَثِيرَةٌ فَتُقَيِّدُ الْغَنَى لِاقْرَبِ وَقْتُ وَيَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسَارًا وَثَرَوَةً وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدَّمَاهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَكْثَرُ التُّجَّارِ وَلِهَذَا تُجَدُّ أَهْلُ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ وَمِمَّا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النُّفَعَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا اشْتَهَرُوا حَسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتَقَدَ الْجُمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِزْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالْإِعْتِمَالِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتِ إِلَيْهِمُ الثَّرَوَةُ وَأَصْبَحُوا مَيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنَى إِلَّا مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيَمِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ الْمَعُونَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ رَأْيَانًا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمَدُنِ وَفِي الْبُدُوِّ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّجَرُّ وَكُلُّهُ قَاعِدٌ بِمَنْزِلِهِ لَا يَبْرَحُ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْجُو مَالُهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ وَيَتَأَثَّلُ الْغَنَى مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَيَعْجُبُ مَنْ لَا يَفْطَنُ لِهَذَا السِّرِّ فِي حَالِ ثَرَوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتملق

وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ فِيمَ أَعْمَالِهِمْ
وَلَوْ قَدَّرَ أَحَدٌ عَطْلٌ عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ قَافِدَ الْكَسْبِ بِالْكَفَالَةِ وَعَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ
وَشَرَفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدَرُ قِيَمَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ نُمُو كَسْبِهِ
أَوْ نَقْصَانُهُ وَقَدْ بَيَّنَّا أَيْضًا أَنَّ الْجَاهَ يُفِيدُ الْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ
بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ
أَوْ مَالٍ عَوْضًا عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ وَتَصِيرُ
تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَفِيمَهَا أَمْوَالٌ وَثَرَوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ الْغَنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ
ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرَتِّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةٌ بَعْدَ طَبَقَةٍ بِنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ إِلَى
الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ بَدْعٌ عَالِيَةٌ وَفِي السُّفْلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ خُزًّا وَلَا نَعْمًا بَيْنَ أَبْنَاءِ
جَنْسِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ وَتُنَاسِرُ
مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ النَّوعَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ
فَقَدْ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصْحُحُ بَقَاؤُهُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ
عَلَيْهِ لِحِيلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ النَّوعِ وَلِمَا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ
إِنَّمَا تُصَدَّرُ بِالْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ لَا بِالطَّبْعِ وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حِمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا
بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرِهُهُ بِنَاءُ النَّوعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هَذَا
النَّوعِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
مِنْ بَعْضٍ سُلْطَانًا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَاهَ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى
التَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسْلُطِ بِالْقَهْرِ وَالْقَلْبَةِ
لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَعَلَى
أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعَنَابَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالنَّاتِ وَالثَّانِي
دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وُجُودُ
الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ بَلْ يَقَعُ

عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْبَسِيرِ وَهَذَا مَعْنَى وَفُوعِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ فَتَفْهَمُ ثُمَّ إِنَّ
 كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَاقِ أَهْلِ الْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مِنْ دُونَهَا مِنْ
 الطَّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي الْجَاهِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ
 وَيَزِدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالْجَاهُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ
 عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ وَيَتَسَّعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطُّورِ الَّذِي فِيهِ
 صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ الْجَاهُ مُتَسَّعًا كَانَ الْكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا قَلِيلًا
 فَشَلُّهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ
 سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَآيِبًا فِي تَنْمِيَّتِهِ كَمَا كَثُرَ الثَّجَارُ وَأَهْلُ الْفَلَاحَةِ فِي الْغَالِبِ وَأَهْلُ الصَّنَائِعِ
 كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا الْجَاهَ وَافْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَأَبْنَاهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ
 وَالْخُصَاصَةِ فِي الْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ نَزْوَةٌ وَإِنَّمَا يَرْمَقُونَ الْعَيْشَ تَرْمِيمًا وَيَدْفَعُونَ
 ضَرُورَةَ الْفَقْرِ مِدَافَعَةً وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْجَاهَ مُتَفَرِّعٌ وَأَنَّ السَّعَادَةَ وَالْخَيْرَ مُقْتَرَنَانِ
 مُحْصُولُهُ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجْلَاهُ وَأَنَّ بَاذِلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمُنْعَمِينَ
 وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ بِيَدِ عَالِيَةٍ وَعِزَّةٌ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى
 خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ الْعِزِّ وَالْمُلُوكُ وَالْأَفْتَعَدُرُ حُصُولَهُ فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ
 الْخُضُوعَ وَالتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هَذَا الْجَاهِ الْمُحْصِلِ لِلْسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنْ
 أَكْثَرَ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهَذَا التَّمَلُّقِ وَلِهَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرَفِّعِ
 وَالتَّكِبِ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ الْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي التَّكْسِبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ
 إِلَى الْفَقْرِ وَالْخُصَاصَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْكِبَرَ وَالتَّرَفُّعَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ
 مِنْ تَوَهُّمِ الْكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بَضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالْعَالِمِ الْمُتَجَرِّبِ
 فِي عِلْمِهِ وَالْكَاتِبِ الْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوْ الشَّاعِرِ الْبَلِغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي
 صِنَاعَتِهِ يَتَوَهُّمُ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ فَيَحْدُثُ لَهُ تَرْفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَا يَتَوَهُّمُ
 أَهْلُ الْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرِ يُعْبَرُونَ بِهِ بِمَا
 رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ وَيَتَوَهُّمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذَلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ
 إِلَيْهِمْ وَوَرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مَتَمَسِّكُونَ فِي الْحَاضِرِ بِالْأَمْرِ الْمَعْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ
 الْحِيلَةِ وَالْبَصْرِ وَالتَّجَارِبِ بِالْأُمُورِ قَدْ يَتَوَهُّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاحْتِيَاجًا

إِلَيْهِ وَتَجِدُ هُؤُلَاءَ الْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ الْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ
هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مِنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمُ الْفَضْلَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَنْكِفُ أَحَدُهُمْ
عَنِ الْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَنَهًا وَيَحْسِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ
إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ
وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْهَمُومُ وَالْأَحْزَانُ مِنْ نَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عَنَاءٍ عَظِيمٍ
مِنْ إِجْبَابِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِيَّايَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ الْمَقْتُ مِنَ النَّاسِ لِمَا فِي
طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ النَّأَلِ وَقُلْ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ وَالْتِرْفَعِ عَلَيْهِ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَنُوْعٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ وَالْأَسْطِلَةِ وَهَذَا كُلُّهُ فِي زِمْنِ الْجَاهِ فَإِذَا
فَقَدَ صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ الْجَاهُ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقْتَهُ النَّاسُ بِهَذَا التَّرْفَعِ وَلَمْ
يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفُقِدَ الْجَاهُ لِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ
الْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ التَّعُودِ عَنْ تَعَاهُدِهِمْ وَغَشْيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ
فِي خِصَاصَةٍ وَفَقْرٍ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا الثَّرْوَةُ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ أَصْلًا وَمِنْ هَذَا اسْتَهْرَ
بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْكَمَالَ فِي الْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ الْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رَزَقَ مِنْ
الْمَعْرِفَةِ وَاقْتَطِعَ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَظِّ وَهَذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خَلِقَ لَشَيْءٍ يُسِرُّ لَهُ وَاللَّهُ الْمَقْدَرُ
لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقَعُ فِي الدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي الْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ الْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ
مِنَ السَّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلِيَّةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلُ إِذَا بَلَغَتْ نَهَايَتَهَا
مِنَ التَّغَلُّبِ وَالْأَسْطِلَاءِ انْفَرَدَ مِنْهَا مَنِيَّتُ الْمَلِكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَسَّسَ مِنْ سِوَاهُمْ
مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبَ دُونَ مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ وَكَانَهُمْ خَوْلُ
لَهُ فَإِذَا اسْتَحْمَرَتِ الدُّوْلَةُ وَشَخَّحَ الْمَلِكُ تَسَاوَى حَيْثُ نَزَلَ فِي الْمَنَزَلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كُلُّ
مَنْ أُنْتَمَى إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَأَصْطَنَعَهُ السُّلْطَانُ لِعُنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ
مُهَيِّمَاتِهِ فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ السُّوْفَةِ يَسْعَى فِي التَّقَرُّبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُصْحِهِ وَيَتَرَلَّفُ
إِلَيْهِ بِوُجُوهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْأَتْمَلَقِ لَهُ وَلِحَاشِيَّتِهِ وَأَهْلُ
نَسَبِهِ حَتَّى يَرْتَفِعَ قَدَمُهُ مَعَهُمْ وَيَنْظُمَهُ السُّلْطَانُ فِي جَمَلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ حَظٌّ عَظِيمٌ
مِنَ السَّعَادَةِ وَيَتَنَتَّظُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدُّوْلَةِ وَنَاشِئَةِ الدُّوْلَةِ حَيْثُ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهَا الَّذِينَ
ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ وَمَهْدُوا أَكْثَانَهُمْ مُغْتَرِبِينَ بِمَا كَانَ لِأَبَائِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَثَارِ لَمْ

تَسْمَحُ بِهِ نَفْسُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِإِثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مَضْمَارِ الدَّوْلَةِ بِسَبِّهِ
فِيَمَقِّتُهُمُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيُبَاعِدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هَوْلَاءِ الْمُصْطَفَعِينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَدُونَ
بِقَدِيمٍ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ إِلَّا مَا دَأْبُهُمُ الْخُضُوعُ لَهُ وَالْتِمَاقُ وَالْإِعْتِمَالُ فِي
غَرْضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ الْوُجُوهُ وَالْخُوطُوطُ
بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى نَاشِئَةُ الدَّوْلَةِ فِيهِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
التَّرَفُّعِ وَالْإِعْتِدَادِ بِالْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدًا مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِثَارًا لِهَوْلَاءِ
الْمُصْطَفَعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَقْرُضَ الدَّوْلَةُ وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ
الْمُصْطَفَعِينَ فِي الْغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان
ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ كَمَا قَدَمْنَاهُ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمَرَاءِ عَامَّةُ الْبُلُوَى بِهِ كَانَتْ قِيَمَتُهَا
أَعْظَمَ وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا تَضُرُّهُمُ عَامَّةُ الْخَلْقِ
وَأِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ وَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَى الْفَتْيَا وَالْقَضَاءِ
فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَضْطِرَّارِ وَالْعُمُومِ فَيَقَعُ الْأَسْتِغْنَاءُ عَنْ هَوْلَاءِ فِي الْأَكْثَرِ
وَأِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَامِهِمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ
حَظًّا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى التَّخَوُّلِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ
الشُّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ الدِّينُ وَالْمَرَامُ الشَّرْعِيَّةُ لِكُنْهِهِ يَقْسِمُ بِحَسَبِ
عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ الْعُمَرَاءِ فَلَا يَبْصَحُ فِي قِسْمِهِمْ إِلَّا الْأَقْلِيلُ وَهُمْ أَيْضًا لَشَرَفِ
بَضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفْسِهِمْ فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا
يَسْتَدْرُونَ بِهِ الرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهَذِهِ الْبَضَائِعِ
الشَّرِيفَةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ بَلْ وَلَا يَسْمَحُ أَنْ يَبْذُلَ أَنْفُسَهُمْ لِأَهْلِ
الدُّنْيَا لَشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْرُوفٍ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثَرَوَتُهُمْ فِي الْغَالِبِ وَلَقَدْ
بَاخَحْتُ بَعْضَ الْفُضَلَاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْرَاقٌ مُخْرِقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ الدَّوَاوِينِ

بِدَارِ الْمَأْمُونِ تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَكَانَ فِيمَا طَالَعَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ
الْقُضَاةِ وَالْأَيْمَةِ وَالْمَوْذَنِينَ فَوْقَ قِفَتِهِ عَلَيْهِ وَعِلْمٌ مِنْهُ صِحَّةُ مَا قُلْتُهُ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَضَيْنَا الْعَجَبَ
مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَصِيلٌ فِي الطَّبِيعَةِ وَبَسِيطٌ فِي مَنَحَاهُ وَلِذَلِكَ لَا تَجِدُهُ يَنْتَحِلُهُ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الْحَضَرِ فِي الْغَالِبِ وَلَا مِنَ الْمُتَرَفِينَ وَيَخْتَصُّ مَنَاحِلُهُ بِالْمَذَلَّةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَقَدْ رَأَى السَّكَّةَ بَعْضُ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُ الذُّلُّ
وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْأَسْتِثْنَاءِ مِنْهُ وَتَرَجَمَ عَلَيْهِ بَابَ مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأَشْتَغَالِ
بِأَلَةِ الزَّرْعِ أَوْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ
الْمُفْضِي إِلَى اتِّحَاكِمِ وَالْيَدِ الْعَالِيَةِ فَيَكُونُ الْغَارِمُ ذَلِيلًا بَالِسًا بِمَا تُنْشَاؤُهُ أَيْدِيهِ
الْقَهْرِ وَالْأَسْطِطَالَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ الزَّرْكَاهُ مَغْرَمًا
إِشَارَةً إِلَى الْمَلِكِ الْعُضُوضِ النَّاسِ الَّذِي مَعَهُ التَّسَلُّطُ وَالْجُورُ وَنَسْيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ
تَعَالَى فِي الْمَتَمَوْلَاتِ وَاعْتِبَارُ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمُلُوكِ وَالْدُّوَلِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

اعْلَمْ أَنَّ التِّجَارَةَ مُحَاوَلَةُ الْكَسْبِ بِتَنْمِيَةِ الْمَالِ بِشِرَاءِ السَّلْعِ بِالرُّخْصِ وَبَيْعِهَا
بِالْغَلَاءِ أَيَّامَ كَانَتِ السَّلْعَةُ مِنْ دَقِيقِ أَوْ زَرْعٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ قِمَاشٍ وَذَلِكَ الْقَدَرُ النَّاسِي
يُسَمَّى رِبْحًا فَالْمُحَاوَلُ لِلذِّكِّ الرِّبْحُ إِمَّا أَنْ يَخْتَرِنَ السَّلْعَةَ وَيَتَحَيَّنَ بِهَا حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ
مِنْ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ فَيَعْظُرُ رِبْحَهُ وَإِمَّا بِأَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ تَنْفَقُ فِيهِ تِلْكَ السَّلْعَةُ
أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا فِيهِ فَيَعْظُرُ رِبْحَهُ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ التَّجَّارِ
لِطَلَبِ الْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَةِ التِّجَارَةِ أَنَا أَعْلَمُهَا لَكَ فِي كَلِمَتَيْنِ اشْتَرَاءُ الرُّخِصِ وَبَيْعُ
الْغَالِي فَقَدْ حَصَلَتِ التِّجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي قَرَّرْنَاهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها
 قَدْ قَدَمْنَا أَنَّ مَعْنَى التَّجَارَةِ تَنْمِيَةُ الْمَالِ بِشِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةً يَبْعُهَا بِأَعْلَى مِنْ
 تَمَنِ الشِّرَاءِ إِمَّا بِاِنْتِظَارِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ أَوْ تَقْلِبِهَا إِلَى بَلَدٍ فِيهِ أَنْفَقَ وَأَعْلَى أَوْ يَبْعُهَا
 بِالْغَلَاءِ عَلَى الْأَجَالِ وَهَذَا الرَّبْحُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ يَسِيرُ إِلَّا أَنَّ الْمَالَ إِذَا
 كَانَ كَثِيرًا عَظُمَ الرَّبْحُ لِأَنَّ الْقَلِيلَ فِي الْكَثِيرِ كَثِيرٌ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هَذِهِ
 التَّنْمِيَةِ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَالِ بِأَيْدِي الْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَيَبْعُهَا وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي
 تَقَاضِي أَثْمَانِهَا وَأَهْلُ النِّصْفَةِ قَلِيلٌ فَلَا بُدَّ مِنَ الْغَشِّ وَالتَّطْفِيفِ الْمُنْجِفِ بِالْبَضَائِعِ
 وَمِنْ الْمِطْلِ فِي الْأَثْمَانِ الْمُنْجِفِ بِالرَّبْحِ كَمُتْعِطِيلِ الْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاؤُهُ
 وَمِنْ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ الْمُسْحَتِ لِرَأْسِ الْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَّقِدْ بِالْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ
 وَغَنَى الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الظَّاهِرِ فَيُعَانِي التَّاجِرُ مِنْ ذَلِكَ
 أَحْوَالًا صَعِبَةً وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذَلِكَ النَّافِعِ مِنَ الرَّبْحِ إِلَّا بِعَظَمِ الْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ
 أَوْ لَا يَحْصُلُ أَوْ يَتَلَشَّى رَأْسُ مَالِهِ فَإِنْ كَانَ جَرِيئًا عَلَى الْخُصُومَةِ بَصِيرًا بِالْحُسْبَانِ شَدِيدَ
 الْمُمَاحَكَةِ مُقَدِّمًا عَلَى الْحُكْمِ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى النِّصْفَةِ بِجُرْأَتِهِ مِنْهُمْ
 وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدْرِعُ بِهِ يُوقِعُ لَهُ الْهَيْبَةَ عِنْدَ الْبَاعَةِ وَيَحْمِلُ
 الْحُكْمَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ النِّصْفَةُ فِي مَالِهِ طَوْعًا فِي الْأَوَّلِ
 وَكَرْهًا فِي الثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِدًا لِلْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقْدِ الْجَاهِ مِنَ الْحُكْمِ
 فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ الْأَحْزَرَافَ بِالتَّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعْرِضُ مَا لَهُ لِلضَّيَاعِ وَالذَّهَابِ وَيَصِيرُ
 مَا كَلَّةً لِلْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي النَّاسِ وَخُصُوصًا الرَّعَاعِ وَالْبَاعَةِ
 شَرُّهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ سِوَاهُمْ مُتَوَثِّبُونَ عَلَيْهِ وَلَوْلَا وَازِعُ الْأَحْكَامِ لَأَصْبَحَتْ
 أَمْوَالُ النَّاسِ نَهَبًا وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك
 وَذَلِكَ أَنَّ التَّجَارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يُعَانُونَ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ

الْمُكَاسِبَةِ ضَرُورَةً فَإِنْ أَقْتَصَرَ عَلَيْهَا أَقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَغْنَى خُلُقُ الْمُكَاسِبَةِ
بَعِيدَةً عَنِ الْمُرُوءَةِ الَّتِي تُتَخَلَّقُ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنْ اسْتَزْدَلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبِعُ
ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّمَعَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُمَاحَكَةِ وَالْعِشِّ وَالْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ الْإِيمَانِ
الْكَاذِبَةِ عَلَى الْإِثْمَانِ رَدًّا وَقُبُولًا فَأَجْدَرُ بِذَلِكَ الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ الْمَدَلَّةِ لِمَا
هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرَّئَاسَةِ يَتَحَامُونَ الْأَحْرَافَ بِهَذِهِ الْحِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يَكْسِبُ
مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ
جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

الْتَّاجِرُ الْبَصِيرُ بِالتِّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السِّلَعِ إِلَّا مَا تَعْمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَنِيِّ وَالْفَقِيرِ
وَالسُّلْطَانِ وَالسُّوْفَةِ إِذْ فِي ذَلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ ثَقَلَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَعْضُ
فَقَطُّ فَقَدْ يَتَعَدَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ الشَّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ
فَتَكْسُدُ سُوْفُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السِّلْعَةَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ
الْوَسْطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالِيَّ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السِّلَعِ إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ
وَحَاشِيَةُ الدُّوَلَةِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أَسْوَةً فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ
صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَلِكَ جِهْدُهُ فِيهِ نَفَاقُ سِلْعَةٍ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذَلِكَ يُنْقَلُ السِّلَعُ مِنَ الْبَلَدِ
الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرُ فَائِدَةٍ لِلتِّجَارِ وَأَعْظَمُ
أَرْبَاحًا وَأَكْفَلُ بِجَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ السِّلْعَةَ الْمَنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعُوزَةً
لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعْرِضُ وَجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ
غَلَّتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ وَالطَّرِيقُ سَابِلًا بِالْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ
يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَذَا تَجِدُ التِّجَارَ الَّذِينَ يُولَعُونَ بِالْخُحُولِ إِلَى
بِلَادِ السُّودَانِ أَرْفَهُ النَّاسُ وَأَكْثَرُهُمْ أَمْوَالًا لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَاعْتِرَاضِ الْمَفَازَةِ
الصَّعْبَةِ الْخَطِرَةِ بِالْخُوفِ وَالْعَطَشِ لَا يُوجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَا كُنْ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي
إِلَيْهَا أَدِلَّةٌ الرَّكْبَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَذَا الطَّرِيقِ وَبَعْدَهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ

سِلْعِ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدَيْنَا فَتَخْتَصُّ بِالْعَلَاءِ وَكَذَلِكَ سَاعِنَا لَهُمْ فَنَعْظُمُ بَضَائِعَ الشَّجَارِ
مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمْ الْغَنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا
إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ أَيْضًا وَأَمَّا الْمُتَرَدِّدُونَ فِي أَفْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ
فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ نَافِيَةٌ كَثَرَةُ السِّلْعِ وَكَثَرَةُ نَاقِلِيهَا وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتَّجَرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ احْتِكَارَ الزَّرْعِ لَتَحْبِثَ
أَوْقَاتَ الْعَلَاءِ مَشْهُومٌ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالْتَلَفِ وَاخْخَسْرَانِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ
النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلَى مَا يَبْدُلُونَ فِيهَا مِنْ أَمْوَالٍ اضْطُرَّارًا فَتَبْقَى
النُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النُّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ نَجَافًا وَلَعَلَّهُ
الَّذِي أَعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي اخْتِادِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَجَافًا فَالنُّفُوسُ
مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعُذْرِ فَهُوَ كَالْمُكْرَرِ وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتِ
وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَبِيعَاتِ لَا اضْطُرَّارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا التَّغْنِي فِي
الشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْدُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحَرَصَ وَلَا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أَعْطَوْهُ
فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِالِاحْتِكَارِ يَجْتَمِعُ الْقَوَى النَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رُبُّهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَتَمَعْتُ فِيمَا يَنْسِبُ هَذَا حِكَايَةَ ظَرِيفَةٍ عَنْ بَعْضِ
مَشِيخَةِ الْمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِي قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِفَاسٍ لِعَمِيدِ
السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَكَلِّيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ
الْأَلْقَابِ الْخَزَنِيَّةِ لِحِرَاتِهِ قَالَ فَاطْرُقْ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ مَنْ مَكَسَ الْخَمْرُ فَاسْتَحْضَكَ الْخَافِرُونَ
مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتْ الْجَبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا
فَأَخْتَارَ مِنْهَا مَا لَا تَتَابَعُهُ نَفْسٌ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قُلٌّ أَنْ يَبْدُلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ
طَرِبَ مُسْرُورٌ بِوُجُودِهِ غَيْرُ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقٌ بِهِ نَفْسُهُ وَهَذِهِ مِلَاحِظَةٌ غَرِيبَةٌ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ الْأُصْدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمخترفين بالرخص

وَذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ وَالْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالصَّنَاعِ أَوْ التَّجَارَةِ
وَالْتَّجَارَةِ هِيَ شِرَاءُ الْبَضَائِعِ وَالسَّلْعِ وَأَدْخَالُهَا تَحِينَ بِهَا حَوَالَةُ الْأَسْوَاقِ بِالزَّيَادَةِ فِي
أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحًا وَيَحْصُلُ مِنْهُ الْكَسْبُ وَالْمَعَاشُ لِلْمُخْتَرِفِينَ بِالتَّجَارَةِ دَائِمًا فَإِذَا
اسْتَدِيمَ الرَّخْصَ فِي سَاعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مَتَمَوِّلٍ عَلَى الْجُمْلَةِ
وَلَمْ يَحْصُلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةُ الْأَسْوَاقِ فَسَدَ الرَّبْحُ وَالنَّمَاءُ يَطُولُ تِلْكَ الْمُدَّةُ وَكَسَدَتْ
سُوقُ ذَلِكَ الصَّنِيفِ فَقَعَدَ التَّجَارُ عَنْ السَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ
أَوَّلًا بِالزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَدِيمَ رُخْصَةً يَفْسُدُ بِهِ حَالُ الْمُخْتَرِفِينَ يَسْأِرُ أَطْوَارُهُ مِنْ
الْفَلَاحِ وَالزَّرْعَةِ لِقَلَّةِ الرَّبْحِ فِيهِ وَنَدَارَتِهِ أَوْ فَقْدِهِ فَيَفْقِدُونَ النَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ
يَحْدُونَهُ عَلَى قِلَّةٍ وَيَعُودُونَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ
إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَيَتَّبِعَ ذَلِكَ فَسَادُ حَالِ الْمُخْتَرِفِينَ أَيْضًا بِالطَّحْنِ وَالتَّخْبِزِ وَسَائِرِ مَا
يَتَعَلَّقُ بِالزَّرْعَةِ مِنَ الْحَرْثِ إِلَى صَبْرُوتِهِ مَا كُولا وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ الْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ
أَرْزَاقُهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَهْلِ الْفَلَاحِ زَرْعًا فَإِنَّهَا تَقْلُ جِبَابَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَيَهْجُرُونَ عَنْ
إِقَامَةِ الْجُنْدِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِسَبَبِهَا وَمُطَالَبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَكَذَا إِذَا
اسْتَدِيمَ الرَّخْصَ فِي السُّكْرِ أَوْ الْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ الْمُخْتَرِفُونَ عَنْ
التَّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا الْمَلْبُوسَاتُ إِذَا اسْتَدِيمَ فِيهَا الرَّخْصَ فَإِذَا الرَّخْصُ الْمَفْرُطُ يُخَفِّفُ
بِمَعَاشِ الْمُخْتَرِفِينَ بِذَلِكَ الصَّنِيفِ الرَّخِصَ وَكَذَلِكَ الْغَلَاءُ الْمَفْرُطُ أَيْضًا وَإِنَّمَا مَعَاشُ
النَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي التَّوَسُّطِ مِنْ ذَلِكَ وَسُرْعَةُ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَعِلْمُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
الْعَوَائِدِ الْمُتَقَرَّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ وَإِنَّمَا يُخَمِّدُ الرَّخْصَ فِي الزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ الْمَبِيعَاتِ
لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَاضْطِرَارِ النَّاسِ إِلَى الْأَقْوَاتِ مِنْ بَيْنِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَالْعَالَةِ مِنَ
الْخَلْقِ هُمْ الْأَكْثَرُ فِي الْعُمَرَانِ فَيَعْمُرُ الرَّفْقُ بِذَلِكَ وَيُرْجِعُ جَانِبَ الْقَوْتِ عَلَى جَانِبِ
التَّجَارَةِ فِي هَذَا الصَّنِيفِ الْخَاصِّ وَاللَّهُ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الروءساء وبعيدة من المروءة
 قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَجَلَبَ الْقَوَائِدَ
 وَالْأَرْبَاحَ وَلَا بَدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَاحَكَةِ وَالتَّخَذُّقِ وَمَا رَسَدَ الْخُصُومَاتِ وَاللِّجَاجِ
 وَهِيَ عَوَارِضُ هَذِهِ الْحَرْفَةِ وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ نَقْصٌ مِنَ الذِّكَاةِ وَالْمَرْوَةِ وَتَجَرُّحٌ فِيهَا لِأَنَّ
 الْأَفْعَالَ لَا بَدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ فَأَفْعَالُ الْخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ الْخَيْرِ وَالزُّكَاةِ
 وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذَلِكَ فَتَتِمَّكُنْ وَتَرْتَبِحْ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ
 خِلَالَ الْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ آثَارِهَا الْمَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ شَأْنِ الْمَمْلَكَاتِ
 النَّاشِئَةِ عَنِ الْأَفْعَالِ وَتَنْفَوْتُ هَذِهِ الْآثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ التُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ
 كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ الطَّوْرِ مُحَالِفًا لِأَشْرَارِ الْبَاعَةِ أَهْلِ الْغَشِّ وَالْخِلَابَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَيْمَانِ
 إِفْرَارًا وَإِنْكَارًا كَانَتْ رَدَاةُ تِلْكَ الْخَلْقِ عَنْهُ أَشَدَّ وَغَابَتْ عَلَيْهِ السَّفْسَفَةُ وَبَعْدَ عَنِ
 الْمَرْوَةِ وَآكُتْسَابِهَا بِالْجُمْلَةِ وَإِلَّا فَلَا بَدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَاحَكَةِ فِي
 مَرْوَتِهِ وَفَقْدَانِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِي الْجُمْلَةِ وَوُجُودِ الصَّنِفِ الثَّانِي مِنْهُمْ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَصْلِ
 قَبْلَهُ أَنَّهُمْ يَدْرَعُونَ بِالْجَاهِ وَيَعُوضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ فَهَمْ نَادِرٌ وَأَقْلٌ مِنَ النَّادِرِ
 وَذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ الْمَالُ قَدْ يُوْجَدُ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعٍ غَرِيبٍ أَوْ وَرَثَةً عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ
 بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ تَرَوُّةٌ تُعِينُهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُورًا وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ
 عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وَكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ
 وَيُسَهِّلُ لَهُ الْحُكْمَ النَّصْفَةَ فِي حَقُوقِهِمْ بِمَا يُؤَسِّسُونَهُ مِنْ بَرِّهِ وَإِتِّخَافِهِ فَيُعِدُّونَهُ عَنْ
 تِلْكَ الْخَلْقِ بِالْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ فَتَكُونُ مَرْوَتُهُمْ أَرْتَبَجَ
 وَأَبْعَدَ عَنِ تِلْكَ الْمُحَاجَاةِ إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ
 يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أَوْلِيَاءِ الْوُكَلَاءِ وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذَرُونَ
 مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم
 اعْلَمْ أَنَّ الصَّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَتُ فِي أَمْرِ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَيَكُونُهُ عَمَلِيًّا هُوَ جَسْمَانِيٍّ

مَحْسُوسٌ وَالْأَحْوَالُ الْجَسَدِيَّةُ الْمَحْسُوسَةُ فَتَقْلِبُهَا بِأَمْبَاشَرَةٍ أَوْعَبَ لَهَا وَأَكْمَلَ لِأَنَّ
 الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجَسَدِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةً وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ تَحْصُلُ
 عَنْ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَتُكَرَّرُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرْتَسِخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ
 تَكُونُ الْمَلَكَةُ وَتَقُلُّ الْمَعَانِيَةُ أَوْعَبَ وَأَتَمُّ مِنْ نَقْلِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ
 عَنْ الْخَبَرِ عَلَى قَدَرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةُ الْمُتَعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ
 إِنَّ الصَّنَائِعَ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمُرَكَّبُ وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ
 وَالْمُرَكَّبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ
 أَوَّلًا وَلِإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي نَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِيَ عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ
 وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصًا وَلَا يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمُرَكَّبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
 بِالْإِسْتِمْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى التَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْمُلَ وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْصُلُ
 فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خُرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيمَا
 فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ فَلَا بَدْلَ لَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ وَلِهَذَا تُجَدُّ الصَّنَائِعُ فِي الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ
 نَاقِصَةً وَلَا يُوجَدُ مِنْهَا إِلَّا الْبَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حَضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورَ التَّرَفِّ فِيهَا إِلَى
 اسْتِعْمَالِ الصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَتَنْقَسِمُ الصَّنَائِعُ أَيْضًا إِلَى مَا يَخْتَصُّ
 بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ضَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصِيَةُ
 الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَمِنْ الْأَوَّلِ الْحَيَاكَةِ وَالْجَزَاةِ وَالنَّجَارَةِ
 وَالْحِدَادَةِ وَأَمْثَالُهَا وَمِنْ الثَّانِي الْوَرَاقَةُ وَهِيَ مَعَانَةُ الْكُتُبِ بِالْإِنْتِسَاخِ وَالنَّجْدِ وَالْغِنَاءِ
 وَالشَّعْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنْ الثَّلَاثِ الْجُنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

فِي إِنْ الصَّنَائِعِ إِنَّمَا تَكْمُلُ بِكَمَالِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَكَثْرَتِهِ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ الْعُمَرَانُ الْحَضَرِيُّ وَتَتِمَّدَنَّ الْمَدِينَةُ
 إِنَّمَا هُمْ فِي الضَّرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْصِيلُ الْأَقْوَاتِ مِنَ الْخِنِطَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا
 تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَفَّتْ بِالضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صَرْفُ الزَّائِدِ
 حِينَئِذٍ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ
 حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْقُوَّةُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَالْغَدَائِيَّةُ فَهُوَ

مُقَدَّمٌ لِّضَرُورَتِهِ عَلَى الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ الضَّرُورِيِّ وَعَلَى مِقْدَارِ عُمْرَانِ
الْبَلَدِ تَكُونُ جُودَةُ الصَّنَائِعِ لِلتَّائِقِ فِيهَا حِينَئِذٍ وَاسْتِجَادَةُ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِحَيْثُ تَتَوَفَّرُ
دَوَاعِي التَّرَفِّ وَالثَّرْوَةِ وَأَمَّا الْعُمْرَانُ الْبَدَوِيُّ أَوِ الْقَلِيلُ فَلَا يَحْتَاجُ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا
الْبَسِيطَ خَاصَّةً الْمُسْتَعْمَلَ فِي الضَّرُورِيَّاتِ مِنْ تِجَارٍ أَوْ حَدَادٍ أَوْ خِيَاطٍ أَوْ حَاكٍ أَوْ
جَزَّارٍ وَإِذَا وَجِدَتْ هَذِهِ بَعْدُ فَلَا تُوْجَدُ فِيهِ كَامِلَةً وَلَا مُسْتِجَادَةً وَإِنَّمَا يُوْجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ
الضَّرُورَةِ إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلٌ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِدَانِهَا وَإِذَا زَخَرَ بَحْرُ الْعُمْرَانِ
وَطَلَبَتْ فِيهِ الْكَمَالَاتُ كَانَ مِنْ جُعَلَتِهَا التَّائِقُ فِي الصَّنَائِعِ وَاسْتِجَادَتِهَا فَكَعَمَلَتْ
بِجَمِيعِ مَتَمِّمَاتِهَا وَتَزَايِدَتْ صَنَائِعُ أُخْرَى مَعَهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ التَّرَفِّ وَأَحْوَالُهُ مِنْ
جَزَّارٍ وَدَبَّاحٍ وَخَرَّازٍ وَصَائِعٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْتَهِي هَذِهِ الْأَصْنَافُ إِذَا اسْتَبْجَرَ الْعُمْرَانُ
إِلَى أَنْ يُوْجَدَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَالتَّائِقُ فِيهَا فِي الْغَايَةِ وَتَكُونُ مِنْ وُجُوهِ الْعِمَاشِ
فِي الْمِصْرِ لِمُنْتَحِلِهَا بَلْ تَكُونُ قَائِدَتِهَا مِنْ أَعْظَمِ قَوَائِدِ الْأَعْمَالِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُّ
فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الدَّهَانِ وَالصَّفَارِ وَالْحَمَائِيِّ وَالطَّبَآخِ وَالشَّمَاعِ وَالْهَرَّاسِ وَهُلِمْ الْغِنَاءِ
وَالرَّقْصِ وَقِرْعِ الطُّبُولِ عَلَى التَّوَقُّعِ وَمِثْلَ الْوَرَقَيْنِ الَّذِينَ يَعَانُونَ صِنَاعَةَ انْتِسَاخِ
الْكَتَبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَصْفِيحِهَا فَإِنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُّ فِي الْمَدِينَةِ
مِنْ الْأَشْغَالِ بِالْأُمُورِ الْفِكْرِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ تَخْرُجُ عَنِ الْحَدِّ إِذَا كَانَ الْعُمْرَانُ
خَارِجًا عَنِ الْحَدِّ كَمَا بَلَغْنَا عَنْ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ الطُّيُورَ النُّجُومَ وَالْحُمْرَ
الْإِنْسِيَّةَ وَيَتَخَيَّلُ أَشْيَاءَ مِنَ الْعَجَائِبِ بِإِيْهِامٍ قَلْبِ الْأَعْيَانِ وَتَعْلِمُ الْحِدَاءِ وَالرَّقْصِ
وَالْمَشْيِ عَلَى الْخَيْوُطِ فِي الْهَوَاءِ وَرَفَعَ الْأَثْقَالَ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْحِجَارَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تُوْجَدُ عِنْدَنَا بِالْمَغْرِبِ لِأَنَّ عُمْرَانَ أَمْصَارِهِ لَمْ يَبْلُغْ عُمْرَانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ
أَدَامَ اللَّهُ عُمْرَاتِهَا بِالْمُسْلِمِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا عَوَائِدُ الْعُمْرَانِ وَالْأَوَانِ وَالْعَوَائِدُ إِنَّمَا
تَرْسُخُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ وَطُولِ الْأَمَدِ فَتَسْتَحْكِمُ صِبْغَةَ ذَلِكَ وَتَرْسُخُ فِي الْأَجْيَالِ
وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ عَسَرَ نَزْعُهَا وَلِهَذَا نَجِدُ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي كَانَتْ اسْتَبْجَرَتْ فِي

الْحِصَارَةَ لَمَّا تَرَاجَعَ عُمَرَانُهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَّتُ فِيهَا أَنَارُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا
 مِنَ الْأَمْصَارِ الْمُسْتَحْدَثَةِ الْعُمَرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي الْوُفُورِ وَالْمَكْرَرَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا
 لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ الْعُمَرَانِ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ بِطُولِ الْأَحْقَابِ وَتَدَاوُلِ الْأَحْوَالِ
 وَتَكَرُّرِهَا وَهَذِهِ لَمْ تَبْلُغِ الْعَالِيَةَ بَعْدُ وَهَذَا كَحَالِ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ
 فِيهَا رُسُومَ الصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ
 أَمْصَارِهَا كَالْمَبَانِي وَالطَّبِخِ وَأَصْنَافِ الْغِنَاءِ وَاللَّهْوِ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْأَوْتَارِ وَالرَّنَصِ
 وَتَنْصِيدِ الْفُرُشِ فِي الْقُصُورِ وَحُسْنِ الذَّرْتِيبِ وَالْأَفْضَاعِ فِي الْبِنَاءِ وَصَوْنِ الْإِنِيَةِ مِنَ
 الْمَعَادِنِ وَالْخَرْقِ وَجَمِيعِ الْمَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ الْوَلَائِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَسَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي
 يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُّ وَعَوَائِدُهُ فَيَجِدُهُمْ أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا وَنَجِدُ صُنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً
 لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حَصَةِ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَحَظٌّ مُتَمَيِّزٍ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانَ
 عُمَرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ وَالْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمَرَانُ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْعُدُودِ وَمَا ذَاكَ
 إِلَّا لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ رُسُوخِ الْحِصَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوخِ الدَّوْلَةِ الْأُمُويَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ
 الْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ الطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا فَبَلَغَتْ الْحِصَارَةُ فِيهَا مَبَالِغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قَطْرِ
 إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا لَطُولِ أَمَارِ الدَّوْلِ فِيهَا فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا
 الصَّنَائِعُ وَكَمَلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى الْأَسْتِحَادَةِ وَالتَّنْمِيقِ وَبَقِيَّتْ صِبْغَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذَلِكَ
 الْعُمَرَانِ لَا تَمَارِفُهُ إِلَى أَنْ يَنْقَضَ بِالْكُلِّيَّةِ حَالُ الصَّنِيعِ إِذَا رَسَخَ فِي الثَّلُوبِ وَكَذَا
 أَيْضًا حَالُ تُونِسَ فِيمَا حَصَلَ فِيهَا بِالْحِصَارَةِ مِنَ الدَّوْلِ الصَّهْبَاجِيَّةِ وَالْمُوحِدِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ وَمَا اسْتَحْكَمَ لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ
 دُونَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ بِرُسُومٍ مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا
 وَتَرْدُدِ الْمُسَافِرِينَ مِنْ قَطْرِهَا إِلَى قَطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ
 عَصُورًا فَيَنْقَلُونَ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَمُحْكَمِ صُنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْقِعَ الْأَسْتِحْسَانِ
 فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذَلِكَ مُشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ
 لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنَيْهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ حِينَ الْجَلَاءِ لِعَهْدِ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ وَرَسَخَ
 فِيهَا مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالُ وَإِنْ كَانَ عُمَرَانُهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّ الصَّنِيعَةَ
 إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحُولُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا وَكَذَا نَجِدُ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَرَاكَشَ وَقَلْعَةَ

أَبْنِ حَمْدٍ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا الْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخُرَابِ
وَلَا يَنْفُطُنْ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ أَثَرًا تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا
كَأَثَرِ الْخَطِّ الْمَمْحُورِ فِي الْكِتَابِ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل التاسع عشر

فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَسْجَدُ وَتَكْثُرُ إِذَا كَثُرَ طَالِبُهَا
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَعُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ نَجَاتًا لِأَنَّهُ كَسَبُهُ
وَمِنْهُ مَعَاشُهُ إِذْ لَا فَايِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ
قِيَمَةٌ فِي مَصْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ وَإِنْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا النِّفَاقُ
كَانَتْ حِينَئِذٍ الصَّنَاعَةُ بِمِثَابَةِ السَّاعَةِ الَّتِي تَنْفَقُ سُوقُهَا وَتُجَلَّبُ لِلْبَيْعِ فَتَجْتَمِعُ النَّاسُ فِي
الْمَدِينَةِ لَتَعْلَمَ تِلْكَ الصَّنَاعَةُ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشُهُمْ وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ
تَنْفَقْ سُوقُهَا وَلَا يُوَجَّهْ قَصْدٌ إِلَى تَعْلُمِهَا فَاخْتَصَّتْ بِالْتَرَكِ وَفُقِدَتْ لِإِلَهْمَالٍ وَلِهَذَا يُقَالُ
عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُ بِمَعْنَى أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي قِيَمَتِهِ أَيْ
قِيَمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ وَأَيْضًا فَهِيَ سِرٌّ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَإِجَادَتَهَا إِنَّمَا
تَطْلُبُهَا الدَّوْلَةُ فِيهِ الَّتِي تَنْفَقُ سُوقُهَا وَتُوَجَّهَ الطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ الدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا
يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَيْسَ عَلَى نَسَبِهَا لِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا
نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نَسَبِ وَاحِدَةٍ فَمَا تَنْفَقُ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيًّا
ضَرُورَةً وَالسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا الصَّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلِبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سُوقُهُمْ بِنَافِقَةٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ

الفصل العشرون

فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا قَارَبَتْ الْخُرَابَ انْتَقَضَتْ مِنْهَا الصَّنَائِعُ
وَذَلِكَ لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تُسْجَدُ إِذَا أُحْتِجَّ إِلَيْهَا وَكَثُرَ طَالِبُهَا وَإِذَا ضَعُفَتْ
أَحْوَالُ الْمِصْرِ وَاحْدٌ فِي الْهَرَمِ بِاتِّقَاضِ عُمْرَانِهِ وَقَلَّةِ سَاكِنِهِ تَنَاقَصَ فِيهِ التَّرَفُ وَزَجَعُوا
إِلَى الْإِفْتِصَارِ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَتَقَلَّ الصَّنَائِعُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ تَوَابِعِ التَّرَفِ لِأَنَّ
صَاحِبَهَا حِينَئِذٍ لَا يَصِحُّ لَهُ بِهَا مَعَاشُهُ فَيَفِرُّ إِلَى غَيْرِهَا أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلْفٌ مِنْهُ

فَيَذْهَبُ رَسْمُ تِلْكَ الصَّنَائِعِ جُمْلَةً كَمَا يَذْهَبُ النَّقَّاشُونَ وَالصَّوَّاعُ وَالْكَتَّابُ وَالنَّسَّاجُ وَأَمْثَلُهُمْ
مِنَ الصَّنَائِعِ لِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَلَا تَزَالُ الصَّنَاعَاتُ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

الفصل الحادي والعشرون

فِي أَنَّ الْعَرَبَ ابْعَدَ النَّاسِ عَنِ الصَّنَائِعِ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدُوا عَنِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ
مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا وَالنَّجْمُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمُ النُّصْرَانِيَّةِ عُدُوَّةُ النُّجَرِ الرُّومِيِّ
أَقَوْمُ النَّاسِ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَبْعَدُوا عَنِ الْبَدْوِ وَعُمُرَانِهِ حَتَّى
إِنَّ الْأَيْلَ الَّتِي آدَنَتِ الْعَرَبَ عَلَى التَّوَحُّشِ فِي الْفَقْرِ وَالْإِعْرَاقِ فِي الْبَدْوِ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ
بِالْجُمْلَةِ وَمَفْقُودَةٌ مِنْ رَاعِيهَا وَالرَّيَالُ الْمُهَيَّئَةُ لِمَتَاجِهَا وَلِهَذَا تَحِيدُ أَوْطَانُ الْعَرَبِ وَمَا مَلَكَوهُ
فِي الْإِسْلَامِ قَالُوا الصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ حَتَّى تَجْلِبَ إِلَيْهِ مِنْ فُطْرٍ آخَرَ وَانْظُرْ بِلَادَ النَّجْمِ
مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَأَرْضَ التُّرْكِ وَأُمَمُ النُّصْرَانِيَّةِ كَيْفَ اسْتَكْنِثَتْ فِيهِمُ الصَّنَائِعِ
وَاسْتَجْلَبَهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ وَعَجِمُ الْمَغْرِبِ مِنَ الْبَرْبَرِ مِثْلُ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوخِهِمْ
فِي الْبِدَاوَةِ مِنْذُ أَحْقَابِ مِنَ السِّنِينَ وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقَطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمَاهُ
فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ لِلَّذِكِّ قَالِيْلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ إِلَّا مَا كُنْ مِنْ صِنَاعَةِ الصُّوفِ مِنْ
نَسْجِهِ وَالْجَدِّ فِي خَزَرِهِ وَدَبْغِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَحْضَرُوا بَلَّغُوا فِيهَا الْمَبَالِغَ لِعُمُومِ الْبَلَوَى بِهَا
وَكَوْنِ هَذَيْنِ أَغْلَبَ السَّلَاحِ فِي فُطْرِهِمْ لَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَقَدْ
رَسَخَتِ الصَّنَائِعُ فِيهِ مِنْذُ مَلِكِ الْأُمَمِ الْأَفْدَمِينَ مِنَ الْفُرْسِ وَالنَّبَطِ وَالْقَبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ
وَبُؤْنَانَ وَالرُّومِ أَحْقَابًا مَطْوَالَةً فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ وَمِنْ جُمْلَتِهَا الصَّنَائِعُ
كَمَا قَدَّمَاهُ فَلَمْ يَنْجِ رَسْمُهَا وَأَمَّا الْيَمَنُ وَالْبَحْرَانِ وَعُمَانُ وَالْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَهُ
الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مَلَكَهَ الْآفَاءِ مِنَ السِّنِينَ فِي أُمَمٍ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ وَاخْتَطُّوا
أَمْصَارَهُ وَمُدُنُهُ وَبَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ مِثْلَ عَادَ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَحَمِيرَ
مِنْ بَعْدِهِمُ وَالنَّبَايَةَ وَالْأَذَوَاءَ فَطَالَ أَمَدُ الْمُلْكِ وَالْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا وَتَوَقَّرَتْ
الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ فَلَمْ تَبَلْ بِلَى الدَّوْلَةُ كَمَا قَدَّمَاهُ فَبَقِيَتْ مُسْتَحْدَةً حَتَّى الْآنَ وَاخْتَصَّتْ بِذَلِكَ
الْوَطَنِ كَصِنَاعَةِ الْوُشْيِ وَالْعَصَبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ الثِّيَابِ وَالْحَرِيرِ فِيهَا وَاللَّهُ وَارِثُ

الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ أَوْلَادِ بْنِ

الفصل الثاني والعشرون

فيمَن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى
وَمِثَالُ ذَلِكَ الْخِيَاطُ إِذَا أَجَادَ مَلِكَةَ الْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا
يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلِكَةَ النِّجَارَةِ أَوْ الْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلَى لَمْ تَسْتَحْكَمْ بَعْدُ وَلَمْ
تَرَسَخْ صِبْغُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِفَاتُ النَّفْسِ وَالْوَلَوْنُ فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً
وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفُطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا فَإِذَا
تَلَوَّتِ النَّفْسُ بِالْمَلِكَةِ الْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ الْفُطْرَةِ ضَعُفَتْ فِيهَا الْاسْتِعْدَادُ بِالْوَلَوْنِ
الْحَاصِلُ مِنْ هَذِهِ الْمَلِكَةِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلِكَةِ أَوْضَعُ وَهَذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ الْوُجُودُ
فَقُلْ أَنْ يَجِدَ صَاحِبُ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا
عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتَهُمْ فِكْرِيَّةٌ فِهِمْ يَهْدِيهِ
الْمُنَابَةِ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلِكَةِ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنْ يَجِدَ
مَلِكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقْصِرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِنَ
الْأَحْوَالِ وَمِمَّنْ سَبَّهَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ وَتَلَوْنِهِ بَلَوْنِ الْمَلِكَةِ الْحَاصِلَةِ فِي
النَّفْسِ وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة الى امهات الصنائع

إِعْلَمُ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثَرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي
الْعُمُرَانِ فَهِيَ بِحَيْثُ تَشْدُّ عَنِ الْحَصْرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدُّ إِلَّا أَنْ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ
فِي الْعُمُرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضِعِ فَتَخْصُصُهَا بِالذِّكْرِ وَتَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ
فَالْفَلَاحَةُ وَالْبِنَاءُ وَالْخِيَاطَةُ وَالنِّجَارَةُ وَالْحَيَاكَةُ وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضِعِ فَكَالتَوَلِيدُ
وَالْكِتَابَةُ وَالْوَرَاثَةُ وَالْفَنَاءُ وَالطِّبُّ فَأَمَّا التَّوَلِيدُ فَانْبِثَاقُهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمُرَانِ
وَعَامَّةُ الْبَلَوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَتَنْتَمِثُ غَالِبًا وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُونَ
وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضِعِ فَهُوَ حِفْظُ الصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ وَتَيْفَرُّعُ

عَنْ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَمَوْضِعُهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ
الْوَرَقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ النَّسْيَانِ وَمُبَاغَةٌ ضَمَائِرِ
النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْغَائِبِ وَخَلْدَةٌ تَتَأَمَّلُ الْأَفْكَارَ وَالْعُلُومَ فِي الصَّخْفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ
الْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا الْغِنَاءُ فَهُوَ نَسَبُ الْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ حَمَائِلِهَا لِلِاسْتِمَاعِ وَكُلُّ هَذِهِ
الصَّنَائِعِ الثَّلَاثُ دَاعٍ إِلَى مَخَالِطَةِ الْمُلُوكِ الْأَعَاضِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَتَجَالِسِ أُنْسِهِمْ فَلَهَا
بِذَلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُعْتَبَنَةٌ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ
يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ وَالِدَوَاعِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ تَمَرَّتْهَا اتِّخَاذُ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ بِالْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ الْأَرْضِ لَهَا
أَزْدِرَاعُهَا وَعِلَاجُ نَبَاتِهَا وَتَعْمِيدُهَا بِالسَّقْفِ وَالتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حِصَادِ سُبُلِهِ
وَأَسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غُلَافِهِ وَإِحْكَامِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ
أَقْدَمُ الصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا حَصْلَةُ الْقُوَّةِ الْمُكْمَلَةِ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِذْ يُمَكِّنُ وُجُودَهُ
مِنْ دُونَ الْقُوَّةِ وَلِهَذَا اخْتِصَّتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ بِالْبَدْوِ إِذْ قَدْ مَنَّ اللَّهُ أَنْهُ أَقْدَمُ مِنَ الْحَضَرِ
وَسَابِقُ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِذَلِكَ بَدْوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ
أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى الْبَدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُقِيمُ الْعِبَادِ فِيهَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْعَمَلِ فِي اتِّخَاذِ
الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ لِلنَّاسِ وَالْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي الْمَدِينِ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِمَا جَبَلَ
عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَفْكِرَ فِيهَا بِدَفْعِ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ الْحَرِّ
وَالْبَرْدِ كَاتِخًا الْبُيُوتَ الْمَكْتَنَّةَ بِالسَّقْفِ وَالْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَالتَّشَرُّ مَخْتَلِفٌ
فِي هَذِهِ الْحِيلَةِ الْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَخَذُونَ ذَلِكَ بِاعْتِدَالِ أَهَالِي الثَّلَاثِي
وَالثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنْ اتِّخَاذِ ذَلِكَ لِقُصُورِ

أَفْكَارِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَبَادِرُونَ لِلْغَيْرَانِ وَالْكُفُوفِ الْمَعْدَّةِ مِنْ غَيْرِ
عِلَاجٍ ثُمَّ الْمَعْتَدِلُونَ الْمَعْتَدِلُونَ لِلْمَأْوَى قَدْ يَتَكَثَّرُونَ فِي الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ بَحِثُ
يَتَنَازَرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَحْشُونَ طَرَقَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَيَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ
مَاءٍ أَوْ أَسْوَارٍ تَحُوطُهُمْ وَيَصِيرُ جَمِيعًا مَدِينَةً وَاحِدَةً وَمِصْرًا وَاحِدًا وَيَحُوطُهُمُ الْحُكْمُ
مِنْ دَاخِلٍ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِتِّصَافِ وَيَتَّخِذُونَ الْمَعَاقِلَ
وَالْمَحْصُونَ لَهُمْ وَلِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِثَالُ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَكِبَارِ
الْقَبَائِلِ فِي الْمَدُنِ كُلِّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ وَيَصْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيُنَاسِبُ زَوَاجَهُمْ
وَأَخْلَافَهُمْ أَحْوَالِهِمْ فِي الْغَنَى وَالْفَقْرِ وَكَذَا حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ
يَتَّخِذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ وَالْغُرُفِ
الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وَلَدِهِ وَحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ وَتَابِعِهِ وَيُؤَسِّسُ جُذُرَهَا بِالْحِجَارَةِ وَيَلْعَمُ بَيْنَهَا
بِالْكِلْسِ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ وَالْخِصِّ وَيُبَالِغُ فِي ذَلِكَ بِالتَّجْعِيدِ وَالتَّنْمِيقِ إِظْهَارًا
لِلْبَسِيطَةِ بِالْعِنَايَةِ فِي شَأْنِ الْمَأْوَى وَبِهِيَّ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْرَابِ وَالْمَطَامِيرِ لِلاِخْتِرَانِ
لِقَوَاتِهِ وَالْإِسْطِبْلَاتِ لِرَبْطِ مَقَرِّاتِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْحَاشِيَةِ
كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الدَّوِيرَةَ وَالْبُيُوتَ لِنَفْسِهِ وَسَكْنِهِ وَوَلَدِهِ لَا
يَبْتَغِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ حَالِهِ عَنْهُ وَأَقْتَصَارِهِ عَلَى الْكُنْ الطَّبِيعِيِّ لِلْبَشَرِ وَبَيْنَ
ذَلِكَ مَرَاتِبُ غَيْرُ مُنْخَصَرَةٍ وَقَدْ يَحْتَاجُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْضًا عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
الدُّوَلِ الْمَدُنِ الْعَظِيمَةِ وَهَلْ يَكُلُ الْمُرْتَقِعَةُ وَيَبَالِغُونَ فِي إِنْقَانِ الْأَوْصَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْرَامِ
مَعَ الْأَحْكَامِ لِيَتَبَلَّغَ الصَّنَاعَةُ مَبَالِغَهَا وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي تَحْصِلُ الدَّوَاعِي لِذَلِكَ وَأَكْثَرُ
مَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ مِنَ الرَّابِعِ وَمَا حَوْلَ إِلَيْهِ إِذَا الْأَقَالِيمِ الْمُتَحَرِّفَةِ
لَا بِنَاءَ فِيهَا وَإِنَّمَا يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ حِطَّاءَ مِنَ الْقَصَبِ وَالطِّينِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْأَقَالِيمِ
الْمُعْتَدِلَةِ لَهُ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا مُتَفَاوِتُونَ فَمِنْهُمْ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ
الْقَاصِرُ ثُمَّ هِيَ تَنْتَوِعُ أَنْوَاءً كَثِيرَةً فَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْبَجِدَةِ يُقَامُ بِهَا الْجُدُرَانِ
مُلَصَقًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِالطِّينِ وَالْكِلْسِ الَّذِي يَعْقُدُ مَعَهَا وَيَلْتَحِمُ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ
وَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالتُّرَابِ خَاصَّةً يَتَّخِذُ لَهَا لَوْحَانٍ مِنَ الْخَشَبِ مُقَدَّرَانِ طَوْلًا وَعَرْضًا بِاخْتِلَافِ
الْعَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ فَيُصْنَبَانِ عَلَى أَسَاسٍ وَقَدْ بُوْعِدَ

مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْبِنَاءِ فِي عَرْضِ الْأَسَاسِ وَيُوصِلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرُعٍ مِنَ الْخَشَبِ
 يُرَبِّطُ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ وَالْجُدْرِ وَيَسُدُّ الْجِهَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِالْوَحْنِ
 آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوَضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخْلَطًا بِالْكِلْسِ وَيُرَكِّزُ بِالْمَرَكَزِ الْمَعْدَةَ
 حَتَّى يَنْعَمَ رَكَزُهُ وَيَتَخَلَّطَ أَجْزَاؤُهُ ثُمَّ يُزَادُ التُّرَابُ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِئَ ذَلِكَ الْخَلَاءُ
 بَيْنَ الْوَحْنَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ أَجْزَاءُ الْكِلْسِ وَالتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا ثُمَّ يُعَادُ
 نَصْبُ الْوَحْنَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَيُرَكِّزُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيَنْظَمَ الْأَلْوَاخُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ
 فَوْقِ سَطْرِ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ الْخَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى الطَّايَّةُ
 وَصَانِعُهُ الطَّوَابُ وَمِنْ صَنَائِعِ الْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ يُجَلَّلَ الْحِيطَانُ بِالْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُعَلَّ
 بِالْمَاءِ وَيُخَمَّرُ أَسْبُوعًا أَوْ أَسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرِ مَا يَعْتَدِلُ مِرْاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ النَّارِ يَةِ الْمُفْسِدَةِ
 لِلْإِلْحَامِ فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَاهُ مِنْ فَوْقِ الْخَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ وَمِنْ
 صَنَائِعِ الْبِنَاءِ عَمَلُ السَّقْفِ بِأَنْ يُمَدَّ الْخَشَبُ الْمُحْكَمَةُ التَّجَارَةُ أَوْ السَّازِجَةُ عَلَى حَائِطِي
 الْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا الْأَلْوَاخُ كَذَلِكَ مَوْصُولَةً بِالْدَسَائِرِ وَيُصَبُّ عَلَيْهَا التُّرَابُ وَالْكِلْسُ
 وَيُسَبَّطُ بِالْمَرَكَزِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيَعَالَى عَلَيْهَا الْكِلْسُ كَمَا يُعَالَى
 عَلَى الْخَائِطِ وَمِنْ صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ مَا يَرْجِعُ إِلَى التَّنْمِيقِ وَالتَّزْيِينِ كَمَا يُصْنَعُ مِنْ فَوْقِ
 الْحِيطَانِ الْأَشْكَالُ الْجُسْمَةُ مِنَ الْحِصْنِ يُخَمَّرُ بِالْمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَسَدًا وَفِيهِ بَقِيَّةُ
 الْبَلَلِ فَيُشْكَلُ عَلَى النَّاسِبِ تَخَرُّمًا بِمِثْقَابِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ رَوْنَقٌ وَرَوَاءُ
 وَرُبَّمَا عُولِي عَلَى الْحِيطَانِ أَيْضًا يَقْطَعُ الرِّخَامَ وَالْأَجْرَ وَالْخَزْفَ أَوْ بِالصِّدْفِ أَوْ
 السَّبَّجِ يَفْصَلُ أَجْزَاءَ مُجَانِسَةٍ أَوْ مُخْتَلَفَةٍ وَتُوضَعُ فِي الْكِلْسِ عَلَى نِسْبٍ وَأَوْضَاعٍ
 مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ الْخَائِطُ لِلْعِيَانِ كَأَنَّهُ قِطْعُ الرِّيَاضِ الْمُنْمَنَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
 مِنْ بِنَاءِ الْحَبَابِ وَالصَّهْرَارِ لِسَمْعِ الْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي الْبُيُوتِ قِصَاعُ الرِّخَامِ الْقَوَارِ
 الْمُحْكَمَةُ الْخُرْطُ بِالْفُوهَاتِ فِي وَسْطِهَا يُنْبَعُ الْمَاءُ الْجَارِي إِلَى الصَّهْرِ بِحَيْثُ يُجَلَّبُ إِلَيْهِ مِنْ
 خَارِجِ الْقُنُوتِ الْمُنْقِصَةِ إِلَى الْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِنَاءِ وَتَخْتَلِفُ الصَّنَاعُ فِي
 جَمِيعِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْحَذَقِ وَالْبَصَرِ وَيَعْظُمُ عُمُرَانُ الْمَدِينَةِ وَيَتَسَّعُ فَيَكْثُرُونَ وَرُبَّمَا
 يَرْجِعُ الْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هَوْلَاءِ فِيمَا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْبِنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ
 فِي الْمَدُنِ كَثَرَةُ الْأَزْدِحَامِ وَالْعُمُرَانِ يَتَشَاوُونَ حَتَّى فِي الْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ الْأَعْلَى

وَالْأَسْفَلُ وَمِنْ الْإِنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الضَّرَرِ فِي الْحِيطَانِ فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي اسْتِحْقَاقِ الطَّرُقِ وَالْمَنَافِدِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْفَضَالَاتِ الْمُسَرَّيَةِ فِي الْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدَّعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَاطِئِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَاقِقِ الْجَوَارِ أَوْ يَدَّعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالَ حَاطِئِهِ خَشْيَةَ سَقُوطِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهِدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرَصَةٍ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فُسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ لِمَنْفَعَتِهَا وَأَمثالُ ذَلِكَ وَيَخْتَفِي جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصَرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ وَأَحْوَالِهِ الْمُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَاوِدِ وَالْقِمَطِ وَمَرَآكِزِ الْخَشَبِ وَمِثْلِ الْحِيطَانِ وَأَعْتَدَ لَهَا وَقِسْمَ الْمَسَاكِينِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنَوَاتِ مَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تُضَرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْحِيطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ الْبَصَرُ وَالْخُبْرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لغيرِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِالْجُودَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَحْيَالِ بِاعْتِبَارِ الدُّلُولِ وَقُوَّتِهَا فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّالِبِ لَهَا فَلِذَلِكَ عِنْدَ مَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ بَدَوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَتَفَقَّرُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرٍ مَا كَمَا وَقَعَ لِلْوَلِيدِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِالشَّامِ فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفَعْلَةِ الْمَهْرَةِ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَلَ لَهُ غَرَضُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْحِيطَانِ بِالْوِزْنِ وَإِجْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الْأَرْتِفَاعِ وَأَمثالِ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَكَذَلِكَ فِي جَرِّ الْأَنْتِقَالِ بِالْهَنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شَدِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجزُ قَدْرُ الْفَعْلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْحَاطِطِ فَيَتَحِيلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحِجَلِ بِإِدْخَالِهِ فِي الْمَعَالِقِ مِنْ أَنْتَابٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسْبِ هَنْدَسِيَّةٍ تُصَيِّرُ الثَّقِيلَ عِنْدَ مُعَانَاةِ الرَّفْعِ خَفِيفًا فَيَتِمُّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ لِفْفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأَصُولِ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ أَلْيَا كُلِّ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعَظَمِ الْجَسَادِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحِيلِ الْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَتَفْقَهُمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للإنسان في كل مكنون من المكنونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا ليست وأول منافعها أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للإسكاف والدود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والخضر فاما أهل البدو فيتخذون منها المهد والأوتاد لحيامهم والحدوج لطعائهم والرماح والقيسي والسهام لسلحهم وأما أهل الخضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فاختشبه مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو الواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعه إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء ذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأثق في صناعة ذلك واستجدته بغرائب من الصناعة كما أنه ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهئية القطع من الخشب بصناعة الخراط فيحكم برمتها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالأسائر فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجئ أنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدفير وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الخوت واعتبار سنجي في الماء بقوادمه وكله ليكون ذلك الشكل أعون

لَهَا فِي مُصَادِمَةِ الْمَاءِ وَجُعِلَ لَهَا عَوْضُ الْحَرَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِلسَّمَكِ تَحْرِيكُ الرِّيَّاحِ
وَرُبَّمَا أُعِينَتْ بِحَرَكَةِ الْمَقَادِيفِ كَمَا فِي الْأَسَاطِيلِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَصْلَابِهَا حُتَّاجَةٌ
إِلَى أَصْلٍ كَبِيرٍ مِنَ الْهَنْدَسَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا لِأَنَّ إِخْرَاجَ الصُّورِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
عَلَى وَجْهِ الْأَحْكَامِ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّنَاسُبِ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا عُمُومًا أَوْ خُصُوصًا
وَتَنَاسُبُ الْمَقَادِيرِ لَا يَدَّ فِيهِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمُهَنْدِسِ وَلِهَذَا كَانَتْ أَيْمَةُ الْهَنْدَسَةِ
الْيُونَانِيُّونَ كُلُّهُمْ أَيْمَةً فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَكَانَ ابُولِيدُوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْأَصُولِ فِي
الْهَنْدَسَةِ تَجَارًا وَبِهَا كَانَ يُعْرَفُ وَكَذَلِكَ ابُلُونِيوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْخَرْطُوطَاتِ وَمِيلَاوُشُ
وغيرُهُمْ وَفِيمَا يُقَالُ أَنَّ مَعْلَمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْخَلْقَةِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهَا أُنشِئَتْ
سَفِينَةُ النَّجَاةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مُعْجَزَتُهُ عِنْدَ الطُّوفَانِ وَهَذَا الْخَبَرُ وَإِنْ كَانَ مُمَكِّنًا أَعْنِي
كَوْنَهُ مُجَارًا إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَهَا أَوْ تَعَلَّمَهَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ مِنَ النُّقْلِ عَلَيْهِ لِبَعْدِ
الْأَمَادِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْإِشَارَةُ إِلَى قِدَمِ النَّجَارَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا
قَبْلَ خَبَرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجُعِلَ كَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَعَلَّمَهَا فَتَفَهَّمُ أَسْرَارَ الصَّنَائِعِ فِي
الْخَلْقَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

هَاتَانِ الصَّنَاعَتَانِ صَرُورَتَانِ فِي الْعُمُرَانِ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الرَّفْعِ فَالْأَوَّلَى
لِنَسْجِ الْعَزْلِ مِنَ الصُّوفِ وَالْكَتَّانِ وَالْقُطْنِ إِسْدَاءً فِي الطُّولِ وَالْحَمَامَ فِي الْعَرْضِ
لِذَلِكَ النَّسْجُ بِالِاتِّحَامِ الشَّدِيدِ فَيَتِمُّ مِنْهَا قِطْعٌ مُقَدَّرَةٌ مِنْهَا الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصُّوفِ
لِلْإِسْتِثْلِ وَمِنْهَا الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكَتَّانِ لِلْبَاسِ وَالصَّنَاعَةُ الثَّانِيَةُ لِتَقْدِيرِ الْمَسْجُوتِ
عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ تَفَصَّلُ بِالْمَقْرَاضِ قِطْعًا مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ
تُلْحَمُ تِلْكَ الْقِطْعُ بِالْخِيَاطَةِ الْمُحْكَمَةِ وَصَلًا أَوْ تَنْبِيئًا أَوْ تَنْسَحًا عَلَى حَسَبِ نَوْعِ
الصَّنَاعَةِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْعُمُرَانِ الْخَضِرِيِّ لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَعْنُونَ عَنْهَا
وَإِنَّمَا يَسْتَمْلُونَ الْأَنْتَابَ أَشْتِيالًا وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ الثِّيَابِ وَتَقْدِيرُهَا وَالْحَمَامَ بِالْخِيَاطَةِ
لِلْبَاسِ مِنْ مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَفُتُونِهَا وَتَفَهَّمُ هَذِهِ فِي سِرِّ تَحْرِيمِ الْخِيَاطَةِ فِي الْحَجِّ لِمَا
أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْحَجِّ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَبْدِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى لَا يُلَاقِيَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ شَيْءٌ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ لَا طَيْبًا وَلَا نِسَاءً
وَلَا مَخْطِطًا وَلَا خُفًا وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصِدٍّ وَلَا لَشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوَّتْ بِهَا نَفْسُهُ وَخَلَقَهُ
مَعَ أَنَّهُ يَفْقُدُ مَا بَالَمَوْتِ ضَرُورَةٌ وَإِنَّمَا يَحْيَى كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى الْمَحْشَرِ ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا
لِرَبِّهِ وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ
سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصَّنَعَتَانِ
قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلْقَةِ لِمَا أَنَّ الدَّفْعَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ فِي الْعُمُرَانِ الْمُعْتَدِلِ وَأَمَّا الْمُنْخَرَفُ
إِلَى الْحَرِّ فَلَا يَحْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دَفْعٍ وَلِهَذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ
أَنَّهُمْ عُرَاةٌ فِي الْغَالِبِ وَلَقَدْ مِ هَذِهِ الصَّنَائِعِ يَنْسِبُهَا الْعَامَّةُ إِلَى أَدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَرُبَّمَا يَنْسَبُونَهَا إِلَى هِرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمِسَ هُوَ أَدْرِيسُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَوْلُودِ الْأَدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ
الرَّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ عَلَى مَا
تَذَكَّرُوا وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ لِمَا أَنَّهِنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى عَوْرَاتٍ
بَعْضُ وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَائِلَةُ اسْتَعِيرَ فِيهَا مَعْنَى الْأَعْطَاءِ وَالْقَبُولِ
كَأَنَّ النِّسَاءَ تُعْطِيهَا الْجَنِينَ وَكَأَنَهَا تُقْبَلُهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ
فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَارُهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةُ الَّتِي قَدَرَهَا اللَّهُ لِمَكْنَتِهِ هِيَ تِسْعَةُ
أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ التَّزْوِجِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ
عَالِيهِ الْمَنَفَذُ فَيَعْسُرُ وَرُبَّمَا مَرَّقَ بَعْضُ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالْاضْغَاطِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بَعْضُ
مَا كَانَ مِنَ الْأَغْشِيَةِ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَالْإِلْتِحَامِ بِالرَّحِمِ وَهَذِهِ كُلُّهَا الْآمُ يَسْتَدُ
بِهَا الْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى الطَّلُقِ فَتَكُونُ الْقَائِلَةُ مُعِينَةً فِي ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ بِغَمَزِ الظَّهِيرِ
وَالْوَرَكَيْنِ وَمَا يُحَاذِي الرَّحِمَ مِنَ الْأَسَافِلِ تُسَاقُ بِذَلِكَ فَعَلَّ الدَّافِعَةُ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينِ
وَتَسْهِّلُ مَا يَصْعُبُ مِنْهُ بِمَا يُمْكِنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةٍ ثُمَّ إِنْ أَخْرَجَ الْجَنِينَ
بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ الْوَصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَدَّى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ سُرَّتِهِ بِمَعَاهُ وَتِلْكَ

الْوَصْلَةُ عَضْوُ فَضْلِي لِتَغْدِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا الْقَابِلَةُ مِنْ حَيْثُ لَا تَنْعَدَى مَكَانَ
 الْفَصْلَةِ وَلَا تُضَرُّ بِمَعَاةٍ وَلَا بِرَحِمِ أُمِّهِ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ الْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَفِّ أَوْ بِمَا
 تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ الْأَنْدِمَالِ ثُمَّ إِنَّ الْحَيْنَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ الْفَيْقِ وَهُوَ رَطْبُ
 الْعِظَامِ سَهْلُ الْإِنْطِافِ وَالْإِثْنَاءُ قَرِيبًا نَتَغَيَّرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا الْقُرْبُ
 التَّكْوِينُ وَرُطُوبَةُ الْمَوَادِّ فَيَتَنَاوَلُهُ الْقَابِلَةُ بِالْعَمَزِ وَالْإِصْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إِلَى
 شَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ وَوَضْعِهِ الْمَقْدَرِّ لَهُ وَيَرْتَدُّ خَلْقُهُ سَوِيًّا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُرَاجِعُ النَّفْسَاءُ
 وَتَحَازِلُهَا بِالْعَمَزِ وَالْمَلَايِنَةِ لَخُرُوجِ أَغْشِيَةِ الْحَيْنِ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا
 وَيُخَشَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْمَاسِكَةَ حَالِهَا الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ خُرُوجِ الْأَغْشِيَةِ
 وَهِيَ فَضْلَاتٌ فَتَعْمَلُ وَيَسْرِي عَنْهَا إِلَى الرَّحِمِ فَيَقَعُ الْهَلَاكُ فَتَحَازِلُ الْقَابِلَةُ هَذَا وَتَحَاوِلُ
 فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ بِلَكَ الْأَغْشِيَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ
 فَتَمْرِّخُ أَعْضَاءَهُ بِالْأَدْهَانِ وَالذَّرُورَاتِ الْقَابِضَةِ لَتَشَدُّهُ وَتُخَفِّفُ رُطُوبَاتِ الرَّحِمِ
 وَتُخَفِّكُهُ لِرَفْعِ لَهَا تَهْوُسَ عِطْفِهَا لِاسْتِفْرَاحِ نُطُوفِ دِمَاجِهِ وَتُغْرِغُهُ بِالْعُوقِ لِدَفْعِ السَّدْرِ
 مِنْ مَعَاةٍ وَتَجُوفِيهَا عَنِ الْإِلْتِصَاقِ ثُمَّ تَدَاوِي النَّفْسَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَمَنِ الَّذِي أَصَابَهَا
 بِالطَّلَقِ وَمَا حَقَّ رَحِمُهَا مِنَ أَلَمِ الْإِنْفِصَالِ إِذِ الْمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَضْوًا طَبِيعِيًّا فَحَالَةً
 التَّكْوِينِ فِي الرَّحِمِ صَيَّرَتْهُ بِالْإِلْتِمَامِ كَالْعَضْوِ الْمَتَّصِلِ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي انْفِصَالِهِ أَلَمٌ
 يَقْرُبُ مِنْ أَلَمِ الْقَطْعِ وَتَدَاوِي مَعَ ذَلِكَ مَا يَلْحَقُ النَّزَجَ مِنَ أَلَمٍ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ
 عِنْدَ الضَّغْطِ فِي الْخُرُوجِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءٌ نَحْدُ هَؤُلَاءِ الْقَرَابِلِ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا وَكَذَلِكَ
 مَا يَعْزُضُ لِلْمَوْلُودِ مَدَّةَ الرِّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ الْفِصَالِ نَحْدُهَا أَبْصَرَ بِهَا
 مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنُ إِنْسَانِيٍّ
 بِالْقُوَّةِ فَقَطْ فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالَ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا بِالْفَلِّ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ
 أَشَدَّ مِنْهُ الصَّنَاعَةُ كَمَا تَرَاهُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمُرَانِ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ لَا يَتِمُّ كَوْنُ
 أَشْخَاصِهِ فِي الْغَالِبِ دُونَهَا وَقَدْ يَعْزُضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ النَّوْعِ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ إِمَّا بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْجَزَةٌ وَخَرَقًا لِلْعَادَةِ كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ بِإِلْهَامٍ وَهِدَايَةٍ يُلْهِمُ لَهَا الْمَوْلُودُ وَيَنْطَرُقُ عَلَيْهَا فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ
 مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَأَمَّا شَأْنُ الْمَعْجَزَةِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا وَمِنْهُ مَا رُويَ أَنَّ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضْعًا يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ شَاخِصًا يَبْصُرُهُ
 إِلَى السَّمَاءِ وَكَذَلِكَ شَأْنُ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَأَمَّا شَأْنُ الْإِلَهَامِ فَلَا يَنْكَرُ
 وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ الْعُجْمُ مُخْتَصِّ بِغَرَائِبِ الْإِلَهَامَاتِ كَمَا نَحْنُ وَغَيْرَهَا فَمَا ظَنُّكَ
 بِالْإِنْسَانِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهِمْ وَخُصُوصًا بِمَنْ اخْتَصَّ بِكَرَامَةِ اللَّهِ ثُمَّ الْإِلَهَامُ الْعَامُّ
 لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْأَقْبَالِ عَلَى التَّدْيِ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهَامِ الْعَامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ
 الْعَنَاءِ الْإِلَهِيِّ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحَاطَ بِهِ وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ بَطْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحُكْمَاءُ
 الْأَنْدَلُسِ فِيمَا أَحْبَبُوا بِهِ لِعَدَمِ انْقِرَاضِ الْأَنْوَاعِ وَأَسْتَحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ
 وَخُصُوصًا فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا أَوْ انْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لَأَسْتَحَالَ وَجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ
 لِتَوْفُّقِهِ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا إِذْ لَوْ قَدَرْنَا مَوْلُودًا دُونَ
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتِهَا إِلَى حِينِ الْفَصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلًا وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ
 الْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّهُا ثَمَرَتُهُ وَتَابِعُهُ لَهُ وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ لِحُكْمِهِ
 إِيَّاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوْدِهِ ثَانِيًا
 لِأَفْقِضَاتِ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضَاعِ غَرَبَةٍ تَنْدُرُ فِي الْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَحْمِيرَ طَبَقَةٍ مُنَاسِبَةٍ
 لِمِزَاجِهِ بِحَرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلَهَامًا لِتَرْبِيَّتِهِ
 وَالْحَنُوقِ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَجُودُهُ وَفَصَالُهُ وَأَطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فِي الرَّسَالَةِ الَّتِي سَمَّاهَا
 رِسَالَةَ حَيٍّ بَنٍ يَقْظَانِ وَهَذَا الْأَسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى انْقِطَاعِ
 الْأَنْوَاعِ لَكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مُبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَنْعَالِ إِلَى الْعِلَّةِ
 الْمَوْجِبَةِ وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَسِطَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ
 بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا الِتَّكَلُّفِ ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدَلًا فَعَايَةً
 مَا يَتَّبِعِي عَلَيْهِ أَطْرَادُ وَجُودِ هَذَا الشَّخْصِ بِخُلُقِ الْإِلَهَامِ لِتَرْبِيَّتِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ وَمَا
 الْضَّرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ وَإِذَا كَانَ الْإِلَهَامُ يُخْلَقُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ
 خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَخُلِقَ الْإِلَهَامُ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ
 خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكَلَّا الْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبَطْلَانِ فِي مَنَاحِيهِمَا
 لِمَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانما محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان تمرتها حفظا للصحة
للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمدافاة حتى يحصل لهم البرء من امراضهم واعلم
ان اصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الداء واصل كل داء
البردة فاما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر واما قوله الحمية رأس الداء فالحمية
الجوع وهو الاحتياج من الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء العظيم الذي هو اصل
الادوية واما قوله اصل كل داء البردة فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام
في المعدة قبل ان يتم هضم الاول وشرح هذا ان الله سبحانه خلق الانسان وحفظ
حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى ان يصير دما
ملائما لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى
الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من
البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل في الفم ولا كتته الاشدق أثرت فيه حرارة
الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة اذا تناولتها طعاما
ثم أجدها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة
المعدة الى ان يصير كيموسا وهو صنو ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل
ما رسب منه في المعى ثفلا ينفذ الى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك
الكيموس الى ان يصير عيطا وتطفو عليه رغو من الطبخ هي الصفراء وترسب
منه اجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه
فهو الباقع ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول وتأخذها طبخا الحار
الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني
وتأخذ النامية مأخذا في الدم فيكون لحما ثم غليظه عظما ثم يرسل البدن ما
يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه
صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما ثم ان اصل الامراض ومعظمها هي

الْحُمَيَاتُ وَسَبَبُهَا أَنَّ الْحَارَّ الْغَرِيزِيَّ قَدْ يَضْعُفُ عَنْ تَمَامِ النَّضْجِ فِي طَبْعِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ
 مِنْ هَذِهِ فَيَبْقَى ذَلِكَ الْغِذَاءُ دُونَ نَضْجٍ وَسَبَبُهُ عَالِمًا كَثَرَةُ الْغِذَاءِ فِي الدَّعْدَةِ حَتَّى
 يَكُونُ أَغْلَبَ عَلَى الْحَارِّ الْغَرِيزِيِّ أَوْ إِدْخَالُ الطَّعَامِ إِلَى الْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْعُ
 الْأَوَّلِ فَيَسْتَقِلُّ بِهِ الْحَارُّ الْغَرِيزِيُّ وَيَتْرُكُ الْأَوَّلَ بِحَالَةٍ أَوْ يَتَوَزَعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ
 تَمَامِ الطَّبْخِ وَالنَّضْجِ وَتُرْسِلُهُ الْمَعِدَةُ كَذَلِكَ إِلَى الْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ الْكَبِدِ
 أَيْضًا عَلَى إِنْضَاجِهِ وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي الْكَبِدِ مِنَ الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ وَتُرْسِلُ
 الْكَبِدُ جَمِيعَ ذَلِكَ إِلَى الْعُرُوقِ غَيْرَ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ الْبَدَنُ حَاجَتَهُ الْمَلَأِيْمَةَ
 أَرْسَلَهُ مَعَ الْفَضَلَاتِ الْأُخْرَى مِنَ الْعَرَقِ وَالِدَّمْعِ وَالْعَلَابِ إِنْ أَقْتَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا
 يَعْجزُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي الْعُرُوقِ وَالْكَبِدِ وَالْمَعِدَةِ وَتَتَزَايِدُ مَعَ الْأَيَّامِ وَكُلُّ
 ذِي رُطُوبَةٍ مِنَ الْمُمْتَزَجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ الطَّبْخُ وَالنَّضْجُ يَعْنِي فَيَتَعَمَّنُ ذَلِكَ الْغِذَاءُ
 غَيْرُ النَّاضِجِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْخَلِطِ وَكُلُّ مُتَعَمِّنٍ فِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ الْمَسْمَاةُ فِي
 بَدَنِ الْإِنْسَانِ بِالْحُمَى وَاخْتَبَرْتُ ذَلِكَ بِالطَّعَامِ إِذَا تَرَكَ حَتَّى يَتَعَمَّنَ وَفِي الرَّبْلِ إِذَا
 تَعَمَّنَ أَيْضًا كَيْفَ تَنْبَعَثُ فِيهِ الْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَا خَذَهَا فِهَذَا مَعْنَى الْحُمَيَاتِ فِي الْإِبْدَانِ
 وَهِيَ رَأْسُ الْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَهَذِهِ الْحُمَيَاتُ عِلَاجُهَا بِقَطْعِ الْغِذَاءِ
 عَنِ الْمَرِيضِ أَسَابِيعَ مَعْلُومَةٍ ثُمَّ يَتَنَاوَلُ الْأَغْذِيَةَ الْمَلَأِيْمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بَرُؤُهُ ذَلِكَ فِي
 حَالِ الصَّحَّةِ عِلَاجٌ فِي اتِّخَافِ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ
 ذَلِكَ الْعَمَلُ فِي عَضْوٍ مَخْصُوصٍ فَيَمُوتُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذَلِكَ الْعَضْوِ وَيَحْدُثُ جِرَاحَاتٌ فِي
 الْبَدَنِ إِمَّا فِي الْأَعْضَاءِ الرَّئِيسَةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرُضُ الْعَضْوُ وَيَعْدُثُ عَنْهُ مَرَضُ
 الْقُوَى الْمَوْجُودَةِ لَهُ هَذِهِ كَمَا جَدَّاعُ الْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهَا فِي الْغَالِبِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَهَذَا
 كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى الطَّيِّبِ وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ الْخَصْرِ وَالْأَمْصَارِ أَكْثَرُ
 لِحَيْصِ عَيْشِهِمْ وَكَثَرَةِ مَا كُلُّهُمْ وَقِلَّةِ اقْتِصَارِهِمْ عَلَى تَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَعَدَمِ
 تَوْقِيتِهِمْ لِمَتَاوَلِيهَا وَكَثَرِ مَا يَخْلُطُونَ بِالْأَغْذِيَةِ مِنَ التَّوَابِلِ وَالْقُوقُلِ وَالْفَوَاكِهِ رَطْبًا وَيَابِسًا
 فِي سَبِيلِ الْعِلَاجِ بِالطَّبْخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى تَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ قَرُبًا عَدَدًا فِي
 الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِنْ أَلْوَانِ الطَّبْخِ أَرْبَعِينَ نَوْعًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ الْغِذَاءُ رَاجِعًا
 غَرِيبًا وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا عَنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ ثُمَّ إِنْ الْأَهْوِيَّةُ فِي الْأَمْصَارِ

فَسَدُّ بِمَخْلَاطَةِ الْأَنْجَرَةِ الْعَنْتَةِ مِنْ كَثَرَةِ الْفَضَلَاتِ وَالْأَهْوِيَةِ مُنْشِطَةً لِلْأَرْوَاحِ وَمُقَوِّيةً
بِنَشَاطِهَا الْأَثَرَ الْحَارَّ الْغَرِيزِيَّ فِي الْهَضْمِ ثُمَّ الرِّيَاضَةُ مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ
فِي الْعَالِبِ وَادِعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ الرِّيَاضَةُ شَيْئًا وَلَا تُؤْتِرُ فِيهِمْ أَثَرًا فَكَانَ
وُقُوعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ وَقْعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَا كَوَّلَهُمْ قَلِيلٌ فِي الْعَالِبِ وَالْجُوعُ أَغْلَبَ عَلَيْهِمْ لِقَلَّةِ الْحَبُوبِ
حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّهَا جِيلَةٌ لِاسْتِمْرَارِهَا ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ
أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجُمْلَةِ وَعِلَاجُ الطَّبَّخِ بِالتَّوَابِلِ وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرْفِ الْحِضَارَةِ
الَّذِينَ هُمْ بِمَعَزَلٍ عَنْهُ فَيَتَنَاوَلُونَ أَغْذِيَتَهُمْ بِسَبْطَةٍ بَعِيدَةٍ عَمَّا يُخَالِطُهَا وَيُقَرِّبُ مِرَاجِعَهَا
مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَمَّا أَهْوِيَتُهُمْ فَقَلِيلَةٌ الْعَفَنُ لِقَلَّةِ الرُّطُوبَاتِ وَالْعَفُونَاتِ إِنْ كَانُوا
ظَوَاعِنَ ثُمَّ إِنْ الرِّيَاضَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ لِكَثَرَةِ الْحَرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَيْلِ أَوْ الصِّيدِ أَوْ
طَلَبِ الْحَاجَاتِ لِمَهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْسُنُ بِذَلِكَ كُلُّهُ الْهَضْمُ وَيَجُودُ وَيَقْدَرُ
إِدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْرُجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَابْعَدَ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُمْ
إِلَى الطَّبِّ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ الطَّبِيبُ فِي الْبَادِيَةِ بَوَحٍ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ
لَوْ أَحْتِيجَ إِلَيْهِ لَوُجِدَ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ سَنَةً اللَّهُ
فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

الفصل الثلاثون

في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية
وهو رسومٌ وأشكالٌ حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ
فَهُوَ ثَانِي رُتْبَةٍ مِنَ الدَّلَالَةِ اللَّغَوِيَّةِ وَهُوَ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذِ الْكِتَابَةُ مِنْ خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ
الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا عَنِ الْحَيَوَانِ وَآيْضًا فَهِيَ تَطْلُعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ وَتُنَادِي بِهَا الْأَغْرَاضُ
إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فَتَقْضِي الْحَاجَاتِ وَقَدْ دَفَعَتْ مَوْئِدَةً أَلْمِيَّاشَرَةَ لَهَا وَيَطْلُعُ بِهَا عَلَى الْعُلُومِ
وَالْمَعَارِفِ وَصَحْبِ الْأَوَّلِينَ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فَهِيَ شَرِيفَةٌ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ
وَالْمَنَافِعِ وَخُرُوجِهَا فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدَرِ
الْاجْتِمَاعِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّنَاقُغِي فِي الْكِمَالَاتِ وَالطَّلَبِ لِلذِّكْرِ تَكُونُ جُودَةُ الْخَطِّ فِي
الْمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ قَدَمْنَا أَنَّ هَذَا شَأْنُهَا وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمُرَانِ وَلِهَذَا

نَحْدُ أَكْثَرَ الْبَدُوِّ أَمِيَّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُونُ
خَطُّهُ قَاصِرًا أَوْ قَرَأَتْهُ غَيْرَ نَافِذَةٍ وَنَحْدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمُرَانِهَا عَنْ
الْحَدِّ أَبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَسْهَلَ طَرِيقًا لِاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا تَمَا يُخْجَلِي لَنَا عَنْ مَضَرِّ
لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بَيْنَهُمَا مُعَلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِلتَّعْلِيمِ الْخَطِّ يَأْقُونَ عَلَى التَّعْلِيمِ قَوَانِينَ وَأَحْكَامًا
فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَيَتَعَضَّدُ لَدَيْهِ رُتْبَةُ الْعِلْمِ
وَالْحُسْنُ فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الصَّنَائِعِ
وَوُفُورِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمُرَانِ وَالتَّنَسُّحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ بَالِغًا مَبَالِغَهُ
مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَالْجُودَةِ فِي دَوْلَةِ التَّبَاطُغَةِ بِنَا بَلَّغَتْ مِنَ الْخِصَارَةِ وَالْتَرَفِ وَهُوَ
الْمُسَمَّى بِالْخَطِّ الْحَمِيرِيِّ وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْحِيرَةِ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ دَوْلَةٍ إِلَى الدَّمِيرِ
نُسْبَاءِ التَّبَاطُغَةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ وَالْحَجْدِ دِينَ لِمَلِكِ الْعَرَبِ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ الْخَطُّ عِنْدَهُمْ
مِنَ الْإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ التَّبَاطُغَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَكَانَتِ الْخِصَارَةُ وَتَوَابِعُهَا
مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنْ ذَلِكَ وَمِنَ الْحِيرَةِ لِقُنَّةِ أَهْلِ الطَّائِفِ وَقُرَيْشٍ فِيمَا ذَكَرَ
وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْحِيرَةِ هُوَ سَفِيَانُ بْنُ أُمِيَّةٍ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أُمِيَّةٍ
وَأَخَذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سُدْرَةَ وَهُوَ قَوْلُ مُسْكِنٍ وَأَقْرَبُ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا
مِنْ إِيَادِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعًا وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلٌ بَعِيدٌ لِأَنَّ إِيَادَ وَإِنْ نَزَلُوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ
وَالْخَطِّ مِنَ الصَّنَائِعِ الْخِصْرِيَّةِ وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْخَطِّ وَالْقَلَمِ
مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَمْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَالْقَوْلُ بِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ إِنَّمَا لَقَّنُوهُمْ
مِنَ الْحِيرَةِ وَلَقَّنَهَا الْحِيرَةُ مِنَ التَّبَاطُغَةِ وَحَمِيرٌ هُوَ الْأَلْفُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَكَانَ لِحَمِيرٍ كِتَابَةً
تُسَمَّى الْمُسْنَدَ حُرُوفُهَا مُفَصَّلَةٌ وَكَانُوا يَمْنَعُونَ مَنْ تَعَلَّمَهَا إِلَّا بِإِذْنِهِمْ وَمِنْ حَمِيرٍ تَعَلَّمَتْ
مَضَرُّ الْكِتَابَةَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُجِيدِينَ لَهَا شَأْنِ الصَّنَائِعِ إِذَا وَقَّتْ بِالْبَدُوِّ
فَلَا تَكُونُ مُحْكَمَةً الْمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةً إِلَى الْإِتْقَانِ وَالتَّنَمِيقِ لِيَكُونَ مَا بَيْنَ الْبَدُوِّ
وَالصَّنَائِعِ وَاسْتَفْنَاءِ الْبَدُوِّ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ وَكَانَتْ كِتَابَةُ الْعَرَبِ بَدْوِيَّةً مِثْلَ كِتَابَتِهِمْ أَوْ
قَرِيبًا مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَوْ نَقُولُ إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْسَنُ صِنَاعَةٍ لِأَنَّ هُوَ لَا

أَقْرَبُ إِلَى الْخَضَارَةِ وَمُخَالَطَةِ الْأَمْصَارِ وَالْدُّوَلِ وَأَمَّا مُضَرٌّ فَكَانُوا أَعْرَقَ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدَ
عَنِ الْخَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ فَكَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ لِأَوَّلِ
الْإِسْلَامِ غَيْرَ بَالِغٍ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِنْفَانِ وَالْإِجَادَةِ وَلَا إِلَى التَّوَسُّطِ
لِمَكَانِ الْعَرَبِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالتَّوَحُّشِ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَنْظُرْ مَا وَفَّعَ لِأَجْلِ ذَلِكَ
فِي رَسْمِهِمُ الْمُصْحَفَ حَيْثُ رَسَّمَهُ الصَّحَابَةُ بِخُطُوطِهِمْ وَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكِمَةٍ فِي الْإِجَادَةِ
فَخَالَفَ الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِهِمْ مَا أَقْتَضَتْهُ رُسُومُ صِنَاعَةِ الْخَطِّ عِنْدَ أَهْلِهَا ثُمَّ أَقْتَنَى التَّالِيُونَ
مِنَ السَّلَفِ رَسْمَهُمْ فِيهَا تَبَرُّكَ كَمَا بِمَا رَسَّمَهُ أَصْحَابُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرُ
الْخَلْقِ مِنْ بَعْدِهِ الْمُتَلَقُّونَ لِوَحْيِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ كَمَا يَقْتَضِي لِهَذَا الْعَهْدِ خَطُّ وَلِيٍّ
أَوْ عَالِمٍ تَبَرُّكَ كَمَا وَتَبَعُ رَسْمُهُ خَطًّا أَوْ صَوَابًا وَأَيْنَ نِسْبَةُ ذَلِكَ مِنَ الصَّحَابَةِ فِيمَا كَتَبُوهُ
فَاتَّبَعَ ذَلِكَ وَأُثِّبَتْ رَسْمًا وَتَبَّهَ الْعُلَمَاءُ بِالرَّسْمِ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَلَا تَلْتَفِتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا
يَزَعُمُهُ بَعْضُ الْمُعْتَلِّينَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْكَمِينَ لِصِنَاعَةِ الْخَطِّ وَأَنَّ مَا يَتَخَيَّلُ مِنْ
مُخَالَفَةِ خُطُوطِهِمْ لِأُصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يَتَخَيَّلُ بَلْ لِكَلِمَاتٍ وَجْهٌ يَقُولُونَ فِي مِثْلِ
زِيَادَةِ الْأَنْبِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ إِنَّهُ تَنْبِيهٌُ عَلَى أَنَّ الدَّبْحَ لَمْ يَقَعْ وَفِي زِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَايِدَ
إِنَّهُ تَنْبِيهٌُ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَأَمثال ذلك مما لَا أَصْلَ لَهُ إِلَّا الْأَتَّحْكُمُ
الْمُخَضُّ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْزِيهًا لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوْحُّمِ
النَّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ وَحَسِبُوا أَنَّ الْخَطَّ كَمَالَ فَتَزَهَّرُهُمْ عَنْ نَقْصِهِ وَنَسَبُوا إِلَيْهِمْ
الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَعْلِيلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَلِكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذِ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَعَاشِيَةِ
كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِي بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ إِذْ لَا يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى
الذَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ وَبِحَسَبِ الْعُمُرَانِ وَالْعَمَلِ
عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ . وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيًّا وَكَانَ
ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنْزُّهِهِ عَنِ الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ
أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمُرَانِ كُلُّهَا وَلَيْسَتْ الْأُمِّيَّةُ كَمَالًا فِي حَقِّهَا تَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى
رَبِّهِ وَتَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا حَتَّى الْعُلُومُ الْأَصْطِلَاحِيَّةُ فَإِنَّ
الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنْزُّهُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الدَّلِيلُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا

الْأَمْصَارَ وَمَلَكَوا أَلْمَمَالِكَ وَتَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَاحْتَاكَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكِتَابَةِ
أَسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمَهُ وَتَدَاوَلُوهُ فَتَرَقَّتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَأَسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ
فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ الْإِتْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ الْعَالِيَةِ وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ
مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ ثُمَّ انْتَشَرَ الْعَرَبُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ وَافْتَتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ
وَالْأَنْدَلُسَ وَاخْتَطَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ وَتَرَقَّتِ الْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى الْعَالِيَةِ لَمَّا اسْتَبْجَرَتْ فِي
الْعُمُرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرَّزَ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَكَانَ اخْطُ الْبَغْدَادِيِّ مَعْرُوفَ
الرَّسْمِ وَتَبِعَهُ الْأَفْرِيقِيُّ الْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ الْقَدِيمُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ
الْمَشْرِقِيِّ وَتَحَيَّرَ مَلِكُ الْأَنْدَلُسِ بِالْأَمَوِيِّينَ فَتَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالصَّنَائِعِ
وَالْخُطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خُطُّهُمْ الْأَنْدَلُسِيِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَطَمَحًا بِجَرِّ
الْعُمُرَانِ وَالْحِضَارَةِ فِي الدَّوْلِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ فُطْرٍ وَعَظُمَ الْمَلِكُ وَتَفَقَّتْ أَسْوَاقُ
الْعُلُومِ وَانْتَسَخَتْ الْكُتُبُ وَأُجِيدَ كِتَابُهَا وَتَجَلَّيْدُهَا وَمِلَّتْ بِهَا الْقُصُورُ وَالْخَزَائِنُ
الْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ الْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَافَعُوا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا انْحَلَّ نِظَامُ
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَتْ تَنَاقَصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدُرِسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادٍ بِدُرُوسِ الْخِلَافَةِ
فَانْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ الْخَطِّ وَالْكِتَابَةِ بَلْ وَالْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ فَلَمْ تَزَلْ أَسْوَاقُهَا
نَافِقَةً لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مُعَلِّمُونَ يَرْتَمُونَ لِتَعْلِيمِ الْحُرُوفِ بِقَوَانِينٍ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا
مَتَعَارِفَةً بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ الْمُتَعَلِّمُ أَوْ يُحْكِمُ أَشْكَالَ تِلْكَ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَوْضَاعِ
وَقَدْ أَقْنَيْهَا حَسَنًا وَحَدِّقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينُ عِلْمِيَّةٍ فَتَجَبَّى أَحْسَنَ مَا يَكُونُ
وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَقْتَرَفُوا فِي الْأَقْطَارِ عِنْدَ تِلَاشِي مَلِكِ الْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَفَهُمْ مِنْ
الْبَرْبَرِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ فَانْتَشَرُوا فِي عُدُودِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ مِنَ لَدُنِ
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ الْعُمُرَانِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا
بِأَذْيَالِ الدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خُطُّهُمْ عَلَى الْخَطِّ الْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَسَيَّ خُطُّ الْقَاهِرَوَاتِ
وَالْمَهْدِيَّةِ بِنِسْبَانِ عَوَانِدِهِمَا وَصَنَائِعُهُمَا وَصَارَتْ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الرَّسْمِ
الْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا إِلَيْهَا لِتَوْفُرِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ الْجَالِيَةِ مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ
وَبَقِيَ مِنْهُ رَسْمُ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ الَّذِينَ لَمْ يُخَالِطُوا كِتَابَ الْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِحَوَارِهِمْ
إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ الْمَلِكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خُطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوطِ

أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ حَتَّى إِذَا انْقَلَصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَتَرَجَعَ أَمْرُ الْحِضَارَةِ
وَالْتَرَفِ بِتَرَجُعِ الْعُمَرَانِ تَقْصُ حِينُ ذَلِكَ حَالُ الْخَطِّ وَقَسَدَتْ رُسُومُهُ وَجَهْلٌ فِيهِ وَجْهٌ
التَّعْلِيمِ بِفَسَادِ الْحِضَارَةِ وَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ وَبَقِيَ فِيهِ آثَارُ الْخَطِّ الْأَنْدَلُسِيِّ تَشْهَدُ بِمَا
كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَمَّا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ الصَّنَائِعَ إِذَا رَسَخَتْ بِالْحِضَارَةِ فَيَعْسُرُ مَحْوُهَا
وَحَصَلَ فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرَيْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لَوْ أَنَّ الْخَطَّ الْأَنْدَلُسِيَّ
لِقُرْبِ جَوَارِهِمْ وَسُقُوطِ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى فَارِسَ قَرِيبًا وَاسْتَعْمَالِهِمْ أَيَّامَ سَائِرِ
الدَّوْلَةِ وَلِسِيَّ عَهْدِ الْخَطِّ فِيمَا بَعْدَ عَنْ سِدَّةِ الْمَلِكِ وَدَارِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يُعْرِفْ فَصَارَتْ الْخُطُوطُ
بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِيِّينَ مَائِلَةً إِلَى الرَّدَاءَةِ بَعِيدَةً عَنِ الْجُودَةِ وَصَارَتْ الْكُتُبُ إِذَا
أُنْشِخَتْ فَلَا فَائِدَةَ تَحْصُلُ لِمُتَصَفِّحِهَا مِنْهَا إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْمَشَقَّةُ لِكثَرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ
الْفَسَادِ وَالتَّخْفِيفِ وَتَغْيِيرِ الْأَشْكَالِ الْخَطِيَّةِ عَنِ الْجُودَةِ حَتَّى لَا تَكَادُ تُقْرَأُ إِلَّا بَعْدَ
عُسْرِ وَوَقَعَ فِيهِ مَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ بِتَقْصُصِ الْحِضَارَةِ وَفَسَادِ الدُّوَلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كَانَتْ الْعِنَايَةُ قَدِيمًا بِالْأَدْوَانِ الْعِلْمِيَّةِ وَالسَّجَلَاتِ فِي نَسْخِهَا وَتَجْلِيدِهَا وَتَضْيِيقِهَا
بِالرِّوَايَةِ وَالضَّبْطِ وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ ضَخَامَةِ الدَّوْلَةِ وَتَوَابِعِ الْحِضَارَةِ وَقَدْ ذَهَبَ
ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ يَذْهَابُ الدَّوْلَةُ وَتَنَاقُصُ الْعُمَرَانُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا سَلَامِيَّةٌ
بَحْرٌ زَاخِرٌ بِالْعِرَاقِ وَالْأَنْدَلُسِ إِذْ هُوَ كُلُّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْعُمَرَانِ وَاتِّسَاعِ نِطَاقِ الدَّوْلَةِ
وَتَنَاقُ أَسْوَاقِ ذَلِكَ لَدَيْهِمَا فَكَثُرَتْ التَّالِيفُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْأَدْوَانُ وَحَرَصَ النَّاسُ عَلَى
تَنَاقُلِهَا فِي الْأَفَاقِ وَالْأَعْمَارِ فَانْتَسَخَتْ وَجُلِدَتْ وَجَاءَتْ صِنَاعَةُ الْوَرَقِ الْقَبِيلِ الْمَعَانِينِ
لِلْإِنْسَانِ وَالْتَضْيِيقِ وَالتَّجْلِيدِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْكُتُبِيَّةِ وَالْأَدْوَانِ وَخُصِّصَتْ بِالْأَمْصَارِ
الْعَظِيمَةِ الْعُمَرَانُ وَكَانَتْ السَّجَلَاتُ أَوَّلًا لِإِنْتِسَاخِ الْعُلُومِ وَكُتُبِ الرِّسَالِ السُّلْطَانِيَّةِ
وَالْإِفْطَاعَاتِ وَالصُّكُوكِ فِي الرُّفُوقِ الْمُهَيَّأَةِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْجِلْدِ لِكثَرَةِ الرِّفِّ وَقِلَّةِ
الرِّسَالِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْكِتَابِ فِي الرِّقِّ تَشْرِيفًا
لِلْمَكْتُوباتِ وَمِيَالًا بِهَا إِلَى الصِّحَّةِ وَالْإِتْقَانِ ثُمَّ طَمَأَ بَحْرُ التَّالِيفِ وَالتَّدْوِينِ وَكَثُرَ
تَرْسِيلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ وَضَاقَ الرِّقُّ عَنْ ذَلِكَ فَأَشَارَ الْفُضْلُ بْنُ يُحْيَى بِصِنَاعَةِ

الكاغِدِ وَصَنَعَهُ وَكَتَبَ فِيهِ رَسَائِلَ السُّلْطَانِ وَصُكُوكَهُ وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ
 صُحُفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ ثُمَّ وَفَّقَتْ
 عَنَانِيَّةُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدُّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَاوِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَتَفْصِيحِهَا بِالرِّوَايَةِ
 الْمُسْنَدَةِ إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَوَضْعِهَا لِأَنَّهُ الشَّانُ الْأَمُّ مِنَ التَّفْصِيحِ وَالضَّبْطِ فَبِذَلِكَ تَسْنَدُ
 الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلِهَا وَالْفَتْيَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْعُجْبَةُ فِي طَرِيقِ اسْتِنْبَاطِهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ
 تَفْصِيحُ الْمُتُونِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مَدُونِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فَتْيَا وَهَكَذَا كَانَ
 شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتِهِ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْآفَاقِ حَتَّى لَقَدْ قُصِرَتْ فَائِدَةُ الصَّنَاعَةِ
 الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ ثَمَرَتِهَا الْكُبْرَى مِنْ مَعْرِفَةِ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ
 وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمُرْسَلِهَا وَمَقْطُوعِهَا وَمَوْفُوفِهَا مِنْ مَوْضِعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَمَحَّضَتْ زُبْدَةٌ
 فِي ذَلِكَ الْأُمَمَاتِ الْمُتَفَلِّحَةِ بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْأَمَّةِ وَصَارَ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ لَعَوًا مِنَ الْعَمَلِ
 وَلَمْ تَبْقَ ثَمَرَةُ الرِّوَايَةِ وَالْإِسْتِغَالِ بِهَا إِلَّا فِي تَفْصِيحِ تِلْكَ الْأُمَمَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا
 مِنْ كُتُبِ الْفَقْهِ لِلْفَتْيَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَاوِينِ وَالتَّالِيفِ الْعِلْمِيَّةِ وَاتِّصَالَ سَنَدِهَا
 بِمُؤَلِّفِهَا لِيَصِحَّ النَّقْلُ عَنْهُمْ وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
 مُعْبَدَةً الطَّرِيقِ وَاضِحَةً الْمَسَالِكِ وَلِهَذَا تَجِدُ الدَّوَاوِينَ الْمُنْتَسَخَةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَقْطَارِهِمْ
 عَلَى غَايَةِ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالصَّحَّةِ وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ
 أَصُولٌ عَتِيقَةٌ تَشْهَدُ بِمُلُوحِ الْغَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَهْلُ الْآفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآلِ
 وَيَشُدُّونَ عَلَيْهَا يَدَ الضَّمَانَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جُمْلَةً بِالْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ
 لَا نَقْطَاعَ صِنَاعَةِ الْخَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرِّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِفَاصِ عُمُرَانِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ وَصَارَتْ
 الْأُمَمَاتُ وَالِدَّوَاوِينَ تُنَسَخُ بِالْخَطِّ الْيَدَوِيِّ تَنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبَرَبِ صَحَائِفَ مُسْتَحْجَةً بِرَدَاءَةِ
 الْخَطِّ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالتَّخْفِيفِ فَتَسْتَغْنِي عَلَى مُتَصَفِّحِهَا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 النَّادِرِ وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْفَتْيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَعْرُوءَةِ غَيْرُ مَرْوِيَّةٍ
 عَنْ أَمَّةٍ الْمَذْهَبِ وَإِنَّمَا تُنْقَلَى مِنْ تِلْكَ الدَّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَتَبَعَ ذَلِكَ أَيْضًا مَا
 يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بَعْضُ أُمَّتِهِمْ مِنَ التَّالِيفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَعَدَمِ الصَّنَاعَةِ الْوَافِيَةِ
 بِمَقَاصِدِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الرَّسْمِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا إِثَارَةٌ خَفِيفَةٌ بِالْإِتِّحَاءِ وَهِيَ الْإِضْجَالُ
 فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ يَنْقَطِعُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَبَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ

أَنَّ صِنَاعَةَ الرَّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالْمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ الدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى
مُتَّبِعِيهِ لِمَتَنَاقِ اسْتَوْاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذَرُوهُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنْ
الْأَجَادَةِ فِي الْإِنْتِسَاخِ هُنَاكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ وَأَمَّا النَّسْخُ بِمِصْرَ ففَسَدَ
كَمَا فَسَدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَسَدَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ تَحْنِيقُ الْأَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسْبٍ مُنْتَظِمَةٍ
مَعْرُوفَةٍ يُوقَعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قِطْعِهِ فَيَكُونُ نِعْمَةً ثُمَّ تَوَانُفُ تِلْكَ النِّعَمِ بَعْضُهَا
إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسْبٍ مُتَعَارِفَةٍ فَيَلَدُ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنْ
الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمُوسِيقِيِّ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَتُنَاسِبُ
فَيَكُونُ صَوْتُ نِصْفِ صَوْتٍ وَرُبْعِ آخَرَ وَخُمْسِ آخَرَ وَجُزْءٍ مِنْ أَحَدِ عَشَرَ مِنْ آخَرَ
وَاخْتِلَافُ هَذِهِ النِّسْبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى السَّمْعِ بِمُجْرُوحِهَا مِنَ الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ
وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْدُودًا عِنْدَ السَّمْعِ بَلْ لِلْمَلْدُودِ تَرْكِيبٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ الَّتِي حَصَرَهَا
أَهْلُ عِلْمِ الْمُوسِيقِيِّ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاقُ ذَلِكَ التَّحْنِيقُ
فِي النِّعَمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ الْجَمَادَاتِ إِمَّا بِالْقُرْعِ أَوْ بِالنَّفْخِ فِي
الْآلَاتِ لِنَتَّخِذُ لَذَلِكَ قِتْرِي لَهَا لَذَّةٌ عِنْدَ السَّمْعِ فَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمَّوْنَهُ
الشَّابَّابَةَ وَهِيَ قِصْبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٌ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيُخْرِجُ الصَّوْتُ
مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَيَقْطَعُ الصَّوْتُ بِوَضْعِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْيَدَيْنِ
جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَضَعًا مُتَعَارَفًا حَتَّى يَحْدُثَ النِّسْبُ بَيْنَ الْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتُتَّصِلَ
كَذَلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَمِذُ السَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هَذِهِ
الْآلَةِ الْمَرْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الزَّرْ لَامِيٍّ وَهُوَ شَكْلُ الْقِصْبَةِ مَخْوُوتَةُ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْخَشَبِ
جَوْفَاءُ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ كَذَلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ
يُنْفَخُ فِيهَا بِقِصْبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفِذُ النَّفْخُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنِعْمَةٍ حَادِيَةٍ يُجْرَى
فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ بِالْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرَى فِي الشَّابَّابَةِ
وَمِنْ أَحْسَنِ الْآلَاتِ الزَّمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نَحَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

الذراع يتسع إلى أن يكون أنفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل بري
العلم وينفخ فيه بقصة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت خفياً دويّاً
وفيه أنجاش أيضاً معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على الأناسب فيكون
ملذوداً ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها إما على شكل قطعة من الكرة مثل
المربط والرباب أو على شكل مربع كالتانون توضع الأوتار على بساطها مشدودة
في رأسها إلى دسر جائلة ليأتي شد الأوتار وريحها عند الحاجة إليه بإدارتها ثم
تفرع الأوتار إما بعد آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن
يطلق بالشعر والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من
وتر إلى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على
أطراف الأوتار فيما يفرغ أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذودة
وقد يكون الفرغ في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقع مناسب
يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولتبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن
اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم والخسوس إنما تدرك منه كيفية
فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذودة وإذا كانت منافية له منافية
كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفية حاسة الذوق في مزاجها وكذا
الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه
المدرك واليه تؤدي الحاسة ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن
رائحة وأشد ملاءمة للروح الغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما
المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو
أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فإذا كان المرئي متناسباً في أشكاله ومخاطبطه
إتت له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة
والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ متناسباً
لنفس المدركة فتلد بإدراك ملائمتها ولهذا تجد العاشقين المستترين في المحبة
يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر
تفهمه إن كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وإن كان ما سواك إذا نظرته وتأملته

رَأَيْتَ يَنْتَكِ وَيَنْتَكِ فِي الْبِدَاءِ يَشْهَدُ لَكَ بِهِ اتِّحَادُ كَمَا فِي الْكَوْنِ وَمَعْنَاهُ مِنْ
وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يُشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ فَتَوَدُّ أَنْ يَمْتَزَجَ
بِمُشَاهَدَاتٍ فِيهِ الْكَمَالُ لِيَتَّحِدَ بِهِ بَلْ تَرُومُ النَّفْسُ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَحْمِ إِلَى
الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّحَادُ الْمَبْدَأِ وَالْكَوْنِ وَلَمَّا كَانَ انْسِبُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبُهَا
إِلَى أَنْ يَدْرِكَ الْكَمَالَ فِي تَنَاسُبِ مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلُهُ الْإِنْسَانِي كَانَ إِدْرَاكُهُ لِلْجَمَالِ
وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطُطِهِ وَأَصْوَاتِهِ مِنَ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ فَيُلْهَجُ كُلُّ
إِنْسَانٍ بِالْحُسْنِ مِنَ الْمَرْئِيِّ أَوِ الْمَسْمُوعِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْحُسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ
تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً لَا مُتَنَافِرَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْحَمْسِ
وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشَّدَةِ وَالْقَلْقَلَةِ وَالضَّغَطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ
لَهَا الْحُسْنَ فَأَوَّلًا أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مَدِّهِ دَفْعَةً بَلْ يَتَدَرَّجُ ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ
وَهَكَذَا إِلَى الْمَثَلِ بَلْ لَا يَدُومُ تَوْسُطُ الْمَعَارِيفِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ وَتَأْمَلْ هَذَا مِنْ أَفْتِتَاحِ
أَهْلِ اللِّسَانِ التَّرَاكِبِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ أَوِ الْمُتَقَارِبَةِ الْمَخَارِجِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ
وَتَأْنِيًا تَنَاسُبُهَا فِي الْأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوَّلَ الْبَابِ فَيَخْرُجُ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى نَصْنِهِ أَوْ ثَلَاثِهِ أَوْ
جُزْءٍ مِنْ كَذَا مِنْهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّنْقُلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الصَّنَاعَةِ فَإِذَا
كَانَتْ الْأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ مَلَأَمَةً
مَلَكُودَةً وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ بَسِطًا وَيَكُونُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ
لَا يَحْتَجِبُونَ فِيهِ إِلَى تَعْلِيمٍ وَلَا صُنَاعَةٍ كَمَا نَحْنُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْمَوَازِينِ الشَّعْرِيَّةِ وَتَوْفِيقِ
الرَّقْصِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَتُسَمَّى الْعَامَّةُ هَذِهِ الْقَائِلِيَّةُ بِالْمِضْمَارِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ بِهِذِهِ
الْمَثَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَيَجِدُونَ فِي تَلَاَحِينِ أَصْوَاتِهِمْ كَلَّهَا الْمَزَامِيرُ فَيَطْرَبُونَ
بِحُسْنِ مَسَاقِيمِهِمْ وَتَنَاسُبِ نَعَمَاتِهِمْ وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَخْدُثُ بِالْتَّرَكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ
يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطَّبَائِعِ تَوَافِقُ صَاحِبَهَا فِي الْعَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ وَهَذَا هُوَ التَّلْحِينُ
الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِهِ عِلْمُ الْمَوْسِيقِيِّ كَمَا تَشْرَحُهُ بَعْدَ عِنْدَ ذِكْرِ الْعُلُومِ وَقَدْ أَنْكَرَ مَا لَكَ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقِرَاءَةُ بِالتَّلْحِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ لِلْحَمْدِ
الْمَوْسِيقِي الصَّنَاعِي فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي حَظِّهِ إِذْ صِنَاعَةُ الْغَنَاءِ مُبَازِنَةٌ لِلْقُرْآنِ
بِكُلِّ وَجْهِ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَدَاءَ يَحْتَاجُ إِلَى مِقْدَارٍ مِنَ الصَّوْتِ لَتَعِينَ أَدَاءِ الْحُرُوفِ لَا

مِنْ حَيْثُ اتَّبَعَ الْحَرَكَاتُ فِي مَوْضِعِهَا وَمَقْدَارِ الْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلَقُ أَوْ يُقْصَرُ وَامْتِنَالُ
 ذَلِكَ وَالتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَعَيَّنُ لَهُ مَقْدَارٌ مِنَ الصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي
 قُلْنَا فِي حَقِّقَةِ التَّلْحِينِ وَاعْتِبَارِ أَحَدِهَا قَدْ يَخْلُ بِأَخْرَاجِهَا تَعَارُضًا وَتَقْدِيمُ الرَّوَايَةِ مُتَعَيَّنٌ
 مِنْ تَغْيِيرِ الرَّوَايَةِ الْمَنْقُولَةِ فِي الْقُرْآنِ فَلَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُ التَّلْحِينِ وَالْأَدَاءِ الْمُعْتَبَرِ فِي
 الْقُرْآنِ بِوَجْهِهِ وَإِنَّمَا مَرَادُهُمُ التَّلْحِينُ الْبَسِيطُ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَضْمَانِ بِطَبْعِهِ كَمَا
 قَدَّمَاهُ فَيُرَدُّ دُأْصَوَانُهُ تَرْدِيدًا عَلَى نِسْبِ يَدْرُكُهَا الْعَالِمُ بِالْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ
 بِوَجْهِهِ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ هَذَا هُوَ مَحَلُّ الْخِلَافِ وَالظَّاهِرُ تَنَزُّهُ الْقُرْآنِ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا
 ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَئِمَّامُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ الْقُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ يَذْكُرُ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ
 وَلَيْسَ مَقَامُ التَّنَازُلِ بِإِدْرَاكِ الْحَسَنِ مِنَ الْأَصْوَاتِ وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ أُوْتِيَ زَمَرًا مِنْ زَمَائِرِ
 آلِ دَاوُدَ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّرْدِيدُ وَالتَّلْحِينُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ الصَّوْتِ وَأَدَاءُ الْقِرَاءَةِ
 وَالْإِلَانَةُ فِي تَخَارِجِ الْحُرُوفِ وَالنُّطْقِ بِهَا وَإِذَا قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى الْغِنَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْدُثُ
 فِي الْعُمُرَانِ إِذَا تَوَقَّرَ وَتَجَاوَزَ حَدَّ الْفَرُورِيِّ إِلَى الْحَاجِي ثُمَّ إِلَى الْكَمَائِيِّ وَتَنَبَّأُوا
 فَتَحْدُثُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَّغَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الْفَرُورِيَّةِ
 وَالْمُهَيَّجَةِ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الْفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ
 تَقَنَّنًا فِي مَذَاهِبِ الْمَلَكُودَاتِ وَكَانَ فِي سُلْطَانِ الْعَجَمِ قَبْلَ الْمَلِكَةِ مِنْهَا بِجَرِّ زَاخِرٍ فِي
 أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُؤَلِّعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ
 الْفَرَسِ اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ وَكَانُوا يَخْضَرُونَ مَشَاهِدَهُمْ
 وَتَجَمُّعَهُمْ وَيَغْنُونُ فِيهَا وَهَذَا شَأْنُ الْعَجَمِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِهِمْ وَمَمْلَكَةٍ
 مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَأَمَّا الْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوَّلًا قَبْلَ الشَّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ الْكَلَامَ أَجْزَاءً
 مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنِهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ وَالسَّاكِنَةِ وَيُفْصِلُونَ الْكَلَامَ
 فِي تِلْكَ الْأَجْزَاءِ تَفْصِيلًا يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلًّا بِالْإِفَادَةِ لَا يَتَغَطَّفُ عَلَى الْآخِرِ
 وَيُسَمُّوهُ الْبَيْتَ فَتَلَايِمُ الطَّبَعِ بِالتَّجْزِئَةِ أَوَّلًا ثُمَّ بِتَنَاسُبِ الْأَجْزَاءِ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِيءِ
 ثُمَّ بِتَأْدِيَةِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَلَهَجُوا بِهِ فَأَمْتَّازَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ
 بِحِطِّ مِنَ الشَّرَفِ لَيْسَ لغيرِهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ بِهَذَا التَّنَاسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ

وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَتَحَكُّمًا لِقَرَائِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِبِ وَأَسْتَمَرُّوا
عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَحَرِّكِ وَالسَّائِرِينَ مِنَ الْمُعْرُوفِ
قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمَوْسِيقَى إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ
يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَتَحَلَّوْا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ
نَحْلِهِمْ ثُمَّ تَغَيَّرَ الْحَدَاثُ مِنْهُمْ فِي حِدَاثِ إِبْلِهِمْ وَالْفَتْيَانِ فِي فُضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَزَجَّعُوا الْأَصْوَاتَ
وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّرَنُّمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعٍ
الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَاجُ بِأَنَّهَا تَذَكُّرُ
بِالْعَابِرِ وَهُوَ الْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النِّعَمَاتِ مُنَاسَبَةً
بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ آخِرَ كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السِّنَادَ
وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَلِيفَةِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيُمَشِّي بِالْدَفِّ وَالْمِزْمَارِ
فَيُضْطَرِبُ وَيَسْتَحِفُّ الْحُلُومَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْمَزَجَ وَهَذَا الْبَسِيطُ كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ
هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَنَفُطْنَ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعَلِيمٍ شَأْنَ الْبَسَاطَةِ كُلِّهَا مِنَ
الْصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ الْعَرَبِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوَلُوا
عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْعَجَمِ وَغَلِبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْعَضَاضَةِ عَلَى
الْحَالِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ الْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ
بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا وَلَمْ يَكُنِ الْمَلْدُودُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعُ
الْقِرَاءَةِ وَالتَّرَنُّمِ بِالشَّعْرِ الَّذِي هُوَ دِينُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ
الرِّفَةُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْأَنْهَمِ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ الْعَيْشِ وَرَفَقَةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتَحْلَاءِ
الْفَرَاغِ وَافْتَرَقَ الْمَغْنُونُ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فَوَقَّعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِي لِلْعَرَبِ
وَعَنُوا حِمِيًّا بِالْعِمْدَانِ وَالطَّنَابِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْمِزْمَارِ وَسَمِعَ الْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ
فَاحْنُوا عَلَيْهِمْ أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ نَشِيطُ الْفَارِسِيِّ وَطُونِسُ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ
اللَّهِ ابْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحْنَهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرُ مَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ
مَعْبَدٌ وَطَبَقَتْهُ وَأَبْنُ شَرِيْحٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تُتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمَلَتْ أَيَّامُ بَنِي الْعَبَّاسِ
عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمُوَصِّلِيِّ وَأَبْنِ إِسْحَاقَ وَأَبْنِ حَمَادٍ وَكَانَ مِنْ
ذَلِكَ فِي دَوَلَّتِهِمْ بَعْدَادُ مَا تَبِعَهُ الْخَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِعَجَالِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَعُوا فِي اللَّهِ

وَاللَّعِبِ وَاتَّخَذَتْ الْآتُ الرَّقِصَ فِي الْمَلْبَسِ وَالْقُضْبَانُ وَالْأَشْعَارُ الَّتِي يَرْتَمِي بِهَا عَلَيْهِ
وَجَمَلٌ صِنْفًا وَحَدَهُ وَاتَّخَذَتْ الْآتُ أُخْرَى لِلرَّقِصِ تَسْمَى بِالْكَرَجِ وَهِيَ تَمَائِيلُ خَيْلٍ
مُسْرَجَةٌ مِنَ الْخَشَبِ مَعْلَقَةٌ بِأَطْرَافِ أَفْيَةٍ يَلْبَسُهَا النِّسْوَانُ وَيُحَاكِيَنَّ بِهَا امْتِطَاءَ الْخَيْلِ
فَيَفْكِرُونَ وَيَقْرُونَ وَيَتَأَفَّفُونَ وَأَمثالُ ذَلِكَ مِنَ اللَّعِبِ الْمَعْدُ لِلْوَلَايِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ
الْأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهْوِ وَكَثُرَ ذَلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارِ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ عُلَامٌ اسْمُهُ زَرْيَابُ أَخَذَ عَنْهُمْ الْغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى
الْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِالْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخِلِ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ
فَبَالَغَ فِي تَكْرِمِهِ وَرَكِبَ لِقَائِهِ وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْأَفْطَاعَاتِ وَالْجَرَايَاتِ وَأَحَدَهُ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدِمَاتِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ
الطُّوَائِفِ وَطَمًا مِنْهَا بِأَسْطِلِيَّةٍ بَحْرٍ زَاخِرٍ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ الْعُدُودِ
بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَانْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا الْآنَ مِنْهَا صِبَاةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمْرَانِهَا
وَتَنَاقُصِ دَوْلِهَا وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ أُخْرَى مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمْرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي
غَيْرِ وَظَنِيَّةٌ مِنَ الْأَوْطَانِ إِلَّا وَظِيفَةُ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ
الْعُمْرَانِ عِنْدَ اخْتِلَالِهِ وَتَرَاجُعِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَأَنَّ
خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ عَنِ الْحَسُوسَاتِ
أَوَّلًا ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكًا بِالْفِعْلِ وَعَقْلًا مُحَضًّا
فَتَكُونُ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودَهَا فَوْجَبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ
مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلًا فَرِيدًا وَالصَّنَائِعُ أَبَدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَتِهَا قَانُونٌ
عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ فَلِذَا كَانَتِ الْحُكْمَةُ فِي التَّجَرُّبَةِ تُفِيدُ عَقْلًا وَالْحِصَارَةُ
الْكَمَالِيَّةُ تُفِيدُ عَقْلًا لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعٍ فِي شَأْنِ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ وَمُعَاشَرَةِ أَبْنَاءِ
الْجَنَسِ وَتَحْصِيلِ الْأَدَابِ فِي مَخَالِطِهِمْ ثُمَّ الْقِيَامُ بِأُمُورِ الدِّينِ وَاعْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا
وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلِ وَالْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ الصَّنَائِعِ

أَكْثَرَ إِفَادَةٍ لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْأَنْظَارِ بِخِلَافِ الصَّنَائِعِ وَيَبَاهُ أَنْ فِي
الْكِتَابَةِ انْتِقَالَ مِنَ الْحُرُوفِ الْخَطِيئَةِ إِلَى الْكَلِمَاتِ الْلَفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ وَمِنْ الْكَلِمَاتِ
الْلَفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي النَّفْسِ ذَلِكَ دَائِمًا فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَهٌ الْإِنْتِقَالِ مِنْ
الْأَدِلَّةِ إِلَى الْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُكْسِبُ الْعُلُومَ الْعَجْهُولَةَ
فَيُكْسِبُ بِذَلِكَ مَلَكَهً مِنَ التَّعَقُّلِ تَكُونُ زِيَادَةُ عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي
الْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ وَلِذَلِكَ قَالَ كَسْرَى فِي كِتَابِهِ لَمَّا رَأَى نَبْلَكَ
الْفِطْنَةَ وَالْكَيْسَ فَقَالَ دِيَوَانُهُ أَيُّ شَيْطَانٍ وَجُنُونٍ قَالُوا وَذَلِكَ أَصْلُ اشْتِقَاقِ الدِّيَوَانِ
لِأَهْلِ الْكِتَابَةِ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ الْحِسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي الْعَدَدِ
بِالْضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ
وَهُوَ مَعْنَى الْعَقْلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ



الفصل السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله
من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ الْحِسِّ وَالْحَرَكَةِ
وَالْغَدَاءِ وَالْكَيْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ تَحْصِيلُ مَعَاشِهِ
وَالْتَعَاوُنُ عَلَيْهِ بِأَنْبَاءِ جَنْسِهِ وَالْإِحْتِمَاعُ الْمُهِمِّيَّ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ وَقَبُولُ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ
عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلُ بِهِ وَاتِّبَاعُ صِلَاحِ أَخْرَاهُ فَهُوَ مُذَكَّرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا
يَفْتَرُ عَنْ الْفِكْرِ فِيهِ طَرَفَةٌ عَيْنٌ بَلِ اخْتِلَاجُ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ وَعَنْ هَذَا
الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدَّمَاهُ مِنَ الصَّنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جَبَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ
بَلِ الْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ

عنده من الادراك فارجع الى من سبقه يعلم او زاد عليه بمعرفة او ادراك او
 اخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على
 اخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض
 له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحقائق العوارض بتلك الحقيقة
 ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتشتوق نفوس
 اهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى اهل معرفته ويحجي التعليم من هذا
 فقد تبين بذلك ان العلم والتعليم طبعي في البشر

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك ان الخلق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة
 في الا حاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من اصوله وما
 لم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك الفن المتناول حاصلا وهذه الملكة
 هي في غير الفهم والوعي لانا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيا
 مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدى فيه وبين العاني الذي لم
 يعرف علما وبين العالم النحرير والملكة انما هي للعالم او الشادي في الفنون دون من
 سواهما فدل على ان هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها حسانية سواء
 كانت في البدن او في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسائيات كلها محسوسة
 فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم او صناعة الى مشاهير
 المعلمين فيها معتبرا عند كل اهل اقل وجيل ويدل ايضا على ان تعليم العلم صناعة
 اختلاف الاصطلاحات فيه فليكن امام من الائمة المشاهير اصطلاح في التعليم
 يختص به شأن الصنائع كلها فدل على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان
 واحدا عند جميعهم الا ترى الى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين
 والمتأخرين وكذا اصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته بعد
 الاصطلاحات في تعليمه مخالفة فدل على انها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه
 واذنقرر ذلك فاعلم ان سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن اهل المغرب

بَاخْتِلَالِ عُمَرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الصَّنَائِعِ وَفَقْدَانِهَا
كَمَا مَرَّ ذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَفَرْطَةَ كَانَتَا حَاضِرَتِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَاسْتَجَرَّ عُمَرَانُهُمَا
وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ وَرَسَخَ فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِامْتِدَادِ
عُصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ فَلَمَّا خَرَبْنَا أَنْقَطَعَ التَّعْلِيمُ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا
كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِمَرَاكِشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا وَلَمْ تَرْمَخِ الْحَضَارَةُ بِمَرَاكِشَ لِبِدَاوَةِ
الدَّوْلَةِ الْمُوحِدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَفُرِبَ عَهْدُ أَنْقِرَاضِهَا بِمَبْدَأِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحُولُ الْحَضَارَةِ
فِيهَا إِلَّا فِي الْأَوَّلِ وَبَعْدَ أَنْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ بِمَرَاكِشَ أَرْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيقَةِ
الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ زَيْتُونِ لِعَهْدِ أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ فَأَدْرَكَ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ ابْنِ
الْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَحَدِّقَ فِي الْعَقَلِيَّاتِ وَالنَّقَلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ
بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ حَسَنٍ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبٍ الدَّكَّالِيُّ
كَانَ أَرْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْرِبِ فَأَخَذَ عَنْ مَشِيخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا
وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مُفِيدًا فَأَخَذَ عَنْهُمْ أَهْلُ تُونِسَ وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهِمَا جِيلًا
بَعْدَ جِيلٍ حَتَّى أَتَتْهُ إِلَى الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ شَارِحُ بْنُ الْحَاجِبِ وَتَلْمِيزُهُ
وَاتَّصَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تَلْمِيسَانَ فِي ابْنِ الْإِمَامِ وَتَلْمِيزُهُ فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَى
مَشِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بِأَعْيَانِهَا وَتَلْمِيزِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بِتُونِسَ وَابْنِ الْإِمَامِ بِتَلْمِيسَانَ
لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْقَلَّةِ بَحِثَ يُخْشَى انْقِطَاعُ سَنَدِهِمْ ثُمَّ أَرْتَحَلَ مِنْ زَاوَةِ فِي
آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الْمَشْدَلِيُّ وَأَدْرَكَ تَلْمِيزَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ
الْحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَقَرَأَ مَعَ شَهَابِ الدِّينِ الْقَرَّافِيِّ فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ
وَحَدِّقَ فِي الْعَقَلِيَّاتِ وَالنَّقَلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ مُفِيدٍ وَنَزَلَ
بِجَايَةِ وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا وَرُبَّمَا انْتَقَلَ إِلَى تَلْمِيسَانَ عُمَرَانُ الْمَشْدَلِيُّ مِنْ
تَلْمِيزِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا وَتَلْمِيزُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِجَايَةِ وَتَلْمِيسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَقَلُّ
مِنَ الْقَلِيلِ وَبَقِيَ فَاكِسُ وَسَائِرُ أَقْطَارِ الْمَغْرِبِ خُلُوعًا مِنْ حُسْنِ التَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنْ
أَنْقِرَاضِ تَعْلِيمِ فَرْطَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَلَمْ يَتَّصِلْ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فَعَسِرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ الْمَلَكَةِ
وَالْحَدِّقُ فِي الْعُلُومِ وَأَيْسَرُ طَرِيقُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَنَقَّى اللِّسَانُ بِالْمُحَاوَرَةِ وَالْمُنَاطَرَةِ فِي
الْمَسَائِلِ الْعَالِمِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يُقَرِّبُ شَأْنَهَا وَيُحْصِلُ مَرَامَهَا فَتَجِدُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ

ذَهَابَ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ فِي مُلَازِمَةِ الْمَجَالِسِ الْعِلْمِيَّةِ سُكُوتًا لَا يَنْطُقُونَ وَلَا
 يُفَاوِضُونَ وَعَنَابَتُهُمْ بِالْحِفْظِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَاجَةِ فَلَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلٍ مِنْ مَلَكَهَ التَّصَرُّفِ
 فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ ثُمَّ بَعْدَ تَحْصِيلِ مَنْ يَرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تَجِدُ مَلَكَتَهُ قَاصِرَةً فِي
 عِلْمِهِ إِنْ فَاوَضَ أَوْ نَاطَرَ أَوْ عَلَّمَ وَمَا أَنَاهُمْ الْقُصُورُ الْإِمِينُ فِي الْعِلْمِ وَانْقِطَاعُ سِنْدِهِ
 وَإِلَّا لَحَفِظْتُهُمْ أَبْلَغُ مِنْ حِفْظِ سِوَاهُمْ لِشِدَّةِ عَنَابَتِهِمْ بِهِ وَظَنِهِمْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمَلَكَهَةِ
 الْعِلْمِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَمِمَّا يَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ أَنَّ الْمُدَّةَ الْمُعِينَةَ لِمُسْكَنِي طَلَبَةِ
 الْعِلْمِ بِالْمَدَارِسِ عِنْدَهُمْ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً وَهِيَ ثِنْتَانِ خَمْسُ سِنِينَ وَهَذِهِ الْمُدَّةُ بِالْمَدَارِسِ
 عَلَى الْمُتَعَارَفِ هِيَ أَقَلُّ مَا يَتَأَنَّى فِيهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حُصُولُ مُتَعَاةٍ مِنَ الْمَلَكَهَةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ
 الْيَأْسُ مِنْ تَحْصِيلِهَا فَطَالَ أَمَدُهَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ لِأَجْلِ عُسْرِهَا مِنْ قِلَّةِ الْجُودَةِ
 فِي التَّعْلِيمِ خَاصَّةً لَا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَمَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَدَعَبَ رَسْمُ التَّعْلِيمِ مِنْ
 بَيْنِهِمْ وَذَهَبَتْ عَنَابَتُهُمْ بِالْعُلُومِ لِمَتَنَاقُصِ عُمَرَانِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا مِنْذُ مِائِينَ مِنَ السِّنِينَ
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ رَسْمِ الْعِلْمِ فِيهِمْ إِلَّا قَلِيلٌ الْعَرَبِيَّةُ وَالْأَدَبُ اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ وَانْحَفَظَ سِنْدُ
 تَعْلِيمِهِ بَيْنَهُمْ فَأَحْفَظَ بِحِفْظِهِ وَمَا الْفَقْهُ بَيْنَهُمْ فَرَسْمُ خُلُوِّ وَاثَرُ بَعْدَ عَيْنٍ وَمَا الْعُقُلِيَّاتُ
 فَلَا أَثَرُ وَلَا عَيْنٌ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِانْقِطَاعِ سِنْدِ التَّعْلِيمِ فِيهَا لِمَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ وَتَغَلُّبِ الْعَدُوِّ
 عَلَى عَامَتِهَا إِلَّا قَلِيلًا يَسِفُ الْبَحْرُ شُغْلُهُمْ بِمَعَايِشِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ شُغْلِهِمْ بِمَا بَعْدَهَا وَاللَّهُ
 غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَمَا الْمَشْرِقُ فَلَمْ يَنْقُطِعْ سِنْدُ التَّعْلِيمِ فِيهِ بَلْ اسْوَأَهُ نَاقِصَةٌ وَجُودُهُ
 زَاخِرَةٌ لِاتِّصَالِ الْعُمَرَانِ الْمُؤَفَّرِ وَاتِّصَالِ السِّنْدِ فِيهِ وَإِنْ كَانَتْ الْأَمْصَارُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي
 كَانَتْ مَعَادِنَ الْعِلْمِ قَدْ خَرَبَتْ مِثْلَ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ
 أَدَالَ مِنْهَا بِأَمْصَارِ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ وَانْتَقَلَ الْعِلْمُ مِنْهَا إِلَى عِرَاقِ الْعَجْمِ بِخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ
 النَّهْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ ثُمَّ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَلَمْ تَزَلْ مُؤَفَّرَةً وَعُمَرَانِهَا
 مُتَصِلًا وَسِنْدُ التَّعْلِيمِ بِهَا قَائِمًا فَأَهْلُ الْمَشْرِقِ عَلَى الْجَمَلَةِ أَرْسَخُوا فِي صِنَاعَةِ تَعْلِيمِ
 الْعِلْمِ وَفِي سَائِرِ الْأَصْنَافِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُظَنُّ كَثِيرٌ مِنْ رَحَلَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَنْ عَقُولَهُمْ عَلَى الْجَمَلَةِ أَكْمَلُ مِنْ عَقُولِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّهُمْ أَشَدُّ
 نَبَاهَةً وَأَعْظَمَ كَيْسًا بِفِطْرَتِهِمْ الْأَوَّلَى وَأَنَّ نَفُوسَهُمْ النَّاطِقَةَ أَكْمَلُ بِفِطْرَتِهَا مِنْ نَفُوسِ
 أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَيَعْتَقِدُونَ التَّمَاوُتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَتَشَبَّهُونَ لِذَلِكَ

وَيُؤْمِنُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ
فُطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ مِثْلُ الْمَقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ
اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَفَالِيمَ الْمُتَحَرِّفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ فَإِنَّ الْأَمْزَجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ
وَالنُّفُوسُ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
هُوَ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ كَمَا نَقَدَّمْ فِي
الصَّنَائِعِ وَتَزِيدُهُ الْآنَ تَحْقِيقًا وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي
الْمَعَاشِ وَالْمَسْكَنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ
وَمَعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقِفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ
مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكِ حَتَّى كُنَّهَا حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ
صَنَائِعُ يَتَلَقَّاهَا الْآخَرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرْتَبَةٌ بِرَجْعِ
مَنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرُ يَكْسِبُهَا عَقْلًا جَدِيدًا اسْتَعَدَّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا
الْعَقْلُ بِسُرْعَةٍ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَّغْنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٍ
لَا تُدْرِكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ الْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْهَجْمَمَ مِنَ الْمَاشِيِّ وَالطَّائِرِ
مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَعَرَّبُ نَدْوَرُهَا وَيَعْجُزُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحُسْنِ
الْمَلَكَاتِ فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ ذِكَاً فِي عَقْلِهِ
وَأِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ الْخَاصَّةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ
بِالْإِدْرَاكَاتِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ فَيَزِدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْسًا لِمَا يَرْجِعُ إِلَى
النَّفْسِ مِنَ الْآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَيُظَنُّهُ الْعَامِّيُّ تَفَاوُتًا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
الْآثَرُ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضَرِيَّ مُحَلِّيًا بِالذِّكَاةِ مُمْتَلِئًا
مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنْ الْبَدْوِيَّ أَيْظَنَّهُ أَنَّهُ قَدْ فَانَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ
كَذَلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ
الْحَضَرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدْوِيُّ فَلَمَّا أَمْتَلَا الْحَضَرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ
تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نَفْسَ أَهْلِ الْبَدْوِ
قَاصِرَةٌ يَفْطُرُهَا وَجِبِلَّتُهَا عَنْ فُطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي
أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفُطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ

ذَلِكَ هُوَ رَوْقُ الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثَارًا تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَكَذَا
 أَهْلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
 أَقْرَبَ إِلَى الْبِدَاوَةِ لَمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا ظَنَّ الْمَغْفُلُونَ فِي بَادِي الرَّأْيِ أَنَّهُ
 لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصَوْا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَهَمُّهُ
 وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعلم الحضارة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا
 أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهَا فِي الْكَثَرَةِ وَالْقَلَّةِ وَالْحَضَارَةِ
 وَالتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثَرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعَاشِ فَمَتَى
 فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمُرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ أَنْصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ
 فِي خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ تَشَأَ فِي
 الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّدَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِي لِفَقْدَانِ الصَّنَائِعِ
 فِي أَهْلِ الْبَدْوِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بَدَلَهُ مِنَ الزَّحَلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ
 شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَفَرْطَبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ
 لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَأَسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ الْعِلْمِ
 وَتَفَنَّنُوا فِي أَصْطِلَاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَأَسْنَنِاطِ الْمَسَائِلِ وَالْفُنُونِ حَتَّى أَرْبَوُا عَلَى
 الْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتُوا الْمَتَأَخِّرِينَ وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا وَابْدَعَرَسُكَانُهَا أَنْطَوَى ذَلِكَ الْبَسَاطُ
 بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةٌ وَفُقِدَ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ وَنَحْنُ
 لِهَذَا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالْقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لَمَّا أَنَّ عُمْرَانَهَا مُسْتَبْجِرٌ
 وَحَضَارَتُهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ
 جَمَانِهَا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَكَذَلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لَهُ فِي الْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مَائَتَيْنِ مِنَ
 السِّنِينَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا وَذَلِكَ أَنَّ أَمْرَاءَ
 التُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَخْلَفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
 الرِّقِّ أَوَّلَوْلَاءَ وَلِمَا يَخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمَلِكِ وَنِكَابَاتِهِ فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ بِنَاءِ الْمَدَارِسِ

وَالزُّوْبَا وَالرُّبُطُ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوَاقِفَ الْمَغَلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكَاً لَوْلَدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ
يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِباً مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى الْخَيْرِ وَالنِّمَاسِ الْأَجُورِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ
فَكَثُرَتْ الْأَوَاقِفُ لِدَاكٍ وَعَظُمَتِ الْعَلَاتُ وَالنَّوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمَعْلَمُهُ بِكَثْرَةِ
جَرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَأَزْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَتَفَقَّتْ بِهَا أَسْوَاقُ
الْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارِهَا وَاللَّهُ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوُلُونَهَا فِي الْأُمُصَارِ تَحْصِيلاً وَتَعْلِيماً هِيَ
عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٌ ثَقَلِيٌّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ
وَضَعَهُ وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلَسَفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنَّ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ
بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضِعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَانْحَاءِ بَرَاهِينِهَا
وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ ^(١) نَظَرُهُ وَيُحِثُّهُ عَلَى الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَا فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنْ
الْأَوَاضِعِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا بِجَمَالٍ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِحْلَاقِ الْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأَصُولِ
لِأَنَّ الْجُزْئِيَّاتِ الْخَادِمَةَ الْمُتَعَقِّبَةَ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ النِّقْلِ الْكُلِّيِّ بِمَجْرَدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ
إِلَى الْإِلْحَاقِ بِوَجْهِ قِيَاسِيٍّ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقِيَاسَ يَتَفَرَّغُ عَنْ الْخَبَرِ بِثُبُوتِ الْحُكْمِ
فِي الْأَصْلِ وَهُوَ ثَقَلِيٌّ فَرَجَعَ هَذَا الْقِيَاسُ إِلَى النِّقْلِ لِتَفَرُّغِهِ عَنْهُ وَأَصْلُ هَذِهِ الْعُلُومِ
النَّقْلِيَّةُ كُلُّهَا هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تَهَيَّئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتِيعُ ذَلِكَ عُلُومُ
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ الْمَلَةِ وَبِهِ نُزِلَ الْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هَذِهِ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ
كَثِيرَةٌ لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ
وَعَلَى آبَائِهِ جَنَسِهِ وَهِيَ مَا أُخِذَتْ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ بِالذِّصِّ أَوْ بِالْإِجْمَاعِ أَوْ
بِالْإِلْحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ بِالْكِتَابِ بَيَانِ الْفَاضِلِ أَوَّلًا وَهَذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ
بِإِسْنَادِ ثَقْلِهِ وَرَوَايَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعبداً فنزل وقفته على كلا أي اطالعته عليه قاله نصر

رَوَايَاتِ الْقُرَّاءِ فِي قِرَائَتِهِ وَهَذَا هُوَ عِلْمُ الْقِرَاءَاتِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ السُّنَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَالْكَلَامِ
 فِي الرُّوَاةِ النَّاقِلِينَ لَهَا وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ لِيَقَعَ الْوُثُوقُ بِأَخْبَارِهِمْ يَعْلَمُ مَا يَجِبُ
 الْعَمَلُ بِمُقَضَّاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ هِيَ عُلُومُ الْحَدِيثِ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي اسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ
 مِنْ أَصُولِهَا مِنْ وَجْهِ قَانُونِي يُفِيدُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هَذَا الْاسْتِنْبَاطِ وَهَذَا هُوَ أَصُولُ الْفَقْهِ
 وَبَعْدَ هَذَا تَحْصُلُ الثَّمَرَةُ بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْعَالِ الدُّمُكَلِّينَ وَهَذَا هُوَ
 الْفَقْهُ ثُمَّ إِنَّ التَّكَالِيفَ مِنْهَا بَدَنِي وَمِنْهَا قَلْبِي وَهُوَ الْخُصُوصُ بِالْإِيمَانِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ
 مِمَّا لَا يُعْتَقَدُ وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَأُمُورِ الْحُشْرِ وَالنَّعِيمِ
 وَالْعَذَابِ وَالْقَدَرِ وَالْحِجَاجِ عَنْ هَذِهِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي
 الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ نَتَقَدَّمَهُ الْعُلُومُ اللَّسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ مُتَوَقَّفٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْنَافُ
 فِيهَا عِلْمُ اللُّغَةِ وَعِلْمُ النَّحْوِ وَعِلْمُ الْبَيَانِ وَعِلْمُ الْأَدَابِ حَسْبَمَا تَمَكَّنَ عَلَيْهَا كَلِّهَا وَهَذِهِ
 الْعُلُومُ الثَّقَلِيَّةُ كُلُّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ عَلَى الْجُمْلَةِ
 لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَفِيهِ مُشَارَكَةٌ لَهَا فِي الْجِنْسِ الْبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ
 الْمُنَزَّلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُبْلَغِ لَهَا وَمَا عَلَى الْخُصُوصِ فَمُبَايَنَةٌ
 لْجَمِيعِ الْمِلَلِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ الْمِلَلِ فَمَهْجُورَةٌ وَالنَّظَرُ فِيهَا مَحْظُورٌ
 فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ غَيْرِ الْقُرْآنِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
 وَالْهِنَا وَالْهَيْكُمُ وَاحِدٌ وَرَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَرَقَةً مِنَ التَّوْرَةِ فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ أَلَمْ آتِكُمْ بِهَا بَيَضَاءُ نَفِيَّةً
 وَاللَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ الثَّقَلِيَّةَ قَدْ
 نَفَقَتْ أَسْوَاقُهَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَانْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ النَّازِلِينَ إِلَى
 الْغَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهَذِهِ الْأَصْطِلَاحَاتُ وَرَتَبَتِ الْفُنُونُ لِحَاجَاتٍ مِنْ دَرَاءِ الْغَايَةِ فِي
 الْحُسْنِ وَالنَّمِيقِ وَكَانَ لِكُلِّ فَنٍّ رِجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَأَوَاضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا التَّعْلِيمُ
 وَاخْتِصَّ الْمَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْهَا حَسْبَمَا نَذَرُ الْآنَ عِنْدَ
 تَعْدِيدِ هَذِهِ الْفُنُونِ وَقَدْ كَسَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْوَاقُ الْعِلْمِ بِالْمَغْرِبِ لِمَتَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ
 فِيهِ وَانْقِطَاعِ سِنْدِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ كَمَا قَدَمْنَاهُ فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ وَمَا أَدْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ

بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالُ التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ
الْضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَالْحِضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجَرَايَةِ
مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ
وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَقَائِقِ الْمُصْحَفِ وَهُوَ
مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ
مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ أَنْفَازِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي آدَائِهَا وَتَنَوُّلِ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنْ
اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٍ تَوَاتَرَتْ نَقْلُهَا بِأَدَائِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِاتِّسَابِ إِلَى مَنْ
اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمْعِ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أَصُولًا لِلْقِرَاءَةِ وَرَبَّمَا
زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخْرَى حَقَّتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَيْمَةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتُهَا
فِي النُّقْلِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ
طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي
تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ إِلَّا كَثُرَ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا
كَالْمَدِّ وَالسَّهْبِ لِعَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقُرَّاءُ
يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتِهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُونَتْ فَكُتِبَتْ فِيهَا كُتُبٌ
مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُنْفَرِدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَالَمِ بَيْنَ وَكَانَ
مُعْتَمِدًا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لَمَّا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَالَمِ
وَأَجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أَيْمَةِ الْقُرَّاءِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي
ذَلِكَ وَافِرًا وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَةِ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَتَفَقَّتْ بِهَا سَوَقُ
الْقِرَاءَةِ لَمَّا كَانَ هُوَ مِنْ أَيْمَتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ
خُصُوصًا فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّائِي وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَأَنْتَهَتْ إِلَى
رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَأْلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا

مِنْ بَيْنَهَا كِتَابُ التَّبْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ أَبُو الْقَاسِمِ
ابْنُ فَيْرُزٍّ مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةِ فَعَمِدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دُونَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلَخِيصِهِ فَنَظَّمَ ذَلِكَ
كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزٍ فِيهَا أَسْمَاءُ الْقُرَاءِ بِحُرُوفِ أ ب ج د تَرْتِيبًا أَحْكَمَهُ لِيَتَبَسَّرَ عَلَيْهِ مَا
قَصَدَهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا الْفَنَّ اسْتِعْمَالَ
حَسَنًا وَعَنِ النَّاسِ بِحِفْظِهَا وَتَلَقُّيْهَا لِلْوِلْدَانِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى أَعْمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ
الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ الْقُرَاءَاتِ فَنُّ الرَّسْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ
حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمَصْحَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى
غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ كَرِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَابِ يَدِ زِيَادَةِ الْآلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ
وَلَا أَوْضَعُوا وَآلُواوِي فِي جَزَاءِ وَالْغَالِمِينَ وَحَذَفَ الْآلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا
رُسِمَ فِيهِ مِنَ التَّاءَاتِ مَحْدُودًا وَالْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى شَكْلِ الْهَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ
مَرَّ تَعْلِيلُ هَذَا الرَّسْمِ الْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي الْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ
لِأَوْضَاعِ الْخَطِّ وَقَانُونِهِ اخْتِجَ إِلَى حَصْرِهَا فَكُتِبَ النَّاسُ فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كَتِبِهِمْ
فِي الْعُلُومِ وَأَنْتَهَتْ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي الْمَذْكُورِ فَكُتِبَ فِيهَا كُتِبًا مِنْ
أَشْهَرِهَا كِتَابُ الْمَقْنَعِ وَأَخَذَ بِهِ النَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَّمَهُ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاطِبِيُّ فِي
قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى رِوَايَةِ الرِّاءِ وَلَوِجَ النَّاسُ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ الْخِلَافُ فِي الرَّسْمِ فِي
كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ نِجَاحٍ مِنْ مَوَالِي نِجَاهِدٍ فِي
كُتِبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي وَالْمَشْتَهَرُ بِحَمَلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتِبِهِ ثُمَّ نُقِلَ
بَعْدَهُ خِلَافٌ آخَرُ فَنَظَّمَ الْخُرَّازُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ أَرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا
عَلَى الْمَقْنَعِ خِلَافًا كَثِيرًا وَعَزَاهُ لِتَاقِلِيهِ وَاشْتَهَرَتْ بِالْمَغْرِبِ وَاقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا
وَهَجَرُوا بِهَا كُتِبَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَالشَّاطِبِيُّ فِي الرَّسْمِ.

(وَمَا التَّبْسِيرُ) فَأَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبِ بِلَاغَتِهِمْ
فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِيْمِهِ وَكَانَ يَنْزَلُ جَمَلًا جَمَلًا
وَأَيَاتُ آيَاتُ لِبَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالْفُرُوضِ الدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْعَقَائِدِ
الْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ
نَاسِخًا لَهُ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِينُ الْمُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ

وَيَعْرِفُهُ أَصْحَابُهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ الْآيَاتِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولًا عَنْهُ كَمَا
عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إِنَّمَا نَعِيَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ
ذَلِكَ وَنَقْلُ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ
بَعْدِهِمْ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ
عُلُومًا وَدَوَّنَتِ الْكُتُبُ فَكُتِبَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنَقِلَتِ الْأَثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الطَّبْرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالتَّعَالِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ
الْمُفَسِّرِينَ فَكُتِبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ الْأَثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ اللِّسَانِ
صِنَاعِيَّةً مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضِعَاتِ اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْأَعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ فِي التَّرَاكِبِ
فَوُضِعَتِ الدَّوَابِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَسَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلِ وَلَا
كِتَابٍ فَتَنُوسِي ذَلِكَ وَصَارَتْ تُتْلَقُ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ فَاحْتِيجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بِلَاغَتِهِمْ وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرُ نَقْلِي
مُسْتَدِلٌّ إِلَى الْأَثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابُ النُّزُولِ
وَمَقَاصِدُ الْآيِ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ
فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالْمَقْبُولِ
وَالْمَرْدُودِ وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ
عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأَهْلِيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ
فِي أَسْبَابِ الْمُحْكَمَاتِ وَبَدَأِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ
الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبَعَ دِينَهُمْ مِنَ
النَّصَارَى وَأَهْلُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا
مَا تَعَرَّفَهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ
فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَتْ عَنْدهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتَلِطُونَ
لَهَا مِثْلُ أَخْبَارِ بَدَأِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْخِلْدَانِ وَالْمَلَاخِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ
مِثْلُ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَمْثَالُهُمْ فَأَمْثَلَاتِ التَّفَاسِيرِ
مِنَ الْمَنْقُولَاتِ عَنْدهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْفُوقَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا
يُرْجَعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَتَحَرَّيْ فِي الصَّحِيحَةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ وَتَسَاهَلِ الْمُفَسِّرُونَ فِي

مِثْلَ ذَلِكَ وَمَاؤُوا كُتِبَ التَّفْسِيرُ بِهِ الْمُنْقُولَاتِ وَأَصْلُهَا كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهْلِ التَّوَرَةِ
 الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ وَلَا تَحْقِيقَ عِنْدَهُمْ بِعَرَفَةٍ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ
 صِيَتِهِمْ وَعَظُمَتِ أَقْدَارُهُمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمَلَّةِ فَتَلَقَّيْتُ
 بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمئِذٍ فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّخْيِصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ
 عَطِيَّةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى
 الصَّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ حَسَنَ الْمَنْعَى
 وَتَبَعَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشْهُورٌ بِالْمَشْرِقِ .
 وَالصَّنْفُ الْآخَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى اللِّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ وَالْإِعْرَابِ
 وَالْبَلَاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِحَسَبِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَسَالِبِ وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ التَّفْسِيرِ قَلٌّ
 أَنْ يَفْرُدَ عَنِ الْأَوَّلِ إِذِ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَارَ
 اللِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا اشْتَمَلَ
 عَلَيْهِ هَذَا الْفَنُّ مِنَ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ الْكَشَافِ لِلزَّخَشَرِيِّ مِنْ أَهْلِ خَوَارِزْمِ الْعِرَاقِ
 إِلَّا أَنَّ مُؤَلِّفَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَعْزَالِ فِي الْعُقَائِدِ فَإِنِّي بِالْحِجَاجِ عَلَى مَذَاهِبِهِمُ الْفَاسِدَةِ حَيْثُ
 تَعَرَّضُ فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنْ طُرُقِ الْبَلَاغَةِ فَصَارَ ذَلِكَ لِلْحَقَّاقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ انْخِرَافٌ
 عَنْهُ وَتَحْدِيرٌ لِلْجُمْهُورِ مِنْ مَكَامِهِ مَعَ إِفْرَارِهِمْ بِرُسُوحِ قَدَمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللِّسَانِ وَالْبَلَاغَةِ
 وَإِذَا كَانَ النَّظَرُ فِيهِ وَاقِفًا مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْمَذَاهِبِ السُّنِّيَّةِ مُحْسِنًا لِلْحِجَاجِ عَنْهَا فَلَا جَرَمَ
 إِنَّهُ مَأْمُونٌ مِنْ غَوَائِلِهِ فَلَتَغْتَنِمَ مُطَالَعَتُهُ لِعَرَابَةِ فَنُونِهِ فِي اللِّسَانِ وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي
 هَذِهِ الْعُصُورِ تَأْلِيفٌ لِبَعْضِ الْعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ الدِّينِ الطَّبَّيُّ مِنْ أَهْلِ تُوْرِيْزِ مِنْ
 عِرَاقِ الْحَجَمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ الزَّخَشَرِيِّ هَذَا وَتَبَعَ أَفَاطُهُ وَتَعَرَّضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي
 الْأَعْزَالِ بِإِدْلَةٍ تَرَفُّهَا وَيَبِينُ أَنَّ الْبَلَاغَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الْآيَةِ عَلَى مَا يَرَاهُ أَهْلُ السُّنَّةِ
 لَا عَلَى مَا يَرَاهُ الْمُعْتَزِلَةُ فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمْتِنَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ
 وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ الْحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يُنْظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمَسْئُوعِهِ

وَذَلِكَ يَمَا ثَبَّتَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ النَّسَخِ وَوُقُوعِهِ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَتَخَفِيفًا عَنْهُمْ
بِاعْتِبَارِ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَكْفُلُ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا فَإِذَا تَعَارَضَ الْخَبْرَانِ بِالْإِنْفِي وَالْإِثْبَاتِ وَتَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ التَّأْوِيلِ
وَعَلِمَ تَقَدُّمُ أَحَدِهِمَا تَعَيَّنَ أَنَّ الْمَتَأَخَّرَ نَاسَخٌ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ
الْحَدِيثِ وَأَضْعَفُهَا قَالَ الزُّهْرِيُّ أَعْيَا الْفُقَهَاءُ وَأَعْجَزُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ
عُلُومِ الْأَحَادِيثِ النَّظَرُ فِي الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ
عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ الشَّرْطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجِبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ
أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُجْتَهِدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُخَصِّلُ ذَلِكَ الظَّنَّ وَهُوَ
بِمَعْرِفَةِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَإِنَّمَا يُثَبَّتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الدِّينِ
بَعْدَ بِلَهِمِ وَبِرَاءَتِهِمْ مِنَ الْجُرْحِ وَالْغَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ
وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ هَذِهِ النُّقْلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَقَاوُثُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ
وَاحِدًا وَاحِدًا وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتُ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ الرَّاوي لَمْ يَلِقَ
الرَّاوي الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِاسْلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَالِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ
فَحُكْمُ يَقْبُولُ الْأَعْلَى وَرَدُّ الْأَسْفَلِ وَيُخْتَلَفُ فِي الْمَتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ
أَيْمَةِ الشَّانِ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ أَصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ مِثْلَ
الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْسَلِ وَالْمَنْقُطِعِ وَالْمُعْضِلِ وَالشَّاذِّ وَالْغَرِيبِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنَ أَلْفَاظِ الْمَتَدَاوِلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوَّبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ
لِأَيْمَةِ اللِّسَانِ أَوْ الْوُفَاقِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ اخْتِزَانِ الرِّوَايَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةِ
أَوْ كِتَابَةِ أَوْ مَنَاقِلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَقَاوُثِ رُتَبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ
وَالرَّدِّ ثُمَّ اتَّبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي أَلْفَاظِ تَقَعُ فِي مَثُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ
أَوْ نَحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلَفٍ وَمَا يَنْسَبُ ذَلِكَ هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ أَهْلُ
الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصْرِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ
مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ
بِالشَّامِ وَمِصْرَ بِالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ

فِي أَعْصَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِمَّنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّنْ فِي الصَّحَّةِ لِاسْتِدَادِهِمْ فِي شُرُوطِ
 النُّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَتَجَافِيهِمْ عَنْ قَبُولِ الْجَهْلُولِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَسَدِّ الطَّرِيقَةِ
 الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامِ مَالِكُ عَالِمُ الْمَدِينَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ أَصْحَابُهُ مِثْلُ
 الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَمثالِهِمْ وَكَانَ عِلْمُ
 الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَأِ هَذَا الْأَمْرِ نَقْلًا وَبَرَقًا ثُمَّ لَهَا السَّلَفُ وَتَحَرَّوْا الصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوها
 وَكَتَبَ مَالِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ الْمُوطَأِ أَوْدَعَهُ أَصُولَ الْأَحْكَامِ مِنَ الصَّحِيحِ
 الْمُنْتَقَى عَلَيْهِ وَرَبَّنْهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفَقْهِ ثُمَّ عَنِ الْحَافِظِ بِمَعْرِفَةِ طُرُقِ الْأَحَادِيثِ وَأَسَانِيدِهَا
 الْمُخْتَلَفَةِ وَرُبَّمَا يَبْقَى إِسْنَادُ الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رِوَاةٍ مُخْتَلَفِينَ وَقَدْ يَبْقَى الْحَدِيثُ
 أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِاخْتِلَافِ الْمَعَانِي الَّتِي أَشْتَمَلُ عَلَيْهَا وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ
 إِمَامُ الْمُحَدِّثِينَ فِي عَصْرِهِ فَخَرَجَ أَحَادِيثَ السُّنَّةِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ بِجَمِيعِ الطَّرِيقِ
 الَّتِي لِلْحِجَازِيِّينَ وَالْعِرَاقِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ وَأَعْتَمَدُوا مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ
 وَكَرَّرَ الْأَحَادِيثَ يَسُوقُ فِي كُلِّ بَابٍ بِمَعْنَى ذَلِكَ الْبَابِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ
 لِذَلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالُ إِنَّهُ أَشْتَمَلُ عَلَى تِسْعَةِ ^(١) آلَافِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ مِنْهَا ثَلَاثَةُ
 آلَافٍ مُتَكَرِّرَةٍ وَفِرَقُ الطَّرِيقِ وَالْأَسَانِيدِ عَلَيْهَا مُخْتَلَفَةٌ فِي كُلِّ بَابٍ ثُمَّ جَاءَ الْإِمَامُ
 مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَالْتَفَّ مُسْنَدُهُ الصَّحِيحَ حَذَا فِيهِ حَذْوُ
 الْبُخَارِيِّ فِي تَقْلِيدِ الْجَمْعِ عَلَيْهِ وَحَذَفَ الْمُتَكَرَّرَ مِنْهَا وَجَمَعَ الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ
 وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفَقْهِ وَتَرَاوَجَهُ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبِ الصَّحِيحَ كُلَّهُ وَقَدْ اسْتَدْرَكَ
 النَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السُّجِسْتَانِيُّ وَأَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ بِأَوْسَعِ مِنَ الصَّحِيحِ وَقَصَدُوا مَا تَوَقَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ
 الْعَمَلِ إِمَّا مِنَ الرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأَسَانِيدِ وَهُوَ الصَّحِيحُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنَ الَّذِي
 دُونَهُ مِنَ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلْسُّنَّةِ وَالْعَمَلِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَشْهُورَةُ
 فِي الْمِلَّةِ وَهِيَ أَمْهَاتُ كُتُبِ الْحَدِيثِ فِي السُّنَّةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ
 فِي الْأَغْلَبِ وَمَعْرِفَةِ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَالْأَصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَرُبَّمَا يُفْرَدُ
 عَنْهَا النَّاسِخُ وَالْمُسَوِّخُ فَيُجْعَلُ فَنَاءً بِرَأْسِهِ وَكَذَا الْغَرِيبُ وَاللَّيْسُ فِيهِ تَأْلِيفُ مَشْهُورَةٌ

ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ وَقَدْ آلَفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَكَثُرُوا وَمِنْ فُحُولِ عُلَمَائِهِ
وَأَحَبِّهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ وَتَأَلَّفَهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ الَّذِي هَذَبَهُ وَأَظْهَرَ مَحَاسِنَهُ
وَأَشْهَرُ كِتَابِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ كَانَ لِعَبْدِ أَوَائِلِ الْمِائَةِ
السَّابِعَةِ وَتَلَاَهُ مُخَيِّي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَالْفَتْحُ شَرِيفٌ فِي مَعْرَاةٍ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا
يُحْفَظُ بِهِ السَّنَنُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنْ
الْأَحَادِيثِ وَاسْتِدْرَاكِهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ عَلَى
تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاَحُظِ عَصْرُهُمْ وَكَيْفَاتِهِمْ وَاجْتِهَادُهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُغْفَلُوا شَيْئًا مِنَ السَّنَةِ أَوْ
يَنْزَكُوهُ حَتَّى يَغْتَرَّ عَلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُ هَذَا بَعِيدٌ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرِفُ الْعِنَايَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَى
تَضَمُّنِ الْأُمَمَاتِ الْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِالرِّوَايَةِ عَنْ مُصَنِّفِهَا وَالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِهَا إِلَى
مُؤَلَّفَتِهَا وَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ مِنَ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ
الْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مُنْتَهَاهَا وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذِهِ
الْأُمَمَاتِ الْخَمْسِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَأَمَّا الْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَعْلَاهَا رُتَبَةً فَاسْتَصْعَبَ النَّاسُ شَرْحَهُ
وَأَسْتَغْلَقُوا مَنَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَرِجَالِهَا مِنْ
أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِمْ وَلِذَلِكَ
يُحْتَاجُ إِلَى إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي التَّفْقُّهِ فِي تَرَاجِمِهِ لِأَنَّهُ يَتَرَجَّمُ التَّرْجَمَةُ وَيُورَدُ فِيهَا الْحَدِيثُ
سُنَدٌ أَوْ طَرِيقٌ ثُمَّ يَتَرَجَّمُ أُخْرَى وَيُورَدُ فِيهَا ذَلِكَ الْحَدِيثُ بَعِينُهُ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَعْنَى
الَّذِي تَرَجَّمُ بِهِ الْبَابُ وَكَذَلِكَ فِي تَرْجَمَةٍ وَتَرْجَمَةٍ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ الْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ
كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَاخْتِلَافِهَا وَمِنْ شَرْحِهِ وَلَمْ يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يُوفَ حَقَّ الشَّرْحِ
كَأَنَّ بَطَالَ وَأَبْنَ الْمُهَلَّبِ وَأَبْنَ التَّيْنِ وَنَحْوَهُمْ وَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا مِنْ شُيُوخِنَا رَجِمَهُمُ
اللَّهُ يَقُولُونَ شَرَحَ كِتَابَ الْبُخَارِيِّ دِينَ عَلَى الْأُمَّةِ يَعْنُونَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَمْ
يُوفَ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الشَّرْحِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثُرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ
الْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكْبُوا عَلَيْهِ وَأَجْعَلُوهُ عَلَى تَضْمِينِهِ عَلَى كِتَابِ الْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ
مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى شَرْطِهِ وَأَكْثَرُ مَا وَقَعَ لَهُ فِي التَّرَاجِمِ . وَأَمَّا الْإِمَامُ الْمَارِزِيُّ مِنْ
فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ شَرْحًا وَسَمَاهُ الْمُعْلَمَ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ اشْتَمَلَ عَلَى عِيُونٍ مِنْ عِلْمِ
الْحَدِيثِ وَفُتُونٍ مِنَ الْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَاهُ إِكْمَالُ

الْمُعْلَمِ وَآلَهُمَا مُجَنَّبِي الدِّينِ النَّوَوِي يُشْرَحُ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكُتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا
 جَاءَ شَرْحًا وَافِيًا . وَأَمَّا كُتُبُ السُّنَنِ الْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَا خِذَ الْفَقَهَاءُ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا
 فِي كُتُبِ الْفِقْهِ إِلَّا مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ
 مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ
 الْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ السُّنَّةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ
 وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنَزَّلُهَا أَيْمَةُ الْحَدِيثِ وَجَهَا بِذُنُوعِ رُفُوعِهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ
 فِي تَصْحِيحِ مَا يَصِحُّ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يُعْرِقُونَ الْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا
 وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَقْطَعُونَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ قَلِبَ عَنْ
 وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ
 وَقَصَدَ الْمُحَدِّثُونَ امْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قِيلُوا أَسَانِيدُهَا فَقَالَ لَا أَعْرِفُ هَذِهِ
 وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فُلَانٌ ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى التَّوَضُّعِ الصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ
 مَتْنٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقْرَأُوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ . وَأَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي
 الْأَكْثَارِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْإِفْلَالِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ
 رَوَاتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ نَحْوَهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ
 الْمَوْطَأِ ^(١) وَغَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوَهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي
 مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلِّ مَا آدَاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِي ذَلِكَ وَقَدْ ثَقُلَ بَعْضُ
 الْمُبْغِضِينَ الْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَافَةِ فِي الْحَدِيثِ فَلِهَذَا قُلْتُ رَوَاتُهُ
 وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقَدِ فِي كِبَارِ الْأَيْمَةِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنَ الْكِتَابِ
 وَالسُّنَّةِ وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَافَةِ مِنَ الْحَدِيثِ فَيُتَعَيَّنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرَوَاتُهُ وَالْجِدُّ وَالْتِمَاسُ
 فِي ذَلِكَ لِيَأْخُذَ الدِّينَ عَنْ أَصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلَغِ لَهَا
 وَإِنَّمَا قَلَّ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّ الرَّوَايَةُ لِأَجْلِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَعَرَّضُ فِيهَا وَالْعِلَلِ الَّتِي تَعْرِضُ
 فِي طُرُقِهَا سِيمَا وَاجْرُحَ مُقَدِّمٌ عِنْدَ أَكْثَرِ قُودِيهِ الْجَاهِدُ إِلَى تَرْكِ الْأَخْذِ بِمَا
 يَعْزُضُ مِثْلَ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ الْأَسَانِيدِ وَيَكُنُّ ذَلِكَ فَتَقُلُّ رَوَاتُهُ

(١) الذي في شرح الزرقاني على المطا حكاية أقوال خمسة في عدة أحاديثه أولها ٥٠٠ ثابها ٧٠٠
 ثالها ألف ووزف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر المهورجي

لِضَعْفِ فِي الطَّرُقِ هَذَا مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ أَكْثَرُ رَوَايَةِ لِلْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِأَنَّ
 الْمَدِينَةَ دَارُ النُّجْرَةِ وَمَأْوَى الصَّحَابَةِ وَبَنِي أَنْقَلَ مِنْهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ كَنَ شُعْلُهم بِالْحِجَازِ
 أَكْثَرُ وَالْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّمَا قَلَّتْ رَوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ الرِّوَايَةِ وَالْأَحْمَلُ
 وَضَعْفُ رَوَايَةِ الْحَدِيثِ الْيَقِينِي إِذَا عَارَضَهَا الْفِعْلُ النَّفْسِي وَقَلَّتْ مِنْ أَجْلِهَا رَوَايَةُ فَقَلَّ
 حَدِيثُهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ رَوَايَةَ الْحَدِيثِ مُتَعَمِّدًا لَخَاشَاةٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ
 الْمُتَحَدِّثِينَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ أَعْنَادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمُ وَالنَّوِيلُ عَلَيْهِ وَأَعْتَبَارُهُ رَدًّا وَقَبُولًا
 وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَهُمْ أَجْمَعُونَ فَتَوَسَّعُوا فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ وَالْمَكْلُ
 عَنْ أَجْتِهَادٍ وَقَدْ تَوَسَّعَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رَوَايَتُهُمْ وَرَوَى الطُّحْطَاوِيُّ
 فَأَكْثَرُ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ الْقَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْدُلُ الصَّحِيحَيْنِ لِأَنَّ الشُّرُوطَ
 الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابَيْهِمَا تَجَمَّعَ عَلَيْهَا بَيْنَ الْأَمَّةِ كَمَا قَالُوهُ وَشُرُوطُ
 الطُّحْطَاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفِقٍ عَلَيْهَا كَالرِّوَايَةِ عَنِ الْمُسْتَوْرِ الْحَالِ وَغَيْرِهِ فَلِهَذَا قُدِّمَ الصَّحِيحَانِ
 بَلْ وَكَتَبَ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةُ عَلَيْهِ لِتَأْخُرَ شَرْطُهُ عَنْ شُرُوطِهِمْ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قِيلَ فِي
 الصَّحِيحَيْنِ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهِمَا مِنْ جِهَةِ الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الشُّرُوطِ
 الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا فَلَا تَأْخُذُكَ رَيْبٌ فِي ذَلِكَ فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ الْجَمِيلِ بِهِمْ
 وَالنَّاسِ الْخَارِجِ الصَّحِيحَةِ لَهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ

الفصل السابع

فِي عِلْمِ الْفَقْهِ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ
 أَلْفَقَهُ مَعْرِفَةُ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالْوُجُوبِ وَالْحَذَرِ وَالنَّدْبِ
 وَالْكَرَاهَةِ وَالْإِبَاحَةِ وَهِيَ مُتَّفَقَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا نَصَبَهُ الشَّارِعُ لِمَعْرِفَتِهَا
 مِنَ الْأَدَلَّةِ فَإِذَا اسْتَخْرَجْتَ الْأَحْكَامَ مِنْ تِلْكَ الْأَدَلَّةِ قِيلَ لَهَا فِقْهُ وَكَانَ السَّلَفُ
 يَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ تِلْكَ الْأَدَلَّةِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ ضَرَرَةٌ أَنَّ
 الْأَدَلَّةَ غَالِبَهَا مِنَ النُّصُوصِ وَهِيَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَفِي أَقْضَاءَاتِ الْفَرَائِضِ لِكَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهَا
 اخْتِلَافٌ بَيْنَهُمْ مَعْرُوفٌ وَأَيْضًا فَالْسُّنَّةُ مُخْتَلِفَةٌ الطَّرُقِ فِي الثَّبُوتِ وَتَعَارَضُ فِي الْأَكْثَرِ
 أَحْكَامُهَا فَتَحْتَاجُ إِلَى التَّرْجِيحِ وَهُوَ مُخْتَلِفٌ أَيْضًا فَالْأَدَلَّةُ مِنْ غَيْرِ النُّصُوصِ مُخْتَلِفَةٌ فِيهَا
 وَأَيْضًا فَالْوَقَائِعُ الْمُتَجَدِّدَةُ لَا تُوقِفُ بِهَا النُّصُوصُ وَمَا كَانَ مِنْهَا غَيْرُ ظَاهِرٍ فِي الْمَنْصَرَفِ

فَيَعْمَلُ عَلَى الْمَنْصُوصِ امْتِثَابَهُ بَيْنَهُمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا إِشَارَاتٌ لِلْخِلَافِ ضَرُورِيَّةٌ أَوْفُوعٌ
وَمِنْ هُنَا وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا
أَهْلَ فُتْيَا وَلَا كَانَ الدِّينُ يُؤْخَذُ عَنْ جَمِيعِهِمْ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِالْحَامِلِينَ لِلْقُرْآنِ
الْعَرَابِيِّنَ بِنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وَمُتَشَابِهِهِ وَمُخْتَلَفِهِ وَسَائِرِ دَلَالَتِهِ بِمَا تَلَقَّوهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مِنْ سَمْعِهِ مِنْهُمْ وَمِنْ عَلَيْهِمْ وَكَانُوا يَسْأَلُونَ لِذَلِكَ الْقُرَّاءَ أَيَّ الدِّينِ
يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً فَأَخْطَصَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَارِئًا لِلْكِتَابِ
بِهَذَا الْأِسْمِ لِعَرَابِيَّتِهِ يَوْمَئِذٍ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ صَدَرَ الْمِلَّةُ ثُمَّ عَظُمَتْ أَمْصَارُ الْأَيْسَلَامِ
وَذَهَبَتِ الْأُمِّيَّةُ مِنَ الْعَرَبِ بِمُحَارَسَةِ الْكِتَابِ وَتَمَكَّنَ الْأِسْتِثْبَاتُ وَكَمُلَ الْفِقْهُ
وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا فَبَدَّلُوا بِأَسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَانْقَسَمَ الْفِقْهُ فِيهِمْ إِلَى
طَرِيقَتَيْنِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ
أَهْلُ الْحِجَازِ وَكَانَ الْحَدِيثُ قَلِيلًا فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَاهُ فَاسْتَكْثَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ
وَمَهَرُوا فِيهِ فَلِذَلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ وَمُقَدَّمُ جَمَاعَتِهِمُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي
أَصْحَابِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ انْكَرَ
الْقِيَاسُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهِ وَهُمْ الظَّاهِرِيَّةُ وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ كُلَّهَا
مُخْتَصِرَةً فِي الْأُصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ وَرَدُّوا الْقِيَاسَ الْجَلِيَّ وَالْعِلَّةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ
لِأَنَّ النَّصَّ عَلَى الْعِلَّةِ نَصٌّ عَلَى الْخُبْرِ فِي جَمِيعِ مَحَالِّهَا وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذْهَبِ دَاوُدُ
ابْنُ عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَأَصْحَابُهُمَا وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الثَّلَاثَةُ فِي مَذَاهِبِ الْجُمْهُورِ الْمَشْهُورَةِ
بَيْنَ الْأُمَّةِ وَشَدَّ أَهْلُ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِ ابْتَدَعُوهَا وَفَقَّهَ انْفَرَدُوا بِهِ وَبَنَوْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ
فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقُدْحِ وَعَلَى قَوْلِهِمْ بِعِصْمَةِ الْأَئِمَّةِ وَرَفَعَ الْخِلَافَ عَنْ
أَقْوَالِهِمْ وَهِيَ كُلُّهَا أَصُولٌ وَاهِيَةٌ وَشَدَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْخَوَارِجُ وَلَمْ يَخْتَفِلِ الْجُمْهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ
بَلْ أَوْسَعُوهَا جَانِبَ الْإِنْكَارِ وَالْقُدْحِ فَلَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرَوِي كُتُبَهُمْ
وَلَا أَثَرَ لِسَمْعٍ مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ فَكُتِبَ الشَّيْعَةُ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ
قَائِمَةً فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخَوَارِجُ كَذَلِكَ وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كُتُبٌ وَتَأْلِيفٌ
وَأَرَاءُ فِي الْفَقْهِ غَرِيبَةٌ ثُمَّ دُرِسَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَيْمَتِهِ وَإِنْكَارِ
الْجُمْهُورِ عَلَى مَنْحَلِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي الْكُتُبِ الْمَجْلُودَةِ وَرَبَّمَا يَعْكُفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ

مِمَّنْ تَكَلَّفَ بِالنِّحَالِ مَذْهَبَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْكِتَابِ يَرُومُ أَخَذَ فِقْهَهُمْ مِنْهَا وَمَذْهَبَهُمْ فَلَا
يَخْلُو بَطَائِلَ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا عُدَّ بِهَذِهِ النِّحَالَةِ مِنْ
أَهْلِ الْبِدْعِ بِنَقْلِهِ الْعِلْمَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْمُعَلِّمِينَ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ
بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى عُلُوِّ رُتْبَتِهِ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَمَهْرٍ فِيهِ
بِاجْتِهَادِ زَعْمِهِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ وَتَعَرَّضَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ
فَقِيمَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتَحْجَانًا وَإِنْكَارًا وَتَلَقَّوْا كِتَابَهُ بِالْإِغْفَالِ وَالْتَرَكِ
حَتَّى إِنَّهَا لَيُخَصَّرُ بَيْعُهَا بِالْأَسْوَاقِ وَرُبَّمَا تَمَزَّقَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذْهَبُ
أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَأَمَامُهُمُ الَّذِي
اسْتَبَقَتْ عَنْدهُ مَذَاهِبُهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ وَمَقَامُهُ فِي النِّقَةِ لَا يُلْحَقُ شَهِيدَ لَهُ
بِذَلِكَ أَهْلُ جَلَدَتِهِ وَخُصُوصًا مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ فَكَانَ إِمَامُهُمْ مَالِكٌ
ابْنُ أَنَسٍ الْأَصْبَعِيُّ إِمَامَ دَارِ النَّجْدَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِ آخَرِ
لِلْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ عَنْدهُ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى
أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفَسُونَ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضَرُورَةٌ لِيَسْتَبِينَمْ وَاقْتِدَائِهِمْ
وَهَكَذَا إِلَى الْجَيْلِ الْمُبَاشَرِينَ لِنَعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآخِذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ
وَصَارَ ذَلِكَ عَنْدهُ مِنْ أَصُولِ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَظَنُّ كَثِيرٍ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ
فَأَنكَرَهُ لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ لَا يَخْصُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ .
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّيْنِيِّ عَنِ اجْتِهَادِ وَمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى لَمْ يَعتَبَرْ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا أَعْتَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ اتَّبَعَ الْجَيْلُ
بِالْمُشَاهَدَةِ الْجَيْلُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَضَرُورَةُ اقْتِدَائِهِمْ
بِعَيْنِ ذَلِكَ يَعْمُ الْعِلْمَةُ ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ وَالْأَبْوَابُ بِهَا مِنْ حَيْثُ مَا فِيهَا مِنْ
الْإِتِّفَاقِ الْجَمَاعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِجْمَاعِ إِلَّا أَنَّ اتِّفَاقَ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ عَنْ نَظَرٍ وَاجْتِهَادٍ
فِي الْأَدِلَّةِ وَاتِّفَاقٌ هُوَ لَا فِي فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُسْتَنْدِينَ إِلَى مُشَاهَدَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَوْ ذُكِرَتْ
الْمَسْأَلَةُ فِي بَابِ فِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفْرِيهِ أَوْ مَعَ الْأَدِلَّةِ الْمُخْتَلَفِ
فِيهَا مِثْلَ مَذْهَبِ الصَّكَّابِيِّ وَشَرَعَ مِنْ قَبْلُنَا وَالْإِسْتِصْحَابِ أَكَّانَ أَلِيقٌ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِ
مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ مُحَمَّدُ بْنُ آدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى رَحَلَ إِلَى الْعِرَاقِ

مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَلَقِيَ أَصْحَابَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَمَنْحَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْحِجَازِ
 بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَخْصَصَ بِمَذْهَبٍ وَخَالَفَ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ
 مَذْهَبِهِ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَانَ مِنْ عَلَيْهِ التَّحْدِيثِ وَقَرَأَ
 أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وَفُورِ بَضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ فَاخْتَصَمُوا بِمَذْهَبِ
 آخَرٍ وَوَقَفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَهُمْ لِأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقْلِدُونَ مِنْ سِوَاهُمْ وَسَدَّ
 النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطَرِيقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ وَلَمَّا عَاقَ عَنِ
 الْوُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ الْاجْتِهَادِ وَلَمَّا خَشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوقِفُ
 بِرَأْيِهِ وَلَا يَدِينُهُ فَصَرَحُوا بِالْعُجْزِ وَالْإِعْوَازِ وَرَدُّوا النَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ كُلِّ مَنْ
 اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمُقْلِدِينَ وَحَظَرُوا أَنْ يُتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاعُبِ وَلَمْ يَبْقَ
 إِلَّا تَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ وَعَمِلَ كُلُّ مُقْلِدٍ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَلَدَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ تَصْحِيحِ الْأَصُولِ
 وَاتِّصَالَ سَنَدِهَا بِالرَّوَايَةِ لِأَخْصُولِ الْيَوْمِ لِلْفَقْهِ غَيْرَ هَذَا وَمُدْعَى الْاجْتِهَادِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ
 الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ فَأَمَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمَقْلَدُهُ قَلِيلٌ لِبُعْدِ مَذْهَبِهِ عَنِ الْاجْتِهَادِ
 وَأَصَانَتِهِ فِي مُعَاضَدَةِ الرِّوَايَةِ وَالْأَخْبَارِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكَثُرُ هُمْ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ
 بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حِظًّا لِلسُّنَّةِ وَرَوَايَةِ الْحَدِيثِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَقَلَدُهُ
 الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهَا لِمَا كَانَ
 مَذْهَبُهُ أَخْصَصَ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِذُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
 فَكَثُرَتْ تَالِيَتُهُمْ وَمَنَظَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسَنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ وَجَاءُوا
 مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ
 تَقَلَّهَ إِلَيْهِ الْفَافِي بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَلَّاجِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمَقْلَدُوهُ
 بِمِصْرَ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ
 وَقَاسَمُوا الْحَنَفِيَّةَ فِي التَّوَسُّلِ وَالتَّدْرِيسِ فِي جَدِيعِ الْأَمْصَارِ وَعَظُمَتْ تَجَالِسُ الْمُنَظَرَاتِ
 بَيْنَهُمْ وَتَحَنَّنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ اسْتِدْلَالَاتِهِمْ ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ
 الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي
 عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جُمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ

وَأَبْنُ الْمَوَارِثِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ الْحَارِثُ بْنُ مُسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ أَنْقَرَضَ فِيهِ أَهْلُ السَّنَةِ مِنْ مِصْرَ
يُظْهِرُ دَوْلَةَ الرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فِيهِ أَهْلُ الْبَيْتِ وَتَلَاشَى مِنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ
دَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى يَدِ صَالِحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِيهِ
الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَنَفَقَتْ سُوْفُهُ
وَأَشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُخَيُّ الدِّينِ النَّوَوِيُّ مِنَ الْحَلَبَةِ الَّتِي رَيْتَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ
بِالشَّامِ وَعَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ أَيْضًا ثُمَّ ابْنُ الرَّفْعَةِ بِمِصْرَ وَنَقِي الدِّينُ بْنُ
دَقِيقِ الْعِيدِ ثُمَّ نَقِي الدِّينِ السَّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنْ أُنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ الْأَيْسَلِ
بِمِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ الدِّينِ الْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ الْيَوْمَ أَكْبَرُ الشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ
الْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ وَأَمَّا مَالِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَاخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ
أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقْلِدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي
الْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى الْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَالْمَدِينَةُ يَوْمئِذٍ دَارُ
الْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ الْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَأَقْتَصَرُوا عَنْ الْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ
الْمَدِينَةِ وَشَبَّخَهُمْ يَوْمئِذٍ وَإِمَامُهُمْ مَالِكٌ وَشِوْخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ
إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَقَلَدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضًا
فَالْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَاوَنُونَ الْحِضَارَةَ الَّتِي
لَأَهْلِ الْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ أَمِيلَ لِمُنَاسَبَةِ الْبِدَاوَةِ وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ الْمَذْهَبُ
الْمَالِكِيُّ غَضًا عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْفِيحُ الْحِضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ
وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى
الْاجْتِهَادِ وَالْقِيَاسِ فَاحْتَأَجُوا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَلْحَاقِ وَتَنْزِيقِهَا عِنْدَ الْأَشْتِيَاكِ
بَعْدَ الْإِسْتِنَادِ إِلَى الْأَصُولِ الْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى
مَلَكَ رَاسِخَةٍ يُقَدِّرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِقَةِ وَاتَّبَعَ مَذْهَبُ إِمَامِهِمْ
فِيهِمَا مَا اسْتَطَاعُوا وَهَذِهِ الْمَلَكَ هِيَ عِلْمُ الْفَقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا مُقْلِدُونَ
لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ أَفْتَرَفُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ فَكَانَ بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ
الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ أَبِي خُوَيْزَمَةَ مَنَّادٍ وَأَبْنِ اللَّبَّانِ وَالْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ
الْأَهْرَبِيُّ وَالْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ الْقَصَّارِ وَالْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بِمِصْرَ ابْنِ الْقَاسِمِ وَاشْتَهَبَ وَأَبْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَالْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينَ وَطَبَقَتُهُمْ وَرَحَلَ
 مِنَ الْأَنْدَلُسِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ فَأَخَذَ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ وَطَبَقَتِهِ وَبَثَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ
 فِي الْأَنْدَلُسِ وَدَوَّنَ فِيهِ كِتَابَ الْوَاضِحَةِ ثُمَّ دَوَّنَ الْعَتَبِيُّ مِنْ تَلَامِيذِهِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ
 وَرَحَلَ مِنْ أَفْرِيقِيَّةِ أَسَدُ بْنُ الْفُرَاتِ نَكَّبَ عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلًا ثُمَّ أَنْتَقَلَ
 إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَكَتَبَ عَلَى ابْنِ الْقَاسِمِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْفَقْهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ
 بِكِتَابِهِ وَسُمِّيَ الْأَسَدِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ فَقَرَأَ بِهَا يُحْنُونَ عَلَى أَسَدٍ ثُمَّ ارْتَحَلَ
 إِلَى الْمَشْرِقِ وَلَقِيَ ابْنَ الْقَاسِمِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَعَارَضَهُ بِمَسَائِلِ الْأَسَدِيَّةِ فَرَجَعَ عَنْ كَثِيرٍ
 مِنْهَا وَكَتَبَ سَخْنُونَ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَهَا وَأَثَبَتْ مَا رَجَعَ عَنْهُ وَكَتَبَ لِأَسَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابِ
 سَخْنُونَ فَأَيْفَ مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكَ النَّاسُ كِتَابَهُ وَاتَّبَعُوا مُدَوَّنَةَ سَخْنُونَ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ
 اخْتِلَافِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَبْوَابِ فَكَانَتْ تُسَمَّى الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلَطَةَ وَعَمَّكَفَ أَهْلُ
 الْقَيْرَوَانِ عَلَى هَذِهِ الْمُدَوَّنَةِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْوَاضِحَةِ وَالْعَتَبِيَّةِ ثُمَّ اخْتَصَرَ ابْنُ
 أَبِي زَيْدٍ الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلَطَةَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْمُخْتَصَرِ وَلِخَصِّهِ أَيْضًا أَبُو سَعِيدٍ
 الْبَرَادَعِيُّ بْنُ فُقَيْهٍ الْقَيْرَوَانِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْتَهْدِيدِ وَأَعْتَمَدَهُ الشَّيْخَةُ مِنْ أَهْلِ
 أَفْرِيقِيَّةِ وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَكَذَلِكَ أَعْتَمَدَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ
 وَهَجَرُوا الْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا وَلَمْ تَزَلْ عُلَمَاءُ الْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هَذِهِ الْأَمَهَاتِ بِالشرحِ
 وَالإيضاحِ وَالْجَمْعِ نَكَّبَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ عَلَى الْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ
 ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ وَأَبْنِ مُحَرَّرِ التُّونِسِيِّ وَأَبْنِ بَشِيرٍ وَأَمثالِهِمْ وَكَتَبَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ
 عَلَى الْعَتَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ابْنِ رُشْدٍ وَأَمثالِهِ وَجَمَعَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي
 الْأَمَهَاتِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ وَالْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ التَّوَادُرِ فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ
 الْمَذَاهِبِ وَفَرَّعَ الْأَمَهَاتِ كُلَّهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ وَنَقَلَ ابْنُ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى
 الْمُدَوَّنَةِ وَزَحَرَتْ بِحَارِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي الْأَفْقَيْنِ إِلَى أَنْفِرَاضِ دَوْلَةِ قُرْطُبَةَ وَالْقَيْرَوَانِ
 ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهِمَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْحَاجِبِ
 لَخَصَّ فِيهِ طُرُقَ أَهْلِ الْمَذْهَبِ فِي كُلِّ بَابٍ وَتَعَدِيدَ أَقْوَالِهِمْ فِي كُلِّ مَسْئَلَةٍ فَجَاءَ كَالْبُرْجَانِ
 لِلْمَذْهَبِ وَكَانَتِ الطَّرِيقَةُ الْمَالِكِيَّةُ بَقِيَتْ فِي مِصْرَ مِنْ لَدُنِ الْحَارِثِ بْنِ مِسْكِينَ وَأَبْنِ
 الْمُبَشِّرِ وَأَبْنِ الْأَهِتِ وَأَبْنِ الرَّشِيقِ وَأَبْنِ شَاسٍ وَكَانَتْ بِالْأَنْدَلُسِ سَكَنْدَرِيَّةً فِي بَنِي عُوفٍ

وَبْنِي سَنَدٍ وَأَبْنِ عَطَاءَ اللَّهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنِ الْحَاجِبِ لَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ
 الْفَرَّاضِ دَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ وَذَهَابَ فِيهِ أَهْلُ الْبَيْتِ وَظَهَرُ فَقَهَاءُ السَّنَةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ
 وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ آخِرَ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ عَكَفَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ
 مِنْ طَلَبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصًا أَهْلُ بَجَايَةِ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَسْئَلَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ
 الزَّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ
 ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَأَنْتَشَرَ بِقَطْرِ بَجَايَةِ فِي تَلْمِيذِهِ وَمِنْهُمْ أُنْقَلِ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ
 وَطَلَبَةِ الْفَقْهِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوُلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤَثَّرُ عَنِ الشَّيْخِ
 نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرَغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَأَبْنِ
 رُشْدٍ وَأَبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقِ حُلِيِّهِمْ فِي الْأَجَادَةِ فِي ذَلِكَ
 ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَامَدُونَ كِتَابَ التَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي
 مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوَرَاثَةِ وَتَصْحِيحِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصَحُّ بِاعْتِبَارِ فُرُوضِهَا
 الْأَصُولُ أَوْ مُنَاسَخَتِهَا وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوَرَثَةِ وَأَنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ
 وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَبٍ تَصْحِيحِ الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ الْفُرُوضِ
 جَمِيعًا فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَزُّئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ
 مِنْ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِلذَّكَاءِ بَعْدَ أَكْثَرِ وَبِقَدَرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ
 إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلُ أَنْ يَقْرَءَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكَرُهُ الْآخَرُ
 فَتُصَحَّحُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السِّهَامِ ثُمَّ تُقَسَّمُ التَّرَكَّةُ عَلَى نِسَبِ سِهَامِ
 الْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَانَ غَالِبًا فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنَاءً
 مُفْرَدًا وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ أَشْهُرُ مَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخَّرِي الْأَنْدَلُسِ
 كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَخُتَمَتُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْحَوْفِيِّ ثُمَّ الْجَعْفَرِيُّ وَمِنْ مُتَأَخَّرِي
 أَفْرِيقِيَّةِ ابْنُ النَّعْرِ الطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمثالُهُمْ وَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ
 تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعِبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِاتِّسَاعِ الْبَالِغِ فِي الْفَقْهِ وَالْحِسَابِ

وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف
 لجمعه بين المنقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثات بوجوه صحيحة
 يقينية عند ما تمهل الحظوظ وتسهل على القاسمين وللعلماء من أهل الأمصار بها
 عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج
 إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والاضرف في الجذور
 وأمثال ذلك فيملأون بها تاليفهم وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما
 يتداولونه من ورثاتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد الميران وتحصيل المالكة في
 المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتاج إلا أكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث
 المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي
 رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناءً على أن المراد
 بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا التحل بعيد وأن المراد بالفرائض
 إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها وبهذا المعنى
 يصح فيها النصفية والثلثية وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى
 علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص
 أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون
 والاصطلاحات ولم يكن صدر الإسلام يطبق على هذا إلا على عموميه مشتقاً من
 الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع
 الفروض كما قلناه وهي حقيقة الشريعة فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل
 في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات

اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة
 وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتأليف وأصول
 الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي
 صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تلتقى بما يوحي إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله

بِخَطَابِ شَفَائِي لَا يَتَحَاجُّ إِلَى نَقْلِ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَفِيَّاسٍ وَمِنْ بَعْدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ تَعَدَّرَ الْخَطَابُ الشَّفَائِيَّ وَانْحَفَظَ الْقُرْآنُ بِالتَّوَاتُرِ وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ
رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ
الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هَذَا الْإِعْتِبَارُ
ثُمَّ يَنْزِلُ الْإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى التَّكْرِيرِ عَلَى مَخَالِفِهِمْ وَلَا يَكُونُ
ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُسْتَنَدٍ لَأَنَّهُمْ مِثْلُهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدِلَّةِ بَعْضُهُ
الْجَمَاعَةُ فَصَارَ الْإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ
الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هُمْ يَقْدِسُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِنْهُمَا وَيَنَظُرُونَ
الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ وَسَلِيمٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ فَإِنْ كَثِيرًا مِنْ
الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ تَنْدَرْجُ فِي النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ فَقَاسُوهَا بِمَا
ثَبَتَ وَانْحَفَظُوا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ تُصَحِّحُ تِلْكَ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ
أَوْ الْمَثَلَيْنِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا
شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدِلَّةِ وَاتَّفَقَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ
هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُدُوزٌ
وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهِذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَدِلَّةً أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا لِضَعْفِ مَدَارِكِهَا
وَشُدُوزِ الْقَوْلِ فِيهَا فَكَانَ أَوَّلُ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِّ النَّظَرُ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدِلَّةً فَأَمَّا
الْكِتَابُ فَدَلِيلُهُ الْمُعْجِزَةُ الْقَاطِعَةُ فِي مَتْنِهِ وَالتَّوَاتُرُ فِي نَقْلِهِ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَجَالٌ لِلِإِحْتِمَالِ
وَأَمَّا السُّنَّةُ وَمَا نَقَلَ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا
مُعْتَصِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْفَازِ الْكِتَابِ
وَالرُّسُلِ إِلَى النَّوَاحِي بِالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ أَمْرًا وَنَاهِيًا وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَلَا تَفَاقُحُ
رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى إِنْكَارِ مُخَالَفَتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأَمَّةِ وَأَمَّا الْقِيَاسُ
فَبِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمَاهُ هَذِهِ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ ثُمَّ إِنَّ
الْمَنْقُولَ مِنَ السُّنَّةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَصْحِيحِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طُرُقِ النَّقْلِ وَعَدَالَةِ النَّاقِلِينَ
لِتَسْمِيَةِ الْحَالَةِ الْحَصْلَةِ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ وَجُوبِ الْعَمَلِ وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ
قَوَاعِدِ الْفَنِّ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا

مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي
دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي عَلَى الْأِطْلَاقِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ
عَلَى الْأِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً وَالْقَوَائِنِ
اللِّسَانِيَّةِ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ وَحِينَ كَانَ الْكَلَامُ مَلَكَةً
لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَائِنَ وَلَمْ يَكُنِ الْفَقْهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِبِلَّةٌ
وَمَلَكَةٌ فَلَمَّا فَسَدَتْ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَيْدَهَا الْجَبَاهِدَةَ ائْتَجَرَدُوا لِذَلِكَ
بِنَقْلِ صَحِيحٍ وَمَقَاسٍ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ وَصَارَتْ عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيهَ فِي مَعْرِفَةِ
أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى خَاصَّةً مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهِيَ
اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدَاتِهَا الْخَاصَّةِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ
وَهُوَ الْفَقْهُ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ عَلَى الْأِطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ وَبِهَا اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ بِحَسَبِ مَا أَصَلَ
أَهْلُ الشَّرْعِ وَجَبَاهِدَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوا قَوَائِنَ لِهَذِهِ الْاسْتِفَادَةِ مِثْلَ أَنَّ اللُّغَةَ
لَا تُنْبِتُ قِيَاسًا وَالْمَشْتَرِكُ لَا يَرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ مَعًا وَالْوَاوُ لَا يَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامُّ إِذَا
اُخْرَجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ فِيمَا عَدَاهَا وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ أَوِ النَّدْبِ وَلِلْفَوْرِ
أَوِ التَّرَاخِي وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي النَّسَادَ أَوِ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يُحْمَلُ عَلَى الْمُقْبَدِ وَالنَّصُّ
عَلَى الْعَلَّةِ كَأَنَّهُ فِي التَّعَدُّدِ أَمْ لَا وَمِثَالُ هَذِهِ فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ وَلَكُونَهَا
مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ كَانَتْ لُغَوِيَّةً ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ
فِيهِ تَحْقِيقَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يَقَاسُ وَيُمَازَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيَنْفَتَحُ الْوَصْفُ الَّذِي
يَعْلَبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الْحُكْمَ عَلِقَ بِهِ فِي الْأَصْلِ مَنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافُ ذَلِكَ الْحَمَلِ أَوْ وَجُودُ
ذَلِكَ الْوَصْفِ وَالْفَرْعِ مِنْ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلٍ أُخْرَى
مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ كُلِّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ . (واعلم) أَنَّ هَذَا الْفَنَّ مِنَ الْفُنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ
فِي الْعِلْمَةِ وَكَانَ السَّلَفُ فِي غَيْبِهِ عَنْهُ بِمَا أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا يَحْتَاجُ
فِيهَا إِلَى أَزِيدٍ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَلَكَةِ اللَّسَانِيَّةِ وَأَمَّا الْقَوَائِنُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي
اسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أَخَذَ مُعْظَمُهَا وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ
إِلَى النَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ الْعَصْرِ وَمُعَارَسَةِ الْفَقْلَةِ وَخُبَرَتِ بِهِمْ بِهِمْ فَلَمَّا انْقَرَضَ السَّلَفُ وَذَهَبَ

الصدر الأول وَانْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلِ احْتِاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُجْتَهِدِينَ
إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَائِنِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْأَدَلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنُا
قَائِمًا بِرَأْسِهِ سَمَوْهُ أَصُولَ الْفِقْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِيهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
أَمَلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي وَالْيَكْيَانِ وَالْخَبَرِ وَالنَّسَخِ
وَحُكْمِ الْعِلَّةِ الْمَنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ ثُمَّ كَتَبَ فُقَهَاءُ الْخَنَفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ
وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا
أَمَسَ بِالْفِقْهِ وَالْيَقُ بِالْفُرُوعِ كَثَرَةُ الْأَمْثَلَةِ مِنْهَا وَالشَّوَاهِدُ وَبِنَاءُ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى
النِّسْبَةِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ صُورَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَلَى الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى
الْإِسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أَمَكْنَ لِأَنَّهُ غَالِبٌ فَنُوزِعُهُمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْخَنَفِيَّةِ
فِيهَا أَيْدٍ اطُّوَلَى مِنَ الْغَوْصِ عَلَى النَّسْبَةِ الْفَقْهِيَّةِ وَالتَّقَاطُطِ هَذِهِ الْقَوَائِنِ مِنْ مَسَائِلِ
الْفِقْهِ مَا أَمَكْنَ وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ الدَّبُوسِيُّ مِنْ أَيْمَتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعٍ مِنْ
جَمِيعِهِمْ وَتَمَّ الْأَبْحَاثُ وَالشَّرُوطُ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمَلَتِ صِنَاعَةُ أَصُولِ الْفِقْهِ
كَمَالَهُ وَتَهَدَّتْ مَسَائِلُهُ وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعُيِيَ النَّاسُ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ وَكَانَ
مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابُ الْبَرْهَانِ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَالْمُسْتَصَفَى
لِلْغَزَالِيِّ وَهُمَا مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابُ الْعَهْدِ لِعَبْدِ الْجَبَّارِ وَشَرْحُهُ الْمُتَمِّدُ لِلْإِي الْحُسَيْنِ
الْبَصْرِيِّ وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرَادَهُ ثُمَّ لَخَّصَ هَذِهِ
الْكِتَابَ الْأَرْبَعَةَ فَحَلَّانَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنُ
الْخَطِيبِ فِي كِتَابِ الْحَصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْأَمْدِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ وَاخْتَلَفَتْ
طَرَائِفُهُمَا فِي الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَاجِ فَأَبْنُ الْخَطِيبِ أَمِيلٌ إِلَى الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْ
الْأَدَلَّةِ وَالْإِحْتِجَاجِ وَالْأَمْدِيُّ مَوْلِعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَفَرُّعِ الْمَسَائِلِ وَأَمَّا كِتَابُ
الْحَصُولِ فَأَخْتَصَرَهُ تَلْمِذُ الْإِمَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْأَزْمَوِيُّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَاجُ
الدِّينِ الْأَزْمَوِيُّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَطَفَتْ شَهَابُ الدِّينِ الْقُرَافِيُّ مِنْهُمَا مُقَدِّمَاتٍ
وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابِ صَغِيرِ سَمَاءِ التَّنْقِيحَاتِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ الْمُنْهَاجِ
وَعُيِيَ الْمُبْتَدِئُونَ بِهَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا كِتَابُ الْإِحْكَامِ
الْأَمْدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمَرَ بْنُ الْحَاجِبِ فِي كِتَابِهِ

المعروف بِالْمُخْتَصَرِ الْكَبِيرِ ثُمَّ اخْتَصَرَهُ فِي كِتَابٍ آخَرَ تَدَاوُلَهُ طَائِفَةُ الْعُلَمَاءِ وَعَنِي أَهْلُ
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ وَبِمُطَالَعَتِهِ وَشَرْحِهِ وَحَصَلَتْ زُبْدَةُ طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي
 هَذَا الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْخُفْيَةِ فَكَتَبُوا فِيهَا كَثِيرًا وَكَانَ
 مِنْ أَحْسَنِ كِتَابَةٍ فِيهَا لِلْمُنْقَذِ مِنْ تَأْلِيفِ أَبِي زَيْدٍ الدَّبُوسِيِّ وَأَحْسَنِ كِتَابَةِ الْمَنَافِعِ
 فِيهَا تَأْلِيفُ سَيْفِ الْإِسْلَامِ الْبَزْدَوِيِّ مِنْ أَتَمِّهِمْ وَهُوَ مُتَنَوِّعٌ وَجَاءَ ابْنُ السَّاعَاتِيِّ
 مِنْ فُقَهَاءِ الْخُفْيَةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ الْإِحْكَامِ وَكِتَابِ الْبَزْدَوِيِّ فِي الطَّرِيقَتَيْنِ
 وَسَمَّى كِتَابَهُ بِالْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَأَيُّمَةُ الْعُلَمَاءِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ يَتَدَاوُلُونَهُ قِرَاءَةً وَنَحْوًا وَأَوَاجِعَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ بِشَرْحِهِ وَالْحَالُ عَلَى
 ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ هَذِهِ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ التَّأْلِيفِ الْمَشْهُورَةِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ فِيهِ وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِالْعِلْمِ وَيَجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 (وَأَمَّا الْخِلَافَاتُ) . فَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْفَقْهَ الْمُسْتَنْبَطَ مِنَ الْأَدَلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ كَثُرَ فِيهِ
 الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجْتَهِدِينَ بِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافًا لَابَدٍّ مِنْ وَجْهِهِ لِمَا
 قَدَّمَ نَاهُ وَأَتَّسَعَ ذَلِكَ فِي الْمِلَّةِ اتِّسَاعًا عَظِيمًا وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يَقْلِدُوا مَنْ شَاءُوا
 مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا أَتَتْهُ ذَلِكَ إِلَى الْأَيُّمَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ
 مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ أَقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنْعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ الْاجْتِهَادِ
 لِعُضُوبَتِهِ وَتَشَعُّبِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِاتِّصَالِ الزَّمَانِ وَافْتِقَادِ مَنْ يَقُومُ عَلَى سِوَى
 هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ فَأَقْبَمَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْأَرْبَعَةُ أَصُولَ الْمِلَّةِ وَاجْرَى الْخِلَافُ
 بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَالْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مُجْرَى الْخِلَافِ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ
 وَالْأَصُولِ الْفَقْهِيَّةِ وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ الْمُنَظَارَاتُ فِي تَضَحُّجِ كُلِّ مِنْهُمْ مَذْهَبٍ أَمَامِهِ تَجْرِي
 عَلَى أَصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقٍ قَوِيَّةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلُّ عَلَى مَذْهَبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ
 وَاجْرَبَتْ فِي مَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْفَقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ الْخِلَافُ
 بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِي
 يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هَذِهِ
 الْمُنَظَارَاتِ بَيَانُ مَا خِذَ هَؤُلَاءِ الْأَيُّمَةُ وَمَثَارَاتُ اخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ اجْتِهَادِهِمْ كَانَ هَذَا
 الصَّنْفُ مِنَ الْعِلْمِ يُسَمَّى بِالْخِلَافِيَّاتِ وَلَا بَدَأَ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا

إِلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِإِسْتِنْبَاطِ
وَصَاحِبِ اخْتِلَافَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ أَنَّ يَهْدِيهَا الْمُخَالَفُ
بِأَدْلَتِهِ وَهُوَ لَعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلٌ الْفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَا خِذَ الْأَئِمَّةُ وَأَدَلَّتْهُمْ وَمَرَاتِ
الْمُطَالَعِينَ لَهُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ وَتَأْلِيفِ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأْلِيفِ
الْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفَتْ
فَهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ . وَامَّا الْمَالِكِيَّةُ فَالْأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمَدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ
نَظَرٍ وَأَيْضًا فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ الْقَرْبِ وَهُمْ بِأَدِيَّةِ غُلٍّ مِنْ الصَّنَائِعِ إِلَّا فِي الْأَوَّلِ وَالْغَزَالِي
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ الْمَاخِذِ وَلِإِي زَيْدِ الدُّبُوسِيِّ كِتَابُ التَّعْلِيقَةِ وَلِابْنِ الْقَصَّارِ
مِنْ شَيْوْخِ الْمَالِكِيَّةِ عِيُونُ الْأَدَلَّةِ وَقَدْ جَمَعَ ابْنُ السَّاعَاتِيِّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ
جَمِيعَ مَا يَتَنَبَّيْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِقْهِ اخْتِلَافِيٍّ مُدْرَجًا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَتَنَبَّيْ عَلَيْهَا مِنَ اخْتِلَافَاتِ
(وَأَمَّا الْجِدَالُ) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَظَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ
وغيرهم فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَظَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَنَظِّرِينَ
فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي الْإِخْتِجَاجِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا
يَكُونُ خَطَأً فَاحْتَاجَ الْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ الْمُتَنَظِّرَانِ عِنْدَ
حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدِلِّ وَالْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ
أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَنَحْلُ أَعْرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيُّ
يَجِبُ عَلَيْهِ السُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةُ
بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ سَوَاءً
كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ الْبُزْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدَلَّةِ
الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ وَطَرِيقَةُ الْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ
دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيْ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ اسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ الْمَنَاحِي الْحَسَنَةِ
وَالْمَعَالِطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا أَعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ
أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ الْمَعَالِطِيِّ وَالشُّوْطَطَائِيِّ إِلَّا أَنَّ صُورَ الْأَدَلَّةِ وَالْأَفْئِسَةِ فِيهِ مُحْفُوظَةٌ
مُرَاعَاةً تُجْرَى فِيهَا طُرُقُ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا يَتَنَبَّيْ وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ
فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَضَعُ الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِالْإِزْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مِنْ بَعْدِهِ

مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَى أَنْزِهِ وَسَلَّكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي
الطَّرِيقَةِ النَّكَالُفُ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ إِلَّا سَلَامِيَّةً
وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْحُجَاجَ عَنِ الْعُقَايِدِ إِلَّا إِيْمَانِيَّةً بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرَّدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ
الْمُنْجَرِفِينَ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَسِرُّ هَذِهِ الْعُقَايِدِ إِلَّا إِيْمَانِيَّةً
هُوَ التَّوْحِيدُ فَلْنَقْدِمْ هُنَا لَطِيْفَةً فِي بُرْهَانِ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ
الطَّرِيقِ وَالْمَاخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيهِمَا يُنْظَرُ وَيُسِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي الْمِلَّةِ
وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ الْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سِوَاهُ كَانَتْ مِنَ الذَّوَاتِ
أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ الْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي
مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضًا فَلَا بُدَّ لَهُ
مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي أَرْتِقَائِهَا تَنْفَسِحُ وَتَتَضَاعَفُ
طَوْلًا وَعَرْضًا وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذَا لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْحَاطِطُ سِيمَا
الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ
إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ
نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ
قَصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ
مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِيءِ الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى
تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الذِّكْرِ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ
مَعْرِفَةِ مَبَادِيئِهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يُحِيطُ عُلَمَاءُ فِي الْغَالِبِ بِالْإِسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةُ ظَاهِرَةِ
وَيَقَعُ فِي مَدَارِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لَأَنَّ الطَّبِيعَةَ تَخْصُرُ النَّفْسَ وَتَحْتَ طَوْرَهَا وَأَمَّا
التَّصَوُّرَاتُ فَتَنْطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا تَدْرِكُ
الْكَثِيرَ مِنْهَا فَضَاءً عَنِ الْإِلْحَاطَةِ وَتَأْمَلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ النَّظَرِ

إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَادٍ يَهِيمُ فِيهِ الْفَكْرُ وَلَا يَحُلُو مِنْهُ بَطَائِلٌ وَلَا يَطْفَرُ
بِحَقِيقَةٍ قَالَ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرَبُّمَا أَنْقَطَعَ فِي وَقُوفِهِ عَنِ الْأَرْتِقَاءِ إِلَى
مَا قُوْفُهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحِرْمَانِ وَالْخُسْرَانِ
الْمَمِينِ وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفُ أَوْ الرُّجُوعُ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْ
يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِغَةً تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا إِذْ لَوْ
عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا فَلْتَحَرَّزَ مِنْ ذَلِكَ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضًا فَوْجَهُ تَأْثِيرَ
هَذِهِ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّحَاتِهَا مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوْقِفُ عَلَيْهَا بِالْعَادَةِ لِإِقْتِرَانِ
الشَّاهِدِ بِالْإِسْنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ وَحَقِيقَةِ التَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتِهِ مَجْهُولَةٌ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِلَّا قَلِيلًا فَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَالْإِنْفَاءِ جُمْلَةً وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
كُلِّهَا وَقَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا لَتَرْسَخَ صِفَةُ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا الشَّارِعَ الَّذِي هُوَ
أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِإِطْلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحَسِّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ
فَقَدِ انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَأَنْ سَجَّ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَابْتَحَثَ عَنْهَا وَعَنْ
أَسْبَابِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَّا بِالْخَبِيَةِ فَلِذَلِكَ
نَهَانَا الشَّارِعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمَرَنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُنْطَلِقِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ
الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَلَا تَتَّقِنَ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْكَفَرُ مِنْ
أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْأَحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ وَسَنَفِهِ
رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِي رَأْيِهِ مُنْخَصَرٌّ فِي مَدَارِكِهِ
لَا يَعْدُوهَا وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلَّا تَرَى الْأَصَمَّ كَيْفَ
يُنْخَصِرُ الْوُجُودُ عِنْدَهُ فِي الْخَمْسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ
صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى أَيْضًا يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْنِيَّاتِ وَلَوْلَا مَا يَرُدُّهُمْ
إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَالْكَفَافَةِ لَمَا أَقْرَبُوا بِهِ لِكُنْهِمْ
يَتَّبِعُونَ الْكَفَافَةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ
سُئِلَ الْحَيَوَانُ الْأَعْجَمُ وَنُطِقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِالْكَلِمَةِ
فَإِذَا عَلِمَتْ هَذَا فَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْبًا مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرَ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا مَخْلُوقَةٌ

مُحْدَثُهُ وَخَلَقَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَالْخَصْرُ مُجْهُولٌ وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ
ذَلِكَ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَاتَّبِعْهُمْ إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَكَاتِكَ فِي الْخَصْرِ وَاتَّبِعْ مَا أَمَرَكَ
الشَّارِعُ بِهِ مِنْ اعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ
طَوْرِ فَوْقِ إِدْرَاكَكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعَ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ
وَمُدَارِكِهِ بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكُمُهُ بِقِيَنِيَّةٍ لَا كَذِبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ
أَنْ تَزِنَ بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ النُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلَّ مَا
وَرَاءَ طَوْرِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ
بِهِ الذَّهَبُ فَطَمَعَ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجِبَالَ وَهَذَا لَا يُدْرِكُ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ غَيْرُ
صَادِقٍ لَكِنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللَّهِ
وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَاتِ الْوُجُودِ الْحَاصِلِ مِنْهُ وَتَقَطُّنٌ فِي هَذَا الْغَلَطِ وَمَنْ يَقْدِمُ
الْعَقْلَ عَلَى السَّمْعِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْقَضَايَا وَقُصُورِ فَهْمِهِ وَأَضْغَلَالِ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ
لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَعَلَلِ الْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزْتَ فِي الْأَرْنَفَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكَكَ
وَوُجُودَنَا خَرَجْتَ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُدْرِكَةً فَيُضِلُّ الْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ الْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ
فَإِذَا التَّوْحِيدُ أَوْ الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِكَ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَقْوِيضِ ذَلِكَ إِلَى
خَالِقِهَا الْمُحِيطِ بِهَا إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرَهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمِنَا بِهِ إِنَّمَا
هُوَ مِنْ حَيْثُ صُدُورُنَا عَنْهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصِّدِّيقِينَ الْعَجْزُ عَنِ الْإِدْرَاكِ
إِدْرَاكَكَ ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ
حُكْمِي فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ تَنْكِيفُ
بِهَا النَّفْسِ كَمَا أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مَلَكَهَ الطَّاعَةِ
وَالْإِنْقِيَادِ وَتَقَرُّبِ الْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَتَقَلَّبَ الْمُرِيدُ السَّالِكُ
رَبَانِيًا وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْإِتِّصَافِ وَشَرْحُهُ أَنَّ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَدْنُوبٌ إِلَيْهَا
وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَا أَخَذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ
مَسْكِينًا مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْتَغْنَيْنِ لَفَرَ عَنْهُ وَاسْتَنْكَفَ أَنْ يَبْشُرَهُ فَضْلًا عَنِ التَّمَسُّحِ
عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعُطْفِ وَالْخَنَوِ وَالصَّدَقَةِ فَبِذَا إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ

مِنْ رَحْمَةِ الْيَسِيمِ مَقَامُ الْعِلْمِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مَقَامُ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ
 يَحْصُلُ لَهُ مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمُسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
 مَقَامٌ آخَرُ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا فَمَتَى رَأَى يَتِيمًا
 أَوْ مُسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ الثَّوَابَ فِي السَّنَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ يَصِيرُ عَنْ
 ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَ عَنْهُ ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عَلِمَكَ بِالتَّوْحِيدِ مَعَ
 اتِّصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ ضَرُورَةً وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنَى مِنَ الْعِلْمِ الْحَاصِلِ
 قَبْلَ الْإِتِّصَافِ وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنِ تَجَرُّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ الْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ
 مِرَارًا غَيْرَ مُخَصَّرَةٍ فَتَرْبُخَ الْمَلَائِكَةُ وَيَحْصُلَ الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي
 النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ أَلْجَرَدَ عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلُ الْجَدْوَى وَالنَّفْعِ وَهَذَا
 عِلْمٌ أَكْثَرُ النَّظَارِ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِي النَّاشِئُ عَنِ الْعَادَةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ
 الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلِبَ اعْتِقَادُهُ
 فَالْكَمَالُ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الثَّانِي الْحَاصِلِ عَنِ الْإِتِّصَافِ وَمَا طَلِبَ عَمَلُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ
 فَالْكَمَالُ فِيهَا فِي حُصُولِ الْإِتِّصَافِ وَالتَّحْقِيقِ بِهَا ثُمَّ إِنَّ الْأَقْبَالَ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالْمَوْظَافَةِ
 عَلَيْهَا هُوَ الْحَصْلُ لِهَذِهِ الثَّمَرَةِ الشَّرِيفَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَأْسِ الْعِبَادَاتِ
 جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالًا يَجِدُ فِيهَا مُنْتَهَى لَذَاتِهِ
 وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَإِنَّ هَذَا مِنْ صَلَاةِ النَّاسِ وَمَنْ لَهُمْ فِيهَا فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
 سَاهُونَ اللَّهُمَّ وَفَقْنَا وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ فِي الذِّكْرِ الْإِلَافِ
 كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَتِهَا رَاسِخَةً فِي النَّفْسِ يَحْصُلُ عَنْهَا عِلْمٌ أَضْطِرَّارِي لِلنَّفْسِ هُوَ التَّوْحِيدُ
 وَهُوَ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ السَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَاءٌ فِي الذِّكْرِ الْإِلَافِ
 الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ وَبِفَهْمٍ مِنْهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّكْلِيفِ وَيَتَّبِعُهَا هُوَ يَهْدِيهِ
 الْمَتَابَةِ ذُو مَرَاتِبٍ أَوَّلُهَا التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ الدَّوَافِقُ لِللِّسَانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةٍ مِنْ
 ذَلِكَ الْإِعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْعَمَلِ مُسْتَوَلِيَّةٍ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَبِيعُ الْجَوَارِحَ
 وَتَنْدَرِجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ التَّصَرُّفَاتِ حَتَّى تَنْخَرِطَ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَلِكَ التَّصْدِيقِ
 الْإِيمَانِيِّ وَهَذَا أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَفَارِقُ الدُّوْمُنُ

مَعَهُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِذْ حُصِلَ الْمَلَكَهَ وَرُسُوحُهَا مَانِعٌ مِنَ الْإِنْخِرَافِ عَنْ مَنَاجِيهِ
طَرَفَةِ عَيْنٍ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَفِي حَدِيثٍ
هَرَقَ لَمَّا سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي
أَصْحَابِهِ هَلْ يَزْنِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سُخْطَةً لِيَدِينَهُ قَالَ لَا فَقَالَ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخْلُطُ
بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَهَ لَا إِيْمَانُ إِذَا اسْتَقَرَّتْ عَسْرٌ عَلَى النَّفْسِ مَخَالَفَتَهَا شَأْنَ
الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثَابَةِ الْجِبِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَالِيَةُ
مِنَ الْإِيمَانِ وَهِيَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِصْمَةِ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ وَاجِبَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَجُوبًا
سَابِقًا وَهَذِهِ حَاصِلَةُ لِلْمُؤْمِنِيَةِ حُصُولًا تَابِعًا لِأَعْمَالِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَهَذِهِ الْمَلَكَهَ
وَرُسُوحُهَا يَقَعُ التَّفَاوُتُ فِي الْإِيمَانِ كَالَّذِي يُتْلَى عَلَيْكَ مِنْ أَقْوَابِلِ السَّلفِ وَفِي تَرَاجُمِ
الْبُخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَابِ الْإِيمَانِ كَثِيرٌ مِنْهُ مِثْلُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ
وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصَّيَامَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحَيَاءُ مِنَ
الْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ بِهِذَا كُلُّهُ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَإِلَى مَلَكَتِهِ وَهُوَ
فِعْلِيٌّ وَأَمَّا التَّصْدِيقُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِهِ فَلَا تَفَاوُتَ فِيهِ فَمَنْ أَعْتَبَرَ أَوَائِلَ الْأَسْمَاءِ
وَحَمَلَهُ عَلَى التَّصْدِيقِ مُنِعَ مِنَ التَّفَاوُتِ كَمَا قَالَ أئِمَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَنْ أَعْتَبَرَ أَوَاخِرَ
الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَهَ الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ ظَهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ وَلَيْسَ
ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي اتِّحَادِ حَقِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي هِيَ التَّصْدِيقُ إِذِ التَّصْدِيقُ مُوجِدٌ فِي جَمِيعِ
رُتَبِهِ لِأَنَّهُ أَقَلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْمُخْلِصُ مِنْ عَهْدَةِ الْكُفْرِ وَالْفَيْصَلُ
بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ فَلَا يَجْزِي أَقَلُّ مِنْهُ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاوُتُ وَإِنَّمَا
التَّفَاوُتُ فِي الْحَالِ الْحَاصِلَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ كَمَا قُلْنَا هُ فَا فُهِمَ وَأَعْلَمَ أَنَّ الشَّارِعَ وَصَفَ
لَنَا هَذَا الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وَعَيْنٌ أُمُورًا مَخْصُوصَةً
كَلَفْنَا التَّصْدِيقَ بِهَا يَقُولُونَ وَأَعْتَقَادَهَا فِي أَنْفُسِنَا مَعَ الْأَقْرَارِ بِالسَّنَنِ وَهِيَ الْعَقَائِدُ الَّتِي
تَقَرَّرَتْ فِي الدِّينِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ
الْإِيمَانِيَّةُ الْمَقْرَرَةُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ . وَلِنُشِرَ إِلَيْهَا مُجْمَلَةً لِنَتَبَّيْنَ لَكَ حَقِيقَةَ هَذَا الْفَنِّ
وَكَيْفِيَّةَ حَدُوثِهِ فَتَقُولُ . أَعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمَرَنَا بِالْإِيمَانِ بِهِذَا الْخَالِقِ الَّذِي رَدَّ

الْأَفْعَالُ كُلُّهَا إِلَيْهِ وَأَفْرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هَذَا الْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ
إِذَا حُضِرْنَا لَمْ يُعْرِفْنَا بِكُنْهٍ حَقِيقَةٍ هَذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَذِّرٌ عَلَى إِدْرَاكِهَا
وَمِنْ فَوْقِ طَوْرِنَا فَكَلَفْنَا أَوَّلًا اعْتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنِ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا
لِمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقُ لَهُمْ لَعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنِ صِفَاتِ النِّقْصِ
وَإِلَّا لَشَبَاهَةِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالْإِتِّحَادِ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانِعِ ثُمَّ اعْتِقَادُ أَنَّهُ
عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذَلِكَ نَتِمُّ الْأَفْعَالُ شَاهِدٌ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ الْإِتِّحَادِ وَالْخَلْقِ وَمُرِيدُ وَإِلَّا لَمْ
يُخَصَّصْ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَإِلَّا فَلَا إِرَادَةَ حَادِثَةً وَانَّهُ يُعِيدُنَا
بَعْدَ الْمَوْتِ تَكْمِيلًا لِعِبَادَتِهِ بِالْإِتِّحَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرِ فَإِنْ كَانَ عِبَادَةً فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ
بَعْدَ الْمَوْتِ ثُمَّ اعْتِقَادُ بَعَثَةِ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شِقَاءِ هَذَا الْمَعَادِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ
بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِتِّبَاءِ بِذَلِكَ وَيَسَارِ
الطَّرِيقَيْنِ وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ هَذِهِ أُمَمَاتُ الْعُقَايِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدِلَّتِهَا
الْعَقْلِيَّةِ وَأَدِلَّتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ وَعَنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ وَارْتَشَدَ
إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأُئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفْصِيلِ هَذِهِ الْعُقَايِدِ
أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِصَامِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ
بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةٍ إِلَى الْقَلِّ لِحُدُثِ بِنَا بِذَلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ وَلِنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُجْمَلِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَّ فِيهِ وَصْفُ الْمَعْبُودِ بِالتَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ
تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا وَوَقَعَ فِي
كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ثُمَّ
وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ تُوهِمُ التَّشْبِيهَ وَقَضَوْا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ
فَأَمَّنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بَيِّنٌ وَلَا تَأْوِيلٌ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ أَفْرَأُوهَا
كَمَا جَاءَتْ أَيْ آمَنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِلتَّأْوِيلِ وَلَا تَفْسِيرِهَا لِحُجُوزِ أَنْ
تَكُونَ أَبْيَلًا فَيَجِبُ الْوُقُوفُ وَالْإِدْعَانُ لَهُ وَشَدَّ لِعَصْرِهِمْ مُبْتَدَعَةً اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنْ
الْآيَاتِ وَتَوَعَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ فَمَرِيقٌ أَشْبَهُوا فِي الذَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ عَمَلًا
بِظَوَاهِرِ وَرَدَتْ بِذَلِكَ فَوَقَعُوا فِي التَّجْسِيمِ الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَتِهِ آيِ التَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي
هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْضِي النِّقْصَ وَالِافْتِقَارَ وَتَغْلِبُ

آيَاتِ السُّلُوبِ فِي التَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٍ أَوَّلَى مِنْ
 التَّعَلُّقِ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الَّتِي لَمَّا عَنْهَا غَنِيَةٌ وَجَمْعُ بَيْنِ الدَّلِيلَيْنِ بَيِّنٌ وَبَلِيغٌ ثُمَّ يَفْرَوْنَ مِنْ شَتَاةِ
 ذَلِكَ يَقُولُهُمْ جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَفْعٍ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمْعٌ
 بَيْنَ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ إِنْ كَانَ بِالْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ الْجِسْمِ وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَنَفَوْا
 الْمَعْقُولِيَّةَ الْمُتَعَارِفَةَ فَقَدْ وَافَقُونَا فِي التَّنْزِيهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعْلُهُمْ لَفْظَ الْجِسْمِ اسْمًا مِنْ
 أَسْمَائِهِ وَيَتَوَقَّفُ مِثْلُهُ عَلَى الْأَذْنِ وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى التَّشْبِيهِ فِي الصِّفَاتِ كَمَا ثَبَتَ
 الْجِهَةُ وَالِاسْتِوَاءُ وَالنُّزُولُ وَالصَّوْتُ وَالْحَرْفُ وَأَمَّا ذَلِكَ وَالْقَوْلُ لَهُمْ إِلَى التَّجْسِيمِ
 فَتَزَعُّوا مِثْلَ الْأَوَّلِينَ إِلَى قَوْلِهِمْ صَوْتُ لَا كَالصَّوْتِ جِهَةٌ لَا كَالْجِهَاتِ تَزُولُ لَا
 كَالنُّزُولِ يَعْنُونَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَأَنْدَفَعَ ذَلِكَ بِمَا أَنْدَفَعَ بِهِ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الظَّوَاهِرِ
 إِلَّا أَعْتِقَادَاتُ السَّلَفِ وَمَذَاهِبُهُمْ وَالْإِيمَانُ بِهَا كَمَا هِيَ لَيْثًا لَا يَكُرُّ النَّفْيُ ذَلِكَ مَعَانِيهَا بِنَفْيِهَا
 مَعَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَلِهَذَا تَنْظُرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ الرَّسَالَةِ لِأَبْنِ أَبِي زَيْدٍ
 وَكِتَابِ الْمُخْتَصَرِ لَهُ فِي كِتَابِ الْحَافِظِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يُحَوِّمُونَ ذَلِكَ هَذَا
 الْمَعْنَى وَلَا تَعْنُضُ عَيْنُكَ عَنْ الْقُرَّائِنِ الدَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ فِي غُضُونِ كَلَامِهِمْ ثُمَّ لَمَّا
 كَثُرَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَوَلَّعَ النَّاسُ بِالْبَدْوَيْنِ وَابْتَحَثَ فِي سَائِرِ الْأَنْحَاءِ وَآلَفَ
 الْمُتَكَلِّمُونَ فِي التَّنْزِيهِ حَدَّثَتْ بِدْعَةُ الْمُعْتَزَلَةِ فِي تَعْمِيمِ هَذَا التَّنْزِيهِ فِي آيِ السُّلُوبِ
 فَقَضَوْا بِنَفْيِ صِفَاتِ الْمَعَانِي مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ زَائِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا
 لِمَا يَلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَدُّ الْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ وَهُوَ مُرَدُّودٌ بِأَنَّ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ عَيْنَ الذَّاتِ
 وَلَا غَيْرَهَا وَقَضَوْا بِنَفْيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِكُونِهِمَا مِنْ عَوَارِضِ الْأَجْسَامِ وَهُوَ مُرَدُّودٌ
 لِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الْبَيِّنَةِ فِي مَدْلُولِ هَذَا اللَّفْظِ وَإِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكُ الْمُسْمُوعِ أَوِ الْمُبْصَرِ
 وَقَضَوْا بِنَفْيِ الْكَلَامِ لِشَبْهِ مَا فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ الْكَلَامِ الَّتِي تَقُومُ
 بِالنَّفْسِ فَقَضَوْا بِأَنَّ الْقُرْآنَ تَخْلُوقٌ بِدْعَةُ صَرَحَ السَّلَفُ بِخِلَافِهَا وَعَظَمَ ضَرْبُ ذَلِكَ الْبِدْعَةَ
 وَلَقْنَهَا بَعْضُ الْخُلَفَاءِ عَنْ أَئِمَّتِهِمْ تَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا وَخَالَفَهُمْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ فَأَسْتَحَالَ
 لِخِلَافِهِمْ إِسَارَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِهَاضِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالْأَدِلَّةِ
 الْعَلَمِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْعُقَائِدِ دَفْعًا فِي صُدُورِ هَذِهِ الْبِدْعِ وَقَامَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ
 الْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَتَوَسَّطَ بَيْنَ الطَّرِيقِ وَنَفَى التَّشْبِيهِ وَاثْبَتَ الصِّفَاتِ

الْمَعْنَوِيَّةُ وَقَصَرَ التَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ الْأَدَلَّةُ الْخُصَصَةُ لِعُمُومِهِ
 فَأَثْبَتَ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعَ الْمَعْنَوِيَّةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ الْقَائِمَ بِالنَّفْسِ بِطَرِيقِ
 النَّقْلِ وَالْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهْدُوهُ لِهَذِهِ الْبِدْعِ
 مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ وَالتَّحْسِينِ وَالتَّقْصِيعِ وَكَمَّلَ الْعُقَايِدَ فِي الْبُعْثَةِ وَأَحْوَالِ
 الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْحَقُّ بِذَلِكَ الْكَلَامَ فِي الْأِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ
 مِنْ بَدْعِ الْأِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يُجِبُ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينَهَا
 وَأَخْرُوجَ عَنْ الْعَهْدَةِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَلِكَ عَلَى الْأَمَّةِ وَفَضَارَى أَمْرِ الْأِمَامَةِ
 أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مُصْلِحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تُلْحَقُ بِالْعُقَايِدِ فَلِذَلِكَ أَخَقُّوْهَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْفَنِّ وَسَمَّوْا
 مَجْمُوعَةَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِمَامًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ عَلَى الْبِدْعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ
 بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ وَإِمَامًا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَالْخَوْصَ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي اثْبَاتِ الْكَلَامِ
 النَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَأَقْفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ
 كَابُنَ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَآخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ
 وَهَدَّيَهَا وَوَضَعَ الْمُقَدِّمَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدَلَّةُ وَالْإِنْتَظَارُ وَذَلِكَ مِثْلُ اثْبَاتِ
 الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخِلَاءِ وَأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدْلَتُهُمْ وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعًا لِلْعُقَايِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ
 اعْتِقَادِهَا لِتَتَوَقَّفَ تِلْكَ الْأَدَلَّةُ عَلَيْهَا وَأَنَّ بَطْلَانَ الدَّلِيلِ يُؤْذَنُ بِبَطْلَانِ الْمَدْلُولِ
 وَجُمِلَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُنُونِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ
 صَوَرَ الْأَدَلَّةَ تُعْتَبَرُ بِهَا الْأَقْسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا
 بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَا لَبَسَتْهَا الْعُلُومُ الْفَلَسَفِيَّةُ الْمُبَايِنَةُ لِلْعُقَايِدِ
 الشَّرْعِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ
 الْبَاقِلَانِيُّ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمُعَالِي فَأَمَلَى فِي الطَّرِيقَةِ كِتَابَ الشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ
 فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَامًا لِعُقَايِدِهِمْ ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ
 ذَلِكَ عُلُومُ الْمَنْطِقِ فِي الْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ
 قَانُونٌ وَمُعْيَارٌ لِلْأَدَلَّةِ فَقَطْ يُسَبَّرُ بِهِ الْأَدَلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسَبَّرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ
 الْقَوَاعِدِ الْمُقَدِّمَاتِ فِي فَنِّ الْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي

أَدَلَّتْ إِلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَّاسِفَةِ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ
وَالْإِلَهِيَّاتِ فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْمَنْطِقِ رَدَّهُمْ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَقِدُوا بَطْلَانَ
الْمَدْلُولِ مِنْ بَطْلَانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي فَصَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ مِنْ مَصْطَلَحِهِمْ
مُبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ الْأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةُ الْمُتَأَخَّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْفَلَّاسِفَةِ
فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ الْعَقَائِدِ لِتَنَاسُبِ الْكَثِيرِ
مِنْ مَذَاهِبِ الْمُتَبَدِّعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا أَلْعَنَى
الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَتَبِعَهُ الْإِمَامُ أَبُو الْخَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَّوْا أثرَهُمْ وَأَعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ
ثُمَّ تَوَعَّلَّ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مُخَالَطَةِ كُتُبِ الْفَلَّاسِفَةِ وَالتَّبَسُّعِ عَلَيْهِمْ شَأْنُ الْمَوْضُوعِ
فِي الْعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحِدًا مِنْ أَشْتِبَاهِ الْمَسَائِلِ فِيهِمَا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ
أَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكَائِنَاتِ وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ الْبَارِي وَصِفَاتِهِ
وَهُوَ نَوْعٌ اسْتَدْلَالُهُمْ غَالِبًا وَالْجِسْمُ الطَّبِيعِيُّ يَنْظُرُ فِيهِ الْفَلَسُوفُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ
بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ إِلَّا أَنَّ نَظَرَهُ فِيهَا مُخَالَفٌ لِنَظَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي
الْجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ وَالْمُتَكَلِّمُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ
وَكَذَلِكَ نَظَرُ الْفَلَسُوفِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي الْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِدَانِهِ
وَنَظَرُ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْوُجُودِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْجُودِ وَبِالْجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ
الْكَلَامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرْضِهَا صَحِيحَةً مِنَ الشَّرْعِ مِنْ
حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَيْهَا بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ فَيَرْفَعُ الْبِدْعَ وَتَزُولُ الشُّكُوكُ وَتُلْشِيهِ
عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ الْفَنِّ فِي حَدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ
صَدْرًا بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يَفْرِضُ الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهَضُ الْحُجُجَ وَالْأَدَلَّةَ عَلِمْتَ
حِينَئِذٍ مَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضُوعِ الْفَنِّ وَأَنَّهُ لَا يَعْدُوهُ وَلَقَدْ اخْتَلَطَتِ الطَّرِيقَتَانِ
عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخَّرِينَ وَالتَّبَسُّعُ مَسَائِلِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ بِحَيْثُ لَا يَتِمِيزُ أَحَدُ
الْفَنَيْنِ مِنَ الْآخَرِ وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْبَيضاوِيُّ فِي الطَّوَالِعِ
وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَأْلِيفِهِمْ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا
بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ لِلإِطْلَاعِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالْإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحُجَاجِ لَوْفُورِ ذَلِكَ
فِيهَا وَمَا مُحَازَاةُ طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ

لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا كِتَابُ الْإِزْشَادِ وَمَا حَدَا حَدْوَهُ وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ الرَّدِّ عَلَى
الْفَلَّاسَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ يَكْتُبُ الْغَزَالِي وَالْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا
مُخَالَفَةٌ لِلْإِصْلَاحِ الْقَدِيمِ فَلَيْسَ فِيهَا مِنْ الْأَخْتِلَاطِ فِي الْمَسَائِلِ وَالْإِلْتِبَاسِ فِي
الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ
هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذِ
الْمُحَدِّثُ وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ أَنْقَرُوا وَالْأئِمَّةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كُنُونًا شَأْنُهُمْ فِيمَا كَتَبُوا
وَدَوَّنُوا وَالْأَدَلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ نَيْمًا اخْتَجَرُوا إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا وَمَا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا
إِلَّا كَلَامٌ نَزَّهَ الْبَارِي عَنْ كَثِيرٍ إِيَّامَاتِهِ وَإِطْلَافِهِ وَلَقَدْ سَأَلَ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ
قَوْمٍ مِنْهُمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ فَقِيلَ قَوْمٌ يُزَوِّهُنَ اللَّهُ
بِالْأَدَلَّةِ عَنْ صِفَاتِ الْخُدُوثِ وَسِمَاتِ النِّقْصِ فَقَالَ نَفِي الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ
لَكِنْ فَائِدَتُهُ فِي آحَادِ النَّاسِ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ السُّنَّةِ الْجَهْلُ
بِالْحُجَجِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

الفصل الحادي عشر

في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثَةِ فِي السَّلَمَةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُئِمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةً الْحَقِّ
وَالْهُدَايَةِ وَأَصْلُهَا الْعُكُوفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِعْرَاضُ عَنْ
زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَالزُّهْدُ فِيمَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْإِنْفِرَادُ
عَنِ الْخَلْقِ فِي الْخُلُوعِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ فَلَمَّا فَشَا الْإِقْبَالُ
عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَحَّ النَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ الدُّنْيَا اخْتَصَّ الْمُقْبِلُونَ
عَلَى الْعِبَادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَقَالَ الْفُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَا يَشْهَدُ لِهَذَا الْأَسْمِ
اِشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ وَمَنْ قَالَ اِشْتِقَاقُهُ مِنَ الصَّفَا
أَوْ مِنَ الصِّفَةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ الْغَوِيِّ قَالَ وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ
يُخْتَصُّوا بِلَبْسِهِ قُلْتُ وَالْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِالِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الصُّوفِ وَهُمْ فِي الْغَالِبِ
مُخْتَصُّونَ بِلَبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لُبْسِ فَاخِرِ الثِّيَابِ إِلَى لُبْسِ الصُّوفِ

فَلَمَّا اخْتَصَّ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبِ الزُّهْدِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ اخْتَصَّوْا
بِمَا خَذَ مُدْرَكَةٌ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ
بِالْإِدْرَاكِ وَالْإِدْرَاكُ تَوْعَانُ إِدْرَاكِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَالْوَهْمِ
وَالْإِدْرَاكُ لِلْأَحْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالرِّفَى وَالْغَضَبِ
وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَالرُّوحُ الْعَاقِلُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنَشَأُ مِنْ
إِدْرَاكَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأَحْوَالٍ وَهِيَ الَّتِي يُمَيَّزُ بِهَا الْإِنْسَانُ وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضِ
كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْفَرَحِ وَالْحُزْنُ عَنِ إِدْرَاكِ الْمَوْلَمِ أَوِ الْمُتَلَذِّذِ بِهِ
وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحَمَامِ وَالْكَسَلُ عَنِ الْأَعْيَاءِ وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا
يُدَّ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ نَتِيجَةٌ تِلْكَ الْجُحَادَةُ وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ
تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْسُخَ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا
تَكُونَ صِنْفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ كَسَلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْمَقَامَاتِ وَلَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ
وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلْسَّعَادَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ
أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَالْمُرِيدُ لَا يَدُلُّهُ مِنَ التَّرَقِّي فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلُهَا
كُلُّهَا الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَيَتَقَدَّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا وَتَنَشَأُ عَنْهَا الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ
وَالنَّاتِجُ وَتَمَرَاتُ ثُمَّ تَنَشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ وَإِذَا وَقَعَ
تَقْصِيرٌ فِي النَّتِيجَةِ أَوْ خَلَلَ فَتَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ قَبْلِ التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ وَكَذَلِكَ
فِي الْخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ فَلِهَذَا يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي
سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ النَّاتِجِ عَنِ الْأَعْمَالِ ضَرُورِيٌّ وَفُضُورُهَا
مِنْ الْخَلَلِ فِيهَا كَذَلِكَ وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ بِدَوْقِهِ وَيَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَسْبَابِهِ وَلَا يُشَارِكُهُمْ
فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ عَنْ هَذَا كَانَتْهَا شَامِلَةً وَعَابَةً أَهْلَ الْعِبَادَاتِ
إِذَا لَمْ يَنْتَهُوا إِلَى هَذَا النَّوعِ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِالطَّاعَاتِ مُخْلِصَةً مِنْ نَظَرِ الْفَقْهِ فِي الْأَجْزَاءِ
وَالْأَمْثَالِ وَهَؤُلَاءِ يَحْتَوْنَ عَنْ نَتَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ لِيَطَاعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنْ
التَّقْصِيرِ أَوْ لَا فَظَهَرَ أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالْأَعْمَالِ
وَالْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْ الْجُحَادَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُّ لِلْمُرِيدِ

مَقَامًا يَتَرَقَّى مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ آدَابٌ مَخْصُوصَةٌ بِهِمْ وَأَصْطِلَاحَاتٌ فِي
الْفَنِّ تَدُورُ بَيْنَهُمْ إِذَا الْأَوْضَاعُ اللُّغَوِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْمَعَانِي الْمَتَعَارِفَةِ فَإِذَا عَرَضَ مِنَ
الْمَعَانِي مَا هُوَ غَيْرُ مَتَعَارِفٍ أَصْطَلَحْنَا عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِلَفْظٍ يَتَسَرَّ فَيُفْهَمُ مِنْهُ فَهَذَا
أَخْصَصْ هَؤُلَاءِ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ لِوَاحِدٍ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الْكَلَامُ
فِيهِ وَصَارَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٌ مَخْصُوصٌ بِالْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَتَا وَهِيَ الْأَحْكَامُ
الْعَامَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَصِنْفٌ مَخْصُوصٌ بِالْقَوْمِ فِي الْقِيَامِ بِهِذِهِ
الْمُجَاهِدَةِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَيْهَا وَالْكَلَامُ فِي الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الْعَارِضَةِ فِي طَرِيقِهَا
وَكَيْفِيَّةِ التَّرَقِّي مِنْهَا مِنْ ذَوْقٍ إِلَى ذَوْقٍ وَشَرَحَ الْأَصْطِلَاحَاتِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَهُمْ فِي
ذَلِكَ فَلَمَّا كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدَوِّنَتْ وَأُلْتُ الْفُقَهَاءُ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولُهُ وَالْكَلَامُ وَالتَّفْسِيرُ
وغير ذلك كَتَبَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي طَرِيقِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ فِي
الْوَرَعِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ فِي الْأَخْذِ وَالْتِرْكِ كَمَا فَعَلَهُ الْقُشَيْرِيُّ فِي كِتَابِ
الرِّسَالَةِ وَالسَّهْرُورِيُّ فِي كِتَابِ عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ وَأَمْثَالُهُمْ وَجَمَعَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ
بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كِتَابِ الْأَحْيَاءِ فَدَوَّنَ فِيهِ أَحْكَامَ الْوَرَعِ وَالْإِقْتِدَاءِ ثُمَّ بَيَّنَّ آدَابَ
الْقَوْمِ وَسَانَهُمْ وَشَرَحَ أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي عِبَارَاتِهِمْ وَصَارَ عِلْمُ التَّصَوُّفِ فِي الْمِلَّةِ عِلْمًا
مُدَوَّنًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الطَّرِيقَةُ عِبَادَةً فَقَطْ وَكَانَتْ أَحْكَامُهَا إِنَّمَا تُتْلَقَى مِنْ صُدُورِ
الرَّجَالِ كَمَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ الَّتِي دَوِّنَتْ بِالْكِتَابِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ
وَالْأُصُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمُجَاهِدَةَ وَالْخُلُوعَ وَالذِّكْرَ يَتَّبِعُهَا غَالِبًا كَشَفُ
حِجَابِ الْحُسْنِ وَالْإِطْلَاعُ عَلَى عَوَالِمٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ الْحُسْنِ إِدْرَاكُ شَيْءٍ مِنْهَا
وَالرُّوحُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَسَبَبُ هَذَا الْكَشَفِ أَنَّ الرُّوحَ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْحُسْنِ
الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ ضَعُفَتْ أَحْوَالُ الْحُسْنِ وَقَوِيَتْ أَحْوَالُ الرُّوحِ وَغَلَبَ سُلْطَانُهُ
وَتَجَدَّدَ نُشُوهُهُ وَأَعَانَ عَلَى ذَلِكَ الذِّكْرُ فَإِنَّهُ كَالغِذَاءِ لِتَنْمِيَةِ الرُّوحِ وَلَا يَزَالُ فِي نُمُوٍ
وَتَرْيُدٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ شَهُودًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عِلْمًا وَيَكْشِفُ حِجَابَ الْحُسْنِ وَيُثَبِّتُ وَجُودَ
النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ فَيَتَعَرَّضُ حِينَئِذٍ لِلْمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ
وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْفَتْحِ الْإِلَهِيِّ وَتَقَرُّبُ ذَاتِهِ فِي تَحْقِيقِ حَقِيقَتِهَا مِنَ الْأَفْنِ الْأَعْلَى
أَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَهَذَا الْكَشَفُ كَثِيرٌ مَا يَعْزُضُ لَأَهْلِ الْمُجَاهِدَةِ فَيَدْرِكُونَ مِنْ حَقَائِقِ

الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الوافات قبل وقوعها وتصرفون
 بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم فالعظماء منهم
 لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم
 فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك خنة ويتعدون منه إذا هاجمهم وقد كان
 الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه الجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات
 أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي
 رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة
 القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم ثم إن قوما من المتأخرين
 انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق
 الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح
 العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها
 فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا
 ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى الطش هكذا قال الغزالي
 رحمه الله في كتاب الأحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة ثم إن هذا الكشف
 لا يكون صحيحا كاملا عندهم إلا إذا كان ناشئا عن الاستقامة لأن الكشف قد
 يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم
 من المرتاضين وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله أن المرأة
 الصفيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة وحوزي بها جهة المرئي فإنه يشكّل فيه معوجا
 على غير صورته وإن كانت مسطحة تشكّل فيها المرئي صحيحا فالاستقامة للنفس
 كالانسياط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع
 من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح
 والعرش والكروني وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن
 فهم أدواقهم ومواجدهم في ذلك وأهل الفتيا بمنكر عليهم ومسلم لهم وليس
 البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق ردا وقبولا إذ هي من قبيل الوجدانيات وربما
 قصد بعض المصنفين بيان مذهبيهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتى بالاعمض

فَالْأَغْمَضُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْأَصْطِلَاحَاتِ وَالْعُلُومِ كَمَا فَعَلَ الْفَرَّغَانِيُّ شَارِحُ
 قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ فِي الدِّبَاجَةِ الَّتِي كَتَبَهَا فِي صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْحِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي
 صُدُورِ الْوُجُودِ عَنِ الْفَاعِلِ وَتَرْتِيبِهِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ صَادِرٌ عَنْ صِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي
 هِيَ مَظْهَرُ الْأَحَدِيَّةِ وَهُمَا مَعًا صَادِرَانِ عَنِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْوَحْدَةِ لَا
 غَيْرُ وَيُسَمَّوْنَ هَذَا الصُّدُورَ بِالْتَّجَلِّيِ وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ التَّجَلِّيَّاتِ عِنْدَهُمْ تَجَلِّيُ الذَّاتِ عَلَى نَفْسِهِ
 وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْكَمَالَ بِإِفَاضَةِ الْإِبْجَادِ وَالظُّهُورِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَتَنَاقَلُونَهُ
 كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَخْبَيْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُونِي وَهَذَا الْكَمَالُ فِي
 الْإِبْجَادِ الْمُتَنَزِّلِ فِي الْوُجُودِ وَتَفْصِيلِ الْحَقَائِقِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْحَضَرَةِ
 الْكَمَالِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَفِيهَا حَقَائِقُ الصِّفَاتِ وَاللُّوْحِ وَالْقَلَمِ وَحَقَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَالرُّسُلِ أَجْمَعِينَ وَالْكَمَلُ مِنْ أَهْلِ الْمَلَكَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ تَفْصِيلُ الْحَقِيقَةِ
 الْمُحَمَّدِيَّةِ وَيَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ حَقَائِقُ أُخْرَى فِي الْحَضَرَةِ الْمُبَانِيَّةِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ
 الْمَثَالِ ثُمَّ عَنْهَا الْعَرْشُ ثُمَّ الْكَرْمِيُّ ثُمَّ الْأَفْلَاكُ ثُمَّ عَالَمُ الْعَنَاصِرِ ثُمَّ عَالَمُ التَّرَكِيبِ هَذَا
 فِي عَالَمِ الرُّتْقِ فَإِذَا تَجَلَّتْ فِيهِ فِي عَالَمِ الْفَتْقِ وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبُ أَهْلِ التَّجَلِّيِ
 وَالْمَظَاهِرِ وَالْحَضَرَاتِ وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ أَهْلُ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِعُمُومِهِ
 وَاعْتِلَافِهِ وَبَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَلَامَ صَاحِبِ الْمَشَاهِدَةِ وَالْوُجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ وَرُبَّمَا
 انْكَرَ بِظَاهِرِ الشَّرْعِ هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ
 الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيُ أَغْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعَقُّلِهِ وَتَفَارُيعِهِ يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ
 قُوَى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادِّهَا وَالْعَنَاصِرُ إِنَّمَا كَانَتْ
 بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَادَّتُهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وُجُودُهَا ثُمَّ إِنَّ الْمُرَكَّبَاتِ
 فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرَكِيبُ كَالْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى
 الْعَنَاصِرِ بِيُولَاهَا وَزِيَادَةُ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ
 وَزِيَادَةُ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ الْفَلَكَ يَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ
 الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ وَكَذَا الذَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَمَاعَةُ لِلْكُلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ
 هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي اثْبَتَتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّيَّةً وَجُزْئِيَّةً وَجَمَعَتْهَا وَأَحَاطَتْ
 بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ لَا مِنْ جِهَةِ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْخِفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ

جِهَةِ الْمَادَّةِ فَالْكُلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الذَّاتِ الْأَلِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ
 وَلَا يُعْتَبَرُ هُوَ الْمَفْصَلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ إِلَّا تَرَى أَنَّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِيهَا وَكَأَنَّهُ
 يَكُونُهَا فَتَارَةً يَمْلُؤُهَا بِالْجِنْسِ مَعَ النَّوعِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَتَارَةً بِالْكُلِّ
 مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالْكُرَّةِ بِوَجْهِ
 مِنَ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عَنْدهُمْ الْوُجُوهُ وَالْخِيَالُ وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ
 فِي تَقْرِيرِهِ هَذَا الْمَذْمُومُ أَنَّ حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَابِهُةٌ بِمَا نَقُولُهُ لِلْحُكَمَاءِ فِي
 الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وُجُودَهَا مَشْرُوطٌ بِالضَّوِّ فَإِذَا عَدِمَ الضَّوُّ لَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً
 بِوَجْهِ وَكَذَا عَنْدهُمْ الْمَوْجُودَاتُ الْمُحْسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْعَقْلِيِّ
 فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَفْصَلُ كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمُدْرِكِ
 الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ الْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ
 وَاللِّينُ بَلْ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ إِنَّمَا وَجِدَتْ لِوُجُودِ الْخَوَاسِ
 الْمُدْرِكَةِ لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي الْمُدْرِكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي
 الْمُدَارِكِ فَقَطْ فَإِذَا فَقِدَتْ الْمُدَارِكُ الْمَفْصَلَةَ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ
 أَنَا لَا غَيْرُهُ وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَفَقَدَ الْحِسَّ الظَّاهِرَ فَقَدْ كَلَّ
 مُحْسُوسٌ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يَفْصِلُهُ لَهُ الْخِيَالُ قَالُوا فَكَيْذَا الْيَقِظَانُ إِنَّمَا يَعْتَبَرُ تِلْكَ
 الْمُدْرِكَاتُ كُلُّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قُدِّرَ فَقْدُ مُدْرِكِهِ فَقَدْ تَفْصِيلُ
 وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمَوْجُودُ لَا الْوُجُوهُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ هَذَا
 مُلْخَصُ رَأْيِهِمْ عَلَى مَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ السَّقُوطِ لِأَنَّا نَقْطَعُ بِوُجُودِ
 الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ بَقِينَا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ أَعْيُنِنَا وَبِوُجُودِ السَّمَاءِ الْمُظَلَّةِ
 وَالْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا وَالْإِنْسَانِ قَاطِعٍ بِذَلِكَ وَلَا يُكَابِرُ أَحَدٌ
 نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ
 الْكَشْفِ رُبَّمَا يَعْزِضُ لَهُ تَوْهَمُ هَذِهِ الْوَحْدَةِ وَيَسْمَى ذَلِكَ عَنْدهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ
 يَتَرَقَّى عَنْهُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْبِرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ
 الْعَارِفِ الْمُحَقِّقِ وَلَا بَدَلَ لِلْمُرِيدِ عَنْدهُمْ مِنْ عَقَبَةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقَبَةُ صَعْبَةٍ لِأَنَّهُ يُخْضِعُ
 عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ وُقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخْسَرُ صَفَقَتَهُ فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ثُمَّ

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكَشْفِ وَفِيمَا وَرَاءَ الْحُسْنِ
 تَوَعَّلُوا فِي ذَلِكَ فَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى الْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَمَلَأُوا
 الصُّحُفَ مِنْهُ مِثْلُ الْهَرَوِيِّ فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ لَهُ وَغَيْرُهُ وَتَبِعَهُمُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ
 سَبْعِينَ وَتَلَمِيذُهُمَا ابْنُ الْعَفِيفِ وَابْنُ الْفَارِضِ وَالْحُجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِي قَصَائِدِهِمْ وَكَانَ
 سَلَفُهُمْ مَخَالِطِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ الدَّائِنِينَ أَيْضًا بِالْحُلُولِ وَالْإِلَهِيَّةِ
 الْأَلَمَةِ مَذْهَبًا لَمْ يَعْرِفْ لِأَوَّلِهِمْ فَأَشْرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَذْهَبَ الْآخَرِ وَاخْتَلَطَ
 كَلَامُهُمْ وَتَشَابَهَتْ عَقَائِدُهُمْ وَظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَمَعْنَاهُ رَأْسُ
 الْعَارِفِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاوِيَهُ أَحَدٌ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبِضَهُ
 اللَّهُ ثُمَّ يُوَرِّثَ مَقَامَهُ لِآخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ
 الْأَشَارَاتِ فِي فُصُولِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا فَقَالَ جُلُّ جَنَابِ الْحَقِّ أَنَّ يَكُونَ شَرْعُهُ لِكُلِّ وَارِدٍ
 أَوْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ وَهَذَا كَلَامٌ لَا يَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا دَلِيلٌ
 شَرْعِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُطَابَةِ وَهُوَ بَعِيْنُهُ مَا نَقُولُهُ الرَّافِضَةُ وَدَانُوا بِهِ ثُمَّ قَالُوا
 بِتَرْتِيبِ وَجُودِ الْأَبْدَالِ بَعْدَ هَذَا الْقُطْبِ كَمَا قَالَهُ الشَّيْخَةُ فِي النُّبُكَاءِ حَتَّى إِذَا نَهَضُوا
 اسْتَدْوُوا لِبَاسَ خُرْفَةٍ التَّصَوُّفِ لِيَجْعَلُوهُ أَصْلًا لَطَرِيقَتِهِمْ وَتَخْلِيَهُمْ رَفْعُهُ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا وَلَا فَعْلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ
 بِتَخْلِيَةٍ وَلَا طَرِيقَةٍ فِي لِبَاسٍ وَلَا حَالٍ بَلْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَزْهَدَ
 النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكْثَرُهُمْ عِبَادَةً وَلَمْ يُخْتَصَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
 فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ يُؤَثِّرُ عَنْهُ فِي الْخُصُوصِ بَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أَسْوَدَ فِي الدِّينِ وَالزُّهْدِ
 وَالْمُجَاهِدَةِ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَمَا شَحَنُوا
 كُتُبَهُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِسَلَفِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِيهِ كَلَامٌ بِنَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَإِنَّمَا هُوَ
 مَا خُذَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخَةِ وَالرَّافِضَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي كُتُبِهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ثُمَّ إِنْ
 كَثُرَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفَتْوَا اتُّدْبِئُوا لِلرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَاتِ
 وَأَمْثَالِهَا وَشَمَلُوا بِالْتَّكْذِيرِ سَائِرَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَةِ وَالْحَقُّ أَنَّ كَلَامَهُمْ مَعَهُمْ
 فِيهِ تَفْصِيلٌ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ أَحَدُهَا الْكَلَامُ عَلَى الْمُجَاهِدَاتِ وَمَا
 يَحْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ وَخُصَّاسَةِ النَّفْسِ عَلَى الْأَعْمَالِ لِيَحْصُلَ تِلْكَ الْأَذْوَاقِ الَّتِي

تَصِيرُ مَقَامًا وَيَتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَا هُ وَثَانِيهَا الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَالْحَقِيقَةِ
 الْمُدْرَكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مِثْلَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْنِيِّ وَالْمَلَائِكَةِ
 وَالْوَحْيِ وَالنَّبُوءَةِ وَالرُّوحِ وَحَقَائِقِ كُلِّ مَوْجُودٍ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدٍ وَتَرْكِيبِ الْأَكْوَانِ فِي
 صُدُورِهَا عَنْ مَوْجُودِهَا وَتَكْوِينِهَا كَمَا مَرَّ وَثَانِيهَا التَّصَرُّفَاتُ فِي الْعَوَالِمِ وَالْأَكْوَانِ بِأَنْوَاعِ
 الْكَرَامَاتِ وَرَابِعُهَا الْفَاطُ مَوْهَمَةُ الظَّاهِرِ صَدَرَتْ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ أَيْمَةِ الْقَوْمِ يَعْبُرُونَ
 عَنْهَا فِي أَصْطِلَاحِهِمْ بِالشَّطْحَاتِ تُسْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا فَمُنْكَرٌ وَمُخْسِنٌ وَمَتَأَوَّلٌ فَأَمَّا الْكَلَامُ
 فِي الْمَجَاهِدَاتِ وَالْمَقَامَاتِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ فِي تَنَائُجِهَا وَخُحَّاسَةِ النَّفْسِ
 عَلَى التَّقْصِيرِ فِي أَسْبَابِهَا فَأَمْرٌ لَا مَدْفَعَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَأَذْوَاقُهُمْ فِيهِ صَحِيحَةٌ وَالتَّحْقِيقُ بِهَا هُوَ
 عَيْنُ السَّعَادَةِ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي كَرَامَاتِ الْقَوْمِ وَأَخْبَارِهِمْ بِالْمُعْجِبَاتِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي
 الْكَائِنَاتِ فَأَمْرٌ صَحِيحٌ غَيْرُ مُنْكَرٍ وَإِنْ مَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى انْكَارِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ
 الْحَقِّ وَمَا أَخْتَجُّ بِهِ الْأُسْتَاذُ أَبُو سَمَاقٍ لِإِسْفَرَائِيلَ مِنْ أَيْمَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى انْكَارِهَا
 لِالْتِمَاسِهَا بِالْمُعْجَزَةِ فَقَدْ فَرَّقَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بَيْنَهُمَا بِالْعَدِيدِ وَهُوَ دَعْوَى
 وَفُوعِ الْمُعْجَزَةِ عَلَى وَفْقٍ مَا جَاءَ بِهِ قَالُوا ثُمَّ إِنَّ وَفُوعَهَا عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرُ
 مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجَزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ فَإِنْ صَفَتْ نَفْسُهَا التَّصَدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ
 الْكَاذِبِ لَتَبَدَّلَتْ صِفَتُهَا وَهُوَ مُحَالٌ هَذَا مَعَ أَنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِوُفُوعِ الْكَثِيرِ
 مِنْ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ وَإِنْكَارُهَا تَوْعٌ مُكَابَرَةٌ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَأَكْبَارِ السَّالَفِ كَثِيرٌ
 مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَإِعْطَاءِ حَقَائِقِ الْعُلُوبَاتِ
 وَتَرْكِيبِ صُدُورِ الْكَائِنَاتِ فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ تَوْعٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ لِمَا أَنَّهُ وَجَدَانِيٌّ
 عِنْدَهُمْ وَفَاقِدُ الْوُجْدَانِ عِنْدَهُمْ يَمْعَزِلُ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ فِيهِ وَاللُّغَاتُ لَا تُعْطَى لَهُ دَلَالَةٌ عَلَى
 مُرَادِهِمْ مِنْهُ لِأَنَّهُمَا لَمْ تَوْضَعْ لِلْمُتَعَارِفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْخُصُوسَاتِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْرَضَ
 لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَتَرَكُهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمَّ شَيْءٌ مِنْ
 هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوُجْهِ الْمَوْافِقِ لظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرَمَ بِهَا سَعَادَةً وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ
 الْمَوْهَمَةُ الَّتِي يَعْبُرُونَ عَنْهَا بِالشَّطْحَاتِ وَيُوَاطِّدُهَا أَهْلُ الشَّرْعِ فَاعْلَمُوا أَنَّ
 الْأَنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ الْحُسْنِ وَالْوَاردَاتُ تَمْلِكُهُمْ حَتَّى
 يَنْطَقُوا عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبُ الْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَالْعَجُوزُ مَعْدُورٌ وَمَنْ

عَلِمَ مِنْهُمْ فَضْلُهُ وَاقْتَدَاوْهُ حُمِلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هَذَا وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ
 الْمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِفَقْدَانِ الْوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَيِّ يَزِيدُ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَضْلُهُ
 وَلَا اشْتَهَرَ فَمَوَازِدُهُ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا عَلَى
 تَأْوِيلِ كَلَامِهِ وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلَيْهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ فَمَوَازِدُهُ
 أَيْضًا وَلِهَذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكْبَرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْحُلَاجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي حُضُورِ وَهُوَ مَالِكٌ
 لِحَالِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّسَالَةِ أَعْلَامُ الْمِلَّةِ الَّذِينَ أَشْرْنَا إِلَيْهِمْ
 مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَرِصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا
 هُمْهُمْ الْإِتْبَاعُ وَالْإِقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ
 يَحْفَلْ بِهِ بَلْ يَفْرُونَ مِنْهُ وَيَرْوُونَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمَحْنِ وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ
 النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَتَحَصَّرُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ وَعَلِمَ اللَّهُ أَوْسَعُ
 وَخَلَقَهُ أَكْبَرُ وَشَرَّيَعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَأَ فَلَا يَنْطَقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُدْرِكُونَ بَلْ حَظَرُوا
 الْخُلُوصَ فِي ذَلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخُلُوصِ فِيهِ
 وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ
 الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ
 الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتِ الْعُلُومُ صَنَائِعَ
 وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّافِ كَمَا هُوَ فِي
 الْخُلْفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلِ الْإِنْسَانُ إِلَى كُنْهَاءِ فِيهِ
 بِكَلَامِ الْمُعْبِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَالرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
 وَلَا بَدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ
 فِي الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُدْرِكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا
 الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا

الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مِنَ الْوُحْيِ الرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَاتِي الصُّبْحِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَقْتَلَ مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ
 رُؤْيَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَسْتَبْشِرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ الدِّينِ وَإِعْزَازُهُ وَآمَانَةُ
 السَّبَبِ فِي كَوْنِ الرُّؤْيَا مُدْرِكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ وَهُوَ الْبَخَارُ اللَّطِيفُ الْمُنْبَعِثُ
 مِنْ تَجْوِيفِ الْقَلْبِ الْحَمِيمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي الشَّيْرِيَانَاتِ وَمَعَ الدَّمِ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ وَبِهِ
 تَكْمُلُ أَفْعَالُ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا فَإِذَا أَدْرَكَهُ الْمَلَالُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي
 الْأَحْسَاسِ بِالْحَوَاسِ الْخَمْسِ وَتَضَرُّفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَغَشْيِ سَطْحِ الْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ
 مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ انْحَبَسَ الرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ الْقَلْبِيِّ فَيَسْتَقِمُّ بِذَلِكَ
 لِمُعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى النَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي
 أَوَّلِ الْكِتَابِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ الْعَاقِلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالرُّوحُ
 الْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِحَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ الْأِدْرَاكِ وَإِنَّمَا
 يَمْنَعُ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِالْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِجَابِ الْأَشْتَغَالِ بِالْبَدَنِ وَقُوَاهُ وَحَوَاسِهِ
 فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هَذَا الْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْأِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ
 كُلَّ مُدْرِكٍ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا خَفَّتْ شَوَاعِلُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لِحَقِّهِ مِنْ عَالَمِهِ
 بِقَدَرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاعِلُ الْحِسِّ الظَّاهِرِ كُلُّهَا وَهِيَ الشَّغْلُ
 الْأَعْظَمُ فَاسْتَعَدَّ لِاقْبُولِ مَا هُنَاكَ مِنَ الْمَدَارِكِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ عَالَمِهِ وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يُدْرِكُ
 مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ إِلَى بَدَنِهِ إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَرَّفَ إِلَّا
 بِالْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ الدَّمَاعِيَّةُ وَالْمَتَصَرِّفُ مِنْهَا
 هُوَ الْخَيَالُ فَإِنَّهُ يَنْزِعُ مِنَ الصُّورِ الْحَسُوسَةِ صُورًا خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى الْحَافِظَةِ
 تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ النَّظَرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ وَكَذَلِكَ تَجَرَّدَ النَّفْسُ مِنْهَا
 صُورًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَقَّى التَّجَرُّدُ مِنَ الْحَسُوسِ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْخَيَالِ
 وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا وَلِذَلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ النَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَفْقَتُهُ إِلَى الْخَيَالِ
 فِي صُورَةٍ بِالصُّورَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ فَيَرَاهُ النَّائِمُ كَأَنَّهُ مُحْسُوسٌ
 فَيَتَنَزَّلُ الْمُدْرِكُ مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ إِلَى الْحِسِّيِّ وَالْخَيَالِ أَيْضًا وَاسِطَةً هَذِهِ حَقِيقَةُ

الرُّؤْيَا وَمِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ
الْكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا صُورٌ فِي أَلْخِيَالِ حَالَةِ النَّوْمِ وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ الصُّورُ
مُنْزَلَةً مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ الْمُدْرِكِ فَهُوَ رُؤْيَا وَإِنْ كَانَتْ مَأْخُودَةً مِنَ الصُّورِ الَّتِي
فِي الْحَافِظَةِ الَّتِي كَانَ أَلْخِيَالُ أَوْدَعَهَا إِيَّاهَا مِنْذُ الْبَقِظَةِ فِيهِ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَأَمَّا مَعْنَى
التَّعْبِيرِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الرُّوحَ الْعَقْلِيَّ إِذَا أَدْرَكَ مُدْرَكَهُ وَأَلْقَاهُ إِلَى أَلْخِيَالِ فَصُورُهُ فَإِنَّمَا
بُصُورُهُ فِي الصُّورِ الْمُنَاسِبَةِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى بَعْضُ الشَّيْءِ كَمَا يَدْرِكُ مَعْنَى السُّلْطَانِ
الْأَعْظَمِ فَبُصُورُهُ أَلْخِيَالُ بَصُورَةِ الْبَحْرِ أَوْ يَدْرِكُ الْعِدَاةَ فَبُصُورُهَا أَلْخِيَالُ فِي صُورَةِ
الْحَيَّةِ فَإِذَا اسْتَقْبَطَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحْرَ أَوْ الْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ الْمَعْبُورُ
بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ الْبَحْرَ صُورَةُ خُصُوسَةٍ وَأَنَّ الْمُدْرِكَ وَرَاءَهَا وَهُوَ
يَهْتَدِي بِقِرَائِنٍ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ الْمُدْرِكَ فَيَقُولُ مِثْلًا هُوَ السُّلْطَانُ لِأَنَّ الْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ
يُنَاسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا السُّلْطَانُ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ يُنَاسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْعَدُوِّ لِعَظَمِ ضَرَرِهَا
وَكَذَا الْأَوَانِي تُشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَّةٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنْ الْمَرْبِيِّ مَا يَكُونُ صَرِيحًا
لَا يَنْتَقِرُ إِلَى تَعْبِيرٍ لَجَلَائِهَا وَوُضُوحًا أَوْ لِقُرْبِ الشَّبَهِ فِيهَا بَيْنَ الْمُدْرِكِ وَشَبْهِهِ وَلِهَذَا
وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ الرُّؤْيَا ثَلَاثُ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلَكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ
فَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ اللَّهِ هِيَ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا تَنْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَالَّتِي مِنَ الْمَلَكِ هِيَ الرُّؤْيَا
الضَّادَّةُ تَنْتَقِرُ إِلَى التَّعْبِيرِ وَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْأَضْغَاثُ وَأَعْلَمُ أَنَّ أَلْخِيَالَ
إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ الرُّوحُ مُدْرَكَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنْ
الْحِسُّ أَدْرَكَهُ قَطُّ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ فَلَا يُمْكِنُ مِنْ وَلَدِ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ السُّلْطَانُ
بِالْبَحْرِ وَلَا الْعَدُوَّ بِالْحَيَّةِ وَلَا الْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يَدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَإِنَّمَا يُصَوِّرُ
لَهُ أَلْخِيَالُ أَمْثَالِ هَذِهِ فِي شَبْهِهَا وَمُنَاسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَدَارِكِهِ الَّتِي هِيَ الْمَشْمُوعَاتُ
وَالْمَشْمُومَاتُ وَلِيَحْفَظَ الْمَعْبُورُ مِنْ مِثْلِ هَذَا قُرْبًا اِخْتَلَطَ بِهِ التَّعْبِيرُ وَفَسَدَ قَانُونُهُ ثُمَّ إِنْ
عَلِمَ التَّعْبِيرَ عَلِمَ يَقَوَانِينَ كَلِمَةً يَبْنِي عَلَيْهَا الْمَعْبُورُ عِبَارَةً مَا يَقْصُ عَلَيْهِ وَتَأْوِيلَهُ كَمَا
يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى السُّلْطَانِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْغَيْظِ وَفِي
مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْهَمِّ وَالْأَمْرِ الْفَادِحِ وَمِثْلُ مَا يَقُولُونَ الْحَيَّةُ تَدُلُّ
عَلَى الْعَدُوِّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ هِيَ كَاتِمٌ سِرٍّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ تَدُلُّ عَلَى

الْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَيَحْفَظُ الْمَعْبَرُ هَذِهِ الْقَوَانِينَ الْكُلِّيَّةَ وَيُعَبِّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا
تَقْتَضِيهِ الْقَرَأَنُ الَّتِي تَعَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينَ مَا هُوَ الْيَقِينُ بِالرُّؤْيَا وَتِلْكَ الْقَرَأَنُ مِنْهَا فِي
الْبَقْظَةِ وَمِنْهَا فِي النَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَقْدَحُ فِي نَفْسِ الْمَعْبَرِ بِالْخَاصَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلُّ
مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْعِلْمُ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ السَّافِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ
مِنْ أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْقَوَانِينَ وَتَنَاقَلَهَا النَّاسُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْفَتْ
الْكِرْمَانِي فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ آتَى الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُتَأَخِّرُونَ وَكَثُرُوا وَالْمُتَدَوِّلُ
بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ كُتِبَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ الْفَيْرَوَانِي مِنْ عُلَمَاءِ الْفَيْرَوَانِ مِثْلَ
الْمُسْتَعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ الْإِشَارَةِ لِلْسَّالِمِيِّ وَهُوَ عِلْمٌ مُفِيدٌ بِزُورِ النُّبُوَّةِ لِلْنَّاسِبَةِ الَّتِي
يَنْتَهَمَا كَمَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّهُ عَلَامُ الْغُيُوبِ

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فِيهِ غَيْرُ
مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ بَلْ يُوْجِهُ النَّظَرَ فِيهَا إِلَى أَهْلِ الْمَلِكِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا
وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْذُ كَانَ عَمْرَانُ الْخَلِيقَةِ وَتَسَمَّى هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومُ
الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ الْأَوَّلُ عِلْمُ الْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ
الذَّهْنَ عَنِ الْخَطَا فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْبُودَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَاصِلَةِ الْعَامَّةِ وَفَائِدَتُهُ
تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ فِيمَا يَلْتَمِسُهُ النَّازِرُ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا لِيَقِفَ عَلَى
تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي السَّكَائِنَاتِ بِدُنْتِهِ فِكْرُهُ ثُمَّ النَّظَرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي الْحَسُوسَاتِ
مِنَ الْأَجْسَامِ الْعُنْصَرِيَّةِ وَالْمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْأَجْسَامِ
الْفَلَكِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالنَّفْسِ الَّتِي تَنْبَعُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَيَسَمَّى
هَذَا الْفَنُّ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الثَّانِي مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ
الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّوهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيِّ وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْهَا وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ وَهُوَ
النَّازِرُ فِي الْمَقَادِيرِ وَيُسَمُّوهُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتَسَمَّى الْعَالِمُ أَوَّلُهَا عِلْمُ الْمُنْدَسَّةِ وَهُوَ
النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِمَّا الْمُنْفَصِلَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةٌ أَوْ الْمُتَّصِلَةِ
وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ السَّطْحُ أَوْ ذُو أبعادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ

الْجِسْمُ التَّعْلِيمِيُّ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْزِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ
 حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَانِيًا عِلْمُ الْأَرْتَمَاطِيْقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْزِضُ لِلْكَمِّ
 الْمُنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَارِضِ الْأَلْحَقَةِ وَثَالِثًا عِلْمُ
 الْمَوْسِيقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ نِسْبِ الْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْعَدَدِ وَتَمَرُّنُهُ
 مَعْرِفَةُ تَلَاْحِيْنِ الْغِنَاءِ وَرَابِعًا عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ الْأَشْكَالِ لِإِلْفَالَاكِ وَحَصْرُ أَوْضَاعِهَا
 وَتَعَدُّهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ السَّيَّارَةِ وَالْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 الْمَشَاهِدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فِهَذِهِ
 أَصُولُ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةُ الْمَنْطِقِ وَهُوَ الْمَقْدَمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ التَّعَالِيمُ فَلَا رَتَمَاطِيقِي
 أَوَّلًا ثُمَّ الْمُهَنْدِسَةُ ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْمَوْسِيقِي ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ الْأَلِهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 فُرُوعٌ تَنْفَرَعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْعَدَدِ عِلْمُ الْحِسَابِ
 وَالْفَرَائِضِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْهَيْئَةِ الْأَرْيَاحُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ حَرَكَاتِ
 الْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذَلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظَرُ فِي النُّجُومِ
 عَلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَتَحْنُ نَتَكَلِّمُ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا وَاعْلَمْ
 أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عُنِيَ بِهَا فِي الْأَجْيَالِ الَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ الْأَمْتَانِ الْعَظِيمَتَانِ فِي
 الدَّوْلَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَالرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ الْعُلُومِ نَاقِفَةً لَدَيْهِمْ عَلَى
 مَا بَلَّغْنَا لِمَا كَانَ الْعُمَرَانُ مَوْفُورًا فِيهِمْ وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَعَصَرُهُ لَهُمْ
 فَكَانَ لَهُنَا الْعُلُومُ بِحُورٍ زَاخِرَةٍ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكِلْدَانِيَيْنِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ
 مِنَ السَّرْيَانِيَيْنِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْقُبْطِ عِنَايَةً بِالسَّخْرِ وَالنَّجْمَةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الطَّلَاسِمِ
 وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُمْ الْأَمُّ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَأَخْصَصَ بِهَا الْقُبْطُ وَطَمَى بَحْرُهَا فِيهِمْ
 كَمَا وَقَعَ فِي الْمَتَلَوِّ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ السَّحْرَةِ وَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ
 مِنْ شَأْنِ الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَتَابَعَتِ الْمَلِكُ بِحَظَرِ ذَلِكَ وَتَحْرِيمِهِ فُدْرِسَتْ
 عُلُومُهُ وَبَطُلَتْ كَانَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُنْتَحِلُو هَذِهِ الصَّنَائِعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصَحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سُبُوفَ الشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنْ اخْتِبَارِهَا وَأَمَّا الْفَرَسُ
 فَكَانَ شَأْنُ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيمًا وَطَافُهَا مُتَسَعًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دُولُهُمْ
 مِنَ الضَّخَامَةِ وَاتِّصَالِ الْمَلِكِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حِينَ قَتَلَ الإسكندرُ دَارًا وَعَلَبَ عَلَى مَمْلَكَةِ الْكِينِيَّةِ فَاسْتَوَلَى عَلَى كُتُبِهِمْ وَعُلُومِهِمْ
 مِمَّا لَا يَأْخُذُهُ الْخَصْرُ وَلَمَّا فُتِحَتْ أَرْضُ فَارِسَ وَوَجَدُوا فِيهَا كُتُبًا كَثِيرَةً كَتَبَ سَعْدُ
 ابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِمَسْأَلَتِهِ فِي شَأْنِهَا وَتَقْيِيلِهَا لِلْمُسْلِمِينَ فَكَتَبَ
 إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ أَطْرَحُوا فِي الْمَاءِ فَإِنْ يَكُنْ مَا فِيهَا هَدًى فَقَدْ هَدَانَا اللَّهُ بِأَهْدَى مِنْهُ وَإِنْ
 يَكُنْ ضَلَالًا فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ فَطَرَحُوا فِي الْمَاءِ أَوْ فِي النَّارِ وَذَهَبَتْ عُلُومُ الْفَرَسِ فِيهَا
 عَنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْنَا. وَمَا الرُّومُ فَكَانَتْ الدَّوْلَةُ مِنْهُمْ أَيْوَانًا أَوَّلًا وَكَانَ لَهُذِهِ الْعُلُومُ
 بَيْنَهُمْ مَجَالٌ رَحْبٌ وَحَدِّهَا مُشَادِيرٌ مِنْ رِجَالِهِمْ مِثْلُ أَسَاطِينِ الْحِكْمَةِ وَغَيْرِهِمْ
 وَاخْتَصَّ فِيهَا الْمَشَاءُونَ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الرُّوَاقِ بِطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ فِي التَّلَامِيمِ كَانُوا يَقْرَأُونَ
 فِي رُوَاقٍ يُظْلِمُهُمْ مِنَ الشَّمْسِ وَالْبَرْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا وَاتَّصَلَ فِيهَا سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ عَلَى مَا
 يَزْعُمُونَ مِنْ لَدُنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ فِي تَلْمِيذِهِ بَقْرَاطَ الدِّنْ ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ أَفْلَاطُونُ ثُمَّ
 إِلَى تَلْمِيذِهِ أَرِسْطُو ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ الإسكندرُ الأفروديسي وَتَامِسْطِيونَ وَغَيْرِهِمْ
 وَكَانَ أَرِسْطُو مُعَلِّمًا لِلإسكندرِ مَلِكِهِمْ الَّذِي غَابَ الْفَرَسُ عَلَى مَلِكِهِمْ وَانْتَزَعَ
 الْمُلْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَكَانَ أَرِسْطُو فِي هَذِهِ الْعُلُومِ قَدَمًا وَابَعْدَهُمْ فِيهِ صَيْتًا وَكَانَ يُسَمَّى
 الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ فَطَارَ لَهُ فِي الْعَالَمِ ذِكْرٌ. وَلَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْيُونَانِ وَصَارَ الْأَرْضُ لِلْقِيَاصِرَةِ
 وَآخَذُوا بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ هَجَرُوا تِلْكَ الْعُلُومَ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمِلَّةُ وَالشَّرَائِعُ فِيهَا وَبَقِيَتْ
 فِي حِفْظِهَا وَدَوَائِبِهَا مُخَلَّدَةً بَاقِيَةً فِي خَزَائِنِهِمْ قَدْ مَلَكُوا السَّامَ وَكُتِبَ هَذِهِ الْعُلُومُ
 بَاقِيَةً فِيهِمْ ثُمَّ جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلَامِ وَكَانَ لِأَهْلِ الظُّهُورِ الَّذِي لَا كِفَاءَ لَهُ وَابْتَزُوا الرُّومَ
 مَلِكَهُمْ فِيمَا ابْتَزَوْهُ لِلْأَمْرِ وَأَبْدَأَ أَمْرُهُمْ بِالسَّدَاجَةِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الصَّنَائِعِ حَتَّى إِذَا
 تَبَحَّجَ مِنَ السُّلْطَانِ وَالدَّوْلَةِ وَآخَذَ الْحِضَارَةَ بِالْحُطِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِعَرَبِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ
 وَتَفَنَّنُوا فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ تَشَوُّقًا إِلَى الإِطْلَاعِ عَلَى هَذِهِ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ بِمَا
 سَمِعُوا مِنَ الْأَسَافَةِ وَالْأَقْسَةِ الْمُعَاهِدِينَ بَعْضُ ذِكْرٍ مِنْهَا وَبِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ
 فِيمَا قَبِعَتْ أَبُوجَعْفَرُ الْمَنْصُورُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بَكْتَبُ التَّعَالِيمِ مَتَرَجِمَةً
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكِتَابِ أَوْقَلِيدِسَ وَبَعْضِ كُتُبِ الطَّبِيعِيَّاتِ فَقَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ وَاطَّاعُوا عَلَى
 مَا فِيهَا وَازْدَادُوا حِرْصًا عَلَى الظَّفَرِ بِمَا بَقِيَ مِنْهَا وَجَاءَ الْمَأْمُونُ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَتْ لَهُ فِي
 الْعِلْمِ رَغْبَةٌ بِمَا كَانَ يَنْتَحِلُهُ فَأَبْعَثَ لَهُذِهِ الْعُلُومِ حِرْصًا وَأَوْفَدَ الرُّسُلَ عَلَى مَلُوكِ الرُّومِ

فِي اسْتِغْرَاجِ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ وَانْتِسَاحِهَا بِالْحِطِّ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ الْمُتَرْجِمِينَ لِذَلِكَ فَأَوْعَى
 مِنْهُ وَاسْتَوْعَبَ وَعَكَفَ عَلَيْهَا النُّظَارُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَحَذَقُوا فِي فُنُونِهَا وَأَنْتَهَتْ إِلَى
 الْغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا وَخَالَفُوا كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَاخْتَصَّصُوا بِالرَّدِّ وَالْقَبُولِ
 لَوْ قُوفِ الشُّهُرَةِ عِنْدَهُ وَدَوَّنُوا فِي ذَلِكَ الدَّوَاوِينَ وَأَرْبَوَاعِي مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ
 وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِهِمْ فِي الْمِلَّةِ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا بِالْمَشْرِقِ وَالْقَاضِي
 أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ وَالْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الصَّائِغِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى آخَرِينَ بَلَّغُوا الْغَايَةَ
 فِي هَذِهِ الْعُلُومِ وَاخْتَصَّ هَؤُلَاءُ بِالشُّهُرَةِ وَالذِّكْرِ وَاقْتَصَرَ كَثِيرُونَ عَلَى اتِّحَالِ الْعِلَالِمِ
 وَمَا يَضَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ النِّجَامَةِ وَالسِّحْرِ وَالطَّلَسَمَاتِ وَوَقَفَتْ الشُّهُرَةُ فِي هَذَا الْمُتَحَلِّ
 عَلَى مَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْحَجَرِيَّيَّ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَتَلَمِيذِهِ وَدَخَلَ عَلَى الْمِلَّةِ مِنْ
 هَذِهِ الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا دَاخِلَةً وَأَسْتَهْوَتْ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَلَدُوا آرَاءَهَا
 وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لِمَنْ أَرْتَكَبَهُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ثُمَّ إِنَّ الْمَغْرِبَ وَالْأَنْدَلُسَ لَمَّا
 رَكَدَتْ رَيْحُ الْعُمَرَانِ بَيْنَهُمَا وَتَنَاقَصَتْ الْعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ أَضْحَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْ
 رُسُومِهِمْ يُجَدِّدُهَا فِي تَفَارِيقٍ مِنَ النَّاسِ وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ أَنَّ بَصَائِعَ هَذِهِ الْعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مُؤَفَّرَةً وَخُصُوصًا فِي عِرَاقِ الْعَجَمِ وَمَا
 بَعْدَهُ فِيمَا وَرَاءَ النُّهْرِ وَأَنَّهُمْ عَلَى بَيْعٍ مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ لِتَوْفُرِ عُمرَانِهِمْ وَأَسْتَحْكَمَ
 الْحَضَارَةَ فِيهِمْ وَقَدْ وَقَفَتْ بِمَصْرَ عَلَى تَالِيفِ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ عِظَمَاءِ هَرَاةٍ مِنْ بِلَادِ
 خُرَاسَانَ يُشَهَّرُ بِسَعْدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ مِنْهَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَأُصُولِ الْفَقْهِ وَالْبَيَانِ
 تَشْهَدُ بَأَنَّهُ لَهُ مَلَكَةٌ رَاسِخَةٌ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ وَفِي أَثْنَائِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَطْلَاعًا عَلَى
 الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَقَدَّمَ عَالِيَةً فِي سَائِرِ الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ
 كَذَلِكَ بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّةَ بِبِلَادِ الْإِفْرِنجِيَّةِ مِنْ أَرْضِ رُومَةٍ وَمَا
 إِلَيْهَا مِنَ الْعُدُودِ السَّمَالِيَّةِ نَافِقَةٌ الْأَسْوَاقِ وَأَنَّ رُسُومَهَا هُنَاكَ مُتَجَدِّدَةٌ وَمَجَالِسَ
 تَعْلِيمِهَا مُتَعَدِّدَةٌ وَدَوَاوِينُهَا جَامِعَةٌ مُتَوَفَّرَةٌ وَطَلَبَتُهَا مُتَكَثِّرَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا هُنَاكَ
 وَهُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

الفصل الرابع عشر

في العلوم العددية

وَأَوَّلُهَا الْأَرْثَمَاطِيْقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ التَّأْلِيفُ إِمَّا عَلَى التَّوَالِي
أَوْ بِالْتَّضْعِيفِ مِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بَعْدَ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ الطَّرَفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ
لِجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرَفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ وَمِثْلُ ضَعْفِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ
عَدَّةً تِلْكَ الْأَعْدَادِ فَرَدًّا مِثْلُ الْأَفْرَادِ عَلَى تَوَالِيهَا وَالْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ
إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أَوَّلُهَا نِصْفُ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفُ ثَالِثِهَا الخ أَوْ يَكُونُ
أَوَّلُهَا ثُلُثُ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلُثُ ثَالِثِهَا الخ فَإِنْ ضَرَبَ الطَّرَفَيْنِ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ كَضَرْبِ
كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرَفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ وَمِثْلُ مُرْبِعِ الْوَاسِطَةِ
إِنْ كَانَتْ الْعِدَّةُ فَرَدًّا وَذَلِكَ مِثْلُ أَعْدَادِ زَوْجِ الزَّوْجِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنْ اثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٌ
فَتْمَانِيَّةٌ فَسِتَّةٌ عَشْرٌ وَمِثْلُ مَا يَحْدُثُ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ الْمِثْلَثَاتِ الْعَدَدِيَّةِ
وَالْمُرَبَّعَاتِ وَالْمُخَمَّسَاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وُضِعَتْ مُتَتَالِيَةً فِي سَطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ
الْوَحِيدِ إِلَى الْعَدَدِ الْآخِرِ فَتَكُونُ مِثْلَةً وَتَتَوَالَى الْمِثْلَثَاتُ هَكَذَا فِي سَطُرِهَا تَحْتَ
الْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مِثْلَثٍ ثُلُثُ الضَّاعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُرَبَّعَةً وَتَزِيدُ عَلَى
كُلِّ مُرَبَّعٍ مِثْلَثُ الضَّاعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا وَتَتَوَالَى الْأَشْكَالُ
عَلَى تَوَالِي الْأَضْلَاعِ وَيَحْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ فِيهِ عَرْضُ الْأَعْدَادِ عَلَى تَوَالِيهَا
ثُمَّ الْمِثْلَثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمُرَبَّعَاتُ ثُمَّ الْمُخَمَّسَاتُ الخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ
بَالِغًا مَا بَلَغَ وَتَحْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ طَوَلًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٌ
أَسْتَقْرَيْتُ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَائِبِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَحْدُثُ لِلزَّوْجِ وَالْفَرْدِ وَزَوْجِ
الزَّوْجِ وَزَوْجِ الْفَرْدِ وَزَوْجِ الزَّوْجِ وَالْفَرْدِ فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهَا خَوَاصَّ مُخْتَصَّةً بِهِ تَضَمَّنَهَا
هَذَا الْفَنُّ وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ وَهَذَا الْفَنُّ أَوَّلُ أَجْزَاءِ التَّعَالِيمِ وَأَنْبَتَهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ
الْحِسَابِ وَلِلْمُحْكَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمَتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَأْلِيفٌ وَأَكْثَرُهُمْ يَدْرَجُونَهُ فِي
التَّعَالِيمِ وَلَا يَقْرُدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ فَعَلَ ذَلِكَ أَبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاءِ وَغَيْرِهِ
مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَمَّا الْمَتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوِلٍ وَمَنْفَعَتُهُ فِي
الْبَرَاهِينِ لَا فِي الْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي الْبَرَاهِينِ الْحِسَابِيَّةِ

كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ النَّبَاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . (ومن فروع
 علم العدد صناعة الحساب) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ الْأَعْدَادِ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ
 فَالضَّمُّ يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ بِالْأَفْرَادِ وَهُوَ الْجَمْعُ وَبِالتَّضْعِيفِ تَضَاعُفُ عَدَدًا بِأَحَادٍ عَدَدٍ
 آخَرَ وَهَذَا هُوَ الضَّرْبُ وَالتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ إِمَّا بِالْأَفْرَادِ مِثْلَ إِزَالَةِ عَدَدٍ
 مِنْ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةِ الْبَاقِي وَهُوَ الطَّرْحُ أَوْ تَفْصِيلُ عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا
 مُحْصَلَةً وَهُوَ الْقِسْمَةُ وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْعَدَدِ أَوْ الْكَسْرِ
 وَمَعْنَى الْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ النِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْرًا وَكَذَلِكَ يَكُونُ بِالضَّمِّ
 وَالتَّفْرِيقِ فِي الْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا الْعَدَدُ الَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَدَدُ الْمُرْبَعُ
 فَإِنَّ تِلْكَ الْجُذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ حَادِثَةٌ أَحْتِجُ إِلَيْهَا
 لِلْحِسَابِ فِي الْعُمَلَامَاتِ وَأَلْفَ النَّاسِ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوُلُهَا فِي الْأُمُصَارِ بِالتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ
 وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ عِنْدَهُمُ الْإِيتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفٌ مُتَّصَةٌ وَبَرَاهِينٌ مُنْتَظِمَةٌ فَيَلِشُّ
 عَنْهَا فِي الْغَالِبِ عَقْلٌ مُضِيٌّ دَرَبٌ عَلَى الصَّوَابِ وَقَدْ يَقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ الْحِسَابِ
 أَوَّلَ أَمْرِهِ أَنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الصِّدْقُ لِمَا فِي الْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ الْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ النَّفْسِ
 فَيَصِيرُ ذَلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ الصِّدْقُ وَيَلْزَمُهُ مَذْهَبًا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّأَلِيفِ الْمَبْسُوطَةِ فِيهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَقْرَبِ كِتَابُ الْحِصَارِ الصَّغِيرِ وَلِابْنِ النَّبَاءِ الْأَمْرَ الْكَبِيرَ فِيهِ تَلْفِيضُ ضَابِطِ
 لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابِ سَمَاءِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَعْلَقٌ عَلَى الْمُبْتَدِيَّةِ
 بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْوَثِيقَةِ الْمَبَانِي وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرِ أَدْرَكْنَا الْمُسَيِّخَةَ تَعْظِيمُهُ
 وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيدٌ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا جَاءَهُ الْإِسْتِغْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ الْبُرْهَانِ بَيِّنَاتِ عُلُومِ
 التَّعْلِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاصِحَةٌ كُلُّهَا وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ الْعِلَلِ
 فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ عَلَى الْفَهْمِ مَا لَا يَوْجَدُ فِي أَعْمَالِ الْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ
 وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْأَمْتِينُ . (ومن فروعه الجبر والمقابلة) . وَهِيَ
 صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا الْعَدَدُ الْجَهُولُ مِنْ قِبَلِ الْعُلُومِ الْمَعْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ
 تُقْتَضِي ذَلِكَ فَاصْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ جَعَلُوا لِلْجَهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بِالضَّرْبِ
 أَوَّلَهَا الْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ يَتَعَيَّنُ الْمَطْلُوبُ الْجَهُولُ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ الْجَهُولِ إِلَيْهِ وَثَانِيهَا
 الشَّيْءُ لِأَنَّ كُلَّ جَهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ إِبْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضًا جَذْرٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ

فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَثَلَاثًا الْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهِمٌ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الْأَسِّ فِي
 الْمَضْرُوبِينَ ثُمَّ يَقَعُ الْعَمَلُ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ
 أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فَيُقَالُونَ بَعْضًا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْكَسْرِ حَتَّى
 يَصِيرَ صَحِيحًا وَيَحْطُونَ الْمَرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ الْأَسُوسِ إِنْ أَمَكْنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى الثَّلَاثَةِ
 الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجُبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الْعَدَدُ وَالشَّيْءُ وَالْمَالُ فَإِنْ كَانَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ
 وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَالْمَالُ وَالْجَدْرُ يُزُولُ عَنْهُمَا بِمُعَادَلَةِ الْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَالْمَالُ وَإِنْ عَادَلَ
 الْجَدْرَ فَيَتَعَيَّنُ بِعِدَّتِهَا وَإِنْ كَانَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ الْعَمَلُ الْمُنْدَسِي
 مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ الضَّرْبِ فِي الْإِثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهِمَةٌ فَيَعْنِيهَا ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمُفْصَلُ وَلَا
 يُمَكِّنُ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَأَكْثَرَ مَا انْتَهَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ
 مَسَائِلَ لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَدْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٍ أَوْ مُرَكَّبَةٍ تُجِي سِتَّةَ وَأَوَّلَ مَنْ كَتَبَ
 فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخُوَارَزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شَيْخُ بَنِي أَسْلَمَ وَجَاءَ النَّاسُ
 عَلَى آثَرِهِ فِيهِ وَكَتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ السِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ
 كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ الْقُرْشِيِّ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ
 بَعْضَ أَيْمَةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنْهَى الْمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ السِّتَةِ
 الْأَجْنَاسِ وَبَلَّغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ وَاسْتَخْرَجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالًا وَاتَّبَعَهُ بِرَاهِبٍ هَنْدَسِيَّةٍ
 وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْمُعَامَلَاتُ) . وَهُوَ
 تَصْرِيفُ الْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ الْمَدِينِ فِي الْبَيَاعَاتِ وَالْمَسَاحَاتِ وَالزَّكَاةِ وَنَسَائِرِ مَا
 يَعْزُضُ فِيهِ الْعَدَدُ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ بِصَرْفٍ فِي صِنَاعَتِنَا ذَلِكَ الْحِسَابِ فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ
 وَالْكَسْرِ وَالصَّحِيحِ وَالْجَدْرُ وَغَيْرُهَا وَالْغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهَا
 حُصُولُ الْمِرَانِ وَالذُّرْبَةِ بِتَكَرُّرِ الْعَمَلِ حَتَّى تَرْتَبِعَ الْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ
 وَلِأَهْلِ الصَّنَاعَةِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ تَأْلِيفُ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أَشْهُرِهَا مُعَامَلَاتُ
 الزَّهْرَاوِيِّ وَابْنِ السَّمْعِ وَأَبِي مُسْلِمٍ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تَلْمِيزِ مَسْلَمَةَ الْجَعْفَرِيِّ وَأَمثالِهِمْ
 (وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْفَرَائِضُ) . وَهِيَ صِنَاعَةُ حِسَابِيَّةٍ فِي تَصْحِيحِ السِّهَامِ لِلذَّوِيِّ الْفَرُوضِ
 فِي الْوَرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّتْ وَهَلَكَ بَعْضُ الْوَارِثِينَ وَأَنْكَسَرَتْ سِيَاهُمُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ
 زَادَتْ الْفَرُوضُ عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى أَلْمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ

وَأَنْكَارُ مَنْ بَعْضُ الْوَرِثَةِ فَمَتَجَّ فِي ذَلِكَ كَلِمَةٌ إِلَى عَمَلٍ يُعَيِّنُ بِهِ سَهَامُ الْفَرِيشَةِ مِنْ
 كَمْ تَصِخُّ وَسَهَامُ الْوَرِثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصَحَّحًا حَتَّى تَكُونَ حُطُوطُ الْوَارِثِينَ مِنْ
 أَلْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سَهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سَهَامِ الْفَرِيشَةِ فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ جُزْءٌ
 كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكَسْرِهِ وَجَذَرُهُ وَمَعْلُومِهِ وَتَجْهَوِيهِ وَتُرْتَبُّ عَلَى تَرْتِيبِ أَبْوَابِ الْفَرَائِضِ
 الْفَقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْفَقْهِ وَهُوَ أَحْكَامُ الْوَرَاثَةِ
 مِنَ الْفَرُوضِ وَالْعَوْلِ وَالْأَقْرَارِ وَالْأَنْكَارِ وَالْوَصَايَا وَالتَّكْدِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا
 وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ الْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ الشُّهُمَانِ بِاعْتِبَارِ الْحُكْمِ الْفَقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ
 الْعُلُومِ وَقَدْ يُورِدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا مِثْلَ الْفَرَائِضِ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ
 مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعُلُومِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَعِنْدِي أَنَّ ظَوَاهِرَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي
 الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقْدَمُ لَا فَرَائِضَ الْوَرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّاتِهَا
 ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْفَرَائِضُ الْعَيْنِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلْفَ النَّاسُ فِي هَذَا أَلْفَنَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا
 وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّالِيفِ فِيهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَتُخْتَصَرُ
 الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْحَوْفِيِّ وَكِتَابُ ابْنِ الْمُنَمَّرِ وَالْجَعْدِيِّ وَالصَّرْدِيِّ وَغَيْرِهِمْ لَكِنَّ
 الْفَضْلَ لِلْحَوْفِيِّ فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شَيْوَحُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانُ
 الشَّطِطِيُّ كَبِيرُ مَسِيخَةِ فَاسٍ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ وَلَا يَمَامَ الْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَالِيفٌ عَلَى مَذْهَبِ
 الشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِاتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي الْعُلُومِ وَرُسُوخِ قَدَمِهِ وَكَذَا لِلْحَنْفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَمَقَامَاتُ
 النَّاسِ فِي الْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا الْمُنْتَصِلَةِ كَالْخَطِّ وَالسَّطْحِ وَالْجِسْمِ وَإِمَّا
 الْمُنْفَصِلَةِ كَالْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَعْزُضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّائِلَةِ مِثْلُ أَنَّ كُلَّ مِثْلٍ فَرَزَايَاهُ
 مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ وَمِثْلُ أَنَّ كُلَّ خَطِّينِ مُتَوَازِيَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهِهِ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَدِ
 نَهَايَةٍ وَمِثْلُ أَنَّ كُلَّ خَطِّينِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَالزَّائِرَاتَانِ الْمُنْتَقِبَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ وَمِثْلُ
 أَنَّ الْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ الْمُتَنَاسِبَةِ ضَرَبُ الْأَوَّلِ مِنْهَا فِي الثَّلَاثِ كَضَرْبِ الثَّانِي فِي الرَّابِعِ
 وَأَمثالُ ذَلِكَ وَالْكِتَابُ الْمَتَرَجِمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ كِتَابُ أَوْفَلِيدِسَ وَيُسَمَّى

كِتَابُ الْأَصُولِ وَكِتَابُ الْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجَمُ
 مِنْ كِتَابِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَلِسَخُهُ مُخْتَلَفَةٌ بِاخْتِلَافِ
 الْمُتَرْجِمِينَ فَمِنْهَا لَحْنَيْنِ بَنِي إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قِرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ الْحُجَّاجِ وَبِسْتَمَلٍ عَلَى
 خَمْسِ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٌ فِي السُّطُوحِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْأَقْدَارِ الْمُنَاسِبَةِ وَآخَرَى فِي
 نِسْبِ السُّطُوحِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٌ فِي الْعَدَدِ وَالْعَاشِرَةُ فِي الْمَنْطِقَاتِ وَالْقَوَى عَلَى
 الْمَنْطِقَاتِ وَمَعْنَاهُ الْجُدُورُ وَخَمْسٌ فِي الْجِسْمَاتِ وَقَدْ اخْتَصَرَهُ النَّاسُ اخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً
 كَمَا قَعَلَهُ ابْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا اخْتَصَصَهُ بِهِ وَكَذَلِكَ ابْنُ الصَّلَاتِ
 فِي كِتَابِ الْأَقْتِصَارِ وَغَيْرِهِمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ الْعُلُومِ الْهَنْدَسِيَّةِ
 بِإِطْلَاقٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْهَنْدَسَةَ تَقِيْدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَاسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ
 بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةُ الْإِنْتِظَامِ جَلِيَّةُ التَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ الْعَلَطُ يَدْخُلُ أَقْسِمَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا
 وَانْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ الْفِكْرُ بِمَارَسَتِهَا عَنِ الْخَطِإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ الْمَهْنَعِ
 وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفَلَاطُونٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِسًا فَلَا يَدْخُلُنِي مَنْزِلُنَا
 وَكَانَ شَيْوُخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةُ عِلْمِ الْهَنْدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ الصَّابُونِ لِلثَّوْبِ
 الَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ الْأَقْدَارُ وَيَنْقِيهِ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْأَدْرَانِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ
 مِنْ تَرْتِيبِهِ وَانْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المنصوصة بالاشكال الكروية
 والمخروطات) . أَمَّا الْأَشْكَالُ الْكُرْوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ
 لِنَاوَدُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سَطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ نَاوَدُوسِيُوسَ مُقَدِّمٌ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى
 كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوْقُفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بَدْ مِنْهَا لِمَنْ يُرِيدُ التَّخَوُّصَ فِي عِلْمِ
 الْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَالْكَلَامُ فِي الْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي الْكُرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 وَمَا يَعْزُضُ فِيهَا مِنَ الْقُطُوعِ وَالِدَوَائِرِ بِأَسْبَابِ الْخَرَكَاتِ كَمَا نَذَكَّرُهُ فَقَدْ تَوَقَّفَ عَلَى
 أَحْكَامِ الْأَشْكَالِ الْكُرْوِيَّةِ سَطُوحُهَا وَقُطُوعُهَا وَأَمَّا الْخَرْطُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ الْهَنْدَسَةِ
 أَيْضًا وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيَمَا يَقَعُ فِي الْأَجْسَامِ الْخَرْطُوطَةُ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْقُطُوعِ وَيَبْرَهِنُ
 عَلَى مَا يَعْزُضُ لِذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينِ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفَائِدَتِهَا
 تَطَهَّرُ فِي الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي مَوَادُّهَا الْأَجْسَامُ مِثْلُ النِّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ
 الْأَمْثَالُ الْغَرِيبَةُ وَالْهِيَائُ كُلُّ النَّادِرَةِ وَكَيْفَ يُحْمَلُ عَلَى جَرِّ الْأَثْقَالِ وَنَقْلِ الْهِيَائِ كُلِّ

بِالْهِنْدَامِ وَالْمِخَالِ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هَذَا الْفَنِ كِتَابًا فِي الْحِيلِ
 الْعَلَمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحِيلِ الْمُسْتَظَرَّةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ وَرَبِّمَّا اسْتَعْلَقَ
 عَلَى النَّهْمِ الصُّعُوبَةِ بَرَاهِينَهُ الْهِنْدَسِيَّةَ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِأَيْدِي النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ
 وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (وَمِنْ فُرُوعِ الْهِنْدَسَةِ الْمَسَاحَةِ) وَهُوَ فَنٌّ يَخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ
 وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مَقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شَيْءٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ
 مِنْ أَرْضٍ إِذَا قُوِيََتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيَخْتِاجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخُرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ
 وَالْقُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغَرَسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرَاضِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوِ الْوَرَثَةِ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضِعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ
 (الْمُنَاطَرَةُ مِنْ فُرُوعِ الْهِنْدَسَةِ) وَهُوَ عِلْمٌ يَتَبَيَّنُ بِهِ أَسْبَابُ الْغَلَطِ فِي الْإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ
 بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ إِدْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطٍ شُعَاعِي رَأْسُهُ
 يَقْطَعُهُ الْبَاصِرُ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْئِي ثُمَّ يَقَعُ الْغَلَطُ كَثِيرًا فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيرًا وَالْبَعِيدِ
 صَغِيرًا وَكَذَا رُؤْيَةِ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةِ
 الْمُنْقَطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطًّا مُسْتَقِيمًا وَالسُّلْقَةِ دَائِرَةً وَأَمثالُ ذَلِكَ فَيَتَبَيَّنُ فِي هَذَا
 الْعِلْمِ أَسْبَابُ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الْهِنْدَسِيَّةِ وَيَتَبَيَّنُ بِهِ أَيْضًا اخْتِلَافُ الْمَنْظَرِ
 فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ الْعُرُوضِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ وَحُصُولِ الْكُسُوفَاتِ
 وَكَثِيرٌ مِنْ أَمثالِ هَذَا وَقَدْ أَلْفَ فِي هَذَا الْفَنِ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَشْهَرُ مِنْ أَلْفٍ
 فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ وَلِغَيْرِهِ أَيْضًا تَأَلَّفَ وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِيعِهَا

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُتَحَرِّكَةِ وَالْمُتَحَرِّزَةِ وَيَسْتَدِلُّ
 مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهَذِهِ الْحَرَكَاتِ الْمَحْسُوسَةِ
 بِطَرُقِ هِنْدَسِيَّةٍ كَمَا يُبْزَنُ عَلَى أَنَّ مَرَكِّزَ الْأَرْضِ مَبَايِنٌ لِمَرَكِّزِ فَلَكِ الشَّمْسِ بِوُجُودِ
 حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالْإِسْتِقَامَةِ لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ
 أَفْلَاقٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةٌ دَاخِلٌ فَلَكِهَا الْأَعْظَمُ وَكَمَا يُبْزَنُ عَلَى وُجُودِ
 أَفْلَاقِ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبْزَنُ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَفْلَاقِ لِلْكَوَاكِبِ

الْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ الْهَيُولِ لَهُ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَإِدْرَاكُ الْمَوْجُودِ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا
 وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْأَفْئَالِ وَالْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا
 تَرْكِيبُ الْأَفْئَالِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرُّجُوعُ وَالْإِسْتِقَامَةُ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ
 يَعْتَنُونَ بِالرَّصْدِ كَثِيرًا وَيَتَخَذُونَ لَهُ الْأَلَاتِ الَّتِي تَوْضَعُ لِرَّصْدِهَا حَرَكَةَ الْكُوكِبِ
 الْمَعِينِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتُ الْحَقِيقِ وَصَنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ
 حَرَكَتِهَا بِحَرَكََةِ الْفَلَكِ مَقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَنْفَعْ بِهِ عِنَايَةُ إِلَّا
 فِي الْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ الْأَلَةَ الْمَعْرُوفَةَ لِلرَّصْدِ الْمُسَمَّاةَ
 ذَاتَ الْحَقِيقِ وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَنْتَمْ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأَغْفَلَ وَاعْتَمَدَ مِنْ بَعْدِهِ
 عَلَى الْأَرْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَةٍ لِإِخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ بِاتِّصَالِ الْأَحْقَابِ وَأَنَّ
 مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ الْأَلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكََةِ الْأَفْئَالِ وَالْكُوكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْرِيبِ وَهَذِهِ
 الْهَيْئَةُ صَنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يَفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ
 الْأَفْئَالِ وَالْكُوكِبِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ وَالْهَيْئَاتِ لِلْأَفْئَالِ لَزِمَتْ
 عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّه لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لَازِمًا لِخِلَافَيْنِ
 وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهِيَ أَسْتِدْلَالٌ بِاللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ الْمَكْزُومِ وَلَا يُعْطِي
 الْحَقِيقَةَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ التَّلَايِفِ فِيهِ
 كِتَابُ الْمَحِيطِ مَسْنُوبٌ لِإِبْرَاهِيمَ مَوْسَى وَلَيْسَ مِنْ مَلُوكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَسْمَوْهُمْ بِطَالِمُوسُ
 عَلَى مَا حَقَّقَهُ شَرَّاحُ الْكِتَابِ وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الْأَنِمَةُ مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ
 ابْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ وَلَخَّصَهُ ابْنُ رُشْدٍ أَيْضًا مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ
 وَابْنُ السَّمْعِ وَأَبْنُ الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِفْتِصَارِ وَلَابْنُ الْفَرَّغَانِي هَيْئَةً مُلَخَّصَةً قَرِيبًا
 وَحَدَفَ بَرَاهِينَهَا الْهِنْدَسِيَّةَ وَاللَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ . (ومن فروع علم الازياج) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينِ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا
 يَخْصُ كُلُّ كُوكِبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ
 وَبُطْءٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَعْرِفُ بِهِ مَوَاضِعَ الْكُوكِبِ فِي أَفْئَالِهَا لِأَيِّ
 وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حِسَابِهَا حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ
 الْهَيْئَةِ وَلِهَذِهِ الصَّنَاعَةُ قَوَانِينُ كَالْمَقْدَمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ

والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأفج والحضيض والميول وأصناف
 الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسميها على المتعلمين
 وتسمى الأزياج وتسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة
 تعديلاً وتقويماً وللناس فيه تاليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني^(١)
 وابن الكماد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج مسوب لابن
 إسحق من مجي تونس في أول المائة السابعة ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على
 الرصد وأن يهودياً كان بصقلية ماهرًا في الهيئة والتعالم وكان قد عني بالرصد وكان
 بعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك
 عنوا به لوثاقه مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء في آخر سماء المنهاج فوَلَعَ به
 الناس لما سهل من الأعمال فيه وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبئ
 عليها الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان
 من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم إن شاء الله تعالى
 والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والتجسيم
 المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو التحسوسات بالحواس
 الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز
 الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من التحسوسات وذلك بأن يحصل في
 الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص التحسوسة وهي
 الكلية ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في
 بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي في
 التجريد إلى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطاً
 وهذا مثل ما مجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطقية عليها ثم ينظر بينه

١ قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر المحدثين

وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ وَيَجْرُدُ صُورَةُ الْجَنَسِ الْمُنْطِقَةِ عَلَيْهَا ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّبَاتِ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِيَ إِلَى الْجَنَسِ الْعَالِيِّ وَهُوَ الْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كَلِمًا يُؤَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ الْعَقْلُ هُنَاكَ
عَنِ التَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يَدْرِكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ
وَكَانَ الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِدْرَاكَ سَادِجٍ مِنْ غَيْرِ حَكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصَدِيقًا
أَيَّ حُكْمًا يَثْبُوتُ أَمْرٌ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ يَجْمَعَ
تِلْكَ الْكَلِمَاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ فَتَحْضُلُ صُورَةٌ فِي الذِّهْنِ كَلِمَةً مُنْطِقَةً
عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ الْأَخْصَاصِ
وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصَدِيقًا وَغَايَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ
إِلَى التَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى
الْعِلْمِ وَهَذَا السَّعْيُ مِنَ الْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ
فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْعَى بِهِ الْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ الْعِلْمِيَّةِ لِيَتِمَّ
الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونُ الْمُنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا
بِهِ جَمَلًا وَجَمَلًا وَمُفْتَرَفًا وَلَمْ تَهْدَبْ طَرَفُهُ وَلَمْ يَجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو
فَهْدَبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصِّلَتْ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَفَاتَحْتَهَا وَلِلَّذَلِكَ
يُسَمَّى بِالْمَعْلَمِ الْأَوَّلِ وَكِتَابُهُ الْمُخْصُوصُ بِالْمُنْطِقِ يُسَمَّى النَّصَّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ
كُتُبٍ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ التَّصَدِيقِيَّةَ
عَلَى أَشْخَاءٍ قَوْمِنَهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْيَقِينُ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ
الظَّنُّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبٍ فَيَنْظُرُ فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ الْمَطْلُوبُ الَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ مِنَ الظَّنِّ وَقَدْ
يَنْظُرُ فِي الْقِيَاسِ لَا بِإِعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مُخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنْتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ
الْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الْمَادَّةُ وَتُعْنَى بِهِ الْمَادَّةُ الْمُنْتِجَةُ لِلْمَطْلُوبِ الْمُخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ
أَوْ ظَنْنٍ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ الثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَإِنْتَاجُ الْقِيَاسِ عَلَى الْأِطْلَاقِ فَكَانَتْ
لِذَلِكَ كُتُبُ الْمُنْطِقِ ثَمَانِيَةً . الْأَوَّلُ فِي الْأَجْنَاسِ الْعَالِيَةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ
الْمَحْسُوسَاتِ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ الْمَقُولَاتِ . وَالثَّانِي فِي الْقَضَايَا
التَّصَدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ الْعِبَارَةِ . وَالثَّلَاثُ فِي الْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنْتَاجِهِ عَلَى

الْأُطْلَاقَ وَيُسَمَّى كِتَابُ الْقِيَاسِ وَهَذَا آخِرُ النَّظَرِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ ثُمَّ الرَّابِعُ كِتَابُ
 الْبَرْهَانِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْقِيَاسِ الْمُنْتَجِجِ لِلْيَقِينِ وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ يَقِينِيَّةً
 وَيُخْتَصُّ بِشُرُوطٍ أُخْرَى لِإِفَادَةِ الْيَقِينِ مَذْكُورَةٍ فِيهِ مِثْلُ كَوْنِهَا ذَاتِيَّةً وَأَوَّلِيَّةً وَغَيْرِ
 ذَلِكَ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ الْكَلَامُ فِي الْمَعْرِفَاتِ وَالْحُدُودِ إِذَا الْمَطْلُوبُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ
 الْيَقِينُ لَوْجُوبِ الْمطَابَقَةِ بَيْنَ الْحَدِّ وَالْحُدُودِ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَ مَا فَلِذَلِكَ اخْتَصَّتْ
 عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِهَذَا الْكِتَابِ . وَالْخَامِسُ كِتَابُ الْجَدَلِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الْمَفِيدُ قَطْعَ
 الْمَشَاغِبِ وَإِفْهَامَ الْخُصْمِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ وَيُخْتَصُّ أَيْضًا
 مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهِ لِهَذَا الْغَرَضِ بِشُرُوطٍ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهُ لِهَذَا الْغَرَضِ وَهِيَ
 مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ يُذَكَّرُ الْمَوَاضِعُ الَّتِي يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا صَاحِبُ الْقِيَاسِ
 قِيَاسَهُ وَفِيهِ عُمُوسُ الْقَضَايَا . وَالسَّادِسُ كِتَابُ السَّفَسْطَةِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يُفِيدُ
 خِلَافَ الْحَقِّ وَيُغَالِطُ بِهِ الْمُنَاطِرُ صَاحِبَهُ وَهُوَ فَاسِدٌ وَهَذَا إِنَّمَا كَتَبْتُ لِيُعْرِفَ بِهِ
 الْقِيَاسُ الْمَغَالِطِي فَيَعْدُرُ مِنْهُ . وَالسَّابِعُ كِتَابُ الْخِطَابَةِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الْمَفِيدُ تَرْغِيبِ
 الْجُمْهُورِ وَحَمْلِهِمْ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ . وَالثَّامِنُ
 كِتَابُ الشَّعْرِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يُفِيدُ التَّمَثِيلَ وَالنَّشِيئَةَ خَاصَّةً لِلْإِقْبَالِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ
 النُّفُورِ عَنْهُ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْقَضَايَا الْخَبْلِيَّةِ هَذِهِ هِيَ كُتُبُ الْمَنْطِقِ
 الثَّمَانِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ ثُمَّ إِنَّ حُكَمَاءَ الْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ أَنْ تَهَدَّبَتِ الصَّنَاعَةُ وَرُبَّتْ
 رَأَوْا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْكَلِمَاتِ الْخَمْسِ الْمَفِيدَةِ لِلتَّصَوُّرِ فَاسْتَدْرَكُوا فِيهَا
 مَقَالَةً تُخْتَصُّ بِهَا مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيِ الْفَنِّ فَصَارَتْ تِسْعًا وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي الْعِلْمَةِ إِلَّا سَلَامِيَّةً
 وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَا سَفَةَ إِلَّا سَلَامٌ بِالْشَّرْحِ وَالتَّلْخِصِ كَمَا فَعَلَهُ الْفَارَابِيُّ وَأَبْنُ سِينَا
 ثُمَّ ابْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَا سَفَةِ الْأَنْدَلُسِ وَلِابْنِ سِينَا كِتَابُ الشِّفَاءِ اسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ
 السَّبْعَةِ كُلُّهَا ثُمَّ جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا أَصْطِلَاحَ الْمَنْطِقِ وَالْحَقُّوْا بِالنَّظَرِ فِي الْكَلِمَاتِ
 الْخَمْسِ ثَمَرَتَهُ وَهِيَ الْكَلَامُ فِي الْحُدُودِ وَالرُّسُومِ نَقَلُوهَا مِنْ كِتَابِ الْبَرْهَانِ وَحَدِّثُوا
 كِتَابَ الْمَقُولَاتِ لِأَنَّ نَظَرَ الْمَنْطِقِيِّ فِيهِ بِالْغَرَضِ لَا بِالذَّاتِ وَالْحَقُّوْا فِي كِتَابِ الْعِبَارَةِ
 الْكَلَامَ فِي الْعَكْسِ لِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْكَلَامِ فِي الْقَضَايَا بِبَعْضِ الْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا
 فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتِاجُهُ لِلْمَطَالِبِ عَلَى الْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَدِّثُوا النَّظَرَ فِيهِ

بِحَسَبِ الْمَادَّةِ وَهِيَ الْكِتَابُ الْخُمْسَةُ الْبَرْهَانُ وَالْجَدَلُ وَالْخُطَابَةُ وَالشَّعْرُ وَالسَّفْسَطَةُ
وَرُبَّمَا يَلِمُ بَعْضُهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنْهَا إِنْ مَامَا وَأَغْمَلُوهَا كَانَ لَمْ تَكُنْ هِيَ الْمُهِيْمُ الْمُعْتَمَدُ
فِي الْفَنِّ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِيهَا وَضَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا مُسْتَبْجِرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ
قَدْ بَرَأَ بِهِ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلهٌ لِلْعُلُومِ فَطَالَ الْكَلَامُ فِيهِ وَاتَّسَعَ وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ
ذَلِكَ الْأِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفْضَلُ الدِّينِ الْخَوَنَسَارِيُّ وَعَلَى كُتُبِهِ
مُعْتَمَدُ الْمَشَارِقَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابٌ كَشَفَ الْأَسْرَارَ وَهُوَ طَوِيلٌ
وَأَخْتَصَرَ فِيهَا مُخْتَصَرَ الْمَوْجِزِ وَهُوَ حَسَنٌ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرُ الْجَمَلِ فِي قَدْرِ أَرْبَعَةِ
أَوْرَاقٍ أَخَذَ بِجَمَاعِ الْفَنِّ وَأَصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ وَهَجَرَتْ
كُتُبُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَطَرَفَهُمْ كَانَ لَمْ تَكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ الْمُنْطَقِ وَقَائِدَتِهِ
كَمَا قُلْنَا وَاللَّهُ أَلْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَبْتَغِي عَنِ الْجِسْمِ مِنْ جِهَةٍ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ فَيَنْظُرُ فِي
الْأَجْسَامِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَإِنْسَانٍ وَنَبَاتٍ وَمَعْدِنٍ وَمَا
يَتَكَوَّنُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعُيُونِ وَالزَّلَازِلِ وَفِي الْجَوْثِ مِنَ السَّحَابِ وَالْبَخَارِ وَالرَّغَدِ وَالْبَرْقِ
وَالصَّوَاعِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِي مَبْدَأِ الْحَرَكَةِ لِلْأَجْسَامِ وَهُوَ عَلَى تَوَعُّفٍ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ
وَالنَّبَاتِ وَكُتُبُ أَرِسْطُو فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ تُرْجِحَتْ مَعَ مَا تُرْجِمُ مِنْ عُلُومِ
الْفَلَسَفَةِ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ وَآلَتِ النَّاسِ عَلَى حَذْوِهَا وَأَوْعَبَ مِنْ آلَتِ فِي ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي
كِتَابِ الشِّفَاءِ جَمَعَ فِيهِ الْعُلُومَ السَّبْعَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ كَمَا قَدَّمْنَا ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ النِّجَا وَفِي
كِتَابِ الْأَشْرَافِ وَكَانَتْ يُخَالَفُ أَرِسْطُو فِي الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَقُولُ بِرَأْيِهِ فِيهَا
وَأَمَّا ابْنُ رُشْدٍ فَلَخَّصَ كُتُبَ أَرِسْطُو وَشَرَحَهَا مُتَّبِعًا لَهُ غَيْرَ مُخَالَفٍ وَآلَتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ
كَثِيرًا لَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمُعْتَبَرَةُ فِي الصَّنَاعَةِ وَلِأَهْلِ الْمَشْرِقِ عِنَايَةٌ
بِكِتَابِ الْأَشْرَافِ لِابْنِ سِينَا وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ عَلَيْهِ شَرْحٌ حَسَنٌ وَكَذَا الْأَمِيدِيُّ
وَشَرَحَهُ أَيْضًا نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِي الْمَعْرُوفُ بِخَوَاجِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَبَحَثَ مَعَ
الْإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل التاسع عشر

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطَّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ
حَيْثُ يَمْرُضُ وَيَصِحُّ فَيُكَاوِلُ صَاحِبَهَا حِفْظَ الصَّحَّةِ وَبُرْءِ الْمَرَضِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ
بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْصُ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ وَأَسْبَابُ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ
الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَرْجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَفَوَاقِهَا
وَعَلَى الْمَرَضِ بِالْعِلَامَاتِ الْمُؤَذِّنَةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءِ أَوَّلًا فِي السَّجَّةِ وَالْفَضَلَاتِ
وَالنَّبْضِ مُحَازِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ فِي حَالَتِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَإِنَّمَا
الطَّبِيبُ يُحَازِيهَا وَيُعِينُهَا بِعَظْمِ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا انْقَضَتْ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ وَالْفَصْلُ وَالسِّنُّ
وَيُسَمَّى الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِذَا كُلِّهِ عِلْمُ الطَّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضُ الْأَعْضَاءِ بِالْكَلَامِ
وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا كَالْعَيْنِ وَعِلَالِهَا وَكَذَلِكَ الْحَقْوَا بِالْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ
وَمَعْنَاهَا الْمَنْعَةُ الَّتِي لِأَجَابِهَا خَلَقَ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ الْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ مِنْ مَوْضِعِ عِلْمِ الطَّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِذَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ
الَّتِي تُرِجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يَقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَيَقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصَقْلِيَّةٍ فِي سَبِيلِ تَغْلِبِ وَهُطَاوَعَةِ أَغْرِبَابٍ وَتَأَلَّفَهُ فِيهَا هِيَ الْأَهْلِيَّاتُ
الَّتِي أَقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْمَةً جَاءُوا
مِنْ وَرَاءِ الْغَالِيَةِ مِثْلَ الرَّازِيِّ وَالْجَوْسَقِيِّ وَأَبْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ
وَأَشْهُرُهُمْ أَبْنُ زُهْرٍ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمَدِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَتْهَا تَقَصَّتْ لَوْفُوفُ الْعُمَرَانِ
وَتَنَاقَضَ وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحَاضَرَةُ وَالتَّرَفُّ كَمَا نَبَّهْنَاهُ بَعْدُ
وَاللَّيْكَادِيَّةُ مِنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ طِبُّ يَنْوَنُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجَرُّبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ
الْأَشْخَاصِ مُتَوَارِتًا عَنْ مَشَايِخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ الْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ
عَلَى قَانُونِ طَبِيعِيٍّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ الْمَزَاجِ وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ هَذَا الطَّبِّ كَثِيرٌ
وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ وَالطَّبُّ الْمَنْقُولُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ
مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ وَوَقَعَ فِي

ذَكَرَ أَحْوَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعٍ ذَكَرَ أَحْوَالَهُ الَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبَلَةٌ
لَا مِنْ جِهَةٍ أَنَّ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا
بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا الشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِيَعْرِيفَ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي
شَأْنِ تَلْقِيحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ
الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ
اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمِلَ عَلَى جِهَةِ التَّبَرُّكِ وَصَدَّقَ الْعَقْدُ الْإِيمَانِي فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ
عَظِيمٌ فِي النَّفْعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الطَّبِّ الْمَرَاغِبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَتَارِ الْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ
كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ الْمَبْطُونِ بِالْعَسَلِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العشرون

في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ النَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَّتُهُ وَنُشْؤُهُ
بِالسَّقْيِ وَالْعِلَاجِ وَتَعْدُّهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ النَّظَرُ
فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ
وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السِّخْرِ
فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ الْفَلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ
مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ النَّبْطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْمِلَّةِ فِيمَا اشْتَمَلَ
عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السِّخْرِ مَسْدُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى
الْكَلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَعْزُضُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَدَفُوا الْكَلَامَ
فِي الْفَنِّ الْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَأَخْتَصَرَ ابْنُ الْعَوَّامِ كِتَابَ الْفَلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ عَلَى هَذَا
الْمَنْهَاجِ وَبَقِيَ الْفَنُّ الْآخَرُ مِنْهُ مُقْفَلًا نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةٌ فِي كُتُبِهِ السِّخْرِيَّةِ أَهْمَاتٍ مِنْ
مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَرُ عَنْهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى السِّخْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكُتِبَ الْمُنْتَأَخَرِينَ
فِي الْفَلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا الْكَلَامَ فِي الْفَرَاسِ وَالْعِلَاجِ وَحَفِظَ النَّبَاتِ مِنْ
حَوَائِجِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْزُضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي الوجودِ الْمُطْلَقِ فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ
 مِنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوَحْدَةِ وَالْكَثَرَةِ وَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي
 مَبَادِيءِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنْبَاءِ رُوحَانِيَّاتِ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا
 ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَأِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ
 يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الوجودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ فِي
 رِزْقِهِمْ وَسِيَاقِي الرُّدِّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْبِيَّتِهِمْ وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمٌ مَا
 وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ وَكُتِبَ الْمَعْلَمُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَلِخَصَّةِ ابْنِ سِينَا
 فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّبَا وَكَذَلِكَ لَخَصَّةِ ابْنِ رُشْدٍ مِنْ حِكْمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَلَمَّا وَضَعَ
 الْمُتَأَخِّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ
 الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلُهُ
 بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا قَدْ وَاحِدَتْ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحِكْمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ
 وَالْإِلَهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنَادَوْا قَدَمُوا الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ثُمَّ اتَّبَعُوهُ بِالْجِسْمَانِيَّاتِ
 وَتَوَابِعِهَا ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي
 الْمَبَاحِثِ الْمَشْرِفَةِ وَجَمِيعٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَصَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ مُخْتَطِطًا
 بِمَسَائِلِ الْحِكْمَةِ وَكُتِبَتْ مَحْشُوءَةٌ بِهَا كَانَ الْغَرَضُ مِنْ مَوْضُوعَيْهَا وَمَسَائِلِهَا وَاحِدٌ
 وَالتَّسَنُّسُ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدُ مُتَقَالَةً
 مِنَ الشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا السَّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى الْعَقْلِ وَلَا تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى
 أَنَّهَا لَا تُنْبِتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ مَعْرُوضٌ عَنِ الشَّرْعِ وَأَنْظَارُهُ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ الْمُشْكِكُونَ
 مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَجِ فَلَيْسَ بِحُجَّتٍ عَنِ الْحَقِّ فِيهَا فَالتَّعْلِيلُ بِالِدَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا
 هُوَ شَأْنُ الْفَلَسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ التَّمَسُّسُ حِجَّةً عَقْلِيَّةً تَعُضِدُ عَقَائِدَ الْإِيمَانِ وَمَذَاهِبَ السَّلَفِ
 فِيهَا وَتَدْفَعُ شُبُهَةَ أَهْلِ الْبِدْعِ عَنْهَا الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدَارَ كُلِّمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ
 تُفْرَضَ صَحِيحَةٌ بِالْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا السَّلَفُ وَاعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ
 وَذَلِكَ أَنَّ مَدَارِكَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِاتِّسَاعِ نِطَاقِهَا عَنْ مَدَارِكِ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ

فَهِىَ فَوْقَهَا وَحُيْطَةُ بِهَا لَأَسْتَمْدَادُهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قَانُونِ النَّظَرِ
الضَّعِيفِ وَالْمَدَارِكِ الْخَطَاطِ بِهَا فَإِذَا هَدَانَا الشَّارِعُ إِلَى مُدْرِكٍ فَيَنْبَغِي أَنْ نَقْدِمَهُ عَلَى
مَدَارِكِهِ وَنَتَّقَ بِهِ دُونَهَا وَلَا نَنْظُرَ فِي تَصْحِيحِهِ بِمَدَارِكِ الْعَقْلِ وَلَوْ عَارِضَةً بَلْ نَعْتَمِدُ مَا
أَمَرْنَا بِهِ أَعْتِقَادًا وَعِلْمًا وَلَسَكُنْتُ عَمَّا لَمْ نَفْهَمْ مِنْ ذَلِكَ وَنَتَوَضَّعُ إِلَى الشَّارِعِ وَنَعَزِلُ
الْعَقْلَ عَنْهُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ إِنَّمَا دَعَاؤُهُمْ إِلَى ذَلِكَ كَلَامُ أَهْلِ الْإِلْهَادِ فِي مُعَارَضَاتِ
الْعُقَايِدِ السَّلَفِيَّةِ بِالْبِدْعِ النَّظَرِيَّةِ فَاحْتَاجُوا إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ جِنْسِ مُعَارَضَاتِهِمْ
وَأَسْتَدْعَى ذَلِكَ التَّحْجِجَ النَّظَرِيَّةَ وَتَحَاذَاةَ الْعُقَايِدِ السَّلَفِيَّةِ بِهَا وَأَمَّا النَّظَرُ فِي مَسَائِلِ
الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ بِالْتَّصْحِيحِ وَالْبُطْلَانِ فَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا مِنْ جِنْسِ
أَنْظَارِ الْمُتَكَلِّمِينَ فَاعْلَمْ ذَلِكَ لِمَيَّزَ بِهِ بَيْنَ الْفَنَيْنِ فَإِنَّهُمَا مُخْتَلِطَانِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ
فِي التَّوَضُّعِ وَالتَّنَازُلِ وَالْحَقِّ مُعَايِرَةٌ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالْمَسَائِلِ وَإِنَّمَا
جَاءَ الْإِتْبَاسُ مِنْ اتِّحَادِ الْمَطَالِبِ عِنْدَ الْأَسْتِدْلَالِ وَصَارَ احْتِجَاجُ أَهْلِ الْكَلَامِ كَأَنَّهُ
إِنْشَاءُ لِمَطَالِبِ الْأَعْتِدَادِ بِالْأَدِلِّيلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى الْمُتَحِدِّينَ وَالْمَطْلُوبُ
مَفْرُوضُ الصِّدْقِ مَعْلُومُهُ وَكَذَا جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ غَلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ
بِالْمَوَاجِدِ أَيْضًا فَخَلَطُوا مَسَائِلَ الْفَنَيْنِ بَيْنَهُمَا وَجَعَلُوا الْكَلَامَ وَاحِدًا فِيهَا كُلِّهَا مِثْلَ
كَلَامِهِمْ فِي النُّبُوءَاتِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالْمَدَارِكُ فِي هَذِهِ
الْفَنُونِ الثَّلَاثَةِ مُتَعَايِرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَابْعَدَهَا مِنْ جِنْسِ الْفَنُونِ وَالْعُلُومِ مَدَارِكُ الْمُتَصَوِّفَةِ
لَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ فِيهَا الْوُجْدَانَ وَيَفْرُونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْوُجْدَانَ بَعِيدٌ عَنِ الْمَدَارِكِ
الْعِلْمِيَّةِ وَأَبْجَانُهَا وَتَوَابِعُهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ وَنَبِّينَهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عُلُومٌ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِعْدَادَاتِ اقْتِدَارِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ بِهَا عَلَى التَّأَثِيرَاتِ فِي عَالَمِ
الْعَنَاصِرِ أَمَّا بَعْضُهَا أَوْ يَمِينُ مِنَ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السِّحْرُ وَالثَّانِي هُوَ
الطَّلَسْمَاتُ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ مَعْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لَمَّا فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَلَمَّا يَشْتَرِطُ
فِيهَا مِنَ الْوُجُوبَةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ كَوْنِ كَوْنٍ أَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبُهَا كَالْمَقْقُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ

إِلَّا مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبَلَ نُبُوَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِطِ
 وَالْكَلدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ أَقْدَمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَشْرَعُوا الشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ
 إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيدًا لِلَّهِ وَتَذْكِيرًا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ
 فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَالْكَلدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ مِنَ الْقَبْطِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ
 لَهُمْ فِيهَا التَّلَافُيفُ وَالْأَتَارُفُ وَلَمْ يُتَرْجَمْ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلُ الْفَلَاحَةِ
 النَّبْطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوَضَعَتْ بَعْدَ
 ذَلِكَ الْأَوْضَاعُ مِثْلُ مَصَاحِفِ الْكُوكَبِ السَّبْعَةِ وَكِتَابِ طِمَظِمِ الْهِنْدِيِّ فِي صُورِ
 الدَّرَجِ وَالْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ ظَهَرَ بِالْمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ كَبِيرُ السَّحَرَةِ فِي هَذِهِ
 الْعِلْمَةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ الْقَوْمِ وَاسْتَخْرَجَ الصَّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي زَيْدَتِهَا وَاسْتَخْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا
 غَيْرَهَا مِنَ التَّلَافِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ السِّيمِيَاءِ لِأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِهَا لِأَنَّ
 أَحَالَه الْأَجْسَامِ النَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصَّنَاعَةِ
 الْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ كَمَا نَذَرُوهُ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ جَاءَ مُسْلِمَةُ بْنُ أَحْمَدَ
 السَّجَرِيُّ إِمَامُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي التَّعَالِيمِ وَالسَّحَرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ الْكُتُبِ
 وَهَدَّيَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةُ الْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا
 الْعِلْمِ بَعْدَهُ وَلَقَدْ قَدَّمَ هُنَا مُقَدِّمَةً يَبَيِّنُ بِهَا حَقِيقَةَ السَّحَرِ وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ
 وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِّ وَهِيَ أَصْنَافُ كُلِّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ
 بِخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِالنَّوْعِ لَا تُوْجَدُ فِي الصَّنْفِ الْآخَرِ وَصَارَتْ تِلْكَ الْخَوَاصُّ فِطْرَةً وَجَبَلَةً
 لَصِنْفِهَا فَنُفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ
 وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ وَمَا يَتَسَعُّ فِي ذَلِكَ
 مِنَ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَاسْتِخْلَابِ رُوحَانِيَّةِ الْكُوكَبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَالتَّأثيرِ
 بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ فَأَمَّا تَأثيرُ الْأَنْبِيَاءِ فَمَدَدُ الْإِلَهِيِّ وَخَاصِيَّةُ رَبَّانِيَّةٍ وَنُفُوسُ
 الْكُهْنَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمَغْيِبَاتِ بِقُوَّةِ شَيْطَانِيَّةٍ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ
 مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ لَا تُوْجَدُ فِي الْآخَرِ وَالنُّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ يَأْتِي شَرْحُهَا
 فَأَوَّلُهَا الْمُؤَثِّرَةُ بِالْهَيْمَةِ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ
 السَّحَرَ وَالثَّانِي بِمُعِينٍ مِنْ مَزَاجِ الْأَفْلَاقِ أَوِ الْعُنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ

الطَّلَمَاتِ وَهُوَ أَضْعَفُ رُبْعَهُ مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثُ تَأْثِيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ يَعْمَدُ صَاحِبُ
هَذَا التَّأْثِيرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا
مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالْحُكَاكَ وَضُورًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِينَ
بِقُوَّةِ نَفْسِهِ الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّائِي كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ دُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا
يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرَى الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَيُسَمَّى
هَذَا عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ السَّعُودَةِ أَوِ الشَّعْبَةِ . هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ تَكُونُ
فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنُ الْقُوَى الشَّرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ وَرِيَاضَةِ
السَّحْرِ كُلِّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلَوِيَّةِ وَالشَّيَاطِينِ
بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَبِهِيَ لِذَلِكَ وَجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَتُسَبِّحُ
لَهُ وَالتَّوَجُّهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ فَلِهَذَا كَانَ السَّحِرُ كُفْرًا وَالْكُفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ
كَمَا رَأَيْتَ وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ يَكْفِرُهُ السَّابِقُ عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لَتَصَرُّفِهِ
بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْكُلُّ حَاصِلٌ مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتْ
الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَايَانِ مِنَ السَّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ الْأَخِيرَةُ الثَّلَاثَةُ لَا حَقِيقَةَ
لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ
نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ
الْأَخِيرَةِ فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ اسْتِبْرَاهِ هَذِهِ
الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ وُجُودَ السَّحْرِ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأْثِيرِ
الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ
النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَقْرَءُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتُسْحَرُ رُسُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى
كَانَ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ وَجَعَلَ سِحْرَهُ فِي مِشْطٍ وَمِشْفَافٍ وَجَفَّ طَائِعَةً
وَدَفِنَ فِي بَيْتِ زِرْوَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْمَعْوَدَتَيْنِ وَمِنْ سَرِّ التَّفَانِثِ فِي
الْعَقْدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى عَقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعَقْدِ الَّتِي سَحَرَ فِيهَا
إِلَّا أَنْحَلَّتْ وَأَمَّا وُجُودُ السَّحْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمْ الْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ النَّبْطِ وَالسَّرِيَانِيِّينَ

فَكثيرٌ وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَجَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَكَانَ لِلْسِّحْرِ فِي بَابِلَ وَمِصْرَ أَرْزَامَ بَعَثَهُ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْوَاقُ نَافِقَةٍ وَلِهَذَا كَانَتْ مُعْجَزَةُ مُوسَى مِنْ جِنْسٍ مَا يَدْعُونَ وَيَتَنَاعُونَ
فِيهِ وَيَقِي مِنْ آثَارِ ذَلِكَ فِي الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ شَوَاهِدُ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَرَأَيْنَا بِالْعِيَانِ
مَنْ يُصَوِّرُ صُورَةَ الشَّخْصِ الْمَسْخُورِ بِخَوَاصِ أَشْيَاءَ مُقَابِلَةً لِمَا نَوَاهُ وَحَاوَلَهُ مَوْجُودَةً
بِالْمَسْخُورِ وَأَمْثَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَاءَ وَصِفَاتٍ فِي التَّأْلِيفِ وَالتَّفْرِيقِ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ
عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَقَامَ الشَّخْصِ الْمَسْخُورِ عَيْنًا أَوْ مَعْنَى ثُمَّ يَنْفُثُ مِنْ رِيْقِهِ
بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ فِي فِيهِ بِتَكْرِيرٍ مُخَارِجٍ تِلْكَ الْحُرُوفِ مِنَ الْكَلَامِ السُّوءِ وَيَعْقُدُ عَلَى
ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سَبَبِ أَعْدَهُ لِنَظَرٍ تَفَاوُلًا بِالْعَقْدِ وَالْإِزَامِ وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ
بِهِ مِنَ الْجِنِّ فِي نَفْسِهِ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ اسْتِشْعَارًا لِلْعَزِيمَةِ بِالْعَزْمِ وَلِتِلْكَ الْبَنِيَّةِ وَالْأَسْمَاءِ
السَّيِّئَةِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ تَخْرُجُ مِنْهُ مَعَ النَّفْثِ مُتَعَلِّقَةٌ بِرِيْقِهِ أَخْرَاجٍ مِنْ فِيهِ بِالْثَفْتِ فَيَنْزِلُ
عَنْهَا أَرْوَاحُ خَبِيثَةٍ وَيَقَعُ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَسْخُورِ مَا يُحَاوِلُهُ السَّاحِرُ وَشَاهِدُنَا أَيْضًا مِنْ
الْمُتَحَلِّينَ لِلْسِّحْرِ وَعَمَلِهِ مِنْ يُشِيرُ إِلَى كِسَاءٍ أَوْ جِلْدٍ وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ فَإِذَا
هُوَ مَقْطُوعٌ مُتَخَرِّقٌ وَيُشِيرُ إِلَى بَطْنِ الْغَنَمِ كَذَلِكَ فِي مَرَاعِيهَا بِالْبَعْجِ فَإِذَا أَمْعَاوَهَا سَاقِطَةٌ
مِنْ بَطْنِهَا إِلَى الْأَرْضِ وَسَمِعْنَا أَنَّ بَارِضَ الْهِنْدِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى إِنْسَانٍ فَيَحْتَسُّ
قَلْبَهُ وَيَقَعُ مَيِّتًا وَيَنْقَلِبُ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوْجَدُ فِي حَشَاهُ وَيُشِيرُ إِلَى الرُّمَانَةِ وَتَنْتَعُ فَلَا
يُوْجَدُ مِنْ جُوبِهَا شَيْءٌ وَكَذَلِكَ سَمِعْنَا أَنَّ بَارِضَ السُّودَانِ وَأَرْضَ التُّرْكِ مَنْ يَسْحَرُ
السَّحَابَ فَيُمْطِرُ الْأَرْضَ الْخُصُوصَةَ وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مِنْ عَمَلِ الطَّلِسْمَاتِ عَجَابٌ فِي
الْأَعْدَادِ الْمُتَحَابَّةِ وَهِيَ رَكَرِفُ أَحَدِ الْعَدَدَيْنِ مَائَتَانِ وَعِشْرُونَ وَالْآخَرُ مَائَتَانِ
وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ وَمَعْنَى الْمُتَحَابَّةِ أَنَّ أَجْزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ الَّتِي فِيهِ مِنْ نِصْفٍ وَثُلْثٍ
وَرُبْعٍ وَسُدُسٍ وَخُمْسٍ وَأَمْثَالِهَا إِذَا جُمِعَ كَانَ مُتَسَاوِيًا لِلْعَدَدِ الْآخَرِ صَاحِبِهِ فَتَسْمَى
لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُتَحَابَّةِ وَقَالَ أَصْحَابُ الطَّلِسْمَاتِ أَنَّ لِكُلِّ الْأَعْدَادِ اثْرًا فِي الْإِلَافَةِ بَيْنَ
الْمُتَحَابِّينَ وَاجْتِمَاعِهِمَا إِذَا وَضِعَ لِهَمَّا مِثْلَانِ أَحَدُهُمَا بِطَالِغِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا أَوْ
شَرَفِهَا نَظَرَةٌ إِلَى الْقَمَرِ نَظَرٌ مُودَّةٌ وَقَبُولٌ وَيَجْعَلُ طَالِغُ الثَّانِي سَابِعَ الْأَوَّلِ وَيَضَعُ عَلَى
أَحَدِ التَّمَثَالَيْنِ أَحَدَ الْعَدَدَيْنِ وَالْآخَرَ عَلَى الْآخَرِ وَيَقْصُدُ بِالْأَكْثَرِ الَّذِي يُرَادُ
اِئْتِلَافُهُ أَعْنِي الْمَحْبُوبَ مَا أَدْرِي الْأَكْثَرَ كَمِيَّةً أَوْ الْأَكْثَرَ أَجْزَاءً فَيَكُونُ لِنَظَرِ

مِنَ النَّاسِ الْعَظِيمِ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ مَا لَا يَكَادُ يَنْفَكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ قَالَ صَاحِبُ
 الْغَايَةِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَرُّبَةُ وَكَذَا طَائِعِ الْأَسَدِ وَيُسَمَّى
 أَيْضًا طَائِعِ الْحَصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَالِبٍ مِندَ اصْبَعِ صُورَةُ أُسَدٍ شَائِلًا ذَنْبَهُ عَاضًا عَلَى
 حَصَاةٍ فَقَدْ قَسَمَهَا بِنُصْفَيْنِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ حَيَّةٍ مُنْسَابَةٍ مِنْ رِجَالِهِ إِلَى قُبَالَةِ وَجْهِهِ
 فَافْرَةٌ فَاهَا فِيهِ وَعَلَى ظَهْرِهِ صُورَةُ عَقْرَبٍ تَدْبُ وَيَتَحَيَّنُ بِرِسْمِهِ حُلُولُ الشَّمْسِ بِالْوَجْهِ
 الْأَوَّلِ أَوِ الثَّلَاثِ مِنَ الْأَسَدِ بِشَرْطِ صَلَاحِ النَّبَرَيْنِ وَسَلَامَتِهِمَا مِنَ النَّحُوسِ فَإِذَا
 وَجَدَ ذَلِكَ وَعَثَرَ عَلَيْهِ طَبَعَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مِقْدَارِ الْمِثْقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ الذَّهَبِ
 وَغَمَسَ بَعْدَ فِي الزَّعْفَرَانِ مَحْلُولًا بِمَاءِ الْوَرْدِ وَرَفَعَ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ
 أَنَّ لِمُسْكِهِ مِنَ الْعِزِّ عَلَى السَّلَاطِينِ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ مَا لَا
 يُعْبَرُ وَكَذَلِكَ لِلْسَّلَاطِينِ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ذَكَرَ ذَلِكَ
 أَيْضًا أَهْلُ هَذَا الشَّانِ فِي الْغَايَةِ وَغَيْرِهَا وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجَرُّبَةُ وَكَذَلِكَ وَفَقِ الْمُسَدِّسِ
 الْمُخْتَصِّ بِالشَّمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ فِي شَرْفِهَا وَسَلَامَتِهَا
 مِنَ النَّحُوسِ وَسَلَامَةِ الْقَمَرِ بِطَائِعِ مُلُوكِيٍّ يُعْتَبَرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ الْعَاشِرِ لِصَاحِبِ
 الطَّالِعِ نَظَرُ مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَيَصْلُحُ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ الْمُلُوكِ مِنَ الْأَدَلَةِ
 الشَّرِيفَةِ وَيُرْفَعُ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ بَعْدَ أَنْ يُغَمَسَ فِي الطَّيِّبِ فَرَعْمُوا أَنَّ لَهُ أَثَرًا فِي
 صَحَابَةِ الْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَكِتَابُ الْغَايَةِ لِمَسَامَةِ بْنِ
 أَحْمَدَ النُّجَاطِيِّ هُوَ مُدَوَّنَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَفِيهِ أَسْتِفَاوُهَا وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذَكَرَ لَنَا
 أَنَّ الْأِيْمَامَ الْفَخْرَ بْنَ الْخَطِيبِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ وَسَمَّاهُ بِالسِّرِّ الْمَكْنُونِ وَأَنَّهُ
 بِالْمَشْرِقِ يَتَدَوَّلُهُ أَهْلُهُ وَتَحَنَّنَ لَمْ تَقِفْ عَلَيْهِ وَالْأِيْمَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ
 فِيمَا نَظُنُّ وَلَعَلَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَبِالْمَغْرِبِ صَنَّفَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَلِّلِينَ لِهَذِهِ
 الْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ يُعْرِفُونَ بِالْبَعَاجِينِ وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوَّلًا أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى
 الْكِسَاءِ أَوْ الْجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُونَ وَيُشِيرُونَ إِلَى بَطُونِ الْغَنَمِ بِالْبَعْجِ فَتَبْعُجُ وَيُسَمَّى أَحَدُهُمْ
 هَذَا الْعَهْدِ بِاسْمِ الْبَعَاجِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَحِلُ مِنَ السَّحَرِ بَعْجُ الْأَنْعَامِ يُرْهَبُ بِذَلِكَ
 أَهْلُهَا لِيُعْطَوْهُ مِنْ فَضْلِهَا وَهُمْ مُسْتَبْرَؤُونَ بِذَلِكَ فِي الْغَايَةِ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحْكَامِ
 لِقَائِهِ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَشَهِدَتْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هَذِهِ بِذَلِكَ وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وَجْهَةً وَرِيَاضَةً

خَاصَّةً يَدْعَوَاتٍ كُفْرِيَّةٍ وَإِشْرَاقٍ أَرْوَاحِيَّاتٍ الْجَنِّ وَالْكُوكِبِ سَطَرَتْ فِيهَا صَحِيفَةٌ
 عِنْدَهُمْ تَسْمَى الْخَزِيرِيَّةَ يَتَدَارَسُونَهَا وَأَنَّهُمْ بِهِذِهِ الرِّيَاضَةِ وَالْوَجْهَةِ يَصِلُونَ إِلَى حُصُولِ هَذِهِ
 الْأَفْعَالِ لَهُمْ وَإِنَّ التَّأثيرَ الَّذِي لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِيهِمَا سِوَى الْأَنْسَانِ الْخَرُّ مِنَ الْمَتَاعِ
 وَالْخَيَوَانِ وَالرَّقِيقِ وَيُعْبَرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَفْعُ فِيمَا تَمَشِي فِيهِ الدَّرَاهِمُ أَيَّ مَا
 يَمْلِكُ وَيَبَاعُ وَيُشْتَرَى مِنْ سَائِرِ الْمُتَمَتِّعَاتِ هَذَا مَا زَعَمُوهُ وَسَأَلَتْ بَعْضَهُمْ فَأَخْبَرَنِي
 بِهِ وَأَمَّا أَفْعَالُهُمْ فَظَاهِرَةٌ مُوجُودَةٌ وَقَفْنَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهَا وَعَايَنْتُهَا مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ فِي
 ذَلِكَ هَذَا شَأْنُ السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَأَثَرُهُمَا فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا الْفَلَّاسِفَةُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ
 السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ بَعْدَ أَنْ أَتَبَتُوا أَنَّهِمَا جَمِيعًا أَثَرٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَاسْتَدَلُّوا عَلَى
 وَجُودِ الْأَثَرِ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا أَثَارًا فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ
 الْجِسْمَانِيَّةِ بَلْ أَثَارُ عَارِضَةٍ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْأَرْوَاحِ تَارَةً كَالْخُشُونَةِ الْحَادِثَةِ عَنِ الْفَرَحِ
 وَالسُّرُورِ وَمِنْ جِهَةِ النُّصُورَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قَبْلِ التَّوَهُّمِ فَإِنَّ
 الْمَاشِيَّ عَلَى حَرْفٍ حَائِطٍ أَوْ عَلَى حَبْلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ السَّقُوطِ سَقَطَ بِلا
 شَكٍّ وَلِهَذَا يَتَحَدَّثُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِعَوْدُونَ أَنفُسِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا الْوَهُمُ
 فَتَحْدِثُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفٍ حَائِطٍ وَالْحَبْلِ الْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السَّقُوطَ فَتَبَتَ أَنَّ
 ذَلِكَ مِنْ أَثَارِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوَّرَهَا لِلْسَّقُوطِ مِنْ أَجْلِ الْوَهُمِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
 أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْجِسْمَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا
 مِثْلُ هَذَا الْأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نَسَبَتْهَا إِلَى الْأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ
 وَاحِدَةٍ لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَةٍ فِي الْبَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ فَتَبَتَ أَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ فِي سَائِرِ الْأَجْسَامِ
 وَأَمَّا التَّفَرُّقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ فَهُوَ أَنَّ السِّحْرَ لَا يَحْتَاجُ السَّاحِرَ فِيهِ إِلَى
 مُعِينٍ وَصَاحِبِ الطَّلَسْمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكُوكِبِ وَأَسْرَارِ الْأَعْدَادِ وَخَوَاصِ
 الْمَوْجُودَاتِ وَأَوَاضَاعِ الْفَلَكَ الْمُؤَثَّرَةِ فِي عَالَمِ الْعُنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُتَخَيَّمُونَ وَيَقُولُونَ
 السِّحْرُ اتِّحَادُ رُوحٍ بِرُوحٍ وَالطَّلَسْمُ اتِّحَادُ رُوحٍ بِجِسْمٍ وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ رَبْطُ الطَّبَائِعِ
 الْعُلَوِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ وَالطَّبَائِعِ الْعُلَوِيَّةِ فِي رُوحَانِيَّاتِ الْكُوكِبِ
 وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ بِالْجَمَامَةِ وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبٍ لِسِحْرِ
 بَلْ هُوَ مَقْطُوعٌ عِنْدَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْجَبَالَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ وَالْفَرْقُ عِنْدَهُمْ

بَيْنَ الْمُعْجَزَةِ وَالسَّحْرِ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ قُوَّةُ الْوَيْهَةِ تَبَعَتْ عَلَى النَّفْسِ ذَلِكَ النَّاتِئُ فَبُوَ مُؤَيَّدٌ
 بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى نَعْلِهِ ذَلِكَ وَالسَّحَرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ
 وَبِإِمْدَادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا الْفَرْقُ فِي الْعَقُولِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ
 فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِيلُ نَحْنُ عَلَى التَّفَرُّقَةِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وَجُودُ الْمُعْجَزَةِ
 لِصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِلْخَيْرِ وَالْتِّجَادِي بِهَا عَلَى دَعْوَى
 النُّبُوَّةِ وَالسَّحْرِ إِنَّمَا يُوْجَدُ لِصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أَعْمَالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ مِنَ التَّخْرِيقِ بَيْنَ
 الزُّوجَيْنِ وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِلشَّرِّ هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا
 عِنْدَ الْحُكَمَاءِ الْأَلَوِيِّينَ وَقَدْ يُوْجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ الْكِرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضًا
 فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ جِنْسِ السَّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ
 وَفَعَلَتُهُمْ مِنْ آثَارِ النُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي الْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ حِفْظٌ عَلَى قَدَرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ
 وَتَمَسُّكُهُمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدُهُمْ عَلَى أَعْمَالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَّقِدٌ فِيمَا
 يَأْتِيهِ يَذَرُهُ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ إِلَّا ذُلًا يَا تَوْنُهُ بِوَجْهِهِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ
 عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ وَلَمَّا كَانَتْ الْمُعْجَزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ اللَّهِ وَالْقُوَى
 الْإِلَهِيَّةِ فَلِذَلِكَ لَا يَبَارِزُهَا شَيْءٌ مِنَ السَّحْرِ وَانْظُرْ شَأْنَ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي
 مُعْجَزَةِ الْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّيْتَ مَا كَانُوا بِهِ يَأْكُونُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَأَضْمَحَلَّ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ
 وَكَذَلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَعْوَدَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ التَّمَنَّاتِ فِي
 الْعَقْدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُ مَا عَلَى عَقْدَةٍ مِنَ الْعَقْدِ الَّتِي سَحَرَ فِيهَا
 إِلَّا انْحَلَّتْ فَالسَّحَرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زَكَرِيَّا
 كَوَانَ وَهِيَ رَايَةُ كَسْرَى كَانَ فِيهَا الْوُفُقُ الْمِئْبُتِيُّ الْعَدَدِيُّ مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ
 فَلَكِيَّةٍ رُصِدَتْ لِذَلِكَ الْوُفُقِ وَوُجِدَتْ الرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسُومُ بِالْقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى
 الْأَرْضِ بَعْدَ انْهَرَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزَعُمُ أَهْلُ الطَّلَسَمَاتِ وَالْأَوْفَاقِ
 مَخْضُوصٌ بِالْغَلَبِ فِي الْخُرُوبِ وَأَنَّ الرَّايَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلًا إِلَّا
 أَنَّ هَذِهِ عَارِضُهَا الْمَدَدُ الْإِلَهِيُّ مِنْ إِيْمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَأَنْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَلَمْ تَفَرُقْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلَسَمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ بَابًا وَاحِدًا مَحْظُورًا

لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهتد في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا
أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهتد في شيء منهما فإن كان فيه ضرر
أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويُلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد
والتجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برِد الأمور
إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته في الضرر وإن لم يكن مهيما
علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه
ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من
الضرر وخصته بالخطر والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي
ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه
قائلها والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه وقوع المعجزة على وفق
دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصديق عقليّة لأن صفة نفسها
التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فإذا لا تقع
المعجزة مع الكاذب بإطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه
فرق ما بين الخير والشّر في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل
في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر
وكانهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوي
العزيز لا رب سواه ومن قيل هذه التأثيرات النفسية الإصابة بالعين وهو تأثير
من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الدوات أو الأحوال ويفرط في
استحسانه ويتشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يزوم معه سلب ذلك الشيء عن
انصف به فيؤثر فسادة وهو جملة فطرية أعني هذه الإصابة بالعين والفرق بينهما
وبين التأثيرات وإن كان منها ما لا يكسب فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها
والفطري منها قوة صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل
بالعين لا يقتل وما ذلك إلا أنه ليس مما يريد ويقصده أو يتركه وإنما هو مجبور
في صدوره عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَسْرَحُ
الْعَمَلُ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَى ذَلِكَ فَيَتَصَنَّحُونَ الْمَكُونَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْرِ جُتْهَا وَقَوَاهَا
لَعَلَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ لِذَلِكَ حَتَّى مِنْ أَعْضَالِ الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْعِظَامِ
وَالرِّيشِ وَالْبَيْضِ وَالْعُذْرَاتِ فَضْلًا عَنِ الْمَعَادِنِ ثُمَّ يَسْرَحُ الْأَعْمَالُ الَّتِي تَخْرُجُ بِهَا
تِلْكَ الْمَادَّةُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ الْأَجْسَامِ إِلَى أَجْزَائِهَا الطَّبِيعِيَّةِ بِالتَّصْعِيدِ
وَالْتَقْطِيرِ وَجَمْدِ النَّائِبِ مِنْهَا بِالتَّكْلِيسِ وَإِمْنَاءِ الصُّلْبِ بِالْقَهْرِ وَالصَّلَابَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ
وَفِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهَذِهِ الصَّنَاعَاتِ كُلَّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يَسْمُوهُ الْإِكْسِيرَ وَأنَّهُ يَلْقَى
مِنْهُ عَلَى الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ الْمُسْتَعِدِّ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ أَوِ الْفِضَّةِ بِالِاسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ
مِنَ الْفِعْلِ مِثْلَ الرِّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ وَالنَّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُخَمَّى بِالنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَبًا أَوْ بَرِيًّا
وَيَكُونُ عَنْ ذَلِكَ الْإِكْسِيرِ إِذَا الْغَرَوْا فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ بِالرُّوحِ وَعَنِ الْجِسْمِ الَّذِي
يَلْقَى عَلَيْهِ بِالْجَسَدِ فَسْرَحُ هَذِهِ الْأَصْطِلَاحَاتِ وَصُورَةُ هَذَا الْعَمَلِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَقْبَلُ
هَذِهِ الْأَجْسَادَ الْمُسْتَعِدَّةَ إِلَى صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ هُوَ عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ وَمَا زَالَ النَّاسُ
يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَرُبَّمَا يُعْزَى الْكَلَامُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَإِمَامُ
الْمَدُونِينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ يَخْصُصُونَهَا بِهِ فَيَسْمُونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ
رِسَالَةً كُلُّهَا شَبِيهَةٌ بِالْأَلْفَاظِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ مَقْفَلُهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا
فِيهَا وَالطُّغْرَاءِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ الْمَشْرِقِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَائِنُ وَهِيَ أَظْهَرَاتٌ مَعَ
أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَكَتَبَ فِيهَا مَسْلَمَةُ الْحَجَرِيَّيْنِ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ
كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ رُتْبَةَ الْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِيبًا لِكِتَابِهِ الْآخَرِ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ
الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ الْحَكِيمِ وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَتَمَرَّتَانِ
لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ أَجْمَعِ وَكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ
الْكِتَابِ وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعُ فِي تَأْكِيفِهِمْ هِيَ الْغَايَةُ يَتَعَدَّرُ فَهْمُهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَعَانَ
أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي ذَلِكَ. وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلَى هَذِهِ الرُّمُوزِ وَالْأَلْفَاظِ وَلِأَنَّ
الْمُعْتَرِيَّ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ كَلِمَاتٍ شَعْرِيَّةً عَلَى حُرُوفِ الْمُجْمَعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَحْيِي

فِي السَّعْرِ مَعْوَرَةً كُلُّهَا لُغَزَ الْأَحَاجِي وَالْمُعَايَا فَلَا تَسْكَدُ نَفْسُهُمْ وَقَدْ يَتَسَمَّوْنَ لِلْعَزَالِي
 رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْضَ التَّالِيفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مَدَارِكُهُ الْعَالِيَةَ
 لَتَقِفَ عَنْ خَطَا مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ وَرُبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقْوَالِ
 فِيهَا لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَيْبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنُ أَنَّ خَالِدًا
 مِنَ الْجَلِيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِدَاوَةِ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ
 لَهُ بِصِنَاعَةِ غَرِيبَةٍ أَلْمَنَحَى مَبْنِيَّةً عَلَى مَعْرِفَةِ طِبَاعِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَمْرِ جَتِهَا وَكُتُبِ النَّاطِرِينَ
 فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطَّبِّ لَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ وَلَمْ تَنْجِزْهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَالِدُ بْنُ
 يَزِيدَ آخِرَ مَنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الصَّنَاعِيَّةِ تَشَبَّهُ بِأَسْمِهِ فَمِمَّنْ كُنَّا . وَأَنَا أَقُولُ لَكَ هُنَا
 رِسَالَةَ أَبِي بَكْرٍ بْنِ يَشْرُونَ لِأَيِّ السَّمَحِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا مِنْ تِلَامِيذِ مُسْلِمَةَ
 فَيَسْتَدِلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ مِنَ التَّأَمُّلِ قَالَ
 ابْنُ يَشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِ مِنَ الرَّسَالَةِ خَارِجٍ عَنِ الْفَرْضِ وَالْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 الْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوَّلُونَ وَاقْتَصَّ جَمِيعَهَا أَهْلُ الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ
 الْمَعَادِنِ وَتَخَلُّقِ الْأَحْجَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَطِبَاعِ الْقِيَامِ وَالْأَمَّا كَيْفَ فَمَعْنَا أَشْتَبَاهَا مِنْ
 ذِكْرِهَا وَلَكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنْعَةِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ قَبْدًا بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا يَنْبَغِي
 لِطَلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوَّلًا ثَلَاثَ خِصَالٍ أَوَّلُهَا هَلْ تَكُونُ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ
 تَكُونُ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفَ تَكُونُ فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفَرَ
 بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نَهَابَتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا الْبَحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَالْإِسْتِدْلَالُ عَنْ تَكُونِهَا
 فَقَدْ كَفَيْتُمَا كَمَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ الْأَكْسِيرِ وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ
 بِذَلِكَ الْبَحْثَ عَنِ الْحَجَرِ الَّذِي يُمَكِّنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوجِدًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَنْزَعِ مِنْهَا تَرَكَّبَتْ أَبْدَاءٌ وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ أَنْبَاءٌ وَلَكِنْ مِنْ
 الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنَّ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تَعَالُجُ
 وَتَدْبَرُ وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لَا تَعَالُجُ وَلَا
 تَدْبَرُ لِأَنَّهَا فِيهَا بِالْقُوَّةِ فَقَطْ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنِ تَفْصِيلُهَا لِاسْتِغْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضٍ
 وَفَضْلُ قُوَّةِ الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ فَيَنْبَغِي لَكَ وَقَفَكَ اللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَحْجَارِ
 الْمُنْفَصِلَةِ الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجِنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يَدْبَرُ مِنَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ

وَالْتَنْقِيَةَ وَالتَّكْلِيسَ وَالتَّنْشِيفَ وَالتَّقْلِيلَ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ الْأَصُولَ الَّتِي هِيَ
عِمَادُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ لَمْ يَنْجُحْ وَلَمْ يَطْفَرْ بِخَيْرٍ أَبَدًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ
يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بَغْيُهُ أَوْ يُكَتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ أَوْ شَارَكَهُ غَيْرُهُ
فَصَارَ فِي التَّدْبِيرِ وَاحِدًا قَسْمِيَّ حِجْرًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِّيَّةَ أَوْزَانِهِ
وَأَزْمَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيبُ الرُّوحِ فِيهِ وَإِدْخَالُ النَّفْسِ عَلَيْهِ وَهَلْ تَقْدِرُ النَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا
مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيبِهَا فَإِنَّ لَمْ تَقْدِرْ فَلَايَ عَلَيْهِ وَمَا السَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِلذَّكَ فَإِنَّ هَذَا هُوَ
الْمَطْلُوبُ فَأَفْهَمْ وَأَعْلَمْ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ النَّفْسَ وَزَعَمَتِ أَنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ لِلْجَسَدِ
وَالْحَامِلَةُ لَهُ وَالِدَّافِعَةُ عَنْهُ وَالْفَاعِلَةُ فِيهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ
وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا
ذَكَرْتُ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ الْإِنْسَانِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ عَلَى
الْغِذَاءِ وَالْعِشَاءِ وَقُوَامُهُ وَتِمَامُهُ بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ النُّورَانِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْعِظَامُ وَالْأَشْيَاءُ
الْمُتَقَابِلَةُ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِالْقُوَّةِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا أَفْعَلُ الْإِنْسَانُ لِاخْتِلَافِ
تَرْكِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوْ اتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَلِمَتْ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالنَّضَادِ وَلَمْ تَقْدِرِ النَّفْسُ عَلَى
الْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِدًا بَاقِيًا فَسُبْحَانَ مُدَبِّرِ الْأَشْيَاءِ تَعَالَى . وَأَعْلَمْ أَنَّ الطَّبَائِعَ
الَّتِي يَخْدُثُ عَنْهَا هَذَا الْعَمَلُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ فَيُضَيِّعُ مَحْتَاجُهُ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ
لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هَذَا الْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرَكَّبَتْ كَمَا قُلْنَا أَنفَاءً فِي الْإِنْسَانِ
لِأَنَّ طَبَائِعَ هَذَا الْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَصَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا شَبِيهًا بِالنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا
وَفِعْلِهَا وَبِالْجَسَدِ فِي تَرْكِيبِهِ وَمَجَسَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَعْيَانِهَا فَيَا عَجَبًا مِنْ
أَفْعِيلِ الطَّبَائِعِ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيبِهَا وَتِمَامِهَا
فَلِذَلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ وَالْفَنَاءُ فِي التَّرْكِيبِ الْأَوَّلِ لِلِاخْتِلَافِ
وَعَدَمِ ذَلِكَ فِي الثَّانِي لِلِاتِّفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا
الْعَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَالتَّرْكِيبُ مَوْتُ وَفَنَاءٌ وَهَذَا الْكَلَامُ دَقِيقُ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْحَكِيمَ
أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الوجودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيبِهِ الْأَوَّلِ
فَهُوَ فَإِنْ لَا مُحَالَةَ فَإِذَا رُكِبَ التَّرْكِيبُ الثَّانِي عَدِمَ الْفَنَاءُ وَالتَّرْكِيبُ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا
بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَالتَّقْطِيعِ فَإِذَا التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا الْعَمَلِ خَاصَّةٌ فَإِذَا بَقِيَ الْجَسَدُ

الْحَمُولُ أَنْبَسَ فِيهِ لِعَدَمِ الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَا صُورَةَ
 لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ
 أَنَّ اخْتِلَاطَ اللَّطِيفِ بِاللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْعَلِيظِ بِالْعَلِيظِ وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِذَلِكَ
 التَّمَاكُلَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ بِأَشْكَالِهَا وَذِكْرُكَ لَكَ ذَلِكَ
 لَتَعْلَمَ أَنَّ أَعْمَلَ أَوْفَقَ وَأَبْسَرَ مِنَ الطَّبَائِعِ اللَّطَائِفِ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْعَالِيَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ
 وَقَدْ يَتَصَوَّرُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَشْجَارَ أَقْوَى وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى
 الذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنَّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْكِبَرِيَّتِ وَالزُّبُقِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
 فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي بَدَنِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ الْكِبَرِيَّةِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا
 لَرَجَاءِ غَلِيظَةٍ فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِهَا لِإِفْرَاطِ غَلِيظِهَا وَتَلَزُّجِهَا فَإِذَا أَفْرَطَتِ النَّارُ
 عَلَيْهَا صَبَرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ خَلْقِهَا وَإِنْ تِلْكَ الْأَرْوَاحُ اللَّطِيفَةُ إِذَا أَصَابَتْهَا
 النَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَبَرَ الْأَجْسَادُ فِي هَذِهِ
 الْحَالَةِ وَصَبَرَ الْأَرْوَاحُ فِي هَذَا الْحَالِ فَهُوَ أَجَلٌ مَا تَعْرِفُهُ أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحُ
 لِأَسْبَابِهَا وَلَطَافَتِهَا وَإِنَّمَا اسْتَعَلَّتْ لِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ
 تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَانِيَّةٌ تَشَاكِلُ النَّارَ وَلَا تَزَالُ تَغْدِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى وَكَذَلِكَ
 الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِوُضُولِ النَّارِ إِلَيْهَا أَقَلَّتْ تَلَزُّجَها وَغَلِيظَها وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ
 لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفُهُ مُتَّحِدٌ بِكَشِفِهِ لَطُولِ
 الطَّبَخِ الْأَيْنِ الْمَازِجِ لِلْأَشْيَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ
 لَطِيفِهِ مِنْ كَشِفِهِ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ التَّحْلِيلِ وَالْمُؤَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ
 الْأَنْضِمَامُ وَالْتِمَادُخُلُ مُجَاوِرَةً لَا مُمَازَجَةً فَسَهِّلَ بِذَلِكَ أَفْتِرَاقَهُمَا كَالْمَاءِ وَالذَّهْنِ وَمَا
 أَشَبَّهُهُمَا وَإِنَّمَا وَصَفْتُ ذَلِكَ لَتَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ
 ذَلِكَ عَلِمَا شَافِيًا فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهَا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِيَ
 طَبَائِعُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مُؤَافَقَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مُفَصَّلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامٌ وَاحِدٌ
 يَتَدَبَّرُ وَاحِدٌ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلِّ كَمَا قَالَ الْفِيلَسُوفُ
 أَنَّكَ إِذَا أَحْكَمْتَ تَدَبِيرَ الطَّبَائِعِ وَتَأَلَّفَهَا وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا غَرِيبًا فَقَدْ أَحْكَمْتَ مَا
 أَرَدْتَ إِحْكَامَهُ وَقِيَامَهُ إِذِ الطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيبًا

فَقَدْ زَاغَ عَنْهَا وَوَقَعَ فِي الْخَطِئِ . وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ إِذَا حَلَّ لَهَا جَسَدٌ مِنْ قَرَائِنِهَا
عَلَى مَا يَتَّبِعِي فِي الْحَلِّ حَتَّى يَشَاكِلَهَا فِي الرِّقَّةِ وَاللَّطَافَةِ انْتَبَسَطَتْ فِيهِ وَجَرَتْ مَعَهُ حَيْثُمَا
جَرَى لِأَنَّ الْأَجْسَادَ مَا دَامَتْ غَلِيظَةً جَافِيَةً لَا تَنْبَسِطُ وَلَا تَنْزَاجُ وَحَلَّ الْأَجْسَادُ لَا يَكُونُ
بِغَيْرِ الْأَرْوَاحِ فَأَقْرَبَهُمْ هَذَاكَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلُ وَأَعْلَمَ هَذَاكَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا الْحَلَّ فِي جَسَدِ الْحَيَوَانِ
هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَتَمَحَلُّ وَلَا يَنْقُصُ وَهُوَ الَّذِي يَقْلِبُ الطَّبَائِعَ وَيُمْسِكُهَا وَيُظْهِرُ لَهَا
أَلْوَانًا وَأَزْهَارًا عَجِيبَةً وَلَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ يَحُلُّ خِلَافَ هَذَا هُوَ الْحَلُّ النَّامُ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْحَيَاةِ
وَإِنَّمَا حَالُهُ بِمَا يُؤَافِقُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرَقُ النَّارِ حَتَّى يَرْوُلَ عَنِ الْغَلِظِ وَتَنْقَلِبُ الطَّبَائِعُ
عَنْ حَالِهَا إِلَى مَا لَهَا أَنْ تَنْقَلِبَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْغَلِظِ فَإِذَا بَلَغَتْ الْأَجْسَادُ نِهَائَتَهَا مِنْ
التَّحْلِيلِ وَالتَّلَطُّفِ ظَهَرَتْ لَهَا هُنَاكَ قُوَّةُ تُمْسِكُ وَتَغْوِصُ وَتَقْلِبُ وَتَنْفِذُ وَكُلُّ
عَمَلٍ لَا يَرَى لَهُ مُصَدِّقٌ فِي أَوَّلِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ . وَأَعْلَمَ أَنَّ الْبَارِدَ مِنَ الطَّبَائِعِ
هُوَ الْيَبَسُ الْأَشْيَاءَ وَيَعْقِدُ رُطُوبَتَهَا وَالْحَارُّ مِنْهَا يُظْهِرُ رُطُوبَتَهَا وَيَعْقِدُ يَبَسَهَا وَإِنَّمَا أَفْرَدْتُ
الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِأَنَّهُمَا فَاعِلَانِ وَالرُّطُوبَةُ وَالْيَبَسُ مُتَفَعِّلَانِ وَعَلَى أَنْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
لِصَاحِبِهِ تَحْدُثُ الْأَجْسَادُ وَتَتَكُونُ وَإِنْ كَانَ الْحَرُّ أَكْثَرَ فِعَالًا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرْدِ لِأَنَّ
الْبَرْدَ لَيْسَ لَهُ نَقْلُ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَحْوُكُهَا وَالْحَرُّ هُوَ عِلَّةُ الْحَرَكَةِ وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الْكَوْنِ
وَهُوَ الْحَرَارَةُ لَمْ يَتِمَّ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَفْرِطْتَ الْحَرَارَةَ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ
تَمَّ بَرْدٌ أَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ أَحْتَمِجُ إِلَى الْبَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ
لِيَقْوَى بِهِ كُلُّ ضِدٍّ عَلَى ضِدِّهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ وَلَمْ يَحْدِرِ الْفَلَسَفَةُ أَكْبَرَ شَيْءٍ إِلَّا
مِنَ النَّيِّرَانِ الْحَرَقَةِ وَأَمَرَتْ بِتَطْيِيرِ الطَّبَائِعِ وَالْأَنْفَاسِ وَإِخْرَاجِ دَنَسِهَا وَرُطُوبَتِهَا
وَنَقْيِ أَفَاتِهَا وَأَوْسَاطِهَا عَنْهَا عَلَى ذَلِكَ اسْتِقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَنْدَبِرُ لَهُمْ فَإِنَّمَا عَمَلُهُمْ إِنَّمَا هُوَ
مَعَ النَّارِ أَوَّلًا وَإِلَيْهَا يَصِيرُ آخِرًا فَلِذَلِكَ قَالُوا إِيَّاكُمْ وَالْبَيْرَانَ الْمُحْرِقَاتِ وَإِنَّمَا أَرَادُوا
بِذَلِكَ نَقْيَ الْأَفَاتِ الَّتِي مَعَهَا فَتَجْمَعُ عَلَى الْجَسَدِ أَفْتِنٌ فَتَكُونُ أَسْرَعَ لِهَلَاكِهِ وَكَذَلِكَ
كُلُّ شَيْءٍ إِذَا يَتَلَاشَى وَيَفْسُدُ مِنْ ذَاتِهِ لِنُضَادِّ طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ فَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ
فَلَمْ يَحْدَمْ مَا يَقْوَاهُ وَيُعِينُهُ إِلَّا قَهْرُهُ الْأَقْبَرُ وَأَهْلَكَتْهُ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْحِكَمَاءَ كُلَّهُمْ ذَكَرَتْ
تَرْدَادَ الْأَرْوَاحِ عَلَى الْأَجْسَادِ مَرَارًا لِيَكُونَ الزَّمُ إِلَيْهَا وَأَقْوَى عَلَى قِتَالِ النَّارِ إِذَا هِيَ
بَاشَرَتْهَا عِنْدَ الْإِثْفَةِ أَعْنِي بِذَلِكَ النَّارَ الْعَنْصُرِيَّةَ فَأَعْلَمَهُ . وَلِنَقْلِ الْآنَ عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي

يُمْكِنُ مِنْهُ الْعَمَلُ عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ الْفَلَّاسِقَةُ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي
الْحَيَوَانَ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي النَّبَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْمَعَادِنِ وَمِنْهُمْ مَنْ
زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَمِيعِ وَهَذِهِ الدَّعَاوِي لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى اسْتِقْصَائِهَا وَمُنَاطَرَةِ أَهْلِهَا عَلَيْهَا
لَأَنَّ الْكَلَامَ يَطُولُ جِدًّا وَقَدْ قُلْتُ فِيمَا نَقَدَّمُ أَنَّ الْعَمَلَ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ
لَأَنَّ الطَّبَائِعَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كَذَلِكَ فَتُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ
الْعَمَلُ بِالْقُوَّةِ وَالْعَمَلُ فَمَقْصِدُ إِلَى مَا قَالَهُ الْحَرَّانِيُّ إِنَّ الصَّبْغَ كَلَّةُ أَحَدٍ صَبْغَيْنِ إِمَّا
صَبْغَ جَسَدٍ كَلَّرَ عَفْرَانَ فِي الثَّوْبِ الْأَبْيَضِ حَتَّى يَحُولَ فِيهِ وَهُوَ مُضْجِلٌ مُنْتَقِضُ التَّرَكِيبِ
وَالصَّبْغُ الثَّانِي تَقْلِيبُ الْجَوْهَرِ مِنْ جَوْهَرٍ نَفْسِهِ إِلَى جَوْهَرٍ غَيْرِهِ وَلَوْ أَنَّ تَقْلِيبَ
الشَّجَرِ بَلَى التُّرَابَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَلْبَ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ التُّرَابُ نَبَاتًا
وَالنَّبَاتُ حَيَوَانًا وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّوحِ الْحَيِّ وَالْكَيَانَ الْفَاعِلِ الَّذِي لَهُ تَوَلِيدُ
الْأَجْرَامِ وَقَلْبُ الْأَعْيَانِ فَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فنَقُولُ إِنَّ الْعَمَلَ لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ إِمَّا
فِي الْحَيَوَانَ وَإِمَّا فِي النَّبَاتِ وَبُرْهَانُ ذَلِكَ أَنَّهُمَا مَطْبُوعَانِ عَلَى الْغِذَاءِ وَبِهِ قِيَامُهُمَا
وَقِيَامُهُمَا فَمَا النَّبَاتُ فَلَيْسَ فِيهِ مَا فِي الْحَيَوَانَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْقُوَّةِ وَلِذَلِكَ قَلَّ خَوْضُ
الْحُكْمَاءِ فِيهِ وَإِنَّمَا الْحَيَوَانَ فَهُوَ آخَرُ الْأَسْمَحَاتِ الثَّلَاثِ وَنَهَابَتُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْدِنَ
يَسْتَحِيلُ نَبَاتًا وَالنَّبَاتُ يَسْتَحِيلُ حَيَوَانًا وَالْحَيَوَانَ لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى شَيْءٍ هُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ
إِلَّا أَنْ يَنْعَكِسَ رَاجِعًا إِلَى الْغَلْظِ وَأَنَّهُ أَيْضًا لَا يُوْجَدُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ تَعَلَّقَ فِيهِ الرُّوحُ
الْحَيَّةُ غَيْرُهُ وَالرُّوحُ أَلْطَفُ مَا فِي الْعَالَمِ وَلَمْ تَعَلَّقْ الرُّوحُ بِالْحَيَوَانَ إِلَّا بِمَشَاكِلَتِهِ
إِبَاهَا فَمَا الرُّوحُ الَّتِي فِي النَّبَاتِ فَإِنَّهَا تَسِيرُ فِيهَا غَلْظٌ وَكَثَافَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَغْرَقَةٌ
كَمَنَّةٌ فِيهِ لِعَاطِهَا وَغَلْظُ جَسَدِ النَّبَاتِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ لِعَاطِهَا وَغَلْظُ رُوحِهِ وَالرُّوحُ
الْمُتَحَرِّكُ أَلْطَفُ مِنَ الرُّوحِ الْكَمَنَةِ كَثِيرًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَحَرِّكَ لَهَا قَبُولُ الْغِذَاءِ
وَالنَّاقِلِ وَالنَّفْسِ وَلَيْسَ لِلْكَمَنَةِ غَيْرُ قَبُولِ الْغِذَاءِ وَحَدِّهِ وَلَا تَجَرِّي إِذَا قِيسَتْ بِالرُّوحِ
الْحَيَّةِ إِلَّا كَالْأَرْضِ عِنْدَ الْمَاءِ كَذَلِكَ النَّبَاتُ عِنْدَ الْحَيَوَانَ فَالْعَمَلُ فِي الْحَيَوَانَ أَعْلَى
وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ وَأَيَسْرُفُنَبْعِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ أَنَّ يُجَرَّبَ مَا كَانَ سَهْلًا وَيَتْرَكَ مَا
يَخْشَى فِيهِ عَسِيرًا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَيَوَانَ عِنْدَ الْحُكْمَاءِ يَنْقَسِمُ أَقْسَامًا مِنَ الْأُمُوتِ الَّتِي
هِيَ الطَّبَائِعُ وَالْحَدِيثَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوَالِيدُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مُتَسِيرٌ فَالْهَمُّ فَلِذَلِكَ قَسَمْتُ

الْحِكْمَةُ الْعَنَاصِرُ وَالْمَوَالِيدُ أَقْسَامًا حَيَّةً وَأَقْسَامًا مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُنْخَرِكٍ قَادِرًا
 حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولًا مَيِّتًا وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَفِي الْأَجْسَادِ الدَّائِبَةِ
 وَفِي الْعَقَاقِيرِ الْمَعْدِنِيَّةِ قَسَمُوا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَسْتَعِلُ حَيًّا وَمَا كَانَ
 عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوُهُ مَيِّتًا فَأَمَّا الْحَيَوَانُ وَالنبَاتُ قَسَمُوا كُلَّ مَا انفصلَ مِنْهَا طَبَائِعَ أَرْبَعًا
 حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفصلَ سَمَوُهُ مَيِّتًا ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ فَلَمْ يَجِدُوا لَوْفِقِ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفصلُ فُضُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ الْحَجَرِ الَّذِي فِي
 الْحَيَوَانِ فَبَحِثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ فَتَكَيَّفَ لَهُمْ مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا
 وَقَدْ تَكَيَّفَ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَخَاطَبَهَا ثُمَّ تَفَصَّلَ بَعْدَ
 ذَلِكَ فَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفصلُ بَعْضُ هَذِهِ الْفُضُولِ مِثْلُ الْأَشْنَانِ وَأَمَّا الْمَعَادِنُ فَفِيهَا
 أَجْسَادُ وَأَرْوَاحُ وَأَنْفَاسُ إِذَا مَزُجَتْ وَدُبِّرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ وَقَدْ دَبَّرْنَا كُلَّ
 ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيَوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ فَيَبْغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا هُوَ
 الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانِ وَطَرِيقُ وَجُودِهِ إِنَّا بَيِّنَّا أَنَّ الْحَيَوَانِ أَرْفَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا
 مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ كَالنبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ أَلْطَفَ مِنَ الْأَرْضِ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهَرٍ الصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفُ فَوَجِبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةِ وَالرِّقَّةِ وَكَذَا
 هَذَا الْحَجَرُ الْحَيَوَانِيُّ بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التُّرَابِ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ
 يَنْفصلُ طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرُهُ فَأَقْرَبُهُمْ هَذَا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ لَا يَكْدُ يُخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَاهِلَةِ
 وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَا هِيَ هَذَا الْحَجَرُ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أَبِينُ لَكَ
 وَجْهَهُ تَدْبِيرَهُ حَتَّى يَكْمُلَ الَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْأَنْصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
 (التدبير على بركة الله) خُذِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ فَأَوْدِعْهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ وَفَصِّلْ
 طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعَ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصَّبْغُ فَإِذَا عَزَلْتَ
 الْمَاءَ عَنِ التُّرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَأَرْفَعِ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخُذِ الْهَابِطَ
 أَسْفَلَ الْإِنَاءِ وَهُوَ الثُّفْلُ فَأَغْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ حَتَّى تُذْهِبَ النَّارُ عَنْهُ سَوَادَهُ وَيَزُولَ
 غَلْظُهُ وَجَنَابُوهُ وَيَبْضُهُ تَبْيِضًا مُحْكَمًا وَطَبِّرْ عَنْهُ فُضُولَ الرُّطُوبَاتِ الْمُسْتَحْجَةِ فِيهِ فَإِنَّهُ
 يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً أَيْضًا لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادَّ ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ
 الْأَوَّلِ الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَبِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِّ وَكَرِّرْ عَلَيْهَا الْغَسْلَ وَالتَّصْعِيدَ

حَتَّى تَلَطُّفَ وَتَرِقَّ وَتَصْفُو فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَايِدًا بِالْأَرْكَبِ الَّذِي
 عَلَيْهِ مَدَارُ الْأَعْمَالِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَرْكَبَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَنْزُوجِ وَالْتَعْنِينِ فَأَمَّا الْأَنْزُوجُ
 فَهُوَ اخْتِلَافُ اللَّطِيفِ بِالْقَلِيظِ وَأَمَّا التَّعْنِينُ فَهُوَ التَّمَشُّيَةُ وَالسَّخَرُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ
 بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْتَرِاجِ بِالْمَاءِ فَعِنْدَ
 ذَلِكَ يَقْوَى الْقَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ وَالذَّيْبِ
 فِيهَا وَإِنَّمَا وَجِدَ ذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْكَبِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْمَحْمُولَ لَمَّا أَرْدَوْجَ بِالرُّوحِ مَازَجَهُ
 بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِنَشَأِ كُلِّهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا وَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ
 أَنْ يَعْزُضَ الرُّوحُ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَالْبَقَاءِ وَالنُّبُوتِ وَمَا يَعْزُضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ
 الْأَمْتَرِاجِ وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا أَمْتَرَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا بِخِدْمَةِ التَّدْبِيرِ اخْتَلَطَتْ
 أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْآخَرِينَ أَعْنَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَصَارَتْ هِيَ وَهُمَا شَيْئًا وَاحِدًا
 لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ طَبَائِعُهُ وَاتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا
 أَتَى هَذَا الْمَرْكَبَ الْجَسَدَ الْمَحْمُولَ وَالْحَافِظَ عَلَيْهِ النَّارَ وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ عَلَى وَجْهِهِ
 ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْمَحْمُولِ وَمِنْ شَأْنِ الرُّطُوبَةِ الْأَشْتِعَالُ وَتَعَلَّقَ النَّارُ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتْ
 النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ بِالنَّفْسِ مَازَجَةَ الْمَاءِ لَهَا فَإِنَّ النَّارَ لَا تَتَّحِدُ بِالذَّهْنِ
 حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ النُّفُورُ مِنَ النَّارِ فَإِذَا لَحَّتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ
 تَطْيِيرَهُ حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَابِسُ الْمُمَازَجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ الطَّيَرَانِ فَكَانَ الْجَسَدُ
 عِلَّةً لِإِمْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ الذَّهْنِ وَالذَّهْنُ عِلَّةً لِنَبَاتِ الصَّبْغِ وَالصَّبْغُ عِلَّةً
 لظُهُورِ الذَّهْنِ وَإِظْهَارِ الدِّهْنِيَّةِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُظْلَمَةِ الَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا فَبِذَا
 هُوَ الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهَكَذَا يَكُونُ الْأَعْمَلُ وَهَذِهِ التَّصْفِيَّةُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي
 سَمَّيْتُهَا الْحُكْمَاءَ بَيَاضَةً وَإِيَّاهَا يَعْنُونَ لَا بَيَاضَةَ الدَّجَاجِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَاءَ لَمْ يُسَمَّيْهَا
 بِهَذَا الْإِسْمِ الْغَيْرِ مَعْنَى بَلْ أَشْبَهَتْهَا وَلَقَدْ سَأَلْتُ مُسَلِّمَةَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرِي
 فَقُلْتُ لَهُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّيْتَ الْحُكْمَاءَ مَرْكَبَ الْحَيَوَانَ
 بَيَاضَةً اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَايَ إِلَيْهِ فَقَالَ بَلْ لِمَعْنَى غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا
 الْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا
 وَسَمَّوْهَا بَيَاضَةً فَقَالَ لِشَبَّهَهَا وَقَرَّابَتِهَا مِنَ الْمَرْكَبِ فَفَكَّرَ فِيهِ فَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ لَكَ مَعْنَاهُ

فَبَقِيَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ مُذَكَّرًا لَا أَقْدُرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَعْنَاهُ فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفَسَادِ
وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بِعَضْدِي وَهَزَنِي هَزَّةً خَفِيَّةً وَقَالَ لِي يَا أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ
لِلنِّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِيَّةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ امْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِفِهَا فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَتَجَنَّبُ
عَنِّي الظُّلْمَةُ وَأَضَاءُ لِي نُورٌ قَلْبِي وَقَوِيَّ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَتَهَضُّتُ شَاكِرًا اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى
مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذَلِكَ شَكْلًا هَنْدَسِيًّا يَبْرَهُنُ بِهِ عَلَى صَحَّةٍ مَا قَالَهُ مَسْلَمَةٌ وَأَنَا وَأَضَعُهُ
لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرْكَبَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ كَانَ نِسْبَةً مَا فِيهِ مِنْ
طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ كَنِسْبَةِ مَا فِي الْمُرْكَبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ
وَكَذَلِكَ الطَّبِيعَتَانِ الْأُخْرَيَانِ الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هَذِهِ
الْصِفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ هَزُوحٌ فَإِذَا ارْتَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا
نَأْخُذُ أَقْلَ طَّبَائِعِ الْمُرْكَبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبِيعَةِ الرُّطُوبَةِ
وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تَنْشِفَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ طَبِيعَةَ الرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَهَا وَكَانَ فِي هَذَا
الْكَلَامِ رَمْزًا وَلَكِنَّهُ لَا يَحْفَى عَلَيْكَ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَيْهِمَا مِنَ الرُّوحِ
وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةً أَمْثَالِ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّدْبِيرِ مِثْلًا مِنْ
طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أَجْزَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ تِسْعَةً أَمْثَالِ الْيُبُوسَةِ
بِالْقُوَّةِ وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضَالَعَيْنِ مِنَ الْمُرْكَبِ الَّذِي طَبِيعَتُهُ مَحِيْطَةٌ بِسَطْحِ الْمُرْكَبِ
طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلًا الضَّالْعَيْنِ الْمُحِيطَيْنِ بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ الْمَاءِ وَطَبِيعَةَ الْهَوَاءِ وَهُمَا ضَالَعَا
أَحَدٍ وَسَطْحُ الْجِدِّ وَكَذَلِكَ الضَّالْعَانِ الْمُحِيطَانِ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ اللَّذَانِ هُمَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
ضَالَعَا هَزُوحٍ فَأَقُولُ إِنَّ سَطْحَ الْجِدِّ يُشَبِّهُ سَطْحَ هَزُوحِ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي تُسَمَّى نَفْسًا وَكَذَلِكَ
يَجِيءُ مِنْ سَطْحِ الْمُرْكَبِ وَالْحُكْمَاءُ لَمْ تُسَمَّ شَيْئًا بِأَمْنٍ شَيْءٍ إِلَّا لَشَبَّهَ بِهِ وَالْكَلِمَاتُ
الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرْحِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ الْمُتَعَقَّدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ الْعُلَوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ
وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أُخْرِجَ سَوَادُهُ وَقُطِعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِرَ بِالزَّاجِ حَتَّى صَارَ
نُحَاسِيًّا وَالْمَغْنِيسِيَّا حَجَرُهُمُ الَّذِي تَجَمُّدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتَخْرُجُهُ الطَّبِيعَةُ الْعُلَوِيَّةُ الَّتِي
تَسْتَجِبُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ لِتَقَابُلِهَا عَلَيْهَا النَّارُ وَالْفَرْقَةُ لَوْ أَنَّ أَحَدًا قَانَ يُعَدِّثُهُ الْكَيَانَ
وَالرَّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلَاثُ قُوَى مُخْتَلِفَةٌ الشُّخُوصُ وَلَكِنَّهَا مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ
فَالْوَحِيدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نَبْرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَةُ نَفْسَانِيَّةٌ وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَّاسَةٌ

غَيْرَ أَنَّهَا أَغْلَظُ مِنَ الْأُولَى وَمَرْكَزُهَا دُونَ مَرْكَزِ الْأُولَى وَالثَّلَاثَةُ قُوَّةُ أَرْضِيَّةٍ
 حَاسَّةٍ قَابِضَةٍ مُعَكِّسَةٍ إِلَى مَرْكَزِ الْأَرْضِ لِثِقَلِهَا وَهِيَ الْمَاسِكَةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالنَّفْسَانِيَّةُ
 جَمِيعًا وَالْمُحِيطَةُ بِهِمَا وَأَمَّا سَائِرُ الْبَاقِيَةِ فَمُبْتَدَعَةٌ وَخَيْرَةٌ إِبْلَاسًا عَلَى الْجَاهِلِ وَمَنْ
 عَرَفَ الْمَقْدَمَاتِ اسْتَغْنَى عَنْ غَيْرِهَا . فَبُذِلَ جَمِيعُ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْكَ
 مُفَسِّرًا وَتَرْجُو بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ وَالسَّلَامَ أَنْتَهَى كَلَامُ ابْنِ بَشْرُونَ وَهُوَ مِنْ
 كِبَارِ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ الْمَجْرِيطِيِّ شَيْخِ الْأَنْدَلُسِ فِي عُلُومِ الْكِيمِيَاءِ وَالسِّيَمِيَاءِ
 وَالسَّحْرِ فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ وَمَا بَعْدَهُ وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ صَرَفَ الْأَفْظَاهُ كُلَّهَا فِي الصَّنَاعَةِ
 إِلَى الرَّمْزِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا تَكْادُ تَبَيَّنُ وَلَا تُعْرَفُ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصَّنَاعَةٍ
 طَبِيعِيَّةٍ . وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ فِي أَمْرِ الْكِيمِيَاءِ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي بَعْضُهُ الْوَاقِعُ نَهًا
 مِنْ حِنْسِ آثَارِ النُّفُوسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَتَصَرُّفُهَا فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ إِمَّا مِنْ نَوْعِ الْكِرَامَةِ
 إِنْ كَانَتْ النُّفُوسُ خَيْرَةً أَوْ مِنْ نَوْعِ السَّحْرِ إِنْ كَانَتْ النُّفُوسُ شَرِّيرَةً فَاجِرَةً فَأَمَّا
 الْكِرَامَةُ فَظَاهِرَةٌ وَأَمَّا السَّحْرُ فَلَاَنَّ السَّاحِرَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَكَانٍ تَحْقِيقَهُ يَقْلِبُ الْأَعْيَانَ
 الْمَادِيَّةَ بِقُوَّتِهِ السَّحَرِيَّةِ وَلَا يَدُلُّهُ مَعَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَادَّةٍ يَقَعُ فِعْلُهُ السَّحَرِيُّ فِيهَا
 كَتَخْلِيقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ مَادَّةِ التُّرَابِ أَوِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ
 مَادِيَّتِهَا الْخَصُوصَةِ بِهَا كَمَا وَقَعَ لِسَحَرَةٍ فِرْعَوْنُ فِي الْحِبَالِ وَالْغَصِيِّ وَكَمَا يُنْقَلُ عَنْ
 سَحَرَةِ السُّودَانِ وَالْهِنْدِ فِي قَاصِيَةِ الْجَنُوبِ وَالتُّرْكِ فِي قَاصِيَةِ الشَّامِ أَنَّهُمْ يَسْحَرُونَ
 الْجَوَّ لِلْأَمْطَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ تَخْلِيقًا لِلذَّهَبِ فِي غَيْرِ مَادَّتِهِ الْخَاصَةِ بِهِ
 كَانَ مِنْ قِبَلِ السَّحْرِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ فِيهِ مِنْ أَعْلَامِ الْحُكَمَاءِ مِثْلَ جَابِرٍ وَمَسْلَمَةَ
 وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ حُكَمَاءِ الْأُمَمِ . إِنَّمَا تَخَوَّاهُذَا الْمُنْحَى وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِيهِ
 أَلْفَاظًا حَدَرًا عَلَيْهَا مِنْ إِنْكَارِ الشَّرَائِعِ عَلَى السَّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ لَا أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
 الضَّنَانَةِ بِهَا كَمَا هُوَ رَأْيِي مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ وَانْظُرْ كَيْفَ سَمَّى مَسْلَمَةُ
 كِتَابَهُ فِيهَا رُتْبَةَ الْحَكِيمِ وَسَمَّى كِتَابَهُ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَسِمَاتِ غَايَةَ الْحَكِيمِ إِشَارَةً
 إِلَى عُمُومِ مَوْضُوعِ الْغَايَةِ وَخُصُوصِ مَوْضُوعِ هَذِهِ لِأَنَّ الْغَايَةَ أَعْلَى مِنَ الرُّتْبَةِ فَكَانَ
 مَسَائِلَ الرُّتْبَةِ بَعْضُ مَسَائِلِ الْغَايَةِ وَتَشَارِكُهَا فِي الْمَوْضُوعَاتِ وَمَنْ كَلَامِهِ فِي الْفَتَنِ
 يَتَبَيَّنُ مَا قُلْنَاهُ وَنَحْنُ نَبَيِّنُ فِيهَا بَعْدُ غَلَطٌ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَدَارِكَ هَذَا الْأَمْرِ بِالصَّنَاعَةِ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هَذَا الْفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي الْعُمُرَانِ كَثِيرَةٌ فِي الْمَدُنِ وَضَرَرُهَا فِي الدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجِبَ أَنْ يُصَدَّعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ الْمُعْتَقَدِ الْحَقِّ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ عَقَلَاءِ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ الْحَسِّيَّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَ الْحَسِّيِّ تُدْرِكُ أَدَوَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَالِهَا بِالْأَنْظَارِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَفْسَسَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَأَنَّ تَصَحُّحَ الْعُقَايِدِ إِلَّا بِإِيمَانِيَّةٍ مِنْ قَبْلِ النَّظَرِ لَا مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ الْعَقْلِ وَهَؤُلَاءِ يَسْمَوْنَ فَلَاسِفَةً جَمَعَ فَيَلْسُونُ وَهُوَ بِاللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ حُبُّ الْحِكْمَةِ فَيَحْشَوْنَ عَنْ ذَلِكَ وَشَمَرُوا لَهُ وَحَوَمُوا عَلَى إِصَابَةِ الْغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُونًا يَهْدِي بِهِ الْعَقْلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَسَمَوْهُ بِالْمَنْطِقِ وَخَصَّصُوا ذَلِكَ أَنَّ النَّظَرَ الَّذِي يَفِيدُ تَمْيِيزَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذِّهْنِ فِي الْمَعْنَى الْمُنْتَزَعَةِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الشَّخْصِيَّةِ فَيَجْرَدُ مِنْهَا أَوَّلًا صَوْرٌ مُنْطَبِقَةٌ إِلَى جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ الطَّابِعُ عَلَى جَمِيعِ النُّقُوشِ الَّتِي تَرْتُمُهَا فِي طِينٍ أَوْ شَمْعٍ وَهَذِهِ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْحَسُوسَاتِ تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلَاتِ ثُمَّ تَجْرَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَعْنَى الْكُلِّيَّةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرَكَةً مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي الذِّهْنِ فَتَجْرَدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ الَّتِي أَشَارَكَتْ بِهَا ثُمَّ تَجْرَدُ ثَانِيًا إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ التَّجْرِيدُ إِلَى الْمَعْنَى الْبَسِيطَةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَعْنَى وَالْأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجْرِيدٌ بَعْدَ هَذَا وَهِيَ الْأَجْنِاسُ الْعَالِيَةُ وَهَذِهِ الْمَجْرَدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي فَإِذَا نَظَرَ الْفِكْرِيُّ فِي هَذِهِ الْمَعْقُولَاتِ الْمَجْرَدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذِّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَفْنِي بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبَرَهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِينِيِّ لِيُحْصَلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّرًا صَحِيحًا مُطَابِقًا إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصَنَّفَ التَّصْدِيقَ الَّذِي هُوَ تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عَنْهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النِّهَايَةِ وَالصَّوْرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي الْبِدْءَةِ وَالتَّعْلِيمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ النَّامَ عَنْهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

التَّصَدِيقُ وَسِيْلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ الْمَنَظِّقِيْنَ مِنْ نَقْدِ التَّصَوُّرِ وَتَوْفُّقِ
 التَّصَدِيقِ عَلَيْهِ فَيَمَعْنِي الشُّعُورُ لَا يَمَعْنِي الْعِلْمُ النَّامُ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ أَرَسَطُو
 ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْحَسِّ وَمَا وَرَاءَ الْحَسِّ
 بِهَذَا النَّظَرِ وَتِلْكَ الْبَرَاهِينُ وَحَاصِلُ مَذَارِكِهِمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا آتَى إِلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي
 قَرَّعُوا عَلَيْهِ فَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِسْمِ السُّفْلِيِّ بِحُكْمِ الشُّهُودِ وَالْحَسِّ ثُمَّ تَرَقَّى
 إِدْرَاكِهُمْ فَلَا تَشْعُرُوا بِوُجُودِ النَّفْسِ مِنْ قِبَلِ الْحَرَكَةِ وَالْحَسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحْسَوْا مِنْ
 قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ وَوَقَفَتْ إِدْرَاكِهُمْ فَقَضَوْا عَلَى الْجِسْمِ الْعَالِيِّ السَّمَاوِيِّ بِخَوْ مِنْ الْقَضَاءِ
 عَلَى أَمْرِ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ عَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ
 أَمَّهُوا ذَلِكَ نِهَآيَةَ عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ الْعَشْرُ تِسْعَ مَفْصَلَةٍ دَوَاتِهَا جُمْلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلٌ مُفْرَدٌ
 وَهُوَ الْعَاشِرُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا الْخَوْ مِنْ الْقَضَاءِ مَعَ
 تَهْدِيبِ النَّفْسِ وَتَخْلُقِهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرِدْ شَرْعٌ لِمُتَمَيِّزِهِ
 بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمِثْلِهِ إِلَى الْعَمُودِ مِنْهَا
 وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا الْبَهْجَةُ وَاللَّذَّةُ وَأَنَّ
 الْجَهْلَ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى النِّعَمِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى
 خَبَطِ لَهُمْ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلِمَاتِهِمْ وَإِمَامُ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الَّذِي حَصَلَ
 مَسَائِلُهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَّرَ حُجَجَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا فِي هَذِهِ الْأَحْقَابِ هُوَ أَرَسَطُو الْمَقْدُونِيُّ مِنْ
 أَهْلِ مَقْدُونِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفَلَاطُونٍ وَهُوَ مُعَلِّمُ الْأَيْسْكَانَدَرِ وَيُسَمُّونَهُ
 الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَعْثُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ الْمَنَظِّقِ إِذْ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مَهَذَّبَةً
 وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَأَسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِ
 مَا شَاءَ لَوْ تَكَفَّلَ لَهُ يَقْضِيهِمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ
 بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذَوُ الْعَمَلِ بِالْعَمَلِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ وَذَلِكَ أَنَّ كُتُبَ
 أُولَئِكَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرَجَّمَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنَ اللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ
 الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ مِنْ مُتَحَلِّي
 الْعُلُومِ وَجَادَلُوا عَنْهَا وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيعِهَا وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ
 فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ

الْمَلِكِ مِنْ بَنِي بُوَيْهٍ بِأَصْبَهَانَ وَغَيْرَهُمَا. وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بِاطِلٍ
 بِجَمِيعٍ وَجْهِهِ فَأَمَّا اسْتِنَادُهُمُ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَاسْتَفَادَتُهُمْ بِهِ فِي
 التَّرَقِّي إِلَى الْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُتَبِ خَلْقِ اللَّهِ فَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا
 مِنْ ذَلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَكَانَتْهُمْ فِي اقْتِصَارِهِمْ عَلَى اثْبَاتِ الْعَقْلِ فَقَطُّ وَالْعَقْلُ عَمَّا
 وَرَاءَهُ بِمِثَالَةِ الطَّبِيعِيِّينَ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى اثْبَاتِ الْأَجْسَامِ خَاصَّةً الْمَعْرِضِينَ عَنِ النُّقْلِ
 وَالْعَقْلُ الْمُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ شَيْءٌ وَأَمَّا الْبَرَاهِينُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا
 عَلَى مَدْعِيَاتِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مَعْيَارِ الْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فِيهِ قَاصِرَةٌ وَغَيْرُ
 وَافِيَةٍ بِالْفَرَضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الطَّبِيعِيَّ فَوَجْهٌ
 قُصُورِهِ أَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ التَّنَائِجِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِالْحُدُودِ وَالْأَفْسَسَةِ كَمَا
 فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي الْخَارِجِ غَيْرُ يَقِينٍ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامَ ذِهْنِيَّةٍ كَلَامِيَّةٍ عَامَّةٍ
 وَالْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ مُتَشَخَّصَةٌ بِمَوَادِّهَا وَلَعَلَّ فِي الْمَوَادِّ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ الذِّهْنِيِّ
 الْكَلَامِيِّ لِلْخَارِجِيِّ الشَّخْصِيِّ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ الْحِسُّ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلُهُ شَهَادَةُ
 لَا تِلْكَ الْبَرَاهِينُ فَإِنَّ الْيَقِينَ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ تَصَرُّفُ اللَّهِ أَيْضًا
 فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ الْمُطَابَقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِالْأُصُولِ الْخَيَالِيَّةِ لَا فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي
 الَّتِي تَجَرِّدُهَا فِي الرُّتَبَةِ الثَّانِيَةِ فَيَكُونُ الْحُكْمُ حِينَئِذٍ يَقِينًا بِمِثَالَةِ الْمَحْسُوسَاتِ إِذِ
 الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ الْخَارِجِ لِكَمَالِ الْأَنْطَبَاقِ فِيهَا فَسَلِّمْ لَهُمْ حِينَئِذٍ
 دَعَاؤَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ الْمُسْلِمِ
 أَمَّا لَا يَنْعِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ الطَّبِيعِيَّاتِ لَا تُهْمُنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجِبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا .
 وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَرَاءَ الْحِسِّ وَهِيَ الرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ
 الْأِلَهِيَّ وَعَلِمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّ ذَوَاتَهَا مُجْهُولَةٌ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا
 الْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ الْمَعْقُولَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ
 مُمْكِنٌ فِيمَا هُوَ مُدْرَكٌ لَنَا وَنَحْنُ لَا نُدْرِكُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نَجْرِدَ مِنْهَا مَا هِيَ
 أُخْرَى بِحِجَابِ الْحِسِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأَتَّى لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرِكٌ لَنَا فِي اثْبَاتِ
 وُجُودِهَا عَلَى أَجْمَلَةٍ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ النَّاسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا
 وَخُصُوصًا فِي الرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ وَجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فَأَمْرٌ غَامُضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَقَدْ صَرَحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُهُمْ حَيْثُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ
مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمَكِّنُ الْبُرْهَانَ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ الْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِيَّاتٍ أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً
وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفَلَاطُونُ إِنَّ الْأَلِهِيَّاتِ لَا يُوصَلُ فِيهَا إِلَى اثْنَيْنِ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْإِخْلَاقِ
وَالْأَوَّلَى بِعَيْنِ الظَّنِّ وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ النَّعْبِ وَالنَّصَبِ عَلَى الظَّنِّ فَقَطْ فَيَكْفِينَا
الظَّنُّ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا نَأْيٌ فَائِدَةٌ لِهَذِهِ الْعُلُومِ وَالِاشْتِغَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ
الْيَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ الْحِسِّ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ
وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بَتَلَاكِ الْبَرَاهِينِ فَقَوْلٌ
مُزَيَّفٌ مُرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْءَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيٌّ وَالْآخَرُ
رُوحَانِيٌّ مُمْتَزَجٌ بِهِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجُزْءَيْنِ مَدَارِكٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَالْمَدْرِكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ
وَهُوَ الْجُزْءُ الرُّوحَانِيُّ يَدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ
الْمَدَارِكَ الرُّوحَانِيَّةَ يَدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَالْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةَ بِوَاسِطَةِ آلَاتِ
الْجِسْمِ مِنَ الدِّمَاغِ وَالْحَوَاسِّ وَكُلُّ مَدْرِكٍ فَلَهُ ابْتِهَاجٌ بِمَا يَدْرِكُهُ وَاعْتِبَرُهُ بِحَالِ الصَّبِيِّ
فِي أَوَّلِ مَدَارِكِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةِ كَيْفِ يَنْتَهِجُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ الضَّوِّ وَبِمَا
يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِبْتِهَاجَ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ
وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَالَّذِي فَالْتَنَسُ الرُّوحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ
ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَصَلَ لَهَا ابْتِهَاجٌ وَلَذَّةٌ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الْإِدْرَاكِ لَا يَحْصُلُ بِنَظَرٍ وَلَا
عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ وَنِسْيَانِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةُ
كَثِيرًا مَا يُعْنَوْنَ بِحُصُولِ هَذَا الْإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هَذِهِ النُّجْمَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالرَّيَاضَةِ
إِمَانَةَ الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى الْفِكْرِ مِنَ الدِّمَاغِ وَيَحْصُلُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكِهَا الَّذِي
لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ الشَّوَاغِبِ وَالْمَوَانِعِ الْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ بَهْجَةٌ وَلَذَّةٌ لَا يُعْبَرُ
عَنْهَا وَهَذَا الَّذِي زَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ صَحْنِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَمَوْعٌ ذَلِكَ غَيْرُ وَافٍ بِمَقْصُودِهِمْ فَأَمَّا
قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدَلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ مُخَصَّاتٌ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْإِبْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ
كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدَلَّةُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ لِأَنَّهَا بِالْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ
مِنْ أَطْيَالِ وَالْفِكْرِ وَالذِّكْرِ وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَعْنِي بِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْإِدْرَاكِ
إِمَانَةَ هَذِهِ الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازَعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ الْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفًا

عَلَى كِتَابِ الشَّفَاءِ وَالْإِشَارَاتِ وَالنَّجَاءِ وَتَلَاخِيصِ ابْنِ رُشْدٍ لِلْقَصِّ مِنْ تَأْلِيفِ أَرِسْطُو
 وَغَيْرِهِ يُعْزَرُ أَوْ رَاقَهَا وَيَتَوَقَّى مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هَذَا الْقِسْطَ مِنَ السَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا
 يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا وَمُسْتَدْتُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ
 أَرِسْطُو وَالْفَارَابِيِّ وَأَبْنِ سِينَانَ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ
 فَقَدْ حَصَلَ حَظُّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ وَالْعَقْلُ الْفَعَالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَكْشِفُ
 عَنْهَا الْحُسْنَ مِنْ رُتْبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الْإِتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ
 وَقَدْ رَأَيْتُ فُسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ الْإِتِّصَالَ وَالْإِدْرَاكِ إِدْرَاكِ النَّفْسِ
 الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ الْحُسْنِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
 إِنَّ أَلْبَهَجَةَ النَّاشِئَةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضًا لِأَنَّا
 إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحُسْنِ مَذْرَكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا يَتَّبِعُ
 بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ أَتْبَهَاجًا شَدِيدًا وَذَلِكَ لَا يُعَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ وَلَا بَدْ
 بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَاذِ الَّتِي لَتِلْكَ السَّعَادَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هَذِهِ
 الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدَّمْنَاهُ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنْ
 الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الوجودَ عِنْدَ كُلِّ مَذْرَكٍ مُتَّخِذٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيْنَا فُسَادَ
 ذَلِكَ وَإِنَّ الوجودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحْاطَ بِهِ أَوْ يَسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جِسْمَانِيًّا
 وَالَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا قَارَقَ الْقُوَى
 الْجِسْمَانِيَّةَ أَدْرَكَ إِدْرَاكَ ذَاتِهَا لَهُ مُخْتَصًّا بِصِنْفٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي
 أَحَاطَ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامٍّ الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَتَخَصَّرْ وَأَنَّهُ يَتَّبِعُ
 بِذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْإِدْرَاكِ أَتْبَهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَتَّبِعُ الصَّبِيَّ بِمَدَارِكِهِ الْحُسْنِيَّةِ فِي أَوَّلِ
 نَشْوِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ يَحْصُلُ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا
 بِهَا الشَّارِعَ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعِدُونَ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ
 بِتَهْدِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِإِلَاسَةِ الْحَمْدِ مِنَ الْخَلْقِ وَمُجَانِبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى
 أَنَّ أَتْبَهَاجَ لِلنَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ
 الرِّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ
 وَالْوَلَوَانِيَّاتِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ مِنْ وَرَاءِ الْإِدْرَاكِاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ

فَهَذَا التَّهْدِيبُ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِنَّمَا نَفَعُهُ فِي الْمَهْجَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْإِدْرَاكِ
 أَرْوَحَانِي فَقَطُّ الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَائِدِسَ وَقَوَائِنَ وَأَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدَنَا
 بِهَا الشَّارِعُ عَلَى امْتِنَالِ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ فَأَمْرٌ لَا يُحِيطُ بِهِ مَدَارِكُ
 الْمُدْرِكِينَ وَقَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ زَعِيمُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ أَيْنُ سِينَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ
 مَا مَعْنَاهُ إِنَّ الْمَعَادَ أَرْوَحَانِي وَأَحْوَالُهُ هُوَ مَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَقَالِيسِ
 لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعِيَّةٍ مَحْمُوظَةٍ وَوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَنَا فِي الْبَرَاهِينِ عَلَيْهِ سَعَةٌ وَأَمَّا الْمَعَادُ
 الْجُسْمَانِي وَأَحْوَالُهُ فَلَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِالْبَرَهَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَدْ
 بَسَطْنَاهُ لَنَا الشَّرِيعَةُ الْحَقَّةُ الْحَمْدُ لَهُ فَلْيَنْظُرْ فِيهَا وَلْيَرْجِعْ فِي أَحْوَالِهِ إِلَيْهَا فَهَذَا الْعِلْمُ
 كَمَا رَأَيْتُهُ غَيْرُ وَافٍ بِمَقَاصِدِهِمُ الَّتِي حَرَّمُوا عَلَيْهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرَائِعِ وَظَوَاهِرِهَا
 وَلَيْسَ لَهُ فِيمَا عَلِمْنَا إِلَّا ثَمَرَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ شَحْذُ الذِّهْنِ فِي تَرْتِيبِ الْأَدِلَّةِ وَالْحُجَجِ
 لِتَحْصِيلِ مَلَكَتِ الْجُودَةِ وَالصَّوَابِ فِي الْبَرَاهِينِ وَذَلِكَ أَنَّ نَظْمَ الْمَقَالِيسِ وَتَرَكِيبَهَا
 عَلَى وَجْهِ الْأَحْكَامِ وَالْإِنْفَانِ هُوَ كَمَا شَرَطُوهُ فِي صِنَاعَتِهِمُ الْمُنْطَقِيَّةِ وَقَوْلُهُمْ بِذَلِكَ
 فِي عُلُومِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ وَهُمْ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي عُلُومِهِمُ الْحِكْمِيَّةِ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ
 وَالنَّعَالِمِ وَمَا بَعْدَهَا فَيَسْتَوِلِي النَّظَارُ فِيهَا بِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ بِشُرُوطِهَا عَلَى
 مَلَكَتِ الْأِنْفَانِ وَالصَّرَابِ فِي الْحُجَجِ وَالْإِسْتِدْلَالَاتِ لِأَنَّهُا وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ وَافِيَةٍ
 بِمَقْصُودِهِمْ فَهِيَ أَصَحُّ مَا عَلِمْنَاهُ مِنْ قَوَائِنِ الْأَنْظَارِ هَذِهِ ثَمَرَةُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَعَ
 الْأَطْلَاعِ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَآرَائِهِمْ وَمُضَارِبِهَا مَا عَلِمْتَ فَلْيَكُنِ النَّظَارُ فِيهَا مَتَحَرِّرًا
 جَهْدُهُ مِنْ مَعَاطِبِهَا وَلْيَكُنْ نَظَرٌ مِنْ يَنْظُرُ فِيهَا بَعْدَ الْإِمْتِلَاعِ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى
 التَّفْسِيرِ وَالْفَقْهِ وَلَا يُكَبَّنْ أَحَدٌ عَلَيْهَا وَهُوَ خُلُوٌّ مِنْ عُلُومِ الْمَلَّةِ فَقُلْ أَنْ يَسْلَمَ لِذَلِكَ مِنْ
 مَعَاطِبِهَا وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَالْحَقِّ وَالْهَادِي إِلَيْهِ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها
 هَذِهِ الصَّنَاعَةُ يَزْعُمُ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِهَا الْكَائِنَاتِ فِي عَالَمِ الْعُنَاصِرِ قَبْلَ حُدُوثِهَا
 مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ قُوَى الْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرِهَا فِي الْمَوَلَّدَاتِ الْعُنْصَرِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُجْتَمِعَةً
 فَتَكُونُ لِذَلِكَ أَوْضَاعُ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ دَالَّةً عَلَى مَا سَيَحْدُثُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ

الكَائِنَاتِ الْكَلِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ فَالْمَتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ قُوَى الْكَوَاكِبِ
وَتَأْثِيرَاتِهَا بِالتَّجَرُّبَةِ وَهُوَ أَمْرٌ يُقْصَرُ الْأَعْمَارُ كُلُّهَا لَوْ اجْتَمَعَتْ عَنْ تَحْصِيلِهِ إِذِ التَّجَرُّبَةُ
إِنَّمَا تَحْصُلُ فِي الْمَرَّاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ بِالتَّكْرَارِ لِيَحْصَلَ عَنْهَا الْعِلْمُ أَوْ الظَّنُّ وَأَدْوَارُ
الْكَوَاكِبِ مِنْهَا مَا هُوَ طَوِيلُ الزَّمَنِ فَيَحْتَاجُ تَكَرُّرَهُ إِلَى آمَادٍ وَأَحْقَابٍ مُطَوَّلَةٍ
يَتَقَاصَرُ عَنْهَا مَا هُوَ طَوِيلٌ مِنْ أَعْمَارِ الْعَالَمِ وَرَبَّمَا ذَهَبَ ضِعْفًا مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ
قُوَى الْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرَاتِهَا كَانَتْ بِالْوَحْيِ وَهُوَ رَأْيٌ قَائِلٌ وَقَدْ كَفَوْنَا مَوْثِقَ إِبْطَالِهِ
وَمِنْ أَوْضَحِ الْأَدِلَّةِ فِيهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْبَدَ النَّاسِ عَنِ
الصَّنَائِعِ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَعَرَّضُونَ لِلِإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَنِ اللَّهِ فَكَيْفَ
يَدْعُونَ اسْتِنْبَاطَهُ بِالصَّنَاعَةِ وَيَشِيرُونَ بِذَلِكَ لِتَابِعِيهِمْ مِنْ أَخْلَاقٍ وَأَمَّا بَطْلِيمُسُ وَمَنْ
تَبِعَهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَيَرَوْنَ أَنَّ دَلَالََةَ الْكَوَاكِبِ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ طَبِيعِيَّةٌ مِنْ قَبْلِ مَزَاجٍ
يَحْصُلُ لِلْكَوَاكِبِ فِي الْكَائِنَاتِ الْعُنْصَرِيَّةِ قَالَ لِأَنَّ فِعْلَ النَّيِّرِينَ وَتَأْثِيرَهُمَا فِي الْعُنْصَرِيَّاتِ
ظَاهِرٌ لَا يَسَعُ أَحَدًا جَمْعُهُ مِثْلُ فِعْلِ الشَّمْسِ فِي تَبْدُلِ الْفُصُولِ وَأَمْرُ جَبْتِهَا وَنُضْجِ الشِّمَارِ
وَالزَّرْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْقَمَرِ فِي الرُّطُوبَاتِ وَالْمَاءِ وَإِنْضَاجِ الْمَوَادِّ الْمُتَغَفِّنَةِ
وَفَوَاكِهِ الْفَنَاءِ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ ثُمَّ قَالَ وَلَكِنَّا فِيمَا بَعْدَهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ طَرِيقَانِ الْأَوَّلَى التَّقْلِيدُ
لِمَنْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ أَيْمَةِ الصَّنَاعَةِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُقْنِعٍ لِلنَّفْسِ الثَّانِيَةِ الْخُدْسُ وَالتَّجَرُّبَةُ
بِقِيَاسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى النَّيِّرِ الْأَعْظَمِ الَّذِي عَرَفْنَا طَبِيعَتَهُ وَتَأْثِيرَهُ مَعْرِفَةً ظَاهِرَةً
فَنَنْظُرُ هَلْ يَزِيدُ ذَلِكَ الْكَوَاكِبُ عِنْدَ الْقِرَانِ فِي قُوَّتِهِ وَمَزَاجِهِ فَتَعْرِفُ مُوَافَقَتَهُ لَهُ فِي
الطَّبِيعَةِ أَوْ يَنْقُصُ عَنْهَا فَتَعْرِفُ مُضَادَّتَهُ ثُمَّ إِذَا عَرَفْنَا قُوَاهَا مُفْرَدَةً عَرَفْنَاها مُرَكَّبَةً وَذَلِكَ
عِنْدَ تَنَاظُرِهَا بِأَشْكَالِ التَّثْلِيثِ وَالتَّرْبِيعِ وَغَيْرِهِمَا وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ طَبَائِعِ
الْبُرُوجِ بِالْقِيَاسِ أَيْضًا إِلَى النَّيِّرِ الْأَعْظَمِ وَإِذَا عَرَفْنَا قُوَى الْكَوَاكِبِ كُلِّهَا فَبِهِ
مُؤَثَّرَةٌ فِي الْهَوَاءِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ وَالْمَزَاجُ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْهَا لِلْهَوَاءِ يَحْصُلُ لِمَا تَحْتَهُ مِنْ
الْمَوَلَّدَاتِ وَتَتَخَلَّقُ بِهِ النُّطْفُ وَالْبُزُرُ فَتَصِيرُ حَالًا لِلْبَدَنِ الْمُشْكُونِ عَنْهَا وَلِلنَّفْسِ
الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ الْفَائِضَةِ عَلَيْهِ الْمَكْتَسِبَةِ لِمَا لَهَا مِنْهُ وَلِمَا يَتَّبِعُ النَّفْسَ وَالْبَدْنَ مِنَ الْأَحْوَالِ
لِأَنَّ كَيْفِيَّاتِ الْبُزْرَةِ وَالنُّطْفَةِ كَيْفِيَّاتٌ لِمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا وَيَنْشَأُ مِنْهُمَا قَالَ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ
خَافِيٌّ وَلَيْسَ هُوَ أَيْضًا مِنَ الْقَضَاءِ إِلَّا إِلَهِيٌّ يَعْنِي الْقَدَرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ

الطَّبِيعَةِ لِلْكَائِنِ وَالْقَضَاءِ لِلْإِلَهِ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هَذَا مُحْصَلُ كَلَامِ بَطْلِيمُسَ
وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِهِ الْأَرْبَعِ وَغَيْرِهِ وَمِنْهُ يَتَبَيَّنُ ضَعْفُ مُدْرِكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ الْكَائِنَ أَوْ الظَّنَّ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنِ الْعِلْمِ بِجُمْلَةِ أَسْبَابِهِ مِنَ الْفَاعِلِ
وَالْقَابِلِ وَالصُّورَةِ وَالْغَايَةِ عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ وَالْقُوَى النُّجُومِيَّةَ عَلَى مَا قَرَّرُوهُ
إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ وَالْجُزْءُ الْعَنْصَرِيُّ هُوَ الْقَابِلُ ثُمَّ إِنَّ الْقُوَى النُّجُومِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلُ
بِجُمْلَتِهَا بَلْ هُنَاكَ قُوَى أُخْرَى فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي الْجُزْءِ الْمَادِيِّ مِثْلُ قُوَّةِ التَّوَلِيدِ لِلْأَبِ
وَالنُّوْعِ الَّتِي فِي النُّطْفَةِ وَقُوَى الْخَاصَّةِ الَّتِي تَمَيِّزُ بِهَا صِنْفٌ مِنَ النُّوْعِ وَغَيْرُ ذَلِكَ فَالْقُوَى
النُّجُومِيَّةُ إِذَا حَصَلَ كَمَالُهَا وَحَصَلَ الْعِلْمُ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ
الْفَاعِلَةِ لِلْكَائِنِ ثُمَّ إِنَّهُ يُشْتَرَطُ مَعَ الْعِلْمِ بِقُوَى الدُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا مَزِيدٌ حُدْسٌ وَتَخْمِينٌ
وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ عِنْدَهُ الظَّنُّ بِوُقُوعِ الْكَائِنِ وَالْحُدْسُ وَالتَّخْمِينُ قُوَى لِلنَّازِلِ فِي فِكْرِهِ
وَلَيْسَ مِنْ عِلَلِ الْكَائِنِ وَلَا مِنْ أَصُولِ الصَّنَاعَةِ فَإِذَا فَقَدَ هَذَا الْحُدْسُ وَالتَّخْمِينُ رُجِعَتْ
أَدْرَاجُهَا عَنِ الظَّنِّ إِلَى الشَّكِّ هَذَا إِذَا حَصَلَ الْعِلْمُ بِالْقُوَى النُّجُومِيَّةِ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ
تَعْتَرِضْهُ آفَةٌ وَهَذَا مُعَوِّزٌ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حِسَابَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِيَتَعَرَّفَ
بِهِ أَوْضَاعُهَا وَلِمَا أَنَّ اخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَمُدْرِكُ بَطْلِيمُسَ فِي
إثْبَاتِ الْقُوَى لِلْكَوَاكِبِ الْخُمُسَةَ بَقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُدْرِكٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ
غَالِبَةٌ لِكُلِّ جَمِيعِ الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوَلِيَّةٌ عَلَيْهَا فَقُلَّ أَنْ يُشْعَرَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ
النَّقْصَانِ مِنْهَا عِنْدَ الْمُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِرَةٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الْوَاقِعَةِ
فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ ثُمَّ إِنَّ تَأْثِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيهَا تَحْتَجُّ بِأَبْطَلٍ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ
فِي بَابِ التَّوْحِيدِ أَنَّ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتُهُ وَاحْتَجَّ لَهُ أَهْلُ
عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْبَيَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبَّبَاتِ مَجْهُولُ
الْكَيْفِيَّةِ وَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى مَا يَقْضَى بِهِ فِيمَا يَظْهَرُ بِأَدْنَى الرَّأْيِ مِنَ التَّأْثِيرِ فَلَعَلَّ
اسْتِنَادَهَا عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْثِيرِ الْمُتَعَارَفِ وَالْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا
رَبَطَتْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ عَلَوًا وَسَفَلًا سِيمَا وَالشَّرْعُ يَرُدُّ الْحَوَادِثَ كُلُّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَبَرَامِمًا سِوَى ذَلِكَ وَالنُّبُوءَاتُ أَيْضًا مِنْكَرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاسْتِقْرَاءُ
الشَّرْعِيَّاتِ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا

لِحَاثِهِ وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ
وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ
بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ أَلْحَدِثُ الصَّحِيحُ فَقَدْ بَانَ لَكَ بَطْلَانُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِنْ طَرِيقِ
الشَّرْعِ وَضَعْتُ مَدَارِكَهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْمَضَارِّ فِي الْعُمُرَانِ
الْإِنْسَانِيِّ يَمَا تَبَعَتْ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِّ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا اتَّفَقَ الصِّدْقُ مِنْ أَحْكَامِهَا فِي
بَعْضِ الْأَحَادِيثِ اتَّفَاقًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَعَايُلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيُلْهِجُ بِذَلِكَ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَبِظَنِّ
أَطْرَادِ الصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَيَقْعُ فِي رَدِّ الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا ثُمَّ
مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوَقُّعُ مِنْ
تَطَاوُلِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُتَرَبِّصِينَ بِالْدَوْلَةِ إِلَى الْفَتَكِ وَالْفُتُورَةِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا
فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْطَرَ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَضَارِّ فِي
الدِّينِ وَالدُّوَلِ وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ وَجُودِهَا طَبِيعِيًّا لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ
وَعُلُومِهِمْ فَأَخْبِرُ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمَكِّنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ
التَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا فَيَتَعَيَّنُ السَّعْيُ فِي اكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ
أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِّ هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ وَلِعَلَّاهُ
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ تَحْصِيلَ
عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتِهَا بَلْ إِنْ نَظَرَ فِيهَا نَاطِرٌ وَظَنَّ الْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ فِي
نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ النَّظَرَ فِيهَا فَقَدْ اجْتَنَبَ مِنْ أَهْلِ الْعُمُرَانِ لِقِرَاءَتِهَا
وَالْتَحَلُّقَ لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ الْمَوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يَطَالُعُ
كُتُبَهَا وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرِ يَتِهِ مُسْتَرًّا عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ رُبْقَةِ الْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ
الصَّنَاعَةِ وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَاعْتِبَاصِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ وَنَحْنُ
نَجِدُ الْفَقْهَ الَّذِي عَمَّ نَفْعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَّلَتْ مَأْخِذُهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَعَكَفَتْ
الْجُمْهُورُ عَلَى قِرَائَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ التَّحْقِيقِ وَالتَّجْمِيعِ وَطُولِ الْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ الْجُلُوسِ
وَتَعَدُّدِهَا إِنَّمَا يَحْدُقُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ فَكَيْفَ يُعْلَمُ
مَهْجُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سَدُّ الْخَطَرِ وَالْعَزِيمُ مَكْتُومٌ عَنِ الْجُمْهُورِ صَعْبُ
الْمَأْخِذِ مُخْتَلَجٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّحْصِيلِ لِأَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حَدْسٍ وَنَحْمِيقٍ

يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ النَّظَرِ فَأَيْنَ التَّخْصِيلُ وَالْحِذْقُ فِيهِ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا وَمَدَّ عَى ذَلِكَ مِنَ
النَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذَلِكَ لِعَرَابَةِ الْفَنِّ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَقَلَّةِ
حَمَلَتِهِ فَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ صَحَّةُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ
أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ عِنْدَ مَا غَلَبَ الْعَرَبُ
عَسَاكِرَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَحَاصِرُوهُ بِالْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ إِرْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ
وَالْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ الرُّوحِيُّ مِنْ شُعْرَاءِ أَهْلِ تُونِسَ

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالْمَنَاءُ
أَصْبَحُ فِي تُونِسَ وَأَمْسِي وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
الْخَوْفُ وَالْجُوعُ وَالْمَنَايَا يُحْدِثُهَا الْهَرْجُ وَالْوَبَاءُ
وَالنَّاسُ فِي مَرِيَّةٍ وَحَرْبٍ وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمِرَاءُ
فَأَحْمَدِي يَرَى عَلِيًّا حَلَّ بِهِ الْهَلَاكُ وَالْتَوَاءُ
وَأَخْرُ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي بِهِ إِلَيْكُمْ صَبَا رَخَاءُ
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقَ ذَا وَهَذَا يَقْضِي لِعَبْدِهِ مَا يَشَاءُ
يَا رَاصِدَ الْخَنَسِ الْجَوَارِي مَا فَعَلْتَ هَذِهِ السَّمَاءُ
مَطْلَتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ الْيَوْمَ أَمْلَاءُ
مَرَّ خَمِيسٌ عَلَى خَمِيسٍ وَجَاءَ سَبْتُ وَأَرْبَعَاءُ
وَصِفْتُ شَهْرَ وَعْشُرَ ثَانٍ وَثَلَاثُ ضَمَّةُ الْقَضَاءُ
وَلَا تَرَى غَيْرَ زُورٍ قَوْلٍ أَذَاكَ جَهْلُ أُمِّ أَرْدَرَاءُ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ
رَضِيتُ بِاللَّهِ لِي إِلَهًا حَسْبُكُمْ الْبَدْرُ أَوْ ذُكَاةُ
مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السُّوَارِي إِلَّا عِبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ
يُقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ نَقْضِي وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى أَقْضَاءُ
صَلَّتْ عَقُولُ تَرَى قَدِيمًا مَا شَأْنُهُ الْجُرْمُ وَالْفَنَاءُ
وَحَكَمَتْ فِي الْوُجُودِ طَبْعًا يُحْدِثُهُ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
لَمْ تَرَ حُلُومًا إِذَا مَرَّ تَغْدُوهُمْ ثُرَّةٌ وَمَاءُ

اللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ وَالْخَلَاءُ
 وَلَا أَلْهِيُولَى الَّتِي تُنَادِي مَا لِي عَنْ صُورَةٍ عَرَاءُ
 وَلَا وُجُودٌ وَلَا أَعْدَامٌ وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا انْتِفَاءُ
 وَالْكَسْبُ أَدْرِ فِيهِ إِلَّا مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ
 وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي مَا كَانَتْ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
 إِذْ لَا فُصُولٌ وَلَا أَصُولٌ وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
 مَا تَبِعَ الصَّدْرَ وَافْتَقَيْنَا يَا حَبِذَا كَانَتْ الْأَقْفَاءُ
 كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ أَلْهَدَاءُ
 يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي أَشْعَرَنِي الصَّبْفُ وَالشَّيَاءُ
 لَمْ أَجْزْ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ وَالْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
 وَإِنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا فَلَسْتُ أَعْصَى وَلِي رَجَاءُ
 وَإِنِّي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالْتِرَاءُ
 لَيْسَ أَنْتَصَارُ بِكُمْ وَلَكِنْ أَتَاكَ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ
 لَوْ حَدِثَ الْأَشْعَرِي عَمَنْ لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
 لَقَالَ أَخْبِرْهُمْ بِأَنِّي مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفساد عن انتحالها

إِعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ
 الصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
 وَاسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ وَمَعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعَسْفِ
 الْحُكَامِ وَخِسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي الْفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى الْبَلِّلِ مِنْ غَرَضِهِ وَأَعْطَبَ آخِرًا
 إِذَا ظَهَرَ عَلَى خِيَرَةٍ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَإِنَّمَا أَطْمَعُهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَا أَنَّ
 الْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَتَقَلَّبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِ الْمَادَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ فَيَتَاوَلُونَ بِالْعِلَاجِ
 صِرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا وَالنَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ
 الطَّبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذَلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي التَّدْبِيرِ وَصُورَتِهِ

وَفِي الْمَادَّةِ الْمَوْضُوعَةِ عَنْهُمْ لِلْعَلَّاجِ الْمَسَاءَةَ عَنْهُمْ بِالْحَجَرِ الْمَكْرَمِ هَلْ فِي
 الْعَذْرَةِ أَوْ الدَّمِ أَوْ الشَّعْرِ أَوْ الْبَيْضِ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مَا سِوَى ذَلِكَ وَجُمْلَةُ التَّنْبِيهِ
 عَنْهُمْ بَعْدَ تَعْيِينِ الْمَادَّةِ أَنْ تَمْنَى بِالْقَهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلَدٍ أَمْلَسَ وَتُسْقَى أَشْنَاءُ إِمَهَائِهَا
 بِالْمَاءِ وَبَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ الْعُقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ مَا يَنْسَبُ الْقَصْدَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي
 انْقِلَابِهَا إِلَى الْمَعْدِنِ الْمَطْلُوبِ ثُمَّ يُجَفَّفُ بِالسُّدَسِ مِنْ بَعْدِ السَّقْفِ أَوْ تُطْبَخُ بِالْأَرَارِ أَوْ
 تُصْعَدُ أَوْ تُكَلَّسُ لِاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهَا أَوْ تَرَاهَا فَإِذَا رَضِيَ بِذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِلَاجِهَا وَتَمَّ
 تَنْبِيْهُهُ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ أَصُولُ صَنْعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَرَابٌ أَوْ مَرَجٌ يُسَوِّدُهُ
 إِلَّا كَسِيرٌ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ عَلَى الْفُضَّةِ الْحُمْقَا بِالنَّارِ عَادَتْ ذَدَبًا أَوْ الْخَاسِ
 الْأَحْمَرُ بِالنَّارِ عَادَ فَضَّةً عَلَى مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ
 إِلَّا كَسِيرٌ مَادَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْفَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذَلِكَ الْعِلَاجِ الْخَاصُّ وَالتَّنْبِيْهُ
 مِنْ أَجْلِ ذُو قُوَى طَبِيعِيَّةٍ تَصْرِفُ مَا حَصَلَ فِيهِ إِلَيْهَا وَتَقْلِبُهُ إِلَى صَوْرَتِهَا وَمِنْ أَجْلِهَا وَتَبَثُّ
 فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ الْكَفَيَّاتِ وَالْقُوَى كَالْخَمِيرَةِ لِلْخَبْزِ تَقْلِبُ الْعَجِينَ إِلَى ذَاتِهَا وَتَعْمَلُ
 فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الْإِنْفِشَاشِ وَالْهَشَاشَةِ لِيَحْسُنَ هَضْمُهُ فِي الْمَعِدَةِ وَيَسْتَحِيلَ سَرِيعًا
 إِلَى الْغِذَاءِ وَكَذَا إِكْسَادُ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ فِيمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْمَعَادِنِ يَصْرِفُهُ إِلَيْهِمَا
 وَيَقْلِبُهُ إِلَى صَوْرَتِهِمَا هَذَا مُحْصَلُ زَعْمِهِمْ عَلَى الْجُمْلَةِ فَجَدُّهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَذَا الْعِلَاجِ
 يَتَّبِعُونَ الرِّزْقَ وَالْمَعَاشَ فِيهِ وَيَتَنَاقَلُونَ أَحْكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كِتَابٍ لِأَيِّمَةِ الصَّنَاعَةِ
 مِنْ قَبْلِهِمْ يَتَدَوَّلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاقَرُونَ فِي فَنِّهِمْ لِعُزْزِهَا وَكَشَفِ أَسْرَارِهَا إِذْ هِيَ فِي
 الْأَكْثَرِ شُبْهَةُ الْمَعْمَى كَتَبَ الْيَافِ جَابِرُ بْنُ حَيَّانٍ فِي رَسَائِلِهِ السَّبْعِينَ وَمَسْلَمَةُ الْحَجَرِ طَبِيعِيَّةٍ
 فِي كِتَابَةِ رُتْبَةِ الْحَكِيمِ وَالطُّغْرَائِيِّ وَالْمُخْبِرِيِّ فِي فَصَائِلِهِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِجَادَةِ النِّظْمِ
 وَامْتِلَائِهَا وَلَا يَخْلُونَ مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنْهَا . فَمَا وَضَعْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا أَبَا الْبَرَكَاتِ
 التَّلْفِيْقِيَّ كَبِيرَ مَشِيخَةِ الْأَنْدَلُسِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَوَقَفْتُهُ عَلَى بَعْضِ التَّالِيْفِ فِيهَا فَصَفَّحَهُ
 طَوِيلًا ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي وَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى بَيْتِهِ إِلَّا بِالْخَيْبَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ
 مَنْ يَقْتَصِرُ فِي ذَلِكَ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَقَطْ إِمَّا الظَّاهِرَةَ كَتَمُوهُ الْفُضَّةَ بِالذَّهَبِ أَوْ الْخَاسِ
 بِالْفُضَّةِ أَوْ خَلَطَهَا عَلَى نِسْبَةِ جُزْءٍ أَوْ جُزْءَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ خَلَطَهَا كَالْقَاءِ الشَّيْءَ بَيْنَ
 الْمَعَادِنِ بِالصَّنَاعَةِ مِثْلَ تَبْيِضِ الْخَاسِ وَتَلْبِيسِهِ بِالزُّوقِ الْمُصْعَدِ فَيُجْعَلُ جِسْمًا مَعْدِنِيًّا

شَيْبًا بِالْفِضَّةِ وَيَخْفَى إِلَّا عَلَى الْقَادِ الْمَهْرَةِ فَيَقْدُرُ أَصْحَابُ هَذِهِ الدُّنْيَا مَعَ دُنُسِهِمْ
هَذِهِ سَكَّةٌ يَسْرُبُونَهَا فِي النَّاسِ وَيَطْبَعُونَهَا بِطَابَعِ السُّلْطَانِ تَمْوِيهَا عَلَى الْجُمْهُورِ بِالْخُلَاصِ
وَهَؤُلَاءِ أَحْسَنُ النَّاسِ حِرْفَةً وَأَسْوَأُهُمْ عَاقِبَةً لِيَتَلَبَّسَهُمْ بِسَرَقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ فَإِنَّ صَاحِبَ
هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ يَدْفَعُ نَحَاسًا فِي الْفِضَّةِ وَفِضَّةً فِي الذَّهَبِ لِيَسْتَخْلَصَهَا لِنَفْسِهِ فَهُوَ
سَارِقٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ السَّارِقِ وَمُعْظَمُ هَذَا الصَّنِيفِ لَدَيْنَا بِالْمَغْرِبِ مِنْ طَائِفَةِ الْبَرَبْرِ الْمُتَمَتِّدِينَ
بِأَطْرَافِ الْقِيَاعِ وَمَسَاكِنِ الْأَعْمَارِ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ الْبَادِيَةِ وَيَمُوتُونَ عَلَى الْأَغْيَاءِ
مِنْهُمْ يَأْنٍ بِأَيْدِيهِمْ صِنَاعَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنَّفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّهِمَا وَالْأَسْتِهْلَاكِ سِيفٌ
طَلَبَهَا فَيَحْضُلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَعَاشٍ ثُمَّ يَبْقَى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ تَحْتَ الْخَوْفِ وَالرَّقَبَةِ إِلَى
أَنْ يَظْهَرَ الْعَجْزُ وَتَنْفَعِ الْفَضِيحَةُ فَيَفِرُّونَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَسْتَجِدُّونَ حَالًا أُخْرَى فِي
أَسْتِهْوَاءِ بَعْضِ أَهْلِ الدُّنْيَا بِأَطْمَاعِهِمْ فِيمَا لَدَيْهِمْ وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ فِي ابْتِغَاءِ مَعَاشِهِمْ
وَهَذَا الصَّنِيفُ لَا كَلَامَ مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ بَلَغُوا الْغَايَةَ فِي الْجَهْلِ وَالرَّدَاءِ وَالْإِحْتِرَافِ بِالسَّرَقَةِ
وَلَا حَاسِمٍ لِعَالَمِهِمْ إِلَّا اشْتِدَادُ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ وَتَنَاقُلُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا وَقَطْعُ أَيْدِيهِمْ
مَتَى ظَهَرُوا عَلَى شَأْنِهِمْ لِأَنَّ فِيهِ إِفْسَادًا لِلْسَكَّةِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبُلُوكُ وَهِيَ مَتَمُولُ النَّاسِ
كَأَفَّةَ وَالسُّلْطَانُ مُكَلَّفٌ بِإِصْلَاحِهَا وَالْإِحْتِيَاطِ عَلَيْهَا وَالْإِشْدَادِ عَلَى مُفْسِدِهَا وَأَمَّا
مَنْ اتَّخَلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ وَلَمْ يَرْضَ بِحَالِ الدُّنْيَا بَلْ اسْتَنَكَفَ عَنْهَا وَتَزَهَّدَ نَفْسَهُ عَنْ إِفْسَادِ
سَكَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْوَدِهِمْ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحَالََةَ الْفِضَّةِ لِلذَّهَبِ وَالرَّصَاصِ وَالنَّحَاسِ
وَالْفَصْدِيرِ إِلَى الْفِضَّةِ بِذَلِكَ النُّحْوِ مِنَ الْعِلَاجِ وَبِالْإِكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَمَّا مَعَ هَؤُلَاءِ
مُتَكَلِّمٌ وَنَبَّحَ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ مَعَ أَنَا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ أَهْلِ الْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هَذَا
الْفَرْضُ أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بَغْيَةٍ إِنَّمَا تَذْهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ وَالصَّلَابَةِ
وَالْتَّصِيدِ وَالْتَّكْلِيسِ وَأَعْيَامِ الْأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَالنَّبَّحِ عَنْهَا وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ
حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لغيرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْفَرْضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ بِاسْتِمَاعِهَا
وَالْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيضُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكَافِلِينَ الدُّخْرِيِّينَ بِوَسَاوِسِ
الْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلِّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمُعَابَنَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا إِنَّمَا
سَمِعْنَا وَلَمْ نَرْ هَكَذَا شَأْنَهُمْ فِي كُلِّ عَصْرِ وَجِيلٍ وَاعْلَمْ أَنَّ اتِّجَالَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ قَدِيمٌ
فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فَلَنَنْقُلَ مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَلِكَ

ثُمَّ تَلَوُهُ بِمَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ التَّحْقِيقِ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ فَنَقُولُ إِنَّ مَبْنَى الْكَلَامِ
 فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ عَلَى حَالِ الْمَعَادِنِ السَّبْعَةِ الْمُتَطَرِّقَةِ وَهِيَ الذَّهَبُ
 وَالْفِضَّةُ وَالرَّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ وَالنَّحَاسُ وَالْحَدِيدُ وَالْخَارِصِينُ هَلْ هِيَ مُخْتَلِفَاتٌ بِالْفُصُولِ
 وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا أَوْ إِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِمَخَوَاصٍ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ
 لِنَوْعٍ وَاحِدٍ فَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو النَّصْرِ الْفَارَابِيُّ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا
 نَوْعٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ اخْتِلَافَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْكَيْفِيَّاتِ مِنَ الرُّطُوبَةِ وَالْيُوسَةِ وَاللَّيْنِ وَالصَّلَابَةِ
 وَالْأَلْوَانِ مِنَ الصُّفْرِ وَالْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِذَلِكَ النَّوعِ الْوَاحِدِ وَالَّذِي
 ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سِينَا وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْمَشْرِقِ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِالْفُصُولِ وَأَنَّهَا أَنْوَاعٌ
 مُتَبَايِنَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَحَقِّقٌ بِحَقِيقَتِهِ لَهُ فَصْلٌ وَجَنَسٌ شَانِ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ
 وَبَنَى أَبُو النَّصْرِ الْفَارَابِيُّ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اتِّفَاقِهَا بِالنَّوعِ إِمَّا كَانَ انْقِلَابٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ
 لَا مِمَّا كَانَ تَبَدُّلُ الْأَعْرَاضِ حِينَئِذٍ وَعِلَاجُهَا بِالصَّنْعَةِ فَرُبَّ هَذَا التَّوَجُّهِ كَانَتْ صِنَاعَةُ
 الْكِيمِيَاءِ عِنْدَهُ مُمَكِّنَةً سَهْلَةً الْمَأْخُذِ وَبَنَى أَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اخْتِلَافِهَا
 بِالنَّوعِ إِنْكَارَهُ هَذِهِ الصَّنْعَةَ وَاسْتَحَالَةَ وَجُرْدَهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْفَصْلَ لَا سَبِيلَ بِالصَّنَاعَةِ
 إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخْلُقُهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمُقَدِّرُهَا وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفُصُولُ مُجْهُولَةٌ الْحَقَائِقُ
 رَأْسًا بِالتَّصَوُّرِ فَكَيْفَ يُحَاوِلُ انْقِلَابُهَا بِالصَّنْعَةِ وَغَلَطَهُ الطُّغْرَايُّ مِنْ أَكْبَارِ أَهْلِ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَرَدَّ عَلَيْهِ بَأَنَّ التَّنْدِيرَ وَالْعِلَاجَ لَيْسَ فِي تَخْلِيقِ الْفَصْلِ وَإِبْدَاعِهِ
 وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِعْدَادِ الْمَادَّةِ لِقَبُولِهِ خَاصَّةً وَالْفَصْلُ بَأْتِي مِنْ بَعْدِ الْأَعْدَادِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ
 وَبَارئِهِ كَمَا يَفِيضُ النُّورُ عَلَى الْأَجْسَامِ بِالصَّغْلِ وَالْإِمَاءِ وَلَا حَاجَةَ بِنَا فِي ذَلِكَ إِلَى
 تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَالَ وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَثَرْنَا عَلَى تَخْلِيقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مَعَ الْجَهْلِ بِفُصُولِهَا
 مِثْلَ الْقَرَبِ مِنَ التُّرَابِ وَالتَّنِينَ وَمِثْلَ الْحَيَاتِ الْمُتَمَكِّنَةِ مِنَ الشَّعْرِ وَمِثْلَ مَا ذَكَرَهُ
 أَصْحَابُ الْفَلَاحَةِ مِنْ تَكْوِينِ النَّحْلِ إِذَا فُقِدَتْ مِنْ عَجَاجِيلِ الْبَقَرِ وَتَكْوِينِ الْقَصَبِ
 مِنْ قُرُونِ ذَوَاتِ الظِّلَافِ وَتَصْيِيرِهِ سُكَّرًا بِحَشْوِ الْقُرُونِ بِالْعَسَلِ بَيْنَ يَدَيِ ذَلِكَ الْقَلْعِ
 لِلْقُرُونِ فَمَا الْمَانِعُ إِذَا مِنَ الْعَثُورِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَنَتَّخِذُ مَادَّةً تُضْفِيهَا
 لِلتَّنْدِيرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا اسْتِعْدَادٌ أَوَّلُ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ثُمَّ تَحَاوِلُهَا
 بِالْعِلَاجِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ فِيهَا الْإِسْتِعْدَادُ لِقَبُولِ فَضْلِهَا أَنْتَهَى كَلَامُ الطُّغْرَايِّ بِمَعْنَاهُ وَهُوَ

الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ سِينَا صَحِيحٌ لَكِنَّ لَنَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
مَا خَذَا آخَرَ تَبَيَّنَ مِنْهُ اسْتِحْكَالُهُ وَجُودُهَا وَبُطْلَانُ مَزْعُمِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا الطُّغْرَانِي وَلَا ابْنُ
سِينَا وَذَلِكَ أَنَّ حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِالْإِسْتِعْدَادِ
الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا مَوْضُوعًا وَيَحَازُونَ فِي تَدْبِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَدْبِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ
حَتَّى أَحَالَتَهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعِفُونَ الْقُوَى الْفَاعِلَةَ وَالْمُنْعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ
لأنَّهُ تَبَيَّنَ فِي مَوْضُوعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَّةِ الْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الذَّهَبَ
إِنَّمَا يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفِ وَثَمَانِينَ مِنَ السِّنِينَ دَوْرَةَ الشَّمْسِ الْكُبْرَى فَإِذَا
تَضَاعَفَتِ الْقُوَى وَالْكَيفِيَّاتُ فِي الْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذَلِكَ ضَرْوَرَةً عَلَى
مَا قُلْنَا أَوْ يَتَحَرَّوْنَ بِعِلَاجِهِمْ ذَلِكَ حُصُولَ صُورَةٍ زَاجِغَةٍ لِتِلْكَ الْمَادَّةِ تُصِيرُهَا
كَلْخَمِيرَةٍ فَتَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ الْمَعَالِجُ الْأَفَاعِيلُ الْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْأَكْبَرُ
عَلَى مَا تَقَدَّمَ. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ الْعُنْصَرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَجْتِمَاعِ
الْعُنْصَرِ الْأَزْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي النِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ امْتِزَاجُهَا
فَلَا بُدَّ مِنَ الْجُزْءِ الْغَالِبِ عَلَى الْكُلِّ وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُمْتَزَجٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ مِنْ
حَرَارَةٍ غَرِيزِيَّةٍ هِيَ الْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ الْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ
مِنْ اخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَانْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ التَّكْوِينِ مِنْ طَوْرِ إِلَى طَوْرِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى
غَايَتِهِ وَانْظُرْ شَانَ الْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ ثُمَّ الْعَاقَةِ ثُمَّ الْمُضْغَةِ ثُمَّ التَّصْوِيرِ ثُمَّ الْجَنِينِ
ثُمَّ الْمَوْلُودِ ثُمَّ الرُّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نَهَائِهِ وَنِسْبِ الْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرِ تَخْتَلِفُ فِي مَقَادِيرِهَا
وَكَيْفِيَّاتِهَا وَإِلَّا لَكَانَ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ بَعِيْنَهُ هُوَ الْآخِرُ وَكَذَا الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ فِي كُلِّ
طَوْرِ مُخَالَفَةٌ لَهَا فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ فَانْظُرْ إِلَى الذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ فِي مَعْدِنِهِ مِنْ
الْأَطْوَارِ مِنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الْكَيْمِيَاءِ
إِلَى أَنْ يَسَاقِ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ وَيَحَازِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَمِنْ
شَرْطِ الصَّنَاعَةِ أَبَدًا تَصَوُّرُ مَا يَقْصُدُ إِلَيْهِ بِالصَّنْعَةِ فَمِنْ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ لِلْحِكَمَاءِ أَوَّلُ
الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَآخِرُ الْفِكْرَةِ أَوَّلُ الْعَمَلِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ
فِي أَحْوَالِهِ الْمُبْتَدِئَةِ وَنِسْبِهَا الْمُتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرِ وَاخْتِلَافِ الْحَارِ الْغَرِيزِيِّ عِنْدَ
اخْتِلَافِهَا وَمِقْدَارِ الزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرِ وَمَا يَنْبُؤُ عَنْهُ مِنْ مِقْدَارِ الْقُوَى الْمُضَاعَفَةِ وَيَقُومُ

مَقَامُهُ حَتَّى يُجَاذِيَ بِذَلِكَ كُلَّهُ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ أَوْ تُعَدُّ لِبَعْضِ الْمَوَادِّ صُورَةً
 مَزَاجِيَةً كَصُورَةِ الْخَمِيرَةِ الْخَبْزِ وَتَفْعُلُ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ بِالْمُنَاسَبَةِ لِقُوَاهَا وَمَقَادِيرِهَا
 وَهَذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا يَحْصُرُهَا الْعِلْمُ الْخَمِيطُ وَالْعُلُومُ الْبَشَرِيَّةُ قَاصِرَةٌ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا حَالُ
 مَنْ يَدْعِي حُصُولَهُ عَلَى الذَّهَبِ بِهَذِهِ الصَّنَعَةِ بِمَثَابَةِ مَنْ يَدْعِي بِالصَّنَعَةِ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ مِنَ
 الْمَيِّ وَتَحْنُ إِذَا سَلَّمْنَا لَهُ الْأَحَاطَةَ بِأَجْزَائِهِ وَنِسْبَتِهِ وَأَطْوَارِهِ وَكَيْفِيَّةَ تَخْلِيقِهِ فِي رَحْمِهِ
 وَعَلِمَ ذَلِكَ عِلْمًا مُصَحَّلاً بِتَفَاصِيلِهِ حَتَّى لَا يَشُدُّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ سَلَّمْنَا لَهُ تَخْلِيقَ هَذَا
 الْإِنْسَانِ وَإِنِّي لَهُ ذَلِكَ وَلِتَقَرَّبَ هَذَا الْبَرْهَانُ بِالْإِخْتِصَارِ لَيْسَهُلَ فَنَهْمُهُ فَنَقُولُ حَاصِلُ
 صِنَاعَةِ الْكِيمِيَاءِ وَمَا يَدْعُونَهُ بِهَذَا التَّدْبِيرِ أَنَّهُ مُسَاوِفَةُ الطَّبِيعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ بِالْفِعْلِ الصَّنَاعِيِّ
 وَمَحَازَاتِهَا بِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ كَوْنُ الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ أَوْ تَخْلِيقَ مَادَّةٍ بِقُوَى وَأَفْعَالٍ وَصُورَةٍ
 مَزَاجِيَةٍ تَفْعُلُ فِي الْجِسْمِ فِعْلاً طَبِيعِيًّا فَتَصِيرُهُ وَتَقْبَلُهُ إِلَى صُرَتِهَا وَالْفِعْلُ الصَّنَاعِيُّ مُسَبِّقٌ
 بِتَصَوُّرَاتِ أَحْوَالِ الطَّبِيعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ الَّتِي يَقْصِدُ مُسَاوِفَتَهَا أَوْ مُحَازَاتِهَا أَوْ فِعْلَ الْمَادَّةِ
 ذَاتِ الْقُوَى فِيهَا تَصَوُّراً مُفَصَّلاً وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَالْعِلْمُ
 الْبَشَرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ الْأَحَاطَةِ بِمَا دُونِهَا وَهُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَقْصِدُ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ
 أَوْ نَبَاتٍ هَذَا مُحْصَلُ هَذَا الْبَرْهَانِ وَهُوَ أَوثَقُ مَا عِلْمُهُ وَلَيْسَتْ الْأَسْتَحَالَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ
 الْفُضُولِ كَمَا رَأَيْتُهُ وَلَا مِنَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعَدُّرِ الْأَحَاطَةِ وَقُصُورِ الْبَشَرِ عَنْهَا
 وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سِينَا بِمَعْزِلٍ عَنِ ذَلِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ فِي الْأَسْتَحَالَةِ مِنْ جِهَةِ غَايَتِهِ وَذَلِكَ
 أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي التَّجَرِّينِ وَتَدْوَرُّهُمَا أَنَّهُمَا قِيمٌ لِمَكَاسِبِ النَّاسِ وَمَتَمُّوْلَاتِهِمْ
 فَلَوْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا بِالصَّنَعَةِ لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَكَثُرَ وَجُرْدُهُمَا حَتَّى لَا يَحْصُلَ
 أَحَدٌ مِنْ أَفْنَانِهِمَا عَلَى شَيْءٍ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْأَسْتَحَالَةِ أَيْضاً وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ
 أَقْرَبَ الطَّرِيقِ فِي أَفْعَالِهَا وَتَرْتَكِبُ الْأَعْوَصَ وَالْأَبْعَدَ فَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرِيقُ الصَّنَاعِيُّ
 الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَحِيحٌ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبِيعَةِ فِي مَعْدِنِهَا أَوْ أَقْلُ زَمَاناً لَمَا تَرَكَتْهُ
 الطَّبِيعَةُ إِلَى طَرِيقِهَا الَّذِي سَلَكَتْهُ فِي كَوْنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَتَخْلُقُهُمَا وَأَمَّا تَشْبِيهُ
 الطَّغْرَاءِيِّ هَذَا التَّدْبِيرِ بِمَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْرَدَاتٍ لِمِثَالِهِ فِي الطَّبِيعَةِ كَالْعَقْرَبِ وَالْحُلِّ
 وَالْحَبَّةِ وَتَخْلِيقِهَا فَأَمْرٌ صَحِيحٌ فِي هَذِهِ آدَى إِلَيْهِ الْعَثُورُ كَمَا زَعَمَ. وَأَمَّا الْكِيمِيَاءُ فَلَمْ
 يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ الْعَالَمِ أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى طَرِيقِهَا وَمَا زَالَ مُتَحَلِّوْهَا يَخْطُونُ

فِيهَا عَشَوَاءٌ إِلَى هَلَمْ جَرًّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَاذِبَةِ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ
 مِنْهُمْ لَحَفَظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ نَلَمِيذُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَنَوَّلُوا فِي الْأَصْدَقَاءِ وَضَمَّنَ تَصْدِيقَهُ صِحَّةَ
 الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إِلَيْنَا وَإِلَى غَيْرِنَا. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْأَكْسِيرَ بِمَثَابَةِ
 الْحَمِيرَةِ وَإِنَّهُ مُرْكَبٌ يُعْجَلُ مَا يُعْجَلُ فِيهِ وَيَقْلِبُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْحَمِيرَةَ إِنَّمَا
 أَقْلِبُ الْعَجِينَ وَتُعَدُّهُ لِلْخِضْمِ وَهُوَ فُسَادٌ وَالْفُسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ بِأَيِّسَرِ شَيْءٍ مِنْ
 الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْمَعْدِنِ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى
 فَهُوَ تَكْوِينُ وَصْلَاحٍ وَالتَّكْوِينُ أَصْعَبُ مِنَ الْفُسَادِ نَلَا يَقَاسُ الْإِكْسِيرُ بِالْحَمِيرَةِ
 وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِيمِيَاءَ إِنْ صَحَّ وُجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ الْحُكَمَاءُ الْمُسْكِلُونَ
 فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْجَبْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ
 الصَّنَاعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا نَتِمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَتَعَى الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا
 هُوَ مِنْ مَتَعَى كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ السَّخَرِيَّةِ وَسَائِرِ اخْوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلِحَلَّاجِ
 وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلَمَةَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشَبِّهُ ذَلِكَ وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ رُتْبَةِ
 الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَتَعَى وَمَذَا كَلَامُ جَابِرٍ فِي رِسَالَتِهِ وَتَحْوُ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا
 حَاجَةَ بِنَا إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمَرُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنْ كَلِمَاتِ الْمَوَادِّ أَخْرَجَتْ عَنْ حُكْمِ
 الصَّنَائِعِ نَكَمًا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيَوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشَبًا أَوْ حَيَوَانًا
 فِيمَا عَدَا تَجَرَّى تَخْلِيقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا
 يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِزْفَادِ مَا وَرَاءَ عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ نَكَمًا كَذَلِكَ مَنْ
 طَلَبَ الْكِيمِيَاءَ طَلَبًا صِنَاعِيًّا ضَيَعَ مَالَهُ وَعَمَلُهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصِّنَاعِيِّ التَّدْبِيرُ
 الْعَقِيمُ لِأَنَّهُ نَيْلُهُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ وَاقِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالْمَشْيِ عَلَى
 الْمَاءِ وَامْتِطَاءِ الْهَوَاءِ وَالنَّفُوزِ فِي كَثَائِفِ الْأَجْسَادِ وَتَحْوُ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ
 الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَخْلِيقِ الطَّيْرِ وَتَحْوُهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى وَإِذْ تَخْلُقُ
 مِنَ الطِّينِ كَوْثِمَةَ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَعَلَى ذَلِكَ فَسَبِيلُ تَبْسِيرِهَا
 مُخْتَلَفٌ بِحَسَبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيهَا غَيْرُهُ فَتَكُونُ عِنْدَهُ مَعَارَةً
 وَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِيتَاءَهَا فَلَا نَتِمُّ فِي يَدِ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَكُونُ
 عَمَلُهَا سَخِرَ بِأَفَقْدِ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَفْعَلُ بِثَابِتَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ الْعَادَةِ إِمَّا مُعْجَزَةً أَوْ

سَجَرًا وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ كُلِّهِمْ فِيهَا إِعْزَازًا لَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةَ
 مِنْ عِلْمِ السَّجَرِ وَأَطْلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ النَّفْسِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَأُمُورِ خَرَقِ الْعَادَةِ غَيْرِ
 مُتَحَصِرَةٍ وَلَا يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَكَثُرَ مَا يَحْمِلُ عَلَى
 التَّمَسَّكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَاتِّخَالُهَا هُوَ كَمَا قُلْنَا هُ الْعَجْزُ عَنِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ
 وَابْتِغَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وَجُوهِهِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْفَلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ فَلَيْسَتْ تَصْعُبُ الْعَاجِزُ
 ابْتِغَاءَهُ مِنْ هَذِهِ وَيَرُومُ الْحَصُولَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً بِوُجُوهِ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ
 مِنَ الْكِيمِيَاءِ وَغَيْرِهَا وَكَثُرَ مَنْ يَعْنِي بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ
 الْمُسْتَكْلِمِينَ فِي انْكَارِهَا وَاسْتِحَالَتِهَا فَإِنَّ ابْنَ سِينَا الْقَائِلَ بِاسْتِحَالَتِهَا كَانَ عَلَيْهِ الْوُزَرَاءُ
 فَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ وَالنَّارِي الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يُعَوِّزُهُمْ
 ادَّتِي بُلْغَةٍ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ النَّفُوسِ الْمَوْلَعَةِ بِطَرَفِهَا
 وَاتِّخَالِهَا وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إِعْلَمَ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُفُوفِ عَلَى غَايَتِهِ كَثَرَةُ التَّأْلِيفِ
 وَاتِّخْلَافُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعَدُّ طُرُقِهَا ثُمَّ مَطَالَبَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالتَّلْمِيذِ بِاسْتِخْضَارِ
 ذَلِكَ وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ فَيَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِظِّهَا كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا
 وَمُرَاعَاةِ طُرُقِهَا وَلَا يَبْقَى عُمُرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ الْقُصُورُ وَلَا
 يَدُونُ رُتَبَةُ التَّحْصِيلِ وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفَقْهِ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِالْكِتَابِ
 الْمُدَوَّنَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفَقِيهِيَّةِ مِثْلَ كِتَابِ ابْنِ يُونُسَ وَالْخُفِيِّ
 وَابْنِ بَشِيرٍ وَالتَّنْبِيْهَاتِ وَالْمَقْدَمَاتِ وَالْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ ابْنِ
 الْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَى تَمْيِيزِ الطَّرِيقَةِ الْقَيِّرِوَانِيَّةِ مِنَ الْقَرُطُوبِيَّةِ
 وَالبَغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَطُرُقِ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَالْإِحَاطَةَ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ
 لَهُ مَنْصِبُ الْفَتَايَا وَهِيَ كُلُّهَا مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَالْمُتَعَلِّمُ مُطَالِبٌ بِاسْتِخْضَارِ جَمِيعِهَا
 وَتَمْيِيزِ مَا بَيْنَهَا وَالتَّوَهُُّمُ يَنْقُضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا وَلَوْ اقْتَصَرَ الْمُعَلِّمُونَ بِالْمُعَلِّمِينَ عَلَى
 الْمَسَائِلِ الْمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكَانَ الْأَمْرُ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ التَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَا خَذَهُ

قَرِيبًا وَلَكِنَّهُ دَائِلٌ لَا يَرْتَفِعُ لِاسْتِقْرَارِ الْعَوَائِدِ عَلَيْهِ فَصَارَتْ كَالطَّبِيعَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ
 نَقْلَهَا وَلَا تَحْوِيلَهَا وَيُمَثِّلُ أَيْضًا عِلْمَ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ كِتَابِ سَبْئَوِيهِ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ
 وَطُرُقِ الْبَصَرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ وَالْبَغْدَادِيِّينَ وَالْأَنْدَلُسِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَطُرُقِ الْمُتَقَدِّمِينَ
 وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ ابْنِ الْحَاجِبِ وَابْنِ مَالِكٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ كَيْفَ يُطَالَبُ
 بِهِ الْمُتَعَلِّمُ وَيَنْقَضِي عُمْرُهُ دُونَهُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي الْغَايَةِ مِنْهُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ مِثْلِ
 مَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ تَأْلِيفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ
 مِصْرَ يُعْرَفُ بِابْنِ هَاشِمٍ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا أَنَّهُ اسْتَوَلَى عَلَى غَايَةِ مِنْ مَلَكَتْكَ تِلْكَ
 الصَّنَاعَةَ لَمْ تَحْصُلْ إِلَّا لِسَبْئَوِيهِ وَابْنِ حَنِيٍّ وَأَهْلِ طَبَقَتَيْهِمَا الْعِظَمِ مَلَكَتْهُ وَمَا أَحَاطَ
 بِهِ مِنْ أَصُولِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَفَارِيعِهِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيهِ وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَيْسَ مُخْتَصِرًا
 فِي الْمُتَقَدِّمِينَ سَيِّمًا مَعَ مَا قَدَّمَناهُ مِنْ كَثْرَةِ الشَّوَابِغِ بِتَعَدُّ الْمَذَاهِبِ وَالطَّرِيقِ
 وَالنَّائِلِ كَيْفَ وَلَكِنْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَهَذَا نَادِرٌ مِنْ نَوَادِرِ الوجودِ وَالْأَفْظَاهِرِ
 أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ وَلَوْ قَطَعَ عُمْرُهُ فِي هَذَا كُلِّهِ فَلَا يَبْقَى لَهُ بِتَحْصِيلِ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مِثْلًا الَّذِي
 هُوَ آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ وَوَسِيلَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي الْمَقْصُودِ الَّذِي هُوَ الثَّمَرَةُ وَلَكِنْ
 اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المولفة في العلوم مخلة بالتعليم
 ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ إِلَى اخْتِصَارِ الطَّرِيقِ وَالْإِنْجَاءِ فِي الْعُلُومِ يُوَلِّعُونَ بِهَا
 وَيُدَوِّنُونَ مِنْهَا بِزُجَاجٍ مُخْتَصِرًا فِي كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حَضَرِ مَسَائِلِهِ وَادِلَتِهَا بِاخْتِصَارٍ
 فِي الْأَلْفَافِ وَحَشْوِ الْقَلِيلِ مِنْهَا بِالْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ وَصَارَ ذَلِكَ مُخْلًا
 بِالْبَلَاغَةِ وَعَسِرًا عَلَى الْفَهْمِ وَزُبْمًا عَمِدُوا إِلَى الْكُتُبِ الْأَمْهَاتِ الْمُطَوَّلَةِ فِي الْفُنُونِ
 لِلتَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ فَأَخْصَرُوهَا تَقَرِيبًا لِحِظِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْفَنِّ وَابْنُ مَالِكٍ
 فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْخَوْفِيُّ فِي الْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمْ وَهُوَ فَسَادٌ فِي التَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلَالٌ بِالتَّحْصِيلِ
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ فِيهِ تَخْلِيطٌ عَلَى الْمُبْتَدِئِ بِالِقَاءِ الْغَايَاتِ مِنَ الْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِدْ
 لِقَبُولِهَا بَعْدَ وَهُوَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ كَمَا سَيَأْتِي ثُمَّ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ
 بِمَتَبِعِ أَفْظَاظِ الْإِخْتِصَارِ الْعَوِيصَةِ لِقَهْمِ بِنَازِحِ الْمَعَانِي عَلَيْهَا وَصُعُوبَةِ اسْتِخْرَاجِ الْمَسَائِلِ

مِنْ بَيْنَهَا لِأَنَّ الْفَاطَ الْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ صَعْمَةً عَوِيصَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظُّ
صَالِحٍ عَنِ الْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَلِكَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا
تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقِبْهُ أَقْفَةٌ فِيهِ مَلِكَةٌ فَاصِرَةٌ عَنِ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَحْصُلُ مِنَ
الْمَوْضُوعَاتِ الْبَسِيطَةِ الْمُطَوَّلَةِ بِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ التَّكْرَارِ وَالْإِحَالَةِ الْمُفِيدِينَ
لِحُصُولِ الْمَلِكَةِ التَّامَّةِ وَإِذَا اقْتَصَرَ عَلَى التَّكْرَارِ قَصُرَتِ الْمَلِكَةُ لِقِلَّتِهِ كَشَابَ
هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُخْتَصَرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْهِيلِ الْخِطِّ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرَكُوهُمْ صَعْبًا
يَقْطَعُهُمْ عَنِ تَحْصِيلِ الْمَلَكَاتِ النَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ هَدَى اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ
يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

اعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى النَّدْرِ بِحِجِّ شَيْئًا
فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أَصُولُ ذَلِكَ الْبَابِ
وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذَلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ
مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلِكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ
إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَأَتُهَا لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ
إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينَ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ
وَالْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَاكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَيَجُودُ مَلِكَتَهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُهِمًّا
وَلَا مُغْلَقًا إِلَّا وَضَحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوْلى عَلَى مَلِكَتِهِ هَذَا
وَجْهِ التَّعْلِيمِ الْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكَرُّرَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ
فِي أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ
لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ التَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيَحْضُرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ
تَعْلِيمِهِ الْمَسَائِلَ الْمُقْفَلَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَيُطَابُونَهُ بِإِحْضَارِ ذَهْنِهِ فِي حَالِهَا وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ
مِرَاتًا عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَافُونَهُ رَغِي ذَلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْطِطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يَقُونُ
لَهُ مِنْ غَايَاتِ الْفَنِّ فِي مَبَادِيهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنْ قَبُولَ الْعِلْمِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ

لِفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِيجًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ
وَعَلَى سَبِيلِ الْقَرِيبِ وَالْأَجْمَالِ وَالْأَمْثَالِ الْحَسِيَّةِ ثُمَّ لَا يَزَالُ الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِ
يَتَدَرَّجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَكَرُّرِهَا عَلَيْهِ وَالْإِسْتِعْدَادُ ثُمَّ فِي
الْتَحْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أُقْبِتَ عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِي الْبِدَائِ وَهُوَ حِينَئِذٍ
عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَبَعِيدٌ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لَهُ كُلُّ ذِيهِ عَنْهَا وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ
صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَانْحَرَفَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هُجْرَانِهِ وَإِنَّمَا أَتَى
ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ وَلَا يَنْبَغِي لِلدُّعَلِمِ أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِي أَكَبَّ
عَلَى التَّعْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُتَمَرِّدًا وَلَا يَخْطُ
مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَبْعَثَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحْصِلُ أَغْرَاضَهُ وَيَسْتَوْلي مِنْهُ
عَلَى مَلَكَةٍ بِهَا يَنْفَذُ فِي غَيْرِهِ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَةً مَا فِي عِلْمِهِ مِنَ الْعُلُومِ
اسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنُّهُوسِ إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى
يَسْتَوْلي عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ وَإِذَا خَاطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَجِزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ الْكَلَالُ
وَأَنْطَمَسَ فِكْرُهُ وَبَيَسَ مِنَ الْتَحْصِيلِ وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَكَذَلِكَ
يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تَطُولَ عَلَى الدُّعَلِمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْجَائِلسِ وَتَقْطِيعِ مَا
بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النَّسِيَانِ وَاتَّقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولُ
الْمَلَكَةِ بِتَفْرِيقِهَا وَإِذَا كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ وَآخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الذِّكْرِ مُجَانِبَةً
لِلنَّسِيَانِ كَانَتْ الْمَلَكَةُ أَيْسَرَ حُصُولًا وَأَحْكَمَ اِرْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صِفَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ
إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتَتَابُعِ الْعَمَلِ وَتَكَرُّرِهِ وَإِذَا تَنَوَّسِيَ الْعَمَلُ تَنَوَّسِيَتِ الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ
وَاللَّهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَمِنْ الْمَذَاهِبِ الْجَمِيلَةِ وَالطَّرِيقِ الْوَاجِبَةِ فِي
التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يَخْطُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا
فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَأَنْصَرَفَهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخَرِ فَيَسْتَعْلِقَانِ مَعًا
وَيَسْتَصْعَبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيَةِ وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِلتَّعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ
قَرِيبًا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِحْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ وَأَعْلَمُ أَهْلِهَا الْمُتَعَلِّمُ
أَنِّي أَتَخَفُكَ بِقَائِدَةٍ فِي تَعْلَمِكَ فَإِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِيَدِ الصَّنَاعَةِ ظَفَرْتَ
بِكُنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأَقْدَمُ لَكَ مُقَدِّمَةٌ تُعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَ

الْإِنْسَانِيَّةُ طَبِيعَةٌ مُخَوَّصَةٌ فَطَرَهَا اللَّهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ مُبْتَدَعَاتِهِ وَهُوَ وَجَدَانُ حَرَكَةٍ لِلنَّفْسِ
 فِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ تَارَةً يَكُونُ مَبْدَأٌ لِلْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ
 وَتَارَةً يَكُونُ مَبْدَأٌ لِإِلْعَامٍ مَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَطْلُوبِ وَقَدْ يُصَوِّرُ طَرَفِيَّةً
 يَرُومُ نَفْسَهُ أَوْ إِبْتَاهَةً فَيَأْوِجُ لَهُ الْوَسْطَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ إِنْ
 كَانَ وَاحِدًا أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَى تَحْصِيلِ آخَرَ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا وَيَصِيرُ إِلَى الظَّفَرِ بِمَطْلُوبِهِ
 هَذَا شَأْنُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيِّزُ بِهَا الْبَشَرَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ الصَّنَاعَةُ
 الْمَنْطِقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ تَصْنُهُ لِتَعْلَمَ سَدَادَةً مِنْ خَطَائِهِ
 وَأَنْبَاءَ وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَعْزُضُ لَهَا الْخَطَأُ فِي الْأَوَّلِ مِنْ تَصَوُّرِ
 الطَّرْقَيْنِ عَلَى غَيْرِ صُرَّتِهِمَا مِنْ أَشْتِبَاهِ الْهَيْئَاتِ فِي نَظْمِ الْقَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلنَّتَاجِ فَتُعِينُ
 الْمَنْطِقُ لِلتَّخْلُصِ مِنْ وَرْطَةِ هَذَا الْفَسَادِ إِذَا عَرَّضَ فَالْمَنْطِقُ إِذَا أَمَرَ صِنَاعِيًّا مُسَاوِقٌ
 لِلطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَمَنْطِقٌ عَلَى صُورَةٍ فَعِلًا وَلَكُونُهُ أَمْرًا صِنَاعِيًّا اسْتَغْنَى عَنْهُ فِي الْأَكْثَرِ
 وَأَمَّا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ فُحُولِ النَّظَارِ فِي الْخَلِيقَةِ يَحْصُلُونَ عَلَى الْمَطَالِبِ فِي الْعُلُومِ دُونَ
 صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَلَا سِيَّامَا مَعَ صِدْقِ النِّيَّةِ وَالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مَعْنَى
 وَيَسْلُكُونَ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى سَدَادِهَا فَيُفْضِي بِالطَّبْعِ إِلَى حُصُولِ الْوَسْطِ وَالْعِلْمِ
 بِالْمَطْلُوبِ كَمَا فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ ثُمَّ مِنْ دُونِ هَذَا الْأَمْرِ الصِّنَاعِيِّ الَّذِي هُوَ الْمَنْطِقُ
 مُقَدِّمَةٌ أُخْرَى مِنَ التَّعْلَمِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتُهَا عَلَى الْمَعْنَايِ الذَّهْنِيَّةِ تَرُدُّهَا مِنْ
 مُشَافَهَةِ الرُّسُومِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ اللِّسَانِ بِالْخَطِّابِ فَلَا بُدَّ أَيْهَا الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مَجَاوَزَتِكَ
 هَذِهِ النُّجْبَ كُلِّهَا إِلَى الْفِكْرِ فِي مَطْلُوبِكَ فَأَوْلَا دَلَالَةَ الْكِتَابَةِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى الْأَلْفَاظِ
 الْمَقُولَةِ وَهِيَ أَخْفَاهَا ثُمَّ دَلَالَةَ الْأَلْفَاظِ الْمَقُولَةِ عَلَى الْمَعْنَايِ الْمَطْلُوبَةِ ثُمَّ الْقَوَائِنِ فِي تَرْتِيبِ
 الْمَعْنَايِ لِلِاسْتِدْلَالِ فِي قَوَالِبِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ ثُمَّ تِلْكَ الْمَعْنَايِ مُجَرَّدَةٌ فِي
 الْفِكْرِ أَشْتَرَاظًا يَقْتَضِي بِهَا الْمَطْلُوبُ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ بِالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَمَوَاهِيهِ
 وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ بِسُرْعَةٍ وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ النُّجْبَ فِي التَّعْلِيمِ بِسَهْوَةٍ
 بَلْ رُبَّمَا وَقَفَ الذَّهْنُ فِي حُجُبِ الْأَلْفَاظِ بِالْمُنَاقَشَاتِ أَوْ عَثَرَ فِي أَشْتِرَاكِ الْأَدَلَّةِ بِشُغْبِ
 الْجِدَالِ وَالشُّبُهَاتِ وَقَعَدَ عَنْ تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ يَكْدِ يَخْلُصْ مِنْ تِلْكَ الْغَمْرِ إِلَّا
 قَلِيلٌ مِمَّنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِذَا أَبْثَلَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَعَرَّضَ لَكَ أَرْبَابُكَ فِي فَهْمِكَ أَوْ

تَسْغِيبُ بِالشُّبُهَاتِ فِي ذَهْنِكَ فَأُطْرَحَ ذَلِكَ وَاتَّيَدَ حُجْبُ الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقُ الشُّبُهَاتِ
وَأَتْرُكُ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَأَخْلُصُ إِلَى فِضَاءِ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فُطِرَتْ عَلَيْهِ
وَسَرَحَ نَظْرَكَ فِيهِ وَقَرَّغَ ذَهْنَكَ فِيهِ لِلْغَوْصِ عَلَى زَمَانِكَ مِنْهُ وَاضْعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا
أَكْبَرُ النَّظَارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ
بِالْظَّفَرِ بِطُلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسْطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذَا الْفِكْرِ
وَنَظَرِهِ عَلَيْهِ كَمَا فَلَنَاهُ وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ بِهِ إِلَى قَوَالِبِ الْأَدَلَّةِ وَصُورِهَا فَأَفْرِغْ فِيهَا
وَوَفِّهِ حَقَّهُ مِنَ الْقَانُونِ الصَّنَاعِيِّ ثُمَّ أَكْسِهِ صُورَ الْأَلْفَاظِ وَأَبْرِزْهُ إِلَى عَالَمِ الْخَطَابِ
وَالْمُشَافَهَةِ وَثَبِّتِ الْعُرَى صَحِيحَ الْبَيَانِ وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ وَالشُّبُهَةِ فِي الْأَدَلَّةِ
الصَّنَاعِيَّةِ وَتَمَحَّيَصِ صَوَابِهَا مِنْ خَطَائِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضَعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا
الْمُتَعَدِّدَةُ وَتَنْشَابُهُ لِأَجْلِ الْوَضْعِ وَالْإِصْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الْحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةٌ
الْحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ إِذَا كَانَتْ بِالطَّبِيعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشَّكِّ وَالْإِزْتِيَابِ وَتُسَدُّ
الْحُجُبُ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَتَقْعُدُ بِالنَّظَرِ عَنْ تَحْصِيلِهِ وَهَذَا شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ النَّظَارِ
وَالْمُتَأَخِّرِينَ سِيمَا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عُمْجَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذَهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شُغْبٌ
بِالْقَانُونِ الْمَنْطِقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَأَعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إدْرَاكِ الْحَقِّ بِالطَّبِيعِ فَيَقَعُ فِي
الْخَبْرَةِ بَيْنَ شُبُهَةِ الْأَدَلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إدْرَاكِ الْحَقِّ
بِالطَّبِيعِ إِنَّمَا هُوَ الْفِكْرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا فَلَنَاهُ إِذَا جَرَّدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ لِلنَّظَرِ
فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الْمَنْطِقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفِعْلِ هَذَا الْفِكْرِ فَيَسَاوِفُهُ
فِي الْأَكْثَرِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمِطِرْ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى مَتَى أَعُوذَكَ مِنْهُمْ الْمَسَائِلِ
تُشْرِقُ عَلَيْكَ أَنْوَارُهُ بِالْإِلَهَامِ إِلَى الصَّوَابِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الفصل الثلاثون

فِي إِنْ الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ لَا تَوْسِعُ فِيهَا الْإِنْفَازُ وَلَا تَفْرَعُ الْمَسَائِلُ
إِعْلَمَنَّ أَنَّ الْعُلُومَ الْمُتَعَارِفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ عُلُومٍ مَقْصُودَةٍ بِالذَّاتِ
كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ

مِنَ الْفَلْسَفَةِ وَعُلُومٍ هِيَ وَسِيلَةُ الْآلَةِ لِهَذِهِ الْعُلُومِ كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْحِسَابِ وَغَيْرِهِمَا لِلشَّرْعِيَّاتِ
 كَالْمَنْطِقِ لِلْفَلْسَفَةِ وَرُبَّمَا كَانَ اللَّهُ لِعِلْمِ الْكَلَامِ وَلِأَصُولِ الْفَقْهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ
 فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِيعِ الْكَلَامِ فِيهَا وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ
 وَاسْتِكْشَافِ الْأَدَلَّةِ وَالْإِنْتَظَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتِهِ وَإِيضًا حَاجَةً
 لِمَعَانِيهَا الْمَقْصُودَةِ وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةُ لِغَيْرِهَا مِثْلُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهَا فَلَا
 يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ وَلَا يَوْسَعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا
 تُفَرِّعُ الْمَسَائِلُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرِجٌ لَهَا عَنِ الْمَقْصُودِ إِذَا الْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةُ لَهُ لَا غَيْرُ
 فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْمَقْصُودِ وَصَارَ الْإِشْغَالُ بِهَا لِقَوَامِهِ مَا فِيهِ
 مِنْ صُعُوبَةٍ الْخُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطَوْلِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ
 تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ لِطَوْلِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ وَالْعُمُرُ يَقْصُرُ عَنْ
 تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَيَكُونُ الْإِشْغَالُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ تَضْيِيعًا لِلْعُمُرِ
 وَشُغْلًا بِمَا لَا يَبْنِي وَهَذَا كَمَا فَعَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي صِنَاعَةِ النُّحْوِ وَصِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَأَصُولِ
 الْفَقْهِ لِأَنَّهُمْ أَوْسَعُوا دَائِرَةَ الْكَلَامِ فِيهَا وَأَكْثَرُوا مِنَ التَّفَارِيعِ وَالِاسْتِدْلالاتِ بِمَا
 أَخْرَجَهَا عَنْ كَوْنِهَا آلَةً وَصَبَّحَهَا مِنَ الْمَقَاصِدِ وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا أَنْظَارٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي
 الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ فَهِيَ مِنْ نَوْعِ اللَّغْوِ وَهِيَ أَيْضًا مُضِرَّةٌ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِأَنَّ
 الْمُتَعَلِّمِينَ أَهْتَمُّهُمْ بِالْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْتَمَامِهِمْ بِوَسَائِلِهَا فَإِذَا قَطَعُوا
 الْعُمُرَ فِي تَحْصِيلِ الْوَسَائِلِ قَمَتِي يَظْفَرُونَ بِالْمَقَاصِدِ فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ لِهَذِهِ
 الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ أَنْ لَا يَسْتَجِرُّوا فِي شَأْنِهَا وَيَنْبَهُوا الْمُتَعَلِّمَ عَلَى الْغَرَضِ مِنْهَا وَيَقْفُوا بِهِ عِنْدَهُ
 فَمَنْ تَزَعَّتْ بِهِ هِمَّتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَعُّلِ فَلْيَرْقُ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَرَاقِي صَعْبًا
 أَوْ سَهْلًا وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ

الفصل الواحد والثلاثون

فِي تَعْلِيمِ الْوِلْدَانِ وَاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الْأُمَمِ فِي طَرِيقِ
 إِعْلَامِ أَنَّ تَعْلِيمَ الْوِلْدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارُ الدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ
 فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ لِمَا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى الْقُلُوبِ مِنْ رُسُوخِ الْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ
 آيَاتِ الْقُرْآنِ وَبَعْضِ مَتُونِ الْأَحَادِيثِ وَصَارَ الْقُرْآنُ أَصْلَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَيْهِ

مَا يَحْصُلُ بَعْدَ مِنَ الْمَلَكَاتِ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصَّغَرِ أَشَدُّ رُسُوخًا وَهُوَ
 أَصْلُ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ
 وَأَسَالِيهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَبْنِي عَلَيْهِ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوِلْدَانِ
 بِاخْتِلَافِهِمْ بِاعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ
 فَمَتَدَبَّهُمْ فِي الْوِلْدَانِ الْإِفْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطْ وَأَخَذَهُمْ أَثْنَاءَ الْمُدَاسَةِ
 بِالرَّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَاخْتِلَافِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلُطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ
 مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهِ وَلَا مِنْ شِعْرِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى أَنْ
 يَحْذِقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعًا عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ وَهَذَا
 مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى الْبَزِيرِ أُمَمَ الْمَغْرِبِ فِي وَلَدَانِهِمْ
 إِلَى أَنْ يَجَاوِزُوا حَدَّ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّيْبَةِ وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ مُدَاسَةُ الْقُرْآنِ
 بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمُرِهِ فَهُمْ لِنَظَرِ ذَلِكَ أَقْوَمُ عَلَى رَسْمِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَنْدَلُسِ فَمَتَدَبَّهُمْ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي
 التَّعْلِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ ذَلِكَ وَأَسَسَهُ وَمَنْبَعَ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلًا
 فِي التَّعْلِيمِ فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ رِوَايَةَ الشَّعْرِ
 فِي الْغَالِبِ وَالتَّرْسُلَ وَأَخَذَهُمْ بِقَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَنْظِلِهَا وَتَجْوِيدِ الْأَخْطِ وَالْكِتَابِ وَلَا
 تَخْتَصُّ عَنْيَتَهُمْ فِيهِ بِالْأَخْطِ أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْوَلَدُ مِنْ عُمُرِ الْبُلُوغِ إِلَى
 الشَّيْبَةِ وَقَدْ شَدَّ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالشَّعْرِ وَالْبَصْرِ بِهِمَا وَبَرَزَ فِي الْأَخْطِ وَالْكِتَابِ
 وَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ الْعِلْمِ عَلَى الْجُمْلَةِ لَوْ كَانَ فِيهَا سَنَدُ تَعْلِيمِ الْعُلُومِ لَكُنْتُمْ يَنْقَطِعُونَ عَنْ
 ذَلِكَ لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِي أَفَاقِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ
 التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفِيهِ كِفَايَةُ لِمَنْ أَرَشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَسْتَعْدَادُ إِذَا وَجِدَ الْمُعَلِّمُ وَأَمَّا
 أَهْلُ أَفْرِيقَةِ فَيَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ الْقُرْآنَ بِالْحَدِيثِ فِي الْغَالِبِ وَمُدَاسَةُ قَوَانِينِ
 الْعُلُومِ وَتَلْقِينَ بَعْضَ مَسَائِلِهَا إِلَّا أَنَّ عَنْيَتَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَنْظَارَ الْوِلْدَانِ إِيَّاهُ وَوُفُوقَهُمْ
 عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِ وَقِرَاءَاتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهُ وَعَنْيَتَهُمْ بِالْأَخْطِ تَبَعٌ لِذَلِكَ وَبِالْجُمْلَةِ
 فَطَرَبَهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ أَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَاسْتَقَرُّوا بِتُونُسَ وَعَنْهُمْ
 أَخَذَ وَلَدَانَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ فَيَخْلُطُونَ فِي التَّعْلِيمِ كَذَلِكَ عَلَى مَا بَلَغْنَا

وَلَا أَدْرِي بِمَعْنَاهُمْ مِنْهَا وَالَّذِي يُقَالُ لَنَا أَنَّ عَيْنَيْهِمْ بِدِرَاسَةِ الْقُرْآنِ وَصُحُفِ الْعِلْمِ
وَقَوَائِنِهِ فِي زَمَنِ السَّبِيَةِ وَلَا يَخْلُطُونَ بِتَعْلِيمِ الْخَطِّ بَلْ لِعَلِّمْ الْخَطَّ عِنْدَهُمْ قَانُونٌ
وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى انْفِرَادِهِ كَمَا نَتَعَلَّمُ سَائِرَ الصَّنَائِعِ وَلَا يَتَدَاوُلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ الصَّبَّانِ وَإِذَا
كُتِبُوا لَهُمُ الْأَلْوَاَحُ فَبُخْطَ قَاصِرٍ عَنِ الْأَجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعَلَّمَ الْخَطَّ فَعَلَى قَدَرٍ مَا يَسْتَحِ
لُهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْهَمَةِ فِي طَلَبِهِ وَبَيْتِغِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ
فَأَفَادَهُمُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقُصُورُ عَنْ مَلَكََةِ اللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا
يَنْشَأُ عَنْهُ فِي الْغَالِبِ مَلَكََةٌ لِمَا أَنَّ الشَّرَّ مَضْرُوفُونَ عَنِ الْإِيْتَانِ بِمِثْلِهِ فَمِنْ مَضْرُوفُونَ
لِذَلِكَ عَنِ الْأَسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيهِهِ وَالْإِحْتِدَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكََةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيهِهِ
فَلَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكََةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحِظُهُ الْجُمُودُ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّنَصُّفِ
فِي الْكَلَامِ وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةِ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلُطُونَ
فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعُلُومِ فِي قَوَائِنِهَا كَمَا قُلْنَا هُفَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ
التَّنَصُّفِ وَمُحَادَاةِ الْمَثَلِ بِالْمَثَلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكََتِهِمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ كَمَا
سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثَرَةُ رَوَايَةِ الشِّعْرِ
وَالرَّسْلُ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ النُّعْمِ حُصُولَ مَلَكََةٍ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَصُرُوا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ
أَصْلُ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حِظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقْصِرٍ عَلَى حَسَبِ مَا
يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ وَلَقَدْ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي
كِتَابِ رَحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةِ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَابْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ
الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَالَ لِأَنَّ الشِّعْرَ دِيْوَانُ
الْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةٌ فَسَادِ اللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ
إِلَى الْحِسَابِ فَيَتِمَّرُنَ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَائِنَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرَسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَبَسَّرُ
عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْمَقْدِمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللَّهِ فِي
أَوَامِرِهِ يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرِ غَيْرِهِ أَهْمٌ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ
الَّذِينَ ثُمَّ أُصُولِ الْفَقْهِ ثُمَّ الْجَدَلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُطَ فِي التَّعْلِيمِ
عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ الْفَهْمِ وَالشَّاطِطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي

أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ لَعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أَمَّاكَ
بِالْأَحْوَالِ وَوَجْهٌ مَا اخْتَصَّتْ بِهِ الْعَوَائِدُ مِنْ تَقْدِمِ دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ إِثَارًا لِلتَّبَرُّكِ وَالْثَوَابِ
وَحَشْيَةً مَا يَعْزُضُ لِلْوَلَدِ فِي جُنُونِ الصَّبِيِّ مِنَ الْآفَاتِ وَالْفَوَاطِيعِ عَنِ الْعِلْمِ فَيَفْوُتُهُ الْقُرْآنُ
لأنَّهُ مَا دَامَ فِي الْحَجَرِ مُنْقَادٌ لِلْحُكْمِ فَإِذَا تَجَاوَزَ الْبُلُوغَ وَانْحَلَّ مِنْ رِبْقَةِ الْقَهْرِ فَرُبَّمَا
عَصَفَتْ بِهِ رِيَا حُ الشَّيْبَةِ فَأَلْقَتْهُ بِسَاحِلِ الْبَطَالَةِ فَيَقْتَنِمُونَ فِي زَمَانِ الْعَجْرِ وَرِبْقَةِ
الْحُكْمِ تَحْصِيلَ الْقُرْآنِ لئَلَّا يَذْهَبَ خُلُوعًا مِنْهُ وَلَوْ حَصَلَ الْيَقِينُ بِاسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ
الْعِلْمِ وَقَبُولِهِ التَّعْلِيمَ لَكَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَوَّلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ
الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضره بهم

وَذَلِكَ أَنَّ إِرْهَافَ الْحَدِّ بِالتَّعْلِيمِ مُضِرٌّ بِالتَّعْلِيمِ سَيِّمًا فِي أَصَاغِرِ الْوُلْدِ لِأَنَّهُ مِنْ سُوءِ
الْمَلَكَةِ وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِالْعُسْفِ وَالْقَهْرِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ أَوْ الْمَالِكِ أَوْ الْخَدَمِ
سَطَا بِهِ الْقَهْرُ وَضَبَقَ عَنِ النَّفْسِ فِي انْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَشَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى الْكَسَلِ وَحَمَلَ
عَلَى الْكُذِبِ وَالْخُبْثِ وَهُوَ التَّظَاهُرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنْ انْبِسَاطِ الْأَيْدِي بِالْقَهْرِ
عَلَيْهِ وَعِلْمُهُ الْمَكْرُ وَالْخُدَيْعَةُ لِلذَّكَ وَصَارَتْ لَهُ هَذِهِ عَادَةً وَخُلُقًا وَفَسَدَتْ مَعَانِي
الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ الْأَجْتِمَاعُ وَالتَّمَرُّنُ وَهِيَ الْحَمِيَّةُ وَالْمُدَافَعَةُ عَنِ نَفْسِهِ وَمَنْزِلُهُ
وَصَارَ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ بَلْ وَكَسَلَتِ النَّفْسُ عَنْ أَكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْخُلُقِ
الْجَمِيلِ فَأَنْقَبَضَتْ عَنْ غَايَتِهَا وَمَدَى إِنْسَانِيَّتِهَا فَازْ تَكْسُ وَعَادَ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَهَكَذَا
وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا الْعُسْفُ وَأَعْتَبِرُهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ
أَمْرُهُ عَلَيْهِ وَلَا تَكُونُ الْمَلَكَةُ الْكَافِلَةُ لَهُ رَفِيقَةً بِهِ وَتَجِدُ ذَلِكَ فِيهِمْ اسْتِقْرَاءً
وَانْظَرُهُ فِي الْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ السُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ
أَفْقٍ وَعَصْرٍ بِالْحَرَجِ وَمَعْنَاهُ فِي الْأَصْطِلَاحِ الْمَشْهُورِ التَّخَاثُبُ وَالْكَيدُ وَسَبَبُهُ مَا قُلْنَاهُ
فَيَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ فِي مُتَعَلِّمِهِ وَالْوَالِدِ فِي وَلَدِهِ أَنْ لَا يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِمَا فِي التَّنَادِيهِ وَقَدْ قَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَلْفَهُ فِي حُكْمِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ لَا يَنْبَغِي
لِمُؤَدِّبِ الصِّبْيَانِ أَنْ يَزِيدَ فِي ضَرِّهِمْ إِذَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ شَيْئًا وَمِنْ

كَلَامَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ بِهِ الشَّرْعَ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ حِرْصًا عَلَى صَوْنِ أَنْفُسٍ
عَنْ مَذَلَّةِ التَّأْدِيبِ وَعِلْمًا بِأَنَّ الْمَقْدَارَ الَّذِي عَيْنُهُ الشَّرْعُ لَذَلِكَ أَمْلَأَ لَهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ
بِمَصْلَحَتِهِ وَمِنْ أَحْسَنِ مَذَاهِبِ التَّعْلِيمِ مَا تَقَدَّمَ بِهِ الرَّشِيدُ لِمُعَلِّمٍ وَلَيْدِهِ تَحْمِيدُ الْأَمِينِ
فَقَالَ يَا أَحْمَرُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مَهْجَةً نَفْسِهِ وَبِمَرَّةٍ قَلْبِهِ فَصَبْرٌ يَدُوكَ عَلَيْهِ
مَبْسُوطَةٌ وَطَاعَتُهُ لَكَ وَاجِبَةٌ وَكُنْ لَهُ بِحُبِّ وَضْعِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبُهُ الْقُرْآنُ
وَعَرَفُهُ الْأَخْبَارَ وَرَوَاهُ الْأَشْعَارَ وَعَلِمَهُ الشُّنَّ وَبَصَرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ وَبَدَنَهُ وَأَمْنَهُ
مَنْ الضَّحْكُ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَائِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَفَعَ
مَجَالِسِ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا وَمَجْلِسَهُ وَلَا تَمُرَنَّ بِكَ سَاعَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ مُقْنِنٌ مُقْنِنُهُ نَفِيدُهُ
إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحْزَنَهُ فَتُمِيتَ ذَهْنَهُ وَلَا تَمْنَعَنَّ فِي مُسَاحَتِهِ فَيَسْتَجْلِي الْفَرَاغُ وَيَأْلَفُهُ
وَقُوْمُهُ مَا اسْتَطَاعَتْ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَابِنَةِ فَإِنَّ أَبَاهَا فَعَلَيْكَ بِالشَّدَةِ وَالْعَاطِلَةِ انْتَهَى

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْبَشَرَ يَأْخُذُونَ بِمَعَارِفِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَا يَنْتَحِلُونَ بِهِ مِنْ
الْمَذَاهِبِ وَالْفَضَائِلِ تَارَةً عِلْمًا وَتَعْلِيمًا وَإِلْقَاءً وَتَارَةً مُخَاكَاةً وَتَأْلِيمًا بِالْمُبَاشَرَةِ إِلَّا أَنَّ
حُصُولَ الْمَلَكَاتِ عَنِ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينَ أَشَدَّ اسْتِحْكَامًا وَأَقْوَى رُسُوخًا نَعْلَى قَدَرِ
كَثَرَةِ الشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ الْمَلَكَاتِ وَرُسُوخُهَا وَالْإِصْطِلَاحَاتِ أَبْغَا فِي تَعْلِيمِ
الْعُلُومِ مَخْلَاطَةً عَلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْعِلْمِ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ
ذَلِكَ إِلَّا مَبَاشَرَتَهُ لِاخْتِلَافِ الطَّرِيقِ فِيهَا مِنَ الْمُعَلِّمِينَ فَلِقَاءُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَتَعَدُّدُ الْمَشَايِخِ
يُفِيدُهُ تَمْيِيزَ الْإِصْطِلَاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنْ اخْتِلَافِ طَرَفِهِمْ فِيهَا فَيَجَرِّدُ الْعِلْمَ عَنْهَا وَيَعْلَمُ
أَنَّهَا أَمْثَلُ تَعْلِيمٍ وَطَرِيقُ تَوْصِلُ وَتَنْبِيْضُ قُوَاهُ إِلَى الرُّسُوخِ وَالْإِسْتِحْكَامِ فِي الْمَكَانِ
وَتَضَحُّحِ مَعَارِفِهِ وَتُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا مَعَ تَقْوِيَةِ مَلَكَتِهِ بِالْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينَ وَكَثَرَتِهَا
مِنْ الْمَشِيخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَوْضُوحِهِمْ وَهَذَا لِمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْعِلْمِ وَالْهُدَايَةِ
فَالرَّحْلَةُ لَا بَدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَا كِتْسَابَ الْفَوَائِدِ وَالْكَمَالَ بِلِقَاءِ الْمَشَايِخِ وَمُبَاشَرَةِ
الرَّجَالِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ وَالْفَوْصَ عَلَى الْمَعَانِي وَانْتِزَاعَهَا
مِنَ الْحَسُوسَاتِ وَتَجَرِيدَهَا فِي الذِّهْنِ أُمُورًا كَلِمَةً عَامَةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ الْعُمُومِ
لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ الْكَلِمَةِ عَلَى الْخَارِجِيَّاتِ وَأَيْضًا يَقَيِّسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا أَعْتَادُوهُ
مِنَ الْقِيَاسِ الْفَقْهِيِّ فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُنْهَا فِي الذِّهْنِ وَلَا تُصِيرُ إِلَى
الْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ التَّبَحُّثِ وَالنَّظَرِ وَلَا تُصِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّغُ
مَا فِي الْخَارِجِ عَمَّا فِي الذِّهْنِ مِنْ ذَلِكَ كَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ عَمَّا فِي الْحَفَظِ
مِنْ أَدَلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مُطَابَقَةً مَا فِي الْخَارِجِ لَهَا عَكْسُ الْأَنْظَارِ فِي الْعُلُومِ الْعُقْلِيَّةِ
الَّتِي تَطْلُبُ فِي صَحَّتِهَا مُطَابَقَتَهَا فِي الْخَارِجِ فَهُمْ مُتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمُ الْأُمُورَ الذِّهْنِيَّةَ
وَالْأَنْظَارَ الْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْزِفُونَ سِوَاهَا وَالسِّيَاسَةَ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي الْخَارِجِ وَمَا
يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتَّبِعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنَ الْحَاقِقِ شِبْهِهُ أَوْ
مِثَالِ وَبِنَا فِي الْكَلِمَةِ الَّذِي يُحَاوِلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا وَلَا يَقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ عَلَى
الْآخِرِ كَمَا أَشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلِلْعُلَمَاءِ اخْتِلَافٌ فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ الْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا
تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ الْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ الْأُمُورِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي السِّيَاسَةِ
أَفْرَعُوا ذَلِكَ فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ اسْتِدْلَالِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي الْغَلَطِ كَثِيرًا وَلَا
يُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَاءِ لَا أَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ
بِنُقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْفَوْصِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْقِيَاسِ وَالْمُحَاكَاةِ
فَيَقَعُونَ فِي الْغَلَطِ وَالْعَاطِي السَّالِمِ الطَّبَعِ الْمَتَوَسِّطِ الْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذَلِكَ
وَعَدَمِ اعْتِبَادِهِ إِيَّاهُ يَفْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
وَالْأَشْخَاصِ عَلَى مَا أَخْصَصَ بِهِ وَلَا يَعْزِي الْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يَفَارِقُ فِي أَكْثَرِ
نَظَرِهِ الْمَوَادَّ الْحَسُوسَةَ وَلَا يَجَاوِزُهَا فِي ذِهْنِهِ كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْبَرَّ عِنْدَ الْمَوْجِ
قَالَ الشَّاعِرُ

فَلَا تُؤْغِلَنَّ إِذَا مَا سَجَّتْ مَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جَنَسِهِ فَيَحْسُنُ
مَعَاشُهُ وَتَنْدَفِعُ آفَاتُهُ وَمَصَارُهُ بِاسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ
أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ الْغَلْطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْإِتِّزَاعِ وَبُعْدِهَا عَنِ الْحَسُّوسِ
فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَقُولَاتِ الثَّوَانِي وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا مَا يُمَانِعُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا
عِنْدَ مُرَاعَاةِ التَّطَبُّقِ الْيَقِينِي وَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْمَقُولَاتِ الْأَوَّلِ وَهِيَ الَّتِي تَجَرُّدُهَا قَرِيبٌ
فَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ الْحَسُّوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤَدَّةٌ بِتَصْدِيقِ أَنْطَبَاقِهِ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم
مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي أَلَمَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمْ أَجَنَّهُمْ لَا مِنْ
الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْغَرِيبُ فِي
نِسْبَتِهِ فَهُوَ عَجَمِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَسْجِدُهُ مَعَ أَنَّ أَلَمَلَةَ عَرَبِيَّةً وَصَاحِبَ شَرِيعَتِهَا عَرَبِيٌّ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَلَمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمُقْتَضَى أَحْوَالِ
السَّادَجَةِ وَالْبَدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَوَامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ الرِّجَالُ
يَتَقَلَّبُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَا خَذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوْهُ مِنْ صَاحِبِ
الشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ وَالْقَوْمُ يَوْمئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّعْلِيمِ وَالتَّلَافُفِ وَالتَّدْوِينِ وَلَا
دَفَعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتَهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَكَانُوا
يُسَمُّونَ الْمُخْتَصِّصِينَ بِحَمَلِ ذَلِكَ وَنَقْلِهِ إِلَى الْقُرَّاءِ أَيْ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أَمِيَّةِينَ
لِأَنَّ الْأَمِيَّةَ يَوْمئِذٍ صِفَةٌ عَامَّةٌ فِي الصَّحَابَةِ بِمَا كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ يَوْمئِذٍ قُرَّاءُ
إِشَارَةٌ إِلَى هَذَا فَهُمْ قُرَّاءُ لِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَّةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا
الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرُهُ لَهُ وَشَرْحُهُ
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ إِنْ تَصَلَّيَا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابُ اللَّهِ
وَسُنَّتِي فَلَمَّا بَعْدَ النَّقْلِ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ الرَّشِيدِ فَمَا بَعْدَ أَحْبَبَ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ
وَتَفْسِيرِ الْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ أَحْبَبَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ النَّاقِلِينَ لِلتَّحْمِينِ
بَيْنَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَسَانِيدِ وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ اسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِ الْوَأَفِعَاتِ مِنَ

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذَلِكَ اللِّسَانُ فَأَحْتِجَ إِلَى وَضْعِ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَصَارَتْ
 الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْإِسْتِخْرَاجِ وَالْتَنْظِيرِ وَالْقِيَاسِ
 وَاحْتَاجَتْ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ الْأَوْسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذَلِكَ
 الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ الْبِدْعِ وَالْإِلْحَادِ
 فَصَارَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُومًا ذَاتَ مَلَكَاتٍ تُحْتَاجُ إِلَى التَّعْلِيمِ فَأَنْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ
 الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ الْحَضَرِ وَأَنَّ الْعَرَبَ أَبَدًا النَّاسَ عَنْهَا
 فَصَارَتْ الْعُلُومُ لِذَلِكَ حَضَرِيَّةً وَبَعْدَ عَنْهَا الْعَرَبُ وَعَنْ سُوقِهَا وَالْحَضَرُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ هُمُ
 الْعَجَمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَأَهْلُ الْخَوَاصِرِ الَّذِينَ هُمْ يَوْمُنَا تَبَعُ لِلْعَجَمِ فِي
 الْحِضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْخَرْفِ لِأَنَّهُمْ أَقَوْمٌ عَلَى ذَلِكَ لِلْحِضَارَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِمْ
 مِنْذُ دَوْلَةِ الْفَرَسِ فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ النَّحْوِ سَبُوحِيهِ وَالْفَارِسِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَالزَّجَّاجُ مِنْ
 بَعْدِهِمَا وَكُلُّهُمْ عَجَمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَأَكْتَسَبُوهُ بِالْمَرْبِيِّ
 وَتَخَالُطَةِ الْعَرَبِ وَصَرُّهُ قَوَانِينِ وَفَنَّا لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَذَا حَمَلَةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ حَضَبُوهُ عَنْ
 أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجَمٌ أَوْ مُسْتَعِجِمُونَ بِاللُّغَةِ وَالْمَرْبِيِّ وَكَانَ عُلَمَاءُ أَصُولِ الْفَقْهِ
 كُلُّهُمْ عَجَمًا كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ الْكَلَامِ وَكَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ يَقُمْ
 بِحِفْظِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا الْأَعْجَمُ وَظَهَرَ مُصَدِّقُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ
 بِأَكْثَرِ السَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارَسَ وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَذِهِ الْحِضَارَةَ
 وَسُوقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ الْبِدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمْ الرِّئَاسَةُ فِي الدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولِي سِيَاسَتِهَا
 مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْإِثْنَةِ عَنِ انْتِحَالِ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَالرُّؤُوسَاءِ
 أَبَدًا يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْمِهِنِ وَمَا يُجْرِي إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ
 الْعَجَمِ وَالْمَوْلَدِينَ وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَحْتَقِرُونَ
 حَمَلَتَهَا كُلَّ الْأَحْتِقَارِ حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجَمِ صَارَتْ الْعُلُومُ
 الشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةً النَّسَبَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَلَائِكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ نَسَبَتِهَا وَأَمْتِنَ حَمَلَتَهَا
 بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بَعْدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَرِكِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ فِي الْمَلَائِكِ وَالسِّيَاسَةِ
 كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي ثَقُلِ الْمَرَاتِبِ الدِّينِيَّةِ فَبِذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ حَمَلَةَ
 الشَّرِيعَةِ أَوْعَامَتُهُمْ مِنَ الْعَجَمِ وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقَلِيَّةُ أَيْضًا فَلَمْ تَظْهَرْ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

تَمَيَّزَ حَمَلَةُ الْعِلْمِ وَمُؤَلَّفُوهُ وَاسْتَقَرَّ الْعِلْمُ كُلُّهُ صِنَاعَةً فَاخْتَصَّتْ بِالْعَجْمِ وَتَرَكْتُمَا الْعَرَبُ
وَأَنْصَرَفُوا عَنْ أَنْحَالِهَا فَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَّا الْمَعْرَبُونَ مِنَ الْعَجْمِ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كَمَا فَلَنَاهُ أَوَّلًا
فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ مَا دَامَتِ الْحِضَارَةُ فِي الْعَجْمِ وَبِلَادِهِمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ فَلَمَّا خَرِبَتْ تِلْكَ الْأَمْصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا الْحِضَارَةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ اللَّهِ فِي
حُصُولِ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ ذَهَبَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَجْمِ جُمْلَةً لِمَا شَمَلَهُمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَاخْتَصَّ
الْعِلْمُ بِالْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْحِضَارَةِ وَلَا أَوْفَرَ الْيَوْمَ فِي الْحِضَارَةِ مِنْ مِصْرَ فَهِيَ أُمُّ الْعَالَمِ
وَإِيَّوَانُ الْأَسْلَامِ وَيَنْبُوعُ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ وَيَبْقَى بَعْضُ الْحِضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ النَّهْرِ لِمَا
هُنَاكَ مِنَ الْحِضَارَةِ بِالذَّوَلَةِ الَّتِي فِيهَا فَلَهُمْ بِذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ لَا تُنْكَرُ
وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذَلِكَ كَلَامُ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَأْلِيفِ وَصَلَتِ إِلَيْنَا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَهُوَ
سَعْدُ الدِّينِ التُّفَازَانِيُّ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْعَجْمِ فَلَمْ نَرِ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ الْأَمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ
وَنَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ كَلَامًا يُعَوَّلُ عَلَى نَهَائِشِهِ فِي الْأَصَابَةِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلْهُ تَرَعَجًا
فِي أَحْوَالِ الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أَزْكَاهُ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ الْلُغَةُ وَالنَّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالْأَدَبُ وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى أَهْلِ
الشَّرِيعَةِ إِذَا مَأْخَذَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهِيَ بِالْغَةِ الْعَرَبِ
وَنَقَلَتْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرَحَ مُشْكَلَاتِهَا مِنْ لُغَاتِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا اللِّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ وَتَفَاوُتِ فِي التَّأْكِيدِ بِتَفَاوُتِ
مَرَاتِبِهَا فِي التَّوْفِيقِ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ حَسَبًا يَتَبَيَّنُ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنَأْتِي وَالَّذِي
يَتَحَصَّلُ أَنَّ الْأَهَمَّ الْمَقْدَمَ مِنْهَا هُوَ النَّحْوُ إِذْ بِهِ تَبَيَّنَ أَصُولُ الْمَقَاصِدِ بِالْإِدْلَالِ فَيَعْرِفُ
الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ وَلَوْلَاهُ لَجُهِلَ أَصْلُ الْإِفَادَةِ وَكَانَ مِنْ حَقِّ عِلْمِ
اللُّغَةِ التَّقْدِيمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ بَاقِيَةٌ فِي مَوْضِعَاتِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ بِخِلَافِ الْأَعْرَابِ
الِدَّلَالِ عَلَى الْإِسْنَادِ وَالْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغَيَّرُ بِالْجُمْلَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ فَلِذَلِكَ
كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ أَهَمَّ مِنَ الْلُغَةِ إِذْ فِي جِهْلِهِ إِلَّا خِلَالَ الْتَفَاهُهِ جُمْلَةً وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ

اللُّغَةُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

علم النحو

إِعْلَمَنَّ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الْمَتَعَارِفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ
فِعْلٌ لِسَانِي فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرَّرَةً فِي الْعُضْوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ اللِّسَانُ وَهُوَ فِي
كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ الْمَلَكَةُ الْخَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِلدَّلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ
الْمَعَانِي مِنَ التَّجَرُّورِ أَعْنِي الْمُضَافِ وَمِثْلُ الْحُرُوفِ الَّتِي تُنْفَعِي بِالْأَفْعَالِ إِلَى الدَّوَاتِ
مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ الْفَظِ أُخْرَى وَلَيْسَ يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنْ
اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنَى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْفَظِ مُخَصَّصٍ بِالدَّلَالَةِ وَلِذَلِكَ يُجَدُّ كَلَامُ
الْعَجَمِ مِنْ مَخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَأَخْضِرْتُ لِي الْكَلَامَ أَخْضَارًا فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي
لُغَتِهِمْ وَالْحَرَكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيْ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِينَ
فِيهِ لِصِنَاعَةِ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي السَّنَتِيمِ بِأَخْذِهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ
كَمَا تَأْخُذُ صَبِيَانَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لَطَابَ الْمَلِكُ
الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالِدُورِ وَخَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا أَلْقَى
إِلَيْهَا أَلَسَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي لِلْمُسْتَعَرَبِينَ وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا
أَلْقَى إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِحُجُوجِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ وَخَشْيِ أَهْلِ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنَّ تَفْسِدَ
تِلْكَ الْمَلَكَةِ رَأْسًا وَيَطُولُ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا
مِنْ مَجَارِي كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَرِّدَةً شَبَهَ الْكَلِمَاتِ وَالْقَوَاعِدَ يَقِيسُونَ
عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيُلْحِقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولُ
مَنْصُوبٌ وَالْمُبْتَدَأُ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلَالَةِ بِتَغْيِيرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا
عَلَى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَةَ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ التَّغْيِيرِ عَامِلًا وَمِثَالِ ذَلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا
اصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مُخَصَّصَةً وَاصْطَلَحُوا
عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ النَّحْوِ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيُقَالُ
بِإِشَارَةِ عِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغْيِيرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَفَرَعَ إِلَى

ضَبَطَهَا بِالْقَوَائِنِ الْحَاضِرَةِ الْمُسْتَقْرَاءِ ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنْ انْتَهَتْ إِلَى
الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ أَخْرَجَ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ الْمَلِكَةِ
مِنَ الْعَرَبِ فَهَدَّبَ الصَّنَاعَةَ وَكَمَّلَ أَبْوَابَهَا وَأَخَذَهَا عَنْهُ سِبْيُونِيَةٌ فَكَمَّلَ تَفَارِيعَهَا وَسَتَرَ كَثْرَ
مِنْ أَدَلَّتْهَا وَشَوَاهِدَهَا وَوَضَعَ فِيهَا كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كَتَبَ فِيهَا
مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ وَضَعَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الرَّجَّاجُ كُتُبًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَخْدُونَ
فِيهَا حَدِّ الْأَمَامِ فِي كِتَابِهِ ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَحَدَّثَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا
فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ وَكَثُرَتِ الْأَدَلَةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ وَتَبَايَنَتْ
الْطُرُقُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثُرَ الْأَخِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ بِأَخْتِلَافِهِمْ فِي
تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ فِي الْإِخْتِصَارِ
فَأَخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِكُلِّ شَيْءٍ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي
كِتَابِ التَّنْهِيلِ وَأَمَّا هَذَا أَوْ اقْتِصَارُهُمْ عَلَى الْمَبَادِي لِلْمُتَعَلِّمِينَ كَمَا فَعَلَهُ الرَّخْشَرِيُّ
فِي الْمِفْصَلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمُقَدِّمَةِ لَهُ وَرُبَّمَا نَظَّمُوا ذَلِكَ نَظْمًا مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي
الْأَرْجُوزَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنُ مَعْطِيٍّ فِي الْأَرْجُوزِ الْأَفْئِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ فَأَتَانَا بَعْضُ
فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطُرُقُ التَّعْلِيمِ فِيهَا مُتَخَلِّفَةٌ فَطَرِيقَةُ
الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لَطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْوُفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ
وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُتَخَلِّفَةٌ طُرُقُهُمْ كَذَلِكَ وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ تُؤْذَنُ بِالذَّهَابِ لِمَا
رَأَيْنَا مِنَ النِّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ
لِهَذِهِ الْعُصُورِ دِيَوَانٌ مِنْ مِصْرَ مَنَسُوبٌ إِلَى جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى
فِيهِ أَحْكَامَ الْأَعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفَصَّلَةً وَتَكَلَّمَ عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمْلِ
وَحَدَفَ مَا فِي الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكَرَّرِ فِي أَكْثَرِ أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمَغْنِيِّ فِي الْأَعْرَابِ
وَأَشَارَ إِلَى نَكْتِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا بِأَبْوَابٍ وَفُصُولٍ وَقَوَاعِدٍ أَنْتَظَمَ
سَائِرَهَا فَوَقَفْنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَوُفُورِ بَاضَاعَتِهِ
مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنَاجَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ الَّذِينَ اقْتَفَوْا أَثَرَ ابْنِ جَنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا
مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ عَجِيبٌ دَالٌّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ وَاللَّهُ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

علم اللغة

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ بَيَانُ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ النَّحْوِ بِالْإِعْرَابِ وَاسْتَنْبَطَتِ الْقَوَائِنُ لِحِفْظِهَا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ اسْتَمَرَّ ذَلِكَ الْفَسَادُ بِمَلَاسَةِ النُّجْمِ وَخِلَاطَتِهِمْ حَتَّى تَأْدَى الْفَسَادُ إِلَى مَوْضُوعَاتِ الْأَلْفَاظِ فَاسْتَعْمَلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ عِنْدَهُمْ مِثْلًا مَعَ هَجْنَةِ الْمُسْتَعْرِ بَيْنَ فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ الْخَالِيفَةُ لِصَرْيَحِ الْعَرَبِيَّةِ فَاحْتِجَّ إِلَى حِفْظِ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالْتَدْوِينِ خَشْيَةَ الدُّرُوسِ وَمَا يَشَأُ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فَشَمَرَ كَثِيرٌ مِنْ أُمَّةِ اللِّسَانِ لِدَلِّكَ وَأَمَلُوا فِيهِ الدَّوَائِنَ وَكَانَ سَابِقُ الْحَلَبَةِ فِي ذَلِكَ الْحَلِيلِ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَلَفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ فَحَصَّرَ فِيهِ مَرْكَاتِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلِّهَا مِنَ الثَّنَائِيِّ وَالْثَلَاثِيِّ وَالرُّبَاعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ وَهُوَ غَايَةٌ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرَكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَتَأْتَى لَهُ حَصْرُ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ عَدِيدَةٍ حَاضِرَةٍ وَذَلِكَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ الثَّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ وَهُوَ دُونَ نِهَائِهِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ لِأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ فَتَكُونُ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ كَلِمَةً ثَنَائِيَّةً ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّنَائِي مَعَ السَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ كَذَلِكَ ثُمَّ الثَّلَاثُ وَالرَّابِعُ ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ مَعَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ فَيَكُونُ وَاحِدًا فَيَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَادًا عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ فَتَجْمَعُ كَمَا هِيَ بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ ثُمَّ تَضَاعَفُ لِأَجْلِ قَلْبِ الثَّنَائِيِّ لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ بَيْنَ الْحُرُوفِ مُعْتَبَرٌ فِي التَّرَكِيبِ فَيَكُونُ الْخَارِجُ جُمْلَةً الثَّنَائِيَّاتِ فِيمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعَشْرِينَ لِأَنَّ كُلَّ ثَنَائِيَّةٍ يَزِيدُ عَلَيْهَا حَرْفًا فَتَكُونُ ثَلَاثِيَّةً فَتَكُونُ الثَّنَائِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْبَاقِيَةِ وَهِيَ سِتَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا بَعْدَ الثَّنَائِيَّةِ فَتَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَضَرْبُ فِيهِ جُمْلَةُ الثَّنَائِيَّاتِ ثُمَّ تَضْرِبُ الْخَارِجُ فِي سِتَّةٍ جُمْلَةٍ مَقْلُوبَاتِ الْكَلِمَةِ الثَّلَاثِيَّةِ فَيَخْرُجُ مَجْمُوعٌ زَوَاكِبُهَا مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَكَذَلِكَ فِي الرُّبَاعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ فَاتَّحَصَّرَتْ لَهُ التَّرَاكِبُ بِهَذَا الْوَجْهِ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِالتَّرْتِيبِ الْمَعْتَرَفِ وَاعْتَمَدَ فِيهِ تَرْتِيبَ الْخَارِجِ قَبْدًا بِحُرُوفِ الْخَلْقِ ثُمَّ بَعْدَهُ مِنْ حُرُوفِ الْخَنَكِ ثُمَّ الْأَضْرَاسِ ثُمَّ

الشفة وجعل حروف اللعة آخرًا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين
لأنه الأفصر منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية
دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم
بين المفضل منها من المستعمل وكان المفضل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة
استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي
أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن التحليل ذلك كله في كتاب العين
وأسنوعة أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد
بالأندلس في المائة الرابعة فأختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المفضل
كله وكثيراً من شواهد المستعمل ولخصه للفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري
من المشاركة كتاب الصلاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها
بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لأضطرار الناس في
الأكثر إلى أواخر الكلم وحصر اللغة أفنداء بحصر التحليل ثم آتت فيها من الأندلسيين ابن
سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك انتهى من الاستيعاب
وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لأشعاقات الكلم وتصاريها فجاء من
أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية
بنونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصلاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم
عليها فكانا توأمي رحم وسلي أبيه هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك
مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو كلها إلا
أن وجهه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكم كما رأيت ومن
الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزحشر في النجاسات بين فيه كل ما تجوزت
به العرب من الألفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة
ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً
أخرى خاصة بها فوق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة
عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم أخذ ما فيه
بياض من الخيل بالاشبه ومن الإنسان بالأزهر ومن النعم بالأملح حتى صار استعمال

الأيض في هذه كلها حنناً وخرُوجاً عن لسان العرب وأخص بالثأليف في هذا المنحى
 الثعالبى وأفرده في كتاب له سماه فيقه اللغة وهو من أكدر ما يأخذ به الغوي نفسه
 أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الأول بكاف في الترتيب
 حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في قتي
 نظميه ونثره حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتركيبها
 وهو أشد من اللحن في الأعراب والفحش وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ
 المشتركة وتكفل بحضرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب لئلاكثر
 وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالتداول من اللغة الكثير
 الاستعمال تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصح
 الثعالب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظريهم في الأهم على الطالب
 للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه

علم البيان

هذا العلم حادث في الدالة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم انسانية لأنه
 متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي
 يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند
 إليها ويفضي بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال
 والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بتغير الحركات
 من الأعراب وأنبية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو وبقي من الأمور
 الممكنة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه
 حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة وإذا حصلت للمتكلم
 فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه وإذا لم يشمل على شيء منها فليس من جنس كلام
 العرب فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الأعراب
 والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن
 المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن أهميته
 بالبحي قبل الشخص المسند إليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن أهميته بالشخص

قَبْلَ الْحُجِيِّ الْمُسْنَدِ وَكَذَا التَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يَنْسَبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ
 مِنْهُمْ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَكَذَا تَأْكِيدُ الْإِسْنَادِ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ
 وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْرَابِ فَإِنَّ
 الْأَوَّلَ الْعَارِيَّ عَنِ التَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَلِّيَ الدَّهْنَ وَالثَّانِي الْمَوْكَدَ بَابٌ يُفِيدُ
 الْمُتَرَدِّدَ وَالثَّلَاثُ يُفِيدُ الْمُنْكَرَ فِيهِ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَلِكَ نَقُولُ جَاءَ فِي الرَّجُلِ ثُمَّ نَقُولُ مَكَانَهُ
 يَعْنِيهِ جَاءَ فِي رَجُلٍ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرَ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ
 الرِّجَالِ ثُمَّ الْجُمْلَةُ إِلَّا سِنَادِيَّةٌ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ نَظَائِقُهُ أَوَّلًا وَإِنْشَائِيَّةٌ
 وَهِيَ الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ إِذَا
 كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْأَعْرَابِ فَيُشْرِكُ بِذَلِكَ مَنَزِلَةَ التَّابِعِ الْمَفْرَدِ نَعْتًا وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا
 بِلا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ الْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْأَعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ
 إِلَّا طَنْابًا وَلَا إِيجَازَ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يَدُلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطُوقُهُ
 وَيُرَادُ لَزَامُهُ إِنْ كَانَ مَفْرَدًا كَمَا نَقُولُ زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ الْأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ
 وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ الْأَلَزِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ اسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ
 الْمُرْكَبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا نَقُولُ زَيْدٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ
 مِنَ الْجُودِ وَقَرَى الضَّيْفِ لِأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهَا فِيهِ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا
 دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَنْطَاطِ مِنَ الْمَفْرَدِ وَالْمُرْكَبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالٌ لَوَاقِعَاتٍ
 جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الْأَلْفَاطِ كُلٌّ يَحْسَبُ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ فَاشْتَمَلَ
 هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى الْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ
 وَالْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ الْأَوَّلُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ
 وَالْأَحْوَالِ الَّتِي نَظَائِقُ بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضِيَاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمُ الْبَلَاغَةِ وَالصَّنْفُ
 الثَّانِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَلَزِمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الْإِسْتِعَارَةُ وَالْكِنَايَةُ كَمَا
 قُلْنَا وَيُسَمَّى عِلْمُ الْبَيَانِ وَالْحَقُوقُ ابْنَاهَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَرْبِيعِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ
 بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَمْعٍ بَفَصْلَةٍ أَوْ تَجْنِيسٍ بِشَابِهِ يَبِينُ الْفَظْهُ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ
 أَوْ تَوْرِيَّةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيْهَامٍ مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْبَدِيعِ وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ

الْبَيَانُ وَهُوَ اسْمُ الصَّنْفِ الثَّانِي لِأَنَّ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ثُمَّ تَلَا حَقَّتْ مَسَائِلُ
الْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَكَتَبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَالْبَلَّاحُ وَفَدَامَةُ وَأَمثالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ
غَيْرُ وَافِيَةٍ فِيهَا نَحْنُ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَحْصِيَ السَّكَاكِي زُبْدَتَهُ
وَهَذَبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ انْفِاضًا مِنَ التَّرْتِيبِ وَأَلَّفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى
بِالْمِفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ فَيَجْعَلُ هَذَا الْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَأَخَذَهُ
الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَخَصَّصُوا مِنْهُ أُمَمَاتٍ هِيَ الْمُتَدَاوِلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ السَّكَاكِيُّ
فِي كِتَابِ الْبَيَانِ وَأَبْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمَصْبَاحِ وَجَلَّالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ
الْإِيضَاحِ وَالتَّخْيِصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حِجْمًا مِنَ الْإِيضَاحِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ
الْمَشْرِقِ فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُشَارَفَةُ عَلَى هَذَا
الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا لِيَ فِي الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ وَالصَّنَائِعِ
الْكِمَالِيَّةِ تُوِجِدُ فِي الْعُمَرَانِ وَالْمَشْرِقِ أَوْفَرُ عُمَرَانًا مِنَ الْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ
تَقُولُ لِعِنَايَةِ الْعَجْمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ كَتَفَسَّرَ الزُّنْحُسِيُّ وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى
هَذَا الْفَنِّ وَهُوَ أَصْلُهُ وَإِنَّمَا اخْتُصَّ بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنْ أَضْوَافِهِ عِلْمُ الْبَدِيعِ خَاصَّةً
وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الْأَدَبِ الشَّعْرِيَّةِ وَفَرَّغُوا لَهُ الْقُبَابَ وَعَدَّدُوا أَبْوَابًا وَتَوَعَّوْا أَنْوَاعًا
وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوُلُوعِ بِتَرْيُّبِ الْأَلْفَاظِ
وَأَنَّ عِلْمَ الْبَدِيعِ سَهْلٌ الْمَأْخُذِ وَصَعِبَتْ عَلَيْهِمْ مَأْخُذُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا
وَعُمُوسُ مَعَانِيهِمَا فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا وَمِمَّنْ أَلَّفَ فِي الْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ ابْنُ رَشِيقٍ
وَكِتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ مَشْهُورٌ وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ وَعَلِمَ
أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ الْأَعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وَفَاءِ الدَّلَالَةِ
مِنْهُ بِجَمْعِ مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةٍ وَمَفْهُومَةٍ وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَلَامِ مَعَ
الْكِمَالِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ فِي انْتِقَائِهَا وَجُودَةِ رِصْفِهَا وَتَرْكِيبِهَا وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ
الَّذِي نَقْصِرُ الْأَفْهَامَ عَنْ إِدْرَاكِهِ وَإِنَّمَا يَدْرِكُ بَعْضُ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ
بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيَدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ فَلِهَذَا كَانَتْ
مَدَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَامًا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلَامِ
وَجَهَابُ الذِّهْنِ وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرٍ مَا يَكُونُ وَأَصَحُّ وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى هَذَا

الْفَنِّ الْمَفْسُورُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفِّلَ عَنْهُ ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ الزَّمْخَشَرِيُّ وَوَضَعَ
كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ وَتَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا يُبْدِي الْبَعْضُ مِنْ
إِعْجَازِهِ فَأَتَقَرَّدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ الْبِدْعِ عِنْدَ
اقتباسها مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلَاغَةِ وَلِأَجْلِ هَذَا يُتَحَمَّاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مَعَ وَفُورِ
بِضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ بَعْضَ الْمَشَارِكَةِ
حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ فَيُغَرِّضُ عَنْهَا وَلَا تُقَرَّرُ
فِي مُعْتَقَدِهِ فَإِنَّهُ يَتَبَيَّنُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظُّفَرِ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ وَاللَّهُ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ

علم الادب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي اثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ
أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ عَلَى أَسَالِبِ الْعَرَبِ
وَمَنَاجِيهِمْ فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرِ
عَالِي الطَّبَقَةِ وَتُجْمَعُ مُتَسَاوٍ فِي الْإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْثُوتَةٌ أَثْنَاءَ ذَلِكَ
مُتَفَرِّقَةٌ يَسْتَقْرِئُ مِنْهَا النَّازِرُ فِي الْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَائِنِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ
الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْمُهَمِّ مِنَ الْأَنْسَابِ الشَّهِيرَةِ
وَالْأَخْبَارِ الْعَامَّةِ وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى النَّازِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ
وَأَسَالِبِهِمْ وَمَنَاجِيهِمْ بِالْإِعْتِمَادِ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ الْمَلَكََةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ
فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هَذَا الْفَنِّ
قَالُوا الْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَالْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يَطْرَفُ يُرِيدُونَ
مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتَوْنَهَا فَقَطُّ وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ إِذْ لَا
مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلْفِهِمْ
بِصَنَاعَةِ الْبَدِيعِ مِنَ التَّوَرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرْسُلِهِمْ بِالْأَصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاحْتَاجَ
صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى مَعْرِفَةِ أَصْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا وَسَمْعِهَا
مِنْ شَيْوِخِنَا فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَاوِينُ وَهِيَ أَدَبُ
الْكِتَابِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِلجَّاحِظِ

وَكِتَابُ النُّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي الْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَتَمَّعَ لَهَا وَفُرُوعُ
عَنْهَا وَكُتِبَ الْمُخَدِّثِينَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ الْغِنَاءُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا
الْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشَّعْرِ إِذَا الْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ وَكَانَ الْكِتَابُ وَالْفَضْلُ مِنْ
الْخَوَاصِّ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ الشَّعْرِ
وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنْ اتِّخَالُهُ قَادِحًا فِي الْعَدَالَةِ وَالْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ الْقَاضِي أَبُو الْفَرَجِ
الْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي الْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنَسَابَهُمْ وَيَأَمُّهُمْ
وَدَوْلَهُمْ وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى الْغِنَاءِ فِي الْمِائَةِ صَوْتًا الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَوْعَبَ
فِيهِ ذَلِكَ أَتَمَّ اسْتِيعَابَ وَأَوْفَاهُ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْبَاتِ الْمَحَاسِنِ
الَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الشَّعْرِ وَالتَّأْرِخِ وَالْغِنَاءِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَلَا
يُعَدُّ بِهِ كِتَابٌ فِي ذَلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا الْأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا
وَأَنَّى لَهُ بِهَا وَنَحْنُ الْآنَ نَرْجِعُ بِالْحَقِيقِ عَلَى الْإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ
اللِّسَانِ وَاللَّهُ أَهْلَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمُ أَنَّ الْأَلْفَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي اللِّسَانِ
لِلْعِبَارَةِ عَنِ الْمَعْنَى وَجُودَتِهَا وَقُصُورُهَا بِحَسَبِ تِمَامِ الْمَلَكَاتِ أَوْ نُقْصَانِهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ
بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرَاكِبِ فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَلَكَاتُ التَّامَّةُ
فِي تَرَكِيبِ الْأَلْفَاظِ الْمَفْرُودَةِ لِلتَّبْعِيْرِ بِهَا عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ التَّأْلِيفِ الَّذِي
يُطَبِّقُ الْكَلَامَ عَلَى مُتَضَيِّ الْحَالِ بَالِغِ الْمُتَكَلِّمِ حِينَئِذٍ الْغَايَةُ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ
لِلسَّامِعِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْبَلَاغَةِ وَالْمَلَكَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْأَنْعَالِ لِأَنَّ الْفِعْلَ
يَقَعُ أَوَّلًا وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا وَمَعْنَى الْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ
غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكَرُّارُ فَتَكُونُ مَلَكَاتٌ أَيْ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ فَلَمَّا تَكَلَّمَ مِنْ
الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَاتُ الْلُغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَوْجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ
وَأَسَالِيهِمْ فِي مَخَاطَبَتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّبِيُّ اسْتِعْمَالَ
الْمَفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلْقِنَهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِبَ بَعْدَهَا فَيُلْقِنَهَا كَذَلِكَ ثُمَّ لَا يَزَالُ

سَمِعَهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُنْكَلِمٍ وَأَسْمَعَالُهُ يَتَكَرَّرُ إِلَى أَنْ
يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصَفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ هَكَذَا تَصِيرَتِ الْأَلْسُنُ وَاللُّغَاتُ
مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا أَقُولُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ
اللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّبَعِ أَيُّ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخَذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَنْ غَيْرِهِمْ
ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرِّ بِخَالِطَتِهِمْ الْأَعَاجِمُ وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ النَّاشِئَ
مِنْ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي
كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيَعْبُرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكَثْرَةِ الْخَالِطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ
كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ فَاسْتَحْدَثَ مَلَكَةً
وَكَانَتْ نَافِصَةً عَنِ الْأُولَى وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ فُرَيْشٍ
أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنِ بِلَادِ الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ثُمَّ مَنْ
اكتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفَ وَهَذِلَ وَخَزَاعَةَ وَبَنِي كِمَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ وَأَمَّا
مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رِبْعَةٍ وَخَمْرٍ وَجُدَامَ وَغَسَّانَ وَإِيَادَ وَفُضَاعَةَ وَعَرَبَ الْيَمَنِ الْجَبَاوِرِينَ
لَأَمْرِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ تَامَةً الْمَلَكَةُ بِخَالِطَةِ الْأَعَاجِمِ
وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ فُرَيْشٍ كَانَ الْإِخْتِجَاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي الصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة معايرة للغة مضر وحمير
وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفَاءِ بِالِدَّلَالَةِ عَلَى سُنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ
وَلَمْ يَفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةَ الْحُرَكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَعْمُولِ فَأَعْتَاضُوا مِنْهَا بِالتَّقْدِيرِ
وَالتَّأْخِيرِ وَبِقَرَأَتِنِ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالبَلَاغَةَ فِي اللِّسَانِ
الْمُضَرِّيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِأَنَّ الْأَلْفَافَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي بِأَعْيَانِهَا وَبَقِيَ مَا
تَقْتَضِيهِ الْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْأَحْوَالِ مُخْتَجَاً إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَعْنَى لَا بُدَّ وَأَنْ
تَكُنْ فِيهِ أَحْوَالٌ مُخَصَّةٌ فَيَحِبُّ أَنْ يُعْتَبَرَ تِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ
وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسِنِ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْفَافِ مُخَصَّصًا بِالْوَضْعِ وَأَمَّا فِي
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِأَحْوَالٍ وَكَيْفِيَّاتٍ فِي تَرَكَيبِ الْأَلْفَافِ وَتَأْلِيفِهَا مِنْ

تقديم أو تأخير أو حذف أو حركات أعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة
ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك
الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة
من جميع اللسان وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر
لي الكلام اختصاراً واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض
الشعاع إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن
زيداً قائم والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لإفادة الخالي الذهن من
قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالأضمار على إنكاره
فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب
ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرافة الشعاع أهل صناعة الأعراب
القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن
اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الأعراب الذي يتدارسون
قوانينه وهي مقالة دسها الشيع في طباعهم وألفاظهم القصور في أفئدتهم وإلا فنحن
نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد
والتعاون فيه يتفاوت إلا بآلة موجودة في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان
وقنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافله
ومجامعهم والشاعر المفلح على أساليب لغتهم والدوق الصحيح والطبع السليم
شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الأعراب في أواخر
الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهجعاً معروفاً وهو الأعراب
وهو بعض من أحكام اللسان وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخاطبتهم
الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته
على غير الصورة التي كانت أولاً فانقلب لغة أخرى وكان القرآن منزلاً به والحديث
النبوي منقولاً بلغته وهما أصلاً الدين والملة فحشي تناسيحها وانغلاق الأفهام عنهما
بفقدان اللسان الذي نزل به فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط
قوانينه وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهل العلم النحو وصناعة

الْعَرَبِيَّةَ فَأَصْبَحَ فَنَّا مَحْفُوظًا وَعِلْمًا مَكْتُوبًا وَسَلَامًا إِلَى فَنَهَمَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ
 وَافِيًا وَلَعَلَّنَا لَوْ اعْتَنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لَهَذَا الْعَهْدِ وَأَسْقَرْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضُ
 عَنْ الْحُرَكَاتِ الْأَعْرَابِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَانِينُ
 تَخْصُصُهَا وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ الْمُنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةٍ مُضَرٍّ فَلَيْسَتْ اللَّغَاتُ
 وَمَلَكَاتُهَا مَجَانًا وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ الْمُضَرِّيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْحِمَيْرِيِّ بِهِذِهِ الدُّنْيَا وَتَغَيَّرَ
 عِنْدَ مُضَرٍّ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ اللِّسَانِ الْحِمَيْرِيِّ وَتَصَارِيفِ كَلِمَاتِهِ تَشْهَدُ بِذَلِكَ
 الْأَنْتَقَالُ الْمَوْجُودَةُ لَدَيْنَا خِلَافًا لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَأْتِمِسُ إِجْرَاءُ
 اللَّغَةِ الْحِمَيْرِيَّةِ عَلَى مَقَابِيسِ اللَّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَقَوَانِينِهَا كَمَا يَزَعُمُ بَعْضُهُمْ فِي اسْتِنْقَاقِ
 الْقِيلِ فِي اللِّسَانِ الْحِمَيْرِيِّ أَنَّهُ مِنْ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ
 وَلُغَةُ حِمَيْرٍ لُغَةٌ أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرٍّ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعٍ وَتَصَارِيفٍ وَحُرَكَاتٍ
 إِعْرَابِيَةٍ كَمَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرٍّ إِلَّا أَنَّ الْعُنَايَةَ بِلِسَانِ مُضَرٍّ مِنْ أَجْلِ
 الشَّرِيعَةِ كَمَا قُلْنَا هُمْ حَمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْأَسْنِبَابِ وَالْإِسْتِقْرَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَا
 يَحْمِلُنَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ حَيْثُ
 كَانُوا مِنَ الْأَقْطَارِ شَأْنُهُمْ فِي النُّطْقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطَقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ
 عِنْدَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ
 مِنَ الْخَنَكِ الْأَعْلَى وَمَا يَنْطَقُونَ بِهَا يَصُغَّرُ مِنْ مَخْرَجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَوْضِعِ
 الْقَافِ وَمَا بَلِيَهُ مِنَ الْخَنَكِ الْأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَحْمِلُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ
 وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ أَجْمَعَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَيْهِمْ
 مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مُخْتَصًّا بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ بِهَا غَيْرُهُمْ حَتَّى إِنْ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ
 وَالْإِتِّسَابَ إِلَى الْجِيلِ وَالْدُخُولَ فِيهِ يُحَاكِهُمْ فِي النُّطْقِ بِهَا وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ
 الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدُّخِيلِ فِي الْعَرُوبِيَّةِ وَالْحَضَرِيِّ بِالنُّطْقِ بِهِذِهِ الْقَافِ وَيُظَاهِرُ بِذَلِكَ
 أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرٍّ بَعِيْنَهَا فَإِنَّ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي ذُلِّ
 مَنْصُورِ بْنِ عَمْرٍةَ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عِيْلَانَ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ
 ابْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورٍ وَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأُمَمِ
 فِي الْمَعْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَعْقَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الْجِيلِ مِنْهُمْ فِي النُّطْقِ بِهِذِهِ الْقَافِ

أَسْوَةٌ وَهَذِهِ اللُّغَةُ لَمْ يَتَدَعِهَا هَذَا الْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعاقِبَةٌ وَيَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرَ الْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعِيْنَهَا قَدْ أَدْعَى ذَلِكَ فَقَهَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أُمَّ الْقُرْآنِ إِهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِغَيْرِ الْقَافِ الَّتِي لِهَذَا الْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرَ لَمَّا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنْ الْفَتْحِ وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُحَاطَةِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَهَذَا يَرْجَحُ فِيمَا يُوجَدُ مِنَ اللُّغَةِ لِدِينِهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصَّةُ الَّتِي يَشْتَمِزُ بِهَا الْعَرَبِيُّ مِنَ الْهَجِينِ وَالْحَضَرِيِّ فَتَفَعَّمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَلْهَادِي الْمُبِينِ

الفصل التاسع والثلاثون

في ان لغة اهل الحضرة والامصار لغة قائمة بنفسها لغة مضر

إِعْلَمُ أَنَّ عَرَفَ التَّخَاطُبِ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيْنَ الْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةٍ مُضَرَ الْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ الْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةُ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ وَعَنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لَعِهْدُنَا وَهِيَ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ أَبْعَدُ فَمَا إِنَّمَا لُغَةُ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النَّحْوِ لَحْنًا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مُبَايَنَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلُّغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلُّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ وَفَقْدَانُ الْأَعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا إِنَّمَا أَبْعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ فَلَا بَعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ الْعُجْمَةِ فَمَنْ خَالَطَ الْعُجْمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنْ ذَلِكَ اللِّسَانِ الْأَصْلِيِّ أَبْعَدَ لِأَنَّ الْمَلَكَهَ أَنَّمَا تَحْصُلُ بِالْعُلُمِ كَمَا قُلْنَا وَهَذِهِ مَلَكَهٌ مُتَمَثِّرَةٌ جَدُّ مِنَ الْمَلَكَهَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنْ الْمَلَكَهَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعُجْمِ فَعَلَى مَقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعُجْمِ وَيَرَوْنَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلَكَهَةِ الْأُولَى وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ الْعَرَبُ فِيهَا الْبَرَابِرَةَ مِنَ الْعُجْمِ يُوَفِّرُ عُمرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُو عَنْهُمْ مِصْرُ

وَلَا جِيلٌ فُغِلَتْ أَلْجَمَةُ فِيهَا عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً وَأَلْجَمَةُ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فِيهِ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ أَعْبَدُ وَكَذَا الْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارَسَ وَالْأَرْكَ وَنَحْلَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي الْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَالسُّبِّي الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ خَوَلَا وَدَايَاتٍ وَأَذَا رَا وَمَرَا ضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى انْقَابَتْ لُغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ الْجَلَالِقَةِ وَالْأَفَرَنْجَةِ وَصَارَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَهْلُ لُغَةٍ أُخْرَى تَخْصُوصَةً بِهِمْ تَخَالَفَ لُغَةً مُضَرَّ وَيُخَالَفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذَكُرُهُ وَكَانَتْ لُغَةً أُخْرَى لِاسْتِحْكَامِ مَلَائِكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ

الفصل الرابعون

في تعليم اللسان المضري

إِعْلَمُ أَنَّ مَلَائِكَةَ اللِّسَانِ الْمُضَرِّي لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ الْحِيلِ كُلُّهُمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرِّ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةُ أُخْرَى مِنْ أَمْزَاجِ أَلْجَمَةِ بِهَا كَمَا قَدْ مَنَاهُ إِلَّا أَنَّ الْأَلْغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَائِكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمَكِّنًا شَأْنِ سَائِرِ الْمَلَائِكَاتِ وَوَجْهَ التَّعْلِيمِ لَعَنَ يَنْبَغِي هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ وَيَرُومُ تَحْصِيلُهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسُهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ السَّالِفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَشْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُؤَلَّدِينَ أَيْضًا فِي سَائِرِ فَنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَنْزِلَةً مِنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلَقِنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ أَسَالِيهِمْ وَتَرْتِيبِ الْفَظَائِمِ فَتَحْصُلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوحًا وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبَعِ وَالتَّفَهُّمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيهِمْ فِي التَّرَاكِبِ وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضِيَاتِ الْأَنْوَالِ وَالنُّوْقِ يَشْهَدُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّبِيعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذَكُرُ وَعَلَى قَدَرِ الْحَفِظِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَقُولِ الْمَصْنُوعِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَائِكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةٍ مُضَرَّ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَكَذَا يَنْبَغِي

أَنْ يَكُونَ تَعْلَمَهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَمَقَابِلِهَا خَاصَّةً فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ لَاتَنَسُّ كَيْفِيَّةِ فَلَيْسَتْ نَفْسُ الْمَلَكَةِ وَأَنَّمَا هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةً مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْمًا وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلًا مِثْلَ أَنْ يَقُولَ بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا أَلْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ يُدْخَلَ الْخِيطُ فِي خَرْتِ الْأَبْرِ ثُمَّ يَغْرِزُهَا فِي لَفْقِي الثُّوبِ مُجْتَمِعِينَ وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قُدَّامَ مَنْفَذِهَا الْأَوَّلِ بِمَطْرَحٍ مَا بَيْنَ الثَّقَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتِمَادَى عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ الْحَبَكِ وَالتَّنْيِيطِ وَالتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا وَهُوَ إِذَا طُولَبَ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَيْئًا وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِالْبِجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ الْخَشَبِ فَيَقُولُ هُوَ أَنْ تَقَعَ الْمِشَارُ عَلَى رَأْسِ الْخَشْبَةِ وَتُمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخَرُ قِبَالَتِكَ مُمْسِكٌ بِطَرَفِهِ الْآخَرِ وَتَتَعَابَاهُ بَيْنَكُمَا وَأَطْرَافُهُ الْمُضْرَسَةُ الْمُحْدَدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْخَشْبَةِ وَهُوَ لَوْ طُولِبَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٌ مِنْهُ لَمْ يُحْكَمْ وَمَكَذَا الْعِلْمُ يَقَوَانِينِ الْأَعْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ يَقَوَانِينِ الْأَعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جَهَابَةِ النُّحَاةِ وَالْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ عِلْمًا بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكَاوَى ظِلَامَةٍ أَوْ قَصْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحْسِنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجِدُّ النَّبْنَ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَنْعُولِ وَلَا الْمَنْعُولِ مِنَ التَّجَرُّورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَعِنَ هَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَغْنِيَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ الْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْأَعْرَابِ بَصِيرًا بِحَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقٌ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلْمُحَاطِلِينَ لِكِتَابِ سَبُوحِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ الْأَعْرَابِ فَقَطُّ

بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ
 مِنْ تَعْلِيمِهِ هَذِهِ الْمَلَكَةُ فَتَجِدُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْمُحَصِّلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ وَانْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِينِهِ وَمَقَاصِلِ حَاجَاتِهِ وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ الْمَلَكَةِ فَأَسْتَوْفَى
 تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَبْلَغَ فِي الْأَفَادَةِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْخُطَّاطِينَ لِكِتَابِ سَيَمُونِيهِ مَنْ يَغْنَلُ عَنْ
 التَّفْطِنِ لِهَذَا فَيَحْصُلُ عَلَى عِلْمِ اللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةٌ وَأَمَّا الْخُطَّاطُونَ
 لِكِتَابِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَرَابِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَشْعَارِ
 الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ
 يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رُتْبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ وَأَهْلُ صِنَاعَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ
 لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّفَقُّهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِبِ فِي مَجَالِسِ
 تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبِقُ إِلَى الْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ النَّفْسُ لَهَا
 وَتَسْتَعِدُّ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا وَأَمَّا مِنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرُوا
 صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى الْعُلُومِ بَحْثًا وَقَطْعُوا النَّظَرَ عَنْ التَّفَقُّهِ فِي تَرَكَيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ
 إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَعُوا مَذْهَبًا مِنْ جِهَةِ الْإِقْتِضَاءِ الذِّهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ مَحَامِلِ
 اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ الْمَنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ
 الْجَدَلِ وَبَعُدَتْ عَنْ مَنَاحِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي
 شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيهِ وَخَفَلَتْهُمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذَلِكَ لِاحْتِمَالِهِمْ فِيهِ
 أَحْسَنَ مَا تَقِيدهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ وَتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ لِلتَّعْلِيمِ لِكُنْهِمْ
 أَجْرُومًا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُومًا عِلْمًا بَحْثًا وَبَعْدُوا عَنْ تَمَرُّبِهَا وَتَعَلَّمَ مِمَّا قَرَنَاهُ
 فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْخِنْطِ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ أَلْمُونَالُ الَّذِي تَسْجُوا عَلَيْهِ تَرَكَيبُهُمْ فَيَنْسَجُ هُوَ عَلَيْهِ
 وَيَتَنَزَّلُ بِذَلِكَ مَنَازِلَةً مَنْ نَشَأَ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ
 الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ الْأُمُورِ كُلِّهَا
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل

للمستعربين من العجم

اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة
 البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وانها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه
 بخواص نفع التراكيب في افادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى
 الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك
 الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بخاططة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم
 الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التراكيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحنى
 البلاغة التي للعرب وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحنى وجّه ونبا عنه سمعه
 بأدنى فكر بل ويغير فكره الا بما استنكاد من حصول هذه الملكة فان الملكات
 اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن
 كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم
 اعزبا وبلاغة امر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي
 ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادى الرأي انما
 جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره
 على السمع والفتن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك
 التي استنبطها اهل صناعة اللسان فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ولا
 تفيد حصول الملكة بالنعيل في محالها وقد مر ذلك واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة
 في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن التراكيب الموائف لتراكيب العرب
 في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبل المعينة
 والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه
 اليه ملكته الراسخة عنده واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب
 وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه ووجهه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين
 مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع اهل القوانين الخويبة

وَالْبَيَانِيَّةُ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمَفَادَةِ بِالِاسْتِقْرَاءِ وَهَذَا أَمْرٌ
وَجَدَانِي حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا
صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِّي فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيَحْكُمُ شَأْنَ الْأَعْرَابِ
وَالْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِي فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ
بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ وَكَذَلِكَ تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكََةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ
الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخَطَبَتِهِمْ وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ يُحْصَلُ الْمَلَكََةُ
وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِّي بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ وَالْقَوَانِينُ بِمَعْرِفٍ عَنْ هَذَا
وَأَسْتَعِيرَ لِهَذِهِ الْمَلَكََةِ عِنْدَمَا تَرْتَخُّ وَتَسْتَقِرُّ اسْمُ الذَّوْقِ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ
صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضِعٌ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هَذِهِ الْمَلَكََةِ
فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلُّ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتَعِيرَ لَهَا اسْمُهُ
وَأَيْضًا فَهُوَ وَجَدَانِي اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مُحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ
ذَلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعْلَاجِمَ الدَّخِيلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ
إِلَى النُّطْقِ بِهِ لِحَاظَةِ أَهْلِهِ كَالْفَرَسِ وَالزُّومِ وَالزُّكَّ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ
فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكََةِ الَّتِي قَرَرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ
قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَعْمُرِ وَسَقَى مَلَكََةً أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَعْتَنُوا
بِمَا يَتَدَوَّلُهُ أَهْلُ مَضَرِّ يَتَنَبَّهُمْ فِي الْحَاوِرَةِ مِنْ مُتَرَدٍّ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ
وَهَذِهِ الْمَلَكََةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا نَقَدَمُ وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي
ذَلِكَ مَلَكََةٌ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكََةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ الْمَلَكََةَ
مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسْطَرَّةِ فِي الْكِتَابِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكََةِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا حَصَلَ
أَحْكَامُهَا كَمَا عَرَفْتَ وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكََةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالْإِعْتْيَادِ وَالتَّكْرُّرِ
لِكَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سَبْيُوِيَّ وَالْفَارِسِيَّ وَالزُّنْخَشَرِيَّ وَمِثْلَهُمْ
مِنْ فُرْسَانَ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ لَهُمْ فَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلِيكَ
الْقَوْمَ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي سَبْيِهِمْ فَقَطُّ وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ وَالنَّشَاءُ فَكَانَتْ
بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَ بِهَا مِنْهُمْ فَاسْتَوُوا بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ
عَلَى غَايَةِ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَانَتْهُمْ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ

حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ
فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَلَمْلَةَ فِي عَنَوَانِهَا وَاللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبِ
أَثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ
الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْوَا عَلَى غَايَتِهِ وَالْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِنَ الْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ اللِّسَانِ
الْعَرَبِيَّ بِالْأَمْصَارِ فَأَوَّلَ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُتَحِيَّةً
الْأَثَارَ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمْ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالَفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الْمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحَفِظِ
يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقُلْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ
أُخْرَى فِي الْحِكْلِ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً تَخْدُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أَعْجَبِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ
مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكَلِمَةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْمُدَارَسَةِ
فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ الدُّوْرِ بَحِثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا نَقَرَّرَ وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ
مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هَذَا الذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَدَوَّ غُلَطٌ أَوْ مُعَالَطَةٌ وَإِنَّمَا
حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي
شَيْءٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق فاصرون في تحصيل هذه الملكة

اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن

اللسان العربي كان حصولها له اضعف واعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ
بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْخَضِرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ النُّجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا اللِّسَانُ عَنْ
مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى فِي لُغَةِ الْخَضِرِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُتَعَلِّمِينَ
يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُسَابَقَةِ بِتَعَلُّمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ وَتَعَقُّدُ النَّحْوِ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَابَقَةَ
بِصَنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا فِي تَعَلُّمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ
الْعَرَبِ نَعْمَ صِنَاعَةٌ أَنْتَحُوْا قَرُبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ أُمَّاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَعْرَقَ
فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنْ إِسَانٍ مُضَرَّ قَصَرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَحُصُولِ

مَلَكَتْهَا تَمَسْكُنُ الْمُنَافَاةَ حِينَئِذٍ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَأَهْلُ أَفْرِيقَةَ وَالْمَغْرِبِ
 لَمَّا كَانُوا أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌ فِي تَحْصِيلِ
 مَلَكَتْهَا بِالتَّعْلِيمِ وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرِّفِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ
 لَهُ يَا أَخِي وَمَنْ لَا عِدَمْتُ فَقَدَهُ أَعْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَامًا أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ
 تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقِفْنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَتَّهِمْنَا الْخُرُوجَ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكَلَابُ مِنْ
 أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بَاطِلًا لَيْسَ مِنْ هَذَا حَرْفًا وَاحِدًا وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ
 إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَكَذَا كَانَتْ مَلَكَتْهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرْنَا
 وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيقَةَ مِنْ مَشَاهِيرِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا ابْنُ رَشْبِقٍ وَابْنُ شَرْفٍ وَأَكْثَرُ
 مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ طَارِئِينَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَزَلْ طَبَقَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةً إِلَى
 الْقُصُورِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مُعَانَتِهِمْ
 وَأَمْتَلَائِهِمْ مِنَ الْمُحْفُوظَاتِ الْغَلَوِيَّةِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَكَانَ فِيهِمْ ابْنُ حَيَّانَ الْمُؤَرِّخُ إِمَامُ
 أَهْلِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَزَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقُسْطَلِيُّ
 وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ لِمَا زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَاوَلَ
 ذَلِكَ فِيهِمْ مِثْنَيْنِ مِنَ السَّنِينَ حَتَّى كَانَ الْإِنْقِضَاؤُ وَالْجَلَاءُ أَيَّامَ تَغْلِبِ النُّصْرَانِيَّةِ وَشَغِلُوا
 عَنْ تَعْلَمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمَرَانُ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَاعِ كُلِّهَا فَقَصُرَتْ الْمَلَكَةُ
 فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا حَتَّى بَلَغَتْ الْحُضِيضَ وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَبِمَالِكِ بْنِ
 مَرْحَلٍ مِنَ تَلَامِيذِ الطَّبَقَةِ الْأَشْبِلِيَّةِ بِسَبْتَةِ وَكَتَابَ دَوْلَةُ ابْنِ الْأَحْمَرِ فِي أَوَّلِهَا
 وَأَلْقَتْ الْأَنْدَلُسُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَاءِ إِلَى الْعُدُودِ لِعُدُودِ
 الْأَشْبِلِيَّةِ إِلَى سَبْتَةِ وَمِنْ شَرَفِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَفْرِيقَةَ وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَى أَنْ نَقَرَضُوا وَانْقَطَعَ
 سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبُولِ الْعُدُودِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعُوجِ السَّنِينَ
 وَرُسُوحِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا فَلَنَاهُ ثُمَّ عَادَتِ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَّمَ بِهَا ابْنُ بَشْرِينَ وَابْنُ جَابِرٍ وَابْنُ الْجِيَابِ وَطَبَقَتُهُمْ ثُمَّ
 إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطَّرِيعِيُّ وَطَبَقَتُهُ وَفَقَاهُ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمُ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ
 شَهِيدًا بِسَعَايَةِ أَعْدَائِهِ وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ لَا تُدْرِكُ وَاتَّبَعَ أَثَرَهُ تَلْمِيذُهُ وَبِالْجُمْلَةِ

فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَلِكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعَلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ كَمَا قَدَّمَاهُ مِنْ مَعَانَاةِ عُلُومِ اللِّسَانِ وَتَحَافُظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ
 تَعَلِيمِهَا وَلِأَنَّ أَهْلَ اللِّسَانِ أَنْجَمِي الَّذِينَ تَفْسَدُ مَلَكَتُهُمْ إِذَا هُمْ طَارُوا عَنْ عِلْمِهِمْ وَلَيْسَتْ
 عَجْمَتُهُمْ أَصْلًا لِلُغَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْبَزِيرِ فِي هَذِهِ الْعُدُودِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا
 إِلَّا فِي الْأَمْصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُتَعَمِّسُونَ فِي بَحْرِ عَجْمَتِهِمْ وَرَطَانَتِهِمْ الْبَزِيرِيَّةِ فَيَصْغُبُ
 عَالِمُهُمْ تَحْصِيلُ الْمَلِكَةِ السَّانِيَةِ بِاللُّغَةِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ عِندَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ
 هَذِهِ الْمَلِكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَنِ الْأَعَاجِمِ وَتَحَافُظَتِهِمْ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ
 فَكَانَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلِكَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ الشُّعْرَاءِ وَالْكِتَابُ أَوْفَرَ
 لِتَوْفُرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَأَنْظُرْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْأَغَانِي مِنْ تَقْطِيعِهِمْ
 وَتَرْجُمِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِ وَدِيُونُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ
 وَمِلَّتُهُمْ الْعَرَبِيَّةَ وَسِيرَتُهُمْ وَآثَارُ خُلَفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَغَنَائُهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ
 لَهُ فَلَا كِتَابَ أَوْعَبَ مِنْهُ لِأَحْوَالِ الْعَرَبِ وَبَقِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلِكَةِ مُسْتَحْكِمًا فِي الْمَشْرِقِ
 فِي الدَّوْلَتَيْنِ وَرَبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنْ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَدَّ كُرُهُ
 بَعْدُ حَتَّى تَلَأَشَى أَمْرُ الْعَرَبِ وَدُرُسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَأَنْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوَّلَتُهُمْ
 وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْأَعَاجِمِ وَالْمَلِكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَالتَّغْلِبُ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الدَّيْلَمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ
 وَخَالَطُوا أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعْدُوا عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ
 مَتَعَلِّمُهَا مِنْهُمْ مُقْصِرًا عَنْ تَحْصِيلِهَا وَعَلَى ذَلِكَ نَحْدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ
 وَالْمَنْثُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِنْهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 عِلْمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الى في النظم والنثر

إِعْلَمُ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فِي الشُّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ
 الْمَوْزُونُ الْمُعَقَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْرَاقُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ وَفِي
 النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ

فِي الْكَلَامِ فَأَمَّا الشَّعْرُ فَهُوَ الْمَدْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَهُوَ السَّجْعُ الَّذِي
 يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ
 وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يَقْطَعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرسَالًا مِنْ غَيْرِ
 تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ وَأَمَّا
 الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا
 وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتِ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعِ يَشْهَدُ الذُّوقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا
 ثُمَّ يَعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى بَعْدَهَا وَيَتَنَّى مِنْ غَيْرِ التَّزَامِ حَرْفٌ يَكُونُ سَجْعًا
 وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَفْسُهُ مِنْهُ
 جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهَا قَوَاصِلُ
 إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا التَّزَمُ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ وَأُطْلِقَ اسْمُ
 الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَأَخْتَصَّتْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلَبَةِ
 فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثَّرِيَا وَلِهَذَا سَمِيَتْ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ
 تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانٍ مَا قُلْنَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ
 النَّوْءِ اسْمًا لِبِ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخِرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ
 الْمُخْتَصِّ بِالشَّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ
 وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ اسْمَايِلِ الشَّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثَرَةِ
 الْأَسْجَاعِ وَالتَّزَامِ النَّقْفِيَّةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَعْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا
 تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشَّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَقْتَرِفْ إِلَّا فِي الْوُزْنِ وَاسْتَمَرَّ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْكُتَّابِ
 عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَُا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الْأَسْتَعْمَالَ فِي الْمَنْثُورِ
 كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي أَرْتَضُوهُ وَخَلَطُوا الْأَسَايِلَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ
 وَخُصُوصًا أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتْ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكُتَّابِ
 الْفَنِّ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا
 يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ وَهَذَا
 الْفَنُّ الْمَنْثُورُ الْمُقْتَضَى أَدْخَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ اسْمَايِلِ الشَّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ نَنْزِعَهُ الْمُخَاطَبَاتِ
 السُّلْطَانِيَّةِ عَنْهُ إِذَا اسْمَايِلِ الشَّعْرِ تَنَافَيْهَا اللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلَطَ الْجِدُّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابُ فِي

الْأَوْصَافِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةِ التَّشْبِيهَاتِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو فَرُورَةً
إِلَى ذَلِكَ فِي الْخُطَابِ وَالتَّرَامِ التَّقْفِيَةِ أَيْضًا مِنَ اللَّوْذَعَةِ وَالتَّزْيِينِ وَجَلَالِ الْمَلِكِ
وَالسُّلْطَانِ وَخُطَابِ الْجُمْهُورِ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْتَرْتِيبِ وَالتَّرْتِيبِ بِنَافِي ذَلِكَ وَيَأْتِيهِ وَالنَّحْمُودُ
فِي الْخُطَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الرَّسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ
إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسَلُهُ الْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ
الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةً وَلِكُلِّ مَقَامٍ أَسْلُوبٌ
يُخَصُّهُ مِنْ إِنْطَابٍ أَوْ إِيكَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِيْثَابٍ أَوْ تَضَرُّعٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِبَايَةِ
وَأَسْتِعَارَةٍ وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْخُطَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا الدَّجْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ
الشَّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْرِ إِلَّا أَسْبِيْلَاءَ النُّجْمَةِ عَلَى السِّنْتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ
لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَهَجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ
الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمْدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ خُطُوبِهِ وَلَوْلَا هَذَا السَّجْعُ يَلْفُقُونَ بِهِ مَا
نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ وَيَجْعَلُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدَرِ
مِنَ التَّزْيِينِ بِالْأَسْجَاعِ وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ
بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كِتَابُ الْمَشْرِقِ وَشِعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى
أَنَّهُمْ لَيُغْلُونَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّضَرُّعِ إِذَا دَخَلَتْ لُؤْمٌ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ
مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيَرْجِعُونَ ذَلِكَ الصَّنْفَ مِنَ التَّجْنِيسِ وَيَدْعُونَ لِإِعْرَابٍ وَيُفْسِدُونَ
بَنِيَّةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ التَّجْنِيسَ فَتَأْمَلُ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَ نَاهُ لَكَ نَقِفْ عَلَى صِحِّهِ مَا
ذَكَرْنَاهُ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الخامس والاربعون

في انه لا تنفي الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للافل
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مَلَكَةً فِي اللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّغَتْ إِلَى مَحَلِّهِ مَلَكَةً
أُخْرَى قَصَرَتْ بِالْمَحَلِّ عَنْ تَمَامِ الْمَلَكَةِ الْأَلْحَقَةِ لِأَنَّ تَمَامَ الْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا
لِلطَّبَائِعِ الَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ وَإِذَا تَقَدَّمَ تَمَامُ مَلَكَةٍ أُخْرَى كَانَتْ
مُنَازَعَةً لَهَا فِي الْمَادَّةِ الْقَابِلَةِ وَعَاقِبَةُ عَنْ سُرْعَةِ الْقَبُولِ فَوَقَعَتِ الْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ التَّمَامُ
فِي الْمَلَكَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَقَدْ بَرَهْنَا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوِ مِنْ هَذَا

الْبَرْهَانَ فَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَاعَةِ وَانْظُرْ مَنْ
تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَدًا فَلَا عَجْمِي الَّذِي
سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفَارْسِيَّةُ لَا يَسْتَوِي عَلَى مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ
وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَا الْبَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ وَالْأَفْرَنْجِيُّ قُلْ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكِمًا
لِمَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْآخَرِ
حَتَّى إِنْ طَالَبَ الْعِلْمُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسِنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ
مُقَصِّرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالْتَحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ اللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ
مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسِنَ وَاللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا
تَزْدَحِمُ وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوِي فِيهَا عَلَى
الْغَايَةِ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعليمه

هَذَا النَّثْرُ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ
اللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشَّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أُمَكُنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ
أَهْلُ الْأَلْسِنِ الْآخَرِي مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي الْبَلَاغَةِ
تَخْصُهُ وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَخَيِّ إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفَصَّلٌ قِطْعًا
قِطْعًا مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْوِزْنِ مُتَّحِدَةٌ فِي الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ
عِنْدَهُمْ يَتَنَا وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْآخِرُ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيًا وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةً
الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَكَيبِهِ حَتَّى
كَانَهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامًا فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ
أَوْ تَنْشِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيُخَرِّصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ
يَسْتَأْنِفُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ كَلَامًا آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطِرِدُّ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ
مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بَأَن يُوَظِّي الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تَنَاسَبَ الْمَقْصُودُ الثَّانِي
وَيُبْعَدُ الْكَلَامُ عَنِ التَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطِرِدُّ مِنَ التَّنَشِيبِ إِلَى الْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ الْبَيْدَاءِ
وَالطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ الزَّكَاةِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ الطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ الْمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قَوْمِهِ وَعَسَا كَرِهَ وَمِنْ التَّجَمُّعِ وَالْعَزَاءِ فِي الرِّثَاءِ إِلَى النَّاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُرَاعَى فِيهِ
اتِّفَاقُ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي أَوَازِنِ الْوَاحِدِ حَدَرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الطَّبَعُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ
وَزْنِ إِلَى وَزْنٍ يُقَارَبُهُ فَقَدْ يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلِهَذَا
الْمَوَازِينُ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضَمَّنَهَا عِلْمُ الْعَرُوضِ وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَنَقَّى فِي الطَّبَعِ
اسْتِعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مُخْصُوصَةٌ تُسَمِّي بِهَا أَهْلُ بَلَدِ الصَّنَاعَةِ
الْبُحُورَ وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَحْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنْ
الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ فَنَّ الشَّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ
الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوَانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطَأِهِمْ وَأَصْلًا
يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكْمِهِمْ وَكَانَتْ مَلَكَّتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنُ
الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا وَالْمَلَكَاتُ الْإِسْمَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِزْيَاضِ
فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شَبَهُ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ وَالشَّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ صَعْبُ الْمَأْخِذِ
عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَّتِهِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ
بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيُحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى
نَوْعٍ تَلَطَّفَ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى يُفْرَغَ الْكَلَامُ الشَّعْرِيُّ فِي قَوْلِيهِ الَّتِي عُرِفَتْ
لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيُبْزَرُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ
كَذَلِكَ ثُمَّ يَبِيتُ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونَ الْوَاقِفَةَ بِمَقْصُودِهِ ثُمَّ يَنْسَابُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي
مُؤَالَاةٍ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ وَلِصُعُوبَةِ مَنَاحِدِ
وَعَرَابَةِ فَنِّهِ كَانَ مُحْكَمًا لِلْفَرَاحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ وَشَحْذِ الْأَفْكَارِ فِي
تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِيهِ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَلَكَةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ
يُحْتَاجُ بِمُخْصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُخَالَاتَةٍ فِي رِعَايَةِ الْأَسَالِيْبِ الَّتِي اخْتَصَّتْهَا الْعَرَبُ بِهَا وَاسْتَعْمَلَهَا
وَلِنَدَكُرْ هُنَا سُلُوكَ الْأَسْلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَمَا يُرِيدُونَ بِهَا فِي إِطْلَاقِهِمْ
فَاعْلَمْ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْهُمْ عَنِ الْمُنَوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكِبُ أَوِ الْقَالِبُ الَّذِي يُفْرَغُ
فِيهِ وَلَا يُرْجَعُ إِلَى الْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ أَصْلَ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْإِعْرَابِ
وَلَا بِاعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ كَمَالَ الْمَعْنَى مِنْ خَوَاصِرِ التَّرَاكِبِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ
وَلَا بِاعْتِبَارِ أَوَازِنِهَا كَمَا اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ فِيهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْعَرُوضِ فِيهِ الْعُلُومُ

الثَلَاثَةُ خَارِجَةٌ عَنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشَّعْرِيَّةِ وَإِنَّمَا يُرْجَعُ إِلَى صُورَةِ ذَهْنِيَّةِ التَّرَاكِبِ
الْمُنْتَظِمَةِ كَلِمِيَّةٍ بِاعْتِبَارِ انْطِبَاقِهَا عَلَى تَرْكِيبِ خَاصٍّ وَتِلْكَ الصُّورَةُ يَنْتَزِعُهَا الذَّهْنُ مِنْ
أَعْيَانِ التَّرَاكِبِ وَأَشْغَاظِهَا وَيُصَيِّرُهَا فِي الْخَيَالِ كَالْقَالِبِ أَوْ الدِّنْوَالِ ثُمَّ يَنْتَقِي
التَّرَاكِبِ الصَّحِيحَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ بِاعْتِبَارِ الْأَعْرَابِ وَالْبَيَانَ فَيَرُدُّهَا فِيهِ رَصًّا كَمَا يَنْعَلُهُ
الْبَنَاءُ فِي الْقَالِبِ أَوْ النَّسَاجِ فِي الدِّنْوَالِ حَتَّى يَتَسَّعَ الْقَالِبُ بِحُصُولِ التَّرَاكِبِ الْوَاقِعَةِ بِمَقْصُودِ
الْكَلَامِ وَيَقَعَّ عَلَى الصُّورَةِ الصَّحِيحَةِ بِاعْتِبَارِ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِيهِ فَإِنَّ لِكُلِّ
فَنٍّ مِنَ الْكَلَامِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ وَتُوجَدُ فِيهِ عَلَى أَنْهَاءٍ مُخْتَلَفَةٍ فَسَوْالُ الطُّلُولِ فِي
الشَّعْرِ يَكُونُ بِخُطَابِ الطُّلُولِ كَقَوْلِهِ يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالْسَّنْدِ وَيَكُونُ بِاسْتِدْعَاءِ
الصَّحْبِ لِلْوُفُوفِ وَالسُّؤَالِ كَقَوْلِهِ قِفْنَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا . أَوْ بِاسْتِيفَاءِ الصَّحْبِ
عَلَى الطَّلَلِ كَقَوْلِهِ قِفْنَا نَبْكَ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ . أَوْ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْ الْجَوَابِ
لِمُخَاطَبٍ غَيْرِهِ عَيْنِ كَقَوْلِهِ أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الرَّسُومُ . وَمِثْلُ تَحِيَّةِ الطُّلُولِ بِالْأَمْرِ
لِمُخَاطَبٍ غَيْرٍ مُعَيَّنٍ بِتَحِيَّتِهَا كَقَوْلِهِ حَيَّ الدِّيَارِ بِجَانِبِ الْغَزْلِ . أَوْ بِالِدَّعَاءِ لَهَا
بِالسُّقْيَا كَقَوْلِهِ

أَسْقَى طُلُوعَهُمْ أَحْشَى هَزِيمٍ وَعَدَّتْ عَلَيْهِمْ نُصْرَةً وَنَعِيمٍ

أَوْ سُؤَالِهِ السُّقْيَا لَهَا مِنَ الْبَرَقِ كَقَوْلِهِ

يَا بَرَقُ طَالِعٍ مَتَزَلًّا بِالْأَبْرِقِ وَأَحْدِ السَّحَابِ لَهَا حِدَاءُ الْإِنْبِقِ

أَوْ مِثْلُ التَّفَجُّعِ فِي الْجَزَعِ بِاسْتِدْعَاءِ الْبَسَاءِ كَقَوْلِهِ

كَذَا فَلَيْسَ لِحُطْبٍ وَلِيَفْدَحَ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ

أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ . أَوْ بِالتَّسْجِيلِ عَلَى
الْأَكْوَانِ بِالصُّبْحِيَّةِ لِقَدِّهِ كَقَوْلِهِ

مَنَابِتُ الْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّدَى بِطَوِيلِ الرُّنْحِ وَالْبَاعِ

أَوْ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ الْجُمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ

أَيَّا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مُورَقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيْقِهِ بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ

أَلْقَى الرَّمَاحَ رَبِيعَةُ بْنُ زَرَارٍ أَوْدَى الرَّدَى بِفَرَيْقِكَ الْمَغْوَارِ

وَأَمَّا ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَمَدَاهِيهِ وَتَنْظِيمِ التَّرَاكِبِ فِيهِ
بِالْجَمَلِ وَغَيْرِ الْجَمَلِ إِنْشَائِيَّةٌ وَخَبَرِيَّةٌ إِسْمِيَّةٌ وَفِعْلِيَّةٌ مُثَقَّةٌ وَغَيْرُ مُثَقَّةٍ مَفْصُولَةٌ وَمَوْصُولَةٌ
عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ التَّرَاكِبِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْآخِرَى يُعْرِفُكَ
فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِالْإِزْتِيَاذِ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِنَ الْقَالِبِ الْكَلْبِيِّ الْمَجْرَدِ فِي الذِّهْنِ
مِنَ التَّرَاكِبِ الْمُعِينَةِ الَّتِي يَنْطَبِقُ ذَلِكَ الْقَالِبُ عَلَى جَمِيعِهَا فَإِنْ مَوْلَتْ الْكَلَامَ هُوَ
كَابْتَاءُ أَوِ السَّجَّاحِ وَالصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ الْمُنْطَبِقَةُ كَالْقَالِبِ الَّذِي يُبْنَى فِيهِ أَوِ الْمُنْوَالِ
الَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ فَإِنْ خَرَجَ عَنِ الْقَالِبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ الْمُنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ فَاسِدًا
وَلَا نَقْوَانُ إِنْ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِذَلِكَ لِأَنَّا نَقُولُ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ
عِلْمِيَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ تُفِيدُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ التَّرَاكِبِ عَلَى هَيْئَتِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقِيَاسِ وَهُوَ قِيَاسُ
عِلْمِيٍّ صَحِيحٍ مُطَرَّدٍ كَمَا هُوَ قِيَاسُ الْقَوَانِينِ الْإِعْرَاقِيَّةِ وَلَهُ الْإِسَالِبُ الَّتِي نَحْنُ
نَقَرُّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرَسَّخُ فِي النَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ التَّرَاكِبِ
فِي شِعْرِ الْعَرَبِ لِحَرَاكَتِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتُهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا الْعَمَلُ عَلَى مِثَالِهَا
وَالْإِحْتِدَاءُ بِهَا فِي كُلِّ تَرَكِبٍ مِنَ الشَّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ وَإِنْ
الْقَوَانِينُ الْعِلْمِيَّةُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيِّنُ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهِهِ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصِحُّ فِي قِيَاسِ
كَلَامِ الْعَرَبِ وَقَوَانِينُهُ الْعِلْمِيَّةُ اسْتَعْمَلُوهُ وَإِنَّمَا الْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْحَاءُ
مَعْرُوفَةٌ يَطْلُعُ عَلَيْهَا الْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرِجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْقِيَاسِيَّةِ
فَإِذَا نَظَرَ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ وَبِهِذِهِ الْإِسَالِبِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي تُصِيرُ الْقَوَالِبَ
كَانَ نَظَرًا فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَكَيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْقِيَاسُ وَلِهَذَا قُلْنَا إِنْ الْحَصَلَ
لِهَذِهِ الْقَوَالِبِ فِي الذِّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ وَهَذِهِ الْقَوَالِبُ كَمَا
تَكُونُ فِي الْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي الْمَثُورِ فَإِنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كَلَا الْفَنَيْنِ
وَجَاءُوا بِهِ مُفَصَّلًا فِي التَّوَعِينِ فِي الشَّعْرِ بِأَنْقِطَعِ الْمَوْزُونَةِ وَالْقَوَائِي الْمَقِيدَةِ
وَأَسْتِقْدَالِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي الْمَثُورِ يَعْتَبِرُونَ الْمَوَازِنَةَ وَالْتِّشَابَةَ
بَيْنَ الْقِطْعِ غَالِبًا وَقَدْ يُقِيدُونَهُ بِالْأَسْجَاعِ وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ مَعْرُوفَةٌ
فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَالْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُبْنَى مُؤَلَّفُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيفُهُ
وَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذِهْنِهِ مِنَ الْقَوَالِبِ الْمُعِينَةِ الشَّخْصِيَّةِ

قَالَ كُنِّي مُطْلَقٌ يَحْدُو حَدُّهُ فِي التَّأْلِيفِ كَمَا يَحْدُو الْبِنَاءُ عَلَى الْقَائِلِ وَالْأَسَاجُ
عَلَى الْمَنَوَالِ فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مَنفَرْدًا عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْعَرُوضِيِّ
نَعَمْ إِنْ مُرَاعَاةَ قَوَانِينِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَحَصَّلَتْ هَذِهِ الصِّنَاتُ
كُلُّهَا فِي الْكَلَامِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هَذِهِ الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَوِّمُهَا أَصَالِبُ
وَلَا يَفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسَالِبِ مَا هُوَ فَانْدَكَّرَ
بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشَّعْرِ بِهِ تَهْتَمُّ حَقِيقَتُهُ عَلَى صُعُوبَةٍ هَذَا الْغَرَضُ فَإِنَّمَا لَمْ تَقِفْ عَلَيْهِ
لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْتَهُ وَقَوْلُ الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمُمَزَّوْنُ
الْمُقَفَّى لَيْسَ بِحَدِّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدْرِهِ وَلَا رَسْمٍ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي
الشَّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوِزْنِ وَالْقَوَالِبِ الْخَاصَّةِ فَلَا جَرَمَ إِنْ
حَدَّثَهُمْ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ
الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَالِغُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْأِسْتِمَارَةِ وَالْأَوْصَافِ الْمَفْصَلِ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ
فِي الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي
عَلَى أَصَالِبِ الْعَرَبِ الْمُخْصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا الْكَلَامُ الْبَالِغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِيُّ عَلَى
الْأِسْتِمَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَصْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ لَيْسَ بِشَّعْرِ وَقَوْلُنَا
الْمَفْصَلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ فَصْلٌ لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَثْنِيِّ الَّذِي لَيْسَ
بِشَّعْرِ عِنْدَ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ
بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ آيَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ وَلَمْ يُفَصَّلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا الْجَارِي
عَلَى الْأَصَالِبِ الْمُخْصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرُ مِنْهُ عَلَى أَصَالِبِ الْعَرَبِ الدَّعْرُوفَةِ
فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَهُ أَصَالِبُ مُخْصَصَةٌ لَا
تَكُونُ لِلْمَثْنِيِّ وَكَذَا أَصَالِبُ الْمَثْنِيِّ لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا
وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأَصَالِبِ فَلَا يَكُونُ شِعْرًا وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارُ كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ لَقِينَاهُ
مِنْ شَيْخُونَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ الْمَتْنِيِّ وَالْمَعْرِيِّ لَيْسَ هُوَ مِنَ
الشَّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى أَصَالِبِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمْرِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشَّعْرَ
يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ
الْجَارِي عَلَى الْأَصَالِبِ الْمُخْصُوصَةِ وَإِذَا قَدْ فُرِغْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّعْرِ فَلَنَرْجِعْ

إِلَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ . إَعْلَمُ أَنَّ لِعَمَلِ الشَّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا
أَوَّلَهَا الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَهٌ يَنْسُجُ
عَلَى مَنَوَالِهَا وَيَخَيِّرُ الْمُحْفُوظَ مِنَ الْخُرِّ النَّقِيِّ الْكَثِيرِ الْأَسَالِيبِ وَهَذَا الْحِفْظُ الْمُخْتَارُ
أَقْلُ مَا يَكُنِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ إِلَّا سَلَامِيَيْنِ مِثْلِ ابْنِ أَبِي رِيْعَةَ وَكَثِيرٍ
وَذِي الرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَّاسٍ وَحَبِيبٍ وَابْنِ خَزِيمٍ وَالرَّضِيَّ وَأَبِي فِرَاسٍ وَأَكْثَرُهُ
شِعْرُ كِتَابِ الْأَعْيَانِ لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ إِلَّا سَلَامِيَّةً كُلَّهُ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ
الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْحِفْظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيٌّ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّوْقُ وَالْحَلَاوَةُ
إِلَّا كَثَرَةُ الْحِفْظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ
وَأَجْتَنَبَ الشَّعْرَ أَوَّلَى يَمَنِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُحْفُوظٌ ثُمَّ بَعْدَ الْأَمَلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَتَمَخَّذَ الْقَرِيحَةَ
لِلنَّسْجِ عَلَى الْمَنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالْإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتَهُ وَتَرْسُخُ
وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذَلِكَ الْحِفْظِ لِتَحْمِي رُسُومِهِ الْخَرْفِيَّةِ الظَّاهِرَةِ إِذَا
هِيَ صَادِرَةٌ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا بَعِيْنَهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ الْأَسْلُوبُ
فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةٌ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ
مِنَ الْخَلْوَةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمُنْتَظَرِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا السَّمْعُ
لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَنَشِيطِهَا بِمِلَازِ الشُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ
يَكُونَ عَلَى جَهَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعٌ لَهُ وَانْشَاطُ الْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمَنَوَالِ
الَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكْرِ عِنْدَ الْهَبُوبِ مِنَ النَّوْمِ
وَقَرَاغِ الْمَعْدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ الْجَمَامِ وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِنِهِ الْعِشْقُ
وَالْإِنْتِشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِذِهِ
الصَّنَاعَةِ وَإِعْطَاهُ حَقًّا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَالُوا فَإِنْ اسْتَضَعَبَ
عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يَكْرَهُ نَفْسُهُ عَلَيْهِ وَلَيْكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ
عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْنِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضُهَا وَيَبْنِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ
عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعِبَ عَلَيْهِ وَضَعَهَا فِي مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِي نَافِرَةٌ فَلَقَّةٌ وَإِذَا سَمَحَ
الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَنْسَبِ الَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنْ كُلَّ
بَيْتٍ مُسْتَقِلٌ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ

الْخَلَّاصِ مِنْهُ بِالْتَّنْقِيحِ وَالنَّقْدِ وَلَا يَضُنُّ بِهِ عَلَى التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ إِلَّا جَادَةً فَإِنَّ
 الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتٌ فِكْرُهُ وَأَخْبِرَاعُ قِرْيَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِيهِ مِنَ
 الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِبِ وَالْخَالِصَ مِنَ الزَّرُورَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَيَمْجُرُهَا فَإِنَّهَا
 تَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ وَقَدْ حَظَرَ أَيْمَةُ اللِّسَانِ الْمُؤَلَّدَ مِنْ أَرْتِكَابِ
 الزَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةِ مِنْهَا بِالْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْنَى مِنَ الْمَلَكَةِ وَيَخْتَنِبُ
 أَيْضًا الْمُعْقَدَ مِنَ التَّرَاكِبِ جُهْدُهُ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ الْفَاطِلَةَ إِلَى
 أَلْفِهِمْ وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى أَلْفِهِمْ وَإِنَّمَا
 الْخُحْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ الْفَاطِلَةُ طَبَقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى فَإِنَّ كَانَتْ الْمَعَانِي كَثِيرَةً
 كَانَ حِشْوًا وَاسْتَعْمِلَ الذِّهْنُ بِالْغَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنْعَ الذُّوقَ عَنْ اسْتِيفَاءِ مَذْرَكِهِ مِنَ
 الْبَلَاغَةِ وَلَا يَكُونُ الشَّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ الْفَاطِلَةَ إِلَى الذِّهْنِ وَلِهَذَا
 كَانَ شَيْوُخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَعْبِيُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ ^(١) بِنِ خَفَاجَةِ شَاعِرِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ
 مَعَانِيهِ وَأَزْدِ حَامِيَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعْبِيُونَ شِعْرَ الْهَيْثَبِيِّ وَالْمَعَرِيِّ بِعَدَمِ
 التَّنْجِ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا نَازِلًا عَنْ طَبَقَةِ
 الشَّعْرِ وَالْحَاكِمُ بِذَلِكَ هُوَ الذُّوقُ وَيَخْتَنِبُ الشَّاعِرُ أَيْضًا الْخَوْشِيَّ مِنَ الْفَاطِلَةِ وَالْمُقْصَرَّ
 وَكَذَلِكَ السُّوْقِيُّ الْمُبْتَدِلُ بِالتَّدَاوُلِ بِالِاسْتِعْمَالِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ
 الْبَلَاغَةِ أَيْضًا فَيَصِيرُ مُبْتَدَلًا وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ الْإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمُ النَّارُ حَارَةٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقًا
 وَبِمِقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ الْإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رَتَبَةِ الْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ وَلِهَذَا
 كَانَ الشَّعْرُ فِي الرِّبَابِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ الْإِفَادَةِ فِي الْغَالِبِ وَلَا يَخْتَدُّ فِيهِ إِلَّا
 الْقَوْلُ وَفِي الْقَلِيلِ عَلَى الْعَشْرِ لِأَنَّ مَعَانِيَهَا مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَدَلَةً لَذَلِكَ وَإِذَا
 تَعَدَّرَ الشَّعْرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيُرَاوِضْهُ وَيَعَاوِدْهُ فَإِنَّ الْقَرِيحَةَ مِثْلُ الضَّرْعِ يَدِرُّ بِالْإِمْرَاءِ
 وَيَحِفُّ بِالْتَّرْكِ وَالْإِهْمَالِ وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَعَلِمُهَا مُسْتَوْفَى فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ
 لِأَبْنِ رَشِيْقٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرَنَا بِحَسَبِ الْجُهْدِ وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ
 بِذَلِكَ الْكِتَابِ فَفِيهِ الْبُعْثُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نُبْدَةٌ كَافِيَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَقَدْ نَظَّمَ النَّاسُ
 فِي أَمْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشَّعْرِيَّةِ مَا يَجِبُ فِيهَا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ وَأَخْلَاهُ لِأَبْنِ رَشِيْقٍ

لَعَنَ اللَّهُ صَنَعَةَ الشَّعْرِ مَاذَا مِنْ صُنُوفِ الْجُهَالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مِثْلَنَا
وَيَرْوُونَ الْحَمَالَ مَعْنَى صَحِيحًا وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينًا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْرُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُونَ نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَ
إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا يَنْسَبُ فِي النِّظْمِ وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فَنُونًا
فَاتَى بَعْضُهُ يَشَاكُلُ بَعْضًا وَأَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمَتُونَا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْنًا بَيْنَ النَّازِلِينَ
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ وَجُوهٌ وَالْمَعَانِي رُكْبَانٌ فِيهَا عِوَانَا
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسَبُ الْأَمَانِي يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ الْمُشْتَدُونَ
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشَّعْرِ حُرًّا رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُشْتَمِينَ
جَعَلْتَ السَّيْبَ سَهْلًا قَرِيبًا وَجَعَلْتَ الْمَدِيحَ صِدْقًا مُبِينًا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهْجَى فِي السَّعْرِ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مُؤْذِنًا
وَإِذَا مَا عَرَضَتْ بِهِجَاءُ عِبَتْ فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُؤَقِبِينَ
جَعَلْتَ الصَّرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً وَجَعَلْتَ التَّعْرِيفَ دَاءً دَفِينًا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْعَالَمِ دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَالطَّاعِنِينَ
حَلَّتْ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّتْ مَا كَأَمِنْ مِنَ الدَّمْعِ فِي الْعُيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِبًا جِئْتَ بِالْوَعْدِ وَعَيْدًا وَبِالصُّعُوبَةِ بَيْنَا
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ حَدِرًا أَمِنًا عَزِيزًا مِثْلَنَا
وَأَصَحَّ الْقَرِيبُ مَا قَارَبَ النِّظْمَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا مُسْتَبِينًا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ النَّاسَ طَرًّا وَإِذَا رِيَمَ أَعْجَزَ الدُّهْجِينَ بَيْنَا

ومن ذلك ايضا قول بعضهم

الشَّعْرُ مَا قَوِّمْتَ رَبْعَ صُدُورِهِ وَشَدَدْتَ بِالْهَذِيبِ أَسَ مَتُونِهِ
وَرَأَيْتَ بِالْإِدْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِالْإِيْجَارِ عَوْرَ عِوَانِهِ

وَجَمَعَتْ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيْدِهِ
وَإِذَا مَدَحَتْ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا
أَصْفَيْتَهُ بِتَفَافُشٍ وَرَضِيْتَهُ
فَيَكُونُ جَزَلًا فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَاهْلِهَا
وَإِذَا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيْبَةٍ
فَجَعَلْتَ سَامِعَةً يَشُوبُ شُكُوكَهُ
وَجَمَعَتْ بَيْنَ ثَمَمَةٍ وَمَعِينِهِ
وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دِيُونِهِ
وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّفَاقِ فَنُونِهِ
أَجْرِيْتَ لِلْحَزُونِ مَاءَ شَوْوْنِهِ
بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
بَشُوْنِهِ وَظُنُونِهِ يَبْقِيْنِهِ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

اعلم ان صناعة الكلام نظمًا ونثرًا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما
المعاني تبع لها وهي اصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر
انما يحاولها في الالفاظ يحفظ امثاليها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريته
على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها
في جيله ويقرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها
الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك انا قدّمنا ان اللسان ملكة
من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي
في اللسان والنطق انما هو الالفاظ واما المعاني فهي في الضمائر وايضا فالمعاني
موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج
الى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة
القولب للمعاني فكما ان الاولاني التي يغترف بها الماء من البحر منها انية الذهب
والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاولاني
المملوء بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في
الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد
والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتأليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة
اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض

وَلَا يَسْتَطِيعُ لِفَقْدَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكية بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ كَثَرَةِ الْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعْلَمَ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ وَعَلَى قَدَرِ
جُودَةِ الْحَفْظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جَنْسِهِ وَكَثَرَتِهِ مِنْ قَلَّتِهِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَلَكََةِ الْخَاصَّةِ
عَنْهُ لِلْحَافِظِ فَمَنْ كَانَ مُحَفَّوظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوْ الْعَتَابِيِّ أَوْ ابْنِ الدُّعْزِ أَوْ ابْنِ هَانِيٍّ أَوْ
الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ابْنِ هَارُونَ أَوْ ابْنِ الزِّيَّاتِ أَوْ الْبَدِيعِ
أَوْ الصَّايِّ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجُودَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرَتَبَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ابْنِ
سَهْلٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوْ ابْنِ النَّبِيِّ أَوْ تَرْسُلِ الْبَيْسَانِيِّ أَوْ الْعِمَادِ الْأَصْبَهَانِيِّ لِلزُّوْلِ
طَبَقَةٍ هَؤُلَاءِ عَنْ أَوْلَئِكَ يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلْبَصِيرِ النَّاقِدِ صَاحِبِ الذُّوقِ وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ
الْحَفْظِ أَوْ السَّمْعِ تَكُونُ جُودَةُ الْأَسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ الْمَلَكََةِ مِنْ
بَعْدِهِمَا فَيَا زَنْمَاءَ الْحَفْظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ الْكَلَامِ تَرْتَقِي الْمَلَكََةُ الْخَاصَّةُ لِأَنَّ الطَّبَقَ
إِنَّمَا يَنْسُجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَتَتَمَوَّقُوهُ الْمَلَكََةُ بِتَغْدِيَّتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي
جَبَلَتِهَا وَاحِدَةً بِالنُّوعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الْأَدْرَاكَتِ وَاخْتِلَافِهَا
إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهَا مِنَ الْأَدْرَاكَتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالْأَلْوَانِ الَّتِي تُكَيِّفُهَا
مِنْ خَارِجٍ فَيَهْدِيهِ يَتِمُّ وَجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ صُورَتِهَا وَالْمَلَكَاتُ الَّتِي
تَحْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ عَلَى التَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالْمَلَكََةُ الشَّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ
وَمَلَكََةُ الْكِتَابَةِ بِحِفْظِ الْأَسْجَاعِ وَالتَّرْسِيلِ وَالْعِلْمِيَّةُ بِخَاطَةِ الْعُلُومِ وَالْأَدْرَاكَتِ
وَالْأَنْبَاطِ وَالْأَنْظَارِ وَالْفَقِيَّةُ بِخَاطَةِ الْفَقْهِ وَتَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ الْفُرُوعِ
عَلَى الْأَصُولِ وَالتَّصَوُّفِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِالْعِبَادَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَتَعْطِيلِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ
بِالْخُلُوعِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكََةُ الرُّجُوعِ إِلَى حِسَةِ الْبَاطِنِ
وَرُوحِهِ وَيَتَقَلَّبُ رَبَّانِيًّا وَكَذَا سَائِرُهَا وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْ أَنَّ تَكْيِيفَ بِهِ وَعَلَى
حَسَبِ مَا نَشَأَتِ الْمَلَكََةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكََةُ فِي نَفْسِهَا
فَمَلَكََةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ فِي جَنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ الْعَالِيِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ
الْكَلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا

يَسْبِقُ إِلَى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِئُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ
 أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حِظَّ لَهَا فِي
 الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ الْمَلَكَةُ
 النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ وَهَكَذَا
 تَجِدُ شِعْرَ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَمْ يَمْتَلِئْ مِنْ حِظِّ النِّقْيِ
 الْحَرِّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ رُضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَامَةِ
 بِالْأُلُوَّةِ الْمُرْنِيَّةِ قَالَ ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا الْعَبَّاسِ بْنِ شُعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ
 أَبِي الْحُسَيْنِ وَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي الْبَصْرِ بِاللِّسَانِ لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدَنَاهُ مَطْلَعُ قَصِيدَةِ ابْنِ النَّحْوِيِّ
 وَلَمْ أُنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأُطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِيِ
 فَقَالَ لِي عَلَى الْبَدِيهَةِ هَذَا شِعْرُ فَقِيهِ فَقُلْتُ لَهُ وَمَنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ فَقَالَ مِنْ قَوْلِهِ مَا
 الْفَرْقُ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَقُلْتُ لَهُ اللَّهُ أَبُوكَ
 إِنَّهُ ابْنُ النَّحْوِيِّ . وَآمَّا الْكِتَابُ وَالشُّعْرَاءُ فَلْيَسُوا كَذَلِكَ لِتَغْيِيرِهِمْ فِي مَحْفُوظِهِمْ
 وَمُخَالَطَتِهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّرْسُلِ وَاتِّقَائِهِمْ لَهُمْ الْجِدِّ مِنَ الْكَلَامِ .
 ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَزَيْرَ الْمُلُوكِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي
 الْأَخْمَرِ وَكَانَ الصِّدْرُ الْمُقَدَّمُ فِي الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ أَجِدَ اسْتِصْعَابًا عَلَيَّ فِي
 نَظْمِ الشُّعْرِ مَتَى رُمَتْهُ مَعَ بَصَرِي بِهِ وَحَنَظِي لِلْجِدِّ مِنَ الْكَلَامِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَفُنُونِ
 مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظِي قَلِيلًا وَإِنَّمَا أَتَيْتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ قَبْلِ مَا حَصَلَ فِي
 حَنَظِي مِنَ الْأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ النَّائِلِيَّةِ فَإِنِّي حَفِظْتُ قَصِيدَتِي الشَّاطِئِي الْكُبْرَى
 وَالصُّغْرَى فِي الْقُرَاءَاتِ وَتَدَارَسْتُ كِتَابِي ابْنَ الْحَاجِبِ فِي الْفَقْهِ وَالْأُصُولِ وَجَمَلَ
 الْخَوَاصِّ فِي الْمَنْطِقِ وَبَعْضَ كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَكَثِيرًا مِنْ قَوَانِينِ الْعَلِيمِ فِي الْجَمَالِ
 فَأَمْتَلًا مَحْفُوظِي مِنْ ذَلِكَ وَخُدِشَ وَجْهُ الْمَلَكَةِ الَّتِي اسْتَعَدَدْتُ لَهَا بِالْمَحْفُوظِ الْجِدِّ مِنَ
 الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ تُعَاقُ الْقَرِيحَةَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَنْظُرُ إِلَيَّ سَاعَةً مُعْجِبًا ثُمَّ قَالَ
 لِلَّهِ أَنْتَ وَهَلْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا مِثْلُكَ . وَيُظْهِرُ لَكَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ وَمَا تَقَرَّرَ فِيهِ سِرٌّ آخَرُ
 وَهُوَ إِعْطَاءُ السَّبَبِ فِي أَنَّ كَلَامَ الْأَيْسَلَامِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ أَعْلَى طَبَقَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ وَأَذْوَقِهَا

مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَعُمَرَ بْنِ
 أَبِي رَيْعَةَ وَالْخَطِيبَةَ وَجَرِيرَ وَالْفَرَزْدَقَ وَنُصَيْبَ وَغِيلَانَ ذِي الرُّمَّةَ وَالْأَحْوَصَ وَبِشَارَ
 ثُمَّ كَلَامَ السَّلَفِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَصَدْرًا مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي
 خُطْبِهِمْ وَتَرْسِيلِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ لِلْمُلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ وَعَنْدَرَةَ
 وَابْنَ كُلْثُومٍ وَزُهَيْرَ وَعَلْقَمَةَ بِنْتِ عَبْدِ وَطَرَفَةَ بِنْتِ عَبْدِ وَمِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَثُورِهِمْ
 وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَالطَّبِيعُ السَّلِيمُ وَالذُّوقُ الصَّحِيحُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ لِلنَّاقِدِ الْبَصِيرِ بِالْبَلَاغَةِ وَالسَّبَبِ
 فِي ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ سَمِعُوا الطَّبَقَةَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ
 وَالْحَدِيثِ الَّذِينَ عَجَزَ الْبَشَرُ عَنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلَيْهِمَا لِكُونِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَأَتْ
 عَلَى أَسَالِيهَا تُؤَسِّسُهُمْ فَتَهَضَّتْ طِبَاعُهُمْ وَأَرْزَقَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى
 مَلَكَاتٍ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا
 فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَتَرْجَمِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةً وَأَصْنَى رَوْنَقًا مِنْ أَوْلَئِكَ وَأَرَصَفَ
 مَبْنًى وَأَعْدَلَ تَثْقِيفًا بِمَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَالِي الطَّبَقَةَ وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ يَشْهَدُ لَكَ
 بِهِ ذَوْقُكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ وَالْبَصَرِ بِالْبَلَاغَةِ وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا الشَّرِيفَ
 أَبَا الْقَاسِمِ قَاضِي غَرْنَاطَةَ لِعَهْدِنَا وَكَانَ شَيْخَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ
 مُشَيْخَتِهَا مِنْ تَلَامِيذِ السَّلَوِيِّينَ وَاسْتَجَبَّ فِي عِلْمِ اللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْعَالِيَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ
 يَوْمًا مَا بَالُ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ وَلَمْ يَكُنْ
 لِيَسْتَنْكَرَ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي فَقُلْتُ أَعْرِضْ عَلَيْكَ
 شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذَلِكَ وَلَعَلَّهُ السَّبَبُ فِيهِ وَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُجِيبًا
 ثُمَّ قَالَ لِي يَا فقيهَ هَذَا كَلَامٍ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِالزُّهْبِ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤَثِّرُ
 مُحَلِّي وَيُصَيِّغُ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِالنَّبَاهَةِ فِي الْعُلُومِ وَاللَّهُ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن اتحال الشعر

اعْلَمْ أَنَّ الشَّعْرَ كَانَ دِيْوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكْمُهُمْ وَكَانَ رُؤْسَاءَ
 الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ فِيهِ وَكَانُوا يَقِفُونَ بِسُوقِ عِكَاظٍ لَا نُسَادَهُ وَعَرَضِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

دِيَابَجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ الْبَصْرِ لِيُمَيِّزَ حَوْلَهُ حَتَّى أَنْتَهَوْا إِلَى الْمُنَاغَاةِ فِي تَعْلِيْقِ
 أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حُجَّتِهِمْ وَبَيْتِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ
 ابْنُ حَجْرٍ وَالتَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ
 وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِةٍ وَالْأَعَشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْلَقَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ
 إِلَى تَعْلِيْقِ الشَّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصِيَّتِهِ وَمَسْكَانِهِ فِي مَضَرٍّ عَلَى
 مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمُعْلَقَاتِ ثُمَّ انْصَرَفَ الْعَرَبُ عَنْ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ بِمَا
 شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَمَا أَدهَشَهُمْ مِنْ أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنُظْمِهِ
 فَأَخْرَجُوا عَنْ ذَلِكَ وَسَكَنُوا عَنِ الْخُلُوصِ فِي النُّظْمِ وَالنَّثْرِ زَمَانًا ثُمَّ اسْتَقَرَّ ذَلِكَ وَأَوَلَسَ
 الرُّشْدُ مِنَ الْمِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ الشَّعْرِ وَحُظْرِهِ وَسَمِعَهُ الذُّبْيَانِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دِينِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ كَبِيرُ
 قُرَيْشٍ لِذَلِكَ الْعَهْدِ مَقَامَاتٍ فِيهِ عَالِيَةً وَطَبَقَةً مَرْتَفَعَةً وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُعْرَضُ شِعْرُهُ عَلَى
 ابْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِاسْتِغْنَائِهِ مُعْجِبًا بِهِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَالِدُ الْوَلَةِ الْعَزِيزَةُ
 وَاتَّقَرَّبَ إِلَيْهِمُ الْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ يَمْتَدِّحُونَهُمْ بِهَا وَيُعْزِزُهُمُ الْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ الْجَوَائِزِ عَلَى
 نِسْبَةِ الْجُودَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَسْكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَحْرِصُونَ عَلَى اسْتِئْذَانِ أَشْعَارِهِمْ بِطَالِعُونَ
 مِنْهَا عَلَى الْأَنَارِ وَالْأَخْبَارِ وَاللُّغَةِ وَشَرَفِ اللِّسَانِ وَالْعَرَبُ بِطَالِبُونَ وَلَدَهُمْ بِحِفْظِهَا وَلَمْ
 يَزَلْ هَذَا الشَّانُ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةٍ وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ الْعَقْدِ
 فِي مُسَامَرَةِ الرَّشِيدِ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّ فِي بَابِ الشَّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ تَجِدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ مِنَ
 الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ وَالرُّسُوخِ فِيهِ وَالْعَنَافَةِ بِالنَّحْلِ وَالْبَصْرِ بِجِدِّ الْكَلَامِ وَرَدِّيهِ وَكَثْرَةِ
 مُحْفُوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ اللِّسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ الْجُمُوعَةِ وَتَقْصِيرِهَا
 بِاللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أُمَرَاءَ الْعَجَمِ الَّذِينَ لَيْسَ اللِّسَانُ لَهُمْ
 طَالِبِينَ مَعْرِفَتِهِمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَالتَّبَعِيُّ وَالْمُتَنَبِّيُّ
 وَابْنُ هَانِيٍّ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا فَصَارَ غَرَضُ الشَّعْرِ فِي الْعَالِيَةِ إِنَّمَا هُوَ الْكَذِبُ
 وَالْاسْتِجْدَاءُ لِلْهَابِ الْمُنَافِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أُنْفَاءً وَأَنْفَ مِنْهُ لِنَظَرِ
 أَهْلِ الْعَهْرِ وَالْمَرَاتِبِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغْيَرُ الْحَالُ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي الرِّئَاسَةِ
 وَمَدْمَةً لِأَهْلِ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرَةِ وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

اعلم ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية
أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسطو في كتاب
المنطق أومبروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حدير أيضاً شعراء متقدمون ولما قسد
لسان مضر ولغتهم التي دوت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب
ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت يحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم
من مضر في الإعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات
وكذلك ألحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب
وأكثر الأوضاع والتعاريف وخالفت أيضاً لغة الجبل من العرب لهذا العهد
وأختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الأفاق فالأهل الشرق وأمصاره لغة
غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفتهم أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره ثم لما
كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في
أعداد المخارج والسواكن وتماثلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر
يفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا تحولوه وفروسان ميدانه حسبما اشتهر
بين أهل الخليقة بل كل جبل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والخصر
أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيئ كلامهم
فأما العرب أهل هذا الجبل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر
لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه
بالمطولات مستملة على مذاهب الشعر وأغراضه من التسيب والمدح والرياء
والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام وربما هجموا على
المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك
ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة إلى
الاصمعي زاوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من
الشعر بالبدوي وربما يلحون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم

يُغْنُونَ بِهِ وَيُسَمُّونَ الْغَنَاءَ بِهِ بِاسْمِ الْخُورَانِي نِسْبَةً إِلَى خُورَانَ مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَمَسَاكِينِهِمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَلَهُمْ قُرْبُ أَخَرٍ كَثِيرٌ
الَّذِينَ فِي نَظْمِهِمْ يَجْعَلُونَ بِهِ مُعَصَّبًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ يُخَالِفُ آخِرُهَا الثَّلَاثَةَ فِي رُويِهِ
وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَةَ الرَّابِعَةَ فِي كُلِّ بَيْتٍ إِلَى آخِرِ الْقَصِيدَةِ شَبِيهَا بِالْمُرْبَعِ وَالْخُمْسِ
الَّذِي أَحَدُهُ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْمُؤَلِّدِينَ وَالْأَوَّلَاءِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الشَّعْرِ بِالْبَلَاغَةِ فَائِقَةٍ
وَفِيهِمْ الْفُحُولُ وَالْمُتَأَخَّرُونَ وَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُتَحَلِّينَ لِلْعُلُومِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَخُصُوصًا عِلْمُ
اللِّسَانِ يَسْتَنْكِرُ صَاحِبُهَا هَذِهِ الْفُنُونِ أَلَّا لَهَا إِذَا سَمِعَهَا وَيَجْعَلُ نَظْمَهُمْ إِذَا أُنْشِدَ وَيَعْتَقِدُ
أَنَّ ذَوْقَهُ إِنَّمَا نَبَأَ عَنْهَا لِاسْتِجَابَتِهَا وَفَقْدَانِ الْإِعْرَابِ مِنْهَا وَهَذَا إِنَّمَا أَتَى مِنْ فَقْدَانِ
الْمَلَكَةِ فِي لُغَتِهِمْ فَلَوْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَشَهِدَ لَهُ طَبْعُهُ وَذَوْقُهُ بِبِلَاغَتِهَا
إِنْ كَانَ سَلِيمًا مِنَ الْآفَاتِ فِي فِطْرَتِهِ وَنَظَرِهِ وَإِلَّا فَلَا إِعْرَابَ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْبَلَاغَةِ
إِنَّمَا الْبَلَاغَةُ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَقْصُودِ وَلِمُقْتَضَى الْحَالِ مِنَ الوجودِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ
الرَّفْعُ دَالًّا عَلَى الْفَاعِلِ وَالنَّصْبُ دَالًّا عَلَى الْمَفْعُولِ أَوْ بِالْعَكْسِ وَإِنَّمَا يُدْلُّ عَلَى ذَلِكَ
قَرَائِنُ الْكَلَامِ كَمَا هُوَ فِي لُغَتِهِمْ هَذِهِ فَالدَّلَالَةُ بِحَسَبِ مَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَلَكَةِ
فَإِذَا عُرِفَ أَصْطِلَاحُ فِي مَلَكَةٍ وَاشْتَهَرَ صِحَّةُ الدَّلَالَةِ وَإِذَا طَاقَتْ تِلْكَ الدَّلَالَةُ
الْمَقْصُودَ وَمُقْتَضَى الْحَالِ صَحَّتِ الْبَلَاغَةُ وَلَا عِبْرَةَ بِقَوَائِنِ النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ وَأَسَالِبُ الشَّعْرِ
وَفُنُونُهُ مَوْجُودَةٌ فِي أَشْعَارِهِمْ هَذِهِ مَا عَدَا حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَإِنَّ
غَالِبَ كَلِمَاتِهِمْ مَوْفُوقَةٌ الْآخِرِ وَبِمَيَّزٍ عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ
يَقْرَأُ الْكَلَامَ لَا يَحْرُكَتِ الْإِعْرَابُ

(الموشحات والازجال للاندلس)

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي فِطْرِهِمْ وَتَهَدَّبَتْ مَنَاحِيهِ وَفُنُونُهُ وَبَلَغَ
النَّتْمِيقُ فِيهِ الْعُلَايَةُ اسْتَحْدَثَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ فَنَاءً مِنْهُ سَمُوهُ بِالْمَوْشَحِ يَنْظُمُونَهُ أَسْمَاطًا
أَسْمَاطًا وَأَعْصَانًا أَغْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْ أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَيُسَمُّونَ الْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا بَيْتًا
وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَائِنِ تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُثَالًا فِيهَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ
وَأَكْثَرُ مَا تَنْتَهِي عَنْهُمْ إِلَى سَبْعَةِ آيَاتٍ وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ عَدَدِهَا
بِحَسَبِ الْأَعْرَاسِ وَالْمَدَاهِبِ وَيَتَسَبَّوْنَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ وَتَجَارُوا

فِي ذَلِكَ إِلَى الْعَالِيَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً اخْلَاصَةً وَالْكَافَّةَ لِسُوءَةِ تَنَاوُلِهِ وَفُرْبِ طَرِيقِهِ وَكَانَ اخْتَرَعُ لَهَا بِحْزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ مُقَدِّمَ بْنِ مُعَاوِرَ الْفَرِيرِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لِهَمَا مَعَ الْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مُوشِحَتُهُمَا فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقَرَّازِ شَاعِرِ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ صَادِحٍ صَاحِبِ الْمِرْيَةِ

بدرُ تم . شمسُ ضحا . غصنُ نقا . مسكُ شم

ما اتم . ما اوضحا . ما اورقا . ما انم

لا جرم . من لحما . قد عشقا . قد حرم

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَاحُ مِنْ مُعَاوِرِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَائِفِ وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْوُشَّاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِأَسْطُورِيَّةٍ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَصْطَنَعَ مُوشِحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا فَتَقَدَّمَ الْأَعْمَى الطَّلِيطِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مُوشِحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ يَقُولُهُ ضَاكُ عَنْ جَمَان . سَافِرٌ عَنْ دُرٍّ ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَان . وَحَوَاهُ صَدْرِي

صَرَفَ ابْنُ بَقِيٍّ مُوشِحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحًا عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابْنُ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يَلْحَقُ أَطْلَعَهُ الْغَرْبُ . فَأَرَانَا مِثْلَهُ بِأَمَشْرِقٍ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ الْمُوشِحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَيْضُ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا أَيْضًا الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ خَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْفَلُوتٍ صَاحِبِ سِرْقَسْطَةَ فَأُلْقِيَ عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مُوشِحَتَهُ جَرَّرَ الدَّبْلَ أَيْمًا جَرَّ وَصَلَ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

فَطَرَبَ الْمَمْدُوحُ لِذَلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا يَقُولُهُ

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النَّصْرِ لِأَمِيرِ الْعَلَاءِ أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ ذَلِكَ التَّلَحُّنُ سَمِعَ ابْنَ تَيْفَلُوتٍ صَاحَ وَاطْرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفْتَ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلُظَةِ لَا يَمْشِي ابْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى الذَّمِّ فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَأَحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ

وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهَيْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ الْأَيْضُ
 الْوُشَّاحِ الْمَتَّقِمِ الَّذِي كَرِهَ نَعَصَ مِنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ نَعَصُ مِنْهُ يَقُولُ
 مَا لَذِي شَرَابٍ رَاحَ " عَلَى رِيَاضِ الْأَفَاحِ لَوْلَا هَضِيمُ الْوُشَّاحِ " إِذَا أَسَا فِي الصَّبَاحِ
 أَوْ فِي الْأَصِيلِ " أَخَصَّنِي يَقُولُ مَا لِلشَّعُولِ " لَطَمْتَ خَدَيْ
 وَلِلشَّعَالِ " هَمَّتْ فَمَالِي غُصْنُ اعْتِدَالٍ " ضَمَّةٌ بَرْدِي
 مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا " يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيَا يَا لِحِظَةِ رُدِّ ثُوبَا " وَيَا لِمَاهُ الشَّيْبَا
 بَرْدٌ غَالِي " صَبَّ عَلِيلٌ لَا يَسْتَحِيلُ " فِيهِ عَنِّ عَهْدِي
 وَلَا يَزَالُ فِي كُلِّ حَالٍ يَرْجُو الْوَصَالَ " وَهُوَ فِي الصَّدِّ
 وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرَفٍ قَالَ
 الْحَسَنُ بْنُ دَوْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْإِفْتِتَاحِ

شمس قاربت بدرًا راحٌ ونديمٌ

وابن مبرودس الذي له ياليلة الوصل والسعود بالله عودي

وَأَبْنُ مُوَهَّلٍ الَّذِي لَهُ مَا أَلْعِدُّ فِي حَالَةٍ وَطَاقٍ وَشَمٌّ وَطَيْبٌ وَإِنَّمَا الْعِيدُ فِي التَّلَاقِ مَعَ الْحَبِيبِ
 وَأَبُو اسْتِخَاقِ الرُّومِيُّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى
 ابْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحُصْنِ سَبْتَةَ فَلَمَّ يَعْرِفُهُ
 فَجَلَسَ حَيْثُ أَنْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَّتِ الْمُخَاصَرَةُ فَأَنشَدَ لِنَفْسِهِ مَوْشِحَةً وَقَعَ فِيهَا
 كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي " مِنْ مَقْلَةٍ الْفَجْرِ " عَلَى الصَّبَاحِ

وَمَعْصَمُ النَّهْرِ " فِي حُلِّ خُضْرٍ " مِنَ الْبَطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا قَالَ اخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَفَهُ فَقَالَ أَرْتَفَعُ
 فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلَمَةِ الَّذِي أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ زُهَيْرٍ
 وَقَدْ شَرَفَتْ مَوْشِحَاتُهُ وَغَرَبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ
 زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعُ وَأَرْفَعُ مَا وَقَعَ لَكَ فِي النَّوْشِيعِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

مَا لِلْمَوْلَى مِنْ سَكْرِهِ لَا يَفِيْقُ يَالَهُ سَكْرَانُ مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ مَا لِلْكُثِيبِ الْمَشُوقِ يَنْدُبُ الْاَوْطَانَ

هل تستعاد يا مائنا بالخليج . وليا لنا

او نستفاد . من النسيم الاربيع . مسك دارينا

واد يكاد . حُسْنُ الْمَكَانِ الْبَيْحُ . ان يُحْيِنَا

نَهْرُ اِظْلَةٍ . دَوْحٌ عَلَيْهِ اَنْبِقُ . مَوْرِقُ فَيْتَانِ . وَالْمَاءُ يَجْرِي . وَعَائِمٌ وَعَرِيقُ . مَنْ جَنَى الرَّيْحَانِ
وَمِنْ مَحَاسِنِ الْمَوْشِحَاتِ لِلْمَتَاخِرِينَ مَوْشِحُهُ ابْنُ سَهْلٍ شَاعِرُ أَشْبِيلَةَ وَسَبْتَةَ مِنْ
بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ

هَلْ دَرِي ظَنِّي الْحَمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَهُ عَنْ مَكْنَسِ
فَهُوَ فِي نَارٍ وَخَفِيَ مِثْلَ مَا لَعِبْتُ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
وَقَدْ لَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ الْأَنْدَلُسِ
وَالْمَغْرِبِ لِعَصْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلُ بِالْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلَكَ إِلَّا حُلُمًا فِي الْكُرَى أَوْ خِلْسَةِ الْخُتْلُسِ
إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى يَنْقُلُ الْخَطُوعَ عَلَى مَا يَرْسِمُ
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثَنَا مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودَ الْمَوْسِمُ
وَالْحَيَا قَدْ جَلَّ الرُّوضِ سَنَى فَتُغَوِّرُ الزَّهْرُ فِيهِ تَبْسِمُ
وَرَوَى النِّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَرُوي مَالِكٌ عَنْ أَسَى
فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمًا يَزِدُّهُ مِنْهُ بِأَبْعَى مَلْبَسِ
فِي لِبَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الْهَوَى بِالْأَدَجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَرِ
مَالَ نَجْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى مُسْتَقِيمُ السَّيْرِ سَعْدَ الْأَثَرِ
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سَوَى أَنَّهُ مَرَّ كَلَمَجِ الْبَصْرِ
حِينَ لَدَّ النَّوْمُ مِنَّا أَوْ كَمَا هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَ الْحَرَسِ
غَارَتْ الشُّهُبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا أَثَرَتْ فِينَا عَيُونُ النَّارِجِسِ
أَيُّ شَيْءٍ لَأَمْرِي قَدْ خَلَصَا فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
تَهَبُّ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرْصَا أَمَنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا أَتَقِيهِ
فَإِذَا الْمَاءُ يُنَاجِي وَالْحَصَا وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرِمَا يَكْتَسِي مِنْ غِيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
وَتَرَى الْأَسَّ لَيْبًا فِهَمَا يَسْرِقُ الدَّمْعُ بِأَذْنِي فَرَسِ

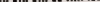
يَا أَهْلَ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْغَضَا
ضَاقَ عَنِ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْغَضَا
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أَنَسٍ قَدْ مَضَى
وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
وَيَقْلِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبُ
قَمَرًا أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ
سَاحَرُ الْمُقَلَّةِ مَعْسُولُ اللَّهِ
سَدَدَ السَّهْمِ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَلِئُ
حَكَمِ اللَّحْظِ بِهَا فَأَحْتَكَمَا
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَلَمَا
مَا لِقَابِي كُلَّمَا هَبَتْ صَبَا
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا
جَلَبَ اللَّهُمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا
لَا عَجْ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرِمَا
لَمْ يَدْعُ مِنْ مُهْجِي إِلَّا الدَّمَ
سَلِمِي يَا نَفْسَ فِي حُكْمِ الْقَضَا
وَأَتْرُكِي ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى
وَأَصْرِ فِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرَّضَى
الْكَرِيمِ الْمُنْتَهَى وَالْمُنْتَمَى
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا

وَيَقْلِي مَسْكِينُ أَنْتُمْ بِهِ
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
تُنْقِدُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسِ
أَفْتَرِضُونَ خَرَابَ الْحَبْسِ
يَا حَادِثَ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
شَقْوَةِ الْمُغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدُ
جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالُ النَّفْسِ
يَفُودَايَ نَبْلَةُ الْمُفْتَرِسِ
وَفُؤَادُ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَذُوبُ
لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِحَبُوبٍ ذَنْبُ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبُ
لَمْ يَرَأَقِبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ
وَيَجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمُسِي
عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ
قَوْلُهُ إِنْ عَدَايَ لَشَدِيدُ
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهْدُ
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَسْرِ
كِبْقَاءُ الصُّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ
وَأَعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابُ
بَيْنَ عَتَمِي قَدْ نَفَضْتُ وَعَتَابُ
مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ
أَسَدِ السَّرَجِ وَبَدْرِ الْمَجَالِسِ
يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تُحْصَلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ اللُّغَةَ وَكَثُرَ
 اسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحْصَلَ مَلَكَتُهَا كَمَا قُلْنَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
 فَلَا أَلْتَدْرِي بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَا الْمَغْرِبِيِّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ
 أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ وَلَا الْمَشْرِقِيِّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّ
 اللِّسَانَ الْخَصْرِيَّ وَتَرَاجُمَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ
 لِمَحَاسِنِ الشَّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ
 وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كُنَّا نَخْرُجُ عَنِ الْغَرَضِ وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي
 هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ
 مَا حَسَبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِنْ يَوْمِئِذٍ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مَبِينٍ يَغُوصُ
 مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرِ مَا كَتَبْنَا فَلْيَسَّ عَلَى مُسْتَنْبِطِ الْفَنِّ احْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ
 تَعْيِينَ مَوْضِعِ الْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُصُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَالْمَتَأَخِّرُونَ يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ
 بَعْدِهِ شَبْهًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه أتمت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل النسخ
 والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعائة ثم نقحته بعد
 ذلك وهذبتة ولحقت به تواريج الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند
 الله العزيز الحكيم

لقد تم بحوله تعالى طبع هذا الكتاب طبعة ثالثة في المطبعة الادبية وعلى نفقتها نزفه
 الى طلبة اللغة العربية الشريفة تحفة كريمة من تحف المتقدمين نهديه للتأخرين مثلاً يقتدى
 به ومنوالاً ينسجون عليه وقد عني بشكله جناب الكاتب البليغ رشيد افندي عطيه احد
 محرري جريدة لسان الحال ثم نظر فيه وصحح ما احالته عن اصله ايدي النساخ والطباع
 جناب العالم المدقق واللغوي المحقق الكاتب البليغ العلم عبدالله افندي البستاني متوخياً
 بذلك خدمة خالصة للعلم والادب نسأله تعالى ان يثيبه على هذه الخدمة النافعة وينفعنا
 بمعارفه وقد جعلنا ثمن النسخة من هذا الكتاب خمسة وعشرين غرشاً تسهيلاً لافتنائهم ولا
 سيما لتلامذة المدارس ومن طلب منه كمية تفوق الخمسين نسخة جعلنا له اسقاطاً لقاء اهتمامه
 نسأله تعالى ان يوفقنا الى ما فيه خدمة الدولة العلية والوطن



Mugaddimat

JUL 31 2009		
SEP 03 2009		
OCT 26 2009		
GAYLORD		PRINTED IN U.S.A.

PRINTED IN U.S.A.

mt
02112104



